دكتور حسين مؤنس

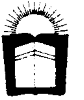
فجر الأندلس

دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي
إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦م)



الطبعة الثانية

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



الدار السعودية
للنشر والتوزيع

جدة

الإدارة : البغدادية - عمارة الجوهرة
تليفون : ٦٤٣٢٨٢١ / ٦٤٢٤٠٤٣/ ٦٤٢٤٢٥٥
تلكس : ٤٠٤٣٥١ نشرا
ص.ب : ٢٠٤٣/ ٢١٤٥١ ، برقيا : نشردار
المستودعات : طريق مكة المكرمة . شرق المطار القديم
المكتبات : ١ - شارع الملك عبد العزيز ، تليفون : ٦٤٧٨٧٢٣
٢ - شارع فلسطين ، مركز الزومان ، تليفون : ٦٦٠٨٩٦٤

الدمام : الشارع العام ، ص . ب : ٨٩٩
تليفون : ٨٣٢٣٥١٥ / ٨٣٣٥٥٢٠

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين :

وبعد ، فان الحاجة ماسة الى تاريخ عام للأندلس منذ الفتح الاسلامى الى نهاية مملكة غرناطة ، مع دراسة لأحوال المسلمين الذين تخلفوا فيه بعد ذلك ، وما كان للأندلس الاسلامى المجيد من آثار باقية بعيدة المدى فى تاريخ الحضارة الانسانية .

وقد بدأت هذا الكتاب ، الذى أقدمه اليوم للقراء ، على نية أن أسد به هذا الفراغ ؛ ولكنى لم أكد أمضى فى الدراسة حتى تبينت أن الايجاز الذى تتطلبه التواريخ العامة يخفى معظم جوانب الجمال فى تاريخ هذا الفردوس الاسلامى المفقود ، اذ أنه كان قطرا فريدا فى بابه فى دولة الاسلام : أهله مزاج من عناصر أوروپية وأخرى شرقية ، وحضارته ثمرة تزاوج فكرى بين الـ ق والغرب على نحو قل أن نجد له مثالا فى بلد آخر من بلاد الاسلام ، وتاريخه لهذا عميق عريض ، تنفرد كل ناحية منه بخصائص ومميزات جديرة بالبحث والتأمل والاعجاب ، وهذه الخصائص لا تستبين الا بالدرس المستأنى الصبور الذى يتعرض للمشاكل ويحاول حلها ، ويقف عند النواحى الغامضة ويجتهد فى أن يجليها ، ولا يستطرد عن العسير الى اليسير ، ولا يقنع

من التأريخ بالسرد والاسترسال . ولهذا فقد نزعت عن التأريخ العام الى الدراسة المفصلة لعصر واحد من عصــور تاريخ الأندلس ، هو عصر الولاة من قبيل الفتح العربى الى قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن ابن معاوية الداخل .

وربما بدا للقارىء أننى ذهبت مع التفصيل الى مداه ، حينما أنفقت قرابة السبعمائة صفحة فى دراسة تاريخ خمس وأربعين سنة ، ولكننى أعتقد رغم ذلك أن هــذه السنوات لازالت فى حاجــة الى مزيد من التفصيل ، وكل فصل من فصول هذا الكتاب حقيق بأن يوقف عليه كتاب كامل ، ولدينا المادة التاريخية لذلك .

وقد تبينا من تجاربنا فى دراسة تاريخنا الاسلامى أن السبب الأكبر فيما يشوبه منغموض ، وفيما يفضى بالكثير ممن تعرضوا للكتابة فيه الى الزلل ، هو اهمال دراسة العصور الأولى ، وهى عصور قيام الدولة والمجتمع الاسلاميين وتكوّن العناصر التى قامت عليها الدولة واستقرار الأسس التى استقام عليها المجتمع ، سواء أكانت هذه العناصر بشرية أم تنظيمية ، سياسية وادارية أم فكرية تتصل بالانتاج العقلى والفنى . واذا لم تظفر هذه العصور بحقها من العناية ، واذا لم تدرس على الأصول التى ينبغى أن تقوم عليها الدراسات ، لم يؤمن الزلل فيما يكتب بعد ذلك من تواريخ العصور التى تليها ، وهذا ظاهر فيما بين أيدينا من كتب فى تاريخ الاسلام العام أو تأريخ أقطاره : معظمها سرد واسترسال مع السهل الميسور من تسجيل الحوادث ، وسير مع تيار تاريخى لا يعرف اتجاهه ولا مبتداه أو منتهاه .

ولهذا ، فقد رأيت فيما يتصل بتاريخ الأندلس أن أبدأ من حيث

ينبغى أن يكون البدء ، وأن أنتفع بكل ما وصل الىّ من مادة تاريخية غزيرة ، وأن أتعرض للمشاكل وأحاول حلها على قدر ما تعين عليــه المراجع والأصول . ويرى القارىء ذلك بصورة خاصة فيما كتبته عن عناصر السكان وأصول التنظيم الادارى والمالى ، وقد اقتضانى ذلك أن أرجع بالأشياء الى أصولها البعيدة الخافية فى ليل الزمان الطويل ، وربما تتبعتها فى تطورها عشرات السنين بعد العصر الذى يعنينى فى هذا الكتاب ؛ ولم يكن من ذلك مفر ، فان ظواهر التاريخ لا تطفر من الأرض ، بل تنبع من أصــول وتمضى فى خطوط تحــددها الظروف والأحداث . وقد وصلت فيما تعرضت له من مشاكل الى حلول أرجو أن تعين العاملين على تاريخ الأندلس خاصة والاسلام عامة فيما يتولون من دراسات .

وعلى أساس من النتائج التى انتهيت اليها فى هذا البحث ، أرجو أن أستطيع الوفاء بما وعدت به من كتابة تاريخ عام للأندلس الاسلامى المجيــد .

ولابد أن أوجه الشكر فى هذا التقديم اليسير الى الصــديقين الأستاذين مصطفى عبد المجيد صالح وحسن ايرانى ، فقد تفضل الأول بالاشراف على الطبع ، وشاء طموح الثانى — كناشر حريص على سمعة الكتاب العربى — أن يخرج الكتاب فى هذا الثوب الجميل . والله أسأل أن يوفقنا الى ما فيه خير الاسلام والعرب والمسلمين .

مدريد ، مارس ١٩٥٩ — حسين مؤنس

الفصل الأول

إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي

١ – القوط الغربيون فى أواخر أيامهم

فى أواخر القرن الرابع الميلادى ، استطاع القوط الغربيون بقيادة ألاريك أن يسيطروا على مصائر القسم الغربى من الدولة الرومانية ، ذلك أن الإمبراطور تيودوسيوس كان قد وصل إلى عرش الإمبراطورية معتمداً على تأييدهم وتأييد من انضم إليهم من طوائف المتبربرين من الآلان والهون وبقايا الوندال ، فجعل يمالئهم على أهل البلاد الأصليين من الرومان ، حتى إذا توفى تيودوسيوس سنة ٣٩٥ كان ألاريك قائد القوط الغربيين قد أصبح أقوى شخصية فى وسط أوروبا وغربها جميعاً .

وكان إمبراطور الجزء الغربى من الدولة الرومانية « هونوريوس بن تيودوسيوس » قد عهد فى قيادة جيوشه إلى وندالى ماهر هو ستليخو ، وكان ألاريك يحسده وينازعه ويود لو حل محله ، وكان ستليخو يعرف أطماع ألاريك ومن معه من القوط الغربيين ويحاول أن يدفع عن الدولة شره وشرهم ، ولكن هونوريوس تخلى عن قائده واتهمه بالخيانة وأعدمه فى سنة ٤٠٨ ، وبهذا أزال من وجه ألاريك القوة الوحيدة التى كانت قمينة أن تحول بينه وبين إيطاليا لو أراد غزوها ، ولم يكذب ألاريك أن جمع جنده وتحرك نحو الغرب ، وخاف هونوريوس شره فغادر روما وتحصن فى رافنا فى شمالى إيطاليا ، وأخذ ألاريك يهاجم روما المرة بعد المرة وأهلها يدافعونه عن أنفسهم بالمال مرة وبالجند مرة أخرى ، ولكنهم انتهوا آخر الأمر إلى الهزيمة ، فاقتحم ألاريك ومن معه من القوط الغربيين المدينة الخالدة سنة ٤١٠ ، وأصبح غرب أوروبا جميعه تحت رحمته ، فأخذ يخرب شمالى إيطاليا تخريباً سيئاً ، ولم ينقذ إيطاليا من مساءاته إلا موته بعد ذلك بقليل (١) .

(١) FERDINAND LOT. *La fin du monde Antique et le début du moyen-âge.* (Paris, 1927) pp. 233-242.

وخلفه فى قيادة القوط الغربيين ومن معهم من شراذم المتبربرين أطاوولف ، فجرى على منواله وأنزل بإيطاليا بلاء شديداً ، ثم اتجه بجموعه نحو غالة ، وعبر إلى إسبانيا وأخذ ينازع من استقر فيها من القوط الشرقيين ومن معهم من السويف والوندال ، واضطرت الدولة آخر الأمر إلى مهادنة أطاوولف وإقراره فى الجزء الجنوبى من غالة فى الإقليم المحيط بتولوز (طولوشة) سنة ٤١٦ — ٤١٨ م .

وكانت جماعات القوط الشرقيين المستقرة فى إسبانيا فى ذلك الحين قليلة العدد ، وكان مقامها فى الزاوية الشمالية الشرقية جنوبى جبال البرت (التى تعرف خطأ بالبرانس) ، أما السويف والوندال فكانوا أكثر عدداً ، وكانوا قد استقروا فى الركن الشمالى الغربى فيما يعرف بجليقية وأشتورياس (أو أشتريس) ، وكانت الدولة قد سمحت لهم بالاستقرار فى هذه النواحى فى سنة ٤١١ ، واشترطت عليهم أن لا يغيروا على ما جاورهم من البلاد ، ولكنهم لم يراعوا هذا الشرط وروعوا بقية الجزيرة الأندلسية وجنوبى غالة بغاراتهم . وكان الوندال مسيطرين على شرق الجزيرة ووسطها ، ولم يكونوا أحسن حالا من السويف والآلان ، فجعلوا هم الآخرون يغيرون على جنوبى غالة وحوض الرون ، وما زالت هذه الجموع المتبربرة تشتد فى أعمال التخريب حتى كادت تقضى على كل أثر للاستقرار والحضارة فى الجزيرة الإيبيرية كلها .

فلما أقرت الدولة أطاوولف وأصحابه القوط الغربيين جنوبى غالة سلطوهم على طوائف المتبربرين التى تسكن إسبانيا ، فأعلنوا عليها حرباً شعواء وارتد الآلان إلى مواقعهم الأولى وانحصروا على الساحل الشمالى المطل على خليج بسكاية ، وانحصر السويف فى الركن الشمالى الغربى الأقصى من شبه الجزيرة واستقروا هناك وانقطع شرهم . وحاول الوندال المقاومة ، ولكن القوط الغربيين تغلبوا عليهم وأزاحوهم نحو الجنوب ، فأقاموا قليلا فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة المعروف بولاية بيطى (بيتيكا) الإغريقية القديمة ، وكانت لا تزال تحتفظ إلى ذلك الحين بآثار جليلة من الحضارة اليونانية

المادية والفكرية ، وكان الوندال أجلافاً عتاة فلم يلبثوا أن قضوا على معظم ما وجدوا من آثار العمران والتحضر فى بيتيكا ، واضطر زعيمهم جيْشَرِك — أمام ضغط القوط الغربيين المتصل — إلى العبور إلى إفريقية سنة ٤٢٩ ، بعد أن خرب أمهات مدائن بيتيكا العامرة مثل هسپاليس (سڤيليا — إشبيلية) وكرتاجو نوڤا (قرطاجنة) وجادِس (جِرادِكس — قادش) ومُورجى (مرسية — مورثيا) وكُردُوبا (قرطبة — كوردڤا) وغيرها ، وخلف هذا الإقليم العامر وراءه يبابا على عادة الوندال . وقد بلغ من عمق الأثر الذى خلفه الوندال فى هذا الإقليم أن اختفى اسمه القديم « بيتيس » (الذى عربه العرب إلى « بيطى ») وأصبح يسمى من ذلك الحين ڤاندالوسيا ، إقليم الوندال ، وعنه أخذ العرب لفظ « الأندلس » الذى أطلقوه فيما بعد على شبه الجزيرة كلها (١) .

استقر القوط الغربيون فى شبه الجزيرة ، وأخذوا يمتدون فى نواحيها شيئاً فشيئاً ، وظهر فيهم بعد أطاوولف زعيم قادر هو « واليا » (Valia) استطاع أن يقرر سلطانهم فى نواحى الجزيرة كلها . ولم يكن جميع من تحت سلطانه من الجند قوطاً غربيين ، وإنما كانت فيهم أشتات من المتبربرين من كل جنس ، ولكنهم كانوا يدينون له جميعاً بالطاعة والولاء ، وكانت علاقته بالإمبراطورية علاقة التابع أو الفَصَل ، فلما طمع إدواكر المتبربر فى حكومة الجزء الغربى من الدولة الرومانية ، وأقره الإمبراطور البيزنطى زينون على حكومة إيطاليا فى الرابع من سبتمبر سنة ٤٧٦ ، كان معنى ذلك زوال الدولة الرومانية الغربية من الوجود وتحلل جميع أتباعها من المتبربرين من الولاء لها ، وبهذا استقل القوط الغربيون بإسبانيا وأعلنوا أنفسهم ملوكاً غير تابعين لأحد ، وكان زعيمهم يوريك (Euric) قد اتخذ لقب الملك فعلا قبل ذلك بنحو

(١) LÉVI-PROVENÇAL. *L'Espagne musulmane au Xe. siècle*, pp. 18-39.
THOMAS, W. ARNOLD. *The Preaching of Islam* (London, 1935) pp. 130-144.

تسع سنوات (سنة ٤٦٧) ، وهو يعد لذلك مؤسس دولة القوط الغربيين فى إسبانيا ، وسنكتفى بأن نسميهم القوط وحسب من الآن فصاعدا(١) .

٢ — دولة القوط فى إسبانيا

وكان يوريك قد حرص منذ صارت إليه زعامة القوط على أن يمد سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يبسطه على شبه الجزيرة الإيبيرية كله ، ولم يتنازل إلى جانب ذلك عما كان لأسلافه من الأقاليم شمال جبال البرت ، وكان الرومان يعتبرون جنوبى غالة وشمالى إسبانيا وجزءاً كبيراً من غربها إقليما واحداً ، فحرص يوريك أن تضم دولته هذا الإقليم الواسع إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، ففتح إقليم لُشْدَانية (لوزيتانيا — البرتغال) وقرر فيه سلطانه ، ومد حدود مملكته إلى الجنوب وأدخل فيها إقليم بيطى (الذى يعرف باسم بيتيكا) وولاية قرطاجنة الرومانية القديمة وهى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة ، وتابع جهوده فى شمال جبال البرت ، واستولى على آرل ومرسيليا ، وبهذا أصبحت دولته تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى إلى طرف إسبانيا الجنوبى ، وحكم شعبين كبيرين هما الغاليون الرومان (Gallo-romani) شمالى البرت والإسبان الرومان (Hispano-romani) جنوبيها . وكانا شعبين متحضرين يشتغل معظمهما بالزراعة ، ويزيدان فى العدد على القوط مرات عديدة ، وكان معظم أهلهما مسيحيين كاثوليك ، يسيطر على نفوسهم قساوسة خاضعون لسلطان روما وأسقفها الكبير(٢) .

وكان القوط مسيحيين آريين ، أى أنهم كانوا لا يعتقدون فى ألوهية المسيح ، ولا يعترفون للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس ، ولا يجعلون

(١) GEORGE YVER. *Euric, roi des Wisigoths* (466-485) des Etudes d'Histoire du Moyen-âge dédiées à Gabriel Monod (Paris, 1896) pp. 11-46.

(٢) MANUEL TORRES. *Historia politica del Reino de Tolosa* en *Historia de España de Menendez Pidál* (Tomo III. Madrid, 1940) pp. 70 Sqq.
BALLESTEROS, RAFAEL. *Histoire d'Espagne des origines à nos jours* (Paris, 1938) pp. 35-36.

للعذراء مكاناً ممتازاً فى العقيدة ، وكان لهم أسلوب خاص فى العبادة ، فلم يلبث السكان الأصليون من غاليين وإيبيريين أن نفروا من حكمهم ، واجتهد القساوسة فى تقوية شعور النفور هذا ، لأن القوط كانوا ينكرون عليهم أى سلطان روحى على الناس . واشتد هذا النفور مع الأيام بسبب ما كان القوط ينزلونه بالقساوسة من اضطهاد . وظل مركزهم بين رعاياهم مضطرباً مزعزعاً ، فلما نهض كلوڤيس زعيم الفرنجة وأخذ يمد سلطانه نحو الجنوب سارع القساوسة لتأييده لأنه كان كاثوليكياً ، وانضم إليه الغال الرومانيون ، فاستطاع أن يزيح القوط إلى الجنوب ويجليهم عن إقليم طولوشة (تولوز) الذى ظلوا يحكمونه مدى طويلا ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسماً فى ڤوييه (Vouillé) شمالى پواتييه سنة ٥٠٧ وأجلاهم عن جل ما كان بيدهم من أراضى غالة ، فلم يبق لهم إلا إقليم سبتمانية المتاخم لجبال البرت من الشمال ويمتد حتى نهر الرون وعاصمته نربونة[1] .

بهذا اقتصر سلطان القوط الغربيين على إيبيريا ، وأخذت علاقة شبه الجزيرة مع بقية العالم الأوروبى الواقع إلى الشمال تفتر . ولما كان القوط قد وحدوا شبه الجزيرة كله تحت سلطانهم فقد أخذت « إسبانيا » تظهر كوحدة سياسية وجنسية واحدة للمرة الأولى فى التاريخ . وذلك أمر له خطره ، لأن الإغريق لم يعرفوا منها إلا الغرب وبعض الجنوب ، ولأن الرومان كانوا يقسمونها ولايات مختلفة لا علاقة بين بعضها وبعض : هى بيتيكا فى الجنوب وهسپانيا تَرّاكُونِنْسِسْ (إسبانيا الطركونية) وتشمل الوسط والشرق والشمال الغربى ، ولوزيتانيا وهى غرب الجزيرة وناربونِنْسِسْ (ولاية نربونة) من

(١) GUERRA (A. FERNÀNDEZ). *Caida y Ruina del Imperio Visigótico-espanol.* Madrid, 1883.

MANUEL TORRES. *Las Invasiones y los Reinos germânicos de Espana* en *Historia de Espana* editada de RAMON MENÉNDEZ PIDÀL. Tomo III. pp. 81-84.

حدود برشلونة إلى جبال الألب ، وكانت عاصمتها على أيامهم تراجونا (طَرّكُونة) جنوبى بركينو (برسينونا ــ برشلونة)[1] .

أما القوط فقد اعتبروا شبه الجزيرة كله بلداً واحداً . واتخذوا عاصمة لهم بلداً متوسطاً يقع فى رسط شبه الجزيرة وهو « طليطلة » .

ولطليطلة موقع جغرافى سياسى هام تمتاز به عن طركونة عاصمة إسبانيا الرومانية وقرطبة عاصمة إسبانيا الإسلامية ، فهى على هضبة مرتفعة فى رسط شبه الجزيرة تقريباً ، يستطيع الحاكم منها مراقبة البلد كُله والاتصال بأطرافه على سبيل أسهل مما يستطيعه الحاكم المقيم بقرطبة . وهى تقع على صخرة عند منحنى من منحنيات نهر تاجُه . ولا يصل إليها العدو المهاجم إلا مجهداً

(١) MANUEL TORRES. *op. cit.* pp. 112 Sqq.

LEGENDRE, MAURICE. *Nouvelle Histoire d'Espagne* (Paris, 1938) pp. 66-67.

قسم الرومان إسبانيا أول الأمر إلى قسمين يفصل بينهما خط غير محدد بالضبط يمتد من الدويره إلى قسطلة Gástulo (Cazlona) فى الأندلس . ثم قسمها أغسطس إلى ثلاث ولايات :

إسبانيا الشرقية . Tarraconensis
إسبانيا الجنوبية Betica
إسبانيا الغربية Lusitania

ثم أضاف كراكالا إلى هذه الولايات الثلاث ولاية جديدة تضم الشمال الغربى وتسمى (Gallaecia) أى إسبانيا الجليقية ، وعن هذا اللفظ أخذ العرب لفظ جليقية وسموا به الطرف الشمالى الغربى المسمى فى الإسبانية (Gallicia) .

ولما أعاد دقلديانوس تنظيم الدولة الرومانية وقسمها إلى مديريات (*Praefecturae*) ، وقسم هذه إلى دوائر (*Diocesis*) ، وهذه بدورها إلى ولايات (provinciae) ، ضم إسبانيا إلى مديرية غاليا ، وجعلها دائرة تضم سبع ولايات :

Tarraconensis, Cartaginensis, Betica, Lusitania, Gallaecia, Balearica, Tingtana.

أى أنه أضاف إليها جزائر البليار وجزءا من إفريقية هو مرطانية الطنجية ، وستظل مرطانية الطنجية مرتبطة بإسبانيا حتى الفتح الإسلامى .

Cf : BALLESTEROS, RAFAEL. *Histoire d'Espagne*, pp. 28 Sqq.

وانظر عن ذلك كله الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب ، وهو خاص بالتنظيم الإدارى والمالى .

بعد أن يعبر جبال قشتالة القاحلة فى الشمال وإقليمى الإسترامادورا والمنشا القاحلين الموحشين فى الجنوب ، ثم إن مركزها المتوسط يحفز الحاكم على تحقيق الوحدة وييسرها له ، لأنها موسطة البلاد وقلبها ، أما طركونة فبعيدة جداً عن الجنوب والغرب ، وقرطبة بعيدة جداً عن أشتريس وجليقية ولوزيتانيا ، ومن ثم ليس بغريب أن نلاحظ أن المسلمين لم يوفقوا إلى حكم البلاد كلها تماما ، وأن أشتريس وجليقية لم تخضعا لهم أبداً ، بل لم يدم سلطانهم على إقليم برشلونة ونواحى الغرب إلا خلال فترات قصيرة جداً(١) .

ولعل أظهر أثر لاستقرار القوط فى طليطلة هو تحولهم إلى « إسبان » فى وقت قصير ، فى حين لم يصبح العرب إسباناً إلا بعد فترة طويلة ، لأن المقيم فى طليطلة تنقطع الصلات بينه وبين ما يلى البرت وما يلى الزقاق ، ويتأقلم ويصبح إيبيريا ، أما المقيم فى قرطبة فتظل صلته بإفريقية وما يتصل بها من بلاد الشرق أوثق وأظهر من صلاته بجليقية وأشتريس ونواحى البرت ، وكان ذلك من أسباب الضعف الرئيسية فى دول المسلمين فى الأندلس(٢)

استطاع القوط من عاصمتهم طليطلة أن يفتحوا شبه الجزيرة كله ، ولكن سلطانهم لم يستقر فى البلاد أول الأمر بسبب ما ثار بينهم وبين أهل البلاد الإيبيريين من منازعات دينية وبسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافات ، ولهذا ظلت البلاد طوال القرن السادس نهباً للحروب الأهلية وما ينجم عنها من الفوضى وسوء الحال . وقد لقى نفر من ملوك القوط مصارعهم فى هذه الحروب ، وطمع ثيودوريك ملك القوط الشرقيين فى عرش إسبانيا فغزاها وأقام حفيداً له على عرشها ، ولم يلبث أحد قواد القوط الغربيين الأقوياء أن ثار بهذا الدخيل وأعلن نفسه ملكاً على إسبانيا بفضل معاونة حربية أمده بها جستنيان إمبراطور بيزنطة فى سنة ٥٥٤ وانضم إليه أهل البلاد من الإيبيريين

(١) تناولنا هذه الناحية فى كتابنا : مقدمة جغرافية لتاريخ المسلمين فى الأندلس ، وهو يطبع الآن بمدريد

(٢) LEGENDRE, MAURICE. *Nouvelle Hist. d'Espagne,* (Paris, 1938) pp. 66-67.

الرومان الكاثوليكيين ، واحتل المنطقة الواقعة بين الوادى الكبير وجُكَر (نهر شقر) ، وانفصل هذا الإقليم عن حكومة طليطلة .

وكان آخر ملوك القوط الآريين هو ليوفيجيلد (Liuvigild) (٥٦٨ — ٥٨٦) وكان محارباً مقداماً ظل يحارب الكاثوليكيين طول حياته ، وخلفه ابنه ريكاريدو (Recaredo) فاستبان أنه لا صلاح لدولة القوط فى هذه البلاد إلا إذا تخلى ملوكها عن الآرية ، ففعل ذلك وأعلنه فى مجمع طليطلة الدينى سنة ٥٨٧ : اعتنق الكاثوليكية هو وأهل بيته ، وتبعه الأمراء وكبار أهل المملكة ، وبهذا أصبحت الكاثوليكية هى الديانة الرسمية فى إسبانيا من ذلك الحين . وهذا حادث خطير سيظل مؤثراً فى التاريخ الإسبانى كله ، فإن الكاثوليكية تأصلت فى أهل البلاد مع الزمان ، وزادها قوة ميل الإسبان للتشدد فى الإيمان والتعصب لكل ما يؤمنون به ، فأصبحت إسبانيا معقلا من أمنع معاقل الكاثوليكية ، وكان لهذا أثر بعيد جداً فى حياة الإسبان وفى مجرى تاريخهم كله(١) .

وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللاتينية اللغة الرسمية فى البلاد ، وتوثق صلات إسبانيا بالبابوية ، وقد تفانى خلفاء ريكاريدو فى الولاء للبابوية تفانياً شجع البابوات على بسط نفوذهم الدينى — بل السياسى — فى البلاد ، وبدأ يفد على البلاد هذا الفيض المتصل من قساوسة الكاثوليك ورهبانهم ، وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل سلطان البابا ونفوذه ، وأيده الشعب الرومانى الإيبيرى الذى لم يتخل عن الكاثوليكية بعد ذلك . ومن هنا نفهم السر فى أن نفوذ أسقف طليطلة لم يقل فى فترة من فترات التاريخ الإسبانى المسيحى عن نفوذ الملوك ، إن لم يزد عليه فى كثير من الأحيان . كان

(١) MANUEL TORRES. *Las invasiones y los reinos germônicos de España* en *Historia de España de* RAMON MENÉNDEZ PIDAL *Tomo III.* (Madrid, 1940) pp. 109 Sqq.

تحول القوط إلى الكاثوليكية الخطوة الفعالة الأولى لامتزاج الشعبين القوطى والإيبيرى الرومانى ، فقد ظلا متباعدين ما اختلفت عقيدتاهما الدينيتان ، فأما وقد اتفقا فى العقيدة فقد انفتح الباب أمام الامتزاج ، ولكنه لم يتم إلا على صورة مصغرة جداً . لأن القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشعب الحاكم ، مما كان له أثر بعيد سيء على مصير دولة القوط فى إسبانيا .

وكانت الملكية القوطية انتخابية ، أى أن نفراً من كبار أهل المملكة والأمراء كانوا يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار ملك من بين أظهرهم . فكان هذا النظام مدعاة لإثارة المنافسات بين الأمراء وكبار القوط . ومن ثم لا غرابة فى أن يكون تاريخ القوط فى إسبانيا سلسلة من المؤامرات والحروب والاغتيالات . ومهما حاول مؤرخو الإسبان — القدامى والمحدثون — أن يقللوا من شأن هذه الاضطرابات ، رغبة منهم فى الدفاع عن دولة القوط . فإن الإنسان يستطيع أن يتتبع سلسلتها فى سهولة ويسر . وأن يستبين أن العرب لو لم يتدخلوا فى سنة ٧١١ ، فى شئون الجزيرة ويضعوا نهاية لهذا العصر المضطرب لبلغ القوط بإسبانيا مبلغاً من السوء لا يسهل تصوره[١] .

بيد أننا ينبغى أن نستثنى من سلسلة ملوك القوط نفراً أجمع المؤرخون على أنهم كانوا قادرين خيرين . وأنهم قدموا للبلاد خدمات حربية وعمرانية بعيدة الأثر ، مثل شـــشبرت (Sisiberto ٦١٢ — ٦٢١) الذى أتم فتح شـــبه الجزيرة كله وشنداسقنتو (Chindaswinto ٦٤٩ — ٦٧٢) الذى ألغى التفرقة بين أجناس الشعب . وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الرومانى القديم الذى كان قد سنه الملك ألاريك الثانى والقانون القوطى الذى وضعه يوريك . مما قرر السلام بين أهل المملكة وجنبها مصاعب وخلافات شتى[٢] .

---

(١) BALLESTEROS, RAFAÉL. op. cit. p. 37.

(٢) BALLESTEROS, RAFAÉL. op. cit. p. 37-39.

وقد أخذت الصور العربية لهذه الأسماء القوطية مما وجدته فى المراجع العربية ، ولم تتحدث المراجع =

ولعل أكبر ملوك القوط هؤلاء وامبا (Wamba ٦٧٢ — ٦٨٠) فقد كان أميراً عظيم الهمة ، استطاع أن يقرر سلطانه فيما بقى للقوط من الممتلكات شمالى جبال البرت : قضى على ثورة خطيرة دبرها هلدريك كونت نيمه (نيم) ، وأخمد ثورة أخرى دبرها باولُس أمير سبتمانية الانفصال بها ، وحكم البلاد كلها حكماً رشيداً حازماً فأحبه الناس والتفوا حوله ، وبلغ من

= العربية عن ملوك القوط كثيراً ، ولم تذكر منهم إلا واحدا أو اثنين ، ولكنها ذكرت أشخاصاً لهم أسماء هؤلاء الملوك خلال فترة الفتح ، فأخذت عنها هذه الصور . وهذه المراجع العربية هى الأخبار المجموعة ، ونفح الطيب (انظر فهارس الأعلام فيهما) ، ومرجعان عربيان : الأول مجهول المؤلف ، لم نعثر إلا على فقرات منه مترجمة إلى اللاتينية والإسبانية ، والثانى عثرنا على ترجمتين إسبانية وبرتغالية لجزء منه :

ا — فتح الأندلس : لمؤلف مجهول ، وقد نشره JOAQUIN DE GONZALEZ مع ترجمة إسبانية له تحت عنوان *Relación de la conquista de España y de sus emires* وقد استعمله ساقدرا فى دراسته عن فتح الأندلس .

ب — *La Crônica del Moro Rasis* ، وهو تاريخ الأندلس المشهور للرازى ، وقد ضاعت النسخة العربية لهذا الكتاب ، ولم نجد إلا فقرتين صغيرتين منه باللغة الإسبانية ، الفقرة الأولى تتناول جغرافية الأندلس ، وقد نشرها وعلق عليها وأثبت صحتها بشكوال دى جايانجوس ، راجع :

PASCUAL DE GAYANGOS. *Memoria sobre la Autenticidad de la Crónica denominada del Moro Rasis*; Memorias de la Real Academia de la Historia, tomo VIII, 1850

وأما القطعة التاريخية منها فلاتينية ، ولم تنشر إلا سـنة ١٨٩٢ ، إذ ترجمها ساقدرا إلى الإسبانية وألحقها بدراسته عن فتح المسلمين للأندلس . انظر :

D. EDUARDO SAAVEDRA. *Estudio sobre la invasion de los Arabes en España* (Madrid, 1892) ص ١٤٥ وما يليها . وقد كان جايانجوس قد تعرض لها وأثبت قيمتها التاريخية فى تعليقاته على ترجمته لكتاب TICKNOR المسمى : تاريخ الأدب الإسبانى (ج١ ص٥١٩) . وراجع كذلك تعليق ساقدرا على الرازى وما بقى من كتابه فى كتاب ساقدرا الآنف الذكر ، ص ٨ وما يليها . وقد عثر الأستاذ LUIS F. LINDLEY CINTRA البرتغالى على نص صحيح لترجمة القسم الجغرافى من تاريخ الرازى إلى البرتغالية ونشره ، وترجمه ليڤى پروڤنسال إلى الفرنسية :

Cf: LÉVI-PROVENÇAL. *La description de l'Espagne de Ahmad al- Razi.* Al-ANDALUS, 1953. fasc. I pp. 51-108.

تعلق الناس به أن أصبح اسمه وعصره أسطورة لا تخلو من المعجزات والخوارق، ومن هذه الخوارق واحدة نسجلها لأن المؤرخين المغربيين يسجلون مثلها لعبد المؤمن بن على مؤسس الدولة الموحدية بعد ذلك بنحو ستة قرون ، وملخصها أن وامبا وقف بين يدى الأسقف فى الكنيسة لكى يلبس التاج ، فبينما هو فى هذا الموقف الرهيب إذا عمود من الدخان يتصاعد من رأسه تطير فيه نحلة من ذهب[1] .

وقد انتهى حكم وامبا نهاية لا تخلو من غرابة وطرافة ، فقد احتال عليه أحد حاسديه ودس له من سقاه جرعة مخدرة لم يلبث بعد أن شربها أن غاب فى سبات عميق ، وحسبه الناس قد مات ، وهيئوه ليواروه التراب ، فبينما هم فى ذلك إذ عاد إلى رشده ، وبدلا من أن ينهض لتأديب من ائتمروا به على هذا النحو الغريب ، ترك العرش للطامعين فيه ، وترهب وقضى بقية حياته فى الدير .

وعندما اعتلى غيطشة (Witiza)[2] العرش فى نوفمبر سنة ٧٠٠ كانت الأمور قد اضطربت بسبب المؤامرات المتوالية التى كان كبار القوط يدبرونها ، ولسنا نستطيع أن نتعرف حقيقة أمر هذا الملك الذى سيلعب أبناؤه دوراً عظيما فى التمهيد للفتح الإسلامى ، لأن النصوص الباقية عنه تعطينا صوراً متناقضة عن شخصه وأسلوبه فى الحكم ، مما حدا ببعض المؤرخين من أمثال

(١) ذكر الرازى الملك «وامبا» فى صورة محرفة جداً هى Benete ، وإذا تصورنا أن هذا اللفظ يكتب بالعربية بنيه أو فنبه عرفنا كيف حدث هذا التصحيف . وقد امتدحه الرازى وقال إنه كان ملكا حسنا جداً وعادلا جداً ، ولم تسعد إسبانيا قبله أو بعده بملك مثله ، لأنه لم يسىء إلى أحد ، ولم تعرف إسبانيا أقوى منه ولا أكثر همة . راجع : SAAVEDRA. *op. cit.* apendice, p. 146.

(٢) هذه الصورة العربية لاسم وِتِيزا محرفة هى الأخرى تحريفاً ظاهراً ، وقد رسمه الرازى هكذا : Acosta أكوستا . وقد أتى التحريف من أن وِتِيزا تنطق بالإسبانية القديمة فِتِيشَة أو فِيطِشَة أو فِيطِيشة . وهذه الصور تعطينا قُسْطَه وهى Acosta التى أوردها الرازى وغيطشة التى أوردها مؤرخو العرب . وقد امتدحه الرازى كذلك وذكر أنه حاول أن يزيل مساوىء أبيه ، وأعطانا تفاصيل طيبة عن كفاحه مع كبار مملكته وشقاقه بهم . راجع : SAAVEDRA. *op. cit.* apendice p. 147

ردريجو خيمنيث والأب ماريانا إلى جعله مسئولا عن الفوضى التى أعقبت أيامه ويسرت للعرب القضاء على دولة القوط ، فى حين تصدى دوزى وفرناندث جرّا Guerra وتايلهان للدفاع عنه وتبرئته مما نسبته إليه بعض النصوص[1] .

والظاهر أن هؤلاء الأخيرين على حق ، لأن معظم النصوص الإسبانية تثنى عليه ، وتؤكد أن أعداءه ومنافسيه هم المسئولون عما أصاب البلاد فى أواخر عصره من فوضى واضطراب ، وأنه حاول جهده أن يصلح الأمور فعفا عمن كان والده أخيكا[2] قد أساء إليهم ، ومال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط ، فكرهه هؤلاء وعولوا على القضاء عليه وعلى حكمه ، فأخذوا يثورون عليه فى نواحى المملكة ، واستمر يحاربهم ويحبط كل مناوراتهم ، فلما علت به السن عجز عن أن ينهض لكل واثب به مدبر عليه ، وتآمر عليه أهله ، واستطاعت زوجه أن ترغمه على أن يعلن ابنه الصبى وَقِيله (أخيلا Achila) وأقامه حاكماً على الولايتين الناربونية والطركونية تحت وصاية أخيه رخشندش (Rechesindo)[3] ، وكان هذا الإعلان حافزاً للطامعين فى العرش من كبار القوط إلى مضاعفة الجهد فى التدبير على غيطشة ومحاولة القضاء عليه وعلى دولته ليخلو لهم العرش يفعلون به ما يشاءون . ويبدو أنه لم يأل جهداً من جانبه فى القضاء على كل محاولة يقومون بها ، لأن النصوص تحدثنا أنه

(١) SAAVEDRA. *op. cit.* p. 25.

(٢) رسم الرازى هذا الاسم Abarca أباركا ، ومرد هذا التحريف إلى خطأ فى الإملاء ، لأن نسخة الرازى التى بين يدينا أمليت على رجل لا يعرف العربية ولا يحسن الكتابة بها (راجع ملاحظات جايانجوس وساقدرا التى سبقت الإشارة إليها) فكتب إبِقَه بدلا من إجِقَه ، وعندما ترجمها الإسبان إلى الإسبانية عدلوا أبقة إلى أبرقة . وهو اسم إسبانى معروف ، وعلى هذا الرسم وردت فى هذه النسخة الإسبانية من الرازى . راجع : SAAVEDRA. *op. cit.* apendice. p. 146.

(٣) هذا الرسم عن ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٤ ؛ وهو يثنى عليه . أما الرازى فيحمل عليه حملة عنيفة . SAAVEDRA. *op. cit.* apendice p. 146.

أما أخيلا فيكتبه الرازى أبرقة ، وقد سبق تعليل ذلك .

عاقب تيودفريدو دوق قرطبة بسمل عينيه ، ونفى ثائراً آخر اسمه بلايُه من البلاط[١] .

ويبدو كذلك أنه أساء الظن فى اليهود ، فاضطهدهم وأوقع بهم فى أواخر أيامه ، ولم يكن ذلك الاضطهاد بالجديد عليهم فى أيام القوط ، لأن الواقع – كما سنرى – أنهم لاقوا منهم عسفاً بالغاً متصلا ، وأن الفتح العربى لو لم يكن قد أدركهم وأبقى على من أبقى عليه ظلم القوط منهم لما بقى لهم فى شبه الجزيرة الإيبيرية أثر . اتهمهم غيطشة بالتدبير عليه وبالتآمر مع من تسميهم النصوص الإسبانية « أهل ما وراء البحر Los transmarinos » ، وهو تعبير غير واضح . لا يفهم إن كان المراد به أنهم راسلوا بربر إفريقية أو يهودها أو العرب ، ولا يستقيم فرض من هذه الثلاثة ، لأننا لا نملك دليلا واحداً على علاقة ما بين يهود إسبانيا وبربر إفريقية قبل الفتح الإسلامى ، وأما يهود إفريقية فكانوا وقتئذ فى محنة ، لأن الحرب بين حسان بن النعمان والكاهنة فى جبال الأوراس كانت إذ ذاك على أشدها ، وأما العرب فلا يعقل أن يكونوا قد راسلوا يهود إسبانيا وهم بعد لم يفتحوا المغرب الأوسط[٢] .

(١) SAAVEDRA. *op. cit.* p. 29. وانظر المراجع المعطاة .

(٢) هذه المسألة غير واضحة الوضوح الكافى لأن النصوص القديمة لا تتحدث عنها بما فيه الكفاية ، فيقول لوقا التودى LUCAS DE TUY وهو من كتاب القرن الثانى عشر : iudalis immunitatum previlegia dedit (جـ ١ فقرة ٣ من تاريخ العالم) ويقول : ردريجو خيمينيث RODRIGO XIMÉNEZ :

revocavit iudaeos et maiori immunitatis quam ecclesias previlegiis honoravit (I, III, cap, XVII)

ولا يشتم من أى من هاتين الروايتين ما يفهم منه اتهام لليهود بالخيانة أو التعاون مع يهود إفريقية . وقد وردت عبارة التعاون مع « القوم الذين يسكنون فيما وراء البحر » فى نص الخطاب الذى ألقاه أخيلا فى المجمع الكنيسى السابع عشر ، وهى عبارة لا تكفى . ولا نعرف المراجع التى استمد منها DOM VISSETTE معلوماته التى يوردها عن هذا الموضوع فى كتابه *Histoire de Languedoc* جـ ١ ، ص ٧٥٠–٧٥١ ، وعلى أى الأحوال فالثابت أن أخيلا اضطهد اليهود .

ولسنا على أى حال بحاجة إلى البحث عن سبب لهذا الاضطهاد ، لأن الإسبان كانوا طوال تاريخهم من أقسى الناس على مخالفيهم فى الدين ، وعلى اليهود خاصة . وكل ما يهمنا هنا هو أن هؤلاء اشتد بهم الأمر خلال السنوات الأخيرة للفترة القوطية ، حتى باتوا يرجون الخلاص عن أى سبيل . ويبدو أن غيطشة رجع عن سياسته تلك فى أخريات أيامه ، فأحب أن يرفع السخط عن اليهود . وتحدث إلى كبار أهل الدولة فيما انتواه من العفو عنهم ، فلم يكد رجال الكنيسة يسمعون بذلك حتى سخطوا عليه ، وأخذوا يغرون الناس به ، حتى اشتد عليه سخط الناس ، وتحدث أهل البلاد من الرومان الإيبيريين فى الوثوب به أو معاونة أول ثائر عليه[١] .

فى هذا الظرف العصيب ، والبلد منشق على نفسه مفرق بين رجال الدين والملك المسن والكبراء الطامعين . مات غيطشة ميتة طبيعية فى أواخر سنة ٧٠٨ أو أوائل ٧٠٩ . وكانت هذه الأحزاب كلها تنتظر فرصة موته لينقض بعضها على بعض . وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر الناس انقساماً وأشدهم ميلا إلى الخلاف : ذلك أن غيطشة ترك من بعده زوجاً أرملة طامعة فى العرش ، وأخاً لا يقل عنها طمعاً هو أبّه (Oppa) وكان أسقفاً لإشبيلية ، وثلاثة بنين هم : أخيلا (رُمُلُه عند المقرى وابن القوطية وصحته وَقِله) وألمند (Olmundo) وأرطاقازدُس أو أردبست (أرطباس ، أرطبان) ، وتضيف بعض الروايات شخصاً آخر سيلعب فيما يلى من الحوادث دوراً هاماً هو سيسبرتو (ششبرت ، سبرى ، سبسرة فى النصوص العربية) وتزعم أنه كان أخاً لغيطشة أو ابناً له ، ويذهب ساقدرا إلى أنه لم يكن من العائلة وإنما من المتصلين بها وحسب[٢] .

(١) SAAVEDRA. *op. cit.* p. 30.

(٢) SAAVEDRA. *op. cit.* pp. 30-33. وتقول الأخبار المجموعة إن أبناء غيطشة كانوا اثنين فقط : ششبرت (Siseberto) وأبّه (Oppa) : ص ٨ .

ونص الرازى مضطرب هنا اضطرابا شديداً جداً بحيث لم نستطع الاعتماد عليه .

ويكتب ابن القوطية رُمُلُه بدلا من أخيلا ، وقد جعله بعضهم رومولوس ، وذهب ساقدرا إلى أنه تحريف من وَقِله الذى هو أخيلا .

ولم يرض نفر من كبار القوط بالخضوع لصبى مثلا أخيلا ، وتخوف كثير منهم من مطامع الوصى رخشندش واستبداده ، فامتنع من أقام منهم فى طليطلة عن الطاعة ، واستقل بالأطراف والنواحى منهم من كان مقيما فى النواحى والأطراف ، ودارت رحى الحرب بين المتنافسين ، وتعذر على الملكة وابنها المقام فى طليطلة ففرا منها . واستمرت هذه الفوضى نحو العام ونصف العام ، واستطاع الوصى أن يجمع نفراً كبيراً من الأنصار ، وتحبب إلى عامة أهل البلاد الرومان الإيبيريين من أهل المزارع والمدن واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه . وبدا لخصومه أنه مستطيع القضاء على الفتنة وإقرار الحق لذويه عما قريب ، فاجتمع منهم نفر وائتلفوا ، واعتبروا أنفسهم « مجلس شيوخ وكبراء » له الحق فى أن يقرر شئون دولة القوط كما يرى ، ثم اختاروا واحداً منهم اسمه رودريكو — أو رودريك أو رودريجو (لذريق) — وانتخبوه ملكاً خلفاً لغيطشة ، واستعدوا لنصرته والقضاء على منافسيه بحد السيف .

وتجمع النصوص كلها على أن هذه الجماعة التى بايعت لذريق كانت جماعة من كبار القوط وأعيانهم ، وأنهم أرادوا باجتماعهم هذا إنقاذ دولة القوط وتقويم ما وهى من بنيانها ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من أن رخشندش أراد أن يستعين بالإيبيريين الرومان ليثبت أمر أخيلا ، استطعنا أن نستنتج من غير حرج أن المسألة لم تكن مجرد خلاف على العرش بين زعماء القوط ، بل كان فيها لون من ثورة أهل البلاد على القوط ورغبتهم فى التخلص من كبرائهم ونبلائهم . ولعل هذا الاستنتاج يتيح لنا أن نقرر ما تحاول الكثرة الغالبة من مؤرخى الإسبان — قدامى ومحدثين — نفيه وإنكاره ، وهو أن دولة القوط لم تكن فى نظر أهل البلاد دولة قومية ، بل ظلت فى نظر غالبيتهم دولة أجانب لقى الناس فى ظلهم كثيراً من الأذى ، وحاولوا الخلاص منهم مراراً متكررة(١) .

(١) MANUEL TORRES. *Op. cit.* p. 135. ويشير سيمونيت إلى ذلك إشارة غير واضحة وغير دقيقة ، فهو يقرر وجود حالة الثورة ورغبة الإيبيريين الرومان فى الخلاص من القوط ، =

٣ — لذريق

والخلاف شديد حول أصل لذريق هذا ، فمن قائل إنه كان زعيما قوطياً كبيراً ذا علم بأمور الحرب والسلم ، ومن قائل إنه ينحدر من أصلاب ملكية ، وأن جده الملك شنداسفنتو ، ومن قائل إنه ابن تيود فريدو دوق قرطبة الذى كان غيطشة قد عاقبه على ثورته عليه بسمل عينيه . ومهما يكن من أمر فإن المراجع الإسبانية اللاتينية القديمة تجمع على أنه كان رجلا قادراً ، وأنه كان قبل ادعائه العرش حاكماً لولاية بيتيكا ، وأن الذين بايعوه على العرش فعلوا ذلك فى قرطبة عاصمة ولايته(١) .

ولم يسر لذريق إلى طليطلة مباشرة بعد إعلانه نفسه ملكاً ، بل تريث بعض الوقت ليتيسر له جمع أنصاره وملاقاة رخشندش ورجاله فى موقعة حاسمة ، وكان قد أعلن نفسه ملكاً فى « ربيع سنة ٧١٠ ، قبل الهزيمة المسماة عادة بهزيمة جوادا ليتى (وادى بكه) بعام ، وكان ذلك فى السنة الخامسة من حكم الوليد فى دمشق » ، كما يقول « النص اللاتينى المجهول المؤلف » ، ويذهب راوية آخر إلى أنه ذهب إلى بطليوس ، دون أن يذكر لنا السبب فى الذهاب إلى ذلك البلد البعيد . والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكاً على رأس جيش كبير فيه جلة قواد القوط ونبلائهم ، وهزم رخشندش فى واقعة حاسمة قتل فيها هذا الأخير وتفرق أتباعه . وأما أبناء غيطشة فلم يجدوا مفراً من مغادرة البلاد فراراً من الغاصب ، ففروا إلى

= ولكنه — على عهده من الدفاع عن القوط ، لأنهم كاثوليكيون — يلقى التبعة كلها على الشعب وعدم تقديره لفضل ملوكه عليه . وهو يقرر بالطبع خيانة اليهود دون أن يحقق مراجع التهمة . انظر :

FRANCISCO JAVIER SIMONET. *Historia de los Mozarabes de España* (Madrid, 1897-1903) pp. 4 Sqq.

والمراجع المعطاة .

وراجع كذلك ص ١٠ وما يليها من نفس المرجع .

(١) FERNANDEZ GUERRA. *Caida*... pp. 81. Sqq.

إفريقية وصادر لذريق أملاكهم معتبراً إياهم ثائرين على العرش ، والقانون القوطى يقضى بمصادرة أملاك كل ثائر على العرش[1] .

ويبدو أن لذريق ظل يخشى طيلة حكمه القصير عودة أبناء غيطشة إلى البلاد ومحاولتهم استعادة عرشهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين ، ومن ثم حرص على أن ينفر الناس منهم بالمبالغة فى تصوير أعمال أبيهم ومظالمه ، وأعانه على ذلك القساوسة ، لأن غيطشة كان لا يجيبهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من القضاء المبرم على اليهود ، ومن ثم لا غرابة فى أن نجد عند معظم المؤرخين الإسبان اللاتين صوراً بغيضة جداً لهذا الملك وأولاده . وما كانوا يدبرون للبلد وأهله من سوء ، وزاد هؤلاء المؤرخين إصراراً على هذه الآراء انضمام أولاد غيطشة للعرب ومعاونتهم فى فتح البلاد . وقد تصدى نفر من المؤرخين الإسبان المحدثين للدفاع عن غيطشة وأبنائه . وذهبوا فى الدفاع عنهم إلى حد إنكار دورهم المعروف الثابت الذى قاموا به أثناء الفتح العربى ، ولسنا نستطيع تفسير هذه النزعة عند المحدثين إلا بما يعرف عن الإسبان من مبالغة فى التسامى بوطنهم وأهله ، وعداء بعضهم للفتح الإسلامى وكل ما يتصل به ، ورغبتهم فى تنقية صفحات تاريخهم من كل ما يشتم منه رائحة التعاون مع المسلمين[2] .

بيد أن هذا الدفاع عن غيطشـــة وأولاده ، والإصرار على تبرئة لذريق من كل عيب وتصويره فى صورة بطل وطنى جاهد العرب عن بلاده وبذل كل ما يملك لينجو ببلاده من خطرهم ، كل هذا الجهد لا يمنعنا من تعرف شخص لذريق وأحوال عصره تعرفاً معقولا هو أقرب ما يكون إلى الصواب . فان الظاهر الذى لا تستطيع المناقشة إخفاءه أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنه ظل حياته متخوفاً من وثبة تكون من أحد أعدائه

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 34 Sqq.

(٢) SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 37. ويستثنى من ذلك بعض المؤرخين الإسبان المحدثين مثل : BALLESTEROS. *Histoire d'Espagne.* p. 45. وهو يورد هذه الحوادث فى إيجاز شديد جدا .

الكثيرين ، لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم ، بل كانوا فى واقع الأمرجلة الشعب الإيبيرى الرومانى واليهود ، أى معظم أهل البلاد التى اقتحمها القوط عليهم[1] .

ومصداق ذلك أن لذريق لم يكد الأمر يستقر له حتى مضى يرغم رجال الدين على إصدار قرارات يتهمون فيها غيطشة بكل شر ، ويصورونه للناس فى صورة جبار ظالم أراد بالناس وبالكنيسة كل أذى ، وأن لذريق لم ينهض إلا لإنقاذ الناس من شره وشر أولاده وكل من كان يلوذ بهم ، وقد أجاب رجال الدين طلبه . فحفلت قرارات مجامعهم الدينية فى عصر لذريق بأسوأ الاتهامات لغيطشة وبنيه واليهود . ومصداق ذلك أيضاً أن لذريق قضى معظم

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 37. وكلامه فى هذه النقطة غامض غير واضح ، لأنه لايستند إلى مراجع واضحة مفصلة ، وأهم مراجعه فرنانديث جيرًا فى كتابه *Gaida y Ruina* ص ٨٢ وما بعدها . وهو مرجع حديث .

ويناهض هذا الرأى سيمونيت فى تاريخ المستعربين ، ص ١٢ وما يليها . وسيمونيت إسبانى كاثوليكى متعصب جداً لوطنه ودينه ، وذلك هو عيب كتاباته الكثيرة .

والصورة التى يعطينا إياها عن الحال أيام لذريق جديرة بأن نعرضها ، لأنها لا تخلو من نفع ، فهو يقول إن الشعب الإسبانى وجد نفسه تحت حكم غيطشة وخلال السنوات الأخيرة من حكمه على الخصوص ، منقسما إلى حزبين كبيرين : حزب مناصر للملكية غيطشة القائمة ، ومن ثم فهو مؤيد من اليهود منصرف عن مصالح البلاد المعنوية والدينية ، وحزب ثان مناهض لذلك مهتم بمصالح البلاد حريص عليها ، وكان هذا الحزب يميل إلى طرد اليهود من البلاد جملة ومناصرة الكاثوليكية مناصرة تامة . فأما الحزب الأول فكان حزب الأرستقراطية القوطية ، ولم يكن أفراده كاثوليكا ولا آريين ، وإنما كانوا متشككين ملاحدة (كذا !) ومن كبار هذا الحزب أوباس (أبّة) أخو الملك وأسقف إشبيلية ، والنبلاء ششبرت ورخشندش (وربما كانا أخوين للملك نفسه) . وأما رجال الحزب الثانى فكانوا طائفة من كبار القوط المؤمنين يؤيدهم معظم أهل البلاد من الإسبان الرومان ، وأهل الصلاح والدين من سكان الجزيرة كلها وفى مقدمتهم تيودفريدو دوق قرطبة ، وخلفه فى زعامة الحزب ردريجو (لذريق) وكان معه بلايو (بلايُه) الذى قدر له أن يعيد دولة القوط بعد ذلك SIMONET. *Historia de los Mozarabes*, pp. 11-13.

وليس لدينا دليل واحد على صحة ما يذكره من أن بلايو هذا هو نفس بلايو الذى سيفر أمام العرب ويتحصن فى جليقية ويعيد إنشاء دولة القوط .

SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 29

أيام حكمه القصير يحارب الثائرين عليه فى كل ناحية ، وأنه قام بحملات متتابعة على البشكنس فى الشمال ، وطوائف من الثائرين فى الشرق والجنوب ، ولسنا نعرف على وجه التحقيق من كان هؤلاء الثائرون عليه فى الجنوب ، وإن كان من المعقول جداً أن نزعم أنهم كانوا أنصار أولاد غيطشة ، وسنرى فى أثناء الفتح العربى ما يؤيدنا فى هذا الظن (١) .

وربما كان من دلائل سوء الحال فى عهد لذريق أنه كان فى حاجة مستمرة ملحة للمال ، ولو كان قد حكم البلاد حكماً عادلا منتظماً لما احتاج إلى إرهاق نفسه وإرهاق الناس ، لأن إسبانيا بلد غنى لا يحتاج إلا إلى الإدارة المنظمة حتى يفيض بالخير على أهله وحاكميه ، ولو كانت البلاد هادئة فى عصره لما اضطر إلى هذا الإرهاق ، ولكن البلاد كانت مضطربة فى عصره لا يكاد يطيعه من نواحيها إلا إقليم صغير .

والغالب أن حاجة لذريق إلى المال هى التى دفعته إلى السطو على الذخائر الغالية التى كان ملوك القوط قبله قد كدسوها فى كنيستى سان پدرو وسان بابلو ، فقد جرت عادة كل ملك منهم أن يودع إحدى الكنيستين تاجه وبعض ذخائره ، وكانت هذه الذخائر مكدسة فى حجرتين مغلقتين فى الكنيستين ، فلما اشتدت حاجة لذريق للمال حدثته نفسه بأخذ بعض هذه الذخائر للانتفاع بها . وقد حذره القسس من أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يصغ ، ومضى ففتح مستودع الذخائر ، ويبدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجوهر ، ويبدو كذلك أنه لم يجرؤ على أخذ شىء لأن رهبة المكان منعته من أن ينفذ ما أراد ، وتحدث الناس فى ذلك وتناقلوه حتى أصبح أسطورة فى أفواه الناس ، ورواها العرب على صورة لا تخلو من طرافة (٢) .

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 47.
SIMONET. *Op. cit.* pp. 42 Sqq.

(٢) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 40-43. وقد أورد معظم مؤرخى المسلمين هذه الأسطورة ، انظر نفح الطيب (طبعة الشيخ محيى الدين عبد الحميد) جـ ١ ص ٢٣١ وما بعدها .

وقد استطاع لذريق أن يقضى على كل أمل لأبناء غيطشة وأنصارهم بعد أن استمر يوالى غزوهم أشهراً متتابعة ، فلما ضاقت عليهم البلاد فكروا فى ناحية يستنصرون بها على هذا الطاغية الذى غصبهم عرش أبيهم وشردهم فى غير جناية ، وكان العرب قد فتحوا المغرب الأقصى ووصلوا إلى الزقاق وانضم إليهم من البربر نفر كبير وأخذوا يتطلعون جميعاً إلى بلاد جديدة يفتحونها ويمدون رواق الإسلام إليها ، وتسامع أولاد غيطشة بهم فبعثوا الرسل إليهم يدعونهم إلى القدوم (١) .

* * *

٤ – نظرة فى أحوال إسبانيا تحت حكم القوط (٢)

لم يغير القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الإسبانى فى العصر الرومانى : ظلت الأرستقراطية الرومانية القديمة على عهدها من الغنى والسيطرة على الناس ، وظل الأحرار من أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء فى حال هى وسط بين الحرية والرق ، وظلت بقية أهل البلاد رقيق أرض أو عبيداً يشقون فى سبيل الأقلية الغنية المسيطرة . وقد ائتلف الأغنياء مع القوط لكى يحتفظوا بأملاكهم ، واستقر نفر كبير من هؤلاء فى المزارع واشتغلوا بالزراعة ، وإن بقيت أغلبيتهم تقيم فى المدن فى معسكرات تعيش من إتاوات وضرائب فرضوها على الزراع وضعاف أهل المدن ، حتى ساء أمرهم كثيراً . ولم يكن القوط كثيرين ، ولم يكن بهم ميل إلى المشاركة فى صناعة أو زراعة ، فظلوا غرباء عن البلاد فى الغالب ، ولم يخلفوا فيها من الآثار ما يمكن مقارنته بما خلفه الفرنجة فى فرنسا مثلا (٣) .

ولم تنعم البلاد فى حكم القوط بنصيب كبير من الطمأنينة والرخاء ، لأن العصر كله كان عصر اضطراب وفوضى فى أوروبا كلها ، لا فى إسبانيا

(١) SIMONET. *Op. cit.* pp. 12-13.
SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 43.

(٢) درسنا هذه الناحية بتفصيل أوفى فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب ، وهو خاص بالإدارة وشئون المال .

(٣) DOZY. *Musulmans d'Espagne*, I, pp. 253 Sqq.

وحدها . وانهارت فى نواحى غرب أوروبا قواعد المجتمع الرومانى الثابت القديم الذى كان يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين فى الريف ، ثم تأجيرها بعد ذلك للفلاحين يزرعونها ويؤدون عنها مالا ، وكان معظم الأرض تابعاً للدولة ، فكانت تزرعه بواسطة الفلاحين الأحرار أو العبيد ، فلما طال الزمن واستمر كل فلاح يزرع نفس القطعة من الأرض عاماً بعد عام نشأت بينه وبينها صلة هى أقرب ما تكون إلى صلة الملكية . فلما أقبل المتبربرون واستولوا على أراضى الدولة آلت إليهم أملاكها ، وبهذا تعرض حق هؤلاء الزراع الأحرار فى أراضيهم للضياع ، وغصب المتبربرون من الكثير منهم أرضه واستقروا فيها وأجبروه على زراعتها كأنه عبد أو قن . ولجأ بعضهم إلى مالك غنى مجاور تنازلوا له عن أرضهم فى سبيل حمايتهم من الغاصبين المقبلين . وشاعت هذه الطريقة وعمت ، ونشأت عنها طبقة اجتماعيـــة جديدة هى طبقة البوتشللارى (buccellarii) أى طبقة المحميين . وكان القانون يعتبرهم أحراراً ، ولكن التزاماتهم حيال الأغنياء الذين كانوا يحمونهم جعلتهم فى الواقع فى مراتب التابعين والعبيد .

أقام القوط فى إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية ، يؤيدها الأشراف وملاك الأرض من القوط وأهل البلاد الأصليين على السواء (optiates أو proceres) ، واستمروا يدبرون شئون البلاد بنفس النظام الرومانى القديم : ظلت البـــلاد مقسمة إلى أقاليم (provinciae) ومدن (civitates) ، وكان يحكم كل إقليم دوق ، وكل مدينة كونت (comes) ، وكان كل من هؤلاء الحكام يستعين بطائفة صغيرة أو كبيرة من الموظفين (tiumfadi أو centenarii) يقومون بما تحتاج إليه حكومة الناحية فى النواحى المالية والقضائية والحربية . وكان هؤلاء الموظفون طبقات تختلف بحسب العمل الذى يقوم به كل منهم [١] .

(١) MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES. *Instituciones Economicas, Sociales y Politicoadministrativas de la Peninsula Hispanica durante los siglos V-VII en Historia de España*, III (Madrid, 1940) p. 205 Sqq. BALLESTEROS. *Histoire d'Espagne*, p. 39.

وكان الملك يحكم مستبداً ، أى منفرداً برأيه ، يقضى فى شئون البلاد كما يشاء . وكان له مجلس من النبلاء يساعده فى كل شىء ، ولكن الملوك استبدوا بالأمر حتى لم يعد لهذا المجلس ظل من السلطان ، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها ويقضون فى الأحكام بما يريدون ، وكان المفروض أن ينتخب الملك من بين هؤلاء النبلاء ، ولكن العادة جرت بأن يعتلى العرش أقواهم بحد السيف [١] .

د – مجلس طليطلة

ولكن الدولة القوطية حوت فى نظامها عنصراً طيباً كان له أثر حسن فى ســـير الأمور فى دولة القوط . ذلك هو « مجلس طليطلة » الذى كان يجتمع بين الحين والحين للنظر فى أمور الدولة الكبرى . وكان أصل هذا المجلس دينياً . كان مجلساً من كبار القساوسة الكاثوليكيين . يعقدونه للنظر فى أمور كنيستهم ورعاياها . فلما اعتنق الملوك الكاثوليكية فى عصر ريكاريدو أصبح هذا المجلس رسمياً يدعو الملك لعقده ويحضره كبار رجاله . وأصبح مع الزمن مجلساً سياسياً دينياً . يتناول المسائل جميعاً : دينية وغير دينية . ويصدر القوانين والأحكام فى شتى القضايا ، ثم اتسع سلطانه وتناول القضاء وأصبح بذلك محكمة عليا ، وانتهى الأمر بأن انضم مجلس النبلاء إلى المجلس الدينى وأصبحا مجلساً أعلى للدولة . وقد كان الملوك أول الساعين فى توحيد المجلسين . لأنهم أرادوا أن يزيدوا أحكامهم قوة ومهابة بالتصديق عليها من هذه الهيئة التى تضم كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية وكبار أهل الدولة [٢] .

وقد كان لهذه المجالس تأثير أحسن ، فقد سن أعضاؤها مع الزمن قانوناً شاملا يضمن حريات الناس ويسوى بينهم جميعاً : قوطاً وإيبيريين ،

(١) BALLESTEROS. *Op. cit.* p. 39-40

(٢) BALLESTEROS. *Op. cit.* p. 40.

وهو المسمى (Fuero Juzgo) (١) ، وكان لتشريعاته الأخرى أثر طيب فى تهذيب نفوس القوط وتهيئتهم للعيش المستقر والائتلاف مع أهل البلاد ، واستطاع رجاله كذلك الحيلولة بين الملوك وبين الاستبداد السيء المطلق بشئون الرعية .

٦ – المجتمع الإسبانى أيام القوط

والخلاف شديد بين المؤرخين حول أحوال المجتمع الإسبانى خلال هذا العصر القوطى ، فمعظم الإسبان شديدو العصبية لهذا العصر ، يذهبون إلى أن الناس فيه كانوا يستمتعون برخاء ظاهر فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وأن الزراع والصناع كانوا فى رفاهية لا يكاد الحكام يعسفونهم فى شىء ، وأن موارد البلاد كانت فى ازدياد ، وأن العصر على العموم كان عصر نهضة إسبانية مسيحية . وهم إنما يبالغون هذه المبالغة لكى يؤكدوا للقارئ أن النهضة التى حدثت فى ظلال الإسلام بعد ذلك لم تكن شيئاً جديداً على البلاد ، وأن فضلها لا يعود إلى المسلمين وحدهم ، وإنما كانت البلاد سائرة فى طريقها على أى حال . ومن هؤلاء المؤرخين من يبالغ لكى يظهر للفرنسيين ومؤرخيهم أن إسبانيا كانت على وشك أن تصل إلى شأو الدولة الفرنجية فى عهد الكارولنجيين لو لم يفتح العرب بلادها ويحولوا بينها وبين إدراك هذه الغاية (٢) .

أما حقيقة الحال فكانت بعيدة جداً عما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، نعم إن الحال لم يبلغ من السوء هذا المبلغ المحزن الذى يصوره دوزى فى كتابه ،

(١) عن اللاتينية Forum judicum (القانون القوطى) أى مجموع القوانين القوطية ، وقد تكون فى مدى قرن ، وقد بدأه يوريك ، ثم أضاف إليه خلفه ألاريك الثانى مجموعة من القوانين الرومانية تسمى Breviarum وهو مختصر للقوانين التى كانت تطبق على الرومان ، ويعزى إلى شنداسفنتو الفضل فى مزج المجموعتين معا وتكوين مجموع متناسق منهما يطبق على الناس أجمعين . وهو مجموعة قانونية شاملة لها قيمة تشريعية عظيمة ، ولو طبقت على الناس لكانت سيرة القوط فى إسبانيا سيرة أخرى .

MAURICE LEGENDRE, *Nouvelle Histoire d'Espagne*. pp. 73. Sqq.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحات عينها .

ولكنه كان سيئاً على أى حال ، ولا يقارن بحال بما وصلت إليه البلاد من الرفاهية والرقى فى عصور المسلمين . وذلك هو الرأى الذى يميل إليه المؤرخون المنصفون من الإسبان أنفسهم ، بعد أن تجلت مظاهر الحضارة الإسلامية الإسبانية ، وأصبحت أوضح من أن يمارى فيها أحد أو يفضل عليها نظاماً اجتماعياً مضطرباً كنظام المجتمع القوطى الإسبانى قبيل الفتح العربى (١) .

طبيعى ألا يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد خير من المجتمع الرومانى القديم ، إذ لم يكن لهم هم أنفسهم نظام اجتماعى مقبول قبل أن يدخلوا الدولة الرومانية ويستقروا فى أرضها ويستعيروا نظمها ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكونوا قد أنعشوا المجتمع الرومانى المضمحل وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة توجهه توجيهاً جديداً .

وينبغى أن نقول أيضاً إن القوط كانوا أقل إنسانية ونظاماً من طوائف المتبربرين الأخرى التى استقرت فى شبه الجزيرة حتى الوندال أنفسهم ، لأن الوندال كانوا لا يبهظون البلاد التى ينزلون فيها بتكاليف حكومة ضخمة تريد أن تستقصى كل شىء وتتشبه بالرومان : كانوا يزيلون النظام القديم بمحاسنه ومساوئه ، أما القوط فقد احتفظوا بمساوئ هذا النظام ، وأضافوا إليه مساوئهم ، فعم ضررهم الجميع ، من المزارع الصغير والقن الفقير إلى الغنى صاحب الضياع ، ولم يتدخل الوندال أو السويف فى مسائل الناس الدينية ، أما القوط فتدخلوا واضطهدوا مخالفيهم ، كما رأينا ، فعم بلاؤهم الناس أجمعين (٢) .

وقد ذهب الراهب الراوية باولوس أوروزيوس إلى أن القوط قسموا الأرض وأحسنوا إلى الناس ، ولكن أوروزيوس كاتب كنسى ، ورجال الكنيسة لا يهتمون إلا بما يمس مصالحهم ، ولم تكن لهم عناية بشئون الناس

(١) DOZY. *Musulmans d'Espagne*, I, pp. 258-259.

(٢) DOZY. *Op. cit.* I, p. 258.

وصغارهم خاصة كالزراع وأهل المدن . ومن هذا القبيل ما يؤكده راوية آخر من رواة هذا العصر هو سلڤيان المرســيلى (Salvianus Marsallanus) من أن الناس كانوا يفضلون الفقر والحرية فى عهد القوط على ظلم الرومان ، ولكن الغالب أن كلامه هنا منصب على حكم القوط الشرقيين ، لأنه عاش فى كنفهم ، وكان القوط الشرقيون فى واقع الأمر خيراً من القوط الغربيين بكثير . وينبغى أن نقرر هنا أن الرهبان كانوا راضين عن القوط بعد تحول هؤلاء إلى الكاثوليكية ، وكانوا ساخطين على الناس لأنهم لم يكونوا يراعون أشراط الدين ، بل بقى معظمهم غير مسيحيين . وتلك حقيقة لا ينبغى أن نهملها من الحساب ، إذ الواقع أن الإسبان لم يكونوا جميعاً مسيحيين فى حكومة القوط ، بل ظل الكثير منهم وثنيين . وقد وجدهم المسلمون كذلك . وكان هذا مما يسر عليهم أمر كسبهم إلى الإسلام ، هذا على الرغم مما بذله نفر من قساوسة الكنيسة الكاثوليكية فى تحويل الناس إليها . فقد قضى القس ماسونا (Masona) القوطى حياته كلها يبشر بالمسيحية فى نواحى الغرب وإقليم ماردة على الخصوص ، وهو الذى أوصل المسيحية إلى السويڤ وإلى نواحى جليقية ؛ والراهب لياندرو (Leandro) وكان مبشراً كاتباً مؤرخاً ، وإليهما يرجع الفضل فى ثبات المسيحية على التربة الإسبانية وما أدركته من تأصل فى بعض النواحى ، حتى لم يستطع الإسلام إزالتها خلال قرون(١) .

لم يعمل القساوسة شيئاً لتحسين حال الناس ، إذا استثنينا ماسونا ، فقد كان حبراً إنسانياً حقاً ، بل لم يحاول واحد منهم أن يعترض على ما كان الأغنياء يسرفون فيه من الاستبداد بالضعفاء والاستكثار من العبيد . حتى إيزودور الإشبيلى نفسه على الرغم من علمه الواسع ونزعته الإنسانية ، لم ينكر الرق صراحة ، وإن كان قد قرر أن الناس كلهم متساوون أو يكادون أن يكونوا متساوين ، هذا فى حين أننا نجد راهباً آخر هو إيزودور الثيبايدى (الصعيدى) يدهش من أن نصرانياً فى مصر يقتنى عبداً ، وهذا فى ذاته شعور جميل

(١) MAURICE LEGENDRE. *Op. cit.* p. 73.

جدير بالذكر ولكنه لم يقترن بأى جهد إيجابى من شأنه أن ينفع هؤلاء العبيد ، وكان عددهم كبيراً جداً ، كان الأغنياء يقتنونهم بالآلاف ، ويعاملونهم معاملة جافية كأنهم بعض المتاع ، وقد يئس هؤلاء المساكين من كل إنصاف من جانب الحاكمين أو من جانب رجال الدين ، وباتوا يترقبون فرصة الخلاص(١) .

ولم يكن أوساط الناس ممن يسمون كوريالس (Curiales) من أهل المدن والصناع وأحرار الزراع أحسن حالا ، لأن ملوك القوط لم يلتفتوا إلى شىء يعود بالخير على عامة الناس . ولم يؤثر عنهم إنشاء قنطرة أو تعبيد طريق أو وضع قانون يخفف عن الناس مظالم الحكام أو يجعلهم فى مأمن من الظلم والعدوان . وقد كانوا هم أنفسهم أبعد الناس عن أى لون من هذا التفكير .

ويضاف إلى هذه المساوئ الاضطهاد الدينى بألوانه : اضطهاد القوط للكاثوليك حينما كانوا آريين ، ثم اضطهادهم لليهود على النحو الذى رأيناه فى أيام الدريق مما جعلهم يميلون إلى الخلاص من هذا الحكم البغيض ، وقد اتهمهم القوط بالتآمر على سلامة الدولة مع قوم خارج إسبانيا ، لكى يبرروا عسفهم بهم ؛ والغالب أن رجال الدين الكاثوليك كانوا هم المحرضين على هذا الاضطهاد لأننا رأينا أنه من غير المعقول أن يحاول يهود إسبانيا الاتصال بيهود إفريقية فى ذلك الحين .

وحينما تقادم العهد بالقوط فى البلاد ، وتمتعوا بخيراتها الوفيرة مالت بهم نفوسهم إلى الدعة ، وجعلوا يكلون أمور الحرب إلى عبيدهم ، حتى زاد عدد العبيد على عدد الأحرار فى الجيش . ويبدو أن الحروب المتعددة بين ملوك القوط ونبلائهم هى التى حفزت هؤلاء الملوك إلى الاستكثار من هؤلاء العبيد فى الجيش ؛ لأن أعـداد محاربى القوط القليلة توزعت بين الملوك

(١) DOZY. *Musulmans d'Espagne*, I, 265.

والثائرين ، وكانت كثرة العبيد فى الجيش من أسباب ضعفه ، لأنهم كانوا ساخطين على الدولة ينتظرون الفرصة للتخلى عنها وتركها لمصيرها[١] .

٧– الحالة الثقافية

ولابد من إشارة قصيرة إلى حال الثقافة بألوانها فى البلاد قبل الفتح الإسلامى ، فهذه هى الناحية الوحيدة التى سيجد المسلمون فيها أساساً طيباً يزيدون عليه . وقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وموطن علم وفن ، وضع الفينيقيون أساس ذلك كله وزاد عليه اليونان والرومان ، ثم أقبلت المسيحية فأنعشته وسارت به خطوات إلى الأمام ، ولعل فى هذا بعض ما يفسر لنا سراً من أسرار الازدهار الفكرى السريع الذى حققه المسلمون فى إسبانيا . على قلة اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيطة فى العالمين الإسلامى والمسيحى .

تأصلت المسيحية فى إسبانيا بأسرع مما تأصلت فى غالة مثلا ، ولم يكد القرن السادس يهل حتى كانت البلاد تفيض بالديور يقيم فيها الرهبان يدرسون ويتذاكرون ، والكنائس يقوم بأمرها قسس معنيون بالدرس مشغوفون بالكتابة والتأليف ، وقد أشرنا إلى القس القوطى ماسونا (توفى سنة ٥٧١ م) ونزعاته الإنسانية واجتهاده فى تهذيب المتبربرين ونشر مبادئ الأخلاق المسيحية فيهم . ومن هذا الطراز القديس لياندرو المتوفى سنة ٦٠٣ م ، فقد كان دارساً مجتهداً ، وقد ترك لنا آثاراً فكرية طيبة : ومن آثاره رسالة مسيحية صوفية قريبة الشبه بكتابات القديس أوغسطين فيها زهد فى الدنيا وترغيب فى الكمال ، ومادتها مقتبسة من الإنجيل ولكنها طيبة جداً إذا عرفنا أنها كتبت فى القرن السادس ، وأنه كتبها وهو منفرد بنفسه فى نواحى ماردة ، وكانت إذ ذاك قفراً لا يسكنه إلا القليل[٢] .

وأكبر شخصيات هذا العصر مكاناً وأبقاها أثراً فى مستقبل البلاد

(١) DOZY. *Musulmans d'Espagne*, I, p. 269.

(٢) M. LEGENDRE. *Nouvelle Hist. d'Espagne*, p. 77.

الثقافى هو القديس إيزودور الإشبيلى (ISIDORO DE SEVILLA) ولم يكن قوطياً وإنما من الإيبيريين الرومان ، ولم يكن كاتباً دينياً فحسب بل كان مصنفاً موسوعياً حاول أن يجمع فى كتبه كل ما انتهى إليه من علوم اليونان والرومان معدلة تعديلا مسيحياً ، وهو يعد من هذه الناحية من كبار الكتاب والمفكرين المسيحيين بل من آباء الكنيسة ، وكتاباته تسلكه مع كتابات القديس أوغسطين فى سلك واحد ، وأعظم كتبه وأبقاها كتاب أصول الكلمات (*Originum sive Etymologiarum*) . وربما وجدنا فيما يورده من أصول الكلمات أشياء أسطورية دينية لا يقبلها العقل ، ولكن الكتاب موسوعة أخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية والرومانية وفلسفة المسيحية الأولى ، وهو يعالج فى الأجزاء الثلاثة الأولى الفنون السبعة : النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، ثم يخص الطب بالجزء الرابع ، ويختص بالقانون والتاريخ الجزء الخامس ، ويجعل الجزء السادس للإنجيل وغيره من الكتب الدينية ، وهكذا يختص كل لون من المعارف الإنسانية بجزء ، حتى الفنون اليدوية كالنجارة والهندسة والموازين والمكاييل والألعاب ، مما يجعل كتابه موسوعة غنية بكل غريب طريف ، تدل على أن جميع ألوان المعارف الإنسانية التى كانت معروفة فى ذلك الحين كانت موجودة متدارسة فى إسبانيا ، وأن العرب حينما دخلوا البلاد وجدوا فيها تراثاً ثقافياً طيباً[١] .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب القديس إيزودور عدداً عظيما من القساوسة

(١) أراد إيزودور أن ينشىء موسوعة تضم معارف عصره كلها وجعلها فى ٢٠ جزءاً : الستة الأولى منها مقدمة والباقية تتناول أصناف العلوم والفنون المعروفة فى عصره . وله مؤلفات تاريخية كثيرة ، منها كتاب عظماء الرجال (*Liber de viris illustribus*) والمدونة (*Chronicon*) وتاريخ ملوك القوط (*Historia de Regibus Gothorum*) وتاريخ ملوك الوندال والسويف (*Historia de regibus Vandalorum et Suevorum*)
انظر :
JUSTO PÉREZ DE URBEL. *Las letras en la epoca visigoda* en *Historia de España*, tomo III. *España Visigoda* (Madrid, 1940), pp. 401 Sqq.

والرهبان الذين تركوا مؤلفات شتى ، منهم باولوس أوروزيوس قس لوزيتانية ، ولم يكن إسبانى الأصل وإنما كان صقلياً ، وهو من تلاميذ القديس أوغسطين أسقف بونه ، أخذ عنه العلم وتشبع بآرائه وهو لهذا يكتب على غراره : يهاجم الوثنية ويدعو إلى الله ، وقد حاول تقليد سنت أوغسطين فى كتابه « مدينة الله » (*Civitate Dei*) ، ونلاحظ هذا التشابه فى التاريخ العالمى الذى كتبه تحت اسم (*Historiarum libri vii contra paganos*) الذى يفسر فيه التاريخ تفسيراً دينياً مسيحياً ويصور العناية الإلهية توجه أعمال البشر والرسل يقودون الناس إلى أحسن مصير (١) .

أما ما عدا الآداب من الفنون . فإن القوط لم يخلفوا إلا ثروة معمارية فقيرة جداً ، ومن أمثلة هذا الطراز بازيليكية سان خوان دِبانيوس التى بنيت فى عصر رخشندش وجزء من كنيسة سان بادرو دِتاراسا وبعض عمد باقية فى كنيسة سان بابلو دل كامپو فى برشلونة ، وينسب بعض مؤرخى الفنون العقد المخمس إلى القوط (٢) .

وخلاصة القول أن إسبانيا القوطية لم تكن شراً كلها كما يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين والعرب ، ولم تكن خيراً كلها كما يزعم الإسبان ، وإنما كانت جوانبها الاجتماعية ضعيفة جداً ، بل تعد امتداداً للعصر الرومانى المضمحل . وذلك معقول ، لأن القوط أنفسهم كانوا قبائل متبدية لا تملك من الأسس الاجتماعية ما يعينها على تنظيم بلد واسع كاسبانيا ومجتمع متشعب مختلف كمجتمعها الذى ضم أخلاطاً من كل صنف . وقد حاولوا أن يتخذوا مظاهر النظام السياسى الرومانى فلم يوفقوا ، لأنهم كانوا أبعد من أن يفهموه أو يستطيعوا البناء عليه ، ولم يصب الناس من وراء ذلك إلا شر بالغ .

وأما الناحية الفكرية فكانت خيراً خالصاً ، لأن الذين قاموا بها كانوا

(١) نفس المصدر ص ٧٢ .

(٢) BALLESTEROS. *Op. cit.* p. 41.

هم الإسبان الأصليين بعد أن دخلوا المسيحية وتأثروا بأفكارها وفلسفتها ، فلا عجب أن ظهر فى هذا القطر النائى رجال من طراز إيزودور الإشبيلى وباولوس أوروزيوس وليانْدرو ، لأن البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر فى عهود الرومان. لقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبا الغربية كلها فى هذه الناحية ، كما ستسبق إسبانيا الإسلامية بقية العالم الإسلامى فى نواح شتى من نواحى التفكير الإسلامى . ولعل مرد هذا إلى أثر هذا القطر البديع فيمن يقيم فيه ، وليس من وحى المصادفة أن يتواتر السبق والنبوغ فى أهله من أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولعل إيزودور الإشبيلى قد أحس فضل الوطن الإسبانى على ما وصل إليه من ذكاء وعلم واقتدار فعبر عن شكره لبلده فى أسطر تفيض رقة وحناناً يقول فيها مناجياً إسبانيا :

« أى إسبانيا ! إنما أنت أجمل الأرضين التى تمتد من أقصى الغرب حتى الهند ... إنك لأرض مباركة سعيدة بأمرائك ! إنك أم لشعوب عديدة ، وأنت ملكة الولايات أجمعين ... منك يقبس الغرب والشرق النور . وعلى أرضك يزدهر خصب الشعب القوطى المجيد ... »(١) .

(١) MAURICE LEGENDRE. *Op. cit.* p. 78

الفصل الثاني

فتح المغرب

٨ – فتح المغرب

لم يدخل الشمال الإفريقى فى حوزة الإسلام بحرب واحدة بل بسلسلة من الحروب استمرت حوالى سبعين سنة متوالية ، بدأت ببعث استطلاعى قام به عقبة بن نافع فى ذى القعدة سنة ٢١ هـ (سبتمبر ٦٤٢) وانتهت بحملة موسى بن نصير الأخيرة الموفقة التى أخضع فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠ هـ (سنة ٧٠٨م)، وقد لقى فيها العرب من الجهد والخسائر ما لم يلقوا مثله فى فتح إقليم آخر ، حتى شمال الهند نفسه[1] .

بيد أننا لو قارنا هذا الجهد الذى بذله العرب بسعة البلاد التى تم فتحها ووعورة أراضيها واختلاف أجناسها ، لتبينا أن العرب فتحوا هذه الأقطار المترامية بأيسر مما فتحها الرومان ، وأنهم وفقوا إلى إخضاعها توفيقاً لا يكاد يقارن به توفيق الرومان فى العصر القديم أو توفيق الفرنسيين فى العصر الحديث ، وأن خسائر العرب كانت أقل بكثير جداً من خسائر هؤلاء وأولئك . هذا فى حين كانت النتيجة التى وصل إليها العرب رائعة على غير مثال ، وقد علق جوتييه على ذلك بقوله : « لا زالت النتائج التى وصل إليها العرب (فى فتحهم الشمال الإفريقى) تدهشنا إلى الآن . لقد عُرِّب المغرب إلى حد كبير ، وتحول إلى الإسلام تحولا تاماً عميقاً ، وهذه نتيجة تدعو إلى الإعجاب ، ما فى ذلك شك ، ولم توفق إلى مثل هذه النتيجة حركة استعمارية (كذا) أخرى قامت على وجه الأرض ، ولنكرر القول أن هذا الفتح أحدث ، خلال القرن السابع ،

(١) أوجزت فى الصفحات التالية فتح إفريقية اعتمادا على بحثى فى هذا الموضوع « فتح العرب للمغرب » – القاهرة سنة ١٩٤٧ ، والبحث الذى نشره ليڤى پروڤنسال « نص جديد عن فتح العرب للمغرب » فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد – مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ ، وتعليقنا على كلام پروڤنسال ونص عبيد الله .

ثورة كبرى : لقد انهار الحاجز المغلق إغلاقاً محكماً من كل ناحية ، الذى كان يفصل الشرق عن الغرب . ولو أننا قارنا هذه القفزة الواسعة نحو المجهول بثوراتنا – الفرنسية أو الروسية مثلا – لبدت لنا هاتان الأخيرتان صغيرتين جداً ، فإذا دفعنا تطلعنا إلى فهم الأسلوب الذى تمت به هذه الثورة الكبرى وإلى الإحاطة بتفاصيلها استبنّا أن الفتح العربى كان طويلا جداً وعنيفا جداً ، إذ قاومتهم البلاد مقاومة عنيدة»[1] .

هذه الملاحظة تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة الفتح العربى للمغرب وعن ضخامة العمل الذى قام العرب به ومدوا خلاله رواق الإسلام بضعة آلاف من الكيلومترات ، من حدود مصر إلى المحيط الأطلسى . والثابت تماما أن العرب لم يتصوروا اتساع المغرب الشاسع واختلاف شعوبه حينما أقبلوا على فتحه ، وأنهم فتحوه جزءاً جزءاً : كل إقليم يؤدى بهم إلى الذى يليه حتى وصلوا إلى النهاية ، أما ما نجده عند بعض المؤرخين والجغرافيين من تصور صحيح للمغرب وأهله فقد كتب بعد تمام الفتح وإسلام المغرب بقرون[2].

(١) E.F. GAUTIER. *Le passé de L'Afrique du Nord.* pp. 247-248.
وبقية عبارة جوتييه فى هذا الصدد لا تقل عن هذه الفقرة أهمية ولا عمقاً ، فهو يقول مثلا بعد استعراض سريع لخطوات الفتح العربى : «كان الفتح الفرنسى للجزائر طويلا مؤلماً ، وكانت قيادته سيئة ، وليس لنا الحق فى أن نفخر به كثيراً . ولكن لنقارنه بالفتح العربى ، ولنفرض أنه بين سنتى ١٨٣٠ و ١٩٠٠ طرد الفرنسيون من البلاد طرداً تاماً ثلاث مرات ، وأنهم لم يحتفظوا فى أحسن هذه المرات إلا بالجزائر وضواحيها – مدينة الجزائر تقابل عندنا القيروان عند العرب – ، إذا استطعنا تصور ذلك أخذنا فكرة عما حدث أثناء الفتح العربى ... » .

ثم يورد بعد ذلك نصوصاً لمؤرخى العرب وجغرافييهم تصور صعوبة هذه البلاد وعتو أهلها ، وقد أوردت معظم هذه النصوص فى صلب البحث . (نفس المصدر ص ٢٤٩ وما يليها) .

(٢) مثل هذه المقالة نسبها ابن عبد الحكم إلى عمرو بن العاص رواية عن عبد الملك ابن مسلمة عن ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن أبى تميم الجيشانى ، قال : إن عمرو بن العاص بعث يستأذن عمر بن الخطاب فى فتح إفريقية ، فكتب إليه عمر : «لا ... إنها ليست بافريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت ... » .

ومثل قول ابن عذارى : « فكتب حسان (بن النعمان) إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره =

مر فتح العرب للمغرب فى ستة أدوار[1] :

(ا) الدور الأول : من أوائل الفتح فى ذى القعدة سنة ٢١ هـ (سبتمبر ٦٤٢) إلى نهاية ولاية معاوية بن حديج فى أوائل سنة ٤٨ هـ (سنة ٦٦٨ م) :

وفى خلالها غزا عمرو بن العاص برقة ، وكسب قبيلة لواتة الكبيرة إلى جانب المسلمين . بل أدخل بعض أهلها فى الإسلام . فكان هذا أول كسب للإسلام فيما يلى حدود مصر غربا . واستفاد عمرو فى أثناء ذلك بجهود عقبة بن نافع الفهرى . وكان إذ ذاك قائداً صغيراً فى جيشه . فبعثه إلى زويلة

= بذلك ، وأن أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أمم ، وهم من الخفل والكثرة كسائمة النعم ... » .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٣ .

ابن عذارى : البيان ، ج ١ ص ٢١ .

(١) اعتمدت فى كتابة هذا الموجز لفتح العرب للمغرب على بحثى الخاص بهذا الموضوع (القاهرة ١٩٤٧) . وإليك أهم المراجع والصفحات التى اعتمدت عليها :

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (حققه شارل س . تورى سنة ١٩٢٢) ابتداء من ص ١٧٠ .

والبلاذرى : فتوح البلدان من ص ٢٢٤ .

والبكرى : وصف إفريقية ص ١ ، ٢ وفى مواضع متفرقة أخرى ، لأنه يذكر ما يعرفه عن فتح المسلمين لكل بلد عند ما يذكره .

ورياض النفوس للمالكى (القاهرة ١٩٥١) ج ١ ، من ص ١ وما بعدها .

وابن الأثير : ج ٣ ، ابتداء من ص ١٠ .

وابن خلدون ج ٦ ، من ص ١٤٤ .

والنويرى : نهاية الأرب ، (مخطوط بدار الكتب) من ص ٦٣أ .

وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ من ص ٧٦ .

والدباغ : معالم الإيمان ، ج ١ من ص ٤٠ .

وكل من هذه المراجع لا يخصص للفتح إلا بضع صفحات ، وسأكتفى بهذه الإشارة عن ذكر المراجع بعد كل فقرة .

وفزان وودّان . وقد أقام عقبة فى هذه النواحى الصحراوية المنعزلة نحو عشرين سنة يدعو للإسلام ويضرب لأهلها مثلا جميلا للمسلم الصحيح المتفانى فى دينه ، واستطاع أن يكسب إلى صفه قلوب الكثيرين من أهلها ومعظمهم من نفوسة ولواتة ونفزاوة (أى من البُتْر ، أى البربر الظواعن) . فأما من أسلم منهم فسينضم إلى المسلمين منذ الساعة وسيكون له أثره فى نجاح فتوحهم وتقدمها . وأما من لم يسلم فقد أصبح صديقا للمسلمين يواليهم بالعون ويؤيدهم على الروم والبرانس (البربر المستقرين المتحضرين بالحضارة اللاتينية) .

وفى خلال هذا الدور وفق المسلمون إلى الانتصار الحاسم العظيم على الروم عند سبيطلة فى أوائل سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) . وقد كانت لهذا الانتصار العظيم نتيجة واحدة : هو أنه كسر سلطان البيزنطيين كسرة لن يعود بعدها إلى ما كان عليه فى البلاد قبل الفتح الإسلامى . وسيحاول البيزنطيون العودة إلى البلاد والاتحاد مع البربر ومغالبة العرب ، ولكن كل محاولاتهم لن تزيد عن أن تكون محاولات قليلة الخطر عديمة النتائج . ولو أن عبد الله بن أبى سرح أقام فى البلاد أو ترك فيها حامية لكان لانتصار سبيطلة نتائج بعيدة حاسمة ، ولكنه عجل بالعودة لأسباب غير ظاهرة ، مكتفياً بمال عظيم جمعه من أهل البلاد . فكان على من أتى بعده أن يبدأ من جديد ، لأن انسحابه عفى على معظم النتائج التى كان المسلمون قد وصلوا إليها فى البلاد .

(ب) الدور الثانى : ويمتد من سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ — ٦٧٠ م) إلى ٦٢ هـ (٦٨١ م) ويشمل ولاية عقبة بن نافع الأولى وولاية أبى المهاجر دينار :

لم يقم المسلمون بشىء حاسم فى إفريقية بين سنتى ٢٨ و ٤٥ هجرية ، ذلك أن فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث أوقفت نشاط التوسع الإسلامى فى كل وجه ، نعم إن عثمان لم يقتل إلا سنة ٣٥ هـ (٦٥٤ م) ولكن السنوات الأخيرة من حكمه كانت سنوات اضطراب وشغب عليه ، وكان والى مصر وقائد الفتوح فى إفريقية هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح أحد المغضوب

عليهم من الناس فى ذلك الحين ، فكان طبيعياً أن ينصرف فكره عن إفريقية ومواصلة الفتوح فيها منذ عودته من غزواته التى ذكرناها فى سنة ٢٨ هـ (٦٤٧ م) .

فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية عاد عمرو بن العاص إلى مصر سنة ٣٨ هـ (٦٤٨ م) واتجه ذهنه من أول الأمر إلى معاودة الغزو فى إفريقية ، لأنها كانت ، فى حسابه ، باباً مفتوحاً للكسب والمغانم . ولا نزاع فى أن معاوية لم يكن راضياً عن هذه الحرية التى أباحها عمرو لنفسه ، لأن حملة عبد الله بن سعد وما عادت به من المغنم الوفير فتحت عينه على أهميتها ، وجعلته يفكر فى فصلها عن مصر وإفرادها بوال خاص . فلما توفى عمرو سنة ٤٤ هـ (٦٦٥ م) سنحت له الفرصة ليحدث هذا التغيير الهام الذى يعين لنا تطوراً خطيراً فى علاقة المغرب بالخلافة الإسلامية ، فمن ذلك الحين أصبح المغرب ولاية مستقلة تابعة للخلافة رأساً ، وكان أول وال إسلامى عين على إفريقية معاوية بن حديج أحد كبار أنصار معاوية .

عجل معاوية بن حديج بالسير إلى مصر فى سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ م) فلم يكد يصل برقة حتى بلغه أن البيزنطيين عادوا فأرسلوا جيشاً إلى البلاد ، وأن قائد هذا الجيش قد طالب أهل إفريقية بأن يؤدوا له من المال بقدر ما أدوا للعرب ، فثار به الأهلون ، فعاد إلى بلاده ليعود بجيش قوى وفى نيته إرغام الأهلين على أن يؤدوا له ما طلب ، فوصل إلى قرطاجنة قبيل الوقت الذى عبر فيه معاوية بن حديج حدودها ومعه عشرة آلاف من العرب فيهم نفر كبير من الصحابة والتابعين ، من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن مروان وعدة من أشراف قريش ، ونفر كبير من جند مصر . ولم يكد الجيش يحط رحاله فى إقليم قمُّونية جنوبى قرطاجنة حتى تسامع بنزول الروم ، فتقدم نحوهم وعسكر فى مكان يسمى القرن ، ومن هناك أرسل عبد الله بن الزبير ليستطلع أحوال جيش الروم ،

فلم يكد هذا الأخير يشعر باقتراب العرب حتى تراجع إلى سوسة ، وأدركه عبد الله بن الزبير فيها وناوشه مناوشة خفيفة ، أقلع بعدها إلى صقلية ، واستولى المسلمون على سوسة . وأرسل معاوية سرية أخرى إلى جلولاء (Couloulis الرومية) استولت عليها وغنمت غنيمة متواضعة ، ثم سار بنفسه إلى بنزرت فاستولى عليها . ولا صحة لما يذكره بعض المؤرخين من أن معاوية بن حديج بعث سرية إلى صقلية . ولسنا نستطيع اعتبار أعمال معاوية بن حديج فتوحاً ، وإنما كانت سرايا قليلة الأهمية لم تترك فى البلاد أثراً يذكر

(ج) الدور الثالث : ولاية عقبة الأولى واختطاط القيروان (٤٩ — ٥٥ هـ — ٦٦٩ — ٦٧٥ م) :

٩ — اختطاط القيروان

وأما نشاط الفتح الصحيح فيعود من جديد بتولى عقبة ابن نافع قيادة الفتوح فى المغرب سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ — ٦٧٠ م) وقد كان عقبة أقدم المسلمين عهداً بإفريقية وأعرفهم بأحوالها ، وكان فى نفسه رجلا شديد الإيمان تميل نفسه نحو نشر الدين لا إلى مجرد الفتوح والانتصارات وما وراء هذه من مكاسب . ويبدو أنه كان قد وضع فى نفسه خطة طويلة للفتح ، ولهذا لم تكد ولاية إفريقية تؤول إليه حتى سارع بإنشاء مدينة للمسلمين ، اختطها فى إقليم قمُّونية جنوبى قرطاجنة ، ويغلب أنه لم يرد إنشاء مدينة بالمعنى المعروف وإنما معسكراً ، فقد قال : « وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً ، وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر » ، وقد قضى عقبة فى إنشائها نحو أربع سنوات (٤٩ — ٥٢ هـ/٦٦٩ — ٦٧٥ م) فلم تكد المدينة تقوم حتى بدأت « ولاية إفريقية » الإسلامية تظهر ، ولم يعد العرب مجرد غزاة يخرجون من مصر للغزو ثم يعودون إليها ، بل أصبحت العاصمة الجديدة مركزاً تخرج منه الغزوات وتنظم منه شئون البلاد ، وهذا فى ذاته تطور له معناه . واشتغل عقبة أثناء بناء المدينة فى إرسال السرايا فى كل وجه . فكانت نتيجة ذلك أن القبائل البربرية المقيمة فى سهل تونس وفى

الهضاب المجاورة بدأت تشعر بقوة المسلمين ، واجتذبتهم المدينة الجديدة ، وأثرت فيهم شخصية عقبة القوية . فأخذوا يقتربون من المسلمين وأسلم منهم نفر عظيم ، وبهذا نشأت فى سهل تونس جماعة إسلامية بربرية . وكانت تلك خطوة حاسمة فى تحويل المغرب إلى الإسلام . وزادها أهمية أن الكثيرين من هؤلاء البربر الذين أسلموا أخذوا ينتظمون فى جيوش المسلمين ويسيرون معهم لإتمام فتح البلاد .

فلما أتم عقبة تأسيس « نقطة الارتكاز » وفيما هو يشرع يتخذ الأهبة للخروج للغزو الواسع النطاق . إذا معاوية بن أبى سفيان يفاجئه بالعزل سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) نتيجة لسعايات والى مصر مسلمة بن مخلد ، الذى كان يغار من عقبة ويحسده .

وأقام مسلمة على إفريقية أحد مواليه دينار أبا المهاجر سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) وكان مسلماً حسناً وجندياً نشيطاً . وكان أول قائد مسلم يقدر له أن يخرج من سهل تونس ليتوقل هضاب المغرب الأوسط ويهاجم القبائل البربرية فى مواطنها الحصينة . وكانت أول كتلة بربرية قوية اصطدم بها هى كتلة أورَبة أقوى قبائل البرانس فى ذلك الحين . وكانت النصرانية قد انتشرت بين أفرادها . وكان رئيسها كسيلة بن لمزم الأوربى ،وكان رئيساً ذكياً قادراً . وقد استطاع أبو المهاجر أن يغزو مواقع أوربة فى جبال الأوراس وأن يجتذب كسيلة إلى الإسلام ، فأسلم وتبعه نفر كبير من قومه فى غزوة طويلة وصل فيها إلى تلمسان ، ثم هاجم قرطاجنة هجوماً قوياً سنة ٥٩ هـ ، ولم يرجع عنها إلا بعد أن تنازل الروم له عن شبه جزيرة شريك الواقعة جنوبى إقليم قرطاجنة ، فاحتلها المسلمون وضيقوا الخناق على عاصمة إفريقية البيزنطية.

(د) الدور الرابع : حملة عقبة الكبرى (٦٢ — ٦٤ هـ/٦٨٢ — ٦٨٤م)

وانتهت ولاية أبى المهاجر سنة ٦٠ هـ ، إذ عزله يزيد بن معاوية ورد عقبة إليها بعد أن طال غيابه عنها وطالت شكواه من حرمانه منها ، ثم عجل

بالخروج فى غزوته الكبرى التى وصل فيها إلى المحيط ، ومن الغريب أن هذا الرجل القادر لم يحسن استغلال هذه الفرصة العظيمة التى أتيحت له ، فقد كان الروم فى حالة من الضعف لا تأذن لهم بمقاومة المسلمين، وكانت أورَبة كلها إلى جانب العرب يقودها رئيسها كسيلة . بدأ عقبة فأساء معاملة كسيلة ونفّره وقومَه من المسلمين ، ثم مضى فى مغامرة طويلة المدى قليلة الأثر السياسى ، تذهب المراجع إلى أنه انتهى فيها إلى ساحل المحيط عند « إيغيران يطوف » ، ثم عاد ليلقى مصرعه عند تهودة على يد البربر ونفر من أحلافهم من الروم سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ — ٦٨٤ م) ، وقد استشهد مع عقبة فى هذه الوقعة نفر كبير من رؤساء المسلمين فيهم أبو المهاجر دينار نفسه . فإذا تم ذلك لكسيلة فقد سار بمن معه من البربر فاحتل القيروان ، وتراجع من بقى من المسلمين إلى برقة يقودهم زهير بن قيس البلوى[1].

بهذا خرجت إفريقية من أيدى المسلمين ، وتراجعوا إلى برقة التى كان عمرو بن العاص قد فتحها منذ نحو أربعين سنة ، وكان على خليفة عقبة أن يبدأ العمل من جديد . ولكن الواقع أن هذه الهزيمة لم تكن قاضية على كل أثر للمسلمين فى البلاد ، إذ أن إفريقية كانت تضم إذ ذاك جماعات إسلامية قوية فى القيروان وحولها وفى بعض نواحى الأوراس ، وقد خضعت هذه الجماعات لكسيلة ولكنها ظلت تترقب فرصة عودة المسلمين ، ويبدو أن نزاعاً وقع بينه وبينهم ، لأن المراجع تصور لنا إفريقية خلال الفترة التى انقضت بين انسحاب المسلمين وعودتهم فى حالة مضطربة .

(هـ) الدور الخامس : ولاية زهير بن قيس والقضاء على مقاومة البرانس (٦٩ — ٧١ هـ / ٦٨٨ — ٦٨٩ م) :

عاد المسلمون إلى إفريقية بعد هذه الهزيمة بأربع سنوات — أى سنة ٦٩هـ/

(1) انظر : حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) وليڤى پروفنسال : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشر فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثانى ١٩٥٤ ص ١٩٣ وما يليها .

٦٨٩ م — يقودهم زهير بن قيس البلوى الذى ظل هذه السنوات ينتظر المدد فى برقة ، وقد أبدى زهير مقدرة عظيمة خلال السنوات الثلاث التى قاد فيها جيوش المسلمين فى إفريقية : بدأ بحملة عنيفة على الروم قضت على كل أمل لهم فى معاودة الوقوف فى وجه المسلمين أو التحالف مع البربر ، ثم أسرع إلى كسيلة الذى كان متحصناً فى مَمّس ، فهزمه وقتله فى معركة حامية «كسرت شوكة البرانس وقضت على مقاومتهم . وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم » . وبهذا قضى هذا القائد الماهر خلال هذه الفترة القصيرة على عنصرين من أشد عناصر المقاومة ، وهما الروم والبربر البرانس أى المستقرين فى السهل الساحلى المتأثرين بالحضارة البيزنطية والمسيحية ، وبقيت ضربة أخرى توجه إلى القبائل المتبدية (البُتْرية) لكى يمكن القول بأن المسلمين قد قضوا على كل عناصر المقاومة الجدية فى المغرب .

قاد جيوش الإسلام المظفرة فى هذا الدور الخطير من أدوار الفتح رجل لا يقل قدرة ولا أهمية عن عقبة بن نافع أو زهير بن قيس ، وهو حسان بن النعمان . وكان زهير قد استشهد عند برقة ، تربص له الروم على طريق العودة بعد هزيمتهم وهزيمة أحلافهم ، وكأن قتلهم زهير قد أنعش فى نفوسهم الآمال فى عودة إفريقية إليهم ، وأرسل الإمبراطور ليونتيوس مدداً صغيراً إلى قرطاجنة قويت به نفوس من بها من الروم ، فكان على حسان خليفة زهير أن يبدأ العمل من جديد كما بدأه زهير .

(و) الدور السادس : القضاء على مقاومة البُتْر وإتمام فتح المغرب (٧٦ — ٨٥ هـ / ٦٩٥ — ٧٠٥ م) :

فطن عبد الملك بن مروان إلى أن إفريقية لن تفتح فتحاً كاملا ثابتاً إلا إذا سار إليها جيش كبير حسن الإعداد . وواتته الظروف على إرسال هذا

الجيش ، إذ كانت ثورة ابن الزبير قد قضى عليها ، ولهذا وضع تحت تصرف حسان جيشاً كبيراً حسن العدة يبلغ عدد جنوده أربعين ألفاً . وسار حسان إلى إفريقية بعد أن رسم لنفسه خطة واضحة : كان يعرف أن القادة قبله كانوا ينفقون معظم وقتهم وجهودهم فى أعمال حربية ثانوية تفرق قواهم وتحول بينهم وبين أن يقوموا بعمل حاسم يقضى على مقاومة البربر أو الروم . جعل حسان الروم وجهته الأولى ، وكان يعرف أن ما بقى لهم من القوة فى قرطاجنة شىء صغير لا يستطيع مواجهة العرب ، ولكنه كان يستطيع مضايقتهم وشل حركتهم وإحباط مساعيهم فعول على مهاجمتهم فى قرطاجنة والقضاء عليهم القضاء الأخير ؛ وقد ألح فى حربه لقرطاجنة ومن فيها وثابر على ذلك حتى استبان لمن فيها من الروم أن لا نجاة إلا بالهرب وترك البلاد جملة ، « فركبوا مراكبهم ، وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس ، ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب » ، وبهذا قضى حسان على عش المقاومة هذا بعد أن ظل شجى فى حلق المسلمين نحو ثلاثين سنة ، ولو قد أرادوا القضاء عليه سنة ٢٧ هـ لفعلوا ، ولكن الأمر كان يحتاج إلى رجل فى قدرة حسان وبعد نظره . ثم مضى حسان يهاجم الروم فيما عسى أن يعرفه من مراكزهم الباقية ، وأبدى فى ذلك نشاطاً مشكوراً .

ثم عاد ليتوجه بكل قواه نحو مركز المقاومة الآخر وهم البربر البُتْر ، وكانوا قد تجمعوا حول امرأة لقبها العرب بالكاهنة ، ويغلب أن اسمها كان « داهية بنت ماتية بن تيغان » ملكة جبل أوراس ، وكانت على جانب عظيم من المهارة والقدرة ، فجمعت حول رايتها نفراً غفيراً من البربر الرحل « فيهم بنو يفرن ، ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر » ، وكانت هى تنتسب إلى قبيلة جيرواة ، ويذهب المؤرخون إلى أن هذه القبيلة كانت يهودية ، وهذا أمر لا يستبعد وإن كان يفتقر إلى ما يثبته .

ولم تكن الكاهنة ثائرة على العرب من أول الأمر كما يفهم من النصوص ،

وإنما كانت مطمئنة بمقامها فى جبل أوراس ترقب الحوادث ، فلما رأت حسان يقضى على الروم ويتقدم نحو بلادها سارعت فجمعت من استطاعت جمعه من رجالها ، وانتظرت فى « باغاية » على مدخل الجبال ، فلما اقترب حسان منها تراجعت حتى ثبتت عند نهر نينى على مقربة من موضع قسنطينة الحالية . وثبتت الكاهنة ومن معها للعرب ثباتاً عظيما ، بل شدت عليهم حتى هزمتهم بعد أن قتلت منهم عدداً كبيراً ، وتقهقروا أمامها فتتبعتهم حتى أخرجتهم من إفريقية جملة ، وبهذا خرجت هذه البلاد عن يد العرب مرة أخرى بعد ما تكبدوه من جهد وتضحية ، وأرادت الكاهنة أن تقطع أمل العرب من هذه البلاد ، فأمرت رجالها فخربوا ما استطاعوا تخريبه من مظاهر العمران .

أضر هذا العمل بالكاهنة وقضيتها ضرراً بالغاً ، لأنه غير عليها نفوس الناس ، وجعلهم يرون أن العرب خير من هذه الرئيسة على كل حال ، فهم لا يخربون ما يدخلونه من البلاد هذا التخريب الذريع . وانتهز الروم الفرصة فعادوا فى سفن ودخلوا قرطاجنة ، وطردوا من كان بها من المسلمين . وأقام حسان فى برقة خمس سنين حتى أرسل له عبد الملك بن مروان المدد ، فتحرك إلى إفريقية من جديد سنة ٨١ هـ (٧٠١ م) .

لم يكد حسان يطل على سهل تونس حتى تسارع نفر عظيم من البربر والأفارقة فانضم إليه ، فعظم جمعه وسار للقاء الكاهنة ، ويبدو أنها أحست ضعف أمرها وقرب نهاية شأنها ، فأخذت تتراجع متوغلة فى جبال أوراس ، وبعثت ولديها ليستأمنا حسان ، فأمنهما وولى كلا منهما على ستة آلاف ممن استأمن من البربر والأفارقة ، ثم لقيت العرب عند « بئر الكاهنة » وانهزمت . وهكذا قضى العرب على آخر حركة قام بها أهالى البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هى الحصن الأخير الذى احتمى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم يبق أمام العرب بعد ذلك إلا « غبار قبائل » كما يقول جوتييه ، ثم سار حسان نحو قرطاجنة وطرد الحامية التى كانت قد استقرت فيها بقيادة البطريق يوحنا .

١٠ – اختطاط تونس

ولم يطمئن حسان من ناحية الروم ، ورأى أن سقوط قرطاجنة فى يديه لا يمنع الروم من العودة إلى أى مكان آخر من الساحل ، فعول على إنشاء ميناء إسلامى جديد على مقربة من قرطاجنة ، ليشرف منه على البحر ويحول بين الروم وبين الاقتراب ، وبهذا نشأت « تونس » . ولم تزد فى عهد حسان عن محرس صغير به بعض المساجد والمبانى ، ولكن إنشاءها سيتم على يد عبد الله بن الحبحاب بعد ذلك بثلاثين سنة ، فتصبح ثغر إفريقية الكبير ، ويتكون فيها أسطول عظيم يغزو المسلمون به صقلية وجنوبى إيطاليا بل جنوبى فرنسا ، ويمهدون به السبيل للسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط .

* * *

١١ – تنظيم ولاية إفريقية

لم يكد الفتح يتم حتى عجل حسان بتنظيم أمور الولاية الجديدة ، « فدون الدواوين وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية » ، وقسم البلاد خططاً : لكل قبيلة خطة ، وفرض على القبائل أن يقدموا للمسلمين عدداً من الجنود يحاربون معهم . ويبدو أن البربر أقبلوا على الإسلام فى حماس ، فعمرت بهم جيوش المسلمين فى المغرب من ذلك الحين ، وكان حسان بعيد النظر فسوى بين العرب والبربر فى قسم الفىء ، ثم أقام العمال على نواحى الإدارة من خراج وزكاة وجند . وأرسل الخليفة قاضياً للقيروان أسوة بغيرها من العواصم الإسلامية الكبرى ، وبهذا تم فتح المغرب وتنظيمه . ونستطيع القول أن حسان صاحب الفضل الأول فى ذلك كله ، فقد دخل البلاد سنة ٨١هـ فوجدها مضطربة ثائرة ، ووجد أمر الإسلام فيها مشفياً على الزوال ، وغادرها سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ م) ولاية إسلامية هادئة منظمة ، بل تركها وأهلها مقبلون على الإسلام إقبالا عظيما ، ويكفى أن نلاحظ أن معظم الجيش الإسلامى فى إفريقية كان من البربر حتى تتضح لنا هذه الناحية .

ولو امتدت ولاية حسان لجنى المغرب على يديه كثيراً من الخير ، لأنه

كان كما رأينا رجلا مخلصاً نشيطاً بعيد النظر ، ويبدو أن صفاته تلك أوقعته فى خلاف مع عبد العزيز بن مروان عامل مصر للوليد بن عبد الملك ، وكان عبد العزيز يرى نفسه صنو الخليفة ويطلق يده فى الأمور كما يشاء دون نظر صادق لصالح الرعية ، وكانت نفسه معلقة منذ زمن بإفريقية ، فلم يزل يضايق حسان ويلاحيه حتّى أخافه وجعل استمراره فى العمل غير ميسور ، فاعتزل هذا الرجل القدير العمل فى أوائل سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ م) والمغرب فى أشد الحاجة إليه .

١٢ – موسى بن نصير يتولى أمور المغرب(١)

وسارع عبد العزيز فأقام على إفريقية وليَّه وأقرب رجاله إليه موسى بن نصير ، وكان من أقدر رجال الدولة الأموية وأذكاهم ، وإن كنا لا نستطيع مقارنته بحسان بن النعمان من حيث النزاهة والإخلاص والعناية بصالح الدولة والرعية : فبينما كان حسان ينظر إلى صالح الأهلين ويسعى فى تمكين سلطان الدولة والإسلام على نفوسهم بالعدل والخير ، كان موسى يحسب أن المسألة مسألة حروب وغنائم وكفى . فكان همه منذ تولى منصرفاً إلى القيام بغزوات يعود منها بالمغنم الوفير والسبى الكثير ولا يهتم بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الضربات من الحفيظة وسوء الظن فى نفوس أهل البلاد ، وسنلاحظ فيما نتناول من شئون المغرب فى سياق هذا البحث أن شيئاً كثيراً من سوء الظن بالعرب قد انغرس

---

(١) اعتمدت فى كتابة هذا الجزء على المراجع السابق ذكرها ، ولم أجد حرجاً فى الاعتماد على التفاصيل الهامة التى وردت فى كتاب الإمامة والسياسة لأبى حنيفة الدينورى (طبعة القاهرة ، ج ٢ ص ٩٦ وما يليها) .

وواضح جداً أن الكلام الخاص بموسى بن نصير وأعماله فى ذلك الكتاب مستق من مراجع صحيحة ، فالتشابه بينه وبين ابن عذارى ظاهر جدا يصل إلى الحرفية فى بعض الأحيان ، ولا معنى للاستغناء عن معلومات هامة كهذه لمجرد أن دوزى شك فى صحة الكتاب كله .

وقد ناقش رأى دوزى وأثبت أصالة ما ورد فى كتاب الإمامة والسياسة عن موسى بن نصير الدكتور محمود على مكى فى مقال نشره فى المجلد الخامس من صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد . وقد ذهب فى هذا المقال إلى أن هذا الجزء من كتاب أبى حنيفة الدينورى مأخوذ من كتاب ضاع لمعارك النصيرى .

فى قلوب البربر نتيجة لسياسة موسى بن نصير زمن بعده حتّى أصبح من العسير اقتلاعه ، وأن سوء الظن هذا ظل يستشرى مع الزمن حتّى فصل بين العرب والبربر جملة ، وانتهى كما سنرى بانفصال المغرب عن مركز الخلافة ، وانحراف الكثيرين من أهله إلى مذاهب ثورية انقلابية تسمى صفرية تارة وخارجية تارة أخرى ، وما هى فى الواقع إلا خوف وكراهية تأصلا فى نفوس البربر بسبب إسراف موسى ومن جاء بعده من ولاة بنى أمية فى غزو البربر .

ويبدو أن إسراف موسى فى غزو القبائل البربرية دون سبب أو مبرر ظاهر هو شعوره بأن عبد الملك بن مروان يسيء الظن به ويتوقع أن ينهب أموال الولاية الجديدة كما نهب أموال البصرة . وكان عبد العزيز يشد أزره ، ويود لو أثبت أنه خير من حسان بن النعمان وغيره من رجال عبد الملك ، فمضى يذرع البلاد من شرقها إلى غربها ويرمى نواحيها وقبائلها بأبنائه عبد الله وعبد العزيز ومروان وكبار رجاله من أمثال عيّاش بن أخيَل وموسى بن عياض بن عقبة والمغيرة بن أبى بُردة وزُرعة بن أبى مدرك . ولم يكن أهل المغرب بحاجة إلى هذه الغزوات حتّى يطيعوا ويقبلوا على الإسلام ، فقد كان معظم القبائل قد ركن إلى الهدوء فى ظل الفاتحين الجدد ، وأقبل الكثيرون من البربر ينضمون للمسلمين ويشتركون معهم فى حروبهم عن طواعية ورضى . ولم يكن موسى ليتوخى النواحى المضطربة أو القبائل الثائرة ليغازيها ، بل كان يتوخى المطمئنين فينزل بهم على غرة ، والظاهر أن عيوناً له كانت تجوس النواحى وينهون إليه أخبار القبائل ومن يمكن أخذه على غرة منها ، فنحن نقرأ فى أخباره : « أن الجواسيس أتوا موسى فقالوا له : إن صنهاجة بغرة منهم وغفلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحاً ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان وألفين من المطوعة ومن قبائل البربر وخلف عيّاشاً على أثقال المسلمين ... فسار موسى حتّى غشى صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مائة ألف

رأس (كذا) ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى . ثم انصرف قافلا إلى القيروان ، وهذا كله فى سنة ثمانين (كذا) » . ولسنا نفهم سبباً آخر لمثل هذه الغزوة غير الطمع فى المغانم ، بل حدث أن غزا كتامة واشتد فى أذاها ، فسارع رجالها يؤكدون له طاعتهم وحسن ولائهم . فأصر على أن يسىء الظن بهم ، ومضى يواتر الغزو عليهم وأصر على قتل رهائنهم . حتى انكشفت له براءتهم على نحو لا يقبل الشك ، فانصرف عنهم بمغنم وافر .

لهذا نحن لا نسمى أعمال موسى بن نصير فى المغرب فتوحاً ، لأن الفتح تم على يد حسان ، وكان موسى قديراً على الاستيثاق من طاعة من بقى خارج الطاعة من القبائل ، أو من بعد مكانه منها كأهل السوس الأدنى ، بوسائل أخرى غير هذا الغزو العنيف . بيد أن هذه الغزوات لم تكن شراً خالصاً ، بل هى أحدثت فى الغرب رجة كبرى أفاقت بسببها القبائل وتنبهت إلى هذا العصر الجديد الذى بدأ فى حياة بلدهم ، وملك الروع معظمهم فتسارعوا إلى المسلمين يدخلون فى الطاعة ويعتنقون الإسلام ، ورأى الكثيرون منهم ما يجنيه مواطنوهم الذين يسلمون وينضمون إلى جيوش المسلمين من الخير والغنم ، فأقبل الكثيرون منهم ينضمون إلى جيوش المسلمين آلافاً . ولا يكاد الواحد منهم يسلم حتى يسير مع الجيش الفاتح يغزو معه ويغنم معه . ووافق ذلك مزاج القبائل البربرية المتبدية ، وجمعها مع العرب صفات البداوة والفطرة والنشاط وحب القتال ، فازدادت جيوش المسلمين فى إفريقية زيادة سريعة مطردة لا نكاد نجد لها شبيهاً فى أية ناحية أخرى من نواحى الدولة الإسلامية إذ ذاك . وكان لا بد لابن نصير أن يجد لهذه الآلاف مجالا للغزو والنشاط وإلا صعب عليه ضبطها ، فمضى هذا الرجل الموفق يقود الجيوش وتقوده الجيوش ، مضى يفتح ويسترسل فى الغزو حتى أدرك من ذلك غاية لم تكتب إلا للقلائل جداً من قادة المسلمين .

توجه موسى بضرباته فى كل ناحية ، وبدأ بتوجيه حملة نحو سجوما ، ويبدو أن طوائف البربر التى اشتركت فى حرب عقبة بن نافع سنة ٨٧ هـ

(٧٠٢ م) وقتله عند تهودة كانت تسكن على مقربة من هذه المدينة البربرية ، وقاد هذه الحملة عياض وعثمان وأبو عبدة من أبناء عقبة بن نافع ، فانتقموا لمقتل أبيهم من أهل البلد ومن حوله انتقاماً شديداً . ثم أعقب ذلك بسلسلة من الحملات على هوارة وزناتة وكتامة ، وقضى على ما عسى أن يكون قد اختلج فى نفوسها من تفكير فى الثورة والاستخفاف بالحكام كما كان الحال أيام البيزنطيين . ولما كان موسى يهتم اهتماماً عظيما بمسألة الأسرى والمغانم . فقد كان أهل البلاد يسارعون بالإسلام افتداء لأنفسهم من الأسر . وبهذا جعلت أعداد عظيمة من أهل هذه القبائل تسلم وتقبل على القيروان طلباً للاشتراك فى الفتوح والغزوات . ومن هنا لا غرابة فى أن نسمع أن موسى أرسل بعد ذلك بقليل جيشاً عظيما عدته ١٧٠٠٠ من العرب و ١٢٠٠٠ من البربر لفتح السوس الأقصى ، وأن هذا الجيش وصل إلى نهر درعة وعاد بطاعة أهله ، وكانت تلك هى أول مرة فى التاريخ يصل فيها فاتح أجنبى إلى هذه النواحى الداخلية النائية من بلاد إفريقية ، ومن هناك اتجه بهذا الجمع نحو طنجة فافتتحها وترك عندها حامية عظيمة يقودها مولاه طارق بن زياد . وعهد إليه بالعمل على نشر الإسلام فيما يجاور طنجة من برابر غمارة وبرغواطة. وعسكر طارق بمن معه من المسلمين على سواحل بحر الزقاق . وبدأت أنظارهم تتجه نحو إسبانيا فى العدوة الأخرى .

ويبدو أن ميدان إفريقية ضاق بنشاط موسى وقواده وجنوده ، لأن ابن عذارى يحدثنا — رواية عن ابن القطان — عن حملة إلى صقلية ، غزا المسلمون فيها سرقوسة وعادوا موقرين بالغنائم .

وعاد موسى إلى القيروان مخلفاً طارق بن زياد ومن معه بموضعهم هذا . وعلم طارق أن ميناء سبتة على مقربة منه ، فبدأ يتحرك نحوها وهناك وجد شخصية غريبة غامضة يتحدث عنها المؤرخون كثيراً ، ولا تزيدها كثرة الحديث إلا إمعاناً فى الغموض ، تلك هى شخصية يليان .

الفصل الثالث

فتح الأندلس

١٣ – مقدمات الفتح

أقام طارق زمن معه من جند العرب والبربر على الساحل المغربى عند طنجة وما حولها . وأخذت أعدادهم تزداد مع الزمن ، وبدأت أنظار طارق تتطلع إلى ميدان جديد يشغل فيه هذه القوى العظيمة التى كانت تحت يده . وقد كان موسى بن نصير يشغل قواه قبل ذلك فى مغازاة القبائل البربرية واجتياح أرضها والغنم منها ، ولكن طارقاً لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك . لأنه بربرى الأصل من جهة ، ولأنه كان عميق الإيمان لا يرضى أن يضع السيف فى قوم لم يعرض عليهم الإسلام بالحسنى . ويبدو أن من معه من الجند بدأوا يلفتون نظره نحو الأندلس وما هى عليه من ضعف وما تضمه من عيون الثروة ، ولا نزاع كذلك فى أن أنظاره بدأت تتجه نحو حصن سبتة الذى عجز المسلمون عن الاستيلاء عليه مرتين : فى المرة الأولى كان يقودهم عقبة بن نافع وفى المرة الثانية موسى بن نصير ، وظل هذا الحصن كالصخرة البارزة تقوم فى وجه العرب فى منتصف الطريق[١] .

١٤ – يليـــان

هنا تجمع الروايات العربية كلها على قيام شخصـــية غريبة بأمور سبتة فى ذلك الحين : تلك هى شخصية يُليان . واختلفت المراجع حول يُليان هذا اختلافاً عظيما . فبعضها يزعم أنه قوطى وبعضها يزعم

(١) راجع عن هاتين المحاولتين : ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٤ ص ٤٢ .
والنويرى : نهاية الأرب ورقة ٧٠ ب .
وابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ص ١٨٥ .
والأخبار المجموعة ، ص ٤ .
وابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

أنه رومى وبعضها الأخير يزعم أنه بربرى من غمارة ، ولكنها جميعاً تتفق على أنه كان صاحب سبتة وما حواليها ، وأن سلطانه كان عظيما على من كان يجاوره من البربر — من غمارة وبرغواطة على الخصوص — وأن صلات من الود والولاء كانت تربطه بلذريق ملك الأندلس[١] .

وقد حقق دوزى وكوديرا وسافدرا شخصية يُليان . فأثبت دوزى وجوده فعلا بعد أن كان بعض العلماء قد ذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب[٢] . وأكمل سافدرا عمل دوزى وزادنا علماً بشخصية يليان وأصله والدور الذى قام به هو وأولاده[٣] .

(١) يتحفظ ابن عبد الحكم فى تحديد علاقة يليان بلذريق فيقول إنه « كان يؤدى الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس » ولا يقول شيئاً عن أصله أو جنسه . وكذلك الأخبار المجموعة تكتفى من صفته بأنه « علج » وأنه كان يحكم « مداين على شط البحر فيها عمال صاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، وكان رأس تلك المدينة مدينة يقال لها سبتة ، وكان عليها وعلى من حولها من المداين علج يسمى يليان » ، مما يفهم منه أن يليان كان عاملا من عمال لذريق . ويصفه ابن خلدون بأنه رومى ، ويذهب ابن عذارى إلى أنه قوطى . ويلقبه ابن الأثير بالبطريق ، أى أنه يقرر أنه كان رومياً.
ابن عبد الحكم : فتوح ، جـ ١ ص ٢٠٤ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ص ٨٩ .
أخبار مجموعة ، ص ٤ .
ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ١٨٥ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ص ٢١١ .

(٢) انظر : DOZY. *Recherches* (3 éd.) I pp. 57 Sqq.
وراجع عنده عبارة إيزودور الباجى التى تذكر يليان ووظيفته ذكراً محرفاً يصعب منهـــا استكشاف حقيقة أمره .

(٣) SAAVEDRA. *Estudio*, pp. 48 Sqq. وقد ذهب سافدرا إلى أنه فارسى الأصل وأنه من الأزارقة ، وقد استنتج ذلك من أن يليان خلف ولدا اسمه بَلْكايش أسلم بعد الفتح العربى وحسن إسلامه ، وبلكايش اسم من أسماء الفرس الأزارقة ، بل ذهب إلى أنه من كونيسابور كبرى مدائن أديابين (Adiabene) ، وتقع كونيسابور بين تكريت وأربلاس ، وإليك سلالة يليان بعد الفتح بحسب ما تذكره الروايات الإسلامية :

ونستطيع أن نقرر – اعتماداً على أبحاث دوزى وساقدرا – أن الإقليم الذى كان يحكمه يليان ، وهو مرطانية الطنجية (Mauretania Tingtana) كان فى ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية لا لإسبانيا القوطية ، وأن يليان كان يقوم حاكماً عاماً (Exarcus) لهذه الناحية من قبل الإمبراطور البيزنطى ، وأنه بدأ ولايته فى سن صغيرة ، وأقام فى هذه الناحية زماناً طويلا ، ولما كانت مرطانية الطنجية بعيدة كل البعد عن بيزنطة ، ولما كانت أمور الدولة البيزنطية فى ذلك الحين مضطربة اضطراباً لا يمكنها من الإشراف على ولاياتها القريبة فضلا عن البعيدة ؛ فقد تحرر يليان من سلطان الدولة وأصبح كالحاكم المستقل فى هذه الناحية . وإذ انقطعت عنه الإمدادات من الدولة فقد بدأ يوثق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر حتى كسب ودها وأصبح كالزعيم لها ، حتى اختلط الأمر على الناس وحسبوه بربرياً .

عرف العرب يليان أول مرة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم طنجة سنة ٨٩ هـ (٧٠٩ م) على وجه التحقيق ، أما ما يذهب إليه ابن الأثير من أن عقبة لقى يليان سنة ٦٣ هـ (٦٨٣ م) وأنه نزل على حكم عقبة فأمر مشكوك فيه ولا تؤيده أية رواية أخرى . وكان ملك إسبانيا فى ذلك الحين غيطشة . وكان الود معقوداً بينه وبين يليان ، ولهذا حرص هذا الأخير على صرف عقبة عن إسبانيا وتوجيهه نحو البربر ، فلما انصرف موسى إلى القيروان وخلف طارقاً على طنجة وما جاورها ، أحس يليان خطر المسلمين وضغطهم عليه وبدأ يصانعهم ، وعمل على كسب ود طارق بن زياد أمير طنجة واتصلت بينهما الأسباب . ولسنا نعلم شيئاً عن الأساس الذى قام السلام عليه بين الجانبين ، وكل ما نعرفه هو أن طارقاً حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع

= يليان ← بلكايش ← عبد الله ← الحكم ← سليمان ← أيوب (توفى سنة ٣٢٦) ← سليمان (توفى سنة ٣٧٩) ← أحمد (توفى سنة ٣٨٨) .

وقد اشتهر الثلاثة الأخيرون بصدق الإسلام وسعة العلم .

ويلاحظ القارىء أن آراء ساقدرا فيما يتصل بأصل يليان فيها تكلف كثير .

فاكتفى بمودة صاحبها ، وكان طارق – كما سنرى – رجلا سياسياً بعيد النظر ، فلعله صادق يليان ليستعين به على إخضاع من تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون[١] .

وفى هذه الأثناء كان لذريق قد قام بثورته وعزل غيطشة وقتله وتولى مكانه ، ولما كان يليان حليفاً لغيطشة فقد حاول أن ينزل الأندلس أثناء القتال بين الجانبين معيناً لحليفه ، ولكن أنصار لذريق ردوه إلى بلاده منهزماً فعاد يليان إلى بلده سبتة وتحصن فيه ولبث يرقب الحوادث .

فلما قتل غيطشة وتفرق أتباعه فر بنوه نجاة بأنفسهم . والخلاف شديد بين المؤرخين حول الوجهة التى اتخذوها بعد تفرق دولتهم . فيذهب نفر إلى أنهم عبروا إلى إفريقية وأقبلوا يستعينون بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم[٢] . ولكن المراجع العربية – فيما عدا ابن القوطية – لا تذكر

---

(١) راجع بحثى دوزى وساقدرا السابق الإشارة إليهما . ونص الأخبار المجموعة يؤيد ما يذهبان إليه .

ويفهم من قول ابن عبد الحكم : « فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا » أن طارقا تفطن إلى مقدار الخير الذى يستطيع أن يجنيه من صداقة رجل قادر مثل يليان فاجتهد فى كسب وده ، ولا يعقل أن يكون طارق قد لاطف يليان ليتقى شره ، بل ليفيد منه فيما هو أهم من سبتة ، وربما جاز لنا أن نستنتج من ذلك أن أنظار طارق كانت متجهة نحو الأندلس ، وأنه اجتهد فى كسب ود يليان ليفيده منه فى تحقيق أمنيته هذه .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

(٢) ينفرد المؤرخ سباستيان بالقول بأن أولاد غيطشة عبروا إلى إفريقية وذهبوا يستعدون العرب على الأندلس ويزينون لهم فتحها ، وهذا نص روايته :

Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidia ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes, Missos ad African mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos — Hispaniam intromittunt.

شيئاً من ذلك ، بل تذهب إلى أنهم كانوا صغاراً حينما وقع لأبيهم ما وقع ، وأنهم تفرقوا فى البلاد حيناً ثم صالحوا لذريق واستقروا فى أمانه وقد انطوت قلوبهم على كراهية الغاصب . وأن العرب لم يكادوا ينزلون الأندلس ويسيرون لحرب لذريق حتى سارع أولاد غيطشة وأتباعهم فتركوا صفوف القوط وانضموا للعرب أثناء الموقعة . وأن فعلتهم هذه كانت قاصمة الظهر لجيش القوط .

ويغلب أن فى هذه الرواية بعض المبالغة ، لأن تصرف العرب مع أولاد غيطشة بعد تمام الفتح لا يدل على أن العرب كانوا مدينين لهم بفضل كبير كهذا ، وكل ما حدث هو أن أبناء غيطشة هؤلاء تقدموا إلى المسلمين بعد انتصارهم يطالبون بشىء من ضياع أبيهم ، فأعطاهم المسلمون جزءاً كبيراً منها كسباً لودهم . وقد أحسن المسلمون بذلك إحساناً عظيما ، لأن أبناء غيطشة أصبحوا من ذلك الحين من أخلص الأنصار لهم ، بل لم يلبث بعضهم أن أسلم وحسن إسلامه . وعلى هذا نستطيع أن نقرر من غير حرج أن أولاد غيطشة لم يحرضوا العرب على غزو البلاد بل انتظروا حتى تم انتصارهم فانضموا إليهم وجعلوا أنفسهم أدلة للمسلمين على عورات الأندلس ، والغالب أنهم حسبوا أنهم مستطيعون الاستعانة بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم ، لأنهم كانوا يظنون أن العرب إذا أقبلوا إلى الأندلس لم يلبثوا أن ينصرفوا عنها لأنهم لا يطلبون من فتوحهم غير الغنيمة . ولكن العرب خيبوا ظنونهم وهبطوا البلاد بقوة كبيرة . ولم يكد العرب يلقون القوط حتى قضوا على قوتهم القضاء المبرم . وظهر أنهم ماضون فى فتح البلاد بنية إدخالها فى حوزة الدولة الإسلامية ، فلما استبان أبناء غيطشة ذلك تقدموا إلى العرب يطلبون الأمان مع من تقدم ، وأكرمهم العرب وردوا عليهم شيئاً من أملاك أبيهم .

= ولو أيد مؤرخو العرب هذا الرأى لقبلناه ، ولكن سباستيان ينفرد به ولا يذكر ما يؤيده .

SEBASTIAN, C. 3.

DOZY. *Recherches* (3 ed.) I pp. 68-69.

فإذا لم يكن أبناء غيطشة هم الذين استدعوا العرب إلى الأندلس ، فما الذى حدا بهؤلاء إلى العبور ومحاولة فتحها فى وقت لم تكن أقدامهم فيه قد ثبتت فى المغرب الأقصى ؟ ما الذى شجع طارق بن زياد وموسى بن نصير على الخروج فى هذه المغامرة الكبرى التى كان من الممكن أن تجر على المسلمين شراً كبيراً ؟ ما الذى شجعهم على الخروج إلى شبه الجزيرة الإيبيرية الواسع فى قوة قليلة لا تزيد على السبعة آلاف ، وهم يعرفون أن المغرب — وهو أضعف من إسبانيا بكثير — لم يتم فتحه إلا ببضعة جيوش يبلغ أقلها أضعاف هذه الآلاف السبعة التى سار بها طارق ؟

١٥ — فتح الأندلس

هنا تذهب أغلبية المؤرخين إلى أن العرب لم يفكروا فى فتح الأندلس فتحاً كاملا والاستقرار فيه من أول الأمر وأنهم ما كانوا يطلبون إلا بعض الغنيمة ثم يعودون إلى إفريقية ، وأن غزوتهم للبلاد أخذت طابعاً آخر بعد انتصار طارق هذا الانتصار الحاسم الذى لم يكن منتظراً عند وادى لكة ، ويعتمد هذا النفر من المؤرخين على ما ورد فى المراجع العربية من أن موسى غضب على طارق وعاقبه على الاسترسال فى الفتح خلافاً لما كان قد أمره به ، وقد روى ذلك ابن عذارى عن ابن القطان [١] .

وربما بدا هذا الرأى صحيحاً لأول وهلة ، لأن خروج طارق إلى الأندلس بهذا العدد القليل لا يدل على أنه كان ينوى غزو البلاد وفتحها فتحاً كاملا ،

(١) ابن عذارى : البيان ، (طبعة كولان وپروفنسال ، لايدن ١٩٥١) ج٢ ص١٣ .

وتجمع الروايات العربية كلها على أن موسى خاطب طارقا بما يفهم منه أنه كان قد أمره بمجرد غزو البلاد والغنم منها ثم العودة ، وقد استعان المستشرقون — والإسبان منهم خاصة — بهذه العبارات ليحكموا على الغزو العربى بأنه كان مجرد مغامرة .

راجع مثلا :

DOZY. *Recherches* (3 éd.) I, Etudes sur la conquète de l'Espagne par les Arabes. pp. XV Sqq.

IBIDEM. *Musulmans d'Espagne*, I.

وإنما هو مجرد الاستطلاع . ولكننا لو ذكرنا الأسلوب الذى جرى عليه العرب فى فتح مصر والمغرب مثلا للاحظنا أن التقديم للفتوح بقوة صغيرة تعقبها الإمدادات كان أسلوب العرب فى الفتح : يرسلون عدداً صغيراً ويكونون على الأهبة لإتباعه بالإمدادات إذا لزم الأمر ؛ وقد حدث هذا فى الأندلس بالفعل ، إذ أسرع موسى لعون طارق بخمسة آلاف من الجند . وأما غضب موسى على طارق فسببه أن موسى خشى أن يكون طارق قد تهور وغامر بالمسلمين أكثر مما ينبغى ، وربما يكون قد حسده على ما نال من التوفيق وما أدرك من المغانم ، وكان موسى على ما نعرف غير مجرد من الحسد أو الشره إلى المغانم .

لم يكن فتح الأندلس إذن مجرد مغامرة صادفها التوفيق فكان لها ما بعدها ، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مدبراً جرى فيه المسلمون على أسلوبهم الذى ذكرناه فى فتح البلاد ، ومن أدلة ذلك ما ورد فى « الأخبار المجموعة » من أن موسى كتب إلى الوليد يخبره بدعوة يليان إياه لفتح الأندلس « فكتب إليه أن خضها بالسرايا حتى تختبر[ها] ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » ، فكتب إليه أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر ، فكتب إليه : « وإن كان ! فاختبره بالسرايا » ، مما يدل على أن موسى كان قد قرر الفتح وعرف من شأن الأندلس ما شجعه على المضى فيه ، ولهذا كتب إلى الخليفة يستأذنه ، ولو كان أراد مجرد الغزو للغنيمة ثم العودة لما كتب يستأذن ، ثم إن قول الخليفة له : « اختبره بالسرايا » يفهم منه أنه يوافق على الغزو وإنما يأمر موسى أن يستوثق لجند المسلمين قبل أن يبدأ العمل[1] .

ومن دلائل ذلك أن طارقاً وموسى سارا فى بلاد الأندلس منذ اللحظة الأولى سيرة من قدر كل شىء قبل الشروع فى العمل : سار طارق قدماً

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥ — ٧ .
وابن عذارى : البيان ، ج ٢ ص ٦ .

من مدينة لمدينة حتى انتهى إلى طليطلة ، ولو كان يرجو مجرد الغارة والغنيمة لعاد بعد أن وقعت فى يده مدينة أو مدينتان وامتلأت يداه وأيدى أصحابه من الغنيمة .

وتجمع المراجع العربية كلها على أن يليان هو الذى دعا موسى لغزو الأندلس وكشف له عوراتها وهون عليه أمرها[1] . وتجعل المراجع لذلك قصة ملخصها أن يليان كان قد أرسل ابنته إلى قصر لذريق لتتأدب وتنشأ فيه أسوة بغيرها من بنات سروات القوط فى ذلك الزمان ، وأن لذريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها ، فكتبت إلى أبيها بخبرها ، فأحفظه ذلك على لذريق ، ودفعه إلى التفكير فى الانتقام منه ، فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه حتى وفق لما أراد ، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعرب فى الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها[2] .

---

(١) انظر مثلا : ابن عذارى ، ج ٢ ص ٦ . وليس فى هذه الرواية أية إشارة إلى قصة ابنة يليان .

(٢) لا حاجة بنا إلى الإشارة إلى مواضع هذه القصة فى مراجعنا العربية ، لأنها متواردة فيها جميعا من غير استثناء .

أما المراجع اللاتينية فلم تعرف هذه القصة إلا منذ سنة ١١١٠ ، إذ ورد ذكرها لأول مرة فى مرجع إسبانى لاتينى هو « تاريخ راهب سيلوس » ذكرها مجملة على صورة قريبة الشبه بما تذكره الروايات العربية .

وليس إلى الشك سبيل فى أن العرب لم يخترعوا هذه القصة اختراعاً ، ولكننا لا نستطيع مع الأسف الوقوف على أصلها . وقد ذهب ساقدرا إلى أنه من الممكن أن يكون يليان قد أرسل نفرا من أهله إلى طليطلة ليأمنوا فيها حينما بدأ العرب حصار سبتة وتهديدها ، وأن ذلك قد يكون أصل القصة ، وأيد رأيه هذا بأن ابن خلدون وسان پدرو بسكوال يذهبان إلى أن الذى اعتدى على ابنة يليان كان غيطشة لا لذريق ، لأن غيطشة كان صديقه كما قدمنا أما لذريق فلم يكن ، ومن غير المعقول أن يكون يليان قد أرسل ابنته لتتأدب فى قصر ملك بينه وبينه عداوة . وقد ذهب الأستاذ ساقدرا إلى أننا حتى لو قبلنا هذه القصة فاننا لا نستطيع أن نجعلها سبب عبور العرب إلى الأندلس ، لأن مثل هذا الاعتداء لم يكن ينظر إليه إذ ذاك بالاشمئزاز الذى ننظر به إلى مثله الآن .

ولم يذكر مؤرخ عربى واحد لابنة يليان اسما ، وتذكرها المراجع اللاتينية بين سنتى ١١١٠ —

ولسنا نريد أن نقف طويلا عند هذه القصة ، فقد تكون صحيحة وقد

= و ١٣٠٠ من غير اسم كذلك ، حتى اخترع لها PEDRO DEL CORRAL اسما حوالى سنة ١٣٠٠. ولسنا نعرف من أين أتى پدرو بهذا الاسم ، وإن كان المظنون أنه ابتكره جرياً على عادته فى اختراع أسماء لمن لا يجد له اسما من شخوصه التاريخية ، وهذا الاسم هو « لاكاڤا » (La Cava) . وكاڤا اسم مدينة إيطالية على مقربة من سالرنو فى مملكة ناپلى ، ولما كان ألفونسو الخامس ملك إسبانيا قد غزا ناپلى وزار بعض جنوده مدينة كاڤا ، فقد عاد الجند يحملون هذا الاسم وتسمى به نفر من الإسبانيات فى ذلك العهد .

بيد أن عالما إسبانياً هو MIGUEL DE LA LUNA خرج على الناس فى سنة ١٥٨٩ بتفسير عربى لهذا اللفظ : فذهب إلى أنه مأخوذ عن اللفظ العربى « قحبة » ، وذكر أن قصاص الأندلسيين كانوا يسمون ابنة يليان به فى العصور الإسلامية ، ولزمها هذا الاسم بعد ذلك ، واحتج لذلك بأن لوقا التودى ذكر الفتاة بهذا الاسم فى « تاريخ الدنيا » (*Cronicon Mundi*) . وحقيقة يوجد الاسم فى بعض النسخ ، ولكنه لا يوجد فى النسخ المقطوع بصحتها ، مما يؤيد القول بأن النساخين أضافوا هذا الاسم من عندهم فيما بعد .

أما قصاص الإسبان وواضعو الأغانى الشعبية فقد سموا هذه الفتاة فلورنده Florinda ولزمتها هذه التسمية فى كتب الأقاصيص والأشعار جميعاً ، وذهب البعض إلى أن هذا الاسم صحيح وأنه مخفف من الاسم القوطى فلوريسندا (Floresinda) .

ومهما يكن من الأمر فقصة ابنة يليان قليلة الأثر فى التاريخ وإن كانت عظيمة الأثر فى الفن والأدب ، وهى بهذا أحسن حظاً من صاحبتيها « ابنة المقوقس » و « ابنة جرجير » والاثنتان من اختراع قصاص العرب ، ولا يبعد أن تكون قصة ابنة يليان من اختراع قصاص العرب كذلك .

Cronicòn Silense, N. 15.

SAAVEDRA. *Estudio* ..., pp. 58-59.

SAAVEDRA FARJADO. *Corona Gótica*, cap. XXIX.

PEDRO DEL CORRAL. *Cronica del Rey Don Rodrigo.*

MIGUEL DE LA LUNA. *Historia Verdadera del rey Rodrigo*

ويظن ان هذا الكتاب الأخير مترجم عن كتاب عربى يسمى مؤلفه أبا القاسم طريف بن طارق (ABULCACIN TARIF ABEN TARIQUE) ممن شهدوا الفتح (كذا) لأن هوامش النسخة الإسبانية تحمل عبارات وألفاظا عربية ، ولكن البحث التاريخى يشكك فى أن أبا القاسم هذا من شهدوا الفتح أو حتى من القدماء ، لأن بعض ألفاظه مثل « مخزن » حديث لم يستعمله أهل المغرب إلا فى زمن متأخر . وقد اعتمد على هذا الكتاب الأخير شاعران كبيران هما :

تكون من اختراع القصاص . ولسنا نحتاج إليها لكى نعلل دخول العرب الأندلس تعليلا معقولا ، فقد كان ذلك الدخول هو الأمر الوحيد المنتظر فى الظروف التى سادت المغرب خلال السنوات التى سبقت الفتح . فقد رأينا طارقاً يقيم على الزقاق ومعه عدد عظيم من الجند العربى والبربرى يتطلع معظمهم إلى الفتح والجهاد . وكان يليان إلى جوارهم يوجس خيفة منهم ، فقد كان المسلمون قد حاولوا فتح معقله سبتة ، وكان موسى بن نصير قد رجع عنه بعد أن ألفى « عنده عدة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يطقهم ، فرجع عنهم إلى طنجة ، وجعل يحتث ما حولهم بالمغاورة فلم يطقهم »[1]. مما يفهم منه أن المسلمين لم يدعوا يليان هادئاً مطمئناً فى بلاده ، ومن الطبيعى أن يلجأ يليان فى مثل هذه الظروف إلى صرفهم عن نفسه ، وكان طارق كما رأينا قد صافاه بعد ذلك وصادقه[2] . وكان جند طارق من البربر يعلمون عن الأندلس شيئاً كثيراً ، ولا بد أن نفوسهم كانت تنازعهم إلى خيراته ومغانمه . ومن الطبيعى فى مثل هذا الظرف أن تولد فكرة فتح الأندلس .

ويذهب ساقدرا إلى أن يليان ذهب للقاء موسى تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطشة وأنصاره . ولسنا نعرف كيف ذكر ساقدرا ذلك فى صيغة التأكيد ، مع أن المراجع جميعاً تختلف حوله اختلافاً شديداً ، ولا يتضح وجه

LOPE DE VEGA فى *Posterer Godo de España.* =

WASHINGTON IRVING . *Legends of the Conquest of Spain.*

وقد نسب پدرو دل كورال هذه الأسطورة إلى أحمد بن محمد الرازى المؤرخ .

وانظر عن لفظ فلورندا :

LEMBKE. *Geschichte von Spanien*, I, 256.

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤ — ٥ .

(٢) يقول ابن عبد الحكم فى هذا : « وكان يليان يؤدى الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس . وكان لذريق يسكن طليطلة ، فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا ... »

انظر : فتوح ... ص ٢٠٥ .

الحق فى هذه المسألة إلا إذا درسنا من جديد العبارات القليلة التى بين أيدينا عن الأحوال فى طليطلة خلال الأشهر التى سبقت هذه الأحداث التى نرويها[١].

يشير إيزودور الباجى فى حوادث سنة ٧١٠ إلى «حادث محزن (suprafata clades) وقع بطليطلة ، واضطر كثيراً من نبلاء القوط إلى الهجرة من إسبانيا فتشردوا فى كل ناحية »[٢] . ولم يذكر لنا إيزودور ما هو هذا الحادث المحزن ، وذهب دوزى إلى أن إيزودور يشير بذلك إلى قتل لذريق لغيطشة معتمداً فى ذلك على عبارة صريحة لابن عذارى تذكر أن لذريق ثار

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 54-55. وسياق رواية سافدرا قصصى فى هذا الجزء من تاريخه القيم ، فهو يذكر كيف أن يليان كان رجلا ماهرا أريباً ، اجتمع فيه عقل البيزنطى وشجاعة الإيرانى وثبات الإفريقى ، وأنه رأى أن يبعث إلى طارق وفدا يرأسه رجل من كبراء أتباعه يسمى أخيلا بسطوا لطارق مظلمتهم وصوروا له سوء حالهم بعد الذى أصابهم من لذريق وغدره ، وأن نفس طارق تأثرت بهذا الكلام فبعث الرسل إلى موسى فى القيروان ، وأن هذا قدر خطورة المسألة ، فأرسل الرسل إلى دمشق ليبسطوا المسألة للخليفة على أوجهها ويقنعوه بضرورة الإذن لموسى فى فتح الأندلس ، وأنهم عادوا من دمشق بالإذن المطلوب ، فسارع موسى فى تنفيذه ، وأحب أن يستوثق من صدق نية هؤلاء القوم فطلب إليهم أن يسلموه رهائن من لدنهم يكونون عنده .

وهذا كله كلام يحتاج إلى إثبـات ، أما أخيلا هذا فقد ورد ذكره فى ابن عذارى ، ويذهب سافدرا إلى أن شخصاً يسمى بهذا الاسم قد وجد فى هذا الظرف فعلا ، وأنه كان حاكم طنجة أو كونتها ، وقد ذكره رودريجو خيمينث ونسب إليه نفس الدور الذى تنسبه الروايات الإسلامية إلى يليان نفسه .

RODRIGO XIMÉNEZ DE RADA (ARZOBISPO DE TOLEDO). *Historia de rebus hispaniae*, i, iii, cap. 18, 20.

(٢) هذا نص عبارة إيزودور :

Huius temporibus Witiza decrepito iam patre pariter regnat; qui in aera DCCXXXIX suprafatae cladis non ferentes exitium, per Hispaniam e palatio vagitant, quâ de causâ propriâ morte decesso iam patre, florentissime suprafatos per annos Regnum retemptat, atque omnis Hispania, gaudio nimio freta, alacritur laetatur.

بغيطشة وقتله ، وعلل عدم ذكر إيزودور لذلك بأن نصه الذى بين أيدينا مضطرب ، سقطت — أو حذفت — منه عبارات ، وغيرت مواضع عبارات أخرى . ويؤيد رأيه هذا بأن إيزودور يقول فى موضع آخر إن لذريق فجأ المملكة المضطربة وحاول أن يستبد بمجلس الشيوخ[١] ، ومن هنا يكون من الجائز أن نقول إن هذا الحادث المحزن الذى يشير إليه إيزودور إنما هو قتل لذريق لغيطشة ، لأن هذا الحادث روع أنصار غيطشة وفرقهم فى البلاد بين قتيل وهارب يطلب النجدة حيث استطاع ، بل ذهب دوزى إلى أن « نبلاء القوط » الذين أشار إليهم إيزودور إنما هم أبناء غيطشة وإخوته ، وأن إيزودور لم يذكره صراحة لأنه كان أمراً مشكوكاً فيه أيام الفتح ، وأنه لم يتضح على وجه الصحة والتحقيق إلا فيما بعد[٢] .

ويقول سباستيان السلمنقى : « فلما انهزم غيطشة ، أقام القوط لذريق ملكاً ، فملأ الحسد — فى الحقيقة — أولاد غيطشة من أن يغصبهم لذريق مملكة أبيهم ، فدبروا أمرهم بمهارة ، وأرسلوا رسلا إلى إفريقية يرجون العرب المساعدة ، وقدموا لهم سفناً عبروا عليها إلى إسبانيا »[٣] . وهذه عبارة تكمل رواية إيزودور وتفسر غامضها تفسيراً معقولا ، فلو جمعنا الروايتين معاً لجاز لنا أن نقرر أن الذى حدث هو أن لذريق بعد أن قتل غيطشة تتبع آله وأنصاره

(١) نص عبارة إيزودور :

Rudericus tumultuose regnum hortante senatu invadit

(٢) DOZY. *Recherches*, (3e éd.) I. pp. 65 Sqq.

(٣) Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidiâ ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes, Missos ad Africam mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt.

وفى الفقرة الأخيرة مخالفة لما تتفق عليه الرواية الإسلامية من أن السفن التى عبر عليها المسلمون كانت ليليـان .

بالأذى ففروا يطلبون النجاة ، وكان أبناء غيطشة فى مقدمة الفارين ، وسواء أكان هؤلاء الأبناء قد عبروا إلى إفريقية بأنفسهم ليطلبوا عون العرب أم اختفوا فى بعض نواحى جنوبى إسبانيا وأرسلوا من لدنهم رسلا يبسطون للعرب أحوال إسبانيا ويدعونهم لغزوها ويهونون عليهم أمر هذا الغزو ، فإن الحقيقة التى تخلص لنا من هذا كله هى أن أولاد غيطشة وأقرباءه اتصلوا بالمسلمين فى إفريقية ودعوهم إلى غزو البلاد ، ووضعوا أنفسهم — بطبيعة الأمر — تحت تصرفهم لتسهيل هذا الغزو وتهوينه .

وتؤيدنا المراجع العربية فى هذا الرأى . فهى تذهب إلى أن آل غيطشة مالأوا العرب من أول الأمر ، وأنهم دبروا الغدر بلذريق واتفقوا على أن يتخونوه يوم المعركة الفاصلة مع العرب[1] — وهو ما حدث فعلا — وبهذا ادركوا ثأرهم منه واستعادوا بعض ما ضاع منهم ، لأن العرب . وإن كانوا لم يعيدوا الأمر إلى بيت غيطشة ، إلا أنهم « أمضوا لأبناء غيطشة ضياع أبيهم » وكانت شيئاً كثيراً ، وأقاموا نفراً آخر من آل بيت غيطشة فى وظائف كبرى كما سنرى .

فإذا كان آل غيطشة هم الذين اتصلوا بالعرب ودعوهم إلى غزو البلاد فما هو الدور الذى قام به يليان ؟ يبدو أنه كان رسول آل غيطشة لدى المسلمين ، لأنه — كما رأينا — كان من أنصار غيطشة وأصحابه . وقد ساءته ولاية لذريق وتخوف أن يصيبه منها شر ، وكان من صالحه أن يعمل على إزالة ملكه والتخلص منه . وكان المسلمون جيرانه ، وليس إلى الشك سبيل فى أنه فكر فى أن توجيه

(١) يجمع المؤرخون المسلمون على ذلك ، انظر على الخصوص :

ابن القوطية : افتتاح الأندلس ص ٣ .

الأخبار المجموعة ، ص ٨ .

فتح الأندلس : ص ٦ — ٧ .

نظرهم نحو الأندلس[1] يصرفهم عنه ويؤمنه من ناحية جندهم الكثير الذى كان يتجمع عند طارق بن زياد فى طنجة ، ولا يستبعد أن يكون أخيلا — حاكم طنجة الذى سبقت الإشارة إليه — كان من مؤيدى يُليان فى هذا التفكير ، ولا يستبعد أن يكون هو الذى تفاهم معهم ، لأنه كان قد أسلم بلده للمسلمين ودخل فى ذمتهم . وكانوا يعتبرونه تابعاً من أتباعهم .

* * *

وتذكر الروايات العربيـــة أن يُليان لم يكتف بمخاطبة طارق فى الأمر ، بل تكلف مشقة الذهاب للقاء موسى فى القيروان ، لإقناعه بسهولة فتح إسبانيا والتحدث إليه فى الخير الذى يعود عليه . إذا سارع وعبر إلى الأندلس واغتنم فرصة غياب لذريق مع خيرة جنده فى حملة حربية نحو بنبلونة أقصى شمالى شبه الجزيرة . ويبدو أن خروج لذريق فى هذه الحملة هو الذى دعا يُليان إلى الذهاب إلى موسى على عجل وإظهاره على الفرصة السانحة ، وربما جاز أن نستنتج من تعجيل يُليان بالذهاب إلى موسى أن فكرة الاستنجاد بالمسلمين كانت قد اختمرت فى ذهنه وعول على إنفاذها رغبة منه فى التخلص من لذريق خصمه وخصم صديقه غيطشة . ويذهب ساقدرا إلى أن يُليان

(١) يفهم من هذا أن ابن عذارى وصاحب الأخبار المجموعة أصرح من غيرهما فى هذا الصدد ، فهما يذهبان إلى أن يليان سعى إلى المسلمين بنفسه وحرص على تحريضهم على غزو الأندلس ، بل يذهب الأخير إلى أن يليان « عقد لنفسه ولأصحابه عهدا رضيه واطمأن إليه ، ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها » . وهذه رواية يفهم منها — على إيجازها — ثلاثة أمور :

١ — أن قصة ابنة يليان لم تكن السبب المباشر لدعوة يليان المسلمين لغزو الأندلس .

٢ — أن يليان سعى لصحبة العرب حتى عقد معهم عهدا اطمأن إليه .

٣ — فإذا تم له ذلك دعاهم لفتح الأندلس .

الأخبار المجموعة ، ص ٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤ — ٩ . هذا والتفاصيل التى يوردها ابن عذارى عن يليان كثيرة ذات قيمة ، وقد درسها دوزى فى الفصل الذى عقده ليليان فى بحثه عن مراجع العرب للأندلس ، انظر « الأبحاث » ، ج ١

ذهب تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطشة وأنصاره، وليس لدينا دليل على صحة هذا الفرض إلا عبارة سباستيان السلمنقى التى ذكرناها ، وهى عبارة لا تجد ما يؤيدها إلا فى كلام ابن القوطية[١] .

رحب موسى بيليان وما عرضه عليه ، لأنه كان بطبعه ميالا للفتوح والغزوات ، وكان من الطبيعى أن يتشكك فى صحة المعلومات التى أدلى بها يليان إليه ، فطلب إليه أن يقوم بسرية فى جنوبى الأندلس ، وإنما أراد موسى بذلك أن يتأكد من أن يليان عدو للذريق لا يخشى الإغارة على بلاده ، ويرى بعينيه رد الفعل الذى يحدثه مثل ذلك العمل[٢] ، وقد قام يليان فعلا بغارة سريعة عاد بعدها محملا بالغنائم والسبى ، فتشجع موسى وقرر العمل .

ولم يكن موسى ليستطيع الشروع فى عمل خطير كهذا دون أن يستأذن فيه الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فكتب إليه يستأذنه . فتردد عبد الملك وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه فى أرض مجهولة ، فكتب إلى موسى يأمره أن يختبر بلاد الأندلس بسرية صغيرة قبل أن يغامر بجيش كبير[٣] . فانتدب واحداً من كبار أتباعه هو أبو زرعة طريف بن ملوك ، ويغلب أنه عربى ، ويبدو أنه كان رجلا قادراً حازماً ، لأنه سيقوم فيما بعد بدور خطير فى تاريخ المغرب[٤] .

---

(١) انظر : ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣ .

فتح الأندلس ، ص ٤ .

(٢) ويقول ابن عبد الحكم : « ... فقال طارق (ليليان) لا أطمئن إليك حتى تبعث إلى برهينة ، فبعث إليه بابنتيه – ولم يكن له ولد غيرهما – فأقرهما طارق بتلمسين ، واستوثق منهما ، ثم خرج طارق إلى يليان ، وهو بسبتة على المجاز ... » – فتوح ، ص ٢٠٥ .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ص ٥ .

فتح الأندلس ، ص ٥

(٤) يذهب بعض المراجع إلى أن طريفا كان من أهل اليمن ، وتختلف بعد ذلك ، فيزعم بعضها أنه كان من النخع ، ويذهب البعض الآخر إلى أنه من مَعَافِر ، ولم نعد نسمع عن طريف هذا بعد=

١٧ – أبوزرعة طريف يقود بعثا استطلاعيا

عبر طريف إلى الأندلس فى قوة صغيرة من أربعمائة راجل ومائة فارس ، وقد قدم لهم يليان أربعاً من السفن عبروا بها ، ونزل المسلمون فى جزيرة صغيرة تسمى پالوماس (Palomas) على مقربة من الموضع الذى ستقوم فيه بلدة ستحمل اسم طريف (جزيرة طريف Tarifa) من ذلك الحين ، وخفت قوة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعونهم ، وقامت بحراسة المعبر حتى تم نزولهم على الأرض الإيبيرية ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٩١ (يوليو سنة ٧١٠ م) . ومن ذلك الموضع قام طريف وأصحابه بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل غنموا فيها مغانم كثيرة وسبياً عديداً ، وعاد طريف بمن معه ، وبعث إلى موسى فى القيروان بنصيبه من الغنيمة والسبى ، فتشجع موسى وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح الحقيقى[١] .

١٨ – حملة طارق بن زياد

ندب موسى لهذا العمل الجليل رجلا من خيرة جنده ، هو طارق بن زياد . ولسنا نعلم شيئاً موثوقاً فيه عن طارق قبل قيامه بقيادة جيش المسلمين فى فتح الأندلس[٢]

= هذه السرية الموفقة التى قام بها مستطلعا أحوال الأندلس للمسلمين ، ولكنه يظهر مرة أخرى على مسرح الحوادث فى المغرب ، ويلعب دورا خطيرا فى الثورة التى قام بها ميسرة البربرى البرغواطى فى المغرب الأقصى ، والتى كانت أول حركة خارجية قام بها المغرب على المسلمين . ويقول ابن عذارى (٢/٥) إنه بربرى .

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 64.

(٢) يسميه ابن خلدون : طارق بن زياد الليثى . (انظر المقرى ، ج ١ ص ١٤٣) ويذهب بعض المراجع إلى أن طارقا ربما كان فارسى الأصل ، اعتمادا على ما يقوله الرازى : « فدعا (موسى) مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فارسيا همذانيا ، وقيل إنه ليس بمولى موسى ، وإنما هو رجل من صَدِف وقيل مولى لهم ، وقد كان عَقِبُه بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكارا شديداً . وقيل إنه بربرى من نفزة ... » – نقله المقرى : النفح ، ج ١ ص ١٥٩ .

انظر : ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ص ٦ .

الأخبار المجموعة ، ص ٦ .

والترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة قام بها إميليو لافوِنْتِ إى ألكانترا ، ص ٥ ، وهو يترجم هذه العبارة : un persa de Hamadan.

Cf.: LÉVI-PROVENÇAL. *Histoire de l'Espagne Musulmane,* (1eéd.) I, 14.

ولكن الغالب أنه بربرى من نفزة ، ويبدو أن أباه زيادا قد أسلم أيام عقبة وحسن إسلامه ، وخلفه ابنه هذا فدخل فى خدمة ولاة المسلمين . ويبدو أنه كان صغير السن حينما عهد إليه موسى بهذه المهمة الكبرى ، لأننا لم نسمع به قبل ذلك فى أى فتح من فتوح موسى على كثرتها وتواترها . ولو كان قديم عهد بالقيادة لسمعنا عنه قبل ذلك . والغالب أنه كان من المقربين المخلصين لموسى لأنه تخطى غيره من كبار العرب الذين كانوا يقودون الجند فى أيامه مثل زُرْعة بن أبى مُدرك وعياش بن أخيَل وطريف بن ملوك والمغيرة بن أبى بردة وغيرهم كثيرون ، وعهد إليه فى قيادة أخطر عمل حربى قام به إلى الساعة . ويبدو أن موسى كان عظيم الثقة فى أمانته ، لأنه وكل إليه أمر هذه الحملة مع ما كانت تعِد به من المغانم ، فأحب موسى أن يعهد فيها إلى رجل ثقة مأمون عنده لا يطمع فيها ولا يتحدث بأمرها على الحقيقة عند العرب والخلفاء .

ومن غريب الأمر أن الجيش الذى أرسله موسى كان بربرياً صرفا أو يكاد ، وهذه هى أول مرة نسمع فيها أن قائداً إسلامياً عهد فى عمل حربى خطير كهذا إلى قائد غير عربى وجند غير عرب فى الغالب ، ولكن موسى مع ذلك احترز للأمر فأرسل مع طارق عدداً من كبار الجند من العرب وموالى الأمويين ، مثل عبد الملك بن أبى عامر المعافرى ومغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك وعلقمة اللخمى وهو عربى صرف . وكان فى الجيش عدد من كبار محاربى البربر ممن سنسمع عنهم كثيراً فيما يلى ، مثل مونوسة البربرى ، ويبدو أن موسى تعمد أن يختارهم من خيرة جنده لأننا سنراهم يقومون بما عهد إليهم فيه فى دقة وقدرة تبعثان على الإعجاب .

وكان الاتفاق قد تم بين موسى ويليان على أن يكون هذا الأخير وأصحابه أدلاء للمسلمين ومعينين لهم فى أعمال الحملة ، وتعهد يليان كذلك بأن ينقل المسلمين إلى الأندلس على سفن من عنده ، وكانت سفن يليان التى تصلح لمثل هذا العمل قليلة لا تزيد على أربع ، فلم يكن بد من نقل المسلمين عبر

المضيق على دفعات ، وأن يقيم من يعبر منهم ساكناً فى خفية عن أهل الشاطىء حتى يتم جواز الجيش كله .

تم عبور المسلمين فى ربيع سنة ٧١١م ، وتذهب المراجع الإسلامية إلى أن العبور كان فى رجب من سنة ٩٢ هـ ، ولكننا لا نعرف الشهر الذى عبروا فيه على وجه التحقيق[١] ، وتجمع المسلمون عند الجبل الذى سيعرف من ذلك التاريخ بجبل طارق ، واجتهد طارق فى أن يحصن هذا الموضع تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يحتمى به المسلمون إذا حدث ما لم يكن منتظراً[٢] ، ولم يكد يفرغ من ذلك حتى بعث عبد الملك بن أبى عامر فى فرقة مختارة من الجند سارت بحذاء الساحل شمالا بغرب فاستولت على قرطاية Carteya-Torre de Cartagena ، ثم انحدرت نحو الجنوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء فى مقابل جبل طارق ، وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كله فى يد المسلمين ، وعهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم منتظر . وأمن المسلمون أن يعبر أحد إلى

(١) تجمع المراجع العربية كلها – بما فيها الطبرى – على أن عبور المسلمين كان فى ربيع الثانى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) ، ولو أخذنا بما يقوله الرازى (فى ابن عذارى) من أن طارقا نفسه وصل الأندلس فى آخر فوج من أفواج العبور فى الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ لكان فى إمكاننا أن نستنتج أن المسلمين بدءوا العبور فى آخر ربيع الثانى (ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٧) .

ويقول ابن حيان فى «المقتبس» (جـ ١ ص ١٥٥) أن العبور كان لسبع خلون من ربيع الأول سنة ٩٢ .

ويؤيد مؤرخى العرب فى ذلك الملك ألفونسو الكاستو (الطاهر) فى تاريخه ، فيجعل العبور سنة ٦٤٩ بحسابه وهى تعادل سنة ٧١١ بالحساب الجريجورى (*España Sagrada*, XXXVII, 312).

ويجعله إيزودور الباجى فى السنة السادسة من خلافة الوليد ، وهى سنة ٩٢ هـ .

(٢) يميل المؤرخون المحدثون إلى القول بأن طارقا عمد إلى السفن التى عبر عليها فأحرقها لكى يقطع كل أمل لجنوده فى العودة إلى إفريقية وليدفعهم إلى الاستبسال فى القتال ، ولم يذكر تلك الواقعة من القدماء إلا الإدريسى وهو من رجال القرن الثانى عشر الميلادى (كتب جغرافيته سنة ١١٥٤) ولهذا نشك فى صحة هذا الخبر ؛ ثم إن طارقا لم يكن يستطيع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان .

مركزهم الأول عند جبل طارق فيهدد مراكزهم وطريق مواصلاتهم مع إفريقية[1] .

ولم يكد المسلمون يطمئنون فى مركزهم هذا حتى هاجمهم جماعة من أنصار لذريق يقودها قائد يسميه ابن عذارى « بنج »[2] وتسميه المراجع الإسبانية بَنْشُو وبَنْثيُو، فقضوا عليها من غير كبير مشقة، ولم ينج من جندها إلا واحد يسميه الرازى بِـلْـيَاسِنْ (Williesindo-Beliasin) أسرع إلى معسكر لذريق فى أقصى الشمال عند بنبلونة وأنبأه بخبر نزول العرب البلاد، فسارع لذريق نحو الجنوب واحتل قرطبة وأخذ يستعد للسير نحو الجنوب للقاء العرب[3] .

---

(١) SAAVEDRA, *Estudio* ... p. 65.

(٢) كتب ابن عذارى هذا الاسم « بنج » من غير شكل ، ونقله الأسقف ردريجو « بِـنـِـج » (Eneco) ، وجعله ساقدرا «بَـنْـجُ» (Bancho) ، وورد فى تاريخ إسبانيا العام *Cronica general de España* فى صورة إنْـيِـجُـو (Inego) وفى الترجمة الإسبانية للرازى شَـنْـجُ (Sancho) . وقد خلط ابن قتيبة بينه وبين تدمير ، أما بلياسن فلم يرد ذكره إلا عند الرازى وعنه أخذه ساقدرا وجعله Wiliesindo.

ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ص ١٠ .

Cf.: *Cronica del Moro Rasis*, apud. SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 149.

وفهرس الأسماء فى تاريخ إسبانيا العام .

(٣) كان لذريق قد توجه إلى الشمال فى أوائل ربيع ٧١١ لصد هجوم قام به نفر من الفرنجة على بعض نواحى نبره (نفار) ، وقد ذهب ساقدرا إلى أن هجوم هؤلاء الفرنجة إنما كان بتحريض من يليان وحزب غيطشة ، وقد أرادوا بذلك إشغال لذريق فى ناحية نائية تيسيرا للأمر على العرب ، وقد اعتمد ساقدرا فى ذلك على عبارة للوقا دى توى يقول فيها :

"Julianus callide incitavit Francos ut expugnarent Hispaniam citeriorem ..."

Cf.: LUCAS DE TUY. *Cronicòn Mundi*, L. III. p. 70.

SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 65.

وقال المقرى إن الذى أنبأ لذريق نبأ العرب هو تدمير ، وكان يليان قد استخلفه على الأندلس ، وليس لدينا ما يثبت ذلك .

انظر : النفح ، جـ ١ ص ١٤٩ .

ويبدو أن نية طارق كانت السير مباشرة إلى قرطبة عاصمة إقليم بيطى (بيتِس) ، لأنه سار بحذاء الساحل حتى أدرك جزيرة طريف ، ومن ثم اتجه إلى الشمال فى سهل قليل الارتفاع ، ومر بين جبلى سيليا دل بابا وسييرا دل رِتين واقترب من بحيرة الخندق (لا خاندا) الواسعة التى تحصر بينها وبين سييرا دل رتين سهلا متسعاً بعض الاتساع حصيناً ، لأن البحيرة تحميه من ناحية والجبل من ناحية أخرى ، واستمر حتى أدرك نهير البرباط الذى يخترق بحيرة لاخاندا ، وكانت بهذا الموضع فى هذه الأيام بليدة صغيرة زالت الآن ويسميها العرب بكَّة ، ولهذا سموا هذا النهر وادى بكه ، وحرفه بعضهم إلى لكَّه أو وادى لِكَّه . وقد أساء الراوية الإسبانى رودريجو دِرادا نقل هذا اللفظ فنقله لِيتَه ووادى ليته ، ومن هنا نشأت هذه التسمية الخاطئة التى سيقع فيها كل المؤرخين الإسبان بعده ، فسموا هذا الموضع الذى دارت عنده المعركة الحاسمة بين العرب والإسبان جواداليتِ (Guadalete)[1] .

وهنا عرف طارق عن سبيل عيونه أن لذريق سائر إليه فى جنده .

---

(١) هذا هو رأى ساقدرا فى أصل هذا اللفظ وصوره المختلفة التى ورد بها فى النصوص ، وقد ذكر جايانجوس فى تعليقاته على ترجمة نفح الطيب أن هذا النهر كان يسمى عند القدماء Chrysos ، وأورد كذلك صيغا أخرى لاسم هذا النهير هى :

وادى لِد ، وادى لكِه : عند ابن الخطيب

Vadilac, Vadileke, Wadalak عند لذريق الطليطلى (Rodericus Toletanus)

Gaudalede عند كوندِ

Leke فى الصورة الإسبانية للرازى .

ثم أتبع ذلك برأى طريف ، وهو أنه وجد عند فلوريث فى الجزء التاسع من *España Sagrada* ص ٥٣ تفسيرا للفظ جُوَادالِيتِ ملخصه أن العرب سموا نهير كريسوس بهذا الاسم ومعناه « وادى السرور » بسبب ما أصابوا من السرور والراحة عنده ، ثم استنتج من ذلك أن العرب لا بد قد سموا هذا النهر وادى اللذة أو وادى لذة ، فكان هذا هو أصل هذه الصور كلها .

Cf.: GAYANGOS. *The Hist. of the Moh. Dyn. in Spain*, I. p. 524.

SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 68-69.

وقد قرأ پروڤنسال الاسم وادى لكّه وقال إن هذا اللفظ تحريف للفظ Lago-Lacus أى البحيرة ، والمقصود هنا بحيرة الخندق (Lajanda) . وهذا التفسير هو أقرب التفاسير إلى الصحة .

وأنه وصل إلى قرطبة واستقر بها قليلا ، ثم تقدم جنوبيها وضرب معسكره عند شذونة (Medinasidonia) واستعد للموقعة فى سهل البرباط على مقربة من قرية (Casas Viejas) الحاليـــة . وتقدر المراجع جيشه بمائة ألف ، وربما كان فى هذا التقدير مبالغة . ولكن الذى لا شك فيه أن عدة جيشه كانت تزيد على عدة جيش المسلمين أضعافاً كثيرة . وأن عدد الفرسان فيه كان عظيما .

ورأى طارق أن العدد الذى معه لا يكاد يكفى للقاء جيش ضخم كجيش لذريق ، فبعث يطلب المدد من موسى ، فعجل موسى بإرسال خمسة آلاف من خيرة جنده يقودهم طريف بن ملوك وفيهم عدد عظيم من العرب ، فأدركوا طارقاً قبيل اللحظة الحاسمة ، وقويت بهم نفسه ونفوس من معه . والغالب أن جزءاً عظيما من هذا المدد كان من الفرسان ، لأن المراجع تحدثنا أن قوة طارق الأولى كانت كلها من الرجالة . فى حين أننا سنرى للمسلمين قوة يسيرة من الخيل فى المعركة الحاسمة[١] .

ويبدو أن سير المسلمين الموفق فى البلاد إلى هذه اللحظة قد أنعش الآمال فى أنفس أعداء لذريق ، فانضم منهم إلى المسلمين نفر عظيم أعانوهم بالقوة والرأى[٢] ، وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه فبدأت نفوسهم

---

(١) يذهب ساقدرا – اعتمادا على المراجع النصرانية – أن عدة جيش طارق بلغت قبل المعركة ٢٥ ألفاً بسبب من انضم إليهم من النصارى من أنصار غيطشة وأعداء لذريق ومن أهل البلاد . فاذا كانت عدة من مع طارق من المسلمين اثنى عشر ألفاً . فان عدة من انضم إليهم من النصارى كانت ثلاثة عشر ألفاً ، أى أكثر من الجيش نفسه . وهذا أمر مستبعد ، بيد أن هذا لا يمنعنا من القول بأن بضعة آلاف من النصارى من القوط وأهل البلاد انضموا إلى الجيش الإسلامى .

Cf.: *Cronicón Silense*, no. 16.

RODRIGO XIMÉNEZ Arzobispo de Toledo (i.iii, c. 20)

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ص ١١ .

الرازى فى المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٦٢ .

ويفهم من رواية المقرى أن الذى دبر الخيانة لم يكن ابناء غيطشة وأخويه فقط ، وإنما نفرا كبيرا من القوط كانوا غضابا على لذريق .

تحدثهم بتخونه وتركه لمصيره إذا اشتبك مع المسلمين فى القتال ، ويقال إن ششبرت وأبة أخوى غيطشة كانا على رأس هذا الفريق الذى عول على الخيانة ، وأنهما انتظرا اللحظة المواتية ليتخليا عن لذريق ، ويتركاه يلقى جزاءه على ما فعل بغيطشة[١] .

ويبدو أن لذريق كان يشعر بما يدور حوله ، وكان يدرك أن نفراً من جنده يدبر الخيانة ، فأحب – قبل أن يلقى المسلمين – أن يتعرف ما لديهم من القوة ، فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم ، فلم يكد المسلمون يرونها حتى انقضوا عليها انقضاضاً فولت هاربة ، وأنبأت لذريق بحال العرب وما هم عليه من الحمية والتشوق للقتال ، فكاد يسقط فى يديه[٢] .

١٩ – معركة وادى البرباط ، ١٩ يوليو سنة ٧١١

وبدأ اللقـــاء بين الجانبين يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان ســـنة ٩٢ هـ[٣] (التاسع عشر من يوليو سنة ٧١١) على وادى برباط على مقربة من شذونة ، واستمرت المعركة طول ذلك اليوم وحمى وطيسها فى اليوم التالى ، وأظهر البربر الذين أتى بهم يليان قدرة عظيمة على القتال ، فقد كان انتقاهم من خيار غمارة وأحسن تدريبهم على الأسلوب البيزنطى . وكان طارق قد قدم نفراً من السودان بين يدى جيشه ، ليتلقوا بما عرف عنهم من الصبر والثبات دفعة الجيش القوطى الأولى[٤] . وأظهر فرسان القوط قدرة عظيمه فى أوائل المعركة ،

---

(١) انظر : ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣ .

ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٨ .

الأخبار المجموعة ، ص ٦ .

(٢) الرازى : برواية المقرى – نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٦٣ .

(٣) الرازى : برواية المقرى – نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٦٣ .

(٤) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا ساقدرا ، مع أنهم قاموا بدور خطير جدا فى الفتح ، وسيكون لهم دور حاسم فيما وقع بين العرب بعد ذلك من الحروب فى الأندلس ، وسنتبه إلى ذلك فى حينه .

Cf.: SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 71.

وثبتوا لضغط العرب والبربر والسودان ، وكان قواد الفرسان من أعداء لذريق الغاضبين عليه ، ويبدو أن يليان ورجاله كانوا نشيطين طوال المعركة ، يخذّلون الناس عن لذريق ويصرفونهم عنه ، مؤكدين لهم أن العرب لم يقبلوا إلى هذه البلاد للفتح والاستقرار ، بل للقضاء على لذريق والظفر بالغنيمة ، وأنهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لهم الأندلس بعد ذلك . ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين جنود لذريق — وكان كثير منهم كارهاً له ناقماً عليه — فلم يلبث فرسانه — وهم خيْرة جنده — أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره[1] . وكان ذلك كافياً ليوقع الفوضى فى جيش لذريق ، فاضطرب نظامه ولاذ من بقى منه بالفرار وأسياف المسلمين فى أقفيتهم . وقد قتل من القوط فى ذلك اليوم عدد عظيم . ولم يعثر للذريق على أثر ، وتذهب المراجع العربية إلى أنه أراد أن يعبر البرباط على عجل فغرق فيه ولم يعثر المسلمون إلا على خفه[2] . ولكنه لم يمت فى هذه المعركة كما سنرى ، وسيقوم بدور خطير فيما بعد . وقتل فيها أيضاً ششبرت ، وكان ممن تخلى عن لذريق طمعاً فى الغنيمة والسلامة ! وأصاب المسلمون من هذه الواقعة غنائم لا تكاد تحصى ،

(١) تجمع المراجع العربية على ذلك ، وتؤكد أن خيانة لذريق وسط المعركة إنما وقعت بناء على تدبير سابق محكم بين آل غيطشة والعرب . وقد ناقش ساڤدرا هذا الموضوع ، وانتهى إلى أن الذى قام بترتيب المؤامرة كانا أخوى غيطشة وهما أبه ، وششبرت ، وكان أحدهما على خيل لذريق فى هذه المعركة . وقد تعجب ساڤدرا من أن لذريق يعهد فى أمر هام كهذا لواحد من أعدائه ، ولكن فاته أن بعض المراجع العربية تذكر أن لذريق سعى فى الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الحاسمة ، وهذا واضح من قول ابن القوطية : « فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك ، كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة — وقد ترعرعوا وركبوا الخيل — يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم ... » .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢ — ٣ .

(٢) لا يقطع ابن عذارى بموت لذريق ، ويكتفى بقوله : « ولم يعرف للذريق موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا إنه غرق ، وقالوا إنه قتل . والله أعلم » .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

ولعل أكثر ما يهمنا منها هى الخيل ، فقد غنم المسلمون خيلا كثيرة حتى لم يبق منهم راجل . وقد قتل من المسلمين ثلاثة آلاف ، وبقى منهم تسعة آلاف زادهم النصر حماسة ، فأسرع بهم طارق نحو قرطبة تتقدمهم هـذه الشرذمة الباسلة من السود التى أبلت فى هذه المعركة بلاء طيباً[1] .

ولم يكد خبر هذا الانتصار يصل إفريقية « حتى أقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقِشْر ، فلحقوا بطارق » ففاض سيل البربر على الأندلس ، وأخذوا يستقرون فى النواحى المفتوحة . وتضخم جيش المسلمين إلى حد يصعب معه تقديره بعد هـذه الواقعة ، وأسلم الآراء هو أن نقول إن جيش المسلمين تضخم تضخماً عظيما . ورأى طارق أنه لن يستطيع السير بهذا الجحفل اللجب دفعة واحدة ، فمال إلى تفريقهم فى بعوث صغيرة يبعثها إلى النواحى .

وأعقب هذا الانتصار اضطراب فى شئون الأندلس كلها ، « وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال » كما يقول الرازى[2] . وحسب حزب غيطشة أن الفرصة قد سنحت لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم[3] ، وفعلا بذل

(١) فتح الأندلس ، ص ٧ .

الرازى ، برواية المقرى — نفح الطيب ، ج ١ ص ١٦٣ . وهو يقول إن طارقاً قسم الغنائم على ٩٠٠٠ من المسلمين ، أى أن هؤلاء هم الذين سلموا وقتل الباقون .

(٢) رواه المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٣) يقول ردريجو الطليطلى :

... et rex Rudericus, cum esset magnanimus, antequam fugeret, permitteret se occidi, et eo mortuo, posset eis regnum perditum provenire ...

RODERICUS TOLETANUS. *De Rebus Hispaniae*, Lib. III cap. 20

Cf.: SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 76.

وللرازى إشارة هامة تؤيد هذا الرأى . قال إن يليان قال لطارق : « قد فضضت جيوش القوم —

وَقِلة (أخيلا) جهداً كبيراً لكى يستصدر من مجلس طليطلة قراراً باعتباره ملكاً ، ولكن الأمر لم يستقر له لأن الشائعات كانت تملأ الجو بأن لذريق لم يقتل . وعمل هؤلاء الغيطشيون من جهة أخرى على تشجيع طارق على الاستمرار فى الفتح حتى يتم لهم الانتصار المحقق . وأما يليان فقد ثبت بقواته فى ناحية الجزيرة الخضراء[1] .

ولو عمل طارق بأمر موسى لكان من الواجب أن يعود إلى إفريقية بعد هذا النصر كما عاد عبد الله بن أبى سرح إلى مصر بعد نصر سبيطلة ، ولكن طارقاً كان أبعد نظراً من عبد الله بن أبى سرح ، ووجد أن الأبواب قد فتحت أمامه فلا معنى لتركها والعودة إلى إفريقية ، فمضى مسرعاً نحو استجة ليعبر شنيل من مخاضتها فى طريقه إلى قرطبة . ويبدو أن عدداً عظيما من بقايا جيش لذريق كان قد تحصن فيها لأن طارقاً لقى فيها مقاومة عنيفة ، واحتاج إلى عون يليان الذى خف إليه مسرعاً . ويبدو أنه استبان كثرة من مع طارق وصعوبة الاستفادة منهم جميعاً فى حملة واحدة ، فنصحه بأن يفرق جنده فى بعوث جانبية . فقال له : « قد فتحت الأندلس . فخذ من أصحابى أدلاء ففرق معهم جيوشك وسر معهم إلى مدينة طليطلة » . ففرق جيوشه من استجة[2] .

ولم يلبث حاكم البلد أن أسلمه صلحاً ودخل فى طاعة المسلمين[3] .

= ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى مهرة ، ففرق جيوشك معهم فى جهات البلاد ، واعمد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم والاجتماع إلى أولى رأيهم » مما يدل على أن كبار القوط كانوا يدبرون شيئا فى عاصمتهم ، وأن يليان نصح طارقا بالإسراع إلى طليطلة رأساً ليتدارك الأمر .

انظر : المقرى – نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 77.

(٣) فتح الأندلس ، ص ٨ .

وانفتح أمامهم طريق قرطبة وطليطلة . ولو قائد غير طارق لاتجه نحو قرطبة وأنفق وقتاً طويلا فى الاستيلاء عليها ، ولكنه كان قد علم بعض ما كان يدور إذ ذاك فى طليطلة ، وعرف أن الظروف لا تسمح بانفاق الوقت فى الحصول على مدائن جنوبى الجزيرة كقرطبة وغرناطة ومالقة . فعجل بارسال مغيث الرومى فى قوة كبيرة إلى قرطبة ليشغل من فيها عن قطع طريق عودته . ثم مضى بمعظم جيشه مسرعاً نحو طليطلة ليصل إليها قبل أن يحكم أنصار لذريق الدفاع عنها ، وقبل أن يدبر أنصار غيطشة أمراً لا يكون فى صالح المسلمين .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن طارقاً أرسل فى هذا الوقت حملة فتحت جنوب شرقى الأندلس وكبار مدائنه مثل مالقة وغرناطة وأوريولة ، ولكن ذلك غير صحيح ، لأن المسلمين لن يفتحوا هذه النواحى إلا فى ولاية عبد العزيز ابن موسى ، ولا يستبعد أن يكون قد بعث سرايا صغيرة إلى هذه النواحى وغيرها لمجرد الاستطلاع لا للفتح . وكان الجند عنده قد كثروا ففرق أعداداً منهم مع جماعات من رجال يليان يدلونهم على الطريق ، وربما كان يليان صاحب هذه الفكرة[1] .

وكان جيش المسلمين يزداد عدة فى الطريق بمن كان ينضم إليه من الغاضبين على لذريق وعهده ، وانضم إليه كذلك عدد من اليهود الذين استقبلوا أخبار انتصار المسلمين على القوط استقبال الظمآن للماء[2] . فقد كان حالهم معهم كما رأينا سيئاً جداً ، ولا نزاع فى أن طارقاً أفاد فائدة كبيرة من هذه الجماعات من الإيبيريين واليهود التى انضمت إليه ، فقد وجد فيهم الأدلاء الذين يقودونه فى هذه الأباطح الفسيحة التى لم يكن المسلمون يعرفون عنها شيئاً ، وهكذا أسعد المسلمون بأكثر مما كانوا ينتظرون ، وسار هذا

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 79.

(٢)

القائد المجيد طارق يقود هذه الجماعات من العرب والبربر والموالى والسود والإيبيريين واليهود قاصداً طليطلة عاصمة القوط .

٢٠ – احتلال طليطلة

عبر طارق الوادى الكبير عنـــد مَنْجبار (Manjibar) وسار فى الطريق القديم الذى كان يعرف فى عهود الرومان باسم طريق هانيبال[١]، ودخل طليطلة من غير مقاومة تذكر ، واستولى على الكنوز الزاخرة التى وجدها فى قصور القوط وفى كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص ، ولم يسهب المؤرخون المسلمون فى شىء مما وقع للمسلمين فى فتوحهم كلها مثلما أسهبوا فى صفة المذبح المحلى بالجوهر الذى اغتنمه المسلمون فى هذه الكنيسة الجامعة ؛ فقد سموه مائدة سليمان بن داود ، وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص ، ومن المحقق أن هذا المذبح كان درة من درر الفن ، محلى بأثمن ما لدى القوط من الذهب والجواهر ، وأن وقوعه فى يد المسلمين أثار بينهم دهشة كبرى[٢] .

(١) يذكر المقرى أن طارقا سار إلى طليطلة فى الطريق المار بجيّان ، وهذا يأذن لنا فى القول بأنه اتبع طريق هانيبال الرومانى ، لأنه كان طريقاً معمورا إذ ذاك ، وفيه تمر الآن سكة حديد الأندلس .

المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

Cf.: SAAVEDRA. *Op. cit.* 79.

(٢) يذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أن طارقا غنم هذه التحفة الثمينة فى « مدينة المائدة » ، وهذه المدينة هى فى الغالب قلعة هنارس (Acala de Henares) . وهى بالطبع ليست مائدة سليمان بن داود عليه السلام (إن كانت لسليمان مائدة) ، وهى ليست كذلك بمائدة أصلا ، إذ لا يعقل أن يهتم القوط بصناعة « مائدة » بهذه الفخامة، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة فى طليطلة ، إذ لم تكن فى قلعة هنارس إذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخم بها . ويفهم ذلك من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها : « وهذه المائدة المنوه عنها المنسوبة إلى سليمان النبى عليه السلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وإنما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسى وأشباهها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت فى أيام المناسك ، ويصفونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت =

وقد وجد المسلمون المدينة شبه خالية لأن أهلها انتثروا عنها طالبين الهرب حينما علموا بمقدمهم ، حتى أسقف البلد سِنْدْرِدْ وكبار قساوسة المجمع الطليطلى فضلوا ترك البلد ينعى من بناه وتوجهوا إلى روما . ولم يشتغل طارق بالغنائم والذخائر وإنما مضى قدماً حتى أدرك وادى الحجارة ، واستمر صاعداً حتى أدرك بليدة تسميها المراجع العربية « المائدة » على مقربة من قلعة هنارس[١] ، وكان الصيف قد انقضى وأقبل أكتوبر ومعه برد الخريف ، ففضل طارق وأصحابه العودة لكى يقضوا الشتاء فى طليطلة ، وكانت الغنائم قد أثقلت العسكر إلى حد عظيم . ويستبعد أن يكون طارق قد سار إلى أمايا (Amaya) واشترقة (Astorga) فى ذلك الحين كما يزعم بعض المؤرخين[٢] .

= تلك المائدة بطليطلة مما صيغ فى هذه السبيل» ... وبقية العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة إنما كانت لمذبح كنيسة طليطلة .

ولسنا نعلم كيف وجده المسلمون فى قلعة هنارس ، اللهم إلا إذا افترضنا أن قساوسة طليطلة حاولوا الفرار به لفخامته ولقداسته ، ولم يستطيعوا التقدم به أكثر من ذلك الموضع ، وذلك فرض يؤيده أن المؤرخين لا يحدثوننا بغنيمة كبيرة من قصور ملوك القوط فى طليطلة ، مما يفهم منه أن رجال القصور قد حملوا معهم أحسن طرفها حينما أخلوها لاقتراب المسلمين .

ووصف هذه المائدة لا يمكننا على أى حال من تصور هيئتها تصورا صحيحاً ، إذ أن ابن عبد الحكم وصاحب الأخبار المجموعة وابن عذارى والمقرى وصاحب فتح الأندلس يتفقون فى وصفها اتفاقا حرفيا ، فهى عندهم «كانت من زبرجدة خضراء ، حافاتها وأرجلها منها » ، والغالب أنهم يريدون أنها كانت محلاة بالزبرجد الأخضر . أما عن حجمها فان صاحب الأخبار المجموعة يوقعنا فى حيرة شديدة ، لأنه يقول تارة : « ولها ثلثمائة رجل وخمسة وسبعون رجلا » ! ويقول تارة أخرى : « ... وعمل لها سفط من خوص فأدخلها فيه » .

انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٧ ، ١٩ .

ابن عذارى : البيان ، ص ١٤ .

ابن حيان برواية المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

وفتح الأندلس : ، ص ٩ .

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 79-80.

(٢) انظر : ابن حيان عند المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

لأن الشتاء كان قد اقترب . وكان الإجهاد قد نال من المسلمين وثقلوا بالغنائم . والأرجح أنه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمن ليس بالقصير .

٢١ – فتح قرطبة

وأما مغيث الرومى ومن معه من الرجال – ولم يكن عددهم ليزيد على سبعمائة فارس – فقد أخذوا يقتربون من قرطبة حتى أدركوا الضفة اليسرى من الوادى الكبير مقابل قرطبة . وكانت القنطرة التى تصل الشاطئين مهدمة فى ذلك الحين . فاضطر المسلمون إلى الانتظار حتى تسنح الفرصة المناسبة للعبور . ولبثوا حيناً متربصين مختبئين فى غابة بين قريتى شقندة (Secunda) وطرسيل[١] على الضفة اليسرى للوادى الكبير . وأخذوا من مخبئهم هذا يستطلعون أخبار البلد قبل أن يعبروا النهر إليه ويهاجموه . وكان أهل قرطبة كارهين لأمر القوط عامة وللذريق خاصة لأن القوط كانوا مختصين أنفسهم بالجزء الغربى من البلد . وتركوا جزءه الشرقى للأهلين . كما كان الرومان قبلهم يفعلون[٢] . وأقاموا سوراً بينهم وبين الأهلين حتى لا يقرب هؤلاء مساكنهم كأنهم منبوذون . وكان البلد حصيناً يدور عليه سور من الحجر الضخم . ولكن الظاهر أنه كان متداعياً فى بعض أجزائه لأن العرب سينفذون من ثغرات فيه . وكان من حسن حظ العرب أن الجزء الذى كان يقابل القنطرة هو الجزء الذى كان الأهلون من الإيبيريين الرومان يسكنونه . وفيه الكنيسة الجامعة (الكاتدرائية) التى ستصبح جامع قرطبة الكبير فيما بعد . ولم يصعب على المسلمين الاتصال بنفر من الأهلين واستطلاع أخبار البلد منهم . وبمعونة هؤلاء استطاعوا عبور الوادى الكبير فى ليلة غزيرة المطر من ليالى أغسطس[٣] . عبروا فى مواجهة باب القنطرة أو باب الصورة .

(١) يسمى هذا الموضع اليوم El Campo de la Verdad . أما عن طرسيل فانظر تعليق ساقدرا فى كتابه المذكور آنفا ، ص ٨١ ، هامش ٢ .

(٢) SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 82.

(٣) يقول الرازى : «وأقبل المسلمون رويدا حتى عبروا نهر قرطبة ليلا ، وقد أغفل حرس =

نسبة إلى تمثال أسد كان قائماً على مقربة من السور وظل قائماً أيام المسلمين ، وجعل مغيث وأصحابه يدورون حول السور يلتمسون ثغرة فيه يدخلون منها .

ولم يكن من العسير على المسلمين أن ينفذوا إلى داخل البلدة من هذه الناحية ، إما من ثغرة دلهم عليها واحد من أهل البلد أو بتسلق السور . ولم يكد نفر من المسلمين يجتمع داخل البلد حتى اندفعوا إلى الباب ففتحوه ليدخل بقية إخوانهم[١] ، وحدثت فى البلد هيعة أفاقت على أثرها حامية البلد من القوط ولم يكن عددها يزيد على ٤٠٠ فارس ، وكانت مقيمة مع الحاكم فى الجزء الغربى الذى سيعرف أيام المسلمين بالمدينة أو القصبة (يسمى اليوم لاڤيليا = المدينة) ، وكان الحاكم مقيما وحده فى قصر منيف من الضاحية التى ستعرف أيام المسلمين بربض الوراقين . فأسرع إلى حاميته ، ولم يمهله العرب أن فاجأوه ، ففر بجنده إلى كنيسة قريبة تسمى كنيسة القديس أثيسكلو (San Acisclo) [٢] وتحصن فيها ، وأقام المسلمون حولها محاصرين إياها . واستمر الحصار قرابة الثلاثة أشهر ، حتى استطاع المسلمون قطع الماء عن المحصورين ، وكان يجرى إلى الكنيسة فى مجرى تحت الأرض ، فلم يفطن إليه المسلمون ، حتى اكتشفه رجل من السود ممن كانوا مع المسلمين[٣] . وقد

= المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ، ضيقا بالذى نالهم من المطر والبرد ، فترجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعا ... » .

المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(١) الرازى برواية المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) يسمى صاحب الأخبار المجموعة هذه الكنيسة شنت أجلح . وقد ورد فى تقويم قرطبة لعريب الذى نشره دوزى أن هذه الكنيسة هى سان أثيسكلو بالعجمية .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ وهامش ١ من ص ٢٥ من الترجمة الإسبانية .

وانظر كذلك : ساڤدرا ، المصدر المشار إليه ، ص ٨٥ ، هامش ١ .

(٣) راجع أخبار ما وقع لهذا الأسود على يد الإسبان والقوط ، فقد وقع فى يدهم وحسبوه مصبوغاً فحاولوا إزالة لونه بالغسل والحك حتى أعنتوه ! ثم تركوه يمضى غير مقدرين أنه عين عليهم ، =

صبر هؤلاء المحصورون صبراً طويلا رغم قطع الماء عنهم ، ولم يستسلموا إلا بعد أن جهدوا جهداً عظيما ، ويذهب الرازى إلى أن مغيثاً أوقد النيران فى الكنيسة حتى ماتوا حرقاً . ونحن نستبعد ذلك ، لأن الكنيسة ظلت بعد ذلك فى أيام المسلمين زماناً طويلا وليس فيها للنار أثر(١) . وأراد قائد المحصورين الهرب ، فخرج يشتد على جواده ، فتبعه مغيث وحده ، وخرج الرجل من البلد وأفضى إلى ضاحية قُطلِشُبرة وكاد ينجو، لولا أن عثر به جواده ، فجلس على ترسه مستأسراً حتى أدركه مغيث وأسره ، وكان هو القائد الوحيد الذى أخذ أسيراً من كبار قواد القوط ، وقد سلمه مغيث لطارق ، واحتفظ به هذا ليذهب به إلى الخليفة ، ونازعه فيه موسى بن نصير فيما بعد ، فلما اشتد النزاع بينهما عليه أخرج مغيث سيفه وقتله .

أما بقية الحامية فقد قتلت عن آخرها عند باب الكنيسة التى اعتصمت فيها ، فسميت هذه الكنيسة من ذلك الحين كنيسة الأسرى . واحتل مغيث قصر الحاكم القوطى(٢) ، الذى سيصبح فيما بعد مقام الأمراء والخلفاء ، بعد أن يعدل وتضاف إليه أجزاء كثيرة . وقد ترك المسلمون كنيسة الأسرى لنصارى قرطبة فظلت أكبر كنائسهم فى عاصمة الأندلس الإسلامية طالما بقيت المدينة فى حوزة الإسلام ، ثم عمد إلى اليهود فجعلهم بعض حرس المدينة ، « استنامة إليهم دون النصارى للعداوة بينهم » ، كما يقول الرازى(٣) .

= فلما مضى إلى المسلمين أظهرهم على مجرى الماء . ولسنا نعرف إن كنا نقبل هذه القصة أو لا نقبلها، لأننا لا نكاد نصدق أن الإسبان لم يكونوا قد رأوا أسود حتى الساعة .

الرازى – فى المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(١) الرازى ، نفس المصدر والصفحة .

(٢) فى هذا يقول صاحب الأخبار المجموعة : « ودخل مغيث بلاط قرطبة فاختطه » .
والبلاط هو القصر ، عن palatum اللاتينية كما هو معروف .
انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٢ .

(٣) الرازى ، فى المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

وقد لاحظنا أن المسلمين كانوا لا يفتحون فى الأندلس بلداً إلا جعلوا بعض حرسه وحاميته من يهوده ، ولا يعلل هذا إلا بأن اليهود قد وقفوا إلى جانب المسلمين وأعانوهم من أول الفتح فى كل مرحلة من مراحله . وهذا أمر طبيعى ، لأن اليهود كانوا يقاسون على يد القوط بلاء شديداً . فلم يكادوا يرون المسلمين مقبلين حتى انضموا إليهم وآزروهم ، فجزاهم المسلمون بذلك . وللرازى فى هذا عبارة تستحق التسجيل لا لأهميتها للفتح وحده ، بل للتاريخ الأندلسى عامة : « وصار ذلك لهم سنة متبعة فى كل بلد يفتحونه : أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح »(١) .

وهنا ، وبعد أن فتح المسلمون عاصمة البلاد وكسروا قوات لذريق وقضوا على كل أمل له أو لأنصاره فى العودة إلى الحكم ، تقدم أبناء غيطشة إلى طارق يطلبون إليه الوفاء بما وعدهم من الكرامة وحسن الجزاء . ويبدو أنهم كانوا يؤملون أن ينسحب طارق وجند المسلمين معه من البلاد مكتفين بما أصابوا من الغنيمة ، فيعود آل غيطشة إلى ما كانوا فيه من الملك والسلطان ، فلما خيب طارق رجاءهم وأظهر أنه أقبل إلى البلاد للفتح الثابت ونشر الإسلام سقط فى أيديهم ، ووجدوا أن لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إياه . ووجد طارق أنهم لا يستحقون أكثر من ضياع أبيهم . وهى كثيرة ، فأمضاها لهم . ويبدو أنهم استقلوها وطمعوا فى المزيد ، ولم يستطع طارق إجابتهم إلى ما سألوا ، فاستأذنوه فى المسير إلى موسى بن نصير فى إفريقية ، وسألوه الكتابة إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهد ففعل . فلما بلغوا موسى أقر طارقاً على ما فعل ، بعد أن قرأ كتابهم واستوثق من صدق معاونتهم للمسلمين ، ويبدو أنهم ألحوا على موسى فى الزيادة ، لأنه – على قول الرازى – أحالهم على الخليفة نفسه(٢) فأقر عهد موسى وطارق . وليس لدينا ما يؤيد

(١) الرازى ، عند المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٢) الرازى ، برواية المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٧ – ١٦٨ .

ذهابهم إلى دمشق ، ونحن أميل إلى القول بأن موسى بعث إلى الوليد بالمسألة كلها ، فلم يفعل أكثر من أن أقر عهد أميريه ، وعاد الأمراء آخر الأمر إلى الأندلس قانعين بما أصابوا ، ولم يكن شيئاً قليلا ، إذ أعطاهم المسلمون ثلاثة آلاف ضيعة – هي بعض ما كان لأبيهم الملك غيطشة – فأصاب كل منهم ألفاً : أخذ ألمند ألف ضيعة في الغرب واستقر في إشبيلية ، وأخذ أرطباس ألفاً في وسط الأندلس واستقر في قرطبة ، وأصاب أخيلا (وقلة) ألفاً في شرق الأندلس وفضل الإقامة في طليطلة في ظلال المسلمين ، وبهذا كان الفتح الإسلامي خيراً عظيما عليهم وعلى بيتهم المهضوم .

٢٢ – عبور موسى إلى الأندلس

وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن موسى بن نصير لم يكد يسمع بأخبار ما وفق إليه مولاه طارق من الفتح حتى أكل قلبه الحسد ، وقرر أن يذهب إلى الأندلس بنفسه ليعاقبه وليفتح بنفسه فتوحاً أعظم من فتوحه . وعلى الرغم من أن موسى لم يكن بعيداً عن الغرور والحسد والطمع ، فاننا نستبعد أن يكون هذا الشعور أو ما يماثله هو الذي دفعه إلى العبور إلى الأندلس ، ثم إن طارقاً كان بطبعه رجلا متواضعاً قنوعاً ، وكان قد فتح هذه الفتوح كلها باسم مولاه وأميره . وكان يوقفه على الأخبار أولا بأول . فقد كان المسلمون قد استوثقوا لأنفسهم من ميناءى جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وكانت السفن رائحة غادية ، ولا يعقل أن يكون موسى قد ظل جاهلا بما يفعله طارق حتى وصل هذا إلى طليطلة وما وراءها ، وقد رأينا طارقاً يبعث أبناء غيطشة إلى موسى يستشيره في أمرهم. وإنما المعقول أن يكون موسى قد شعر بأن المسلمين قد استرسلوا أكثر مما ينبغي ، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة في خطر ، فقد بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح ، وكان لا بد من فتحها وإلا تعرض المسلمون للخطر إذا شاء القوط في أوريولة أو إشبيلية مثلا السير إلى استجة أو شذونة وفصل الجيش الإسلامي في الشمال عن الحامية الصغيرة التي كانت في قرطبة ، وقطع الجيش والحامية معاً عن موانى الاتصال بافريقية .

ولو قرأ الإنسان روايات هؤلاء المؤرخين في شيء من الروية لاستبان أن بعض عباراتها يدل على تناقضهم . فيذهب ابن حيان مثلا إلى أن موسى « تنكب الجبل الذي حله طارق . ونزل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى . فلما احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنت لأسلك في طريق طارق ولا أقفو أثره . فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان : نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه . وندلك على مداين هي أعظم خطراً وأوسع غنما من مداينه . لم تفتح بعد. يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى . فملىء سروراً » . وهذه عبارة إن دلت على شيء فعلى بعد نظر موسى من ناحية ، وعلى شرهه إلى الغنائم من ناحية أخرى . ولكنها لا تدل على الحسد بحال . فأما بعد النظر فلأنه وقد أقبل مع هذا الجيش الكبير من المسلمين ، لم يكن من الحكمة في شيء السير به في بلاد ومدائن قد فتحت فعلا ، إنما الحكمة في استخدامه في فتح بلاد لم تفتح بعد . وأما الشره إلى المغانم فظاهر ، لأن موسى قد سره أن يسير به الأدلاء إلى مدن أغنى من مدن طارق وأكثر منها مالا . وليس للحسد في مثل هذا الموضع مكان ، لأن طارقاً ، مهما كان الحال ، مولاه وتابعه ، وباسمه يفتح ولحسابه يغنم(١) .

لم يذهب موسى للقاء طارق وتأديبه . وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح . فلما تم له ذلك سار إليه ولقيه في طلبيرة على مقربة من طليطلة . وقد أطنب بعض المؤرخين في وصف ما وقع بين الرجلين عند هذا اللقاء . فيذكر ابن عبد الحكم أن موسى شد وثاق طارق « وحبسه وهم بقتله » لولا تدخل مغيث الرومي . وكان طارق قد كتب إليه من محبسه يرجوه أن يسرع بخبر ما وقع له إلى الخليفة الوليد ، فذهب مغيث إلى موسى وحذره أن يسيء إلى طارق ، ثم ذهب مغيث – كما سنرى – إلى دمشق وأبلغ الوليد الأمر ، فكتب هذا يهدد موسى ويدعوه

(١) ابن حيان عند المقرى ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .

للمثول بين يديه ، فخاف موسى وأطلق طارقاً ، ثم لم يلبث أن عاد ليؤدى عند الخليفة حساباً عسيراً على ما فعل[1] . ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لانفراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية : هو أنها كانت معروفة فى المشرق مجهولة عند أهل الأندلس . وأما وجودها فى المشرق فمرجعه على أغلب الظن إلى مغيث الرومى ، فقد كان محنقاً على موسى مولعاً بالكيد له ، لأنه كان يرى أنه مولى الوليد وأنه أولى بولاية الأندلس كما سنرى ، فانتهز فرصة ذهابه إلى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، وأخذ يبالغ فى مساءات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد أنكر عليه كل فضل فى الفتح كما يرى من رواية ابن عبد الحكم الآنفة الذكر ، وانتشرت قالاته بين أهل قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم فى هذه الناحية .

وأما الأندلسيون ، وهم أحرى بأن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته لأن أخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون إلا أن موسى « وضع السوط على رأس طارق ووبخه » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة ، وقد كان مستطيعاً أن يقول : إن موسى ضرب طارقاً بالسوط بدلا من قوله : « وضع السوط على رأسه » فقط .

ثم إن الرجلين لم يلبثا أن تعاونا ، فترك موسى طارقاً على قيادة جيشه وسار كل منهما فى اتجاه ، متعاونين متساعدين ، ولو كان ما ذكره عبد الحكم صحيحاً ، لما حدث ما سنراه من اشتراك الرجلين الكامل فى العمل . وهذا واضح من قول ابن حيان : « قالوا : ثم إن موسى اصطلح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته ، وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه ، وسار موسى خلفه فى جيوشه »[2] .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن حيان ، عند المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

وعندنا أن ابن حيان أصح من ابن عبد الحكم فى هذا الموضع ، وهو لم يذكر شيئاً عن ضرب موسى لطارق أو سجنه ، وكل ما يذكره هو أن موسى وبخ طارقاً على مخالفته أمره ، ثم لم يلبث الود أن عاد بينهما ، وظل طارق أوثق رجال موسى وصاحب مقدمته . ولو كان موسى « مغيظاً » على طارق إلى هذا الحد الذى يزعمه ابن عبد الحكم ، فكيف لم يستدعه إليه إلا بعد أن أتم فتح ماردة ، مع أنه — أى موسى — أقام على هذا الفتح بضعة أشهر ؟ ثم كيف طلب إليه أن يخرج للقائه فى طلبيرة فقط وقد كان مستطيعاً استدعاءه إلى أبعد من ذلك ؟

الواقع أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس ، وأن خروج طارق للقاء موسى عند طلبيرة لم يكن لمجرد اللقاء بل لغرض آخر حربى سنعرفه . وقد أتم الرجلان الفتح معاً على أحسن ما يكون الرجال تعاوناً ، وعادا إلى المشرق فلم نسمع أن طارقاً وقف يشكو موسى بين يدى الخليفة . ولو كانت بينهما هذه الخصومة لسمعنا لها صدى — ولو خافتا — فى المشرق بعد أن عادا معاً .

وللمقرى رواية تؤيدنا فى هذا المذهب ، إذ يقول : « ... ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبر إلى الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له : يا طارق ، لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس ، فاستبحه هنيئاً مريئاً ، فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط ... »[1] .

كل ذلك يحملنا على الظن بأن الرواية التى تصور القائدين المسلمين العظيمين متعاديين إنما مرجعها إلى مغيث الرومى ، وللمقرى عبارة تؤيدنا فى هذا أيضاً ، فهو يقول من غير سند ظاهر : « ولما قفل موسى بن نصير إلى المشرق وأصحابه ، سأل مغيثاً أن يسلم إليه العلج صاحب قرطبة الذى كان

(١) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٥١ .
واقرأ عبارة ابن حيان ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

فى أسره . فامتنع عليه وقال : لا يؤديه للخليفة سواى ، وكان يدل بولائه من الوليد ، وهجم عليه موسى فانتزعه منه ، فقيل له : إن سرت به حياً ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله . ولكن اضرب عنقه ، ففعل . فاضطغنها عليه مغيث ، وصار إلباً مع طارق الساعى عليه » . مما يفهم منه أن الخلاف كان واقعاً بين موسى ومغيث ، وأن مغيثاً كان يضطغن على موسى ويتربص به الدوائر ، وأنه كان يدل بولائه من الخليفة ، يظن أن هذا يجعله فى موضع ممتاز . ولما كان موسى بطبعه رجلا فخوراً مزهواً بنفسه وبمكانه من عبد العزيز ابن مروان ومن يزيد بن المهلب ، فانه من الطبيعى ألا يرضى عن مغيث وأن تقع الجفوة بينهما . ولم يحدثنا المؤرخون بما قال مغيث للخليفة فى زيارته الأولى ، ولكنهم يقولون إنه حينما عاد مع طارق وموسى بعد الفراغ من الفتح « سبق إليه — أى إلى سليمان بن عبد الملك — طارق ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة . وقالا له إنه قد غل جوهراً عظيم القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله . فلما وافى سليمان وجده ضغيناً عليه ... »(١) .

ومما يؤيدنا فى ذلك الرأى أيضاً أن مغيثاً هذا — الذى يزعم أنه ذهب منتصفاً لطارق — لم يكد يسمع أن الخليفة يريد تعيين طارق عاملا على الأندلس بعد موسى حتى مضى يخوفه منه ويصده عن إنفاذ هذا الغرض ، لأنه كان يطمع لنفسه فى ذلك فى الغالب . ويبدو كذلك أن الخليفة استبان كذب حديثه فلم يعطه الولاية التى رجا ، فعاد إلى الأندلس كما خرج منها ، بل ترك سليمان ابن عبد الملك الأندلس فى يد عبد العزيز بن موسى (٢) .

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٧ .
(٢) انظر : ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ .
الأخبار المجموعة ، ص ١٩ .
ابن عذارى ، ص ١٨ .
وهو يروى قصة موسى أول الأمر برواية يتفق فيها مع غيره من الأندلسيين ثم يقول : وقيل إنه ضرب به أسواطا كثيرة ... الخ ، مما يدل على أنه يشك فى هذه الرواية .

ولا شك فى أن يليان كان على اتصال دائم بموسى ، وأنه تلقاه فى الأندلس وسار معه كما سار مع طارق ، ولا نزاع كذلك فى أن يليان هو صاحب الفضل فيما يبدو من تكامل فتوح طارق وموسى ، فان الإنسان إذا نظر إلى فتوح هذا وفتوح ذاك حسب أنها دبرت جميعاً باحكام من أول الأمر . والحقيقة أن يليان وأصحابه تولوا إرشاد موسى إلى خير الطرق التى يستطيع بها إكمال ما بدأ به مولاه ، وبهذا تكامل العملان وتم بهما إخضاع شبه الجزيرة الإيبيرية على أحسن وجه .

ويبدو كذلك أن موسى إنما عبر إلى الأندلس بناء على استغاثة وجهها إليه طارق ، ولا ينبئنا عن هذه الاستغاثة إلا صاحب « الإمامة والسياسة »(١) ، ولكننا نقبلها لأنها تفسر لنا السبب فى عبور موسى فى ذلك الوقت بالذات . ولو كان موسى قد عبر مع عدد قليل من الجند لقلنا إنه عبر من تلقاء نفسه لكى يرى نتيجة ما وصل إليه قائده طارق ، ولكنه عبر فى جيش تزيد عدته على جيش طارق بكثير ، وتخير الأجناد الذين صاحبوه تخير المقبل على عمل خطير .

والواقع أن الظروف كلها كانت تحتم إسراعه وتجعلنا أميل إلى قبول رواية ابن قتيبة فى استغاثة طارق بموسى ، فقد كان المسلمون قد ساروا فى البلاد شوطاً بعيداً دون أن يستوثقوا من سلامة خطوط مواصلاتهم بالجزيرة الخضراء وإفريقية ، ولم يكن بيدهم من المعاقل الكبيرة إلا قرطبة ، وكانت طوائف من القوط مفرقة فى البلاد تستطيع أن تنقض على جماعات العرب القليلة المفرقة على طول الخط الطويل من جبل طارق إلى طليطلة وما يليها .

وكان يليان يقيم معظم الوقت بالجزيرة الخضراء يؤمن ظهور المسلمين ، وكان قد فرق كثيراً من جنوده مع المسلمين فى كل ناحية ، وأحس فى مقامه

(١) « قال : وكتب طارق إلى مولاه موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث الغوث ! » .
ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

هذا أن القوط يتجمعون ويدبرون شيئاً ، وشعر بحاجته وحاجة المسلمين إلى عون جديد وإلا ساءت العاقبة[١] . ويبدو أنه أفضى إلى طارق بشيء من هذا ، لأن الرازى يذكر أن طارقاً رجاه أن يكتب إلى موسى ليعجل العبور[٢] . ويؤيدنا فى ذلك الظن ما يذكره الرازى من أن طارقاً أقام — بعد عودته من سيره إلى مدينة المائدة — فى طليطلة لا يكاد يصنع شيئاً[٣] ، ولو قد وجد عند نفسه من القوة ما يعينه على فعل شيء لفعل ، ولكن من معه من الجند كانوا قد أجهدوا إجهاداً عظيما ، وكانت المقاومة فى نواحى البلاد قد بدأت ترفع رأسها ، ففضل المقام حيث هو ، وكتب إلى موسى يستغيث به .

وحينما وطئت قدم موسى الأندلس خف يليان للقائه خفوف المنتظر المترقب ، وعقد معه مجلساً للتشاور فى الأمر[٤] . فلو لم تكن الأحوال مضطربة مخوفة لما كانت هناك حاجة إلى المجلس والمشاورة ، ولسار موسى إلى طليطلة قدماً ليلقى طارقاً وليحاسبه على ما فعل ، كما تذهب المراجع . ويدلنا خط سير موسى واتجاهه إلى إشبيلية على أن يليان قد نبهه إلى خطورة ترك هذا المعقل الخطر فى أظهر المسلمين دون فتح .

عبر موسى إلى الأندلس فى رمضان سنة ٩٣ هـ — يونيو ٧١٢ م ، واستصحب معه ثمانية عشر ألفاً من خيرة جنده ، جلهم من العرب وفيهم

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 92.

(٢) يقول الرازى فى النسخة الإسبانية التى بين أيدينا :

"et embió luego à rogar à Don Juliano que le diese pasaje..."

Cf.: GAYANGOS. *La Crónica del Moro Rasis*, n. 7.

(٣) يقول الرازى :

"... oyó decir que folgaba en Toledo et que non se trabajaba à otra cosa..."

Cf.: GAYANGOS. *Op. cit.* n. 8.

(٤) الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢١٣ من ترجمة دوزى .

عدد عظيم من القيسية واليمنية ومعهم أتباعهم ومواليهم ، وكان فيهم كذلك عدد طيب من التابعين وكبار العرب جعلهم موسى فى فرقة واحدة عليها محمد بن أوس[١] . وكان هؤلاء العرب الذين ذهبوا مع موسى هم الجماعة الكبيرة الأولى من مهاجرى العرب إلى الأندلس ، يعرفون عند المؤرخين بطالعة موسى ، وستكون لهم الصدارة بين مسلمى الأندلس زمناً طويلا ، وسيكون لهم أثر عظيم حاسم فى سير الأمور .

ولم تصل هذه الآلاف الكثيرة إلى الأندلس دفعة واحدة ، بل كان موسى قد قسمهم فرقاً بحسب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم ، وكان لكل جماعة راية . فلما عبر انتظرهم فى مكان على مقربة من الجزيرة الخضراء ابتنى فيه مسجداً ، وأخذت الرايات تفد عليه فى ذلك الموضع ، فعرف الموضع والمسجد بمسجد الرايات ، وظلا عامرين قروناً طويلة .

نزل موسى فى الجزيرة الخضراء عند موضع قريب من جبل طارق سمى مرسى موسى ، ثم عجل بالسير إلى شذونة (Medina Sidonia) ومنها

(١) انظر : الضبى : بغية الملتمس ، ص ٥١ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

وقد تحدث الرازى عن هؤلاء التابعين فى شيء من الإفاضة ، وذكر أنه دخلها صحابى واحد هو المنيذر الإفريقى ، سمى الإفريقى لأنه سكن إفريقية .

أما التابعون فهم : موسى بن نصير ، وعلى بن رباح التميمى ، وحيوة بن رجاء التميمى . وقيل إن رابعهم هو حنش بن عبد الله الصنعانى (صنعاء الشام) .

وقد قفل هؤلاء من الأندلس بقفول موسى ، إلا أن أهل سرقسطة يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم يقفل إلى المشرق ، وقبره لديهم مشهور يتبركون به . ويضيف إليهم بعضهم خامساً هو : عبد الرحمن الحبلى واسمه عبدالله بن يزيد ، وسادساً : هو حيان بن أبى جبلة مولى بنى عبد الدار ، وكان فى ديوان مصر ، فبعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية فى جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها ، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس ، ويلى ذلك تفصيل طيب عن هؤلاء التابعين .

الرازى ، عند المقرى ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

وانظر عن هذا الموضوع أيضاً أقوال ابن بشكوال وابن سعيد وابن حبيب والحجارى فى : المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨٢ — ١٨٣ .

سار إلى قرمونة ورعواق (Alcalá Guadaira)[1] فاستولى عليهما ، وبهذا أمنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشذونة ورعواق وقرمونة واستجة وقرطبة فى يد المسلمين ، وأصبح فى إمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح إشبيلية كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد طليطلة إذ ذاك .

٢٣ – فتح إشبيلية

سقطت إشبيلية فى يد المسلمين بعد بضعة أشهر من الحصار والقتال ، ويبدو أن أهل البلد ومن فيها من اليهود سارعوا بفتح الأبواب حينما طال القتال واشتد ، وأما الحامية القوطية فانسحبت إلى لَبْلة على مصب وادى آنة ومنها إلى أكشونبة (Sta. Maria de Faro = Ossonoba) ثم إلى باجة ، وهناك أراحت تنتظر الحوادث . وترك موسى فى البلدة حامية قليلة معظمها من البربر واليهود ، ثم سار قاصداً ماردة متتبعاً طريقاً رومانياً قديماً كان يصل البلدتين ، واستولى فى الطريق على بلد يسمى لَقَنْت[2] سلم له أهله دون مقاومة فسموا لذلك « موالى موسى »[3] .

---

(١) ورد اسم هذه المدينة فى المراجع العربية بصيغ مختلفة : رعوان ، زعواق ورعواق ، وقد أثبت لافونت ألكانترا أن الرسم الصحيح لهذه التسمية العربية هو رعواق ، وأنها هى قلعة جواديرا (Alcalá de Guadaira) ، انظر : LAFUENTE ALCANTARA. *Ajbar Machmua,* indice geografico, p. 256 ولم يرد ذكر فتح قرمونة قبل إشبيلية إلا فى نفح الطيب رواية عن ابن حيان وفى الأخبار المجموعة ، وقد كادت تستعصى على موسى لولا أنه لجأ إلى حيلة نصحه بها من معه من الأدلاء من أنصار يليان ، اذ تسربوا إلى داخل البلد فى هيئة المستأمنين ، ثم غافلوا أهل البلد وفتحوا أبوابه للمسلمين .

انظر : ابن حيان عند المقرى ، ج ١ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٦ .

(٢) قال ابن القوطية : « ثم قصد من إشبيلية إلى لقنت إلى الموضع المعروف بفج موسى فى أول لقنت إلى ماردة » – افتتاح الأندلس ، ص ٩ .

ولا يعقل أن تكون لقنت هذه هى لقنت المعروفة فى جنوب الشاطىء الغربى لشبه الجزيرة . وقد قرأها ساقدرا لَقَنْتُ أو لاكانتوس وقرر أنها عين كانتوس (Fuente de Cantos) .

Cf.: SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 94 et note 2

(٣) فتح الأندلس : ص ١١ ، وانظر تعليق JOAQUIN DE GONZALEZ بخصوص هذه العبارة ، ص ٩٣ من الترجمة .

٢٤ – فتح ماردة

فلما أدرك موسى ماردة وجدها أحصن وأقوى مما ظنها ، فقد كان أنصار لذريق والهاربون من فلول القوط قد تجمعوا فيها لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك ، فأقام موسى محاصراً البلد بقية الصيف والشتاء التالى . ولم يسلم البلد إلا فى الثلاثين من يونيو ٧١٣ م (١ شوال سنة ٩٤ هـ) بعد قتال طويل هلك فيه نفر كبير من حامية البلدة بسبب كمائن أخفاها موسى فى مقاطع الصخر أمام مخارج البلد . وقد هلك أثناء محاولات نقب السور نفر من المسلمين سقطت عليهم دبابة كانوا قد اختفوا تحتها لينقبوا طبقة من السور مبنية من شىء يشبه الأسمنت الصلب كان يسمى (Argamasa)[1] . ولم يسلم أهل البلد إلا بعد أن عاهدهم موسى على « أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها لها » . وهى شروط سيكون لها أثر فى تحديد العلاقة بين المسلمين والأهالى فيما بعد[2] .

يذهب ساقدرا إلى أن فتح المسلمين لإسبانيا دخل فى دور جديد أثناء فتح موسى لماردة ، « لأن حراسة الحصون لم يعد يعهد فيها إلى اليهود ، ولم يعد أهل البلاد يفتحونها من الداخل للمسلمين ، ولم يعد المسلمون يبغتون البلاد ويأخذونها من حكامها فجأة . وتلك كلها دلائل على أن لوناً من

---

(١) أورد ابن حيان هذا اللفظ بنصه محرفا فكتبه « الاشة ماشة » .

ابن حيان ، عند المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) وردت هذه العبارة الهامة عن ذلك الاتفاق فى الأخبار المجموعة ونفح الطيب للمقرى . وقد أورد هذان الكتابان تفاصيل هامة عما فعله المسلمون حتى استطاعوا الاستيلاء على هذا الحصن الهام . ومن ذلك قصة المسلمين الذين استشهدوا تحت الدبابة التى كانوا يختبئون تحتها لنقب سور البلد ، وذكرا أن هذا الموضع يسمى إلى وقتهما « برج الشهداء » لهذا السبب ، وهى ملاحظة هامة . ويذكران كذلك حيلة موسى مع أهل ماردة وتلوينه شعره من أبيض إلى أحمر إلى أسود إرهاباً لهم ، وهى قصة مستبعدة الحدوث .

انظر : الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

ابن حيان ، فى نفح الطيب للمقرى ، ج ١ ، ص ١٧١ .

القطيعة قد وقع بين الأهالى والمشارقة . أما سبب هذا التغير ، فهو أن موسى — فى مسيره من الجزيرة الخضراء إلى ماردة — رأى بعينه سوء حال الشعب (الإسبانى) ورأى كذلك أن الملك لم يكن قادراً على جمع جيش محترم ، وأن مجلس الشيوخ لم يكن ليستطيع الاجتماع للتشاور فى الأمر ، وأن أنصار غيطشة لم يكن يؤيدهم إلا نفر لا يملكون عدة للحرب أو قدرة على إدارة الحكومة . هنا بدأت فكرة « ضم » الأندلس تدور فى رأســه ، بدأ يفكر فى تملك ما فتحه »(١) .

أى أن المسلمين قد قاموا بما قاموا به فى الأندلس حتى الساعة وهم يشعرون أنهم يقومون بغارة يعودون إلى بلادهم بعدها ، حتى إذا استبان موسى ذلك كله فى مسيره من الجزيرة إلى ماردة تغير رأيه ، وأخذ يعمل على الفتح الثابت الدائم ، أى على ضم الأندلس إلى دولة الخلافة ، وأن هذا التفكير غير نفوس أهل البلاد — الذين كانوا يؤازرون المسلمين إلى هذه الساعة على اعتبار أنهم مغيرون يطلبون المغانم لا غير ، أو حلفاء يريدون القضاء على دولة الطاغية لذريق ورد الأمر لأهله — فلم يعودوا يؤازرونهم ، ولم يعودوا يفتحون لهم أبواب المدن ويدلونهم على ثغرات أسوارها وينقضون معهم على حكام القوط ، بل بدأوا يعادونهم ويقفون منهم موقفهم من أى فاتح معتد يريد ببلادهم سوءاً .

وليس فى سياق الحوادث ما يؤيد ساڤدرا فى هذا الزعم ، لأن الواقع الذى لا شك فيه هو أن المسلمين نزلوا الأندلس من أول الأمر على نية الفتح الثابت الدائم ، وأن طارقاً كان يسير فى البلاد ليدخلها فى حوزة الإسلام ، لا ليغنم منها ثم يعود ، ولا ليعين فريقاً من أهلها على فريق . ولا يستبعد أن يكون نفر من الإسبان وأنصار غيطشة ممن ساعدوا المسلمين من أول الأمر قد انتبهوا — بعد فوات الوقت كما رأينا — إلى أن المسلمين يفتحون البلاد

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 96.

لضمها إلى دولة الخلافة ، لا لاقتسام غنائم الفتح معهم ، فأخذوا يأسفون بعد فوات الفرصة على ما كان منهم ، لأن إيزودور الباجى يقول فى هذه المناسبة :

... pace fraudifica male diverberans (n. 36, v. 864) ... pacem nonnullae civitates ... iam coactae proclamitant, atque suadendo et irridendo astu quodam fallit(١).

ويؤيد ساڤدرا رأيه هذا بما حدث بعد فتح ماردة من أن « عجم أهل إشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين ، وجاءوا من مدينة يقال لها لبلة ومدينة يقال لها باجة ، فقتلوا من بها من المسلمين ، قتل فيها ثمانون رجلا ، فقدم فلهم على موسى بن نصير بماردة ، فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش إلى إشبيلية فافتتحها ورجع »(٢) . حقيقة أن هذا هو أول انقلاب من أهل البلاد على المسلمين ، ولكن من أين استدل ساڤدرا على أن الذين قاموا بهذا العمل كانوا من الإسبان ولم يكونوا من فلول القوط المنهزمة التى كانت تتجمع فى نواحى الغرب . وأن هؤلاء إنما جرؤوا على الانقضاض على من بإشبيلية من المسلمين حينما استبانت لهم قلة عددهم وابتعاد إخوانهم المسلمين عنهم ؟ .

نظن أن هذا الفرض الأخير أقرب إلى الصحة ، لأن عبارة ابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة تدل على أن الذين غدروا بالمسلمين لم يكونوا من أهل إشبيلية أو لبلة أو باجة ، فلو أن هذا هو الذى حدث لذكر المؤرخان أن أهل لبلة وباجة ثاروا أيضاً ، إذ لا يعقل أن يسيروا إلى إشبيلية للاشتراك فى ثورتها وهم أنفسهم خاضعون ، ثم إن عبد العزيز بن موسى لم يعاقب أهل

(١) ISODORO PACENSE. *Cronicón*,§36 apud LAFUENTE ALCANTARA, *Ajbar Machmua,* apendice pp. 147-148.

وقد أيد ساڤدرا رأيه هذا بفقرتين : الأولى من « مدونة البلدة » (*Cronicôn Albeldense*) يقول فيها : « ثم ثارت بين القوط والعرب بصورة مستمرة حروب استمرت سبع سنوات » (نفس المصدر ص ١٦٣) والثانيـة عن تاريخ راهب سيلوس (Cronicòn Silense) فقرة ١٧ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

البلد بعد أن أخمد الثورة ، وتركهم على حالهم وأقام معهم فيها ، ولو كان لهم ضلع فى الحادث لرأينا لذلك أثراً فى معاملته لهم . ولا يستقيم الأمر إلا إذا فرضنا أن الذين فعلوا ذلك هم نفر من القوط ، من حاميات البلاد التى فرت منها عند اقتراب المسلمين وعادت إليها بعد ذهاب الجيش الإسلامى عنها ، تحاول استعادتها أو الانتقام من المسلمين .

فلما فرغ عبد العزيز من أمر الثائرين فى إشبيلية سار إلى لبلة وباجة[1] ، وربما إلى أكشونبة ، ليطرد منها من عسى أن يكون قد تجمع بها من القوط ، ثم ترك فى هذه البلاد جميعاً حاميات إسلامية لتؤمنها من أى تدبير يقوم به القوط . ويدلنا نص من المقرى على أن حامية باجة كانت قوية ، وأن قائدها كان قائداً عربياً معروفاً ، هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى وجد بنى زهرة أحد بيوت إشبيلية التى سيكون لها شأن[2] .

وأقام موسى شهراً فى ماردة يرتب أمورها ويريح جنده بعد هذا العناء الذى تكلفوه فى فتح هذا البلد ، ومن الواضح أنه أحس أن عناصر المقاومة فى هذه الناحية كانت أقوى ما لقى المسلمون فى بلاد الأندلس إلى الآن ، وأنه عرف أن فلول القوط — وأنصار لذريق خاصة — كانوا يتجمعون فى هذه النواحى الجبلية الوعرة ظناً منهم أن المسلمين لن يصلوا إليها ، واستعداداً للهرب إلى نواحى قشتالة واسترامادورة إذا ما وطئت أقدام المسلمين هذه النواحى من غرب الأندلس ، لأن سير الفتح الإسلامى سيبطؤ وسيصطدم بعقبات فى هذه الناحية بعد أن كان يسير سيراً ذلولا دون عقبة ظاهرة . وقد رأينا القوط فى إشبيلية ولبلة وباجة كيف « تجالَب فَلُّهم » من هذه النواحى كما يقول ابن عذارى ، ولاحظنا أن فتح ماردة كلف موسى من أمره عسراً .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ترجمة جايانجوس ، ج ٢ ، ص ١١ .

وأنه لم يفتحها إلا بحيلة ، وأن المسلمين خسروا فيها خسائر لم يخسروها فى قرطبة أو إشبيلية أو حتى طليطلة ، وعلة ذلك أن فلول القوط كانت تتجمع فى هذه النواحى الوعرة من كل جانب .

فإذا صح ذلك ، كان مسير طارق للقاء موسى بعد فراغ هذا الأخير من فتح ماردة أمراً معقولا ، لأن الإنسان يتساءل : ما الذى أخر طارقاً عن الخروج للقاء موسى حتى هذه اللحظة ، مع أن موسى كان فى أشد الحاجة إلى العون أثناء حصار ماردة وكفاحه أهلها ؟

ولا يفسر هذا إلا بأن موسى رأى أن مقام طارق بطليطلة يؤمنه من عمل يقوم به قوطُها ، فلما فرغ من أمر ماردة وأراد السير نحو طليطلة أحس أن الطريق طويل محفوف بالمخاوف ، لأن فلول القوط كانت « تتجالب » وتتجمع فى هذه النواحى . فلما وجدت موسى يأخذ فى الطريق رأت الفرصة سانحة لاعتراضه ومنازلته فى معركة خطيرة الشأن كما سنرى . وهذا هو السبب الذى حفز طارقاً إلى المسير للقائه . ولا يعلل سكوت طارق عن الذهاب إلى مولاه طيلة أشهر الشتاء رغم وجوده على مقربة منه ، إلا بأن موسى نفسه لم يطلب إليه المجىء إلا فى هذه اللحظة ، حينما أحس ببعض ما كان يدبر حوله فى هذه النواحى الفسيحة المجهولة للمسلمين .

والواقع أن حركة كبيرة كانت تدور حول جيوش المسلمين الغازية بين وادى آنة ونهر التاجة فى ذلك الحين ، فقد كان لذريق قد تراجع بمن بقى له من فلوله وتحصن بهم فى شعاب الهضبة ، مما يلى وادى آنة إلى الشمال فى جبال سْيِيرّا دِ فرانثيا على أبواب قشتالة الجديدة واسترامادورة فى السهل الفسيح الذى يحيط بسلمنقة ، ولبثوا هناك يتحينون الفرصة للانقضاض على جيوش المسلمين . ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وهؤلاء فى ظهره ، بل كان لا بد له من القضاء عليهم ، ولهذا استدعى طارقاً ليلقاه فى منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة ، فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلا

وانتظر مولاه فى وادى الأرّوكامپو (Arrocampo) فى مكان يسمى المعـــرض (Almaraz) بين التاجة ونهر التيتار [1] .

وأما موسى فقد سار فى طريق رومانى قديم يصل ماردة وسلمنقة بحذاء نهير سيحمل من ذلك الحين اسمه ، وهو ڤالموثا (Valmuza) أى نهر موسى [2]. وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت فى المسلمين لتوسطهم هذا الطريق الطويل وبعدهم عن أى مركز يستطيعون طلب المعونة منه ، وانقضوا على جيش موسى فى ناحيـــة يسميها بعض مؤرخى المسلمين « السواق » وهى

(١) يقول بهذا الرأى ساڤدرا وتؤيده فيه أقوال كثيرة لمؤرخين إسبان ونفر قليل من مؤرخى المسلمين ؛ وهو فى الواقع أقرب الآراء إلى الصحة فى صدد نهاية لذريق . فإن المسلمين لم يقتلوه فى واقعة وادى لكه ، وتكتفى المراجع بالقول بأنه اختفى أو غرق . وسيرى القارئ فى سياق الحديث أن هذا الرأى يصحح الوقائع أكثر مما يصححها القول بموته أو اختفائه من ميدان التاريخ عقب لقائه المسلمين أول مرة .

SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 98 sqq.

(٢) وتعيين اتجاه موسى على هذا النحو يعيننا على تحديد المكان الذى التقى فيه بطارق على وجه التقريب ، والمراجع العربية مختلفة حول هذه النقطة أشد الاختلاف ، فابن عذارى مثلا يقول : « اتفق الأكثرون على أن التقـــاءهما كان على طليطلة ، وذكر الطبرى أنه كان على قرطبة ، وذكر الرازى أن طارقا خرج من طليطلة لما بلغه مسير موسى إليه ، فلقيه بمقربة من طلبيرة .. » وإشارة الرازى تدل على أن اللقاء تم على مقربة من هذا البلد الأخير . وقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن اللقاء وقع فى ناحية يرسمها « بابد » من غير نقط ، ويمكن قراءتها تايد أو تايتر اعتمادا على عبارة أوردها ردريجو أسقف رادا فى تاريخه : iuxta rivum qui Teitar dicitur

ولما كانت بعض المراجع الإفرنجية تقول بأن اللقاء وقع عند ناحية تسمى Almaraz — وهو لفظ عربى الأصل يرجح أن أصله « المعرض » ، وهو مكان على مقربة من طلبيرة على نهر التيتار — فإننا نستطيع القول بأن اللقاء بين القائدين المسلمين الكبيرين وقع هناك .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٧ .

الأخبار المجموعة ، ص ١٨ .

RODERICUS TOLITANUS. *De rebus Hispaniae*, I, III, cap. XXIV

Cf.: SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 98.

على مقربة من تماميس (Tamames) [1] (Segoyuela de los Cornejos) ، فانقض عليهم المسلمون وثبتوا لهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، وقتل لذريق نفسه ، قتله مروان ابن موسى بن نصير ، فشهدت هذه البقعة مصرع آخر ملوك القوط ، وقد حمل أتباعه رفاته بعد ذلك ودفنوها فى ڤيزيو . وظل قبره هناك معروفاً حتى زمان ألفونسو الكبير ، فقد ورد فى حوليات هذا الملك أنه رأى قبر لذريق وقرأ عليه لوحة تقول : هنا يرقد لذريق ملك القوط

(Hic requiescit Rudericus rex gothorum)

ومن الغريب أن هذه الواقعة التى أهملها المؤرخون إهمالا شبه تام كانت الأساس الذى دارت حوله الملاحم الإسبانية التى نشأت فيما بعد حول لذريق آخر ملوك القوط ودفاعه عن بلاده .

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط فى هذه الواقعة الحاسمة الأخيرة قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم فى طليطلة على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى إلى

(١) لم يذكر هذه الوقعة من المؤرخين المسلمين إلا الرازى (فى الترجمة الإسپانية) وفتح الأندلس المجهول المؤلف ، وقد ذكر هذا المرجع الأخير أن الموضع الذى وقع فيه اللقاء الأخير يسمى « السوانى » فى نسخة و « السواق » فى نسخة أخرى ، وأما الرازى فيسمى هذه الوقعة La batalla de Saguyue ، وهو لفظ قريب جداً من لفظ السواق . أما مقتل لذريق على يد مروان ابن موسى فلم يذكره إلا ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة . انظر :

Fragmentos inéditos de la crónica llamada del MORO RASIS, apud SAAVEDRA. *Op. cit.* apendice 145 sqq.

فتح الأندلس ، ص ٨ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٧٦

ولاشك فى أن تسمية الرازى لهذا الموضع بـ Saguyue كانت الأصل الذى أخذ عنه المؤرخون الإسبان وقصاصهم اسم هذا الموضع ، فقـــد كتبه « فرناندو جنذالذ » فى قصيدته الطويلة عن لذريق Sangonera ، وكتبه « ردريجو كارو » سانجوبيلا .

Cf.: FERNANDO GONZALEZ, *El Ultima Rey Godo*, Copla 79.

RODRIGO CARO, *Antiguedades y principado de Sevilla*, f., 122 v.

SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 100 sq.

فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر [١] . ويذهب المؤرخ الإسبانى مودستو لافونتى إلى أن أفراد حزب غيطشة كانوا يؤملون — بعد مقتل لذريق — أن يقيمهم المسلمون ملوكاً على البلاد ، ولكن موسى خيب ظنونهم حينما أعلن بعد دخوله مباشرة أن البلاد كلها للخليفة المسلمين فى دمشق ، ولم يجد أبناء غيطشة بداً من الرضوخ للأمر الواقع ، فسكنوا قانعين بما منحهم موسى من أملاك أبيهم وما شرفهم به من عظيم المكانة [٢] . فاستقر أخيلا (وقِلة) فى طليطلة وعاش آمناً فى ظلال المسلمين ، وخلفه ابنه ألْبَرُو (ألفارو) ثم حفيده حفص الذى أصبح فيما بعد قاضياً للنصارى . وأما أرطباس فقد استقر فى قرطبة مكرماً معززاً وأصبح له بين المسلمين مكان مرعى ، واحتفظ بلقب «قومس» وورثه عنه ابنه أبو سعيد . وأما ألْمُنْدُ فقد اختار المقام فى إشبيلية وأنجب ابنة هى سارة ، عاشت كريمة حتى أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وابنين هاجر أحدهما إلى الشمال وبقى أحدهما فى بلاد المسلمين ليحظى بمكان رفيع وليصبح أسقف المستعربين جميعاً فيما بعد . وكافأ موسى أبة (Oppas) أخا غيطشة — الذى طالما ساعد المسلمين وأعانهم — بتعيينه أسقفاً لطليطلة ، والظاهر أن جمهور النصارى لم يرض عن هذا التعيين لأن إسبانياً آخر هو « أوربانو » لم يلبث أن خلفه فى هذا المنصب الكبير سنة ٧١٩ م [٣] .

٢٥ — أول عملة إسلامية فى الأندلس

ولم يكد موسى يستقر فى طليطلة حتى سارع بضرب عملة ذهبية ليدفع منها رواتب الجند الذين كانوا معه ، ولسنا نعلل ضرب موسى لهذه العملة الذهبية — التى كانت فى ذلك الحين من حق الخليفة وحده — إلا بأن الخليفة كان قد خوله هذا

(١) فتح الأندلس ، ص ١٢ .

(٢) MODESTO LAFUENTE. *Historia general de Espana*, II, 479.

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤ — ٥ .

DOZY. *Recherches*, I, p. 79

El cronicon Silense, n. 20

SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 104-105

الحق فى إفريقية فأباحه لنفسه فى الأندلس ، لأنها كانت معتبرة فى نظره أرضاً مفتوحة تابعة لإفريقية ، وكان المسلمون يتعاملون خلال هذه الفترة القصيرة فى إسبانيا بالعملة الإفريقية التى ضربها موسى قبل ذلك سنة ٩٠ هـ . وقد رسمت هذه الدنانير الذهبية الجديدة على هيئة العملة الإفريقية : كانت لاتينية عربية ، ففى ناحية منها كتب « محمد رسول الله » يحيط به النص التالى باللاتينية على هيئة دائرة :

In nomine Domini. non Deus nisi Deus. Solus Sapiens. non Deo similis Alius

وفى الناحية الثانية نجمة ذات ثمان أذرع كتب حولها باللاتينية :

Solidus feritus in Spania

ويلى ذلك تاريخ سكها وهو سنة ٩٧ هـ [١] .

وضرب موسى كذلك عملة برنزية صغيرة لاتينية الكتابة .

ثم بعث موسى برسولين إلى الخليفة الوليد ينهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعى على بن رباح ، وكان رجلا صالحاً فى نحو الثمانين من عمره ، ومغيث الرومى فاتح قرطبة . ويبدو أن مغيثاً كان حانقاً على موسى لشىء فى نفسه ، أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه مغفلا بيان ما قام به هو وما قام به طارق ، فلم يأل جهداً فى تنقص موسى وتشويه سمعته ، فكان لكلامه أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد [٢] .

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 106-107.

LEVI-PROVENÇAL. *Hist. De l'Esp. Mus.* pp. 20-21.

والمراجع المذكورة هناك .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

ويسهب ابن عبد الحكم — على غير عادته — فى تفصيل ما فعل موسى بطارق ، وما فعله مغيث من عون طارق والإسراع إلى الخليفة لإنقاذه . ولسنا نفهم سبباً لهذا الإسهاب إلا أن تكون أخبار كهذه قد شاعت وتداولها الناس فى المشرق ، ولما كان مغيث هو الوحيد الذى أتيح له الحديث إلى الخليفة ، فلا يستبعد أن يكون صاحب هذه الشائعات . ورواية المقرى تؤيدنا فى هذا .

٢٦ – السير نحو الشمال

فلما اطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد أخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه الجزيرة، ويذهب المؤرخون إلى أن نيته انعقدت إذ ذاك على التصعيد واختراق جبال البرت وغالة وأوروبا كلها ليصل إلى القسطنطينية من الغرب[١] . وليس لدينا دليل واحد نستطيع أن نؤيد به هذه الأقوال، ونستبعد أن يكون موسى قد فكر فى أمر خيالى عسير التحقيق كهذا . وكل الذى نعرفه أن موسى جمع أجناده حينما انقضى الشتاء وسار بهم فى اتجاه الشمال الشرقى ليفتح حوض الإبرو وما فيه من مدائن . وكان معه طارق وجماعة من كبار جنده ، وتقدم الجيش محمد بن إلياس المغيلى أحد قادة البربر مع طائفة قليلة استولت على وادى الحجارة دون كبير جهد [٢] .

ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقى ، وما دهمهم من ثورة أهل طليطلة مال بهم إلى الشدة . فنراهم فى غزوتهم هذه أميل إلى العنف مما كانوا قبل ذلك ، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالا سلمياً فيؤمن أهلها ولا يكاد يستبيح لنفسه إلا ما كان من أملاك القوط أو أملاك الكنيسة ، نسمع من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورعب أهلها وخروجهم منها على وجوههم . ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة لسياسة

(١) يذكر المقرى أن موسى حينما أدرك هذا الموضع القاصى من شمال الأندلس وأشرف جنده على البحر الأخضر (المحيط الأطلسى) وجبال البرت ، فكر فى اختراقها والاستمرار فى الفتوح ، وأنه «كان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلد إفرنجة ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشام مؤملا أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقا يسلكه أهل الأندلس فى مسيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً» . ولسنا نستطيع تحقيق قالة كهذه ، وكل ما نستطيع استنتاجه منها هو أن الوليد لو لم يكن قد استدعاه وألح فى استدعائه لأتم فتح جليقية – كما يذكر المقرى – أو لاخترق جبال البرت وأفضى إلى غالة . أما ما يزعمه المقرى من وصوله إلى نهر الرون (ردونه – من Rodanus) فأمر غير صحيح ، وسنرى فيما بعد أن المؤرخين وضعوا كثيرا من أعمال الفاتحين المسلمين ممن أتى بعد موسى فى حملته تلك ونسبوها إليه .

المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤ – ١٧٥ .

(٢) شهاب الدين الفاسى برواية المقرى : نفح الطيب ترجمة جايانجوس ، ج ١ ، ص ٥٣٣ .

موسى ، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغانم والأسرى والسبايا . وقد بلغ من إسرافه فى هذا الوجه أن العرب أنفسهم – وعلى رأسهم الخليفة – أنكروا عليه هذا المسلك . فلم يلبث الخليفة أن استدعاه ليناقشه الحساب فيما يفعل .

ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها بنسيو (Bencio) ومن معه من الرهبان ، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر . فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولا يؤمنهم ويعطيهم عهده . فسكنت مخاوفهم واستقروا ودخل المسلمون البلد بعد قتال لا يذكر[١] . ولم يكد المسلمون يستقرون فى البلد حتى قام التابعى حنش بن عبدالله السبأى الصنعانى بإنشاء مسجدالمدينة . وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله فى هذه النواحى [٢] .

ثم أعقب موسى ذلك باحتلال سرقسطة ووشقة ولاردة وطركونة . وأحب أن يتابع سيره نحو البرت . ولكن جنده روعوا لما شاهدوه من قفر هذه النواحى وقلة عمرانها . ثم إن أهلها كانوا يتكلمون اللغة البسكية فوقعت من العرب موقعاً غريباً . وظنوا أنهم لا يتكلمون[٣] . واستوحش الجند من هذه الناحية وأبدوا رغبتهم فى العودة . وانضم إليهم التابعى حنش الصنعانى . وأخذ موسى يحاول إقناعهم بضرورة الاستمرار[٤] .

(١) ISODOR PACENSE. *Cronicon*, n. 36. versos 871-873.

(٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١١١ .

الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٦٣ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٣) « ... وفتح بلاد البشكنس وأوغل فى بلادهم حتى أتى قوما كالبهائم ، وغزا بلاد الإفرنج ... » .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

(٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

وفى ذلك الحين وصل مغيث الرومى عائداً من دمشق ومعه أمر لموسى وطارق بأن يشخصا إلى دمشق ، وأحس موسى بما وراء هذه الدعوة ؛ وعرف أن مغيثاً مولى عبد الملك بن مروان لا بد أن يكون قد تقول عليه شيئاً ، ولكن ذلك لم يصرفه عن المضى فى إتمام هذه الغزوة التى صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، وأحب أن يسترضى مغيثاً حتى يدعه يمضى فى إكمال فتح البلاد ، فعرض عليه أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التى سيفتحها فى هذه المهلة ، ومنحه القصر الذى كان يسكنه حاكم قرطبة فى الجزء الشرقى منها ، فقبل مغيث وظل هذا القصر يعرف فيما بعد ببلاط مغيث (١) . فإذا اطمأن موسى إلى ذلك فقد تابع سيره فى قشتالة القديمة (Castilla la vieja) ليتم فتحها وليؤمن طليطلة من غدر أى عدو للمسلمين يكون فيها(٢) . واستقر رأيه على أن يقسم جيش المسلمين قسمين : قسما يسير به هو ، وقسما يسير به طارق .

عهد موسى إلى طارق فى السير نحو جبال كَنْتَبْرِيَة ، فبدأ طارق بمهاجمة البشكنس غربى الإبرو فلم يجد صاحب الناحية « فُرْتُون » (Fortunius) بداً من الدخول فى طاعة المسلمين بل اعتنق الإسلام ، ومنه تسلسل « بنوقسى » أصحاب الثغر الأعلى الذين سنلقاهم كثيراً على طول تاريخ المسلمين فى الأندلس(٣) ثم تابع طارق سيره ، واستولى على أمايا واشترقة وليون (٤) .

٢٧ – أقصى ما وصلت إليه فتوح المسلمين فى إسبانيا

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية للإبرو فى إقليم قشتالة ، فأطاعه معظم من مر بهم من رؤساء هذه الناحية . وقد لقى بعض المقاومة عند قرية تسميها المراجع بارو — أو بازو —

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 113-114.

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٣ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ . وقد جعل هذا المرجع فتح هذه الحصون الثلاثة فى سنة ٧١١ ، وهو خطأ واضح ، وقد بيناه فى حينه .

فى مقاطعة ڤاليادوليد (بلد الوليد) الحالية(١) ، ولم يلبث أن تغلب عليها وسار متتابعاً فتوحه . وبدلا من أن يعرج على اشترقة ليلتقى فيها بجيش طارق ، انحرف إلى الشمال واخترق باب تارنا (Tarna) وسار متابعاً مجرى نهير النالون (Nalón) ثم حط رحاله عند قلعة يسميها المقرى لُك (Lucus Asturum) الرومانية و Maria de Lugo اليوم) غير بعيد من أبيِّط (Oviedo) ، وما زال بها حتى سواها بالتراب وفر من كان بها إلى مكان قاص من الشاطىء يسمى الصخرة (Picos de Europa) . ثم سار بنفسه حتى بلغ خيخون (Gijón) وأقر فيها حامية ، وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد فى هذه النواحى البعيدة ، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة بلاى (Peña de Pelayo) (٢)

فإذا أدركت خيل موسى البحر من الشمال فقد أحس أنه فتح شبه الجزيرة كله ولم يعد هناك معنى للاسترسال فى السير ، وكان موسى يترك فى كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين ، فتفرق جنده وطال السير بمن بقى معه منهم ، ونال منهم الجهد فمالت نفوسهم إلى العودة ، فاكتفى موسى بوصوله إلى خيخون

(١) كتبها المقرى بارو وبازو ، وقد ظن بعضهم أن المراد بذلك ڤيزيو (Viseu) ولكن نظرة على الخريطة تدل على أنه من العسير أن يصل موسى إلى ڤيزيو من هذه الناحية فى هذا الوقت القصير . وقد حقق موقعها ساڤدرا وقرر أن المراد بهما ڤلياباروز (Villabaruz) وبهذا تكون صحة الاسم الذى أورده المقرى باروز .
نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤ .
SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 117.

(٢) هكذا وصل المسلمون إلى أقصى نقطة من أشتريس أدركوها فى أيام موسى فى دفعة الفتح الأول ، وإليك عبارة المقرى بهذا الصدد نوردها لأهميتها : « ... ومشى معه (أى مع مغيث) حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بازو وحصن لُك ، فأقام هنالك وبعث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر ، فلم تبق كنيسة إلا هدمت ولا ناقوس إلا كسر ، وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية وسكنت العرب المفاوز ... » .
المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ .
SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 117.

وأزمع العودة غير عالم أن نفراً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتموا فى نواحى أشتريس وجليقية . وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلا[١] . والواقع أن من بقى من القوط إذ ذاك كان قليلا . ولو لم يشتغل العرب بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بين أنفسهم لاستطاعوا الالتفات إلى هذه البقية الباقية من الأرض والناس . ولكنهم شغلوا بأمور أنفسهم كما سنرى . فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تطمئن فى هذه النواحى القاصية القاحلة ، وأن تنمو لتنتهز فى المسلمين كل فرصة تسنح . وكانت معظم الحاميات التى خلفها المسلمون من البربر . وكان أكبرها حامية استقرت فى خيخون على الغالب يقودها زعيم بربرى سيكون له شأن ، هو « مونوسة » .

فإذا انتهى موسى فى فتوحه إلى هذا الحد القصى فقد كان لا بد أن يعود . لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط . بل إلى دمشق رأساً . فقد كان مغيث رسول الخليفة يتعجله . وكان الوليد معجلا عليه لا يريد أن يتمهل حتى لتذهب الروايات إلى أنه بعث إليه رسولا آخر اسمه أبو نصر لقيه فى « لك » فأخذ بعنان فرسه وأمره بالعودة . وذلك أمر مستبعد . لأن مغيثاً وصل وموسى فى سرقسطة فى أوائل الربيع . ولما تنقض على وصوله ثلاثة أشهر . ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة فأرسل يتعجل . وربما كان « أبو نصر » هذا كنية لمغيث كما يظن جايانجوس[٢] .

أخذ موسى فى طريق العودة فى أواخر سنة ٩٥ هـ (منتصف صيف ٧١٤م) وكان مغيث قد خف للقائه . فالتقيا بنواحى ليون . وهناك أدركهما طارق عائداً من اشترقة . وساروا جميعاً فاخترقوا فج موسى (Valmuza) فى طريقهم إلى طليطلة . ولم يتم موسى فى طليطلة شيئاً وإنما مضى مجداً حتى دخل قرطبة ولقى فيها نفراً من كبار جنده . ثم مضى إلى إشبيلية حيث ركب

(١) عيسى بن أحمد الرازى برواية المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ٦٧١ – ٦٧٢ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ – ١٧٣ .

البحر ومعه طارق ومغيث وكبار الجند فى ذى الحجة سنة ٩٥ هـ ، وكان معهم يليان . وتذهب المراجع إلى أنه اصطحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى ، وهذا أمر لا يصدق ، نظراً لما يحتاجه مثل هذا العدد العظيم من العدة حتى يمكن نقله هذه المسافة الطويلة من الأندلس إلى دمشق . والغالب أن عدداً قليلا جداً من هؤلاء رافق موسى فى رحلته ، وأما الباقى فقد ترك فى المزارع يزرعها . ونكاد نتفق مع ابن قتيبة الذى يذكر أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط . ألبسهم أفخر الثياب وسار بهم فى موكبه ليدل على عظم الفتح الذى قام به . وكان موسى ميالا إلى مثل هذه المظاهر[١] .

٢٨ – عودة موسى وطارق إلى المشرق

بارح موسى الأندلس فى ذى القعدة سنة ٩٥هـ (سبتمبر ٧١٤) ووصل مصر فى السابع من ديسمبر . وبلغ دمشق فى السادس عشر من يناير سنة ٧١٥ م أى قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً .

وكان سليمان بن عبد الملك قد أحس باقتراب منية أخيه فكتب إلى موسى يأمره بأن يتريث حتى يصل بعد موت عبد الملك . فتؤول الذخائر التى كان يحملها معه إلى سليمان . ولكن موسى لم يشأ أن يتريث . ووجد الحجى فى أن يسير سيره العادى . فإن وصل والوليد حى كانت الغنائم له . وإلا فهى لمن يخلفه بالحق والعدل . وكان ركب موسى فى عودته ركب قائد مظفر أوسع الله عليه فى الخير والمغانم . فكان لا يلقى أحداً إلا أعطاه شيئاً . ولسنا نعلم على وجه التحقيق من أى مال كان يعطى ، ولكن الذى نعلمه أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يبلغ هذا المبلغ من السخاء وكثرة الهبات[٢] .

وصل موسى دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً ، فأذهل الناس بما أتى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٣ .
المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٣ .
الرازى : (فى الجزء الإسبانى الذى نشره جايانجوس) رقم ١٤ .
فتح الأندلس ، ص ١٩ .
ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .
(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٥٨ وما بعدها .

به من الخيرات والمغانم ، بل يجمع المؤرخون على أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يعد بغنائم تشبه — بعد فتح فارس (١) — غنائم موسى . ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيراً على موسى تغيراً لا سبيل إلى إصلاحه ، فلم يحسن لقاءه ، ثم لم يلبث أن لقى ربه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى لما كان منه معه . ولهذا كان طبيعياً أن لا ينتظر موسى خيراً كثيراً ، وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر .

بيد أننا نستبعد صحة ما يبالغ فيه المؤرخون من أفاعيل سليمان بموسى ، نعم إن مغيثاً الرومى لم يدخر وسعاً فى تشويه سمعة الفاتح العظيم ، وصحيح أن مقالاته لقيت قبولا من آذان أولى الأمر فى عاصمة الخلافة ، ولكن الإنسان يستبعد ما يقال من أن سليمان كان يقيم موسى فى الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد ، أو أنه ألزمه أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها ما لا يفتدى به نفسه . حتى لقد كان يستجدى الدرهم والدرهمين « فيفرح بذلك ليدفعه إلى الموكلين به فيخففون عنه من العذاب » (٢) . لأن سليمان لو كان قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك ولديه واليين على إفريقية والأندلس ، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان ابن عبد الملك وصاحب الأمر فى دولته . وكل ما نستطيع قبوله هو أن سليمان أهمل موسى وتركه فى زوايا النسيان ، وما نظن أن رجلا كهذا كان يمكن عقابه بأقسى من ذلك ، فقد فتح الفتوح ومصر الأمصار وكان حقيقاً بأن يعود إلى ما فتح لينظمه أو ليزيد فيه . ولا نزاع فى أن موسى كان على نية مواصلة الفتح إذا عاد ، فحرم مسلمو الأندلس من هذه القوة الدافعة التى وصلت إلى شاطىء خليج بسكاية فى عام وبعض عام ، وأصاب بقايا القوط الفرصة التى كانوا فى أشد الحاجة إليها ليستريحوا بعد طول جهد ، وليستعدوا للصراع الطويل مع المسلمين من جديد (٣) .

(١) المقرى : جـ ١ ، ص ٧٧ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .

(٣) انظر تفاصيل ذلك فى نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها .

خرج موسى من الميدان وعاش بقية حياته فى ظلال النسيان لا نكاد نسمع من أخباره شيئاً ، ولاتحدثنا المراجع بشىء عنه بعد ذلك حتى موته بعد ذلك بقليل سنة سبع وتسعين أو تسع وتسعين وهو فى طريقه إلى الحج فى رفقة سليمان (١) . وإذا عرفنا أن سنه كانت قد جاوزت الثمانين عند وفاته لتبينا أن الرجل كان قد قارب الثمانين حين عاد من الأندلس ، فلا يستبعد أن يكون سليمان قد لاحظ سنه العالية فاستحسن أن يخليه من العمل وأن يبقى ابنيه مكانه فى إفريقية والأندلس فبقى الفاتح العظيم فى صحبة الخليفة حتى مات فى ركابه كما رأينا .

ومهما يكن الجزاء الذى لقيه موسى على يد سليمان ، فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يقرر أن الخلافة لم تعرف فضله ولم تجزه الجزاء الذى كان يستحقه . فقد فتح للإسلام فتوحاً تضعه فى الصف الأول من رجال الإسلام الأول ، وكانت له سياسة وقدرة تدفع الإنسان إلى أن يقرر فى غير تردد أن هذا الرجل هو واضع أساس ما أدركه المسلمون من سلطان وحضارة فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، لأن فتح الأندلس كان أمراً لا بد منه حتى يطمئن المسلمون على فتوحهم فى الشمال الإفريقى ، ولو لم يفتح الأندلس لاستمر المغرب الإسلامى مهدداً بجموع النصرانية . هذا إلى ما كان لهذا الفتح الأندلسى فى ذاته من القيمة والأثر مما يغنى عن كل حديث .

قال المقرى : « ... فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحم عليه . وإن فعل سليمان به وبولده ، وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذى تركه نائباً عنه بالأندلس — وقد جىء به من أقصى المغرب — بين يديه ، من وصماته التى تعد عليه طول الدهر ، لا جرم أن لم يمتعه الله بعده بملكه أو بشبابه » (٢) .

(١) وتختلف الروايات حول ذلك الموضوع ، فيذهب الحجارى وابن بشكوال أن موسى توفى بوادى القرى فى أسوأ حال .

انظر المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٨١ .

وتصمت الرواية الإسلامية كذلك عن طارق صمتاً كاملا . ولسنا نفهم لهذا سبباً إلا ما يقال من أن مغيثاً وشى به هو الآخر وخوف الخليفة منه . وكان هذا يريد أن يوليه الأندلس بعد موسى . والحق أن مغيثاً الرومى أساء إلى قائديه إساءة كبرى ، وربما كان دافعه إلى ما افتراه على طارق هو طمعه فى ولاية الأندلس ، ولكنه على كل حال لم يفز من ذلك بشىء . لأنه عاد إلى الأندلس فيما بعد ليعيش فى « بلاطه » وأملاكه ، ولكى ينجب بنين سيكون لأحفادهم شأن عظيم فى تاريخ الأندلس الإسلامى [1] .

وإذا كنا لا نأسف كثيراً على حرمان موسى من ثمرات فتوحه . لأنه فى الواقع قد استمتع من هذه الثمرات بما فوق الكفاية . فان المؤرخ لا يسعه إلا أن ينظر بعين الأسف إلى هذه الحجب الكثيفة التى أسدلت على بقية حياة طارق ، هذا المسلم الإفريقى المجيد الذى لا تسجل الرواية الإسلامية عنه إلا خيراً. ولكن إهمال المؤرخين أمره لم يحرمه من نصيبه من الخلود . فقد أرادت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة من الأندلس وطئتها قدماه . وأن تنتقل هذه التسمية بصيغتها العربية محرفة تحريفاً بسيطاً إلى اللغات الأوروبية جميعاً . وتريد المقادير كذلك أن تكون هذه البقعة بالذات من المواضع التى سيشغل ذكرها الناس على مر العصور . لأسباب وعلى صورة لم تكن تدخل فى حساب طارق ، فلا يزال الناس من ذلك الحين يتحدثون عن جبل طارق أو جبرالتار . ويدفعهم هذا الذكر إلى البحث عن طارق وأخباره .

٢٩ – استكمال الفتح

لم توقف عودة موسى وطارق نشاط المسلمين فى الأندلس . فقد بقى فيه نفر من الأجناد استمروا يواصلون العمل لإكمال ما بدأوا به . فتذكر الأخبار المجموعة أن سنة ٩٥ ﻫ شهدت فتح كثير من بلاد الأندلس على يد المسلمين دون أن تذكر هذه البلاد . ويذكر

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٥ .
جايانجوس : ترجمة نفح الطيب ، ج ٢ ، ٣٩٩ .

ابن الفرضى أن نعمان بن عبد الله الحضرى عاد إلى الأندلس بعد مرافقته موسى إلى دمشق ، واشترك فى الجهاد ومات فى سبيل الله ، واستمر التابعيان على ابن رباح وحنش الصنعانى فى سيرهما بجند المسلمين نحو الشمال حتى فتح الله عليهما بنبلونة فى أواخر سنة ٩٥ ﻫ (٧١٤ م) . ويذكر ابن خلدون أن المسلمين افتتحوا برشلونة بعد ذلك بقليل ، دون أن يستطيع التأكد من صحة أخبار هذه الفتوحات [1]

وكان ينبغى أن نقف بقصة الفتح عند هذا الحد ، لأن ولاية عبد العزيز ابن موسى تبدأ عصر الولاة الذى سنتناوله فى الفصل التالى . ولكن بقيت من الأندلس نواح واسعة فى الشرق لا بد من استقصاء أخبار فتحها أو دخولها فى طاعة المسلمين حتى نستطيع القول بأننا قد فرغنا من أخبار فتح المسلمين للأندلس تماماً .

كان عبد العزيز بن موسى فاتحاً نشيطاً ، فقد كانت له يد طولى فى فتوح إفريقية . وقد رأيناه ملازماً أباه مشاركاً إياه فى كل عمل قام به فى الأندلس ، ثم رأيناه بعد ذلك يقود جيشاً سار إلى إشبيلية ليخمد ثورتها التى قام بها أهلها على المسلمين فى سنة ٧١٣ م . وأقام عبد العزيز بعد ذلك فى هذه الناحية مواصلا الفتوح فى نواحى الغرب ، ففتح يابرة وشنترين وقلمرية خلال سنة ٧١٤ فى الغالب .

ولم يكد عبد العزيز يستقر فى ولاية الأندلس حتى نشط لإخضاع جنوب شرقى شبه الجزيرة الذى لم يصل إليه أحد من المسلمين حتى ذلك الحين ، وكان عبد العزيز قد استقر برجال حكومته فى إشبيلية ، فظل هذا البلد عاصمة للأندلس الإسلامى طوال حكمه [2] .

(١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ص ٢٩ و ج ١ ، ص ١٠٩ ، ٢٥٦ .
المقرى : نفح الطيب ، ترجمة جايانجوس ، ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) ذكر المقرى فى نفح الطيب سبب استقرار عبد العزيز فى إشبيلية واتخاذها عاصمة له ، وهو رغبته فى أن يظل على اتصال مستمر بافريقية ، وكانت إشبيلية ميناء كبيرا يسع السفن الكبيرة ، ولم يكن جبل طارق كذلك .

٣٠ – تدمير

بدأ عبد العزيز بفتح مالقة (١) التى أسلمها حاكمها إلى المسلمين دون كبير عناء ، ثم قصد غرناطة ، ويقال إن حاميتها كانت من اليهود ففتحوا للمسلمين أبوابها دون مقاومة (٢) ، ثم اتجه عبد العزيز إلى إقليم مرسية حيث كان يحكم قائد قوطى يسمى تدمير (Teodomiro) ويذهب سافدرا إلى أنه ابن (Ergobado)(٣) أحد كبار قواد غيطشة ، وإلى أن تدمير هذا كان رجلا نصرانياً حسن العقيدة وأنه كان مثقفاً استطاع بفضله وعلمه أن يكسب احترام المسلمين بل احترام الخليفة نفسه حينما سار إليه فيما بعد ليشكو إليه غبناً أصابه من عامل الأندلس(٤) . ويذهب الرازى إلى أن تدمير دخل فى طاعة المسلمين من أول الأمر ، دون أن يسلم ، وأنه قاد جماعة من المسلمين سارت لفتح استجة (٥) ، ولكن الغالب أن الرازى أخطأ فى ذلك لأنه يذكر أن المسلمين ساروا بعد ذلك لفتح أوريولة (Orihuela) التى كانت إذ ذاك عاصمة إقليم مرسية وكان فيها مقام تدمير . والغالب عندنا كذلك أن تدمير

(١) يذهب المقرى أن مالقة فتحت أيام موسى ، وأنه أرسل ابنه عبد الأعلى فى بعث حاصرها وكادت تستعصى عليه لولا أن حاكمها وقع فى يد المسلمين نتيجة لعدم حرصه فلم تلبث المدينة أن سلمت . وهذه تفاصيل طريفة ، غير أننا نستبعد أن تكون مالقة قد فتحت فى أيام موسى وعلى يد ابنه هذا ، لأننا نعرف أن هذه الحملة قادها عبد العزيز بن موسى بنفسه عقب رحيل أبيه .

المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) أحمد الرازى : روى ذلك ابن الخطيب . انظر :

CASIRI. *Bibliotheca,* II p. 105.

(٣) قال الضبى فى بغية الملتمس إن اسم تدمير كان تدمير بن غبدوش ، ويؤيد أحمد بن أنس العذرى ذلك فى « نظم المرجان » . ويقول سافدرا بأنه لا بد أن يقرأ غوبادوش أو جوبادوش Gobados ، وأن هذا الاسم هو Ergobados وكان من أسماء القوط المشهورة المتداولة .

الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٦٩ و ٣٣٧ و ٤٠٠ .

SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 87.

(٤) إيزودور الباجى ، رقم ٣٨ .

(٥) الرازى ، طبعة جايانجوس ، ص ٤ .

لم يفعل شيئاً لمقاومة المسلمين ، مثله فى ذلك مثل غيره من أنصار غيطشة ، وبقى مكانه يرقب الحوادث حتى سار إليه المسلمون بقيادة عبد العزيز فى أول ولايته سنة ٩٥ هـ على ما روينا (١) .

فلما اقترب عبد العزيز وجنوده من بلاده تخوف وفكر فى أن يحتمى منهم ، وتذهب المراجع النصرانية إلى أنه استطاع رد جيوش المسلمين مهزومة مرتين (٢) ، أما المراجع العربية فتكتفى بقصة – موضوعة فى الغالب – تدل على ذكاء تدمير وفطنته . فتذكر أنه احتال على المسلمين ليحصل منهم على شروط حسنة ، « فأمر النساء فنشرن شعورهن وأعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة ، وأوقف معهن بقية من بقى من الرجال فى وجه الجيش حتى عقد على نفسه ، ثم هبط بنفسه كهيئة الرسول ، فاستأمن فأمن ، فلم يزل يراوض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده ، فصارت تدمير صلحاً كلها ليس منها عنوة قليل ولا كثير ، وعاملهم على ترك أمواله فى يديه ، فلما فرغ أبرز لهم اسمه وأدخلهم المدينة ، فلم يروا فيها أحداً عنده مدفع . فندم المسلمون ومضوا على ما أعطوه ... » (٣) . ولسنا نستطيع أن نقبل هذه القصة على علاتها ، ولسنا نستطيع كذلك أن نقر المراجع اللاتينية على ما تذهب إليه من هزيمة تدمير للمسلمين مرتين متواليتين (٤) . وليس من المعقول كذلك أن تدمير سلم دون مقاومة أصلا ، لأنه لو كان فعل ذلك لما حرص المسلمون على إعطائه شروطاً خاصة . وكل ما نستطيع قوله هو أن تدمير كان صديقاً للمسلمين من أول الأمر ، لأنه كان من أنصار غيطشة

(١) وانظر أيضاً : SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 88-89.

(٢) SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 127.

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ١٣ .

ابن عذارى : البيان ، ص ١٣ .

(٤) انظر مثلا : إيزودور الباجى ، فقرة ٣٨ أسطر ٩٧٠ – ٩٧٣ .

الكارهين للذريق وأمره[١] ، وربما حسب أن المسلمين تاركوه وشأنه ، وربما يكون قد تفاهم مع موسى أو طارق على شيء من ذلك ، فلما وجد عبد العزيز يسير إليه ويقترب من بلاده أبدى من المقاومة ما أشعر المسلمين أن بلاده لن تفتح من غير عناء ، وكان المسلمون مجهدين بعد هذه الحروب المتصلة . وكانوا يودون لو فرغوا من هذا الكفاح المتصل حتى تتاح لهم الفرصة لتنظيم شؤون البلاد . فانتهز الفرصة وأقبل يفاوض المسلمين في شروط التسليم ، واستطاع أن يحصل على ما ضمن له بقاء شيء من السلطان في بلاده . وإن كانت الشروط نفسها لا تختلف في كثير عن معاهدات الصلح الكثيرة التي عقدها المسلمون في ذلك العصر .

وقد احتفظت لنا المراجع بنص هذا الصلح على خلاف ما فعلت بالكثير من أمثاله : أورد الضبي نصه العربي وأورد الرازي صورة إسبانية منه وترجمه ميخائيل الغزيري إلى اللاتينية ، وأثبته في فهرسه المعروف للمخطوطات العربية في الإسكريال ، وهذه هي الوثيقة نقلا عن الضبي :

« نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير ابن غبدوش :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه . ولا أحداً من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يُسبون ، أولادهم ولا نساؤهم . ولا يُكرهون على دينهم . ولا تحرق كنائسهم ما تعبّد (كذا . وصحتها تقيد) وما نَصَح . وأن الذي اشتُرط عليه أنه صالح على سبع مدائن :

(١) يفهم هذا من قول بعض المؤرخين إن طارقا بعث تدمير في جيش ففتح استجه .

أوريولة وبَلَنْتَلَة ولقنت ومُولَة وبَقَسْرَة وأنّه ولورقة[١] ، وأنه لا يأوى لنا عدواً ، ولا يخون لنا أمناً ولا يكتم خبراً علمه ، وأنه عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة ، وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ، وقسط عسل ، وقسط زيت ، وعلى العبد نصف ذلك .

كتب في رجب من سنة أربع وتسعين من الهجرة .

شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي ، وحبيب بن عبيدة الفهري وعبد الله بن ميسرة الفهمي ، وأبو قائم الهذلي » [٢] .

لو أخذنا بظاهر نص هذه الوثيقة لقلنا إن عبد العزيز اعترف لتدمير بالاستقلال في نواحيه ، وأن موقف هذا الأخير من المسلمين كان موقف المعاهد الذي يدفع الجزية . فلم يكن للمسلمين حق دخول بلاده ولا التدخل في شؤون إدارتها . ولم تكن المنطقة التي عاهد عليها الرجل بالصغيرة ولا القليلة الأهمية . لأن المدائن السبع التي عاهد عليها ترسم صليباً يضم في محيطه كل جنوب شرقي شبه الجزيرة . فكيف يتفق أن يسلم المسلمون في هذا الجزء

(١) هذه المدن السبع التي عقد عليها تدمير هي :

أوريولة وهي Orihuela

بلنتلة ، وقد وردت في الرازي Valencia وهو خطأ ، وأوردها الغزيري Valentola . وقد أثبت ساقدرا أن قرية قديمة بهذا الاسم كانت توجد على مقربة من بليدة Alcantarilla الحالية على خمسة كيلو مترات من مرسية ، وأن النهير الذي بهذه البليدة الأخيرة كان يسمى في القديم وادي ڤالنتيلية وقد تحول مع الزمن إلى Guadalentin

لقنت ، وهي Alicante

مولة ، وهي Mula

بقسرة ، وهي Begastro بليدة على مقربة من Cehegin

أنه ، وهي Anaya على مقربة من دير San Ginés القديم المتهدم في إقليم مرسية .

لورقة ، هي Lorca

راجع الملاحظات القيمة التي أوردها ساقدرا ، ص ١٢٨ — ١٢٩ والهوامش .

(٢) انظر : الضبي : بغية الملتمس ، ص ٢٥٩ .

الرازي : الترجمة الإسبانية ، فقرة ١٢ .

اذام من البلاد دون حرب ، وبمجرد أن تدمير ضمن لهم الجزية وعاهدهم على الصدق والنصح معهم ، مع أنهم كانوا مســتطيعين أن يأخذوا الإقليم كله كما أخذوا بقية شبه الجزيرة ؟

لا نستطيع أن نفهم ذلك الصلح إلا على تفسير واحد ، وهو أن الأمان انصب على المدائن السبع وحدها دون الإقليم ، ولم تكن هذه المدائن كبيرة إذ ذاك بل كانت حصوناً . فأقر المسلمون تدمير على ملكيتها على أن يؤدى عن أهلها الجزية (١) . ودليلنا على ذلك أن العرب سيتوغلون فى جنوب شرق الجزيرة وسيستقرون فى بعضها دون حرج ، ثم إن العهد لم ينص على أن هذه الشروط تسرى على أولاد تدمير من بعده ، أى أنها كانت له وحده طول حياته ، فكأن عبد العزيز أقر هذا الرجل المصادق للمسلمين على بعض بلاده التى كان يملكها تأكيداً لوده وتسكيناً لخواطر من كان يعيش فيها من النصارى .

ولا محل إذن لما يزعمه بعض مؤرخى الإسبان من أن تدمير تصدى للعرب وأوقفهم خارج حدود إقليمه كله ، وأنه أقام هناك كالأمير المخالف محالفة الند للند . ولم يخسر المسلمون بهذا شيئاً . لأن جنوب شرقى الأندلس

(١) اختلف ساقدرا وپروڤنسال حول المراد بعبارة : « وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن ... » الواردة فى ذلك العهد . فترجمها ساقدرا :

"... y queda libre en las siete ciudades de ..."

أى أن المسلمين تعهدوا له بأن يتركوه حراً فى هذه المدائن السبع .

وأما پروڤنسال فقد ترجمها هكذا :

«La paix lui est accordée moyennant la remise des sept villes suivantes..»

والترجمتان فيما نرى غير دقيقتين : فان المراد من أن الرجل صالح على هذه المدائن السبع هو أنه سلم بأنها دخلت فى طاعة المسلمين دون حرب ، ولكنهم لم يحتلوها بل اكتفوا بالعهد الذى أخذوه على صاحبها ، وبما تعهد به من سداد ما على أهلها من الجزية ، فهم لم يتركوه حراً كما يقول ساقدرا ولم يتسلموا البلاد منه كما يقول پروڤنسال ، وإنما اعترف الرجل بأن البلاد للمسلمين وأقام كالنائب عنهم فيها يحكمها باسمهم .

Cf.: SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 129.

LEVI-PROVENCAL. *Histoire de L'Espagne Musulmane,* I, p. 28.

وترجمة ساقدرا لهذه الوثيقة مليئة بالأخطاء ، وفيها زيادات .

لم يظل خارجاً عن سلطانهم بل دخل فى طاعتهم أسوة بغيره من نواحى شبه الجزيرة . ولأن تدمير كان فى « ذمة » المسلمين شأنه فى ذلك شأن غيره من النصارى الذين دخلوا فى طاعة المسلمين إذ ذاك . وكان موقفه منهم موقف مالك إقطاعى من صاحب البلاد كلها : له سلطان شبه مطلق على النواحى التى يشملها إقطاعه ، ويظل فى هذا الإقطاع ما ظل على الطاعة والصدق وما أدى الواجبات الإقطاعية من مال ومساعدة وقت الحرب وغير ذلك (١)

بقيت ملاحظة صغيرة عن تاريخ هذه المعاهدة الوارد فى نصها ، فقد جعل بعض المؤرخين ذلك فى سنة ٩١ هـ وذهبوا إلى أنها تمت فى عهد طارق بن زياد ، وجعلها بعضهم سنة ٩٢ هـ . وهذان فرضان غير معقولين ، فإن الوثيقة صريحة بأنها عقدت على يد عبد العزيز ، وأنه عقدها بصفته عامل الأندلس . ولو كان عقدها فى حكومة أبيه لأشير إلى ذلك فى صلبها . فإذا صح ذلك كان من الميسور أن نشك فى التاريخ الذى تورده الوثيقة فى نصها . فهى تذكر رجباً سنة ٩٤ هـ . ورجب هذا يقع فى أبريل سنة ٧١٣ م ؛ فلو ذكرنا ان عبد العزيز فتح فى هذه الغزوة — وقبل وصوله إلى بلاد تدمير — حصنين كبيرين هما غرناطة ومالقة . ولا بد كذلك أن شيئاً من الوقت قد ضاع فى المحادثات مع تدمير حتى تم الاتفاق معه ، إذا حسبنا لذلك كله ثلاثة أشهر كان من الضرورى أن يكون عبد العزيز قد خرج بهذه الغزوة فى يناير أو أوائل فبراير على أكثر تقدير ، وهذا وقت لم تجر العادة بالخروج للغزو فيه فى تلك العصور . وأسلم الآراء فى هذا الموضوع هو أن نضع تسليم تدمير — وهو آخر حلقة من حلقات فتح المسلمين للأندلس — فى أوائل ســنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) لأن موسى لم يبرح البلاد إلا فى ذى قعدة سنة ٩٥ هـ .

* * *

(١) هذا واضح من قول إيزودور الباجى :

Theudimer, qui in Hispaniae partibus non modicas Arabum intulerat neces et diu exagitatis, pacem cum eis *foederat* habendam. Cf.: no. 38.

وقد ورد النص فى الضمائم التى ألحقها لافوينتى ألكانترا بترجمته للأخبار المجموعة ، ص ١٤٩

هكذا تم فتح الأندلس بعد حرب عنيفة وجهد متصل داما أربع سنوات إلا أشهراً : بدأ الفتح فى رجب سنة ٩٢ هـ وانتهى فى أوائل سنة ٩٦ هجرية ، وقد فتح المسلمون خلال تلك السنوات القلائل هذه الجزيرة الضخمة من قصى الجنوب إلى جبال البرت رشاطىء البحر فى الشمال ، ومن مالقة وطركونة فى الشرق إلى قلمرية وأشبونة فى الغرب . واستولوا فيها على سهول الجنوب وعلى مرتفعات قشتالة ونواحى الجوف (استرامادوره) القاحلة . ولم يغادروا بلداً عظيماً أو حصناً هاماً إلا رفعوا عليه راية الإسلام وأدخلوه فى حوزة الدولة الإسلامية الكبرى . ولو لم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح فى هذه المدة القصيرة لما صدقه أحد . لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر عسير فسيح لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه . وقد وفق العرب إلى ذلك فى نظام وسياسة ينبغى أن نسجلهما لمن قاموا به .

ومهما بلغ المؤرخ من الثناء على طارق فإنه لا يستطيع وفاءه حقه ، ولو فكر الإنسان فى الأمر لحظة لاستخرج من حياة طارق وأعماله سراً من أسرار قوة الإسلام وناحية من نواحى امتيازه . فطارق هذا رجل مغربى بربرى لم يكن ليصبح — بغير الإسلام — إلا قائداً خاملا لجماعة من البربر منسيين فى ركن من أركان الأطلس ، فجاء الإسلام فجعل منه قائداً فاتحاً وسياسياً محنكاً يقود الجيوش ويفتح الأمصار ويوقع المعاهدات فى قدرة وكياسة جديرتين بالإعجاب . فلو لم يكن للإسلام من أثر إلا تكوين أمثال هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل لكفاه ، فكيف وقد بث الإسلام هذا الروح فى كل مكان أظلته رايته . وكيف وقد فعل هذا فى أقصر وقت ، وحققه على أتم وجه !

الحق أن فتح المسلمين للأندلس معجزة فى ذاته . إذ لا يصدق المرء وهو يتتبع أخبار هذا الفتح أن الذين كانوا يقومون به بهذا النظام وبهذا النظر البعيد إنما كانوا بربراً لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات . الحق أن الإسلام قد خطا بمعتنقيه خلال القرن الأول بضعة قرون للأمام ،

وهذا تاريخ الرومان فى إفريقية : لم يوفقوا إلى تحضيرها على نحو يقارب ما فعله الإسلام — ولو من بعيد — بعد بضعة قرون ، فما بالك وقد فعل الإسلام ذلك فى نحو نصف قرن ؟

ولو ذكر الإنسان أن موسى أكمل عمل طارق . وأن عبد العزيز أكمل عمل الاثنين ، لاستبان أن العرب ساروا فى فتح هذه البلاد على خطة محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها : فقد قضى على المقاومة واحتلت العاصمة فى أول وثبة ، ثم اتجهت الهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب ، ثم احتل المسلمون إقليم سرقسطة وتتبعوا فلول المقاومة فى معاقلها فى الشمال والشمال الغربى ثم فتحوا أقصى الغرب ، وختم العمل بفتح الجنوب الشرقى . ولو أن مجلساً للحرب من كبار العسكريين اجتمع ليضع خطة لفتح البلاد لما وفق إلى خير من ذلك . وتلك ناحية ينبغى أن لا تغيب عن ذهن الإنسان وهو يدرس هذا الفتح ؛ لأنها فى الواقع تدل على نبوغ حربى عند هؤلاء المسلمين الأولين .

الفصل الرابع

عصر الولاة

٣١ – لم تتكلف الخلافة جهداً خاصاً فى سبيل فتح الأندلس

فتح المسلمون خلال القرن الهجرى الأول بلاد العرب كلها والعراق وفارس والشام وجزءاً من آسيا الصغرى ومصر والشمال الإفريقى وشبه الجزيرة الإيبيرية . ولكنهم لم يتكلفوا فى فتح قطر من هذه الأقطار مؤونة هى أيسر مما تكلفوه فى فتح هذا القطر الأخير . فقد سيرت الخلافة الجيوش نحو كل قطر من هذه الأقطار وألقت فى ميادينها بآلاف العرب وأمدتهم بالمؤن والأعطيات ، ولم يتم الفتح فى معظم هذه النواحى من غير معارك دامية هلك فيها آلاف العرب وانكسرت فيها جيوشهم مراراً عديدة ، ولقى فيها نفر من كبار القواد حتوفهم كما رأينا فى فتح المغرب . فأما الأندلس فقد احتمل البربر صدمته الأولى . وهلك منهم فى واقعة وادى البرباط وحدها ثلاثة آلاف . وأقبل العرب بعد ذلك مع موسى يسيرون فى البلاد الهوينى لا يكادون يلقون عند مايعترضهم من البلاد من المقاومة مايتناسب مع أهمية هذه البلاد ، ولا تكاد ناحية تعجب قوماً منهم حتى يحطوا رحالهم فيها ويستوطنوها دون حاجة إلى حاميات أو إقامة حصون ، وما زالوا حتى انتشروا فى شبه الجزيرة كله ، واستقرت جماعات منهم فى نواحى الشمال على مقربة من خليج بسكاية ، وجماعات أخرى فى أقصى الشمال شرقاً وغرباً [1] بل طمحت بهم الآمال إلى ما وراء إسبانيا من بلاد غالة فانساحوا فى بطائحها يفتحون ويستقرون .

ولعلنا لاحظنا أن الخلافة لم تتكلف فى سبيل ذلك جهداً خاصاً : لم يجيش الأمويون جيشاً واحداً لفتح الأندلس ، ولم يخرجوا من خزائنهم درهماً لإعداد

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

حملاته ، إنما فتح الأندلسَ البربرُ وجندُ إفريقية رجندُ مصر [1] ، وكانت الأعطيات تدفع من مال إفريقية ، وهذه ظاهرة ينفرد بها الفتح الأندلسى بين غيره من فتوح المسلمين : لقد وقع للخلافة كالغنيمة الباردة من غير جهد أو مئونة أصلا .

٣٢ – لم تغنم الخلافة منه شيئا مادياً

بيد أننا ينبغى أن نقرر أن الخلافة نفسها لم تغنم شيئاً مادياً من هذا الفتح ، إنما غنمه الذين قاموا بمحنته وحدهم : فى حين أننا نجد الخلافة تهتم – إذا ما تم فتح بلد – بإرسال عامل يقوم بشؤون الإدارة ، وعامل آخر يشرف على الجبايات وتنظيم الأموال والسهر على حقوق الدولة المركزية . وترسل قاضياً ينظم القضاء ويقيم العدل باسم الخلفاء . وبينما نرى سيل الأموال ينثال على خزائن الخلفاء فى دمشق من كل ناحية فتحها المسلمون : من فارس إلى حدود النوبة وسواحل المحيط الأطلسى . وبينما يحرص المؤرخون أشد الحرص على أن يذكروا لنا مقادير الجبايات ونظمها فى كل ناحية . إذا بنا نجد الخلافة لا تكاد تولى هذا القطر العظيم ولو جانباً يسيراً من العناية التى يستحقها : فهى لم ترسل إليه من أول الأمر والياً خاصاً به بل تركته نحو تسع سنين تحت تصرف عامل إفريقية يتصرف فى شؤونه كما يريد [2] ، وهى لم ترسل إليه

(١) لم يشر مرجع واحد إلى أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى موسى بجيش أو بمدد ، ويذكر الرازى – عن الواقدى عن موسى بن رباح عن أبيه – أن موسى خرج « فى عشرة آلاف من إفريقية » ، ويقول صاحب فتح الأندلس أن موسى « دخل الأندلس ومعه ثمانية عشر ألفا من قريش والعرب ووجوه الناس » .

انظر ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٥ .

فتح الأندلس ، ص ١٠ .

(٢) ترك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز بن موسى والياً على الأندلس حينما عاد إلى المشرق فى صفر سنة ٩٥ هـ (أكتوبر – نوفمبر ٧١٣ م) وخلفه أيوب بن حبيب اللخمى ، وقد أقامه جند الأندلس على أنفسهم ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى وقد عينه محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان ابن عبد الملك . وكان أول وال أقامته الخلافة هو السمح بن مالك الخولانى ، أقامه عمر بن عبد العزيز فى رمضان سنة ١٠٠ (مارس – أبريل سنة ٧١٩ م) ولم تزد ولايته عن عامين وبضعة أشهر ، إذ خلفه عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فى ذى الحجة سنة ١٠٢ هـ .

عاملا على المال يحصى نواحيه وأهله ويخمس النواحى ويقرر مقادير الخراج والجزية والجباية . ويقرر ما ينبغى أن ينفق فى البلاد وما ينبغى أن يحمل إلى دار الخلافة . وهى لم تعن كذلك بتنظيم القضاء فى الأندلس من أول الأمر ، بل جعلت ذلك من شؤون الولاة . يعينون القضاة أو لا يعينونهم كما يشتهون[1]. وإنه لمن الغريب حقاً أن نلاحظ أن المراجع لا تذكر — ولو مرة واحدة — أن شيئاً من المال قد أرسل من الأندلس إلى المشرق [2] ، بل إننا لن نخرج من بحثنا إلا بنتيجة واحدة ينبغى أن نقررها حتى يتكشف لنا ما ينقضها : وهى أن الأندلس لم يبعث إلى مركز الخلافة شيئاً من ماله أو من جبايته أصلا .

وذلك فى ذاته وضع غريب . ويزيد فى غرابته أن الأندلس كان بلداً غنياً عظيم الجباية . وأن الخلفاء كانوا يعلمون مقدار غناه بسبب ما يحمله إليهم غزاته من غنائمه وطرفه . ولست أشك فى أننا سنظل زمناً طويلا لا نفهم السر الذى جعل الخلافة تمضى على هذا النحو من التهاون فى شؤون الأندلس . ولسنا نستطيع أن نرد ذلك إلى بعده عن مركز الخلافة . لأن الخلافة لم تحاول ولا مرة واحدة بسط سلطانها المؤكد عليه . ولم تطالب مرة — ولو فى شيء من اللين — بنصيبها من أمواله وجباياته التى تحق لها وفقاً للنظم المالية

(١) لم يعين خلفاء بنى أمية على الأندلس إلا قاضياً واحداً هو يحيى بن زيد التجيبى ، عينه عمر بن عبد العزيز . أما غير يحيى من قضاة الأندلس قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية فكان يعينهم ولاة الأندلس فى الغالب وولاة إفريقية فى النادر . وكانوا يسمون قضاة الجند .

انظر الخشنى : قضاة ، ص ٢٧ .

النباهى : المرقبة العليا ، ص ٤٢ — ٤٣ .

ومقدمة الترجمة الإسبانية لقضاة قرطبة للخشنى .

(٢) يذكر ابن قتيبة فى « الإمامة والسياسة » أن سليمان قرر على موسى ٣٠٠,٠٠٠ر٤٠ دينار ذهبا غرامة ، ولسنا نعلم إن كان هذا المبلغ هو ما استحق للخلافة من خراج الأندلس فى الفترة التى تولاها موسى ، أو هو خراج الأندلس وإفريقية معا ، أو هو نصيب الخلافة فى مغانم موسى من الأموال . وهذه الإشارة — على اضطرابها وقلة جدواها — هى الوحيدة التى تتحدث عن مطالبة الخلفاء لأحد من ولاة الأندلس بمال .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة (طبعة القاهرة سنة ١٩٠٤) ج ٢ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

والإدارية التى كانت تطبق فى دقة فى كل ناحية من نواحى الدولة الإسلامية الواسعة إذ ذاك .

ولسنا نستطيع كذلك أن نرد هذه الظاهرة إلى أن جند الأندلس كانوا يستنفدون أمواله كلها ، أو أن خراجه كان ينفق على الفتوح فيما وراءه من البلاد ، لأن الواقع أن جانباً عظيما من عرب الأندلس لم يكونوا جنداً نظامياً تابعاً لديوان الجند فى دمشق ، وأن عدد هؤلاء العرب لم يبلغ المبلغ الذى يستنفد أموال هذا القطر العظيم الغنى . وأما الحروب فيما وراء البرت فقد كان معظم القائمين بها من المتطوعة الذين لا تفرض لهم أعطيات ، وكان ما يقع بين أيديهم من الغنائم من الوفرة بحيث لم يفكروا فى مطالبة الدولة بأعطيات [1] .

كل ذلك يلقى ضوءاً كاشفاً على حقيقة وضع القطر الأندلسى خلال الفترة التى تقع بين تمام الفتح وبين قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن ابن معاوية المعروف بالداخل سنة ١٣٨ هجرية (سنة ٧٥٦ م) فهو لم يكن ولاية تابعة تمام التبعية للخلافة المركزية كمصر أو كالشمال الإفريقى مثلا ، ولم يكن كذلك قطراً مستقلا تمام الاستقلال ، وإنما كان له وضع خاص بين بين : كان يكوّن جزءاً من الدولة الإسلامية مكملا لإفريقية داخلا فى طاعة الخلفاء ، يخطب لهم على منابره ، ولم يزد سلطان الخلفاء فيه على هذا اللون الضعيف من ألوان التبعية إلا قليلا كما سنرى ، وسنحاول فيما يلى من هذا الفصل أن نزيد هذا الأمر وضوحاً .

(١) يذهب بعض المؤرخين إلى أن جند المسلمين الذين كانوا يخرجون للحملات فيما وراء جبال البرت بلغوا ثمانين أو مائة ألف فى مواقع مثل طولوشة وبلاط الشهداء ، وتلك تقديرات مبالغ فيها ، إذ الواقع أن جند المسلمين لم يزد فى هذه المناسبات عن ستين أو سبعين ألفا أكثر من ثلاثة أرباعهم من البربر ، والربع — أى بين خمسة عشر وعشرين ألفا — كانوا من العرب . هذا وقد كان العرب وحدهم هم أصحاب الحق فى فروض الديوان ، أما البربر فلم يكن يفرض لهم رزق ، وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب ثورة البربر على العرب .

٣٣ — هجرة العرب إلى الأندلس

وظاهرة أخرى لا تقل غرابة ولا أهمية عن هذه : هى هجرة العرب إلى الأندلس وسكناهم نواحيه ، ولسنا نقصد بذلك جماعات العرب الفاتحة ، وإنما جماعات المهاجرين المسالمين الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد الفتح واستقروا فى نواحيه دون أن تحدثنا المراجع عنهم بشىء ينقع الغلة . فقد رأينا أن عدد العرب الذين أقبلوا مع موسى لم يزد على ثمانية عشر ألفاً ، وسنلاحظ أن بضعة آلاف أخرى ستقبل خلال العشرين سنة التالية شيئاً فشيئاً . وسنرى أن موجة أخرى لا يزيد عددها على عشرة آلاف ستقبل مع بلج بن بشر ، فإذا أخرجنا من ذلك أعداد من لقى مصارعه فى فتح البلاد وما وراءها من نواحى غالة ، وأعداد من عاد إلى المشرق أو إلى إفريقية بعد الفتح ، لم نستطع أن نقدر من استقر فى الأندلس من العرب بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً .

ولكننا لا نكاد نمضى فى استقصاء أخبار الأندلس حتى نجده يموج بالعرب موجاً : نجد جماعات عربية ضخمة فى نواحى قرطبة وإشبيلية والجزيرة الخضراء وتدمير وسرقسطة ، غير جاليات أخرى صغيرة فى كل ناحية تقريباً ، وقد استعرض ابن غالب فى « فرحة الأنفس » بعض هذه الجماعات العربية استعراضاً سريعاً مقتضباً يفهم منه أن عددهم كان يبلغ على الأقل أضعاف هذه الآلاف التى ذكرها المؤرخون[1] .

فمن أين أتى هؤلاء العرب ؟ وكيف بلغ من كثرتهم أنهم احتلوا معظم سهول البلاد حتى لم يبق للبربر غير القليل منها ، وسهول الأندلس واسعة لا يملؤها إلا مئات الآلاف ، فكيف أقبل إلى البلاد هؤلاء العرب الذين فاضت بهم الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ؟

لسنا نستطيع تفسير ذلك إلا إذا افترضنا أن تياراً من مهاجرى العرب كان يتجه نحو الأندلس من أول الأمر ، ويؤيد ذلك قول الرازى بعد وصف

(١) راجع البيانات التى يقدمها المقرى نقلا عن « فرحة الأنفس » لابن غالب : نفح الطيب (القاهرة سنة ١٩٤٩) ج ١ ، ص ٢٧١ وما يليها .

معركة وادى لكة : « وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها . فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلحقوا بطارق . وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع . وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال »[1] . وهى عبارة هامة تدل على أن اندفاع الناس نحو الأندلس كان عظيما لا يكاد يعدله اندفاعهم نحو أى بلد آخر مما فتح الله على المسلمين فى ذلك الحين .

ولم يفسر لنا الرازى عبارته تلك حتى نعرف نسبة العرب إلى البربر فى هذه الجماعات المهاجرة . ولكننا نستطيع أن نقرر أن نسبة العرب وإن كانت قليلة إلا أن عددهم كان كثيراً . وأن جانباً عظيما من هؤلاء استقر فى الأرياف من أول الأمر على صورة جماعات قليلة فى كل ناحية ، وقد وضعت هذه الجماعات يدها على ما استطاعت من الأرض وأخذت تعمل على عمارته واستحيائه مستعينة بالزراع من الأهلين على نظام المزارعة الذى سنشرحه . وكانت الأحوال السياسية فى المشرق سبباً من أسباب هجرة العرب

(١) الرازى برواية المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

ويبدو أن هذه العبارة تنصب فى الغالب على البربر ، ولكن الذى لا شك فيه أن جماعات كثيرة من العرب اليمنية الكلبية ومن أهل المدينة كانت قد هاجرت بعد كربلاء والحرة إلى إفريقية والأندلس . راجع الإشارات عن ذلك عند :

اليعقوبى : كتاب البلدان ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

ابن خلدون : كتاب العبر ، ج ٣ ، ص ٢١ وما بعدها .

السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٩ وما يليها .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٣ ، ص ٥٧ .

المسعودى : مروج الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٠٠ وما بعدها .

ابن الأبار : الحلة ، ص ٤٧ — ٤٩ .

P.H. LAMMENS, *Le Califat de Yazid Ier*, VIII-IX, pp. 114 sqq.

WEIL, *Geschichte der Chalifen*, I, p. 326 sqq.

DOZY, *Musulmans d'Espagne*. I, pp. 119 sqq.

وهذه المسألة رغم ذلك لا تزال غامضة جداً لقلة وضوح المراجع .

إلى الأندلس : فقد هاجر الكثيرون جداً من أهل الحجاز من بلادهم إلى العراق وخراسان والشمال الإفريقي والأندلس عقب هزيمة عبد الله بن الزبير ، وهاجر كثير من الكلبيين بعد انتصار مروان بن الحكم واعتلائه عرش الخلافة ، وهاجر عدد عظيم من مصر إلى الأندلس بسبب ما تلا ذلك من أحداث [١] .

وأما البربر فكانت أعداد مهاجريهم تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وتذهب بعض التواريخ الحديثة إلى أن العرب استأثروا دونهم بخير النواحي ولم يتركوا لهم غير الهضاب القاحلة فى الشمال [٢] ، وهذا غير صحيح على إطلاقه ، لأن البربر انتشروا واستقروا من أول الأمر فى كل ناحية ، وكانت غالبية هذه الأفواج الأولى من البربر المهاجرين من زناتة ، لأن الزناتيين كانوا أول البربر إسلاماً وانضماماً للعرب ، وكان طارق بن زياد منهم [٣] .

أخذت هذه الجماعات المسلمة — عربية وبربرية — تستقر فى نواحى البلاد خلال فترة الولاة كلها ، وسنرى أثر ذلك فى تطور الحوادث وفى تحول الأندلس إلى بلد إسلامى عربى الطابع فى أقل من قرن .

* * *

(١) انظر الهامش السابق.

(٢) المسئول عن إذاعة هذه الفكرة دوزى ، وقد اعتمد على عبارة قصيرة جداً وموجزة لإيزودور الباجى (فقرة ٤٤) ولكننا سنرى أن الحوادث لا تؤيد هذا الرأى . صحيح أن العرب أساءوا معاملة البربر وآذوهم كثيرا ، ولكنهم لم يختصوا أنفسهم بأحسن الأرضين ، لأن أرض الأندلس كانت من الوفرة بحيث كانت تكفى جميع العرب عن سعة ، ويبقى للبربر بعد ذلك من الأرض ما فيه الكفاية فى كل ناحية .

(٣) كان معظم البربر الذين أسلموا أول الأمر من زناتة . راجع :

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٤ .

ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

ابن خلدون : كتاب العبر ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

وفتح العرب للمغرب لصاحب هذا الكتاب ، ص ٢٨٢ وما بعدها .

٣٤ — ولاية عبد العزيز بن موسى

أصبح عبد العزيز بن موسى بن نصير والياً على الأندلس منذ مبارحة أبيه موسى البلد فى صفر سنة ٩٥ هـ (اكتوبر — نوفمبر سنة ٧١٣ م) ، ولسنا نعلم إن كان الخليفة سليمان ابن عبد الملك قد بعث إليه كتاباً يثبته فى هذه الولاية ، وإن كنا نعلم فى شىء من الثقة أنه أقره فى ولايته سياسةً منه أو رضى عنه . وكان الأندلس فى ذلك الحين تابعاً لإفريقية ، وكانت ولاية إفريقية بيدى مروان وعبد الله ابنى موسى وأخوى عبد العزيز ، فليس إلى الشك سبيل فى أنهما أيداه على هذه الولاية .

ولا تكاد المراجع تذكر لعبد العزيز عملا خلا ما ذكرناه من فتحه الجزء الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة ، ويبدو أن نفسه كانت طول الوقت مروعة ينتابها الخوف على مصير أبيه ومصير أسرته ، فمال إلى السكون والانتظار والترقب ، وبهذا وحده نعلل سكوته عن العمل وقد عرفناه إلى ذلك الحين رجلا نشيطاً مقداماً .

٣٥ — مقتل عبد العزيز بن موسى

ويبدو أن حاله مع الجند لم يكن على ما يرجى ، لا لأنهم كانوا ساخطين عليه بل لأن نفراً من بينهم كان شديد التطلع والطموح، تذكر المراجع منهم حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهري حفيد عقبة بن نافع ـ وقد كان شخصية قلقة لا تكف عن السعي والتدبير كما سنرى ـ وزياد بن عذرة البلوى، وزياد ابن نابغة التميمي، وكانوا جميعاً من الظاهرين من جند موسى وكبار رجاله. وكان حبيب بن أبي عبيدة الفهري أكبرهم وأظهرهم،وكان موسى قد ألحقه بابنه وجعله «وزيراً له ومعيناً»[١] كما يقول ابن عذاري. ويبدو أن الخلاف بين هؤلاء القادة وعبد العزيز كان مستمراً «لأشياء نقموها عليه»[٢]، كما يقول الرازي .

فأما هذه الأشياء التى « نقموها عليه » فهى علاقته بزوجه النصرانية

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

«أجيلونا» التى تسميها المراجع العربية أيلُه (= أيلونا) أو أم عاصم . وكانت أيلونا قبل ذلك زوجاً للذريق فيما تذهب المراجع ، « وكانت قد صالحت على نفسها فى وقت الفتح وباءت بالجزية ، فأقامت على دينها فحظيت عنده وغلبت على نفسه » (١) ، فتزوجها وأقام معها فى ناحية من كنيسة رُفينَة فى إشبيلية ، وكانت قد حولت إلى مسجد ، فكانت داره على هذا قريبة من موضع اجتماع المسلمين ومكان صلاتهم . ولو قد كان عبد العزيز ضعيفاً مترفاً كما يفهم من مراجعنا لاستطاع أن يسكن أحد قصور إشبيلية الحسان ، ولكنه كان فى واقع الأمر رجلا جاداً حريصاً على أن يكون على مقربة من رجاله . ويبدو أن أيلونا كانت على جانب عظيم من القوة والذكاء ، لأنها لم تلبث آن ملكت زمام زوجها فتابعها فى كثير مما أرادت . وتذهب المراجع إلى أنها عملت له تاجاً من الذهب والجوهر وحملته على أن يلبسه . لأن « الملوك إذا لم يتوجوا فلا ملك لهم » كما قالت ، وما زالت به حتى قبل أن يلبسه إذا خلا إليها ، « فبينما هو ذات يوم جالس معها والتاج على رأسه دخلت عليه امرأة كان قد تزوجها زياد بن نابغة التميمى من بنات ملوكهم . فعاينته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً ؟ فقال لها : ليس فى ديننا استحلال لبسه ، فقالت : ودين المسيح إنه لعلى رأس ملككم وإمامكم ، فأعلم بذلك زيادٌ حبيبَ ابن أبى عبيدة ، ثم تحدثا بذلك حتى علمه خيار الجند ، فلم يكن لهم هم إلا كشف ذلك ، حتى رأوه عياناً ، فقالوا : قد تنصَّر ! ثم هجموا عليه فقتلوه » (٢) .

ولسنا نعلم كيف فسر الجند لبسه التاج بأنه قد تنصر ، هذا إذا كان قد لبسه أصلا ، ولا كيف قال عبدالعزيز إن لبس التاج ليس من الدين ، مع أن أشراط الدين ليس فيها ما يفهم منه ذلك ، ثم إن الرجل لم يلبسه كشارة من شارات الملك ، بل لبسه فى خلواته مع أهل بيته . ولسنا نفهم كذلك كيف

(١) فتح الأندلس ، ص ٢١ .
(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

ثار الجند هذه الثورة لمثل هذا الأمر وهم لم يكونوا يثورون على من يعب الخمر ويقترف المحرمات منهم ، وقد كان جند الأندلس من أكثر الناس إسرافاً فى هذه الأمور . ثم لماذا تكون زوجة زياد بن النابغة التميمى بالذات هى التى تكشف هذا الأمر ؟

إن سياق هذه القصة يدل على أنها ملفقة تلفيقاً ، وأنها وضعت لكى تستر الدوافع الحقيقية التى حفزت جند عبد العزيز على قتله .

وأما القول بأن الخليفة سليمان هو الذى أوعز بقتله فقول لا نجد ما يؤيده ، لأن الخليفة لم يكن عاجزاً عن عزله إن أراد ، ولم يكن ليخشى ثورته بالجند لأن الجند كان مختلفاً عليه ، وليس بمعقول أن يكون حقد سليمان على عبد العزيز أشد من حقده على أبيه موسى .

ومصداق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن سليمان بن عبد الملك لما بلغه « مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه ، فولى إفريقية عبيد الله بن يزيد القريشى ، لا أدرى لمن من قريش (يريد محمد بن يزيد مولى قريش والى إفريقية) ، وإلى إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية . وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبى عبيدة وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز ، بأن يتشدد فى ذلك ، وأن يقفلهما إليه ومن شركهما فى قتله من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فسرح عبيد الله بن يزيد والى إفريقية على الأندلس الحرَّ بن عبد الله الثقفى ، وأمره بالنظر فى شأن قتل عبد العزيز » (١) . مما يفهم منه صراحة أن الأمر دبر بغير علم الخليفة ، وأن له أسباباً أخرى لا تفصح المراجع عنها . وتؤيدنا رواية الأخبار المجموعة تلك فيما ذهبنا إليه آنفاً من أن الأمر دبره حبيب بن أبى عبيدة ونفر ممن كان معه من الجند ، وسنرى أن حبيباً هذا سيظل طول حياته سبباً للمتاعب والقلاقل ، وأن مصيره لن يكون خيراً من مصير عبد العزيز .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ — ٢٢ .

وأقرب التفاسير إلى الصحة هو القول بأن المسألة كانت نتيجة لتدبير محكم بين محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان وبين حبيب بن أبى عبيدة ، ونفر من الجند . وأن هؤلاء قرروا قتله دون الرجوع إلى سليمان فى الأمر ، ومصداق ذلك ما يقوله صاحب فتح الأندلس : « ثم اجتمعوا على أيوب ابن حبيب اللخمى الذى قُتل عبد العزيز بمشورته » مما يدل بوضوح على أن الأمر تم فى الأندلس بعد أن اشتُهِرَ فيه الجند .

وكان سليمان قد أوصى يزيد بأن « يأخذ آل موسى بن نصير وكل من انتسبوا إليه حتى يقوموا بما بقى عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولا يرفع عنهم العذاب ، فقبض على عبد الله والى القيروان فحبسه فى السجن . ثم وصل البريد من قبل سليمان يأمره بضرب عنقه ... وحكى الواقدى ، قال : لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع الطاعة وخالف ، فأرسل إليه سليمان رسولا . فلم يرجع . فكتب سليمان إلى حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سراً بقتله ، فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح قرأ فاتحة الكتاب ، ثم قرأ سورة الواقعة . فقال له حبيب : « حقت عليك يا ابن الفاعلة ! » وعلاه بالسيف فقتله » (١) .

فمن المعقول جداً أن يكون عبد العزيز قد تحدث بشىء من السخط على بنى أمية بسبب ما أنزله سليمان بأبيه وأخيه وآله ، دون أن يصل به هذا السخط إلى حد الثورة وخلع الطاعة ، لأنه لو كان فعل هذا لأبعد حبيب بن أبى عبيدة عن معسكره ولاحتاط منه على الأقل ، فلم يكد خبر هذا الحديث يصل إلى محمد بن يزيد حتى أوعز إلى حبيب هذا ومن معه يغريهم به فغدروه على النحو الذى تصوره رواية الواقدى وتؤيده كل الروايات الأخرى فيه .

وتجمع المراجع على الثناء على عبد العزيز ، فهو عند أكثرهم من خيار الولاة ، ويؤكد الرازى أنه « ضبط سلطانها وسد ثغورها وافتتح مداين كثيرة ،

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٣ – ٢٤ .
وفتح الأندلس ، ص ٢٣ .

إلا أن مدته لم تطل ... » . وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من قصته مع أيلونا فهو أنه كان رجلا تقياً لطيفاً حسن العشرة . وأنه كان قادراً على تذوق الحياة .

٣٦ – أيوب بن حبيب اللخمى

يقول صاحب « فتح الأندلس » أن جند الأندلس اجتمعوا بعد قتل عبد العزيز « على أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى الذى قُتل عبد العزيز بمشورته » ، وهى عبارة هامة تكشف لنا عن بعض أسباب مقتل عبد العزيز . ولو أضفناها إلى رواية « الأخبار المجموعة » — التى ذكرناها آنفاً والتى تؤكد أن سليمان استاء حين بلغه خبر مقتل عبد العزيز وبعث يطلب إلى والى إفريقية فحص المسألة وإرسال من اشتركوا فيها إليه — تبينّا أن القول بأن سليمان هو الذى حرض على مقتل عبد العزيز غير صحيح . وأن الحادث كان من تدبير نفر من رجال العرب فى الأندلس . فقد كان كبار الجند — وعلى رأسهم أيوب بن حبيب اللخمى هذا وحبيب بن أبى عبيدة وزياد بن عذرة البلوى وزياد بن نابغة التميمى — ناقمين على عبد العزيز ، فقتلوه ليتولى الأمر واحد منهم وهو أيوب . ويبدو أنهم كانوا يحسبون أن سليمان سيرضى عن فعلتهم هذه ويقرهم على ما فعلوا ، ولكن سليمان لم يلبث أن أرسل يطلب عقابهم ، ولم يلبث أن عزل واليهم هذا وأقام غيره .

٣٧ – نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة

لم تزد ولاية أيوب عن ستة أشهر لم يفعل فيها شيئاً يذكر إلا نقله العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة ، ولا نزاع فى أن قرطبة كانت أوفق من إشبيلية لحكم الأندلس ، لأن موقعها أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب فى الشرق والجنوب الشرقى والجنوب . ولو أنهم انتقلوا إلى طليطلة لكان أحسن ، لأنها فى وسط شبه الجزيرة تماماً ، وهى على أبواب الهضاب الشمالية والشمالية الغربية ، وصاحبها لا يجد صعوبة فى إخضاع هذه النواحى ، أما قرطبة فبعيدة عنها جداً ولا تستطيع الحملات الصادرة منها الوصول إلى نواحى قشتالة وأشتريس

إلا بعد سير طويل مجهد . وقد ظلت إشبيلية عاصمة الأندلس الإسلامى أربع سنوات إلا قليلا ، ويبدو أن النية لم تتجه إلى الانتقال إلى قرطبة إلا فى أواخر أيام عبد العزيز . وكانت جماعات كبيرة من العرب قد استقرت فى إقليمها ، وظلت مقيمة فيه بعد انتقال العاصمة إلى قرطبة ، وكان معظم هؤلاء العرب الذين استقروا فى إقليم إشبيلية وكبار مدنه مثل وادى آش رشريش وشَلَنْطِيش من هوازن وأسد وبكر بن وائل وإياد بن نزار ومراد وخولان ، وتكونت منهم مع الزمن جالية عربية قوية اختلطت بأهل البلاد ، وقامت لهم مع الزمن عصبية خطرة كان لها فيما بعد مع أمراء قرطبة المروانيين تاريخ طويل حافل بالحروب والمنازعات .

وكان قد سكن قرطبة وإقليمها عدد عظيم من العرب ، بل كان مايحيط بها من الأرباض أحفل أقاليم الأندلس بالعرب من أول الأمر ، وكان هؤلاء العرب المستقرون هناك من أصول شتى لا يكاد السلام يستقر فيما بينهم ، فكان انتقال الحكومة إليها سبباً فى تورط العمال فيما عساه أن يشجر بين هذه القبائل من خلافات .

وكنا قد أشرنا إلى أن موسى بن نصير كان قد وهب مغيثاً الرومى القصر الذى كان حاكم قرطبة القوطى يعيش فيه فى غرب المدينة ، فلما عاد موسى من فتوحه فى الشمال ومر بقرطبة ورأى القصر استكثره على مغيث ، ورأى أنه أوفق ما يكون لعامل البلاد ، فصرف مغيثاً عنه وعوضه عنه داراً أخرى على مقربة من باب القنطرة مقابل الثلمة التى دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة ، وكانت داراً شريفة ذات سقى وزيتون وثمار ، ويقال لها « أَلْبُسْتَانَة » كانت للملك الذى أسره وكان له فيها بلاط منيف ، فهى تسمى بالأندلس « بلاط مغيث » . وقد أخلى مغيث هذه الدار لتصبح قصر عمال قرطبة وأمرائها ، ويبدو أن أيوب حينما دخل البلد لم يسكنه .

٣٨ – عامل إفريقية يولى الحر ابن عبد الرحمن الثقفى على الأندلس

وكانت ولاية الأندلس فى ذلك الحين إلى عامل إفريقية . وكان عاملها كما ذكرنا محمد بن يزيد (ذو الحجة سنة ٩٧ ﻫ / أغسطس سنة ٧١٦م – رمضان سنة ١٠٠/مارس سنة ٧١٩م) فلم يقر الجند على ما فعلوا من تولية أيوب بن حبيب وسارع فبعث الحر بن عبدالرحمن الثقفى والياً فى ذى الحجة سنة ٩٧ﻫ/٧١٦م .

ويبدو أن سليمان بن عبد الملك هو الذى حفزه على ذلك ، رغبة منه فى عقاب من شاركوا فى قتل عبد العزيز بن موسى . ويبدو أن الحر كان قد توقع مقاومة من أيوب وأصحابه من المؤتمرين فاصطحب معه قوة صغيرة من أربعمائة عربى من وجوه عرب إفريقية . ويبدو أنهم كانوا نخبة مختارة . فلم يستطع جند الأندلس لهم مقاومة . وأسلموا لهم الأمر . وأصبح الحر والياً على البلاد .

أقام الحر حاكماً للأندلس سنتين وثمانية أشهر . ولا تذكر المراجع له شيئاً غير سكناه قصر قرطبة الكبير واختطاطه إياه مقاماً للعمال من ذلك الحين .

وتوفى سليمان بن عبد الملك فى العاشر من صفر سنة ٩٩ / ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧ م ، وخلفه عمر بن عبد العزيز ، فبدأ الأندلس فى خلافته عهداً جديداً ، شأنه فى ذلك شأن إفريقية وبعض الولايات الإسلامية الأخرى ، بسبب ما امتاز به من الإخلاص فى أمور المسلمين والعناية بشؤون دولته والحرص على تخير العمال الصالحين القادرين على النهوض بالمسئوليات .

٣٩ – ولاية السمح بن مالك الخولانى

وقع اختيار عمر على رجل من أفاضل عرب إفريقية ليلى شؤون الأندلس وهو السمح بن مالك الخولانى ، وكان قد ظهر قبل ذلك فى مناسبة لا تخلو من معنى ، يذكرها معظم رواتنا ، فيقولون إن عادة خلفاء بنى أمية كانت قد جرت بأن لا يدخلوا خزائنهم شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم إلا إذا شهد عشرة من عدول الجند فى الولاية بأن هذا المال هو المستصفى الحلال لبيت المال ، بعد دفع أعطيات الولاية والإنفاق على مصالحها وشؤونها . فلما أقبلت أموال إفريقية فى أحد أعوام خلافة سليمان ، أقبل معها عشرة من العدول

تخيرهم الوالى ، وفيهم إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك . فحلف الثمانية الآخرون على صحة هذا المال وحلاله ، وأما السمح وإسماعيل بن عبيد الله فأبيا أن يحلفا . وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً إذ ذاك ، فأعجبه عمل الرجلين وضمهما إلى نفسه وادخرهما إلى وقت يحتاج إليهما فيه . وهى رواية تدل على صحة ما كان يتهم به ولاة إفريقية للأمويين من سوء التصرف فى أموال البلاد ، وإرهاقهم أهلها بالمغارم والجبايات ، والمبالغة فى مقادير ما يرسلونه إلى دمشق من الأموال والألطاف (١) .

فلما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز فى العاشر من صفر سنة ٩٩هـ/ ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧ م لم يقدم شيئاً على إصلاح ما أفسده من سبقه من الأمويين ، واشتغل بذلك عن أمور الأندلس عاماً وثمانية أشهر ، فلم تتح له الفرصة للنظر فى شؤون المغرب والأندلس إلا فى رمضان سنة ١٠٠ هـ (أبريل– مايو سنة ٧١٩ م) . فأقام إسماعيل بن عبيد الله على إفريقية والسمح بن مالك على الأندلس .

٤٠ – عمر بن عبد العزيز يفكر فى إخلاء الأندلس من العرب

تذهب المراجع إلى أن عمر بن عبد العزيز كان يفكر فى إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها منهم ، إذ « خشى تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية(٢) ، أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » كما يقول صاحب فتح الأندلس وصاحب الأخبار المجموعة (٣) . ولسنا نجد تفسيراً معقولا لهذه النزعة من خليفة عرف بالحرص على نشر الإسلام وتوسيع رقعته ، لأن حال المسلمين فى الأندلس كان فى إقبال إلى ذلك الحين ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .
فتح الأندلس ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .
فتح الأندلس ، ص ٢٤ .

ولم يكن الأعداء قد نهضوا لهم على الوجه الخطر الذى سنراه فيما بعد ، ولم تكن فتن العصبية قد عصفت بهم وفرقتهم وأضعفتهم . وربما جاز تعليله بأن عمر لم يكن يعلم شيئاً عن عظمة الأندلس واتساع مداها وما كسبه المسلمون من فتحها وما يعود على الدولة الإسلامية من أسباب الخير والقوة من بقائها فى أيديهم ، ولهذا تذكر المراجع أنه لما ولى السمح بن مالك طلب إليه « أن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها وبحرها » ، ولا يستبعد أن يكون أباح له إقفال المسلمين منها إذا وجد أنها لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها ، فكتب إليه السمح « يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مدائنهم ، وشرف معاقلهم »(١) ، فلما استوثق عمر من أهمية الأندلس وثبات أقدام المسلمين فيه أولاه من عنايته ما هو أهل له .

٤١ – ضبط المال وتنظيم البلاد

وكان أول ما اهتم به عمر بن عبد العزيز هو ضبط أمواله وتنظيم أمر خراجه ، وهو أمر لم يعن به واحد ممن سبقه من الخلفاء ، فانتدب مولى من ثقاته يسمى جابراً وبعثه فى هذه المهمة(٢) . ولسنا نعلم الأساس الذى سار عليه جابر هذا فى أداء مهمته تلك ، لأن النصوص تذكر أنه اهتم بتمييز أرض الصلح من أرض العنوة وباستخراج خمس العنوة لكى يضمه إلى أرض الدولة ، فلم يخرج فى الخمس إلا ربضاً من أرباض قرطبة جعله مقبرة للمسلمين وأقر القرى بيد غُنّامها . وهذه عبارة لا تفسر إلا بأن جابراً اعتبر قرطبة هى الناحية الوحيدة التى فتحت عنوة ، فأخذ خمسها للدولة ، وأما بقية الأندلس فاعتبره قد فتح صلحاً . ولما كنا نعلم أن معظم الأندلس قد فتح عنوة : الجنوب وأقاليم قرطبة وإشبيلية وماردة على الأقل ، فكيف لم يزد خمس ذلك كله على ربض من أرباض قرطبة ؟ ثم ما معنى قولهم إنه أقر القرى فى أيدى غنامها ؟ على أى أساس تركها فى أيديهم ؟ إن لفظ « غنامها » هنا يسمح لنا بأن نفترض أن

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ – ١٣ .
الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

الحكومة المركزية اعتبرت ما فتح من بلاد الأندلس غنيمة لمن فتحوه ، فتركت كل ناحية بأيدى من فتحوها واستقروا فيها . إننا نفترض ذلك مجرد افتراض ، ولا يمكننا إيراده على صورة مؤكدة ، لأن عبارات المراجع قليلة مبتسرة غامضة ، ولا تعيننا بأية صورة على تبين النظام الذى وضعه المسلمون للأندلس.

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد تخير السمح بن مالك لفضله وأمره أن « يحمل الناس على طريق الحق ولا يعْدل بهم عن منْهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها .. »(١) فكيف لم يدون للبلاد ديواناً ؟ لقد رأينا حسان بن النعمان يسارع بذلك عقب تمام انتصاره على الكاهنة ، فكيف تنقضى إلى الآن أربع سنوات على تمام الفتح دون أن ينشأ للبلد ديوان ثابت يحصى كل شيء وينظم كل شيء ؟ حق أن الأندلس ينفرد بهذا الوضع الغريب من بين ولايات الدولة الإسلامية جميعاً : لا نعرف إن كان قد أنشىء له ديوان ، ولا نعرف على أى أساس وزعت أرضه بين الفاتحين والدولة المركزية ، بل إننا لا نملك ولو فكرة يسيرة عابرة عن مقادير الجزية أو الخراج التى كانت تجبى منه ولو لسنة واحدة . الأندلس هو البلد الإسلامى الوحيد الذى ظل تابعاً لمركز الخلافة نيفاً وأربعين سنة دون أن يذكر المؤرخون ولو مرة واحدة مقدار جزية جبيت منه أو خراج أرسل منه فى إحدى السنوات ، بل لم تسجل المراجع أن الأندلس أرسل إلى مركز الخلافة خراجاً ما ، أو جانباً من الجباية . وهذا وضع غريب فى ذاته ، وسنرى فيما يلى أن عدم ذكر هذه الشؤون المالية ليس مرده إلى إغفال المؤرخين أو سهوهم ، بل لأن وضع الأندلس فى ذاته من أول الأمر كان غريباً لا يشبهه فى ذلك بلد إسلامى آخر .

ويبدو أن السمح كان ماضياً فى تنظيم البلد وإحصاء أمواله . ولكن الظروف لم تمهله . لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تطل ، وهو لم يولَّ إلا بعد

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

أن انقضى منها نحو العام . وكان عليه إلى جانب هذا العمل الإدارى أن ينشط للغزوات فى أحيانها ، وكان عظيم الرغبة فى الجهاد ، فلم يلبث أن استشهد فى طرسونة فى يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ فلم تتح له فرصة استكمال العمل الإدارى الذى بدأه .

ولعل هذا يأذن لنا فى أن نفترض أن « البطحاء المعروفة بالربض » ، وهى التى خرجت فى الخمس ، لا تعنى إلا خمس إقليم قرطبة (١) . لأنه — كما يقول ابن عذارى — لا يعقل أن يكون هذا الربض هو خمس الأندلس كله . وأن الرجل كان على نية استقصاء الأمر فى الأندلس كلها لو لم تدركه منيته ، وأنه إذا كان قد ترك القرى فى أيدى أربابها فإنما فعل ذلك إلى أن يحين وقت ضبطها على أساس ثابت . لأنه لا يعقل أن يكون قد تركها فى أيديهم هكذا طعمة لا يكادون يحاسبون عنها .

لم يكد السمح يمضى فى تنظيم شؤون البلاد من الناحية المالية حتى اجتمع له مبلغ كبير من المال . وكانت قنطرة قرطبة الرومانية التى كانت مقامة على الوادى الكبير للاتصال بنواحى جنوبى الأندلس قد تهدمت ، ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا فى السفن . وكان العرب فى أمس الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور عليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة . فوجد السمح أن بناء هذه القنطرة هو أهم ما ينبغى أن ينفق فيه هذا المال المتجمع ، فكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى ذلك فأذن له . فقام السمح « ببنائها . فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر فى معمور الأرض من حجارة سور المدينة . وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلى بها . وقد تصدعت هذه القنطرة فى أيام الإمام عبد الرحمن الداخل » (٢) وسنرى للمسلمين عناية عظيمة بهذه القنطرة التى ستكون ذات أهمية كبرى

(١) انظر : فتح الأندلس ، ص ٢٤ .
ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ .
(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .

فى تاريخ البلاد السياسى والفكرى ، لأنها كانت تصل العاصمة بجنوب الأندلس وبلاد الشرق جميعاً . ولأنها كانت من الجمال والبهاء بحيث كانت منتزه أهل قرطبة ومدار خيال شعراء الأندلس أجمعين .

وفى ربيع سنة ١٠٢ هـ (سنة ٧٢١ م) خرج السمح بالصائفة ليغزو فيما وراء البرت فاستشهد فى طرسونة فى يوم عرفة من العام نفسه . وسنتحدث عن ذلك فى فصل خاص نجمل فيه أعمال المسلمين الحربية كلها فيما وراء البرت.

وفى أثناء السنوات القليلة التى ذكرناها كانت العلاقات بين البربر والعرب فى إفريقية والأندلس تتطور على نحو سيكون له أثر حاسم فى مجرى الأمور فى البلدين خلال هذه الفترة وما تلاها ، وجدير بنا أن ندرس هذه الناحية بشىء من التفصيل .

الفصل الخامس

صراع العرب والبربر

٤٢ — خلافات العصبية

انقضت أيام الخليفة التقى العادل عمر بن عبد العزيز وواليه المجتهدين إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك الخولانى. وعاد الغرب الإسلامى إلى ما كان عليه أيام الخليفة سليمان ومن سبقه: عاد حكام إفريقية يستبدون بالأندلس ويولون عليه من الحكام من يشاءون. وعاد هؤلاء يصرفون أموره على الوجه الذى يحبونه. ولقد رأى الأندلس فى الفترة بين سنتى ١٠٢ و ١١٢ حكاماً لا نكاد نذكرهم إلا اهتماماً ظاهراً بالحروب فيما وراء البرت. وانصرافاً ظاهراً إلى المنازعات العصبية العنيفة (١).

كانت ولاية إفريقية خلال هذه الفترة كلها إلى رجلين من كبار رجال بنى أمية. هما يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج وكاتبه (١٠٢ — ١٠٣ هـ / ٧٢٠ — ٧٢١ م) وبشر بن صفوان الكلبى (١٠٣ — ١٠٩ هـ/٧٢١—٧٢٦م). وكانت خلافة المسلمين إلى اثنين من أشد الأمويين إغراقاً فى العصبية القبلية.

(١) هم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (من ذى الحجة سنة ١٠٢ الى صفر سنة ١٠٣/ من يوليه الى أغسطس ٧٢١) وعنبسة بن سُحَيم الكلبى (من صفر سنة ١٠٣ الى شعبان سنة ١٠٧/ ٧٢١ — ٧٢٦)، وعذرة بن عبد الله الفهرى (من شعبان سنة ١٠٧ الى شوال سنة ١٠٧/ من يناير الى مارس ٧٢٦)، ويحيى بن سلامة العاملى (من شوال سنة ١٠٧ الى ربيع الأول سنة ١١٠/ من مارس ٧٢٦ الى يوليه ٧٢٨)، وحذيفة بن الأحوص القيسى (من ربيع الأول سنة ١١٠ الى شعبان سنة ١١٠/ من يوليه الى ديسمبر ٧٢٨)، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى (من شعبان سنة ١١٠ الى المحرم سنة ١١١ / من نوفمبر ٧٢٨ الى أبريل ٧٢٩)، والهيثم بن عبيد الكلبى (من المحرم سنة ١١١ الى ذى القعدة سنة ١١١/ من أبريل ٧٢٩ الى فبراير ٧٣٠).

انظر ابن عذارى: البيان، ج ٢، ص ٢٦ — ٢٧.

والبحث الذى كتبه لافوينتى إى ألـكانترا وذيل به ترجمته للأخبار المجموعة وحقق فيه ولايات عمال الأندلس.

LAFUENTE Y ALCANTARA; *Cronologia de los gobernodores de Espana.* Apendice III de *Ajbar Machmua*, pp. 220-242

هما يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م) وهشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٤ — ٧٤٣ م)، وفى عهدهما ظهر فى البيت الأموى الانقسام والتفرق اللذان انتهيا بإضعاف البيت كله وذهاب ريحه. فقد كان يزيد بن عبد الملك مضرى الميول: أغضب يزيد بن المهلب وحاربه حتى قتله. وتعقب اليمنية بألوان الأذى حتى نفروا منه ومالوا إلى أعدائه، وامتلأت نفوسهم بالثورة عليه. وعادت إليهم أحقاد مرج راهط وتحركت فى قلوبهم ثاراتها (١). وأقام على إفريقية يزيد بن أبى مسلم هذا. وكان من كبار القيسية. فلما قتل أقام مكانه بشر بن صفوان. وقوى جانب القيسية فى بلاد الدولة الإسلامية كلها. فلما أقبل أخوه هشام بدا له أن يخفف من غلواء القيسية المضرية بقبض يده عنهم. ومن ثم أقام نفراً من كبار اليمنية الكلبية من أمثال خالد بن عبد الله القسرى وأخيه أسد على الولايات. فأخذوا يضطهدون المضرية اضطهاداً رضى عنه الخليفة وإن لم يفعل فعلهما. ولهذا ترك بشر بن صفوان فى ولايته، لأن ميوله كانت كلبية يمنية. وحينما توفى بشر بن صفوان سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٦ م كانت ميول الخليفة قد انحرفت بعض الشىء عن الكلبية اليمنية ومالت نفسه إلى إضعاف أمرها. ولهذا أخذ يولى بعض القيسية كبار المناصب. فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق. ونصر ابن سيار خراسان، وعبيدة بن عبد الرحمن السلمى إفريقية. وكانوا جميعاً من غلاة القيسية. فأخذوا يضطهدون اليمنية الكلبية. حتى ليذكر النويرى أن عبيدة بن عبد الرحمن السلمى لم يكد يصل إلى إفريقية حتى «أخذ عمال بشر ابن صفوان فحبسهم وتحمل عليهم، وكان فيهم أبو الخطاب بن صفوان الكلبى» (٢)

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ١٣٦ وما بعدها، ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٢٣ وما بعدها، المسعودى: مروج الذهب، ج ٢، ص ١٣٥ — ١٣٦.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٣ — ٢١٦.

النويرى: نهاية الأرب، طبعة جسبار رميرو، ص ٣٣.

وراجع تعليق فورنيل على هذه التغيرات العصبية فى الفترة الأموية:

H. FOURNEL. *Les Berbères*, I. pp. 270-271.

هكذا أخذت عواصف العصبية تعصف بالدولة فى القلب وفى الولايات ، ولم يقتصر الأمر على العمال ورجال الدولة بل تعداه إلى عامة الناس ، لأن الجاليات العربية التى كانت قد هاجرت إلى الولايات واستقرت فيها لم تخرج عن أن تكون قيسية مضرية أو كلبية يمنية ، فاذا كان العامل قيسياً حابى القيسية واضطهد الكلبية اليمنية وآذاها ، واشتبكت بينه وبينها الحروب ، وإذا كان كلبياً عسف القيسية وأنزل بها من البلاء شيئاً كثيراً . ومن هنا قامت الحروب بين العرب فى الولايات ، وتخضبت أراضى الدولة الإسلامية من خراسان إلى أقصى الأندلس بدماء العرب ، وشغلتهم هذه الخلافات فى كل ناحية عما هو أهم منها وأولى بالعناية من الأمور .

ولم يشقَ بلد من بلاد المسلمين بهذه الخصومات كما شقى بها المغرب والأندلس . لا لأنها كانت فيهما أقسى وأعنف ، بل لأن المغرب والأندلس كانا إلى ذلك الحين بمثابة الثغر الكبير لبلاد المسلمين عامة ، وكان لا بد لمن يقوم فيهما من العرب أن يكونوا كتلة واحدة يقظة ، وإلا نهض لهم العدو — الذى لم يقضَ عليه القضاء المبرم — واستعاد قوته ، وتحفز لقتالهم وهم فى شغل عنه . وهذا هو الذى حدث بالفعل : شغل العرب بتصفية ثاراتهم القبلية العصبية عن بقايا القوط فى الأندلس ، وعن إتمام إخضاع البربر فى إفريقية ، فأصاب هؤلاء وأولئك فرصة كانوا فى أشد الحاجة إليها ، واستطاعوا أن يستعيدوا ثباتهم وأن يمكنوا أقدامهم فى نواحيهم النائية ، ثم أخذوا يتقدمون على مهل منتهزين الفرصة فى هؤلاء العرب الذين شغلتهم قيس وكلب عن القوط والنصرانية والوثنية معاً .

وليس إلى الشك سبيل فى أن هذه المنازعات العصبية وحدها هى السبب فى نهضة فلول القوط وتقدمهم لمنازعة العرب هذه المنازعة الطويلة التى انتهت بخروج المسلمين من البلاد جملة ، وأنها هى السبب فى ثورة بربر المغرب جميعه على العرب ، لأنها أتت فى وقت حرج كان المسلمون أحق فيه بأن يبذلوا

قصارى جهدهم فى إتمام فتح البلدين ، فعاقتهم عن ذلك واضطرب الأمر عليهم فيهما جميعاً .

٤٣ – فترة سيادة الكلبيين اليمنيين فى المغرب والأندلس

كانت ولاية يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان فى إفريقية كلبية يمنية صرفة . وقد عرف الكلبيون اليمنيون بإسرافهم فى العصبية على الموالى فى كل ناحية ، وحسبنا من ذلك الإشارة إلى سياسة الحجاج وعسفه موالى فارس . وكان يزيد بن مسلم تلميذه وكاتبه[1] ، فحسب أنه يستطيع أن يسير فى البربر بسيرة الحجاج فى أهل العراق وفارس[2] . وأخذ يعسف البربر ويشتد فى جمع أموالهم وسَبْى نسائهم . وكان شديد العناية بإلطاف الخلفاء وكسب قلوبهم بالهدايا ، فصار يتخير أحسن نساء البربر ليبعث بهن إلى الخليفة ، وكان يأخذ المائة من الغنم ويذبحها ليأخذ فراءها العسلى الصافى ويرسلها إلى دمشق . فربما ذبح مائة شاة دون أن يستخلص منها جلداً واحداً سليما ، فتغيرت نفوس البربر ، وبدأت قلوبهم تتحدث بالثورة عليه ، لأن البربر كالعرب قوم بدو لا يعرفون طاعة ولا ذلة [3] .

٤٤ – مسئولية الخلفاء عن أعمال عمالهم فى المغرب

وليس إلى الشك سبيل فى أن خلفاء بنى أمية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان فى إفريقية ، وأنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الوسائل التى كانا يلجآن إليها فى عسف البربر والاستبداد بهم . ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حينما علم بقتل البربر واليه يزيد بن أبى مسلم ، وقال

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ – ٢١٤ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢١ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ وما يليها .
النويرى : نهاية الأرب ، ص ٢١ وما يليها .

إنه لم يرض عن عمله ، ثم أقر محمد بن أوس الأنصارى الذى أقامه أهل إفريقية على أنفسهم [١] .

وربما تبادر إلى الذهن أن الخلفاء كانوا يكلفون العمال أن يكثروا من الهدايا والألطاف . فكان العمال يضطرون لهذا إلى الإسراف فى عسف الناس والاشتطاط معهم ، ولكن رواية لابن عذارى تدل على أن العمال يحملون أكبر جانب من المسئولية فى هذا ، وذلك حيث يقول : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب . ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسبيات . فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم — أو كلفوه — أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة » [٢] وهى رواية تدل على أن الخلفاء كانوا يستحبون طرائف إفريقية فقط . وأن العمال كانوا يتكلفون الإسراف فى عسف الناس طلباً فى المزيد من رضى الخلفاء.

وكان الكلبيون بطبعهم على جانب قليل من السياسة والكياسة . فأسرفوا فى الأمر إسرافاً نفر البربر ودفعهم إلى الثورة . وشجعهم على المضى فى هذا العسف ما كان قائماً إذ ذاك بين العرب أنفسهم من عداء

٥٤ — توتر نفوس البتر — زناتة

وكان وضع العرب فى بلاد المغرب بُعَيد الفتح وضعاً فريداً فى ذاته . فإن بربر المغرب — على ما نعرف — ينقسمون إلى بتر وبرانس ، أو إلى بدو وحضر . فأما البتر فقد تسارعوا إلى الانضمام للعرب من أول الأمر واشتركوا معهم فى فتح البلاد . ولولا مساعدة قبائل بترية مثل لواتة ونفوسة وهوارة وبرغواطة [٣] . لما استطاع

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣) راجع النصوص الخاصة بانضمام هذه القبائل إلى المسلمين من أول الأمر فى :
البلاذرى : فتوح ، ص ٢٢٤ .
ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ .
ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .
ابن خلدون : كتاب العبر ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .
وانظر لمؤلف هذا الكتاب : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٨٢ وما يليها .

العرب الوصول فى المغرب إلى هذه النتيجة الباهرة التى وصلوا إليها بعد جهد طويل متصل . فلما انتصر العرب واستقرت أقدامهم فى البلاد توقع البتر أن يعتبروهم مساوين لهم ، وأن يميزوهم عن البرانس الذين قاوموهم مقاومة عنيفة ولم يلقوا بيد الطاعة إلا بعد أن يئسوا من كل عون من ناحية البيزنطيين . ولكن العرب لم يفطنوا إلى ذلك ، ومضوا يعاملون البربر جميعاً معاملة واحدة ، واشتدوا عليهم جميعاً ، أصدقاء وغير أصدقاء ، أحلافاً وغير أحلاف . فتغيرت نفوس البتر — وزناتة منهم خاصة — وبدأوا يفكرون فى الثورة على العرب عامة . ثم إن البربر — والبتر منهم خاصة — حملوا معظم عبء فتح الأندلس ، وقتل منهم فى هذا السبيل آلاف ، فى حين لم يفقد العرب إلا بضع مئات . وكان نفر من قادة الفتح بربراً زناتيين مثل أبى زرعة طريف بن مَلُّوك وطارق بن زياد . فلم يحسن العرب جزاء هذين ، بل أصاب موسى طارقاً بشر كبير ، ولم ينظر عرب الأندلس إلى بربرها نظر الند للند . فأنكر البربر ذلك وبدأت نفوسهم تتغير .

وربما كان دافع عرب الأندلس إلى إساءة معاملة البربر هو خوفهم منهم ، فقد كان البربر فى الأندلس أضعاف العرب عدداً . وكان العرب يشعرون أنهم أقلية ، وكان شعورهم بهذا يدفعهم إلى التحرز من البربر وإبعادهم عن الحكومة والسلطان ، فزاد ذلك فى سخط هؤلاء . وكان البتر هم حرس الولاة المقربين إليهم ، وكان الولاة قبل يزيد بن أبى مسلم يميزونهم على البرانس ويتخذون منهم بطانتهم ، فلما جاء يزيد بن أبى مسلم أغفل هذه الناحية وأساء معاملة البتر وأراد امتهانهم وإذلالهم ، فنفرت نفوسهم منه ، وفقد العرب من ذلك الحين ولاء هذا الفريق القوى من بربر إفريقية . وسيكون لذلك أثر كبير فى تطور الحوادث فيما بعد [١] .

(١) لاحظ قول ابن عبد الحكم : « ويقال : بل كان حرس يزيد بن أبى مسلم حين قدم البربر ليس فيهم إلا بترى ، وكانوا هم حرس الولاة قبله ، البتر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد ، فخطب يزيد بن أبى مسلم الناس فقال : إنى إن أصبحت صالحاً وشمت حرسى =

٤٦ – الأفارقة

وكان فى إفريقية – إلى جانب البربر والروم – نفر كبير من الأفارقة ، أى من الأجانب المستوطنين الذين طال مكثهم فى البلاد حتى أصبحوا إفريقيين ، وكان معظم هؤلاء يسكنون المدن ومواقع الساحل . وكانوا على علائق حسنة مع الروم متأثرين بحضارتهم . وكان فيهم كثير من النصارى . ولما أقبل العرب وأنشأوا يحاربون الروم وقف هؤلاء الأفارقة على الحياد بل أقبل نفر منهم على الإسلام ، وكانوا ينتظرون ألا يعتبرهم العرب روماً وألا يعسفوهم . ولكن العرب وضعوهم والروم فى منزلة واحدة ، فاعتبروا الأفارقة موالى . وغنموا أراضيهم وأموالهم . فانقلبوا أعداء لهم ، واتصلوا بزناتة . وتفاهم الحيان على الثورة (١) .

٤٧ – دعاة الخارجية فى المغرب

وزاد الحال حرجاً أن اشتداد بنى أمية مع العلويين والخوارج أرهبهم ونفرهم من الشام والعراق وجزيرة العرب ، فمضوا يلتمسون الأمان حيثما وجدوه . وفر منهم نفر كبير إلى المغرب حيث وجدوا أهله حانقين على الأمويين مستعدين للثورة عليهم ، فلم يكن أيسر على هؤلاء العلويين والخوارج من كسب هؤلاء البربر إلى صفوفهم ؛ ووجدت مذاهب الخارجية – الصفرية والأباضية خاصة – قبولا طيباً من البربر . وهكذا تهيأت فى بلاد المغرب كلها الظروف لثورة عامة كبرى على الأمويين والعرب عامة .

ويُجمع مؤرخو المغرب على أن معظم من أقبل إلى إفريقية من هؤلاء

= فى أيديهم كما تصنع الروم ، فأثم فى يد الرجل اليمنى اسمه وفى اليسرى : حرسى ، فيعرفون بذلك عن غيرهم ، فأنفوا من ذلك ، وذب بعضهم إلى بعض فى قتله » . فتوح ، ص ٢١٤ .

(١) يفهم من روايتين لأبى المحاسن والسلاوى أن زعامة برابر طنجة فى الثورة التى سنتحدث عنها كانت الى ميسرة المطغرى وعبد الأعلى بن جريج الإفريقى ، وكان مع كل منهما قومه ، مما يدل على أن الطائفتين اتفقتا على الوثوب بالعرب .

انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٢٨ .

السلاوى : الاستقصاء ، جـ ١ ، ص ٤٩ .

الدعاة كانوا من الصفرية والأباضية ، ولسنا نعلم بالضبط لماذا كان معظم دعاة الثورة فى المغرب من هذين الفريقين من الخوارج ، ولا السبب فى إقبال أهل المغرب عليهما خاصة . لأن مبادئ الفريقين ليست مما يجتذب البربر ، فهما أكثر الخوارج ميلا إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين (١) ، بل الأباضية لا تحل قتال غير الخوارج من المسلمين ولا تستحل من الغنائم غير السلاح والخيل . والصفرية تكاد تكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالا ، والبربر على ما نعلم لا يميلون إلى الاعتدال فى العقائد ، وسنرى من أحداث ثورتهم أنهم كانوا متطرفين لا يعرفون وسطاً . وربما كان الأحجى أن نشك فى نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والأباضية خاصة ، لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية ، ولسنا نجد على أى الأحوال فى أخبار هذه الثورة الكبيرة دليلا واضحاً على صفرية القائمين بالحركة أو أباضيتهم ، والأسلم أن نسميهم خوارج فحسب ، خوارج سياسيين لا دينيين .

ولصاحب « الأخبار المجموعة » رواية يفهم منها أن البواعث البعيدة لهذه الحركة كانت موضع خلاف بين المؤرخين القدماء أنفسهم ، وذلك حيث يقول : « وقد يقول من يطعن على الأئمة أنهم إنما خرجوا ضيقاً من سير عمالهم ، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة فى جلود الخرفان العسلية ، فتذبح مائة شاة ، فربما لم يوجد فيها إلا جلد واحد . وهو قول البغض للأئمة . فان كانوا صدقوا ، فما بال التحكيم فشا فيهم ورفعُ المصاحف وحلقُ الرؤوس . اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان ، أصحاب عبد الملك بن وهب وزيد بن حصن ؟ ... » (٢) .

وظاهر أن صاحب هذا المجموع القيم من الأخبار يحاول الدفاع عن

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ، ص ١٦٨ – ١٦٩ .
البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٦١ – ٦٢ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣١ – ٣٢ .

خلفاء بنى أمية لأنهم أجداد أموية الأندلس ، وليس إلى الشك سبيل فى أن عبارته هذه موجهة إلى نفر من معاصريه الذين كانوا يرمون خلفاء بنى أمية بالظلم ويحملونهم مسئولية هذه الحركة الخطيرة .

ومهما يكن من الأمر فقد اجتهد دعاة الخارجية هؤلاء اجتهاداً عظيما فى إثارة البربر ودفعهم إلى الوثوب بالعرب . ومن دلائل ذلك قول المالكى : « وكانوا – أى أهل إفريقية – يقولون : لا تخالف الأئمة بما تجنى العمال . فقالوا – أى الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الفتنة – لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ، فقالوا : حتى نخبرهم ! » .

« فخرج ميسرة فى بضعة وعشرين رجلا . فقدموا على هشام ، فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فاذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا . ويقول : هذا أخلص لجهادكم !... . فقلنا : لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون ! فأحببنا أن نعرف أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم . فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه ، وقالوا : إن سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا إلى إفريقية . وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر ، فعرف أسماءهم ، فاذا هم الذين صنعوا ذلك » [١] مما يدل على أن أهل إفريقية أنكروا هذه المعاملة السيئة من عمال الأمويين . وجعل هؤلاء الدعاة يدفعونهم إلى الثورة ويؤكدون لهم أن ذلك الظلم الذى ينزل بهم إنما مصدره الخلفاء أنفسهم . فأحب ميسرة – زعيم البربر – أن يتأكد من الأمر قبل أن يقدم على شيء ، فمضى فى وفد من أهل بلده إلى دمشق ليبسط ظلامته أمام الخليفة هشام ، فلم يستطيعوا مقابلته ، فعادوا ولا مندوحة لهم عن الثورة .

(١) ليس لدينا ما يؤيد ذهاب ميسرة إلى المشرق ، ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الرواية أن زعماء البربر حاولوا بسط شكايتهم أمام الخلفاء قبل أن يلجأوا إلى الثورة .

٤٨ – العصبية العربية فى الأندلس

وكان الأندلس تابعاً لإفريقية فى ذلك الحين ، فلا غرابة أن تظهر فيه أصداء ذلك كله ، ولا غرابة فى أن يكون لها جميعاً أسوأ الأثر على مصائر الإسلام فيه للأسباب التى ذكرناها .

أقام يزيدُ بن أبى مسلم وبشرُ بن صفوان الكلبيان اليمنيان على الأندلس عمالا يمنيين كلبيين هم عنبسة بن سحيم الكلبى (صفر ١٠٣ – شعبان ١٠٧) وعذرة بن عبد الله الفهرى (شعبان ١٠٧ – شوال ١٠٧) ويحيى بن سلامة العاملى (إلى ربيع الأول سنة ١١٠) . وقد حكم ثلاثتهم سبع سنوات (شوال ١٠٧ – ربيع الأول ١١٠) تعصبوا خلالها لليمنية الكلبية وأوغروا صدور القيسية .

وكانت قيسية الأندلس موغرة الصدر بطبعها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها ، لأن الكثيرين من أفرادها كانوا ممن حضر حروب الزبيريين والمروانيين فى المشرق ، بل كان منهم من حضر مرج راهط ورأى بعينيه مصارع القيسية وأفول نجمها بهزيمة الزبيريين ، وكانوا ينتظرون الفرصة ليسووا حسابهم القديم مع اليمنيين الكلبيين . فلم يكد هؤلاء الولاة الثلاثة يسيرون فى سياستهم اليمنية الكلبية حتى امتلأت قلوب القيسية ألماً وجاشت نفوسهم بالثورة ، وغدوا لا ينتظرون إلا الفرصة المواتية [١] .

وكان هؤلاء الكلبيون كغيرهم من اليمنيين ذوى شره إلى الأموال وعسف فى جمعها ، وقد اشتد سحيم معهم شدة خاصة ، فألزم النصارى فى الأندلس بدفع جزية مضاعفة ، فتغيرت نفوس أهل البلاد وبدأ القلق يسودها من كل وجه [٢] .

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٤ – ٢٥

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, I. pp. 15, 599.

(٢) إيزيدور الباجي ، (فقرة رقم ٥٢) . واسمه الكامل ISIDORO PACENSE وهو مؤلف وهمى يقال إنه كان أسقفاً لمدينة Pace أو Pax-Julia وهى Beja الحالية من مدن البرتغال (باجه عند العرب) ينسب إليه تاريخ هام لإسبانيا اسمه :

... ...

= *Epitoma (epitome) Imperatorum vel Arabum Ephemerides atque Hispaniae Chronographiae sub uno Volumine Collecta.*

وهو يشمل تاريخ إسبانيا من أواخر العصر القوطى ، من نهاية حكم سسبرت إلى نهاية حكم يوسف الفهرى آخر عمال الأندلس للأمويين ، وهو يضم معلومات هامة عن الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية فى المشرق خلال هذه الفترة . ولم يستطع البحث التاريخى الاهتداء إلى حقيقة إيزودور هذا أو إلى نسبة هذا الكتاب إليه ، ولهذا يفضل الكثيرون تسميته « بالتاريخ الطليطلى المجهول المؤلف *ElAnonimo Toledano* » لأن مخطوطته وجدت فى طليطلة . والذى لا شك فيه هو أن مؤلف هذا المجموع الفريد من الأخبار كان واحدا من رجال الدين الإسبان ، ولكنه يمتاز عن هؤلاء باعتدال فى الرأى وبعد نسبى عن العصبية الدينية التى نجدها عند غيره من مؤرخى اسبانيا من رجال الدين . وروايته تزودنا بمعلومات قيمة جداً عن خلفاء الأمويين بالمشرق وأعمال عمال بنى أمية فى إفريقية والأندلس . ويفهم من نص روايته ، ومن كتب أخرى معاصرة ، أنه كتب كتباً أخرى هى :

1.—*Epitome Regum Wisigothorum a tempori Recaredi principis.*

2.—*Epitome Temporum.*

(مختصر تاريخ العصور) – وفيه يتحدث بالتفصيل عن الحروب التى جرت بين البربر وكلثوم ابن عياض عامل هشام بن عبد الملك على إفريقية .

3.—*Epitome.*

يقص فيه أخبار الحروب بين بلج بن بشر ومن معه من الشامية وبقية عرب الأندلس .

4.—*Liber verborum dierum Saeculi.*

وهو يكمل فيه ذكر الأحداث التى فاته ذكرها فى كتبه السابقة . وكتابه الأول هو أهمها من غير شك ، وهو المشار إليه فى التواريخ الأندلسية ، وهو الذى نقصده نحن فى هذا البحث . وظاهر أن مؤلفه أراد أن يجعل منه صلة لتاريخ ايزيدور الإشبيلي SAN ISIDORO DE SEVILLA تجد نصه الكامل عند :

THEODOR MOMMSEN, *Auctorum Antiquissimorum*, tomus XI, *Cronica Minora.* (Saec. IV, V, VI, VIII) II, 1p. 334-360 Berolini, 1893.

وفى :

FLOREZ, *Espana Sagrada*, pp. 283-307, *Isidori Pacencis Episcopi chronicon.*

ونشر أجزاء منه LAFUENTE Y ALCANTARA كملحق لترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ١٤٦ وما بعدها .

=

فلما تولى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السُّلمى [١] وكان قيسياً ، انقلبت الآية وتوالت على الأندلس سنوات قيسية لقى الكلبيون اليمنيون خلالها بلاء شديداً ، قام بالأمر خلالها حذيفة بن الأحوص القيسى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، والهيثم بن عبيد الله الكنانى ، ومحمد بن عبد الله الأشجعى ، واستمرت حتى سنة ١١١ هـ ، وقد اشتد الهيثم مع اليمنيين شدة أثارتهم ودفعتهم إلى العصيان علانية ، وقد بلغ من شدته أن أنكر هشام عليه ذلك — رغم قيسيته — وعزله وعاقبه عقاباً صارماً [٢] .

ومن عهد الهيثم هذا تبدأ فى الأندلس خصومة القيسية واليمنية الصريحة الخطرة ، التى سيكون لها أسوأ الأثر على مصير الإسلام فى الأندلس خاصة والمغرب عامة .

= وانظر عنه :

RUDOLF SCHEVENKOW, *Kritische Betrachtungen ueber die lateiniscugeschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber,* 1894.

FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia de los Mozarabes de Espana,* (Madrid 1867-1903) pp. 234, 599.

CESAR DUBLER, *Sobre la Cronica Arabigo-Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsula Ibérica (Al-Andalus, vol. XI fasc.* 2 Madrid-Grenada, 1956) pp. 283-349.

(١) أثار وصول عبيدة بن عبد الرحمن إلى إفريقية اضطرابا كبيراً ، لأن الكلبيين كانوا قد اطمأنوا إلى السيادة فى عهد سلفه بشر بن صفوان ، وكان معظم عرب إفريقية والأندلس كلبيين يمنيين كما ذكرنا ، وكان بشر قد ترك مكانه كلبياً ، فلم يكد يستقر فى الولاية حتى فاجأه هشام بعبيدة بن عبد الرحمن ، ودخل عبيدة القيروان فجأة ، كأنما كان يتوقع معارضة ومقاومة ، ولم يقدم شيئاً على عسف اليمنيين عسفاً جاوز الحد المألوف .

انظر : ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٤٥٧ — ٤٩ .

ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠٨ ، ١٣٠ .

(٢) إيزيدور : فقرة ٥٧ .

ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٦٨ ، ٧٤ .

بيد أننا ينبغى أن نذكر أن المسلمين كانوا معنيين خلال ذلك كله بالحروب فيما وراء البرتات ، فقد استمرت جهودهم بعد مقتل السمح بن مالك الخولانى ، ووصلت جيوش المسلمين فى أيامهم إلى قريب من أڤنيون . وكانت أربونة عاصمة الهيثم بن عبيد الكنانى يقيم فيها معظم وقته (١) .

ولسنا نجد ما نسجله فى عهود هؤلاء الحكام القصيرة إلا ثورة پلايُه زعيم فلول القوط فى نواحى أشـــتريس ، وهى ثورة خطيرة تعين بدء المقاومة الإسبانية ، وقد وقعت فى عصر عنبسة بن سُحَيْم (٢) .

وفى صفر سنة ١١٢هـ / ٧٣٠م أقام عُبيدالله بن عبد الرحمن السلمي عبدَ الرحمن بن عبد الله الغافقى أميراً على الأندلس ، وكان عبد الرحمن من كبار رجال جند الأندلس ، وقد قضى حياته حتى ذلك الحين يغازى الأعداء فيما يلى البرتات ، وكان الجند قد أقاموه والياً على الأندلس قبل ذلك مدة لم تزد على شهرين قبيل قدوم عنبسة بن سُحيم ، وكان عبد الرحمن شخصية أندلسية قضى معظم أيامه فى نواحيها وفى الجهاد فيما يليها . فكان لولايته طابع خاص لا نلمحه عند أحد ممن سبقوه ، فقد كان هؤلاء مشارقة يقبلون على البلاد وهم لا يكادون يعرفون من أمرها شيئاً ، ولا يكادون يحملون إليها إلا عصبيتهم اليمنية أو القيسية ويزيدون الحال سوءاً . فأما عبد الرحمن فأندلسى لا يكاد يلقى بالا إلى هذه الجاهلية العصبية ، ولا يكاد يلتفت إلا لإقرار الأمن فى البلاد وموالاة الفتح فيما يليها (٣) .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ . وانظر الفصل التالى .
إيزودور : فقرة ٥٦ و ٥٧ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٩ — ١٠ .
LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, I. p. 48.
(٣) عن عبد الرحمن الغافقى ، انظر : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٦ — ٢١٧ .
ابن حيان برواية المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٩ .
أخبار مجموعة ، ص ٢٥ .
ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٧ — ٢٨ .
ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٩٤ .
ISODORO PACENSE, *Cronicon*, cc. 56-63.

تجمع الروايات الإسلامية على الثناء على عبد الرحمن ، بل يذهب بعضها إلى القول بأنه أعظم ولاة الأندلس أجمعين وأكثرهم فضيلة وأشدهم إخلاصاً فى القيام بما تفرضه الأندلس على واليها من الواجبات ، والواقع أن المراجع لم تبالغ فى ذلك كثيراً ، فقد كان عبد الرحمن فى واقع الأمر منظماً قادراً وجندياً باسلا ، وربما شاركه فى إحدى هاتين الصفتين بعض من سبقه من ولاة الأندلس مثل السمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم ، ولكنه يمتاز عن هذين وغيرهما بأنه كان سليما من نزعة العصبية التى أفسدت على معظم هؤلاء الحكام أعمالهم . وقد كان الرجل من غافق إحدى بطون كهلان اليمنية ، ولسنا نعلل اختيار عبيدة بن عبد الرحمن السلمى القيسى المتشدد إياه إلا بأن شخصية عبد الرحمن كانت من الظهور بحيث صرفت عبيدة عن التفكير فى قيسيته التى أفسدت عليه الأمور زماناً (١) ، ويبدو أن عبد الرحمن كان يتمتع بمركز عظيم بين عرب الأندلس ، لأن ولايته لقيت الرضى من طوائفهم كلها يمنية وقيسية .

ولم يوفق عبد الرحمن فى غزوته الكبرى التى أراد أن يفتح فيها غالة رغم ما حشد من عدة وما بذل من جهد ، واستشهد هو ونفر عظيم ممن كانوا معه عند بلاط الشهداء على مقربة من پواتييه فى رمضان سنة ١١٤ هـ . ولا نزاع فى أن ابن حيان قد بالغ حينما زعم أن أحداً من جيش عبد الرحمن لم ينج من هذه الموقعة ، لأنه لا يعقل أن يقتل من المسلمين سبعون ألفاً ثم لا تضطرب الأندلس كلها . والواقع أن عدداً عظيما من جنود عبد الرحمن عاد إلى الأندلس

(١) وكان عبد الرحمن الغافقى فى خــلاف دائم مع عبيدة بن عبد الرحمن ، ومصداق ذلك رواية لابن عبد الحـــكم يقول فيهـــا بعد تفصيل أعمال عبد الرحمن فى إحدى غزواته فى بلاد الفرنجة : « وكان فيما أصـــاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فـــكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم سائر ذلك فى المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة ، فغضب غضباً شديداً ، فكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : إن السماوات والأرض لو كانتا رتقاً ، لجعل الرحمن للمتقين منهما مخرجاً . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة أصحابه ... » .
ابن عبد الحـــكم : فتوح ، ص ٢٤٧ .

قبل الموقعة مستوحشاً من طول الشقة ، فلما فاجأه العدو ألفاه فى قلة فاستشهد وبعض من بقى معه .

كان لهذه الهزيمة وقع شديد فى نفس الخليفة هشام بن عبد الملك ، فقد أقبلت إليه أخبارها بعد فشل أخيه مسلمة بن عبد الملك فى اقتحام أسوار القسطنطينية بأربع عشرة سنة . فأحس هشام أن سيوف المسلمين قد عجزت عن اقتحام معاقل المسيحية الكبرى فى الشرق والغرب ، فساءه ذلك ، وأخذ يفكر تفكيراً جاداً فى علاج هذا الموقف ، وفى تقوية جبهة الإسلام من ناحية الغرب ، ويبدو أنه تخوف خطر الفرنج على مسلمى الأندلس بعد إذ استشعر قوتهم بعد هذه المعركة .

بدأ هشام فعزل عبيدة بن عبد الرحمن عن إفريقية فى أواخر سنة ١١٤ هـ لأنه كان قيسياً مسرفاً فى عصبيته حتى لقد أثار اليمنية وكاد يوقع المغرب الإسلامى كله فى فتنة عصبية كبرى ، واستبدل به قيسياً آخر كان يحسب أنه أهدأ منه نفساً وأقل عصبية . ذلك هو عبيد الله بن الحبحاب .

٤٩ – مصاعب الحكم فى المغرب بعد موسى بن نصير

بدأ عبيد الله بن الحبحاب ولايته فى إفريقية بدءاً حسناً ، وقد كان وفق فى مصر توفيقاً طيباً كعامل لخراجها[1] ولكنه لم يستطع أن يدرك فى إفريقية ما أراد من الإصلاح وتهدئة النفوس ، ذلك أن المغرب الإسلامى كان يجوز إذ ذاك أزمة سياسية واجتماعية حادة . ولا بد أن نعود بتاريخ المغرب سنوات إلى الوراء لنتتبع هذه الأزمة منذ مبادئها .

ذلك أن حكومة موسى بن نصير وابنيه عبد الله وعبد الملك من بعده فى المغرب أضاعت على المسلمين ثمرات حكومة حسان بن النعمان وإصلاحاته ، فقد اشتد موسى وبنوه على البربر شدة نفرتهم وبغضت العرب إليهم ، وزاد

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء (طبعة دوزى) ، ص ٣٢ .
ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

الأمر سوءاً أن آل موسى احتضنوا بعض القبائل واعتبروا أفرادها موالى لهم وفضلوهم على غيرهم ، فأثار ذلك نفوس بقية القبائل ، وأخذ كثير من البربر يشعرون بأن الحكم العربى الجديد ليس خيراً فى كثير من الحكم البيزنطى المنقضى .

ولو استمر الأمر على ذلك بصورة مضطردة لانفجرت ثورة البربر فى زمن مبكر جداً ، ولكن الأحوال هدأت بعد انقضاء أمر آل موسى فترة دامت أربع سنوات من ٩٧ – ١٠١ هـ / ٧١٥ – ٧٢٠ م بسبب اعتدال محمد ابن يزيد القرشى[1] وإسماعيل بن عبيد الله اللذين توليا حكومة المغرب بعد آل نصير على ما ذكرناه[2] .

وقد بلغ من توفيق إسماعيل فى إقرار السلام فى البلاد أنه « لم يبق فى ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم »[3] كما يقول ابن عبد الحكم ، ولم يبالغ راويتنا الجليل كثيراً فى ذلك ، فالواقع أن حسن سياسة إسماعيل وحرصه على نشر الإسلام قد كسبا للدين عدداً عظيما جداً من البربر ، فلو قلنا إن ولايته ثبتت قدم الإسلام فى إفريقية ما بالغنا ، لأن المغرب أصبح بعد ولايته بلداً إسلامياً يغلب على أهله الإسلام[4] .

وكان من سوء الحظ أن خليفته فى ولاية المغرب لم يكن يقاربه فى شىء

(١) المقريزى : خطط (طبعة ڤييت) ج ٢ ، ص ٦١ – ٦٣ .
« : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة ڤستنفلد تحت عنوان :
WUESTENFELD, *Abhandlung ueber die in Agypten eingewanderten arabische Stamme*, Goettingen, 1847, pp. 39-40.
وهى ترجمة لكتيب المقريزى « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .
ابن خلدون (طبعة نوبل دى ڤرچير) ، ص ٨ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن ناجى : معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ١٥٤ – ١٥٦ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ – ٣٣ .

من ذلك ، بل كان رجلا يمنياً جافياً شديد العصبية قليل الكياسة هو يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج ؛ ولاه يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ / ٧٢٠ – ٧٢١ م على ما ذكرنا . ومن غريب الأمر أن يزيد بن عبد الملك أصحبه عبد الله ابن موسى بن نصير ، وكان عبد الله قد عُزل عن المغرب وانتقل إلى المشرق فى سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م (١) . ولسنا ندرى السبب فى ذلك التصرف من يزيد ، وربما أراد منه أن يكون عبد الله – بما له من الخبرة بالبلاد والمعرفة بشئونها – عوناً ليزيد بن أبى مسلم فى شؤونه ، ولكنه أخطأ التقدير ، لأن عبد الله كان موغر الصدر من بنى أمية ينتظر الفرصة للاقتصاص منهم بما فعلوا بآله وبه هو نفسه .

ثم إن أنصار بنى نصير لم يكادوا يعلمون بمجىء عبد الله حتى خرجوا يتلقونه مرحبين ، يحسبون أيام عزهم قد عادت . فساور الخوف نفس يزيد ابن أبى مسلم من هذه المكانة التى كانت لبنى نصير ، وأدركته الغيرة مما رآه من منزلة عبد الله بن موسى فى نفوس أهل البلاد ، فأحب أن يبغضه إلى نفوسهم . وأن يضعه فى مركز حرج ، فطلب إليه أن يقوم بإعداد العطاء اللازم للجند خمس سنين من ماله ، ثم أمره أن يلزم داره (٢) . وأعقب يزيد ذلك بالشدة البالغة مع موالى بنى نصير من البربر ، فوضع يده عليهم ، واعتبرهم جزءاً من الخمس يتبع لبيت المال ويؤول لعامل المغرب ، وأحصى أموالهم وأولادهم ، وجعل نفراً من هؤلاء الموالى حرسه وبطانته . وأراد أن يقضى على كل أثر لجاه بنى نصير فى إفريقية .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ ، ولا يؤيد ابن عبد الحكم فى القول بهذا مؤرخ آخر ، ولكننا نقبل روايته لأنها أقدم ما لدينا . ولم يتحدث أحد من المؤرخين المغربيين عن هذه الناحية بتفصيل يعيننا على تعرف الواقع .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ ؛ ولا يبعد أن يكون ذلك بإيعاز من يزيد ابن عبد الملك ، لأنه كان يعتقد – مثل أخيه سليمان – أن بنى نصير اجتبوا أموالا جسيمة وأخفوها عن الدولة حتى لا تتقاضاهم إياها .

ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان البلاء ، ولكنه لم يقصر هذا العسف على آل نصير ومواليهم ، بل توسع فيه حتى شمل به البربر أجمعين ، وأراد أن يسير فى البربر بسيرة مولاه الحجاج فى أهل العراق ، وفاته أن معظم من اشتد عليهم من البربر كانوا من البتر وزناتة ، أى من البربر الذين انضموا للعرب من أول الأمر وقدموا إليهم أخلص العون . ثم حفزه سوء الرأى إلى أن يتخذ قراراً كان فيه حتفه : قرر أن يشم حرسه البربر فى أيديهم ، فخطب الناس فقال : « إنى إن أصبحت صالحاً وشمت حرسى فى أيديهم كما تصنع الروم ، فأشم فى يد الرجل اليمنى اسمه وفى اليسرى « حرسى » فيعرفوا بذلك من غيرهم » (١) إسرافاً منه فى الاستخفاف بالبربر وطلباً للون من الأبهة لم يعرفه العرب قبل ذلك . فثارت نفوس البربر لذلك ودبروا قتله ، وكان عبد الله بن موسى بن نصير يؤلبهم عليه ويزيد نفوسهم ثورة واضطراباً . وبتحريضه قُتل يزيد بن أبى مسلم . اغتاله حرسه فى سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ – ٧٢١ م .

وأقام أهل إفريقية قاضيهم المغيرة بن أبى بردة القرشى والياً حتى يأتيهم رأى خليفتهم يزيد بن عبد الملك (٢) ، فلما بلغ يزيد نبأ مقتل يزيد بن أبى مسلم أمر عامله على مصر بشر بن صفوان أن ينهض إلى إفريقية ويخلّف مكانه أخاه حنظلة (٣) ، فدخل بشر إفريقية فى نفس العام الذى قتل فيه يزيد ،

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ . وراجع تعليق فورنل على ذلك :
cf : FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 271, note 8.

(٢) ولم يستقر المغيرة فى الولاية إلا قليلا ، لأن ابنه خوفه من أن يظن الخليفة أنه شارك فى قتل يزيد بن مسلم اذا وجده والياً مكانه ؛ فاعتزل ، وولى أهل إفريقية مكانه محمد بن أوس الأنصارى ، وكان بتونس على غزو بحرها ، فأرسلوا إليه فولوه أمرهم ، ثم عزله يزيد ببشر ابن صفوان .
ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٥ .

(٣) F. WUSTENFELD, *Die Statthalter von Egyptenzur Zeit der Chalifen*; Goettingen 1875

وكان أول ما فعله هو أن أخذ عبد الله بن موسى بن نصير فقتله [١] . وتتبع أموال بنى نصير بالاستقصاء وأنصارهم بالتعذيب ، وعزل عن الأندلس الحر ابن عبد الرحمن الثقفى وولى مكانه كلبياً يمنياً هو عنبسة بن سحيم [٢] .

وظل بشر عاملا على إفريقية بقية خلافة يزيد وجزءاً من ولاية هشام حتى توفى فى شوال سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ — ٧٢٨ م واستطاع أن يهدئ أمورها بسبب ما أسرف فيه من استعمال القسوة البالغة [٣] ؛ ولم يسرف أحد من عمال بنى أمية الكلبيين فى العصبية لقومه كما فعـــل بشر ، فقد اشتد فى ذلك شدة ملأت نفوس القيسيين عليه حقداً ، وغدوا يترقبون موته بنافد الصبر ، وكان هو نفسه يشعر بذلك ، ومن دلائل هذا ما يذكره المالكى من أن جارية من جوارى بشر قالت وهو يعانى سكرات الموت : « يا شماتة الأعداء ! فقال لها : قولى للأعداء لا يموت ! » حتى لا يستطيرهم الفرح . وكأن بشراً خشى أن يقيم هشام على البلد رجلا قيسياً بعده ، فترك عليها العباس بن باضعة الكلبى والياً ورجا أن يثبته هشام فى الولاية . ولكن هشام بن عبد الملك انتهز فرصة وفاته ليولى مكانه قيسياً هو عبيدة بن عبد الرحمن ، وقد وقع دخوله إفريقية على نفوس الكلبية موقع الصاعقة ، حتى أن رأسهم العباس بن باضعة خارت قواه ولم تحمله رجلاه حينما بلغه النبأ [٤] (١١٠ هـ/٧٢٨ — ٧٢٩ م) .

---

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٤٧ .

(٤) ابن عبد الحـــكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

٥٠ – المغرب أثناء خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥–١٢٥هـ/ ٧٢٤–٧٤٣ م)

ولم يكن عبيدة بن عبد الرحمن على اقتداره وحسن رأيه بأحسن معاملة للبربر ممن سبقوه ، فقد أسرف فى مغازاة من بعُد من قبائلهم وسبى نسائهم حتى ليقال إنه عندما بارح إفريقية يريد المشرق سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ – ٧٣٣ م « كان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة ٧٠٠ جارية . وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية »[١] مما يدل على عسفه للناس وشدته معهم [٢] ، وكان إلى ذلك شديد الوطأة على كل من انتمى إلى آل نصير من العرب اليمنية والبربر الزناتية ، فآذى نفراً كبيراً منهم ، وكانوا من كبار أهل البلاد وأصحاب السلطان على نواحيهم [٣] .

بيد أن عبيدة كان يشعر أن الحال فى إفريقية لم يكن على ما يرام ، وأن ريح الثورة كانت تهب على البلاد ، بسبب سوء سياسته وسياسة من سبقه من ولاة إفريقية ، ولهذا سأل هشاماً أن يعفيه من الإمارة لغير سبب ظاهر ، فأعفاه ، وبارح إفريقية إلى المشرق بعد أن غل من المغرب من المال شيئاً كثيراً ، وبعد أن استبد بالبربر وباليمنية استبداداً بالغاً .

٥١ – عبيد الله ابن الحبحاب

وأقام هشام عامله على خراج مصر عبيد الله بن الحبحاب الذى ذكرناه والياً على إفريقية والأندلس فى ربيع الآخر سنة ١١٦ هـ/٧٣٤ م ، وبهذا أصبح هذا الرجل يحكم غرب الدولة الإسلامية كله من حدود مصر إلى جبال البرت ، وهى مساحة تزيد على نصف الدولة الإسلامية كلها . وكان بسط سلطان ابن الحبحاب على هذا النحو خطأ فادحاً ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء (طبعة دوزى) ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) ابن عبد الحـــكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

الأخبار المجموعة ص ٣١ — ٣٢ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٩ .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٣ .

السيوطى : تاريخ الخلفاء (طبعة القاهرة) خلافة هشام بن عبد الملك : ص ٤٨ — ٤٩ .

لأن الرجل كان رغم ثقافته الواسعة قيسياً مبالغاً فى قيسيته (١) ، ثم إنه كان إلى ذلك بعيداً عن الكياسة وبعد النظر اللازمين لرجل توكل إليه أمور مثل هذا الملك الشاسع يفعل به ما يريد .

كان أول ما فعله عبيد الله هو أن قسم ولايته على بنيه وأنصاره : جعل ابنه إسماعيل على السوس ، وولى ابنه عبد الرحمن على مغازى السودان ، وجعل على طنجة رجلا من أتباعه يسمى عمر بن عبد الله المرادى ، وجعل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى ، واحتفظ لنفسه بإفريقية لكى يكون فى مكان قريب من المشرق يستطيع أن يدير منه ولاياته جميعاً (٢) .

وكان عبيد الله بن الحبحاب كغيره من القيسية شديد العصبية العربية لا يكاد يقيم لغير العرب وزناً ، فجعل يعسف البربر لا يكاد يحفل بمشاعرهم ، وجعل كذلك يتتبع من وجد من اليمنية لا يكاد يعفيهم من عذاب شديد . وامتد أذاه إلى أتباعهم ومواليهم وفيهم أنصار بنى نصير الغاضبون لما أصاب هذا البيت الكبير من الأذى على يد هؤلاء القيسيين ، وكان من هؤلاء رجل يسمى عبد الأعلى بن جُرَيْج الافريقى وكان أصله رومياً ،وكان مولى لابن نصير ، وكان قد كون لنفسه عصبية بربرية كبيرة فى نواحى طنجة (٣) .

فإذا بلغ عسف القيسية ورئيسها فى الغرب الإسلامى كله عبيد الله بن الحبحاب هذا المبلغ ، فقد بدأت أنفس البربر تتطلع إلى الخلاص ، ولو قد كان عبيد الله وعماله على شىء من بعد النظر لاستشعروا اضطراب النفوس فى المغرب جميعه ، ولكنهم كانوا كما قلنا لا يكادون يحفلون لمشاعر هؤلاء البربر ، حسباناً منهم أنهم لن يستطيعوا قِبَلهم شيئاً . ويبدو أن قضاء بن

(١) النويرى : نهاية الأرب ٢ ص ٣٢ .
المقريزى : خطط (طبعة ڤييت) ، ج ٢ ، ص ٦١ – ٦٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٧ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

الحبحاب على ثورة أهل مصر قبل ذلك قد هون فى نظره شأن غيرهم من الشعوب التى كانت خاضعة لحكمه .

وبلغ من استخفاف ابن الحبحاب بالبربر أن أراد اعتبارهم جميعاً فيئاً للمسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، وكان الولاة قبله يقصرون هذا اللون التاسى من المعاملة على من لم يسلم من البربر ، من استأمن منهم ومن لم يستأمن ، فأبى عبيد الله إلا أن يزيد الأمر سوءاً بوضع مسلمى البربر موضع العبيد الذين تملك المسلمون رقابهم ، ومضى فى تنفيذ ذلك ، فكتب إلى رجاله بحصر خمس البربر واعتبارهم رقيقاً (١) ، ولم يكن عبيد الله ليستطيع أن ينفر البربر ويسىء إليهم بأكثر من هذا ، فهؤلاء قوم أسلموا ومنهم من اشترك فى جيوش المسلمين غازياً واندرج اسمه فى الديوان ، فكيف يعتبر بعد ذلك عبداً رقيقاً ؟

ولو اقتصرت المعاملة السيئة على البربر ونصارى الأندلس وحدهم لكان من الميسور تلافى الخطر إذا بقى العرب جميعاً يداً واحدة — وهم لم يكونوا قليلين فى إفريقية والأندلس — ولكن ابن الحبحاب كان مسرفاً فى قيسيته لا يكاد يعفى اليمنيين من شر ، فتغيرت نفوسهم عليه ، ولما كان أكثر عرب البلاد يمنيين ، فقد وقف القيسيون بسبب سياسة رئيسهم ابن الحبحاب من أهل البلاد جميعاً — عرباً وغير عرب — موقف العدو ، وغدا هؤلاء لاينتظرون إلا الفرصة الملائمة لينقلبوا على ابن الحبحاب والقيسية بل على العرب جملة .

ولم يكن الدعاة الذين تحدثنا عنهم ينتظرون فرصة هى أعظم من هذه ، فنفوس أهل البلاد تغلى والعرب منقسمون على أنفسهم ، وليس أهون عليهم فى مثل هذا الظرف من توجيه البربر وإرشادهم إلى طريق العمل . وسنرى من حوادث الثورة التالية أنها كانت مرتبة مقدرة ، وأن أيدى محركيها من خوارج العرب كانت ظاهرة لا تحتاج إلى طويل بحث ، وأغلب الظن أن هؤلاء الخوارج وفقوا فى إقناع البربر بأن الله لم يقصر حق القيادة والإمامة

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٤ .

على العرب وحدهم ، بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح . وأن حكام العرب حادوا عن الطريق القويم ، وأنهم — أى البربر — إذا وثبوا بالعرب لم يكونوا فى ذلك إلا منفذين لتعاليم الإسلام كما وردت فى القرآن ، وسنرى ذلك بوضوح حينما يعلن رئيسهم ميسرة نفسه إماماً ويتسمى بالخلافة ، وحينما يرفعون المصاحف على الأسنة كما كان خوارج المشرق يفعلون (١) .

ويبدو أن أعداد هؤلاء الدعاة من الخوارج كانت عظيمة في المغرب، لأن الأمان عند قبائله وفي شعابه كان مضموناً لهم، ولأن البربر كانوا ساخطين تتأجج نفوسهم بالثورة على العرب. فكثر مجيء هؤلاء الخوارج إلى المغرب واختفاؤهم بين قبائل البربر، ولم يلبثوا أن قلبوا المغرب كله رأساً على عقب. ولما كان هؤلاء الدعاة لا يستطيعون أن يقيموا في إفريقية أو في المغرب الأوسط لقرب هذه النواحي من مقام عامل بني أمية في القيروان، فقد تخيروا لمقامهم ولدعواتهم نواحي المغرب الأقصى البعيدة: إقليم طنجة ونواحي السوس الأقصى بوجه خاص، إذ كانت هذه النواحي موطن أكبر القبائل الزناتية وأكثرها استعداداً للثورة وهي برغواطة ومكناسة، وانضمت إليها كذلك أعداد قليلة من مصمودة.

٥٢ — ميسرة وبدء الثورة فى إقليم طنجة

وكان فى القيروان إذ ذاك رجل من قبيلة مطغرة ، يسمى مَيْسرة ، ويتفق معظم المراجع العربية على تسميته بالحقير أو بالحقور ، وتذهب إلى أنه كان يبيع الماء فى مساجد القيروان(٢) ، وليس ذلك بصحيح ، لأن ابن خلدون يؤكد أنه كان رئيس مطغرة (٣) أو لعله كان ينتسب إلى بيت كبير من بيوت هذه القبيلة ، ولأن

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .
البكرى : المسالك والممالك ، ص ١٣٤ .
النويرى : نهاية ، ج ١ ص ٣٤ .
(٣) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ص ١٥٠

ما سيلى من الأحداث يدل على أنه كان رجلا ذا عصبية لها خطرها ، والثابت أن ميسرة كان من رواد المجالس العلمية فى مساجد القيروان ، وانه كان ذكياً بعيد المطامع شديد الميل للمغامرة ، فوجدت مبادئ الخارجية الصفرية سبيلها إلى نفسه فاعتنقها ، ووقر فى نفسه أن ينشرها فى بلاده ، واتجه بصره إلى مواطن مطغرة فى إقليم طنجة ، فمضى إلى هذه الناحية واندس بين جماعات قومه مطغرة ، وأخذ يكسب لنفسه الأنصار ويؤلبهم على العرب وحكامهم ، فلم يلبث أن استمالهم إلى رأيه ، فرفعوا راية العصيان ، ولم تلبث الدعوة أن امتدت حتى شملت مكناسة ، فأقبلت بجموعها وانضمت إلى ميسرة وقومه (١).

ولم تلبث برغواطة أن أعلنت الخروج يقودها داعية خارجى لا نكاد نعرف عنه شيئاً وهو طريف بن شمعون بن يعقوب بن اسحاق ومعه ابن له غلام يسمى صالحاً (٢) . وانضمت القبائل الثائرة بعضها إلى بعض وجعلت تترقب الفرصة لإعلان الثورة والخروج على بنى أمية ، وكان عامل طنجة لعبيد الله بن الحبحاب قيسياً شديد العصبية لقيس وللعرب هو عمر بن عبد الله المرادى ، فمضى يعسف البربر لا يكاد يحسب لشعورهم حساباً ، وكان ميسرة إذ ذاك نشيطاً فى دعوته ، فأعانه جهل عمر بن عبد الله المرادى وسوء سياسته على كسب قلوب الناس .

ثم سنحت الفرصة لميسرة وأصحابه للخروج على العرب علانية ، ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب أرسل قائده حبيب بن أبى عبيدة سنة ١٢٢ هـ/ ٧٣٩ م (٣) فى حملة إلى صقلية ، وأصحبه خيرة جنده ، فعجل ميسرة وأصحابه ينتهزون فرصة ابتعاد جند عبيد الله بن الحبحاب فيما وراء البحر ، فجمعوا أنصارهم ، وتسارعوا نحو طنجة وواليها عمر بن عبد الله المرادى ، واستولى

(١) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ج ١ ص ١٦٧
(٢) البكرى : المسالك والممالك ، ص ١٣٥
(٣) ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ص ١٥١
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٨

ميسرة عليها وقتل المرادى ، وانضم إليه عبد الأعلى بن جريج الإفريقى ومن معه من الأفارقة وموالى بنى نصير ، فأقامه والياً على طنجة ، ثم سار إلى نواحى السوس واستولى عليها ، وقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ، وبهذا خرج المغرب الأقصى كله من يد الامويين، وتحرج مركز عبيد الله ابن الحبحاب فى إفريقية وساء مركز المسلمين فى الأندلس (١) .

وجمع عبيد الله بن الحبحاب نفراً من خيرة جنده وقوّد عليهم رجلا من كبار عرب إفريقية هو خالد بن حبيب الفهرى ، وبعث إلى حبيب بن أبى عبيدة يتعجل عودته ، فلم يكد يعود ، حتى بعثه ومن معه من الجند ليشدوا أزر خالد ، والتقى العرب بقوات ميسرة على مقربة من طنجة ، فانهزموا وقتل منهم نفر عظيم ، وعاد ميسرة إلى مركزه فى طنجة منصوراً ، ثم ادعى الخلافة وتسمى بها، وبويع عليها (٢) . ويبدو أن النصر ذهب بصوابه . فأساء السيرة فى جماعته ، فلم يلبثوا أن قتلوه وولوا مكانه واحداً من كبار رؤسائهم هو خالد بن حميد الزناتى ، وكان خيراً من ميسرة وأقدر (٣) (١٢٢ هـ / ٧٣٩ — ٧٤٠) .

وتحرج مركز ابن الحبحاب فى إفريقية ، فبعث إلى عقبة بن الحجاج السلولى عامل الأندلس يطلب إليه الإسراع لعونه بمن يستطيع من الجنــد ،

(١) انظر عن ميسرة : ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨-٢١٩
ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٤-١٥
ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٣٩
ابن الأثير : الـكامل ، ج ٥ ، ص ١٤٢ .
ابن خلدون : العبر (طبعة دى سلين) ، ج ١ ، ص ١٣٧ و ١٥١ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٤ — ٣٥ .

(٣) ابن عبد الحـكم : فتوح ، ص ٢١٨ .
هنا يحـاول فورنيل الدفاع عن ميسرة ، على عهده من امتداح كل ثائر على المسلمين ، ويبدو فى هذه المناسبة افتعاله وتكلفه بصورة واضحة جداً :
cf : HENRI FOURNEL, *Les Berbères*, I. pp. 288-289.

فأسرع الرجل ، وحاول مهاجمة مواقع البربر فى طنجة فلم يستطع ، وعاد أدراجه (١) .

٥٣ — هزيمة الأشراف أوائل سنة ١٢٣ هـ (٧٤٠/٧٤١م)

وجيّش ابن الحبحاب جيشاً آخر احتفل فى تكوينــه وجعل فيه نفراً عظيما من أشراف عرب إفريقية والظاهرين منهم ، ورمى بهم قوات خالد بن حميد الزناتى ، فلم يكد هذا الجيش العربى — يقوده خالد بن حبيب الفهرى — يقارب طنجة ويلقى البربر ويشتد القتال بينه وبينهم حتى فجأه خالد بن حميد من خلف بعسكر عظيم ، فانهزم بعض أصحاب خالد بن حبيب وكـره هو أن ينهزم ، فألقى بنفسه هو وأصحابه فى أوار المعركة ، فقتل هو ومن كان معه ولم يسلم منهم أحد: « وقتل فى هــذه الموقعة حماة العرب وفرسانها ، فسميت وقعة الأشراف وانتقضت البلاد ومرج الناس . واختلفت الأمور على عبيد الله ، فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم » (٢) وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فغضب غضبة « مضرية » لفظاً ومعنى ، وقرر إرسال جيش عربى عظيم إلى إفريقية ليؤدب البربر ويقضى على ثورتهم ، وعزل عبيد الله بن الحبحاب فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ / ٧٤٠ . وقد أصاب بعزله إياه ، لأن الرجل كان قد تمادى فى سوء التصرف بعد هذه الهزيمة ، وكان دافعه الأول إلى ذلك الرغبة فى الانتقام لمقتل ابنه إسماعيل (٣) .

ويبدو أن ابن الحبحاب شك فى أن لعرب إفريقية يداً فى هذه الهزيمة ، فاتهم نفراً منهم بأنهم اتفقوا مع البربر والأفارقة على إيقاع الهزيمة بجيشه ، وكانت جماعة من هؤلاء العرب الإفريقيين تقيم فى تلمسان يرأسها موسى بن

(١) ISIDORI PACENCIS, *Chronicon*; *España Sagrada, VIII.* Cap. 61 in p. 302

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٥ .

(٣) « وبلغ ذلك هشـام بن عبد الملك ، فقال : أقتل هؤلاء الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من الغرب ؟ قيل : نعم ! فقـال : والله لأغضبن لهم غضبة عربية » — نفس المصدر والصفحة .

أبى خالد ، أحد موالى معاوية بن حديج أحد كبار قادة العرب الذين ساهموا فى فتح إفريقية بنصيب كبير ، وكان عامل تلمسان « وقد اجتمع عليه من تمسك بالطاعة . فقبض عليه ابن الحبحاب وقطع رجله ويده »[1] ثأراً لمقتل ابنه إسماعيل فأثار على نفسه بذلك العرب الإفريقيين أجمعين ، ودفعهم إلى الخروج عليه صراحة، واضطربت أمور البلاد كلها . وكان هذا — فى الغالب — هو ما حدا بهشام بن عبد الملك إلى الإسراع فى عزل ابن الحبحاب واستبدال غيره به[2] . وتم ذلك فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ هـ/٧٤٠ م .

٥٤ — كلثوم بن عياض القشيرى (١٢٣هـ/٧٤١م) استقر رأى هشام بن عبد الملك على أن يعهد فى ذلك إلى رجل من زعماء القيسية توسم فيه القدرة وبعد النظر وهو كلثوم بن عياض القشيرى ، ولم يكن هشام بأحسن حظاً فى هذا الاختيار منه يوم عهد فى إفريقية والأندلس إلى ابن الحبحاب : كان كلثوم بن عياض قيسياً شديد الاعتداد بقيسيته ، وكان فى نفسه إلى جانب ذلك غرور جعله يظن أن البربر قوم لا حيلة لهم فى الحرب ، وأنهم إذا كانوا قد انتصروا على عبيدة بن عبد الرحمن وعلى عبيد الله بن الحبحاب ، فإنما يرجع ذلك إلى جهل هذين وقلة اقتدارهما . وكان الخليفة قد أوسع عليه فى النفقة ، وأمر عمال مصر وطرابلس وإفريقية أن ينضموا إليه بكل ما يستطيعون من رجال وخيل وعدة ، فزاده ذلك غروراً . خرج كلثوم بعدد عظيم من دمشق ومرّ بمصر فاستصحب عدداً من خيرة جندها وكذلك فعل بطرابلس وإفريقية . فاجتمع له جيش عظيم[3] جعل على مقدمته قائد خيله باج بن بشر القشيرى[4]

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص٢١٩ — ٢٢٢ ويقال ان بلجا كان ابن أخيه : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٥ وراجع تعليق فورنل على هذا الجيش :

H. FOURNEL, *Les Berbères* : I, p. 292.

وكان فارساً شهماً إلا أنه كان أشد غروراً وعصبية من كلثوم ، وجعل على رجالته ثعلبة بن ثوابة الجذامى ، وكان من غلاة القيسية كذلك .

ويبدو أن كلثوماً عول على القتال حتى الموت ، لأنه أوصى بأن يخلفه بلج فى القيادة إذا أصابه شيء ، فإذا قتل بلج خلفه ثعلبة بن ثوابة .

٥٥ — العرب الإفريقيون كان جند إفريقية إذ ذاك مواقفين للبربر بناحية طنجة فى انتظار المدد من دمشق ، وكانت نواة هؤلاء الجند جماعة من العرب طال بهم المقام والعمل فى إفريقية حتى أصبحوا يعتبرون أنفسهم أفارقة لا يطمئنون إلى أحد من القادمين من المشرق ، مثلهم فى ذلك مثل عرب الأندلس إذ ذاك : كانوا يعتبرون أنفسهم « أهل البلد » ويتسمون بالبلديين ؛ وقد تكونت جماعات العرب الأفارقة من جند العرب الأول الذين استقروا أثناء الفتح أو بعده فيما راقهم من نواحى المغرب ، وقد جرت عادة هؤلاء العرب أن يستقروا فى النواحى بمن انضم إليهم أو صار فى ولائهم من البربر ، فاعتُبروا مواليهم واندمجوا فيهم مع الزمن ، وبهذا كثرت جموع هؤلاء العرب الإفريقيين البلديين وأصبحوا قوة سياسية لها خطرها . ولما كان هؤلاء العرب الأول هم الذين فتحوا البلاد، فقد أصبحوا يعتبرون أنفسهم أصحابها وملاك نواحيها، لا يكاد يجرؤ غيرهم من غير قبائلهم على الاستقرار معهم فيها . ووفد إليهم من بلاد العرب طوائف من أبناء عصبيتهم وانضموا إليهم فاشتدت بهم سواعدهم، ولما كان معظم من شارك في فتح إفريقية من العرب يمنيين فقد كثر جمع اليمنيين في إفريقية، كما كثروا في الأندلس، وانضمت إليهم جماعات من البربر الزناتية، وأخذوا ينظرون للقيسيين خاصة نظرتهم إلى عدو دخيل .

= ويقتصر ابن عذارى فى الجزء الأول من تاريخه على ذكر عدد الشاميين فى هذا الجيش وهم ١٢ ألفاً من الفرسان كان يقودهم بلج بن بشر (البيان ، ج ١ ، ص ٣٨) ، ثم يذكر فى الجزء الثانى أن عدة الجيش كله كانت ٣٠ ألفاً (البيان ، ج ٢ ، ص ٣٠) ويؤيده فى ذلك ابن القوطية (افتتاح الأندلس ، ص ١٤) ، أما ابن حيان فيجعل عدة الجيش ٧٠،٠٠٠ (أورد تلك الرواية المقرى فى نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢) .

ومن هنا نفهم السر في هذا النفور العنيف الذي أظهره عرب إفريقيه البلديين عندما أخذ ولاة القيسيين يتعاقبون على إفريقية تصاحبهم جماعات قيسية قليلة تريد الاستقرار في البلاد. ولنضف إلى ذلك أن عدداً عظيماً من فاتحي إفريقية أنشأوا فيها أسراً من أهلهم وذريتهم، فأصبحت هذه الأسر مع الزمن ذوات جاه وسلطان بفضل من التف حولها من العرب والموالى والأتباع، وأصبحت لها رياسة على جماعات العرب والبربر في النواحي التي استقرت فيها، ومن بيوت هذه الأسر بيت بنى عقبة بن نافع وكان أقواها وأعظمها، وبيت معاوية ابن حديج، وبيت بني نصير. وكان لهذه البيوت الثلاثة النصيب الأوفى من السلطان في إفريقية خلال العصر الأموي، بل صارت الأمور أخيراً إلى بيت عقبة بن نافع ممثلاً في شخص عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة[1].

وكان هؤلاء العرب الأفارقة « البلديون » مقيمين جماعات ، كل جماعة فى ناحية عليهم رئيس منهم يقوم بشئون الإقليم لحساب عامل إفريقية فى القيروان . وقد سجل المؤرخون لنا منهم جماعات قوية فى طرابلس وسبرت وقابس والقيروان ، ومن شخصيات هؤلاء العرب الإفريقيين فى ذلك الحين : حبيب بن ميمون (سبرت) وعبد الرحمن بن عقبة الغفارى ، ومسلمة بن سوادة القرشى (القيروان) وصفوان بن أبى مالك (طرابلس) وسعيد بن بجرة الغسانى (قابس) وحبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع . ويبدو أنه كان رأس هؤلاء العرب الأفارقة جميعاً ، وكان مقيما إذ ذاك بجموع من هؤلاء العرب عند طنجة مواقفاً لخالد بن حميد الزناتى زعيم البربر الثائرين وخليفة ميسرة [2] .

(١) راجع تراجم عقبة بن نافع ورويفع بن ثابت الأنصارى ومعاوية بن حديج وربيعة ابن عباد الديلى وزياد بن الحارث الصدائى وأبى عبد الرحمن بن بسر بن أرطأة وأبى عبد الرحمن عبد الله بن زيد (الإفريقى) ومن بعده من التابعين فى :

المالكى : رياض النفوس ، جـ ١ ص ٤١ وما يليها .

الدباغ : معالم الايمان ، جـ ١ ، ص ٩٩ وما يليها .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ – ٢٢٢ .

ولم تكن العلائق بين هؤلاء العرب الأفارقة النازلين مدائن إفريقيـة وأريافها وبين البربر من أهل البلاد على ما يرام ، لأن العرب جميعاً كانوا لا يطمئنون إلى البربر بعد هذه الحرب الطويلة التى كانت بين الجانبين أيام الفتح . ولأن العرب الأفارقة كانوا يعدون أنفسهم سادة البلاد وأهلها ، ولأنهم كانوا إلى ذلك عماد الحكام وولاتهم على النواحى ، فكرههم البربر لذلك وحملوهم تبعات مظالم هؤلاء الحكام ، وكان من هؤلاء العرب البلديين قدامى معظمهم من اليمنيين منذ أيام موسى بن نصير وبنيه وجُدَد غالبيتهم من القيسية ، وكان الفريقان متعاديين كما لاحظنا [1] .

لهذا كان طبيعياً أن تكون ثورة البربر في إقليم طنجة إيذاناً بثورة عامة جديدة من البربر جميعاً على من بين أظهرهم من العرب، سواء أكانوا من رجال الدولة وجندها أو عرباً مستقرين مسالمين. ومن هنا فإننا لا نستطيع القول بأن هذه الثورة كانت في صميمها ثورة بربر على عرب، بل كانت فتنة عامة بين جماعات متنافرة، ولم يكن معظم المشتركين فيها يميلون إلى بني أمية، ولهذا فقد كانت الحركة في جملتها فتنة افريقية عامة وثورة على بني أمية.

٥٦ - ثورة البربر على العرب في طرابلس

وصل كلثوم بن عياض إفريقية، ولم يشأ أن يريح بالقيروان، بل أراح ببليدة سَبيبة على مقربة منها (شوال ١٢٣ / أغسطس ٧٤١). ثم انصرف بجموعه إلى ناحية طنجة مخلفاً على إفريقية عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ومسلمة بن سوادة القرشى. فلم يكد

(١) تذكر المراجع في أخبار ولاية عبيدالله بن الحبحاب قصة تصور لنا هذا العداء بصورة واضحة، ملخصها أن عبيدالله لم يكد يلي افريقية حتى قدم عليه عقبة بن الحجاج السلولي، وكان الحجاج - أبو عقبة - قد أعتق الحارث جد عبيد الله، أي أن بنى الحارث - وهم بنو الحبحاب وغيرهم - كانوا موالي الحجاج السلولي وبنى سلول، فقام ابن الحبحاب لعقبة وشرفه، فأنكر أولاده ذلك، وخشوا أن يحط من قدرهم في نظر عرب افريقية، ولاموا أباهم في ذلك. فانتظر ابن الحبحاب حتى اليوم التالي، فلما اجتمع الناس وعمر المجلس استقدم عقبة وأعلن إليه أمام الناس أنه وليه وخاطب أولاده مؤنباً إياهم على عقوقهم نحو الحجاج وبنيه، فخجل الأولاد من أنفسهم. وهذا يدل على أن أولاد عبيدالله كانوا يعتبرون أنفسهم عرباً أفارقة، أي من أصحاب البلاد، فكرهوا أن يسودهم هذا المشرق المقبل ويحط من قدرهم، وهم في هذا يعبرون عن شعور العرب الأفارقة عامة نحو من كان يقبل من العرب، انظر: الأخبار المجموعة، ص ٢٦ - ٢٧.

يبتعد عنها حتى نهض زعيم من زعماء زناتة يسمى عكاشة بن أيوب الفزاري ـ وكان من الخارجية الصفرية ـ فجمع جموعه بناحية قابس، وأرسل أخاً له في نفر من البربر، فحصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سبرت، وأقام محاصراً لهم حتى خف لنجدتهم صفوان بن مالك رأس عرب طرابلس، فانهزم البربر إلى قابس، وكان عرب القيروان قد علموا بالأمر وخفوا مع أميرهم مسلمة بن سوادة إلى قابس لنجدة عرب هذه الناحية والقضاء على ثورة البربر، والتقى الجمعان بأحواز قابس، فانهزم العرب وعادوا مفلولين إلى القيروان حيث أقبل البربر يحاصرونهم بها[1].

بهذا زاد مركز عرب إفريقية حرجاً : انهزمت قواتهم عند قابس وحاصرهم البربر فى القيروان ، وانهزمت قواتهم عند طنجة قبل ذلك ، وأقام خالد بن حميد الزناتى مواقفاً لمن بقى منهم على نهر سبو ، وأخذ يؤلب بقية البربر عليهم ويستعد لمعركة فاصلة جديدة بينه وبينهم .

٥٧ – الخلاف بين العرب الأفارقة وكلثوم بن عياض ومن معه من القيسية

فى هذه الظروف العصيبة كان كلثوم بن عياض ومن معه يقتربون من طنجة ليلقوا البربر ، ولو قد كان كلثوم حسن السياسة لتودد إلى عرب إفريقية وكسب قلوبهم حتى يقف العرب جميعاً جبهة واحدة أمام الخطر الداهم ، ولكنه لقى هؤلاء العرب بمعاملة نفرتهم منه وصرفتهم عن عونه . وكان كما قلنا قيسياً جافياً شديد الاعتزاز بنفسه : أنف أن ينزل القيروان وأراح فى سبيبة ، ثم تقدم نحو طنجة وبعث يأمر حبيب بن أبى عبيدة رأس عرب إفريقية بأن يقيم مكانه لا يصنع شيئاً حتى يقدم عليه . وكان بلج بن بشر على مقدمة كلثوم كما قلنا ، ولم يكن أقل عصبية ولا كبرياء من كلثوم . فلم يكد يلقى عبيدة حتى أهانه وحقره ، وأعلن إليه أن الشآمية قد عولت على المقام فى إفريقية واتخاذها داراً ، فحز هذا فى نفس الأفارقة وأخافهم على ما كان لهم من المكانة في البلاد[2]. وزادهم نفوراً من بني اميَّة والشاميين عموماً.

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ٤١ .

وبعث حبيب بن أبى عبيدة إلى كلثوم يشكو إليه ابن أخيه ، فلم يلق عنده إنصافاً كافياً ، فامتلأت نفس أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ونفوس من معه من العرب البلديين سخطاً على الشآمية وخوفاً منهم . ثم وصل كلثوم إلى نواحى طنجة ولقى حبيباً ، فعامله نفس المعاملة التى عامله بها بلج قبل ذلك ، وتقدم أبو عبيدة بن عقبة (أبو حبيب) يريد نصح كلثوم فرفض نصيحته وأهانه ، وبهذا انقسم المعسكر العربى قبل المعركة إلى فريقين ينطوى أحدهما على اللدد نحو الآخر : فريق العرب الأفارقة على رأسهم أبو عبيدة بن عقبة وابنه حبيب بن أبى عبيدة وحفيده عبد الرحمن بن حبيب ، وفريق الشآمية المقبلين وعلى رأسهم كلثوم بن عياض وبلج بن بشر ، فكان لهذا الانقسام أسوأ الأثر فى مجرى الحوادث [1] .

وكأنما أراد هشام بن عبد الملك أن يزيد الموقف تعقيداً ، فأمر كلثوم أن يسير وفق التوجيهات التى يرسمها له هرون القرنى مولى معاوية بن هشام ومغيث الرومى مولى الوليد ، وقد أمره الخليفة بهذا بحجة أنهما أعرف ببلاد إفريقية ، [2] وكان أولى به أن يأمره بالاتفاق مع العرب الأفارقة ، لا بطاعة هذين المولين اللذين سيزيدان الأمر تعقيداً وحرجاً . ويبدو أن هشاماً أراد أن يكونا رقيبين على كلثوم ، لأن الجيش الذى كان معه كان عظيما جداً ، كانت عدته تبلغ السبعين ألفاً على قول بعض المؤرخين .

(١) يقول ابن عبد الحكم فى وصف هذه الحالة النفسية التى سادت الجانبين : « وكان كلثوم حين خرج إلى البربر قد قدم بلج بن بشر القيسى على مقدمته فى الخيل ؛ فلما قدم على حبيب رفضه وأهان منزلته ، ثم قدم كلثوم فتلقاه حبيب فتهاون به أيضاً ، ثم خطب كلثوم الناس على ديدبان له فطعن فى حبيب وشتمه وأهل بيته ... » – ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ – بل بلغ من اضطراب النفوس أن دار القتال بين الجانبين قبل أن يلقوا البربر ، ولم يستطع كلثوم إقرار السلام إلا بعد جهد . وكان بلج بن بشر من أكثر الناس عصبية لقيسيته ، وهو المسئول عن كثير مما نزل بالعرب فى افريقية والأندلس من البلاء فى ذلك الحين .

ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٤١ – ٤٢ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ .

وليس أدل على ما كان بين الحيين من النفور من أن العرب البلديين كانوا يغلقون أبواب مدنهم إذا سمعوا بمقدم الشآمية ، ويبدو أن بلجاً لم يدخر وسعاً فى زيادة نفورهم ، فجعل يقول انه إنما أتى ليستقر بمن معه فى إفريقية كما ذكرنا ، ولم يكن ليستطيع أن يثير نفوس الأفارقة بأكثر من هذا ، لأن معظم من كان قد استقر فى إفريقية إلى الآن كانوا يمنية كلبية ، وكان مجرد التفكير في إقرار بضعة آلاف من القيسية الشامية معهم في نواحيهم كافياً لإثارة نفوسهم وإذكاء نار العداوة فيها، هذا إلى أن القيسية كانت فيهم جفوة وقلة كياسة وشدة في العصبية، فكانوا لا ينزلون بلداً إلا أثاروا أهله ـ عرباً أو غير عرب ـ هكذا فعلوا في خراسان وفي شمال إفريقية وفي الأندلس.

٥٨ – هزيمة العرب عند بقدورة

على هذه الحال التقى الجيش العربى مع البربر يقودهم خالد بن حميد الزناتى عند بليدة تسمى بقدورة أو نقدورة على مقربة من تاهرت قرب مصب نهر مَلَوِيَّة[١]، وقد رأى هرون القرنى ومغيث الرومى أن أعداد البربر عظيمة جداً ، وخافا على العرب منها . فنصحا كلثوماً بأن يضرب حول معسكره خندقاً . ولكن الغرور ملأ نفس بلج ، وظن أنه إذا جال بخيله لم يلبث البربر أن يتفرقوا ، وغاب عنه أن البربر قوم ذوو جلد على الحرب وحيلة فى الميدان . فصنعوا أكياساً من الجلد ملأوها بالحجارة ، وأخذوا يقذفونها على رؤوس الخيل ،

(١) بين المؤرخين خلاف حول مكان هذه الموقعة ، فيذهب الرازى إلى أنها كانت على نهر ملوية (روى ذلك ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ١٥٢) ، ويذهب ابن عذارى وابن خلدون إلى أنها كانت على نهر سبو (ابن عذارى : البيان ، ج ١ ص ٤٧ وابن خلدون : العبر ، ج ١ ص ١٣٧) ؛ أما صاحب الأخبار المجموعة فيذهب إلى أن الموقعة كانت عند بليدة تسمى نقدورة أو بقدورة (الأخبار ، ص ٣١) ، وجعلها ابن القوطية بفدورة (بالفاء) – انظر الافتتاح ، ص ١٥ ، ولم نجد بليدة بهذا الاسم فى هذه الناحية من افريقية ، وربما كانت صحة الاسم بقدورة بالباء ، فقد ذكر ابن خلدون بليدة بهذا الاسم دون أن يحدد موقعها . وقد رجحنا رأي الرازي وابن خلدون راجع : العبر (طبعة دي سلين)، جـ ٣٥٤. وانظر أيضاً:
FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 294 n. 1.

فنفرت وروعت ، ولم يستطع الفرسان القتال عليها ، فأمرهم كلثوم أن يترجلوا ، ولم يكن البربر يرجون خيراً من ذلك ، فانقضوا على العرب وأحاطوا بهم ، وأعملوا فيهم السيوف ، وتبدت طلائع الهزيمة لكلثوم ، فخاطب حبيب بن أبى عبيدة وعرض عليه قيادة الجيش ، فقال حبيب : قد فات الأمر ! ثم اشتد القتال وأحاط البربر بالعرب حتى كادوا يأتون عليهم أجمعين ، فلما رأى حبيب ذلك عزم على الاستشهاد وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يلزم بلجا ، وقاتل حتى قتل ، وهكذا أبدى هذا العربى الفهرى من الشهامة والبسالة ما يملك النفس ، وراح ضحية شدة القيسيين وعصبيتهم .

وكان بلج قد رفض أن ينزل عن جواده وبقى معه نحو عشرة آلاف ، فحملوا على البربر فى عنف حتى اخترقوا صفوفهم ووصلوا خلفهم ، ثم استدار لهم البربر وكاثروهم حتى اضطروهم إلى الفرار ، ففروا – يتقدمهم بلج – فى اتجاه طنجة . وأما بقية العرب فقد أحاط بهم البربر واشتدوا فى قتلهم حتى قتل هرون ومغيث وحبيب بن أبى عبيدة وكلثوم نفسه . وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب ، حتى ليؤكد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربى الكبير قد قتل وأن ثلثه الآخر راح أسيراً ، وأما الباقون فقد تفرقوا فلولا مهزومة لا تكاد تلوى على شىء بعد السلامة [١] (١٢٤ هـ) .

انهزم بلج وأصحابه من الشآمية إلى الغرب « واتبعهم أبو يوسف الذوارى ، وكان طاغية من طواغيت البربر ، فأدركهم فقاتلهم . فقتل أبو يوسف وانهزم أصحابه » [٢] واستطاعوا آخر الأمر أن يدخلوا سبتة ويتحصنوا بها ،

(١) ابن عبد الحكم : افتتاح ، ص ٢٢٥ .
ISIDORI PACENCIS, *Cronicon*, cap. 68-69.
الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ .
ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٥ .
النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ .
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

وأقبل البربر يحاصرونهم ويهاجمونهم المرة بعد المرة ويحاولون الاستيلاء على هذا البلد منهم ، فلم يستطيعوا ، فلما يئسوا قطعوا الزروع حول الحصن ، وأقاموا مشددين الحصار حوله حتى عدم بلج وأصحابه الأقوات وساءت حالهم كثيراً .

وزادت ثورة البربر والخوارج في إفريقية عنفاً، وقام من البربر في كل ناحية زعيم يقود مواطنيه في هذا الكفاح: قام أبو يوسف الهواري يقود بربر إقليم طنجة ويقاتل بلجاً ومن معه، وتجمعت جموع عظيمة منهم في ناحية الزاب يقودها قائدان بربريان هما عكّاشة بن أيوب الفزاري الصفري الخارجي وعبد الواحد بن يزيد الهواري، وأخذا يستعدان للسير نحو القيروان، فلما أتما العدة سار عكاشة على طريق مجّانة واقترب من القيروان وعسكر عند «القَرن»، وأما عبد الواحد فسار على طريق الجبال واقترب من القيروان وعسكر عند طُبْنة، وكان على مقدمة جيشه أبو قرة المغيلي[1]. وكان ابو قرة من كبار زعماء الخوارج. وكان قد نادى بنفسه إماماً. وكان بربرياً مستعربا من قبيلة مغيلة.

٥٩ ـ جيوش الخلافة تتدخل

وكانت هزيمة «الأشراف» قد روعت هشاماً وملأت نفسه خوفاً من ناحية البربر، كما رأينا، ثم وقعت هذه الهزيمة عند بقدورة فكانت ضغثاً على ابالة، وأحس أن المسألة ليست باليسر الذي تصوره، وأن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيجتها خروج المغرب والأندلس جملة عن طاعة الخلافة، فعجل بتخير نحو ثلاثين ألفاً من خيرة جنده بعثها إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر، وأمره بالإسراع إلى إفريقية، فوصل حنظلة القيروان بجنوده في ربيع الأول سنة ١٢٤/ ٧٤١م، وأخذ يرسم الخطة للقضاء على هذه الثورة الخطرة. وكان هشام ـ رغم مرضه ـ دائم الاتصال بحنظلة وجيشه لتوجيههم والاطمئنان على مصيرهم، وتحدثنا المراجع أنه هو الذي رسم لحنظلة خطة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .
النويرى : نهاية الأرب ، ص ٢٧ .
وراجع : FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 299 n. 2.

العمل، فنصحه بأن لا ينتظر حتى يجتمع الجيشان البربريان عليه، وأن يعجل بحرب كل منهما على حدة[1].

وقد فعل حنظلة ذلك: خرج للقاء عكاشة ومن معه عند القرن ، فالتقى بهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً، وقتلهم قتلا ذريعاً. ويبدو أنه خسر عدداً عظيماً من جنده في هذه الوقعة،لأنه عاد الى القيروان بعدها ليستعد للسير الى جمع البربر الثاني المعسكر على مقربة من طُبْنة يقوده عبد الواحد بن يزيد الهواري وأبو قرة المغيلي.

يذكر النويري أن عبد الواحد كان في ثلاثمائة ألف[2]، وظاهر أن تقديره هذا مبالغ فيه، لأنه لو كان في هذا العدد العظيم حقاً لما استطاع حنظلة الانتصار عليه بالعدد القليل الذي كان معه، ولكن الثابت ان حنظلة بذل أقصى جهده في الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة، وأنه تناسى قيسيته في هذه اللحظة الحاسمة، وجمع العرب جميعاً، أفارقة وغير أفارقة، على لواء واحد للدفاع عن مصير العرب ومذهب السنّة والجماعة في افريقية «فأخرج مافي الخزائن من السلاح، ونادى في الناس فكان يعطى لكل منهم درعاً وخمسين ديناراً، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس، فرد العطاء الى أربعين ثم الى ثلاثين، ولم يقدم الا شاباً قوياً. فعبأ الناس طول ليلته، والشمع حوله وبين يديه، فعبأ في تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل. وأصبح وقدم للقتال، وكسرت العرب جفون سيوفها، والتقوا، ولزم الرجال الأرض، وجثوا على الركب، وكان ذلك بمكان يسمى «الأصنام» على وادي نهر شلف جنوب غربي مدينة الجزائر الحالية، واشتد القتال وصبر العرب صبر الفناء»[3]. وكان عكاشة قد أسر في القرن، فأمر به

(١) الأخبار المجموعة، ص ٣٧.
(٢) النويري: نهاية الأدب، ج ١ ص ٣٧.
(٣) وبعث حنظلة أبا الخطار والياً على الأندلس. وأمره أن يبعث إليه مدداً من جندها، «

حنظلة فقتل صبراً[١]، وانتهت المعركة بانتصار العرب، وقتل فيها عبد الواحد، وانقصم ظهر الثورة وأخذت البلاد تهدأ، وكان ذلك سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م. ومات هشام قبل أن تصله أخبار هذا النصر، وخلفه الوليد بن يزيد، فأقر حنظلة على ولاية افريقية، وساد السلام ربوعها أثناء خلافته القصيرة، لأن حنظلة كان معتدلاً في عصبيته، فأخذ عرب البلاد يطمئنون الى مصيرهم، ولزم البربر السكون بعد هذه الهزائم القاسية. وكان انتصار حنظلة انتصاراً لمذهب السنة والجماعة، فمن ذلك الحين رجحت كفة السنة على الخارجية ولهذا يعتبر أهل السنّة من المغاربة هذه المعركة معادلة لمعركة بدر الكبرى.

ولكن الأخبار لم تلبث أن وردت بمقتل الوليد بن يزيد في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ / أبريل ٧٤٤م، وكان الوليد شديد العصبية للقيسيين دائم الانتصار لهم، وكان مقتله ايذانا بانتصار أعدائهم اليمنيين وعودتهم الى السلطان. ولهذا ريع القيسيون في افريقية عندما بلغهم النبأ، وخافوا أن ينقلب عليهم اليمنيون والبربر الزناتيون يؤازرهم الخليفة الجديد وأنصاره. فخرج الى الشام نفر من كبارهم وجندهم، وبقي حنظلة في نفر قليل من القيسية[٢].

= ويبدو أنه لم يوفق إلى شيء، لأن حال العرب في الأندلس لم يكن حسناً كما سنرى. عن معركتي القرن والأصنام انظر: ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢٢١ – ابن القوطية: افتتاح، ص ١٥ – ابن عذاري: البيان، ج ١، ص ٤١ – الأخبار المجموعة، ص ٣٦ – ٣٧ – النويري: نهاية الأرب، ج١، ص ٣٧؛ والنص الوارد هنا عن النويري. هذا والأصنام موضع كانت فيه آثار رومانية قديمة في ذلك الحين. وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكانه، وأقرب آرائهم الى الصحة هو ما يذهب الى أن الأصنام تقع على ثلاثة أميال شمال القيروان على مقربة من جلولاء. راجع: FOURNEL, *Berbères*, I. p. 300 n. 4

(١) ابن عذاري: البيان، ج ١، ص ٤١.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ج ١، ص ٢٢٣.

٦٠ – ظهور أمر عبد الرحمن ابن حبيب

ويبدو أن القيسيين كانوا على الحق فيما تخوفوا من انقلاب اليمنيين عليهم، لأن رأس هؤلاء العرب الأفارقة البلديين، عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع لم يلبث أن بادر الى العمل.

كان عبد الرحمن مع بلج بن بشر فى الطائفة التى انهزمت الى سبتة عقب هزيمة الأشراف، اذ كان أبوه حبيب بن أبى عبيدة قد أمره بأن يلزم بلجا، فلما انهزم بلج والجأ الى سبتة. تركه عبد الرحمن ومضى الى الأندلس ليلقى أميرها اذ ذاك عبد الملك بن قطن الفهرى — اليمنى مثله — وجعل يثيره على بلج وأصحابه ويخوفه منهم. فلما تسامع بموت الوليد وخروج معظم القيسية الى الشام عاد الى افريقية معجلا، وجمع أصحابه الأفارقة وعسكر بهم فى مكان يعرف بسبخة سجوم فى أوائل سنة ١٣٧ هـ / ٧٤٥ م[١]. وقرر أن ينتهز الفرصة ويخلص افريقية من القيسية جملة. فكتب الى حنظلة ومن معه يطلب اليهم ترك القيروان واخلاء البلاد، وأمهلهم ثلاثة أيام. وشاء حنظلة أن يقاوم، ولكنه رأى قلة من معه. وبلغته أنباء اضطراب الأمر على الأموية فى الشرق، فقرر ترك افريقية والعودة الى المشرق.

ويبدو أن حنظلة لم يقرر ذلك مختارا بل مضطرا، فقد بدا له من اختلاف عرب افريقية عليه وتواطئهم مع عبد الرحمن بن حبيب ما أخافه وزهده فى المقام بهذه البلاد. فقد حدث بعد انتصاره فى موقعتى القرن والأصنام أن أمر قائده على طرابلس معاوية بن صفوان أن يخرج لحرب نفر من الصفرية من نفزاوة، فخرج اليهم وحاربهم وانتصر عليهم ولكنه

(١) النويرى: نهاية الأرب، ج ١، ص ٣٩.

قتل فى المعركة ، وأرسل بعد ذلك بقليل نفرا من وجـوه العرب الى عبد الرحمن ليصالحوه وليردوه الى الطاعة ، فاستمالهم هذا بالأموال فانقلبوا على صاحبهم الذى أرسلهم [1] ، وضاقت الأمور بحنظلة ، واستبان أن أمر بنى أمية كله الى زوال ، وطمع فيه عبد الرحمن بن حبيب، فجمع أصحابه ومضى بهم الى القيروان.

٦١ ـ عبد الرحمن ابن حبيب يحتل القيروان

واحتل عبد الرحمن بن حبيب القيروان واستقر بها أميـراً، وصار الأمر فى المغرب بعد هذا الكفاح الطويل للعرب الأفارقة البلديين بعد نزاع طويل مع البربـر حينا والعـرب المشارقة القيسية حيناً آخر، وكان ذلك في جمادي الآخرة سنة ١٢٧هـ/ أبريل ٧٤٥[2]

٦٢ – ختام النزاع بين القيسية واليمنية فى إفريقية

كان انتصار عبد الرحمن بن حبيب وسيادته على افريقية ختاما للنزاع بين القيسية واليمنية فى افريقيـة ، لا لأن الفريقين انتهيا الى التفاهم والسلام بعد هـذه المنازعات الخطرة ، بل لأن توالى الحروب مع البربر حينا وبينهم وبين أنفسهم حينـا كان قد انتهى باضعاف العرب جميعا فى المغرب ، فـلم يعـد لديهم من القـوة ما يمكنهـم من طلب السـيادة على هذه البـلاد الواسعة . ثم ان زمان سيادة العنصر العربى فى الدولة الاسلامية كان قد ولى بزوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مكانها

(١) ابن عبد الحـكم : فتوح، ص ٢٢٣ .

(٢) ابن عبد الحـكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .
الأخبار المجموعة ، ص ٢٣ – ٣٥ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤١ – ٤٣ .
ابن الأثير : الـكامل ، ج ٥ ، ص ٤٣ .
ابن الأبار : الحـلة السيراء ، ص ٥١ .

بعـد ذلـك بسنـوات (١٣٢هـ / ٧٤٩ ـ ٧٥٠)، فلم يعـد لعـرب افـريقيـة ـ قيسية ويمنية ـ أي رجاء في أن تقف الدولة الى جانبهم وتؤيد هذا الفريق منهم أو ذاك على هذا النحو الذي جرى عليه خلفاء بني أمية.

ولم يكن انتصار عبدالرحمن بن حبيب انتصاراً للعنصر العربي في الواقع، وانما كان انتصاراً لهذه الطائفة الافريقية من العرب التي كانت زناتة تؤيدها وتشد أزرها وهي طائفة العرب البلديين، ولهذا نستطيع القول أن انتصاره كان انتصارا لزنـاتة من بعض الوجوه، ومصداق ذلك أن الأمر لم يَصْفُ لعبد الرحمن بن حبيب شهراً واحداً بعد ولايته تلك ، فقد بـايع لمـروان بن محمد، فلما قتل بايـع لأبي جعفر المنصـور ثم اختلف معه وخلـع طاعتـه، واستقل بأمره، ولم يلبث النزاع أن دب بينه وبين من كان معه من العـرب، وانتهى الأمر بقتله على يد أخيـه الياس بن حبيب سنـة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ ـ ٧٥٦م. ولم يكن الياس بأحسن حظاً من أخيه، لأن الحـرب استعرت بينـه وبين ابن أخيه حبيب، وقتل بعد ستة أشهر، وخلفه ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن الذي لجأ إلى بربر ورفجومة وكانـوا خوارج وسـار رئيسهم عاصم بن جميل وهو ابن اخت طارق بن زياد ودخل القيروان وقضى عـلى بقية بني حبيب. ولم تدم ولايته أكثر من ثمانيـة عشر شهرا كلهـا حروب ومنـازعات، وانتهى أمره وأمر بيت حبيب كله في المحرم سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م.

وسنحت الفرصة لورفجومة احدى قبائل البربر الزناتيين، بعد ان دخـل رجالها القيروان وسيطروا على افريقية فترة قتلـوا من العرب خـلالها نفـرا كثيراً، ولم ينته أمرهم الا بعد أن أرسل أبو جعفر المنصور واليـه على مصر محمد بن الأشعث في أربعين ألفا: «ثلاثـين ألفا من أهـل خراسـان وعشرة آلاف من أهـل الشام» كـان فيهم الأغلب بن سـالم بن عقـال بن خفـاجـة التميمي الذي صارت اليه الأمور كلهـا في المغرب في جمـادي الآخرة سنـة ١٤٨هـ / ٧٦٥ ـ ٧٦٦م بفضل من كان معه في جيشه من الخـرسانيـين،

وبفضل من انضم اليه من البربر[١].

بيد أننا ينبغي أن نقرر أن ما ذكرناه من انتصار محمد بن الأشعث ومن آزره من العرب الأفارقة والبربر لم يكن ختاماً للفتنة الافريقية والثورة على الشاميين، لأن حركات الخوارج الصفرية والأباضية استمرت بعد ذلك أشد ما تكون استعارا وقوة. ولكي نفهم هذا حق الفهم نعود إلى تفصيل ما اجملنا من تاريخ عبد الرحمن حبيب وآله في افريقية.

٦٣ – البربر يستقلون بنواحيهم ذلك أن الأمر لم يكد يستقر في القروان حتى ظنت قبائل البربر أن أمر العرب قد ولى مع أمس الدابر جملة، وأنهم الآن في حل من أن يستقلوا بما يسيطرون عليه من النواحي، فقام في كل ناحية زعيم بربري وأعلن نفسه أميراً: قام عروة بن الوليد الصدفي واستولى بجماعات من البربر على تونس، وأعلن أبو العطاف الأزدى استقلاله بطبيناس، واقتطع ثابت الصنهاجي وقومه باجه لأنفسهم وانضم اليه عبد الله بن سقرديد، وقامت جماعات من أباضية هوارة يقودها عبد الجبار والحارث الهواريان واستولت على ناحية طرابلس وقتلوا عاملها بكر بن عبس القيسى[٢]، وخاض عبد الرحمن بن حبيب وأخوه الياس من بعده مع هؤلاء الثائرين حروبا طويلة عنيفة استمرت سنوات.

ثم وقع الخلاف بين أفراد بيت بني حبيب أنفسهم، فتحارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه الياس، وتعصب لكل نفر منهم فريق من العرب الافريقيين حتى اضطربت أحوال البلاد واشتعلت ناراً من جديد، وانتهى

---

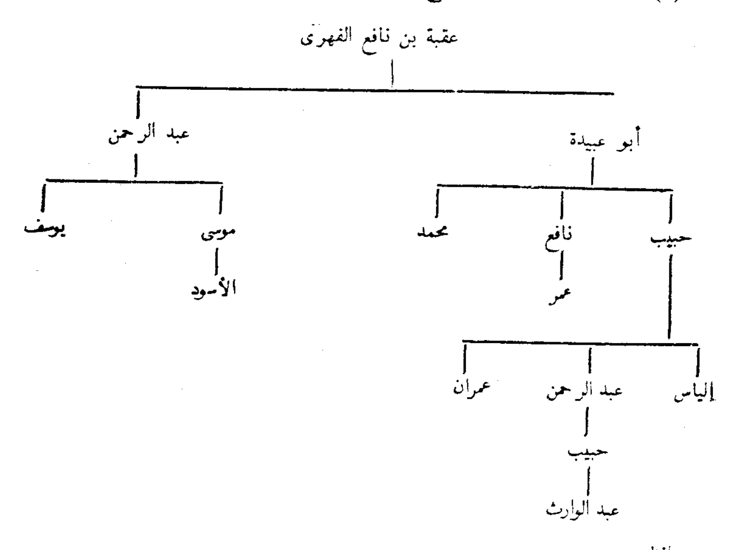
(١) انظر التفاصيل فى :
النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ٤٠ – ٤٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٤٨ وما يليها .
ابن خلدون : العبر ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .
النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٨ وما يليها .

الأمر بأحدهم وهو عبد الوارث قائد جند الياس وتمكن الياس من قتل أخيه عبد الرحمن بن حبيب، فهرب ابنه حبيب الى ورفجومة إحدى بطون نفزة والاستعانة بها على إدراك ثأر عم أبيه عبد الرحمن بن حبيب[١]. فنصرته ورفجومة وشيخها عاصم بن جميل ثم وضع الخلاف بين عاصم بن جميل وحبيب وانتهى الأمر بموت هذا الأخير، وأصبحت هذه القبيلة الزناتية سيدة اقليم افريقية. فعجل شيخها عاصم ابن جميل وكان خارجياً صفريا بالمسير الى القيروان، وخرج أبو كريب جميل بن كريب قاضيها للقاء ورفجومة يقودها عاصم وأخوه مكرّم، فثبت لها ثباتا

---

(١) إليك شجرة بيت عقبة بن نافع فى افريقية .



أنظر :
ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤
ابن خلدون : العبر ، جـ ١ ، ص ١٠٩ وما يليها وص ١٣٠ وما يليها .
ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٠ وما يليها .
النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ٤٠ – ٤٣ .

كريما بظاهر القيروان، ثم انهزم وهلـك هو ومن بقي معه.

ودخلت ورفجـومة القيـروان في ذي الحجة سنـة ١٣٥/ ٧٥٣م، وهكذا سقطت عاصمة المغرب الاسلامي في يد البربـر الخوارج الـزناتيـين، فكان هذا الحادث ايذاناً بزوال سلطان العرب عن المغرب جملـة، وبدا بـوضوح أن دولة الخلافة لا بد متخلية عن هذا القطر الفسيح راضيـة أو كارهـة في القريب أو في البعيد: فقد اشتدت الخصـومة السيـاسية بـين اهل السنـة والخـوارج ولم يعد هنـاك سبيل لاصـلاح النفـوس، واختلف العـرب عـلى أنفسهم فضعف أمرهم وهانوا في نظر رعاياهم.

ولم يلعب بيت عربى فى هذا الدور من تاريخ المغرب الاسلامى دورا يقرب من الدور الخطير الذى لعبه بيت عبد الرحمن بن حبيب ، فقد كان طموح هذا العربى الفهرى وتعصبه للعـرب الافريقيين البلديين سببا مشجعاً للخوارج على موالاة جهودهم، ولم يكن في نفسه بالرجـل الثابت ولا القدير، وكان فيه ميـل الى الظلم. فلم يلبث أن نفروا منـه، ونهض له أخـوه الياس فقتله واستبد بالأمر كما قلنا، فكان شـراً من عبد الـرحمن وأعتـى، واختلط الأمـر عليه ووثب بـه أبناء بيتـه، فلم يلبث أمر بني حبيب كلهم أن تفـرق وضـاع، وضـاع معه سلطـان العرب البلـديين عـلى البـلاد، ولـولم يتداركها الله بعد ذلك بسنوات قلائـل بمحمد بن الأشعث ثم بـالأغلب ابن سالم بن عقال لما عاد السلام اليها.

ثم ان دخول ورفجومة القـيروان واستبدادها بشـئون افريقية لم يكونا الا مظهرا لقوة الخوارج الصفرية وانتشار أمرهم انتشاراً هيـأ لهم السيطرة على البلاد، وكانت سيادة هذه القبيلة شراً خالصاً على افريقية

وأهلها ، لأن كراهتهم للعرب بلغت مبلغا جعلهم يستبيحون كل محرم ، وكانت دعوة الصفرية قد أتتهم ولما يتمكن الاسلام من نفوسهم بعد ، فأضلتهم وأخرجتهم عن الاسلام جملة ، ومن ثم لا غرابة فى أنهم حينما دخلوا القيروان قتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب ، وربطوا دوابهم فى المسجد ١٤٠ هـ / ٧٥٧ — ٧٥٨ م [1] . فأثار عملهم هذا اخوانهم بربر نفوسـة ، وكانوا أباضـية ، فساروا يقودهم شيخهم أبو الخطاب ، فأخرجوا ورفجومة من القيروان ، وأنزلوا برجالها مذبحة مروعة وقضوا على سيطرتهم على افريقية .

ومن طريف ما يلاحظ أن أبا الخطاب بدأ عمله بخلع طاعة العباسيين على القيروان ، ولم يتخير عربيا ليقيمه فى الامارة ، وانما تخير رجلا من أصل فارسى هو عبد الرحمن بن رستم ، وكان خارجيا أباضيا شديد العصبية لمبادىء الخارجية (١٤١ هـ / ٧٥٨ — ٧٥٩ م) ولم يستطع محمد بن الأشعث قائد المنصور دخول القيروان واعادة المغرب الى طاعة المشرق الا بعـد حـرب عنيفـة وموقعـة فاصـلة مع نفوسـة على مقربة من تورغـة احـدى قرى طـرابلس (جمـادى الأولى ١٤٤ هـ / يونيـو ٧٦١ م) [2] ، وقد هرب على أثرها عبد الرحمن ابن رستم الى أقصى المغرب الأوسط وتحصن بناحية جبل جزول عند تاهرت ، وكانت هناك اذ ذاك بقايا حصن رومانى فعمرها واستقر فيها يؤيده البربر الأباضـية ، وأعلن نفسه اماما ، وأنشأ بذلك الدولة الرستمية ، ولم يلبث أن سيطر على المغرب الأوسط كله [3] .

(١) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ٤٤ .
(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٦١ .
النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ٤٤ — ٤٦ .
(٣) البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٦١ وما يليها .
النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ٤٤ — ٤٦ .

وحذا حذوه بربري خارجي أخر هو أبو قرة المغيلي شيخ قبيلة بني يفرن وكان صفريا، فأعلن نفسه إماما في نواحي تلمسان. وهكذا استقلت كل جماعة من البربر في ناحية، ولم يبق للعرب الا سلطان ضئيل بقي لبعض المضرية في ظواهر القيروان، وظلّ من السيطرة بقي لجالية عربية صغيرة أخرى كانت تقيم على الطاعة في نواحي طبنة وهدنة، ولم يهدأ أمر البلاد الا على يدي محمد بن الأشعث قائد العباسيين وبعد محمد بن الأشعث ولى أبو جعفر المنصور على افريقية الأغلب بن سالم بن عقال. وعندما قتل هذا في حربه مع الخوارج تولى أمر افريقية أبو حفص عمر بن قبيصة المهلبى وبدأ بذلك حكم المهالبة في افريقية. وقد استمر حكم المهالبة إلى سنة ١٨٠هـ ثم تولاها هرثمة بن أعين ثم تولى أمر افريقية ابراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال الذي أقام دولته بسواعد بعض رجال العرب المشارقة تؤيدهم فرق من الجند الخرسانية وبعض القبائل الصنهاجية المنافسة للزناتية الخارجية سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م، وعلى يديه خرج المغرب عن طاعة الخلافة العباسية جملة.

كانت ثورات البربر على العرب إذن ختاماً لتبعية افريقية المطلقة على المغرب. فان دولة بني الأغلب تعتبر بداية لعصور استقلال افريقية عن الخلافة. ووقفت حدود افريقية الاغلبية السنية عند مجرى نهر شلف. أما غربي هذا النهر فقد قامت فيه دولة الخوارج الاباضية الرستمية التي سادت المغرب الاوسط

٦٤ ـ دولة بني مدرار في سجلماسة

وانتهزت جماعات من برابر مكناسة ـ إحدى بطون ضريسة ـ فرصة ابتعادها عن القيروان وانشغال العرب بمنازعاتهم مع البربر ومع أنفسهم ليستقلوا بناحيتهم وليقيموا لأنفسهم دولة. كانت هذه البطون من نفوسة تسكن على منابع نهر ملوية عند الموقع الذي ستقوم فيه بلدة سجلماسة فيما بعد، وكانت هذه القبائل تسيطر على

قريتي تازا وتسول، وكانتا اذا ذاك من منازل الرعاة، فأقبل عليها في مراعيها رجل بربري ممن حج الى بيت الله الحرام وأخذ أصول الدين على فقهاء المدينة، واسمه أبو القاسم سَمكو بن وسول بن مَسلان بن أبي ازول، ويبدو أنه كان قد مال الى ناحية الخارجية، فدعا النفوسيين الى مبدئه فانضموا اليه وتعصبوا له، ولم يلبثوا أن نقضوا طاعة الخلافة في سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧ ـ ٧٥٨م يقودهم شيخهم عيسى بن يزيد الأسود، ثم اتخذوا سجلماسة عاصمة لهم فاتسعت وتمدنت، ومات عيسى فخلفه ابنه اليسع وخلف هذا ابنه مدرار، وفي عهده قوى أمر هذه الدولة البربرية التي عرفت في التاريخ بدولة بني مدرار. وانما فصلت أمر نشوء هذه الدولة لأن ذلك يلقى ضوءا على التطور الباطني الذي كان يجرى في المغرب الاسلامي اذ ذاك، وواضح جدا أن دعاة الصفرية والخارجية أصحاب فضل كبير في نشر الاسلام في واحي المغرب الأقصى والسوس، كما رأينا في حالة هذا الداعية أبي القاسم سمكو، وكما سيحدث في حركات المرابطين والموحدين فيما بعد(١).

٦٥ ـ رأى جوتييه في ثورات البربر

وقد حاول ا.ف. جوتييه جغرافيُّ المغرب ومفلسف تاريخه على مذهب الفرنسيين أن يدرس هذه الحركات الثورية ويلتمس لها أصولها البعيدة في تاريخ المغرب القديم وتكوينه الجنسي، فانتهى الى آراء لا بد من ايرادها في ختام هذا البحث(٢). يرى جوتييه أن هذه الثورات هي أخطر حادث في تاريخ المغرب الاسلامي قبل الحركة

(١) راجع عن هذه الأحداث :
ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٦٠ وما يليها .
النويرى : نهاية الأرب ، ص ٤٤ وما يليها .
ابن خلدون : العبر ، جـ ١ ، ص ١٣٩ وما يليها .

(٢) E.F. GAUTIER, *Le Passé de l'Afrique du Nord*, pp. 260 Sqq.

الفاطمية. فلنعرض آراءه في تحليل أسباب هذه الحركات لأنهـا تكشف لنا في الواقع عن خصائص هامة ينفرد بها هذا التـاريخ المغـربي، وتلقى على الثورات الخارجية البربرية نفسها ضوءا كاشفاً[١].

يرى جوتييه أن هذه الثورة الخارجية في المغرب ان هي في الـواقع الا الدوناتية التي روعت أمن المغرب النصراني من قبل. وتفصيل هذه الحركة الدوناتية في اجمال هـو أن «دونات» أسقف كـازْ نوار احـدى بلاد المغـرب الأوسط أبى أن يعترف بصقليان (Cicilianus) بطريقاً لقرطاجنـة، لأن من انتخبوه كانوا قسسا مشكوكا في صلاح عقيدتهم، فغضب عليـه صقليان، وثارت بينهما الخصومة، وتعصب لكل منهما فريق، وانقسم نصارى افريقية شيعتين، شيعة صقليان، وشيعة الدوناتيين المنشقين أو الخارجين عليه.

والخارجية المغربية فى نظر جوتييه ، ليست فى الواقع الا شيئا شبيها بالخارجية الدوناتية النصرانية ، فالخوارج المسلمون لا يخالفون غيرهم من المسلمين فى أمر من أمور العقيدة — كما تخالف البروتستنتية الكاثوليكية مثلا — وانما يخالفونهم فى عدم الاعتراف بخلافة معاوية ،

(١) لم يبحث أحد هذه الحركة بمثـل ما بحثها به جوتييه من العمق والشمول ، وقد انتهى من بحثه إلى نظرية خـاصة فسر على أساسهـا تاريخ المغرب الإسلامى كله ، وقد أخذهـا عنه جميع مؤرخى المغرب الفرنسيين ، ولهذا رأيت أن أعرض لهـا فى شىء من الاسهاب . وإليك مراجعه التى استند إليهـا فى هذا البحث إتماماً للفائدة وتسهيلا للمراجعة :

أبو زكريا : تاريخ أبى زكريا، ترجمـه وعلق عليـه EMILE MASQUERAY (الجزائر ١٨٧٨) ، ص ٦٧ وما يليهـا من المقدمة .

ابن خلدون : العبر ، (ترجمة دى سلين) جـ ١ ، ص ٢١٦ و ٢١٨ ، جـ ٢ ص ١٢٥ وما بعدهـا .

ابن عذارى : البيان ، جـ ١ ، ص ٥١ وما يليها .

ابن الأثير : حوادث المغرب التى جمعها فانيان Fagnan وترجمها إلى الفرنسية فى كتاب *Annales du Magreb et de l'Espagne* ، ص ٦٣ .

ويقولون بأحقية علي وأولاده في الخلافة (كذا!)، بالضبط كما كـان الخلاف بين دونات وصقليان خلافا حول شخص صقليان وحقه فى البطريقية ؛ والحركات الدينية الخطيرة — سواء فى المغرب النصرانى أو فى المغرب الاسلامى — لم تنشأ عن آراء أو عقائد خاصة بل عن تعصب وانتصار لأشخاص . لأن أهل المغرب — كما يقول — لا يكادون يحفلون بالعقائد فى ذاتها . ومدار الأمر كله عندهم هم الأشخاص .

وايمان البربـر في رأي جوتييـه يمتاز الى ذلك بتطرف بـالغ وتمسـك بالظواهر يجعلهم يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعهـا، ويصرون على ذلك اصراراً لا يكاد يقبل تنازلاً. وهذه كلها أمور نلاحظها في الدوناتية كما نلمسها في الخارجية: فقد كان الدوناتيـون متعصبين لمبادئهم تعصباً أعمى لا يكاد يصدّق ، وكانوا يتحرون جماعات فى سهولة لا يكاد يتصورها العقل ، أملا فى أن يغتنموا الشهادة ويرقوا الى السماء ، بل بلغ بهم الأمر أن كان القلق يساورهم فى بعض الأحيان حينما يعلمون أن لهم الحق فى قتل أنفسهم واغتنام الشهادة على هذا السبيل « الهين » ، فكانوا يسألون أحد المارة أن يقتلهم بيده ! وويل له اذا أبى ! فأما عند خوارج المغرب المسلمين ، فلم يصل الأمر الى حـد اغتنام الشهادة بالانتحار ، وانما هم كانوا يتهافتون على القتال فى سبيل العقيدة تهافت من لا يعنيه أمر حياته ، نجد هذا واضحا عنيفا عند غلاتهم كالصفريين ومعتدلا بعض الشيء عند معتدليهم كالأباضيين . هذا مع العلم بأن تفانى هؤلاء الأخيرين فى العقيدة كان يذهب بهم الى حد الغاء شخص الانسان الغاء تاما أمام الخالق .

٦٦ – الدوناتية والخارجية

ثم يقول : ولقد أحسن ماسكراى حينما قال ان الخارجية هى الدوناتية نقلت من اطار مسيحى الى اطار اسلامى ، ولا يهمنا الاطار ولا الحادث الذى أثار الحركة فى المسيحية أو فى الاسلام بقدر ما تهمنا الظاهرة ومغزاها الذى يتلخص فى الحقيقة التالية : وهى أننا نجد عند المغاربة أنفسهم أسلوبا واحدا عميقا فى الاحساس بالله وقوته ، وأننا نجد هذا الاحساس ظاهرا فى صور مختلفة متتابعة ، فذلك غريزى عند هذا الجنس .

وهو — أى جوتييه — لا يهتم لذلك بالناحية الدينية للموضوع — فهى فى نظره حادث عارض — والمهم عنده هى الغايات والنزعات المادية التى تستتر دائما خلف ستار العقيدة ، ولقد طالما حاول الناس أن يصلوا الى المعنى السياسى والاجتماعى للحركة الدوناتية ، وقد وفقوا ، وليس بالعسير كذلك الوصول الى النزعات السياسية والاجتماعية التى أدت الى الثورة الخارجية .

ثم يقول ان ابن خلدون نفسه قد كشف عن هذه النزعات ببعد نظره وزكانته ، وذلك حيث قال : ان الخارجية انتشرت على عجل فى البلاد وأصبحت سلاحا فى يد أهل الفتنة يحاربون به الدولة ، وهو يقصد بالدولة هنا دولة الخلفاء التى يمثلها العمال ، فهؤلاء الخارجيون كانوا يلتمسون الأنصار بين الطبقات الدنيا من البربر .

ويقول : ولم تكن الدوناتية فى الواقع الا حركة بربرية سياسية اجتماعية أساسها ديموقراطى ، اذ كانت فى الواقع ثورة شعبية قام بها فقراء الناس المستضعفون . وطبيعى أن الشعب الذى قام بحركة الخارجية لم يكن هو نفسه الشعب الذى قام بالدوناتية ، فقد تغيرت الأحوال بتغير الأزمنة

وانما كان عماد الحركتين هؤلاء الناس الذين كان تصوفهم صورة نظرية لحرمانهم من الخيرات الدنيوية ، وكان هذا التصوف يخفى خلفه — بطبيعة الحال — انفجارا هائلا لمطامع لم تسعفها الظروف بالتحقق .

وكانت الخارجية كذلك ثورة من البربر أهل البلاد على السادة الأجانب ممثلين هذه المرة فى صورة الخلفاء المشارقة .

٦٧ – أى فريق من البربر نهض بعبء الحركة

ثم يمضى جوتييه يحلل عناصر الحركة الخارجية ، لأنه لا يريد أن يكتفى بتسميتهم بربرا وكفى ، بل يريد أن يعرف أى فريق من البربر نهض بعبء الحركة . ويقرر بوضوح أن الذين قاموا بالحركة كانوا فى الغالب بربرا زناتيين . فقد انفجرت الثورة أول الأمر فى طنجة خلف ظهور الجيوش الاسلامية الغازية فى اسبانيا ، ثم لم يلبث لهبها أن وصل الى القيروان . وقد وقعت موقعة الأشراف على مجرى « شلف » ، ووقعت المعركة الثانية التى هلك فيها كلثوم بن عياض على نهر « سبو » ووقعت الثالثة التى انتصف فيها العرب لأنفسهم عند القرن على مقربة من القيروان سنة ٧٤٢ ، وأما الرابعة فقد كانت الى الشرق مما يلى ذلك ، وفيها استولى الخارجيون على طرابلس ، ثم نشهد بعد ذلك رد فعل عربى عنيف يقوم به عبد الرحمن ابن حبيب . أى أن الحوادث البارزة فى الحركة كلها دارت حول طرابلس وتونس وتلمسان (بين سنتى ٧٤٣ — ٧٥٢) وفيما بين سنتى ٧٥٧ — ٧٥٨ ينتقل مركز الحركة الى القيروان ، فيستولى عليها برابر ورفجومة الخارجيون ويعيثون فيها فسادا ، ثم يطردهم عنها برابر آخرون ، ويستولون عليها .

ثم ينهض العرب لحرب الخارجيين من جديد يقودهم محمد بن الأشعث

ويحرز النصر فى ... من نواحى طرابلس، ثم يسير الى القيروان فيحتلها، ولكنه لا يوفق الى النصر عند تلمسان التى ينتقل اليها مركز الحركة بفضل أبى قرة اليفرنى (سنة ٧٦٥) ، ثم يعود الخارجيون فيستولون على طرابلس ، ويحاصرون القيروان . ويطيل المؤرخون الحديث عن حصار الخارجيين لطبنة فى اقاليم هدنة ، ويذكرون أن عاملها عمر بن حفص ظل زمنا طويلا محاصرا (سنة ٧٧٠) حتى لقى حتفه على أسوار القيروان (سنة ٧٧١) . ثم يستمر الأمر بين أخـذ ورد بين العرب والخارجيين حتى ينتهى الأمر الى يد بنى الأغلب فى سنة ٨٠١ ، فتهدأ أحوال البلد ويسودها السلام قدرا من الزمان . فمراكز الثورة هى طنجة ووادى سبو واقاليم تلمسان ووادى شلف وهدنة وجنوبى تونس وطرابلس ، أى انها تقع جميعا فى نطاق السهول والهضاب العالية ، أى فى مواطن زناتة ، لقد وقعت الثورة كلهـا فى أوطان زناتة على وجه التقريب .

ثم يمضى جوتييه مؤيدا رأيه ، فيذكر أن ابن خلدون وابن عذارى يؤكدان أن عبء الحركة الأولى حملته برغواطة (ويشير الى أن برغواطة هذه قد كفرت بالقرآن فيما بعد ، وأقام رجالها فى اقليم الشاوية دينا جديدا يخالف الاسلام) ، ومغيلة وهوارة وبنى يفرن ، ويناقش النصوص مناقشة يخرج منها بأن قليلا جدا من صنهاجة قد شاركوا فى هذه الحركة ، وأنها لهذا ينبغى أن تعتبر حركة زناتية صرفة .

ثم يستطرد جوتييه استطرادا بعيدا يحلل فيه الحركة من الناحية الاجتماعية ، ولكننا نكتفى بهذا القدر الذى أوردناه لأنه يلقى ضوءا كاشفا على بعض العناصر النفسية فى هـذه الحركة البربرية الخطيرة ، ويهمنا من كلامه قوله انها كانت حركة زناتية ، وهذا معقول وطبيعى ،

فقد كانت زناتة قد أعانت المسلمين وانضمت اليهم من أول الأمر أملا فى أن تنتصف بهم على الروم والنصارى والأفارقة وصنهاجة ، وأن تستعيد فى ظلالهم بعض ما فاتها فى عهود هؤلاء ، ففاجأ العرب رجالها بهذا العسف الذى رأيناه ، فجنحت نفوسهم الى الثورة . ويهمنا كذلك قوله أن هذه الحركة طبيعة مركبة فى النفس البربرية : فهى طبيعة تفان وتصوف واستخفاف بالحياة . ويهمنا كذلك اشارته الى ناحيتها القومية ، فالواقع أن الذين قاموا بها كانوا ينكرون على العرب هذا التصرف المطلق فى شئون البلد . ويهمنا أخيرا ربطه هذه الحركة بأمثالها فى عهود الروم وسيره بالحركة الى مطالع العهد الأغلبى .

٦٨ – الأحوال فى الأندلس

ونعود الآن الى الأندلس .لم تكن الأحوال في الأندلس اذ ذاك بأحسن مما كانت عليه في المغرب. كانت هـزيمة المسلمـين في بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقي وخيـرة رجالـه في رمضـان سنة ١١٤ هـ /٧٣٢م قـد أوقعت البلد في أزمة كبرى، ذلـك أن اليمنيـين وأحلافهم من المـدنيين انتهـزوا فرصة موت الغـافقي واشتغال عامل افريقية عنهم فأقاموا كبيرهم عبد الملك بن‌قطن بن نُفيلة بن عبد الله الفهرى فى أول شوال سنة ١١٤ هـ ، ويبدو أن عبيدة بن عبد الرحمن عامل افريقية أقر عبد الملك فى ولايته لأن العلائق لم تكن طيبة بينه وبين أنصار عبد الرحمن الغافقى [1] .

٦٩ – عبد الملك ابن قطن الفهرى

لا تمدنا المراجـع العربية بمعلومات وافية عن أعمـال عبد الملك فى‌ولايته الأولى ، ولكن‌ايزيدور الباجى يذكر أنه أساء السيرة وآذى‌المسلمين والنصارى معا ، وأن من معه من

(١) انظر : ابن عبد الحـكم : فتوح ، آخر ص ٢١٦ وأول ٢١٧ .

اليمنية عاثوا فى البلاد فسادا وأكثروا من الشغب والثورة عليه ، وأنهم شرهوا الى الأموال شرها اضطر معه عبد الملك الى عسف الناس عسفا أثار النفوس وأسخطها [١] . فلما تولى عبيد الله بن الحبحاب أمر افريقية بعث على الأندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان رجلا قيسيا صالحا محبا للجهاد ، فوصلها وبدأ ولايته عليها فى شوال سنة ١١٦ هـ ٧٣٤ م [٢] .

ويذكر ايزيدور الباجى أن عبد الملك بن قطن الفهرى ومن معه من المدنيين حاولوا أن يعارضوا عقبة ويحدثوا عليه الشغب ، فاضطر الى القبض على عبد الملك والقائه فى السجن ، ثم نقل عددا عظيما من المدنيين الى افريقية لكى يهدأ البلد ويستريح من نزوعهم الدائم الى السلطان والفوضى [٣] .

ويبدو أن الأحوال استقرت لعقبة فى الأندلس بعد ذلك فاستطاع أن يقوم بأمر البلاد « بأحسن سيرة وأجملها وأعظم طريقة وأعدلها » [٤] . واستطاع كذلك أن ينصرف الى الفتوح فى صقلية وفيما وراء جبال البرت بقية أيام حكمه الذى طال سبع سنين [٥] .

فى ذلك الحين كانت ثورة البربر فى افريقية على أشدها ، وكان

---

(١) إيزيدور ، فقرة ٦٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧ – ٢٨ .

(٣) إيزيدور فقرة ٦١ ، ويراد بالمدنيين هنا جماعات من أهل المدينة المنورة من الأنصار هاجروا إلى الأندلس واستقروا فيها ، وأنشأوا لأنفسهم شيعة سياسية قوية ، وكانوا يؤازرون اليمنيين ويحتمون بهم .

(٤) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨ .

عبيد الله بن الحبحاب قد انصرف عنها وتولاها كلثوم بن عياض ، وشغل القيسية فى افريقية عن أبناء عمومتهم فى الأندلس ، فضعف أمر عقبة ومن معه، وبدأ اليمنيون ومن معهم من المدنيين وفيهم بعض ابناء الأنصار يتطلعون الى السلطان من جديد، وقد أمكنتهم الفرصة في أوائل سنة ١٢٣هـ اذ مرض عقبة وطال مرضه حتى أشفى على الموت، والغالب أن اليمنيين ضغطوا عليه وأرغموه على إقامة عبدالملك بن قطن خليفة له اذا توفاه الله: وقد كان، وعاد السلطان الى ابن قطن ومن معه من اليمنيين والمدنيين[١].

٧٠ – انتقال الثورة من إفريقية إلى الأندلس

والظاهر أن نفرا من دعاة الثورة البربرية الافريقية خف الى الأندلس ليثير بربرها على عربها . ولم يكن البربر فى الجزيرة الأندلسية مطمئنين الى العرب ، لأن هؤلاء الاخيرين استبدوا دونهم بالسلطان ، مع أن معظم فضل الفتح يعود الى البربر.

ويذهب نفر من المؤرخين كذلك الى أن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع الأندلس ، ولم يتركوا للبربر غير الفيافى والجبال القاحلة فى الشمال والشمال الغربى [٢] .

وليس ذلك صحيحا على اطلاقه ، لأن جماعات بربرية كثيرة كانت مستقرة فى أخصب نواحى الأندلس فى الجنوب والشرق والغرب ، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون مقصورة عليهم لكثرة من نزلها من بطونهم وعشائرهم ، ثم ان العرب لم يكونوا من الكثرة بحيث

---

(١) إيزيدور الباجى ، فقرات ٦١ – ٦٣ . ويذكر ابن عذارى أن عقبة استخلفه (البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٩) . ويذهب ابن عبد الحكم إلى أن عبيدة بن عبد الرحمن هو الذى رد عبد الملك إلى ولاية الأندلس (فتوح ، ص ٢١٧) . أما ابن القوطية فيؤكد أن عبد الملك ومن معه من اليمنية اجتمعوا على عقبة وخلعوه ، فهو يتفق مع إيزيدور فى ذلك ، وقد أخذنا بروايتهما .

(٢) DOZY, *Hist. des Musulmans d'Espagne* I, p. 161
Recherches; I, pp. 118-119

يستطيعون الانفراد بكل سهول بلد عظيم واسع كالأندلس ، ثم ان الكثيرين منهم (أى من العرب) كانوا أهل جهاد مقيمين دواما فى منطقة البُرت وما وراءها عند أربونة ، فلم تكن بقية العرب لذلك من الكثرة بحيث تستطيع احتلال سهول الأندلس الواسعة فى الشرق والجنوب والوسط والغرب .

٧١ – مقدمات ثورة بربر الأندلس

ثم ان المراجع تتحدث كذلك أن جماعات كبيرة منهم كانت قد استقرت فى أقصى الشمال عند لاردة واسترقة و « المداين التى خلف الدروب » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة[1] أى فى نواحى الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن الاسبان النصارى فى الشمال ، فتعليل ثورة البربر على العرب فى الأندلس بأن هؤلاء استبدوا دونهم بخيرات البلد وحرموهم منها جميعا مبالغة لا تؤيدها المراجع ، فأما غضب البربر فسببه استبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم البربر شعبا محكوما لا ينبغى أن يترك له أى نصيب فى الحكم أو فى ادارة الأمور ، ولم يكن البربر يعتبرون أنفسهم بأقل من العرب دينا ولا كفاءة ولا فضلا ، فقد كانوا هم الذين حملوا معظم عبء الفتح ، وكان منهم طريف وطارق وهما صاحبا الفضل الأول فيما كسب الاسلام فى الأندلس من نصر . ولم يقف الأمر عند مجرد الاستبداد بالأمر بل تعداه الى سوء المعاملة والاهانة ، فكان العرب يوقعون بهم أقسى العقوبات لأتفه الأسباب ، فاذا جرؤوا على الشكوى كان عقابهم أشد وأقسى[2] .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ وراجع ذلك المقال القيم الذى كتبه سيزار دوبلر عن منازل البربر فى الجزيرة الأندلسية .

CESAR DUBLER, *Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel, in Festchrift J. Jud.* Zurich 1943.

(٢) إيزيدور ، فقرة ٤٤ . DOZY, *Recherches*, I. p. 119

ثم ان استبداد القيسية بالأمر كان حريا أن ينفر البربر ، اذ كان القيسيون قوما ذوى عصبية شديدة ، لا يكادون ينظرون لغيرهم نظرتهم الى ناس مثلهم ، وقد رأينا موقفهم من اليمنية ومن البربر فى افريقية ، وليس لدينا وثائق تدلنا على معاملتهم للبربر فى الأندلس ، ولكن الأدلة كلها تدل على أنهم أساءوا معاملتهم ونفروا نفوسهم ، وكان اليمنيون أقرب الى نفوس البربر منهم ، لأنهم كانوا معظم الوقت مضطهدين مثلهم[1] . وهذا لا يمنعنا من أن نقرر أن هؤلاء اليمنيين كانوا اذا وصلوا الى السلطان أفسدوا من أمره أشد مما كان القيسيون يفعلون ، لأن عيب القيسيين كان كبرياء وصلفا ، فى حين كانت عيوب الكلبية اليمنية الظاهرة جشعا الى المال وميلا الى الفوضى وعجزا عن التنظيم وحسن الادارة .

٧٢ – ثورة البربر فى الأندلس

طبيعى اذن أن يبادر بربر الأندلس الى الثورة حينما تبلغهم أنباء ثورة أبناء عمومتهم واشتباكهم مع العرب فى الحرب فى افريقية . فيقول صاحب الأخبار المجموعة — وروايته على قصرها أكثر ما بين أيدينا تفصيلا — : « فقضى أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا فى أقطار الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أستُرقة والمداين التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن الا فَلُّهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف الى وسط الأندلس الا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم ، فانهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر »[2] ... ويزيدنا صاحب فتح

(١) يفهم هذا من قول ابن القوطية مثلا : «وبقى عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين الشاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهرى ، ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا ! » – ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٧ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

الأندلس وضوحا فيقول : « وتطاولت البربر أيضا بالأندلس على العرب الساكنين بجليقيــة وأسترقة والمداين التى خلف الدروب ، وقاتلوهم وطردوهم لكثرتهم هناك وقلة العرب » [1] ولا يزيدنا ايزيدور عــلى ذلك كثيرا ، وان كــان يشير الى ان العرب استبــدوا بالبربر وآذوهم وعاملوهم معاملة قاسية ، فأسخطهم ذلك ودفع بهم الى الثورة [2] .

ولكن دوزى يضيف من عنده كثيرا ، فيزعم أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرض ، ولم يتركوا للبربر غير النواحى القاحلة فى الشمال ، ويمضى فى المبالغة - على عهده — فيذكر أن بربر الأندلس تلقوا أخبار ثورة أبناء عمومتهم فى العدوة الافريقية بقبول عظيم ، وأن دعاة خارجيين ذهبوا الى الأندلس ليحضوا البربر على القيام على العرب واستئصالهم جملة ، فلم تلبث أن انفجرت ثورة دينية سياسية فى اقليم جليقية امتدت الى شمال الأندلس جميعه عدا اقليم سرقسطة ، ولسنا نعلم من أين استقى هــذا كله ، وليس بين أيدينا الا ما أوردناه من النصوص [3] .

ومهما يكن من الأمر فقد ثار بربر شمال الأندلس على عربها المقيمين فى نواحى جليقية واسترقة والنواحى القاصية من أشتريس وبعض مناطق الغرب مثل ماردة وقورية وطلبيرة ، فأما اقليم سرقسطة فلم يجرؤ البربر فيه على الوثوب بالعرب ، لأن العرب هناك كانوا أكثر عددا منهم . وأسرع من بقى من العرب فى هذه النواحى بالهروب الى وسط الأندلس [4] ،

---

(١) فتح الأندلس ص ٣١ .

(٢) إيزيدور ، فقرة ٧٦ .

(٣) DOZY, *Mus. d'Esp.* I, p. 161.

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩ .

فاذا انتصر البربر هذا النصر الأول فقد انتظمت قواهم فى ثلاثة جيوش كبيرة : وجهة الأول طليطلة والثانى قرطبة والثالث الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر عبر المجاز . ومثل هذا الترتيب لا يمكن أن يصدر الا عن قيادة واحدة نظمت صفوف الثائرين ورسمت لهم وجهة واضحة معينة ، لأن الاتجاه الى الجزيرة الخضراء معناه محاولة قطع مواصلات العرب مع المشرق لحصرهم حصرا لا مخلص لهم منه ، وهذا أمر لا يصدر الا عن رأس مفكر مدبر ، ويذهب دوزى الى أن الثائرين اجتمعوا وانتخبوا من بينهم اماما دون أن يذكر مرجعه فى هذا القول [1] . ولكننا وجدنا فى « فتح الأندلس » اشارة موجزة الى وجود زعيم بربرى يسميه « زقطرتق » كان يرأس جماعة البربر التى كانت متوجهة الى الجزيرة الخضراء والتى تجمعت فى شذونه ، فلا يستبعد أن يكون هذا فى الواقع رسما محرفا لاسم هذا البربرى الذى قاد بربر الأندلس فى الثورة كما قاد ميسرة بربر افريقية [2] .

تحرج مركز عرب الأندلس اذن ، ووجد عبد الملك بن قطن ومن معه من الكلبية اليمنية أنهم لن يستطيعوا الثبات للبربر الا اذا وصلتهم من المشرق امدادات . ولم يكن ذلك ميسورا لأن ثورة البربر فى افريقية كانت على أشدها ، ثم انهم كلبيون يمنيون وكان اليوم يوم القيسية المضرية .

---

(١) يقول صاحب الأخبار المجموعة فى ص ٣٩ : « وكانت قد رأست البربر بالأندلس، على أنفسهم ابن هدين» ؛ ولم نستطع قراءة هذا الاسم ، وظاهر أن المؤلف يريد أن يقول ان البربر اختارته رئيساً فقط لا إماماً ، والفرق بين الأمرين ظاهر ، اذ أن نص ابن القوطية يفهم منه أن الحركة سياسية ، أما كلام دوزى فيفهم منه أن الثورة كانت دينية أيضــاً ، وانظر أيضاً : ابن حيان ، برواية المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٣١ ، وهذه هى قراءة ناشر الــكتاب ، ولم أستطع تحقيقها .

٧٣ - بلج بن بشر ومن معه محاصرون فى سبتة

وكان بلج ومن معه من الشامية القيسية محصورين فى سبتة منذ عام ، وقد أجهدهم الحصار حتى أكلوا الدواب والجلود وأشرفوا على الهلاك (١) وكانوا لا يكفون عن الكتابة الى عبد الملك يستصرخونه ويستغيثون به ، فلم يسمع الى استغاثتهم ، لأنه كان يخشاهم على نفسه . فهم قيسية شامية متعصبون وهو ومن معه كلبيون يمنيون ، فتركهم لكى يهلكوا حيث هم (٢) . وكان عبد الرحمن ابن حبيب -- كبير عرب افريقية الذى تحدثنا عنه -- قد نجا من معركة الاشراف -- وانهزم مع بلج وأصحابه الى سبتة ، ومن هناك عبر الى عبد الملك بن قطن الفهرى مثله ، وجعل يحرضه على بلج وأصحابه ويخوفه منهم ، فزاده ذلك اصرارا على تركهم لمصيرهم (٣) . وبلغ من اسرافه فى ذلك أن عربيا أندلسيا من لخم يقال له عبد الرحمن بن زياد الأحرم أشفق عليهم من التلف ، فبعث اليهم مركبين وشحنهما بالشعير والأدام ، فبلغ ذلك عبد الملك فغضب عليه وعاقبه أشد عقاب (٤) وساءت حال بلج وأصحابه . ولو لم يكن الربيع قد أقبل وأنبتت الأرض بعض الخضرة والبقل لهلكوا (٥) ، ولكنهم اقتاتوا بذلك واستعانوا به على البقاء حتى واتتهم الظروف بالفرج من حيث لم يحتسبوا .

وزاد مركز عبد الملك بن قطن وعرب الأندلس حرجا مع الأيام ،

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧ .

(٢) نفس المصدر والصفحة . وفتح الأندلس ، ص ٣١ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .
ابن خلدون عند المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

ولم يجد لنفسه مخرجا الا أن يأذن لهؤلاء القيسيين المحصورين فى سبتة فى العبور الى الأندلس ، فأجابهم الى طلبهم بعد طول عناد ، واشترط عليهم أن يبارحوا الأندلس بعد القضاء على ثورة البربر مباشرة ، واشترطوا عليه بدورهم أن لا يفرقهم وأن يعيدهم الى افريقية جماعة واحدة ، وينزلهم فى مكان يستطيعون منه العودة الى المشرق . وتم الاتفاق على ذلك . وأرسل اليهم عبد الملك سفنا عبروا بها الى الأندلس سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ بعد أن أعطت كل فرقة منهم عشرة من رجالها رهائن احتفظ بهم عبد الملك فى جزيرة أم حكيم فى مدخل الوادى الكبير (١) .

٧٤ - طالعة بلج

هكذا عبر بلج بن بشر القيسى ومن معه من القيسية الشامية الى الأندلس ، ولم يكن عددهم ليزيد على عشرة آلاف ولكنهم كانوا من غير شك نخبة من خيرة فرسان الشآمية القيسية . لقد أساء رئيساهم كلثوم وبلج استعمالهم حتى هذه اللحظة وسيرتكبون من الأخطاء فيما بعد شيئا جسيما ، ولكنهم امتازوا بشجاعة عظيمة وذكاء بعيد ، وسينتهى بهم الأمر بالاستقرار فى البلاد ، وسيكون لهم فى تطور الأندلس الاسلامى أحسن الأثر حينما تستقر الأمور وتقوم الدولة الأموية .

ترك بلج وأصحابه الأندلس فى حال من الجوع لا مزيد عليها ، وكانت ملابسهم قد بليت حتى كانوا يستترون بالدروع ، ونزلوا الجزيرة الخضراء ، « فوجدوا بها جلودا مدبوغة كثيرة ، فقطعوا منها المدارع ، ثم أقبلوا الى قرطبة ، فكسا ابن قطن خيارهم وأعطاهم كلهم عطاء . فلم يكن فيه ما يغنيهم ، واستقبلهم عرب بلد الأندلس وهم ملوك ، فكسا

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٨ - ٣٩ .
فتح الأندلس ، ص٣١ .

كل رجل منهم من خيارهم خيار عشيرته ، وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا » (١) . وهكذا آوى عرب الأندلس رجال هذه الطائفة القليلة من القيسية بعد أن تقاذفتهم البلاد والثوب منذ مبارحتهم مواطنهم الأولى فى الشام منذ قرابة العامين . ولا نزاع فى أن القيسية الأندلسية قد أحسنت استقبالهم واكرامهم على النحو الذى يصفه صاحب الأخبار المجموعة طمعا فى أن تقوى بهم قلوبها . ومن ثم ليس بغريب أن نرى قيسية الأندلس تنهض لمنازلة الكلبية اليمنية من جديد .

٧٥ – طالعة بلج تقضى على ثورة البربر فى الأندلس

ولم يكد بلج وأصحابه يريحون بقرطبة حتى نهضوا للعمل الذى أتوا من أجله وهو لقاء البربر والقضاء على ثورتهم . كان أول ما ينبغى عمله هو القضاء على الجيش البربرى الذى كان متجها نحو الجزيرة الخضراء ليتصل بالثائرين فى ناحية طنجة وسبتة ويقطع كل أمل لعرب الأندلس فى أى عون يأتيهم من المشرق ، ويبدو أن هذا الجيش البربرى كان أقوى جيوشهم الثلاثة وأكثرها نظاما، وكان قد وصل كما رأينا اذ ذاك الى شذونة وعسكر عندها .

نهض بلج وأصحابه للقاء هؤلاء ، وانضم اليه نفر من عرب الأندلس البلديين ما بين قيسية ويمنية ، والتقى الجمعان على مقربة من شذونة « فلم يكن العرب فيهم الا نهضة حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا وأصابوا المغانم » (٢) . ولا نزاع فى أن العرب كانوا مدفوعين فى هذه المعركة بالرغبة فى طلب الثأر من هؤلاء البربر الذين أذاقوهم الويل فى افريقية والأندلس طوال الحقبة الماضية . ثم

(١) الأخبار المجموعة ، ص٣٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣١ .

نهض بلج وعبد الملك بن قطن ومن معهما للقاء الجيش البربرى الذى كان متجها نحو قرطبة ، ولم يجدوا عناء كبيرا فى هزيمته والقضاء عليه .

فأما الكتلة البربرية الثالثة التى كانت تحاصر طليطلة فيبدو أن أمرها كان أخطر من الكتلتين الأخريين بسبب الأعداد العظيمة التى تجمعت فيها . كانت جماعات بربرية غفيرة من بربر جليقية وأسترقة وماردة وقورية وطلبيرة قد انجفلت من بلادها وانضمت اليها ، وأقبلت فحاصرت طليطلة ، وأقامت على الحصار أشهرا حتى اشتد الأمر بطليطلة وأهلها ؛ وكان بعض هذه الجماعات البربرية قد عبر التاجه وانحدر نحو الجنوب وحاول عبد الملك بن قطن أن يناجزها الحرب فلم يفلح . فلما تم له القضاء على الجيشين البربريين الآخرين على يد الشآمية جمع رجاله وسار مع الشآميين للقاء البربر على مقربة من طليطلة . فلما تسامع هؤلاء بمسيره إليهم حلقوا رؤوسهم اقتداء بميسرة ، « ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا » (١)، مما يدل على شدة حماستهم ورغبتهم فى النصر .

٧٦ – معركة وادى سليط

دارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادى سليط (Guazalete) وحمى أوارها ، لأن قلوب الجانبين كانت تفيض سخطا ، وأظهر الشآميون من الشجاعة والقدرة ما استطاعوا به القضاء على هذه الجموع البربرية والانتصار عليها ، « فلم ينج منهم الا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش فى الأندلس فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم » (٢) (أوائل ١٢٤ هـ منتصف ٧٤١ م) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ ، ووادى سليط نهر يصب فى التاجه من اليسار جنوبى طليطلة =

ويفهم من هذه العبارة الأخيرة أن العرب بعد أن انتصروا على البربر هذا الانتصار الحاسم عند وادى سليط تعقبوهم فى نواحى الجزيرة واشتدوا فى ذلك شدة بالغة حتى ساء حالهم كثيرا .

* * *

٧٧ – المجاعة وهجرة البربر إلى إفريقية

شغل العرب والبربر بهذه الحروب عن عمارة الأندلس ، وكانت جموع كثيرة من هؤلاء البربر وأعداد قليلة من العرب قد اشتغلت بفلاحة الأرض واستقرت فيها منذ سنوات الفتح الأولى ، وكان نفر آخر من العرب قد استقروا فى عواصم الأرياف والقرى التى غنموها واشتغلوا بالاشراف على المزارعين من أهل البلاد ، فكان اشرافهم هذا من العوامل التى أسرعت بعمار الأرض بعد انتهاء فترة الفتح وما دار خلالها من حروب . فلما اشتغل العرب بالحروب فيما بينهم ، وغادروا مواقعهم ، واشتبكت الحرب العنيفة بينهم وبين البربر وانتصروا عليهم واشتدوا فى الانتقام منهم ، خاف من بقى من البربر واضطربوا فى مساكنهم ، وبدأت الرغبة تساورهم فى ترك هذه البلاد ، التى كانوا يقيمون فيها على الخطر ، الى بلادهم الأولى حيث يكونون أكثر اطمئنانا . فانصرف معظم هؤلاء البربر عن الزراعة وأخذوا يهجرون الأرض ، وكان العرب قد فعلوا ذلك قبلهم ، وهكذا أخذت المزارع والقرى تخلو من سكانها من العرب والبربر ، وأخذ الخير يقل فى البلاد ، وتوالى ذلك سنوات فازدادت الحال سوءا .

= بقليل . وقد أشار الرازى فى قطعة باقية من الترجمة الاسبانية لتاريخه إلى هذه الموقعة بقوله:

"et esta batalla fué en el termino de Toledo sobre el rio Calican.

انظر الفقرة ٢٤ ص ٨٨ فى نهاية عمود ٢ من طبعة جايانجوس . ولم يستطع الناشر تحقيق نهر كاليكان هذا .

ولم يتنبه العرب الى ذلك لاشتغالهم بحروبهم مع البربر ومنازعاتهم بين أنفسهم . فانتهى الأمر بعد سنوات قلائل الى مجاعة كبيرة لقلة المحاصيل . وانضاف شر هذا البلاء الجديد الى شر الحرب القائمة والفوضى السائدة وقلة الأمان ، فانعدمت الزروع وندرت المحاصيل ولاح شبح مجاعة خطرة ظهرت بشكل حاد بعد أن انهزم البربر هزيمتهم النهائية عند وادى سليط . فلم تكد عشرة أعوام تنقضى على ذلك حتى قحطت البلاد وانتابتها مجاعة عامة شديدة يتحدث عنها صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة ، فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين (٧٤٨ م) هزمهم (أى پلاى زعيم الاسبان) وأخرج (يريد أخرجهم أى العرب) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخراج ، وقتل من قتل ، وصار فلهم الى خلف الجبل الى استورقة ، حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضا المسلمين على استورقة وغيرها . وانضم الناس الى ما وراء الدرب الآخر والى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس الى طنجة وآصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت اجازتهم من واد بكورة شذونة يقال له وادى برباط ، فتلك السنون تسمى « سنى برباط » ، فخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، الا أن الجوع شملهم » [1] .

واشتدت المحنة وأصابت نواحى الأندلس كلها عدا اقليم سرقسطة الذى نجا منها بفضل مياهه وأنهاره وبفضل الجماعة العربية الكبيرة التى استقرت فيه . ويبدو أن المحنة كانت شديدة جدا ، لأن الكثيرين من العرب انجفلوا — كما رأينا — الى النواحى التى توقعوا أن يجدوا فيها

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

خيرا ، وكان البربر أسوأ حالا ؛ لأن الهزائم فلت غربهم ، ولأن العرب تتبعوهم بالأذى فى كل ناحية حتى ضاقت البلاد بهم ، وأحسوا العداوة والشر فى الأندلس فأخذت جموع منهم تعود الى افريقية ليطمئنوا بين أهليهم وعشائرهم ، فهاجروا الى افريقية أرسالا كثيرة .

٧٨ – زحف نصارى الإسبان نحو الجنوب

لا نزاع فى أن عدد من هاجر من البربر كان عظيما جدا ، لأن المؤرخين يحدثوننا أن نواحى شمال الأندلس وغربه كادت تخلو من أهلها المسلمين ، فاذا أضفنا الى ذلك أعداد من هلك من السكان — عربا وبربرا — بسبب المجاعة ، ومن انجفل منهم الى الجنوب والى الغرب والى اقليم سرقسطة ، استطعنا أن نعرف السبب فيما حدث من اتساع دولة النصارى الاسبان فى جليقية وأشتريس اتساعا مفاجئا بلغت به ضعف حجمها الأول بين سنتى ٧٥١ و ٧٥٣ (١٣٤ — ١٣٦ هـ) : ذلك أن الاقليم الواسع الواقع بين نهرى المنهو والدويرو خلا من سكانه المسلمين فى ذلك الحين ، فاستطاع النصارى أن يتقدموا ويحتلوا ما استطاعوا من هذه المساحة من غير جهد . وكان يقودهم ملكهم ألفونسو الأول ، فاسترجع النصارى افراغه وأبورتو وثزيو [1] ؛ وبذلك سيطروا على شمال الأندلس حتى الدويرو ، ثم تقدموا بعد ذلك فى حذر فاستولوا على أشترقة وليون وسمورة ولديسما وسلمنقة وقورية . بل تذهب المراجع النصرانية الى أنهم استرجعوا ماردة نفسها ، وتوسعوا نحو الشرق فاحتلوا سلدانيا وسيمانقاس وشقوبية

(١) ظن بعض المؤرخين أن الصيغة العربية لثزيو Viseu هى بازو الواردة فى المقرى ولكن ساقدرا أثبت خطأ ذلك (انظر المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٤) .
SAAVEDRA, *Estudio sobre la invasion de los Arabes en España* (Madrid, 1882) p. 182.

وأفيلة وأوكا وأوسما وميراندا على نهر ابره وسنيسيرو وأليسانكو على نهير ريوخه . وانحدرت حدود الأندلس الاسلامى الى الخط الممتد من قلمرية على المنديجو الى قورية وطلبيرة وطليطلة على التاجة الى وادى الحجارة وتطيلة وبنبلونة فى الشمال الشرقى .

٧٩ – العرب يخسرون ربع الجزيرة

وبهذا خسر المسلمون نحو ربع ما فتحوه من الأندلس بسبب هذه الخصومات القبلية من ناحية وبسبب المنازعات بين العرب والبربر من ناحية أخرى ، وكان لهذا أسوأ الأثر على مستقبل الاسلام فى الأندلس [1] .

٨٠ – الخصومة بين العرب والبربر

ولم تقف نتائج هذه الثورة المشئومة عند ذلك الحد ، بل انها خلقت في نفوس العرب والبربر من الكراهة للحكم الأموي في دمشق سيظل قائماً قرونا متوالية لا تكاد الأيام تمحوه. كانت هذه الحرب الضروس حرب فناء بين الجانبين، فلما انهزم الخوارج في افريقية والأندلس ظل بقايا خوارج البربر طوال القرون التالية يحسون الخوف من دولة الخلافة والكراهة لرجالها، وقدانتهى الأمر بعد قرابة ثلاثة قرون باندماج العرب والبربر وقيام الشعب العربي المغربي. وأما في الأندلس فلم يقهر أحد من الجانبين الآخر، لأن عودة الهجرة البربرية الى الأندلس بعد قيام الإمارة الأموية قوّى جانب البربر الخوارج من جديد وأعادهم الى المقاومة، فتقوت مراكزهم وأخذوا يناوئون العرب والأندلسيين مرة أخرى، وسنرى ذلك بصورة واضحة أثناء الأزمة الكبيرة الأولى التي دامت طوال امارات محمد والمنذر وعبد الله ، وسنرى أثر هذه الخصومة واضحاً بشكل خطر حاسم بعد سقوط الخلافة الأموية .

(١) انظر : **BALLESTEROS** : *Historia de España y su influencia en la historia universal*, II, pp. 325 sqq. DOZY, *Recherches*, I, pp. 116 sqq.

يقـول الرازي تعقيباً على هـذه الحوادث التي ذكـرناهـا: «ومن هذا وأشباهه قدمت العداوة بين بربر الوسط وعرب الأندلس، وتوارثها الأبنـاء الى يوم البعث، فبالعرب غزوا في بـلادهم وببأسـهم سبيت ذراريهم وغنمت أمـوالهم حتى أدخلوا في الاسـلام واضطروا اليـه قهرا. قـال: فلما رجـع العـرب الى بلادهم [في] المشـرق، واستقر منهم الأقـل [في] الأندلس ممن أراد الجهـاد ورغب فيه، وكـانَ البربـر يومئـذ أكثر منهم فيهـا لمجاورتهم بلادهم، لم تزل عداوة الأديان والغلبـة تتجدد بينهم»[1]. وفي هـذا الكلام مبالغة.

* * *

هكذا أسدل الستار على هـذه الفتنة الافـريقية الكبـرى بعد حـروب طويلة ودماء غزيرة. ولكن الأيام تكفلت بمحو آثار هـذه العداوة، وبعـد ان قامت الدولة الأموية الأندلسيـة بقليل لـن نجـد في الأندلس إلا انـدلسيين ولكن اسوأ آثارها انها قللت من قوة المسلمين في مواصلة الفتـوح في غالـة وهي فرنسا. فقد كان من الممكن قبـل هذه الثـورة أن يستمر المسلمـون في مغازاة ما لم يغزوه بعد من أنحاء الأندلس حتى يستولوا على شبه الجزيرة كلها، بفضل جموع البربـر المهاجـرة. أما الآن، وقـد عادت هـذه الجموع البربرية الى بلادهـا، وبعد أن هلـك منها في الفتنـة من هلك، فلم يعـد من الميسـور تعمير شبـه الجزيـرة كله بـالمسلمـين. وانفسـح أمـام الاسبـان النصارى مجال النمو، وتجددت آمالهم في غزو بـلاد المسلمين وليس يخفى على أحد أن الأندلس الاسلامي انما أُتِيَ من الشمال والغرب ـ حيث هاجـر البربر ـ ولم يؤت من الشمال الشرقي حيث ظلت جماعات العرب والبربـر مقيمة في اقليم سرقسطة.

(١) روى ذلك صاحب فتح الأندلس، ص ٣٢.

الفصل السادس

القيسيّة واليمنيّة

٨١ – مؤرخو الاندلس والعداء بين القيسية واليمنية

عندما نشر راينهارت پيتر — آن دوزى كتابه المشهور فى تاريخ الأندلس — المعروف بـ «تاريخ مسلمى اسپانيا» — أدار ثلثه الأول على الحروب القبلية التى وقعت بين عرب الأندلس خلال عصر الولاة ؛ وبالغ فى تصوير هذه الحروب حتى جعل العرب الذين استقروا فى شبه الجزيرة شراذم من أهل العصبيات لا هم لها الا الاقتتال فيما بين بعضها وبعض ، كأنهم كانوا منقسمين الى شعبين متعادين لا تربط أحدهما بالآخــر رابطة ، هما شعب عدنان وشعب قحطان ، لا يبالى أحدهما بشىء فى سبيل القضاء على الآخر ، ومضى يصف فى اسهاب الوقائع والأيام التى دارت بين الفريقين فى نواحى الدولة الاسلامية عامة وفى الأندلس خاصة دون التفات الى شىء آخر ، كأن تاريخ العصر الأموى لم يكن الا تاريخ الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب (١) .

ومن هنا جاءت الصورة التى رسمها لعصر الولاة فى الأندلس صورة مشوهة لا تمثل الحقيقة التاريخية فى شىء . ولكن ذلك التشويه لا يخلو من دلالة لها قيمتها . فقد كان دوزى أول من كتب تاريخا للأندلس على منهج علمى صحيح ، وكان أول مؤرخ محدث التمس هذا التاريخ فى

(١) REINHARDT PETER-ANNE DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne* (Leiden, 1861).

وقد لقى الكتاب لأول ظهوره رواجاً عظيما ، فأعيد طبعه وترجم إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية . ثم أشرف إيفاريست ليڤى – پروڤنسال على طبعه طبعة جديدة معدلة منقحة ظهرت فى ثلاثة مجلدات سنة ١٩٣٢ .

مصادره الأولى واقتدر على قراءة هذه المصادر ، فوفق فيما فشل فيه مؤرخون لم يتأهلوا لهذا المطلب بأدواته اللازمة (١) ، ووضع يده على الأصول التى ينبغى أن يؤخذ منها ذلك التاريخ ، ففتح بذلك البـــاب لمن جاء بعده .

وقد نقض آراء دوزى مستشرقون لا يقلون عنه تبحرا ، مثل يوليوس ڤلهاوزن واجناتس جولدتسيهر . فأما الأول فلم يقره على ماذهب اليه من المبالغة فى تصوير ما كان بين العدنانية والقحطانية (٢) ، وأما جولدتسيهر فتعمق الأمر وبحث موضوع العدنانية والقحطانية عامة ، وانتهى الى أن البحاثة الغربيين أسرفوا وأكثروا فى ذلك الموضوع دون سند كاف من الأصول ، فان العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام لم يقولوا انهم ينقسمون الى عرب شمال وعرب جنوب ، وانما نشأ ذلك التقسيم البيّن للعرب الى شعبين متعادين خلال العصر الأموى ونتيجة لسياسة بنى أمية فى

(١) مثال ذلك : MASDEU, *Historia Critica de España*. (Madrid,1805).

وقد تحدث فى الجزء العشرين منه عن العرب فى الاندلس

JOSE ANTONIO CONDE, *Historia de los Arabes en España*, Madrid, 1820.

وانظر نقد دوزى هذين المؤلفين فى أبحاثه :

Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen-Age (3e. éd. Leiden, 1881) vol. I. pp. 30 sqq.

وانظر نقد رامون منندذ پيدال لمعظم ما كتب فى أوروبا فى تاريخ إسبانيا الإسلامية فى :

RAMON MENENDEZ PIDAL, *La España del Cid* (1 era ed. Madrid, 1929) tomo I. pp. 3 sqq.

(٢) انظر الترجمة العربية لكتاب

JULIUS WELLHAUSEN, *Das Arabische Reich und Sein Sturtz.*

بعنوان : تاريخ الدولة العربية إلى نهاية العصر الأموى ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ .

الاستعانة بجماعة من العرب على جماعة وتقريب قوم دون قوم . فاذا قرب الخليفة الأموى قيسيا حظيت قبيلته وحاول أبناء عمومتها أن يفيدوا من ذلك ، واذا قرب الخليفة شيخا كلبيا (أى يمنيا) سخطت القيسية صاحبة الحظوة أولا . وأخذ كل فريق يتعصب لأصحابه ويحمل على منافسيه ، فظهر هذا العداء بين العدنانية (أو المعدية) والقحطانية . وهو عداء أخذ أسماء شتى ، فهو فى الشام خصومة الشام واليمن ، وفى خراسان عداء مضر وأزد اليمن ، وفى الأندلس صراع قيس وكلب . وفى أثناء ذلك الصراع مضى كل فريق يعتز على صاحبه بأعمال أجداده فى الجاهلية ، ونسبوا لهؤلاء الأجداد من الوقائع ما لم يكن ، وهكذا رجع الناس بخصومة العدنانية والقحطانية الى الوراء وتصوروا أن هذه الخصومة قديمة قدم الجاهلية ، وردد المؤرخون ذلك كأنه حقيقة واقعة (١) .

ويعنينا الآن أن نقول ان ما يحكيه مؤرخو الأندلس عن عداء قيس ويمن فى الأندلس مبالغ فيه ، أو على الأقل مبالغ فى تصويره بحيث يبدو وكأنه هو كل تاريخ الأندلس فى عصر الولاة . وهذا هو ما نخرج به من كتابى الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس مثلا ، وهما أكثر المراجع اسهابا فى الكلام على عصر الولاة .

والحقيقة أنه كانت هناك بالفعل عداوة بين قيس ويمن فى الأندلس ، وأصولها ترجع الى ما كان بين هذين الحيين من صراع على السلطان فى قلب الدولة الأموية ، وكان أحدهما اذا انتصر فى مرحلة من مراحل النزاع اشتد على الآخر ، فهاجرت جماعات منه الى الولايات ونفوس أفراده تفيض بالحقد واللدد ، وهناك تنضم الى من تجده من أبناء

(١) انظر تعليقنا على هذا الموضوع على هامش الطبعة الجديدة التى قمنا بها لكتاب جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام ، القاهرة سنة ١٩٥٧ .

عشيرتها ، فتتجمع كِسَرُ القبائل ، وتتكون الجماعات القيسية والمضرية ، ويتجدد النزاع القبلى بصورة أعنف مما كان فى قلب الدولة . حدث ذلك فى خراسان والمغرب والأندلس وغيرها من الولايات .

ولكن العصبية لم تكن وحدها سبب النزاع القبلى فى الأقاليم ، فقد كان هناك التنازع على المغانم والسلطان فى الولايات ، وكانت هناك مصالح جديدة تختلف من ولاية لولاية ، ومن هنا كانت بعض القبائل تتناسى عصبيتها فى سبيل كسب مادى وتنضم الى قبيل غير قبيلها . وكانت هناك قبائل محايدة ، لا هى من قيس ولا هى من مضر ، وكانت تنضم الى هذا الفريق أو ذاك بحسب ما تمليه عليها مصالحها . ومن ثم فقد كانت الأحزاب التى اصطرعت فى الأندلس خليطا من هذين الحيين فى أغلب الأحيان ، ولكن كانت تغلب عليها صفة الأكثرية من جماعتها .

وقد رأينا فيما مر من الكلام طلائع الصراع بين القيسية واليمنية فى الأندلس ، وكيف بدأ الحيان يتنازعان على السلطان ، ثم شغلتهما عنه الثورة البربرية او الفتنة المغربية .

فلما انتهت هذه الثورة خلا الجو لهما فعادا الى النزاع ، وأسرفا فيه اسرافا جاوز كل حد ، حتى ضعف أمر العرب والاسلام فى الأندلس وكاد أمرهما يتلاشى فيه جملة ، لو لم تتداركه العناية بعبد الرحمن الداخل .

* * *

٨٢ - القيسية تستبد بأمور الأندلس

خرج عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمنية مظفرين من المعركة العنيفة مع البربر ، كما خرج منها عبد الرحمن ابن حبيب فى افريقية ، ولكنه لم يطمئن على أمره ما دام بلج وأصحابه الى جانبه ، وقد كان هؤلاء قيسية لا يقنعون بغير

الصدارة والقيادة ، ثم ان هـذا النصر لم يتأت الا بسيوفهم ، فأقام عبد الملك خائفا منهم يترقب ، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى أسرع يطالب حلفاءه بمبارحة الأندلس وفاء بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم ، فتلكأ هؤلاء حينا ، فما كانوا ليتركوا هذا البلد الذى أقبلت عليهم النعمـة فيـه الا اذا أخرجتهم منـه قـوة . ثم ان عبد الملك لم يكن خالص النيـة نحوهم ، اذ اعتذر عن اعادتهم الى افريقيـة جماعة واحدة ، متعللا بأنه لا يملك سفنا كافية لنقلهم وما جمعوا من خيرات وغنائم . وطلب بلج وأصحابه أن يبحروا من الجنوب الشرقى من ناحية تدمير (مرسية) حتى يستطيعوا العبور الى ناحية أخرى من افريقية يستطيعون الذهاب منها الى القيروان ، ولكن عبد الملك أصر على أن يبحروا من الجزيرة الخضراء ، وتعلل بأنه لا يستطيع نقل سفنه من هذه الناحية خوفا من انتهاز البربر الفرصة والعبور الى الأندلس [١] .

٨٣ — بلج بن بشريل أمور الأندلس

وليس الى الشك سبيل فى أن عبد الملك لو وفى لهم بعهده لبحثوا عن تعلة أخرى للبقاء فى الأندلس ، فقد أصابوا فيه من الخير مالم يكونوا يحلمون به ، فأما وقد بدأ هو بالعدوان — لسوء رأيه وقلة سياسته — فلم يعودوا يرون حرجا فى مناصبته العداء ومهاجنته ، ووثبوا به فى أوائل ذى القعدة ١٢٣ هـ (٢٠ سبتمبر سنة ٧٤١ م) وخلعوه وأخرجوه من القصر وأقاموا أميرهـم بلجا واليا على الأندلس . وأقام عبد الملك شبه سجين فى دار له بقرطبة تسمى دار ابن أيوب ، وأفلت ابناه

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ — ٤١ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣١ .
ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .
المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ .

قطن وأمية ، فلحق أولهمـا بأربونة حيث كان يقود جنـد المسلمين عبد الرحمن بن علقمة اللخمى وكان من أنصار عبد الملك بن قطن ، وجعلا ينظران معا فيما عسى أن يصنعاه ازاء هؤلاء القيسيين الذين لم يطمئن لهم جنب حتى أنزلوا اليمنية عن الامارة جملة . وأما أميـة ابن قطن فلحق بماردة حيث اجتمع عليه نفر من عرب الأندلس وبربرها وأخذوا يتحفزون للأخذ بثأرهم من بلج وأصحابه [١] .

أثار انتصار الشآمية هذا ثائرة أهل البلد جميعا : عربا وبربرا واسبانا ، اذ اعتبرهم الجميع أجانب ينبغى اخراجهم على أية صورة . لم يقف العرب منهم موقف عربى من عربى بل موقف صاحب البلد من غاز أجنبى ، ولهذا نجد قدماء عرب الأندلس — يمنية وقيسية — يثورون على هؤلاء الشآمية يدا واحدة ويحاولون اخراجهم . وتلك هى الفترة التى ظهر فيها التمييز بين ما يسمى بالبلديين والشآميين ، فأما البلديون فهم عرب طالعة موسى ومن أتى بعدهم من أرسال العرب ، وقد استقروا فى البلد ورسخت جذورهم فى نواحيها قرابة ثلاثين سنة ، وتوشجت بينهم وبين أهلها الأواصر ، وكان معظمهم يمنية ، واليمنية ذات ميل الى التعمير والاستقرار والهدوء ، فقويت الصلات بينهم وبين الأرض وأهلها . وأما الشآميون فهم هذه الجماعة التى أقبلت مع بلج ، ومعظمهم قيسية ، وقد نظر أهل البلاد اليهم على أنهم أجانب كما قلنا ، واجتمعت كلمتهم على حربهم [٢] ، ولو لم يكونوا على جانب عظيم من الشجاعة والمهارة الحربية لذهبت

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٢ .
المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ ، ١٧ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

ريحهم أو لاندمجوا فى الآخرين . وكان من سوء حظ الأندلس أن يكونوا من خيرة العرب شجاعة وقدرة ، فطال البلاء بهم واستمرت الحرب بينهم وبين البلديين سجالا .

ويبدو أن عبد الرحمن بن علقمة اللخمى لم يحزم أمره على السير لحرب بلج وأصحابه الا حينما بلغه نبأ مقتل عبد الملك بن قطن الفهرى ، فجاشت نفسه ونفس حليفه قطن بن عبد الملك ومن معهما من البلديين ومن التف حولهما من البربر وأهل البلد لطلب الثأر ، وساروا لحرب بلج ومن معه من القيسية . وأما مقتل عبد الملك فقد وقع بعد ولاية بلج بقليل : ذلك أن عامل عبد الملك على الجزيرة الخضراء أهمل فى أمر رهائن القيسية الشآمية الذين كانوا فى جزيرة أم حكيم ، ولم يرسل اليهم الماء بانتظام ، وكان الماء يحمل الى هذه الجزيرة اذ لم يكن فيها ماء . فلما تولى بلج أسرع فأرسل من يفك أسر هؤلاء الرهائن ، فوجدهم على أسوأ حال من الاجهاد والعطش ، ووجد أن أحدهم — وهو غسانى من أهل دمشق — قد مات عطشا ، فنهض اليمنيون من أهل قرطبة يطالبون بلجا برأس عبد الملك فداء لابن عشيرتهم الغسانى ، وتلكأ بلج اذ نفرت نفسه من قتل عبد الملك وهو شيخ قد عدا التسعين ، ثم ان مسئوليته عن موت الغسانى لم تثبت ، فشك اليمنيون فى نوايا بلج وظنوه لا يهتم لثأرهم أو يعطف على عبد الملك لأنه من مضر مثله ، وكادت الفتنة تقع بينهم وبينه ، فلما لم يجد من الأمر بدا أباح لهم دمه ، فأخرجوه « وهو شيخ كأنه فرخ نعامة ، وهو ابن تسعين سنة أو أكثر ، حضر الحرة مع أهل المدينة ، ومنها فلّ الى افريقية ، فأخرجوه ، وهم ينادونه : « يا فالّ ! فللت من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا (ل) أكل الكلاب والجلود طلبا بثأر الحرة ، ثم بعتَّ جند أمير المؤمنين ! » . ثم

قتلوه وصلبوا رفاته وعن يمينه خنزير وعن يساره كلب ، امعانا فى الزراية والنكاية » (١) .

فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن علقمة اللخمى وقطن بن عبد الملك ومن معهما من العرب فى اقليم أربونة ، ثارت فى نفوسهم الحمية لطلب الثأر ، وساروا بجمعهم نحو قرطبة للقاء الشآميين وحربهم ، وثارت العصبية مرة أخرى فى نواحى الأندلس كلها ، وتسارع اليمنيون للانضمام الى عبد الرحمن بن علقمة ، وجمع بلج من استطاع جمعه من قيس ومن انضم اليهم من مواليهم من البربر ومن أهل البلد الاسبان . وطبيعى أن يكون جمع اليمنية أضخم لأن معظم البلديين انضموا اليهم ، فيقال أن عددهم بلغ أربعين ألفا على قول ، ومائة ألف على قول آخر ، فى حين لم يزد من مع بلج عن اثنى عشر ألفا . وعسكر بلج وأصحابه فى موضع يقال له أقوة بُرطوَرة على بريدين من قرطبة (٢) .

٨٤ — موقعة أقوة برطورة

ولم يلبث عبد الرحمن ومن معه أن أقبلوا بجموعهم ، ووقع اللقاء بينهم وبين خصومهم ، ولم يعرف عرب الأندلس وقعة بينهم وبين أنفسهم أعنف ولا أحمى ولا أبعد أثرا من هذه ، لقد تفانى الجانبان فى القتال وتساقط الآلاف منهم جرحى ، وحسب عبد الرحمن بن علقمة أنه يضع حدا لهذه المذبحة اذا قتل بلجا ، وكان عبد الرحمن أعظم مقاتلى الأندلس وأرماهم بالنبل ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص٤٢ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ص ٣٢ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٦ .
الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .
وانظر عن أقوة برطورة : المعجم الجغرافى الملحق بترجمة لافوينتى ألكانترا للأخبار المجموعة ، ص ٢٤٣ .

فسأل عن بلج فدلوه عليه ، ففوق نحوه سهامه ومشى نحوه على عجل وضربه بالسيف ضربتين أصابتا منه مقتلا . ويبدو أن هجومه زعزع الشآمية عن مواضعها حتى خشى رجالها الهزيمة ، فتصدى له واحد منهم هو الحصين بن الدجن العقيلى قائد خيل جند قنسرين وثبت له وجعل يبعده ومن معه عن الميدان حتى انفرد به وشغله عن المعركة الدائرة ، وانتهز البلجيون الفرصة فهجموا على بقية البلديين هجمة قصموا بها ظهورهم وألحقوا بهم مقتلة شديدة . واستمر القتال أياما ، ومات بلج بعد يومين متأثرا بجراحه ، فتولى قيادة الشآميين ثعلبة بن سلامة العاملى ، ورجحت كفة البلديين حينا وانهزموا الى ماردة حيث أقبلت جموع البلديين ومن معهم من البربر تحاصرهم ، وخاف ثعلبة الهزيمة ، فكتب الى خليفته بقرطبة أن يخرج لمناجزة أهل البلد . وطال القتال ، وحضر عيد الأضحى ، فشغل به البلديون عن قتال الشآميين ، فانتهز هؤلاء غرتهم ونهضوا فيهم نهضة أزالتهم عن مواضعهم وأنزلت بهم مذبحة وهزيمة عظمى ، وبهذا انتهى هذا الصراع العنيف بهزيمة ساحقة لليمنية والبلديين . وقد كانت الهزيمة ساحقة الى درجة فلت غربهم وأضعفتهم وأخرجتهم من ميدان السياسة ومن القيادة ، ومن ذلك الحين أخذ معظمهم يتفرقون فى نواحى البلاد ، ويشتغلون بالزراعة والتجارة وما اليهما من أمور المعاش وشئون النشاط السلمى . ومن هنا أهمية هذه الموقعة فى تاريخ البلاد الاجتماعى [١] . ولم يستطع من بقى منهم فى الميدان النهوض من جديد ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٣٣ – ٣٤ .
وانظر عن ثعلبة بن سلامة :
الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ رقم ٦٠٦ .
المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٣ – ١٤ .

الا حينما أقبل عبد الرحمن الداخل على ما سيأتى ذكره .

واقترب ثعلبة بن سلامة العاملى بمن معه من قرطبة يجر فى ركابه من وقع فى قبضته من كبار اليمنية وذراريهم أسرى ، ونزل عند المصارة [١] من ظواهر قرطبة وعقد سوقا لبيع هؤلاء الأسرى ، وقد أراد له لدد العداوة أن يبيعهم لمن ينقص لا لمن يزيد ! فجعل الناس ينقصون حتى بيع واحد من كبارهم بكلب وثان بعود ، واستمرت هذه المهزلة المبكية أياما [٢] .

٨٥ – مجىء أبى الخطار بن الحسام الكلبى

فبينما ثعلبة فى ذلك اذا ضجة تتعالى من بعيد ، واذا موكب يقترب ، ونظر الجمع فاذا وال جديد للأندلس يقبل ومعه وثيقة التعيين من حنظلة بن صفوان عامل افريقية ، وهو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ، بعثته العناية فى هذه اللحظة لينقذ أسرى البلديين من هذا البلاء المهين الذى كان ثعلبة ومن معه من الشآميين يصرون على انزاله بهم . وكان أبو الخطار « رجلا من خيار أهل الشام من أهل دمشق ، فرضى به الشآميون والبلديون ، وأطلق الأسرى والسبى ، فسمى ذلك العسكر « عسكر العافية » ، وأقفلت ثعلبة بن سلامة وعثمان بن أبى نسعة وعشرة من قواد الشام ، وأمن ابنى عبد الملك بن قطن ، فاستقامت حال الناس

(١) تقع إلى شمالى قرطبة ، ويذكر لافوينتى ألكانترا فى قاموسه الجغرافى الذى ذيل به ترجمته للأخبار المجموعة أن موضعها كان موضع طاحونة زيت ، (المصارة – المعصرة = Almazara بالإسبانية)
انظر الترجمة الإسبانية ، ص ٢٤ هامش .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٣٣ – ٣٤ .

بالأندلس ، وأنزل أهل الشام بالكور » [١] .

وبدأ أبو الخطار ولايته على الأندلس فى ذلك اليوم من رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣ م) . وصادف بدء ولايته ميلا عاما من مسلمى الأندلس الى المهادنة والسكينة بعد ما كان من شرور العصبية ، وكانت الحروب قد أنهكتهم وكادت تفنيهم حتى خشوا على أنفسهم غائلة نصارى الشمال ، وكانوا قد بعثوا الى حنظلة وفدا منهم يبسط له سوء حال الأندلس ويرجوه أن يغيثها برجل فاضل يكف القتال ويقر السلام بين الجماعات المتعادية ، فتخير لهم أبا الخطار هذا وبعثه فى اللحظة المناسبة على ما رأينا . وقد بدأ أبو الخطار ولايته بدءا حسنا فأمن أمية وقطن ابنى عبد الملك بن قطن ومن معهما من اليمنيين والبلديين المروعين بعد هزيمتهم ، وأخرج من الأندلس نفرا من المسرفين فى عصبيتهم

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٦١ – ٢٦٣ رقم ٦٨٦ .

وقد أمدنا ابن القوطية بملاحظات طيبة عن ولاية أبى الخطار ، فقال إن هشاماً حينما بلغه ما فيه عرب الأندلس من افتراق وحروب شاور ابن أخيه العباس بن الوليد (يذكر ابن القوطية خطأ أنه أخوه) فنصحه بأن يعدل عن عدائه لليمنية القحطانية لكى يجتذب قلوبهم ، فاستمع لنصيحته وولى حنظلة بن صفوان الكلبى إفريقية وأمره بأن يولى ابن عمه أبا الخطار الأندلس فمضى أبو الخطار فى نحو ثلاثين رجلا من الشآميين (من عرب إفريقية ، ويسميهم ابن القوطية الطالعة الثانية من الشآميين) . وأراد أن يفاجىء عرب الأندلس ، فسار متستراً وأخفى لواء الولاية الذى أعطاه إياه حنظلة فى عيبة كانت معه ، فلما نزل بوادى شوش واقترب من المكان الذى كان الفريقان يتحاربان فيه بقبلى قرطبة ، رفع اللواء وأعلن نفسه للفريقين ، فتسارعا إليه كل يشكو من الآخر . فاشترط عليهم السمع والطاعة ، فأجابوا . وذكر له اليمنيون أنهم لا يحتملون الشآميين ولا بد من إخراجهم عنهم ، فطلب إليهم أن يمهلوه حتى يدخل قرطبة ويستريح ، ثم يفصل فى أمرهم بالعدل ، فأجابوا . وقد بدأ أمره بإخراج ثعلبة بن سلامة العاملى والوقاص بن عبد العزيز الكنانى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى من الأندلس إلى طنجة بافريقيــة ، ثم ثنى بتفريق الشآميين فى نواحى الأندلس على ما سيأتى بيانه .

انظر : افتتاح الأندلس ، ص ١٩ – ٢٠ .

من الشآميين وأعادهم الى افريقية وفيهم ثعلبة بن سلامة ، وانتهى بعد تفكير الى ضرورة ابعاد الشآمية القيسية عن قرطبة لكى يخلص من متاعبهم .

٨٦ – إخراج الشآميين من قرطبة إلى الكور

اقترح عليهم أبو الخطار أن ينتقلوا الى الأرياف فى الكور ، على أن يجعل لهم ثلث ما يجبى من أهل الذمة فى النواحى التى يختارون الاقامة فيها .

ولم تفصل لنا المراجع هذا الاتفاق بأكثر من ذلك ، فلسنا نعلم ان كان استقرارهم فى هذه النواحى معناه قيامهم بجباية أموالها واحتجاز الثلث لأنفسهم وارسال الثلثين الى قرطبة ، أو أن عمال والى الأندلس كانوا يجبون الخراج على العادة ويعطون ثلثه لهؤلاء العرب الشآميين . فان كان النظام الأول فمعناه أن أبا الخطار أقطعهم هذه النواحى مقابل أن يؤدوا ثلثى خراجها دون أن تتدخل الادارة المحلية فى شئونهم أو شئون الاقليم ، وان كان الثانى فمعناه أن هذا الثلث الذى كان يعطى لهم كان معتبرا « عطاء » عن الخدمة العسكرية التى كانوا ملزمين بأدائها بصفتهم جندا رسميا مقيدا فى الديوان . ولكن الغالب أنهم استقروا فى هذه النواحى على النظام الأول ، أى « مقطعين » ، لأن شواهد الحوادث بعد ذلك تدل عليه صراحة ، ثم انه كان — كما سنرى — النظام السائد المتبع فى الأندلس الى ذلك الحين [١] .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ .

إيزيدور الباجى ، الجزء المنشور ذيلا للأخبار المجموعة ، الفقرات من ٦٤ إلى ٦٧ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١– ١٤ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ .

ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٨– ١٩ .

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, I. pp. 168-169

E. LEVI-PROVENCAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane*, I. pp. 34-35.

حرص أبو الخطار ، وهو يقوم بذلك ، على ألا يمس حقوق البلديين، وكان هؤلاء قد توزعوا فيما بينهم بعض نواحى الأندلس الخصبة على مثل هذا النظام من المقاطعة : كان كثيرون منهم قد استقروا فى أقاليم سرقسطة وأربونة وباجة واشبيلية ، فلم يشأ أبو الخطار أن ينزل هؤلاء الشآميين الى جوارهم ، وقد أشار عليه بذلك أرطباس بن غيطشة شيخ نصارى الذمة ، وكان مقيما اذ ذاك فى قرطبة متمتعا بمقام كريم بين العرب وأهل جنسه وعند الولاة . ويبدو أنه كان مشيرا لهؤلاء ، يسألونه الرأى فيما يحزبهم من شئون البلاد ، وهو بها أعرف ، وقد أشار على أبى الخطار بذلك ، وكان رأيا حسنا ، قبله الشآميون ، فبادر أبو الخطار الى انفاذه(١).

أقر أبو الخطار كل جماعة من الشآمية آتية من جند بلد واحد فى ناحية ، وكان جند مصر أكثرهم عددا فأنزلهم فى ثلاث نواح هى أوكشونبة وباجة وتدمير (مرسية) ، وأنزل جند حمص فى اشبيلية ، وجند فلسطين فى شذونة ، وجند الأردن فى ريُّه (ناحية مالقة) ، وجند دمشق فى البيرة ، وجند قنسرين فى اقليم جَيَّان ، وبهذا تفرق هذا الجند المشاغب فى نواح شتى متباعدة فهدأ أمرهم الى حين ، وكان انزالهم بعيدا عن مواقع البلديين الأول سببا فى سكون هؤلاء واطمئنانهم لعدل أبى الخطار . فأقاموا « على ما بأيديهم من أموالهم لم يتعرض لهم فى شىء منها » . فلما وجد الشآميون أنفسهم فى بلاد « تشبه بلادهم ، و[فى] توسعة ، سكنوا واغتبطوا وتمولوا » (٢) .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبدالله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، ج ١ . ص ١٠٩
البيان المغرب (طبعة كولان وپروفنسال ، ليدن ١٩٥١) ج٢ ص ٣٣

DOZY, *Recherches*, I. pp. 79-80.

SIMONET, *Historia de los Mozàrabes de España*. pp. III, 197-198.

E. LEVI-PROVENCAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, p. 35. note I.

(٢) فتح الأندلس ، ص ٣٧ .

فاستقر الكثير منهم فى الأرض وأخذ يعمل فيها ، وشغلوا بذلك عن منازعات السياسة والعصبية ، ولم يلبثوا أن كثرت أموالهم ، وكان فى ذلك خير كثير للأندلس وأهله .

ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السياسة العادلة لصلحت الأحوال وانتهت هذه العصبية البغيضة التى مزقت عرب الأندلس الى ذلك الحين شر ممزق ، ولكنه لم يلبث أن انحرف عن الجادة ومال الى عصبيته الكلبية اليمنية ، وكان سبب ذلك مقتل صديق له عزيز عليه هو سعد بن جوّاس ، فاتهم الشآمية القيسية بقتله ، وأخذ يتحيفهم وينزل بهم ما يستطيع من الأذى (١) ، فاستعرت نيران عصبيتهم من جديد ، وبدا بوضوح أن الأندلس مشتعل مرة أخرى بنيران هذه العصبية على صورة أشد مما رأى فى سابق الأيام . وحدث أن معديا كنانيا من الشآمية اختلف مع كلبى فشكاه الكلبى الى أبى الخطار ، فجار هذا فى حكمه على المعدى (العدنانى) ، فذهب الى شيخ من كبار الشآمية يسمى الصميل بن حاتم بن شمر — ويلقب بذى جوشن — يشكو له ما أصابه ، فمضى هذا الى أبى الخطار . وكان أبو الخطار يتخوف الصميل ، لأن أمر القيسية كان قد انتهى اليه وفاقهم بالنجدة والسخاء ، وتوجس منه أبو الخطار شرا .

٨٧ – ظهور الصميل بن حاتم

فلما أقبل الصميل الى أبى الخطار فى شأن العدنانى انتهز أبو الخطار الفرصة وأحب أن يشفى بعض لدد نفسه منه ، فلكزه وشتمه وأمر جنده أن يضربوه ، فضربوه حتى مالت عمامته من على رأسه ، فخرج وقلبه يتلظى بنيران

(١) الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٦١ .

الثأر ، وعاد الى داره بقبلى قرطبة فجمع كبار قومه وأخذ يشاورهم فى السبيل التى يستطيعون بها أن يغسلوا هذه الاهانة ويدركوا ثأرهم من أبى الخطار واليمنية (١) .

وكان الصميل فى ذاته شخصية غريبة جدا ، تكاد تعتبر فى ذاتها نموذجا لهذا الطراز من العرب الذين دخلوا الاسلام بخيرهم وشرهم ، وظلوا فيه على حالهم لم يكد الايمان يمس قلوبهم أو يغير منها شيئا ، وقد وصفه دوزى وصفا لطيفا لا بأس من ايراده لدقته : « لم يكن الصميل رجلا عاديا لا فى الخير ولا فى الشر ، وكانت نفسه بطبيعتها خيرة كريمة ولكنها كانت خاضعة لقوتين متكافئتين من الخير والشر ، متعالية حياشة عنيفة لا تنسى ثأرها . كانت نفسه مهيأة تهيئة قوية ، ولكنها كانت جاهلة نشيطة خاضعة للغريزة يقودها الحظ كيف شاء ، كانت خليطا غريبا من الملكات المتعارضة أشد التعارض . كان يبدو نشطا مثابرا اذا ما استثيرت عواطفه ، فاذا هدأت ثورة نفسه بدا كسولا قليل الاكتراث . وكانت هاتان الخصلتان الأخيرتان أقرب الى طبعه . وكان كريما واسع العطاء ، وكانت تلك صفة يقدرها أصحابها أكثر مما قدروا غيرها ، وقد بلغ من كرمه أن شاعره كان يحرص ألا يزوره الا مرتين فى العام ، مرة فى كل عيد ، حتى لا يستنفد الصميل ماله ، اذ كان أقسم أن يهبه كل ما عنده مهما رآه . وكان لكل سيد عربى شاعره ، كما كان الحال عند سادة العشائر الاسكتلندية . ولم يكن الصميل مع ذلك رجلا متعلما ، اذ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب (٢) ، على الرغم من غرامه بالشعر ، وبالشعر الذى يدور حول مديحه بوجه خاص ، وعلى الرغم من أنه كان

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .

فتح الأندلس ، ص ٣٧ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

ينظم الأبيات منه بين الحين والحين ، وكان أصحابه يرون أنه أتى بعد زمانه »(١) . بيد أنه كان خبيرا بالحياة لا يكاد يفوته من وجوهها شىء ، حتى أن أعداءه أنفسهم كانوا يقررون أنه نموذج كامل للأدب . وشخصية الصميل كانت استمرارا لهذا الطراز من أشراف العرب القدماء المسرفين فى حبهم للحياة ، والذين لم يكونوا مسلمين الا بالاسم ، فقد كانت أخلاقه منحلة ، وكان لا يكاد يحفل لشىء من أشراط الدين : فكان يشرب الخمر على الرغم من نهى الدين عنها ، فكان يسرف فى الشراب حتى لينام كل ليلة سكران (٢) . فأما القرآن فقد كان لا يعرف منه شيئا ، ولم يكن ليهتم بتعرف هذا الكتاب ، اذ أن مبادئه التى تدعو الى المساواة كانت تمس كبرياءه . ولقد خطر يوما بمؤدب يؤدب الصبيان وهو يقرأ « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فقال الصميل : « نداولها بين العرب » فقال له المؤدب : « بين الناس » ، فقال الصميل : « وهكذا نزلت الآية ؟ » ، قال له : « نعم ! » ، قال الصميل : « والله انى أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل ! » (٣) . ولا نزاع فى أن الكثيرين جدا ممن شارك فى فتح الأندلس وساهم فى هذه الحروب القبلية بضلع عظيم كان من هذا الطراز ، وهذا ما يفسر اسرافهم فى حروبهم العصبية التى نحن بصددها .

---

(١) إشارة إلى قول أرطباس للصميل فى حديث له معه : « يا أبا جوشن ، إن أهل ديانتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر علىّ برّمن برّت » ، أى أن أدب الإسلام لم يؤثر فى نفسه ، وظل جاهلى الطبع والخلق والنزعات .

DOZY, *Musulmans d'Espagne* (2ème éd-Layde, 1932) I p. 173-174

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧١ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

٨٨ – هزيمة أبى الخطار وولاية ثوابة ابن سلامة القاملى

فلمـا انتهى الصـميل الى داره فى عقـدة الزيتـون قبـلى قرطبـة ، جمـع من لقى من الشـآمية ومضى يسـتشيرهم فيمـا هـو فاعـل . وكان يحس قـلة الشآمية القيسية أمام الكثرة اليمنية الكلبية التى كان أبو الخطـار يرأسها ، فثاب له رأى فى التقرب الى اللخميين والجذاميين من اليمنيين وعرض الرياسة عليهم مقابل معاونته فى حربه مع أبى الخطار ، وكان يوسف الفهرى شيخ اللخميين حانقا على أبى الخطار متلهفا على فرصة يشفى فيها لدد نفسه فاستصوب الشـآمية رأيه . ولم تكن القيسية اذ ذاك على اتفاق تام ، اذ كانت غطفان منحرفة فى استجة ، لأن شيخها أبا العطاء كان يحسد الصميل على رياسته للقيسية دونه ، لهذا بادر الصميل بالتوجه الى استجة واسترضى أبا العطاء وكسبه الى جانبه ، ثم مضى الى مورور حيث كانت منازل جذام وشيخها ثوابة بن سـلامة العاملى . وبهذا جمع الصميل بنشاطه وذكائه عصبة قوية من قيس ولخم وجذام وغطفان ، واجتمع رجال هذه القبائل فى شذونة وعولوا على السير الى قرطبة وعزل أبى الخطار (١) .

وعجل أبو الخطار بالخروج للقاء الشآمية وهو لا يشك فى الظفر ، ولم يكن يدرى بما دبره الصميل من استمالة لخم وجذام واضعاف جبهة اليمنية ، وكان اللقاء عند وادى لكه الذى شهد الى اليوم من حروب المسلمين شيئا كثيرا . وقد تقاعس معظم الكلبية عن قتال بنى عمومتهم

(١) DOZY, *Musulmans d'Espagne*, I. pp. 173-174.
الأخبار المجموعة ، ص ٥٦ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٥ .
المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٧ .
ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٥٧ .

جذام ولخم ، ثم تركوا أبا الخطار فى قلة وولوا مدبرين ، فلبث بعض الوقت حتى اضطر الى الفرار ، فاذا هو جاد فى فراره يريد قرطبة وقع أسيرا فى يد أعدائه ، فكبلوه بالحديد ، وتولى ثوابة بن سلامة العاملى أمر الأندلس بحسب ما تم بين الصميل رأس القيسية الشآمية وأبى العطاء رأس غطفان وثوابة هذا سيد لخم وجذام (رجب سنة ١٢٧ هـ / أبريل سنة ٧٤٥ م) (١) .

لم تدم ولاية ثوابة الا عاما وبعض عام ، ولم يحدث فيها من جليل الأمور الا محاولة أبى الخطار استعادة الولاية وجمعه نفرا من اليمنية وسيره الى قرطبة ، وقد اندحر أبو الخطار وتبدد كل أمل له فى الولاية ، واختفى من صفحات التاريخ الأندلسى بحيلة ماهرة دبرها هذا الرجل الماهر الصميل بن حاتم : حينما عسكر الجيشان وجها لوجه وأخـذا يستعدان للحرب ، انتهز الصميل فرصة هبوط الليل وبعث رجلا من معد وقف بمعسكر اليمنية وناداهم مؤكدا لهم أنه انما يقول ما يقول حقنا للدماء لا خوفا من القتال ، وجعل يسفه أحلامهم فى السير لنصرة أبى الخطار وحرب بنى عمومتهم من لخم وجذام ، ويذكرهم بأن القيسية لو كانت تريد قتل أبى الخطار لقتلته وقد كان بيدها بالأمس أسيرا ، وأنهم لا ينبغى أن يخشوا شيئا من ثوابة لأنه جذامى وجذام يمنية ، ففعلت هذه الكلمات فعلها فى نفوس اليمنية الكلبية وانفض معسكرهم وعادوا الى مواطنهم ، وهكذا فسد أمر أبى الخطار وضـاع أمره ، واستطاع الصميل أن يكسب الموقف بذكائه وقدرته (٢) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

وصفا الأمر لثوابة حينا ، ولكن ولايته لم تدم طويلا كما ذكرنا ، فقد عاجله الموت بعد عام من انتصاره الأخير على أبى الخطار . ولم يكد يختفى من الميدان حتى هب ابنه عمر يطالب بأن يخلفه فى السيادة . ونهض لمنافسته يحيى بن حريث رأس جذام وأحد كبار العرب الذين كونوا هذا الحلف .

٨٩ — الصميل ابن حاتم يمهد الطريق ليوسف الفهرى

وكان الصميل يستطيع أن ينادى بنفسه أميرا على الأندلس فى ذلك الحين ، لأنه كان بالفعل رأس العصبة القائمة بالأمر ومصرِّف شئون البلاد ، ولكنه كان أذكى من أن ينفر أحلافه من اليمنية بمثل هذا العمل ، وكان لا يرضى كذلك أن يترك الأمر لأحد من المتنافسين مخافة أن يستبد به وبجماعته ، فمضى يبحث عن شخص يرضاه اليمنيون ويأمن جانبه القيسيون ثم يكون الى ذلك ضعيفا سهل القياد حتى يملك زمامه . وهداه البحث الى يوسف الفهرى سيد الفهريين فى الأندلس ، وكان للفهريين مقام ممتاز عند العرب أجمعين اذ ذاك ، لأنهم ذؤابة قريش وكانت قريش فى هذه المنازعات كلها حيادا لا تسرف فى الميل الى فريق دون فريق ، وقد عجل الصميل بتثبيت أمر يوسف حتى يفسد على يحيى بن حريث سيد جذام مطامعه فى الامارة . وكان يحيى شديد الكراهية للشآمية ، وكان يقول : « لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها » (١) ، فكره الصميل — وهو شآمى قيسى — أن تصير الامارة اليه فيصيب قومه منه شر . فلما تم أمر يوسف

(١) الأخبار المجموعة ، ص٦٠ .
ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٧ — ٣٨ .

الفهرى سعى الصميل حتى أقام يحيى بن حريث عاملا على ريه ترضية لنفسه ولقومه (١) .

من ذلك اليوم أصبح أمر الأندلس فى واقع الأمر بيد الصميل بن حاتم ، فقد كان يوسف الفهرى رجلا سهل القياد عالى السن ، فمضى الصميل يصرف الأمر كما يشاء ، وكان كما لاحظنا رجلا كيسا واسع الحيلة ، فلم يعسر عليه قياد بقية الزعماء . وقد استطاع هذا الرجل أن يكسب ود من تحالف مع القيسية الشآمية من معد ، فقوى أمره وأمر صاحبه الفهرى .

فاذا استقر الأمر للصميل على هذا النحو فقد بدأ يفكر فى التخلص من يحيى بن حريث جملة ، وكان يحيى كما عرفنا شديد الكراهية للشآمية وكان لا ينفك منازعا للصميل مهددا أمره . فبادر الصميل بعزله عن ولاية ريّه قبل أن تثبت قدمه ويشتد ساعده فيها . فلم يكد العزل يبلغه حتى نفر وقومه للحرب . وسعى حتى وضع يده فى يد أبى الخطار سيد الكلبية اليمنية الذى كان يعيش فى قومه ببعض نواحى اشبيلية مهملا ضعيفا بعد هزيمته (٢) ، وهكذا اتفقت كلب كلها على محاربة الصميل ومن معه من قيس ، وشعر الصميل بالخطر وعرف أن يحيى فاعل به وبقومه الأفاعيل اذا قدر له النصر ، ولهذا عجل فاستنفر المعدية القيسية

(١) يذكر صاحب الأخبار المجموعة أن النزاع على الولاية كان شديداً بين يوسف الفهرى ويحيى بن حريث وعمرو بن ثوابة (يكتبه ثوابة بن عمرو خطأ) .
الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٢) كانت قضاعة قبل إجماع عرب الأندلس على يوسف الفهرى ، قد تعصبت لأبى الخطار وقام شيخها عبد الرحمن بن نعيم الكلبى فجمع مائتى رجل وأربعين فارساً وهاجم قرطبة واستنقذ أبا الخطار ومضى به إلى كلب وأقره فى ناحية إشبيلية .
الأخبار المجموعة ، ص ٥٨ .

كافة ، فتسارعوا اليه . وكان من لطف المقادير أن الدعوة الى الحرب لم تمس الا عرب جنوب الأندلس وحدهم ، فبقى أهل الشرق والشمال الشرقى والغربى فى مواطنهم لم تحرك الدعوة منهم ساكنا ، ولهذا سينحصر الصراع المقبل فى حدود ضيقة ، ولن يكون له من النتائج السيئة ما كان لما سبقه من الحروب التى أتينا عليها .

٩٠ – موقعة شقندة سنة ١٣٠ هـ (٧٤٧ م)

وكان القتال بين الجانبين هذه المرة فريدا فى بابه ، يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقوله (١) :

« فلما رأت قضاعة ما يدعو اليه ابن حريث أحبوا جمع كلمة اليمن كلها ، فأجابوا ابن حريث وقدموه . فأصفقت يمن الأندلس حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها . واحتازت مضر وربيعة الى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل . فلحق خيار اليمن بابن حريث من كل جند ، وتجرع أهل البلد بتجرع أهل الشام ، ولحق خيار مضر بيوسف والصميل ، لا يعرض أحد لأحد : يخرج الجوار فيودع بعضهم بعضا حتى يلحق كل رجل بقومه (!) وهى أول حرب كانت فى الاسلام بهذه الدعوة .. فزحف ابن حريث وأبو الخطار الى يوسف والصميل بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة (الوادى الكبير) بقبليها بقرية شقندة . وعبر يوسف والصميل النهر اليهما بمن معهما . فالتقوا حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح . وثبتت الخيل وحميت الشمس . ثم تداعوا الى البراز ، فتنازلوا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت (هكذا فى النص والأصح تقصفت) ،

(١) وصف ابن القوطية هذه الوقعة وصفاً موجزاً .
انظر : الافتتاح ، ص ٢٠ .
وذكرها ابن عذارى ببعض التفصيل : البيان ، جـ ٢ ، ص ٣٧ .

ثم تقابضوا بالأيدى والشعور (!) لم يكن فى الاسلام صبر مثله ، الا ما يذكر من صفين . ولم يكن القوم بكثير لا هؤلاء ولا هؤلاء ، وانما كانوا خيارا من الفريقين وكانوا متقاربين ، الا أن اليمن كانوا أكثر قليلا . فلما أعيى بعضهم بعضا تواقفوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقسى والجعاب ، ويحثى (هكذا وصحتها يحثو) بعضهم التراب على بعض .. اذ قال الصميل ليوسف : ما وقفنا اذ خلفنا جندا نحن عنهم فى غفلة ! قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة ! فرد اليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب[...] فأخرجا منهم نحوا من أربعمائة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق ، فخرج الجزارون بسكاكينهم ، فجاءوا الى قوم موتى ، وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لا صلاة خوف ولا أمن ، وقتلوا وأسروا بشرا كثيرا خيارا ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين . وكان ابن حريث لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحى التى بموضع بيع الخشب ، فلما أسروا أبا الخطار وهموا بقتله قال : ليس علىّ فوت ، ولكن عندهم ابن السوداء ابن حريث ! فدل عليه ، فأخرج وقتلا جميعا ، وكان ابن حريث يقول : لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها ! فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء ! هل بقى فى قدحك شىء لم تشربه ؟ » (١) .

تلك كانت خاتمة أبى الخطار الذى أتى ليصلح الأمور فزادها سوءا ، وأراد أن يستنقذ اليمنية من استبداد القيسية ففقد حياته وحياة من

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٩ – ٦٠ .

ساروا معه . ودفع اليمنية الى وهدة من الهزيمة لن تنهض منها الا فى ظلال عبد الرحمن الداخل وامارة قرطبة ، وأصبحت الأندلس من تاريخ تلك الواقعة تحت سلطان يوسف الفهرى فى الظاهر وسلطان الصميل بن حاتم فى واقع الأمر .

٩١ – مأساة أسرى شقندة

وأحب الصميل أن يشفى أحقاد نفسه ، فسار بالأسرى مصفدين وقعد لهم على باب جامع قرطبة ، وكان من قبل كنيسة القديس بجنت (قسينتو — ڤنسنت) ، وجعل يقضى فى أمرهم بالموت واحدا واحدا فى لذة ووحشية واستخفاف يثير النفس ، فلما ضرب أوساط سبعين منهم ثارت نفس حليفه أبى العطاء شيخ جذام ، فقام ينهاه ، ولكن الرجل رده وقال له فى نشوة الانتقام : « اقعد أبا عطاء ، فهذا عزك وعز قومك » ، ومضى فى هذه المذبحة البشعة حتى لم يطق أبو عطاء الصبر ، وخشى أن يكون الصميل القيسى يسرف هذا الاسراف فى التشفى من اليمنية رغبة منه فى القضاء عليها ، وتحركت فى أبى عطاء يمنيته ، فقام الى الصميل يقول : « يا أعرابى ! والله ان تقتلنا الا بعداوة صفين ؛ لتكفن أو لأدعون بدعوة شآمية » ، وبهذا التهديد وحده خاف الصميل وكف عن هذا العمل البشع [١] .

٩٢ – المجاعة تجتاح الأندلس

واستقامت الأمور ليوسف الفهرى والصميل بن حاتم بعد هذا النصر الحاسم على من كانوا يناوئونهما من اليمنيين ، وكان الصميل كما رأينا شخصية قوية بعيدة الطموح فى حين كان يوسف الفهرى رجلا مسنا فى نفسه خمول ، فجعل الصميل يصرف الأمر من دونه . ويستبد به حتى سئم الرجل وفكر فى

(١) نفس المصدر ، ص ٦١ .

الخلاص من هذه الوصاية التى يفرضها عليه هذا القيسى القوى . فعرض عليه أن يقيمه حاكما على اقليم سرقسطة ، وقبل الصميل ذلك ، وكان اقليم سرقسطة موطن معظم اليمنيين ، فأراد يوسف أن يذلهم بهذا القيسى القح [١] . وكانت البلاد تعانى اذ ذاك مجاعة حادة لم يسلم من شرها الا اقليم سرقسطة بفضل مياهه وخيراته ، فكان ذلك مما مال بالصميل الى اطاعة أمر يوسف .

وأما أسباب هذه المجاعة فترجع الى هذه الحروب العنيفة التى وقعت بين العرب : شامية ويمنية ، وبين العرب والبربر . وقد رأينا أن هذه الحروب لم تكن قصيرة الأمد ولا محصورة الميدان ، وانما امتد شرها حتى شمل سكان البلاد جميعا وأقاليمها كلها ، وقد رأينا أن العرب انجفلوا من المواضع التى كانوا قد استقروا فيها فى الوسط والشمال والغرب وخلفوها لا يكاد يشرف على عمارتها أحد ، وأقبل البربر فى أعقابهم وهجروا مواقعهم البعيدة وساروا هم الآخرون الى الجنوب ، ثم انهزموا أمام العرب هذه الهزائم المتلاحقة ، وتتبعهم هؤلاء بالأذى فى كل ناحية حتى ضاقت بهم البلاد ، وأخذوا يهجرون الأندلس ويعودون الى مواطنهم الأولى فى افريقية جماعات [٢] . هكذا فقدت النواحى أعدادا عظيمة ممن كان قد سكنها من العرب والبربر الذين كانوا يقومون على زراعتها وعمارها ، فلا غرابة أن تقل المحاصيل وتتعرض البلاد لخطر المجاعة. ثم ان هذه الحروب المتوالية بين العرب حينا وبين العرب والبربر حينا آخر قد دارت رحاها فى الأقاليم الخصبة المزروعة فى الجنوب والجنوب الشرقى ، فخرب كثير من المزارع واضطرب أمر زراعها ، وزادت المحاصيل قلة تبعا لذلك . وانتهز النصارى الاسبان الفرصة وأخذوا ينحدرون الى

(١) الأخبار المجموعة ، ص٦٣ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص٦٢ .

الجنوب واحتلوا المنطقة الواسعة الواقعة بين نهرى دويره وتاجه وأخذوا
يغازون المسلمين ، فانضاف الى الأندلس الاسلامى بلاء آخر جديد كانوا
قد ظنوا أنهم استراحوا منه (١) ، واجتمعت العوامل كلها فزادت الأمر
حدة ، واشتد الجوع وعظمت البلوى وانعدم الأمن حتى تقطعت الصلات
بين النواحى ، وبلغ من الأمر أن صاحب الأخبار المجموعة يذكر أن يوسف
الفهرى احتاج مرة الى رسول يبعثه الى الصميل فى سرقسطة فلم يجده ،
اذ كان الرسل القادرون جميعا قد هلكوا ، وانقطعت المواصلات أو كادت
بين قرطبة وسرقسطة (٢) .

دامت هذه الحال خمس سنوات من سنة ١٣١ هـ الى سنة
١٣٦ هـ / ٧٤٩ — ٧٥٥ م ، وكانت هذه السنة الأخيرة هى أقساها
واشدها ، مما أدى الى زيادة هجرة الناس الى افريقية .. « وانضم الناس
الى ما وراء الدرب الآخر والى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين ،
واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر
مجتازين ومرتحلين ، وكانت اجازتهم من واد بكورة شذونة ، يقال له
وادى برباط ، فخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، الا
أن الجوع شملهم » (٣) . الى هذا الحال انتهى بمسلمى الأندلس تناحرهم
بسبب العصبية وبسبب الرغبة فى اذلال البربر والاستبداد بالأمر كله
دونهم ؛ وسنتحدث عن ذلك بتفصيل أوفى حينما نتحدث عن مبادىء
حركة الاسپان النصارى .

وقد سلم من هذه المجاعة الشديدة اقليم سرقسطة على ما قلناه ،
لأن عربه أقاموا فى مواضعهم لم يشتركوا فى هذه الحروب الدامية

(١) DOZY, *Recherches*, I. pp. 116 Sqq.
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٨ .
(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

الا بنصيب قليل ، ولأن من كان يساكنهم من البربر فى هذا الاقليم أقعدته
كثرتهم عن أن يثب بهم ، فلم تمتد نيران الحروب بين العرب والبربر الى
اقليم سرقسطة ، وبقى الاقليم كله على حاله من الرخاء ووفرة الخير ،
فلما وصله الصميل وجد قومه فى سعة ، ووجد جماعات العرب الذين
مستهم المجاعة فى أقاليم أخرى يتوافدون اليه انتجاعا للخير ، وفطن
الصميل الى أن يوسف انما بعثه الى هذه الناحية لكى يذل أهلها من
اليمنيين ، ولكى تقع البغضاء بينه وبينهم ، فيشتغل بهم ويشتغلوا به
ويخلص الأمر ليوسف ، فعول على كسب قلوب أعدائه ، ففتح خزائنه
ومضى يعطى بكلتا يديه متناسيا عصبيته القيسية لكى يفوت على يوسف
غرضه . وكان الصميل داهية واسع الذكاء ، ساخرا من كل شىء ،
لا يكاد يفعل أمرا عن ايمان . قال صاحب الأخبار المجموعة : « فلم يأته
صديق أوعدو فحرمه ، فازداد سؤددا ، وأقام بها أعوام الشدائد التى
تتابعت » (١) .

٩٣ — اليمنيون يثورون على الصميل فى سرقسطة

وأقام يوسف يدبر الأمر وحده فى قرطبة بما
عرفناه فيه من الضعف وقلة الرأى ، وكان لا يحزبه
أمر الا بعث يسأل الصميل فيه ، فلما اشتدت المجاعة
وعدم الرسل ساء أمره وبدأ الناس يتجهمون له . وكان فى
قرطبة اذ ذاك فتى من بنى عدى بن عبد الدار يسمى عامر بن هاشم ،
وكان فارسا نجدا يلى الصوائف قبل ولاية يوسف والصميل ،
فجعل يوسف يكيد له خوفا منه وغيرة مما كان الفتى يتمتع به من عظيم
المكانة ، وأحس هذا بما يدبر له الصميل فسارع بالكتابة الى المنصور

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

خليفة العباسيين يسأله توليته الأندلس ويبعث سجل الولاية . وكان عامر يمنيا ساءه ما صنع يوسف والصميل باليمنية ، وخاف أن يفعل الصميل مثل ذلك بيمن سرقسطة ، فأخذ يستعد للوثوب بيوسف وابتنى لنفسه حصنا كبيرا فى منية بغربى قرطبة « فأغلق غلقة عظيمة كاد أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنيانا ينضم اليه ويغاور يوسف حتى يأتيه امداد اليمن ، وضعف سلطان يوسف حتى كان لا يركب معه خمسون رجلا من حشمه » [١] . ووقعت الوحشة بين الرجلين ، ولولا أن يوسف كان بطبعه جبانا مترددا لوقعت الحرب . ولكنه فضل أن يبدأ بسؤال الصميل رأيه ، فنصحه هذا بالتدبير عليه وقتله ، فلم يكد عامر يعلم بذلك حتى شعر بأن حياته أصبحت فى خطر ، واتجه همه الى أن يقوم بعمل حاسم ازاء يوسف الفهرى وصاحبه الصميل [٢] .

كان الرجل يمنيا كما قلنا ، ففكر فى الالتجاء الى ناحية تكون لليمن فيها عزوة وكثرة ، ولم يكن فى الأندلس أكثر يمنا من اقليم سرقسطة ، حيث أقام الصميل محاولا جهده استئلاف الناس والتحبب اليهم ، فكتب عامر الى زعيم من زعماء يمن سرقسطة يسمى الحباب (أو الحبحاب) بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى — وكان سيد بنى زهرة من كلاب يمت اليه بالقرابة — يعلمه بأن لديه سجل أبى جعفر المنصور ويدعوه الى معاونته للخلاص من سيادة القيسيين ، واستخفت الدعوة الزهرى فنهض مع عامر بنفر من قومه ، واجتمعت اليهما كذلك أعداد من اليمنية ، وسار جمعهم وحاصروا الصميل فى سرقسطة [٣] .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ — ٦٤ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٦٥ .

ويبدو أن الخطر على الصميل كان شديدا لأنه بعث يستنجد بمن أمكنه الاستنجاد به من القيسية ، كتب الى جندى قنسرين ودمشق ، ويبدو كذلك أنهم تقاعسوا عنه ، لأنه ألح عليهم . وجعل يقول انه يجتزىء منهم بالقليل ، فنهض لعونه سيد من كلاب يسمى عبيد الله بن على وجمع له عددا من قبائل كلاب ومحارب وسليم وهوازن ، وتقاعس من القيسية سيد جند قنسرين الحصين بن الدّجن العقيلى وسيد جند دمشق سليمان ابن شهاب ، ولم ينهض للعون الا بنو عامر بن كلاب وشيخهم عبيد الله وبنو نمير وسعد وجميع قبائل هوازن وسُلَيم بن منصور ثم تابعتهم غطفان . فلما اجتمعت معظم قيس على هذا النحو لعون الصميل شعر الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب أن قعودهما عن عونه ليس بضائره فنهضا بمن معهما . واجتذبت الدعوة كذلك أتباع بنى أمية ومواليهم فى الأندلس ، وكان معظمهم مقيما فى جند دمشق بناحية البيرة . فنهض زعماؤهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت . وكانوا من أنصار يوسف والصميل ، وبهذا تحركت قيس جميعها لغياث هذا الصميل الذى فعل بالأندلس الأفاعيل . بيد أننا لا ينبغى أن نبالغ فى تقدير أعداد من نهض لعون الصميل ، فان كل طائفة لم تنهض اليه الا ببضع مئات ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا قد قلوا اذ ذاك قلة ظاهرة .

٩٤ — الحرب بين القيسية والكلبية فى سرقسطة

سارت هـذه القوات لحرب اليمنيين ومن معهم من البربر الذين كانوا مقيمين على حصـار سرقسطـة ومن فيهـا من القيسية . وكان معظم هـذه القوات من القيسيين لا تفكر الا فى القضاء على اليمنية ، وكان فيهم نفر من موالى بنى أمية كما قلنا ، ولم يكن هؤلاء الأمويون يفكرون فى أمر الصميل بقـدر

ما كانوا يفكرون فى أمر فتى من بنى أمية كان اذ ذاك مقيما فى العدوة الأخرى بشاطىء افريقية عند برابر نفزة ، وكان قد أرسل مولاه بدرا الى الأندلس ليلقى هؤلاء الموالى الأمويين ويدعوهم الى أمره .

وصلت جموع القيسيين الى طليطلة ، ويبدو أنها استغرقت وقتا طويلا فى التجمع والسير ، فأمكنت اليمنيين الفرصة لتشديد الحصار على الصميل ومن معه حتى ساءت حالهم . وأقبلت رسلهم الى طليطلة تستحث القيسيين فى سرعة السير ، فعجلوا بارسال فارس منهم برسالة الى الصميل تؤكد له اسراعهم اليه بالعون ، وتسلل الرجل بها بين فرسان عامر وزهرة المحاصرين للصميل ، وربط الرسالة بحجر ثم ألقى بها الى المحصورين ، ولم يكن فيها الا البيتان الآتيان :

تبشّرْ بالسلامة يا جدارُ — أتاك الغوث وانقطع الحصار

أتتك بنات أعوجَ ملجَمات — عليها الأكرمون وهم نزار

فناولهما الصميل لمن قرأهما له — فقد كان الرجل لا يقرأ — فلم يكد يسمع الأبيات حتى استبشر ونادى فى قومه يعلمهم بالخبر ، وسرى فى نفوس المحصورين الفرح والحماس ، ونهضت همتهم بعد أن كانوا قد أشرفوا على التسليم . وتسامع اليمنيون المحاصرون للصميل بذلك فخافوا أن تنزل بهم الهزيمة اذا انتظروا حتى تقبل هذه الأمداد القيسية ، فتفرقوا ، وخلص الصميل من هذا الحصار دون مشقة أو قتال. وأقبل القيسيون ومن معهم من الأمويين فاستقبلهم الصميل استقبال الخير والسلامة ، « وأعطاهم العطاء الجزيل : أعطى خيارهم خمسين دينارا ، وأعطى غيرهم من الناس عشرة عشرة وشقة شقة خز ،

ثم أقبل معهم الى قرطبة . فلما فرغ الصميل وأصحابه من الاحتفال بالنصر انتهز الأمويون الثلاثة الفرصة ليكلموا الصميل فى أمر صاحبهم عبد الرحمن بن معاوية » (١) .

وسنقف هنا بأخبار هذه الفتن القبلية ريثما نلقى نظرة على وجوه أخرى من نشاط مسلمى الأندلس فى ذلك العصر ، ولنلم بظواهر أخرى لا تقل عنها أهمية بالنسبة لمستقبل الاسلام فى الأندلس . سنتحدث عن الأعمال العسكرية التى قام بها المسلمون فيما يلى شبه الجزيرة الايبيرية الى الشمال من أرض أوروبا ، وسندرس ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبه الجزيرة وشمالها الغربى .

(١) عن هذه الحوادث انظر :
الأخبار المجموعة ، ص ٦٧ – ٦٩ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٣ – ٤٥ .
فتح الأندلس ، ص ٤٧ وما يليها.
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٥ – ٥٠ .

الفصل السابع

فتوح المسلمين في غالة

وقفنا بالفتوح الاسلامية عند نهاية الأعمال العسكرية التى قام بها موسى بن نصير فى نواحى سرقسطة وما يلى طليطلة الى الشمال الغربى وما يلى وادى الحجارة الى الشمال ، ولكننا لم نفصل أعماله فى شمال سرقسطة لأنها أدخل فى باب فتوح المسلمين فى منطقة البرت [١] وما وراءها .

يذهب بعض المؤرخين الى أن موسى وطارقا استوليا على برشلونة ثم عبرا جبال البرت وفتحا أربونة وأبنيون وواصلا التقدم حتى بلغا ليون فى فرنسا [٢]، وهى الحد الأقصى لفتوحات موسى وطارق بحسب ما يذكره هؤلاء المؤرخون . وليس من الممكن أن يكون موسى وطارق قد عبرا البرت وصعدا مع نهر رُدانُه [٣] ، حتى بلغا ليون ، وليس بين أيدينا دليل واحد يؤيد مثل هذا الزعم . وأما فتوحهما فى نواحى برشلونة والركن الشمالى الشرقى لشبه الجزيرة فتحتاج الى شىء من الدرس حتى يتضح مداها على وجه قريب من الصحة .

يذهب مؤرخونا الى أن موسى حينما أتاه رسول الخليفة الوليد ابن عبد الملك — على ما ذكرنا — لم يتعجل العودة وانما دفعه ذلك الى الاسراع ومضاعفة الهمة فى الغزو حتى يستكمل فتوح شبه الجزيرة

---

(١) جبال البرت أو البرتات هى المعروفة عندنا خطأ بالبرانس . والبرت هو اللفظ اللاتينى Porta أى الباب أو الممر فى الجبال ، ولهذا تسمى فى العربية أيضاً بجبال الأبواب .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٣) رُدَّانُه هى الصيغة العربية لاسم نهر الرون ، وهى مأخوذة عن اسمه اللاتينى Rhodànus

قبل أن تأخذ عليه الظروف سبيل ادراك هذه الغاية . فعبر نهر ابره ومضى نحو الشمال الغربى دون أن يمر ببَنْبَلُونة وغزا بلاد البشكنس فيها حتى أتى قوما كالبهائم — كما يقول ابن عذارى [١] — ثم اتجه نحو الشمال فأطاعه رؤساء جليقية وأساقفتها ، حتى اذا بلغ لُك (Lugo-Lucus Asturum) أدركه رسول ثان من قبل الوليد يأمره بالعودة الى دمشق ، فلم يستطع مخالفة الأمر هذه المرة . فكر راجعا وانضم اليه طارق واتجها جميعا نحو قرطبة ومنها الى المشرق [٢] وانتهى دوره فى الفتوح الاسلامية بعد أن قام بدور يضعه فى الصف الأول من الفاتحين المسلمين .

ولم يجد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته القصيرة التى لم تزد على سنتين وأشهر فراغا يمكنه من القيام بالغزو والفتح فيما خلا سيره الى ناحية تدمير ، وعقده المعاهدة التى ذكرناها مع صاحبها تدمير ،

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

وقد ذهب إيزيدور الباجى إلى أن موسى لم يفتتح سرقسطة إلا بحد السيف ، فأنزل بأهلها من الويلات شيئاً كثيراً : ذبحهم بالسيف وأشعل النار فى البلد ، وقتل الشبان والأطفال الرضع بالحراب ، وأنه نشر الخراب والجوع فى المنطقة كلها . ولم تشر المراجع العربية إلى ذلك .

cf : ISIDORO PACENSE : *Chronicon*, c. 38

CODERA, *Estudios*, VIII. p. 204

وذهب ڤياردو وكوندى إلى أن موسى أنزل بنواحى قطلونية (Cataluña) ونبرة (Navarra) وأرغون مساءات كثيرة لأن أهلها قاوموه مقاومة شديدة ، ولم يذكر المؤلفان من أين أخذا هذه المعلومات ، وقد شك فيها كوديرا واعتبرها مبالغة مصدرها كوندى

VIARDOT, *Hist. des Arabes et des Maures d'Espagne*, I, p. 82.

CODERA, *Estudios* Criticos de historia àrabe española (Segunda serie, Madrid, 1917)

مدة ولايته ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه افتتح مدنا وحصونا كثيرة ، ولكنهم لم يذكروا شيئا على وجه التحديد مما يدل على أن جهده فى الفتوح أثناء ولايته كان قليلا جدا [1] .

ويبدو أن خليفته أيوب بن حبيب كان أكثر منه انصرافا الى الغزو على الرغم من قصر ولايته . ولم يحدد لنا المؤرخون النواحى التى صرف اليها نشاطه ، ولكن الغالب أن جهوده وجهت نحو شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقى . ويذكر الأسقف رودريجو الطليطلى أن أيوب هذا هو الذى ابتنى البلد المعروف بقلعة أيوب (Calatayud) الى الشمال الشرقى من طليطلة . وكان فى موقعها حصن رومانى قديم يسمى (Bilbilis)[2] .

٩٥ – بدء الغزوات فيما وراء جبال البرت

وتتفق المراجع على أن الحر بن مالك — خليفة أيوب — كان رجلا ذا نشاط ملحوظ فى الغزوات فى غالة وما وراء البرتات ، ولم يذكر شيئا مفصلا عنها الا ايزيدور الباجى ، فقد أفرد فقرة خاصة للحر وأعماله فذكر انه غزا جنوبى غالة حتى أربونة عاصمة غالة النربونية (Gallia Narbonensis) وظل يغاور أهل هذه النواحى حتى اضطروا الى طلب الصلح فمنحهم اياه ؛ ولكن أحدا من مؤرخى العرب أو الفرنجة لا يؤيد ايزيدور فى ذلك ، ولهذا لا يمكننا التعويل على هذه التفاصيل الواردة فى روايته تلك [3] .

(١) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ١٤ .
المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٤٥

(٢) CODERA, *Op. cit.* p. III.

(٣) يقول إيزيدور الباجى عن غزوات الحر فى غالة ، فقرة ٤٣ ، ص ١٥١ :
Hujus tempore Alaher per Hispaniam lacertos judicum mittit, atque debellando etpacificando pené per tres annos Galliam Narbonensem petit, et penlatim His- =

٩٦ – السمح بن مالك يصل إلى طرسونة . استشهاده عند طولوشة

فلما أقام عمرُ بن عبد العزيز السمحَ بن مالك الخولانى واليا على الأندلس (سنة ١٠٠ هـ / ٧٤٠ م) نشطت حركة الفتوح فيما وراء البرتات نشاطا عظيما ، لأن السمح كان رجلا وثيق الايمان جم النشاط ، فلم يكد يستقر فى الولاية حتى بادر بالنهوض لحرب النصرانية فيما وراء البرتات ، فتوغل فى غالة حتى أدرك طرسونة (Tarascon) واستمر فى التقدم حتى وقف بأبواب طولوشة (Tolosa) . ويبدو أن نشاطه هذا روع أهل أقطانية (أكويتانيا) ، فنهض له دوقها وسار بجيشه حتى لقى السمح فى موقعة عنيفة على مقربة من طولوشة . واشتد القتال بين الجانبين وصبر المسلمون صبرا كريما حتى قتلوا عن آخرهم كما يقول ابن حيان ، وقد استشهد السمح مع من استشهد فى هذه الوقعة فى يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ (١٠ يونيو سنة ٧٢١ م) ، ولم تستطع فلول الجيش الاسلامى العودة الا بفضل ما أبداه أحد كبار الجند — وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى — من الجهد ، فقد أقامه العسكر رئيسا عليهم ، فبذل الهمة فى جمع شتاتهم والتقهقر بهم حتى عاد الى الأندلس . وكانت تلك هى ولاية عبد الرحمن الغافقى الأولى ، ولم تدم الا أشهرا لأن عامل افريقية

= paniam ulteriorem vectigalia censendo, ad Hiberiam citeriorem se subrigit, regnans, annos supra scriptos

وقد أخذ CENAT MONCAUT بقول إيزيدور وقرر أن الحر فتح أربونة،وجعل هذا الحادث سنة ١٠٦ هـ وهى أولى سنوات حكم السمح بن مالك . وقد نقل عنه ذلك مؤرخون محدثون كثيرون دون أن يفطنوا إلى ذلك الخطأ .

CENAT MONCAUT, ***Histoire des peuples et des etats pérénéens*** **(3e. éd. - 1873) I, 477.**

استبدل به عنبسة بن سحيم الكلبى بعد هذه الكارثة بأشهر قلائل [1] .

٩٧ – عنبسة بن سحيم وحملته الكبرى

وقد قضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من ولايته فى تنظيم أمور الأندلس وتهدئتها ، بعد الاضطراب الذى وقعت فيه بسبب خلافات العصبية التى ذكرناها وبسبب هذه الكارثة التى أصابت السمح ورجاله ، ولكنه كان ذا حماس للفتوح ، فلم تكد الأمور تستقر شيئا حتى عجل بالنهوض للغزو فى غالة فصعد مع نهر ردانه حتى أدرك قرقشونة (Carcassona) فحاصرها وشدد الحصار حتى نزل المدافعون عن البلد على شروطه ، فنزلوا له عن البلد ونصف الاقليم المحيط به وتعهدوا برد أسرى المسلمين الذين كانوا فى الحصن وبأن يدفعوا الجزية وأن يشتركوا مع المسلمين فى حرب أعدائهم جنبا الى جنب ، ويضيف صاحب « مدونة مواسياك » أن عنبسة استولى بعد ذلك على نيمة (Nimes-Noemansum) وأخذ رهائن أهلها وأرسلهم الى برشلونة ، مما يفهم منه ضمنا أن برشلونة كانت اذ ذاك فى يد المسلمين وأنهم اتخذوها حصنا ومركزا يصدرون منه للغزو فيما وراء البرتات .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص٣٤ .

المقرى ، ج ١ ، ص ١٤٩ – ج ٢ ، ص ٩ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ – ٢٦ .

وتذكر المراجع العربية أن هذه الهزيمة وقعت عند طرسونة ، والأصح أن يقال إنها كانت عند طرسكونة (Tarascon) على مقربة من طولوشة عند مصب الرون ، وقد ذهب إلى هذا الرأى ساقدرا معتمدا على ما ذكره إيزيدور الباجى من أن السمح استشهد عند طولوشة فى موقعة حامية بينه وبين دوق أكويتانية . وقد ذهب إيزيدور إلى أن هزيمة المسلمين كانت قاصمة .

ISIDORO PACENSE, *Chronicon*, c. 44.

يقرر صاحب مدونة مواسياك كذلك أن هزيمة السمح ومقتله كانا عند طولوشة

Chronicon Moissiacense. app. 4. p. 165.

ثم واصل عنبسة سيره حتى أدرك مجرى نهر ردانه . ويبدو أنه وجد الطريق أمامه خالية ، فسار مسرعا ، دون أن يلقى مقاومة ، وصعد مع النهر حتى أدرك نهر الساءون ، ودخل اقليم بورجونيا واستولى على أوتون (Autûn-Ausgustodunum) ونهبها وأحرقها .

ويذهب بعض المؤرخين الى أن حملة عنبسة لم تقف عند هذا الحد « بل نهبت مدينة أوزه (Uzès) وڤيين وعاثت فى نواحى ڤالانس ، ووصلت الموجة حتى ليون وماكون وشالون . وهناك تفرعت فرعين ، سار الأول نحو ديجون وبيز (Bèze) ولانجر (Langre) ، واتجه الثانى صوب أوتون مرة أخرى . ولم يقف تيار هذه الحملة الا قرب بلدة سانس(Sens) على بعد ثلاثين كيلو مترا جنوبى باريس ، لأن ايبون (Ebbon) أسقف سانس تصدى للمسلمين وأوقف تقدمهم .

وعاد عنبسة بمن معه من الجند محملين بالغنائم بعد أن وصلوا الى قلب غالة ، وغزوا حوض الرون كله وتخطوا نهر اللوار وأصبحوا على مسافة قصيرة من السين نفسه . وقد تم ذلك كله خلال سنتى ١٠٦ – ١٠٧هـ/ ٧٢٥ ـ ٧٢٦ .

وطبيعى أن تثير هذه الغارة العنيفة المخاوف فى نواحى غالة كلها : ارتاعت معظم الدوقيات الجنوبية والوسطى ، وشعرت مملكة الفرنجة أنها أمام خطر داهم حقيقى . وبدا بوضوح أن الحملة المقبلة ستكون حملة حاسمة من كل وجه ، فاما أتم العرب فتح مملكة الفرنجة أو ارتدوا عنها . ولو قد كانت أحوال مسلمى الأندلس على غير ما علمنا من الاضطراب ، بسبب خلافات العصبية ومنازعات العرب والبربر ، لما اضطر

---

(١) DOM VAISSETTE, *Histoire de Languedoc*. I, 781-784.

عنبسة الى الانصراف عن فتوحه الموفقة فى غالة بعد أن أدرك هـذا النصر العظيم .

بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن حملة عنبسة لم تكن فى الحقيقة غـير غارة بعيدة المدى ، ولو كان عنبسة على نية الفتح الثابت لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ، ولأقام الحاميات فى بعضها على عادة العرب فى فتوحهم . وربما كانت نيته من أول الأمر أن يقوم بحملة تشبه حملة عقبة الكبرى : غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقا وتطلع المسلمين على أحوالها وتمهد لما بعدها . ولو قد استقر عنبسة فى ليون مثلا أو فى أحد مراكز غالة الوسطى لكان فى امكاننا أن نقرر أنه فتح جنوبى غـالة ووسطها ، أما وقد عاد أدراجه بعد أن سار نحو ألف ميل شمالى قرطبة فلا نستطيع القول الا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة ونشرت فى نواحى غالة كلها رعبا شاملا . ومهما يكن من الأمر فان عنبسة بن سحيم الكلبى ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الاسلام الى قلب أوروبا الغربية ، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم آخر [١] .

* * *

(١) *Chronicon Moissiacense*, p. 165.

ISIDORO PACENSE, C.52.

CODERA, *Op. cit.* p. 114.

LEVI-PROVENCAL, *Op. cit.* pp. 41-42.

ويذهب پروفنسال إلى أن عنبسة لا بد أن يكون قد قتل أثناء اشتباكه مع نصارى طرسونة .

٩٨ – لماذا اتجه عنبسة نحو حوض الرون

رأينا كيف استولى عنبسة بن سحيم على قرقشونة ، ثم كيف انحرف بعد ذلك شمالا بشرق فى اتجاه نهر الرون ، واستولى على نيمه (Nimes-Noemansum) ، ولا يعلل اتجاهه هذه الوجهة الا بأن طولوشة كانت ما تزال اذ ذاك فى أيدى المسلمين ، ولو كانت فى أيدى النصارى لما تركها — وهى أقرب البلاد اليه — واتجه نحو بلاد الرون .

ولو كنا نملك نصوصا أوضح من المدونات اللاتينية الشديدة الايجاز لاستطعنا أن نفسر السبب فى اتجاه عنبسة نحو حوض الرون بدلا من متابعة الغزو فى الاتجاه الأول ، أى فى اتجاه دوقية أقطانية . وربما اتضح الأمر بعض الشىء اذا درسنا الوضع العام فى جنوبى غالة فى ذلك الحين .

لاحظنا أن المسلمين لم يجدوا عناء فى غزو اقليم سبتمانية ، فاستولوا على عاصمته أربونة واستقروا فيها واتخذوها مركزا لأعمالهم . والسبب فى ذلك أن سبتمانية لم تكن داخلة فى دولة الفرنجة ، بل كانت من أملاك القوط الشرقيين أصحاب الأمر فى ايطاليا . ثم تراخى سلطانهم عليها ، وطمع فيها الأمـراء الاقطاعيون المتنازعون على السيادة على جنوبى غالة مثل كنند (كونت) طولوشة (تولوز) ودوق أقطانية (أكويتين) وكند پواتييه ، ولكنهم لم يجرءوا على غزوها تحاشيا للاشتباك مع القوط الشرقيين [١] . وكانت سبتمانية ولاية ساحلية تمتد من شمالى جبال البرت بحذاء ساحل غالة (فرنسا) الجنوبى وتتصل بما يعرف اليوم بالرڤييرا الايطالية . وكانت تتألف من سبعة أقسام ادارية صغيرة ، ولهذا سميت بسِبْتمانية (Septemania) .

(١) LAVISSE, *Histoire de France*, II, p.45

فلما خرج المسلمون من سبتمانية وبدأوا يجوسون خلال دوقية أقطانية واستولوا على عاصمتها طولوشة تغير الأمر ، ونهض لردهم دوقها أودو (Eude-Odon) وأوقع بهم الهزيمة التى ذكرناها عند طولوشة والتى أستشهد فيها السمح بن مالك الخولانى (ذى الحجة سنة ١٠٢ هـ/يونيو سنة ٧٢١ م) . وقد أخذ عنبسة بثأر السمح واستولى على قرقشونة . وبدلا من أن يتجه نحو طولوشة ، وكانت لا تزال فى أيدى المسلمين ، نجده يرتد الى سبتمانية ثم يغادرها ليصعد مع الرون ويدرك نيمه (Nimes-Noe mansum) (١) فما العلة فى ذلك؟

وربما استطعنا تفسير ذلك اذا نحن درسنا علاقات الدوق أودو بالعرب من ناحية ، وبمملكة الفرنجة من ناحية أخرى .

* * *

٩٩ – الدوق أودو وعلاقتــه مع المسلمين

تبدأ الروايات التى تحدثنا عن صلات أودو بالعرب بالكلام عن صلته بثورة مونوسة . وقد عرضنا من قبل لهذه الثورة وذكرنا كيف أوردت المراجع العربية هذا الاسم بصورة مبهمة لا يفهم منها ان كان اسم شخص بربرى أو اسم اقليم ، وكيف أن هذا الابهام قد أوقع المؤرخين جميعا فى خلاف حول الموضوع كله : فأما الغالبية — وهم كوندِ ورينو ودوزى وبروفنسال وجبرييلى وكالـمِيت — فقد ذهبوا الى أن مونوسة زعيم بربرى ثار على المسلمين فى نواحى بنبلونة ، وعارض هذا الرأى جماعة من الاسبان على رأسهم كوديرا ، فقد ذهب الى أن مونوسة ان هو الا تحريف لاسم مكان هو منرسا (Manresa) معتمدا فى رأيه هذا على أن لفظ مونوسة ورد فى النصوص

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣٠٣ .

العربية مبهما دون تحديد . ولكننا لا نستطيع أن نقبل هذا الرأى لأن رواية ايزيدور الباجى أبين من أن تدحض جملة ، ثم ان سياق الحوادث يدل على أن شخصا بربريا اسمه مونوسة وجد فعلا ، وأنه لعب دورا خطيرا فى العلاقات بين المسلمين والنصارى فى هذه الأيام (١) .

واليك موجزا لرواية ايزيدور عن مونوسة :

ان رجلا من الجنس البربرى اسمه مونوس(Munuz) ترامت اليه من حدود ليبية (افريقية) أخبار الظلم القاسى الذى كان يعانيه أبناء جنسه فى هذه البلاد ، فصالح الفرنجة وصاهر أودو دوق أقطانية وأخذ يعمل على ايذاء العرب أعداء اسپانيا ، ووثب بهم بالفعل وأصبح فى حرب دائمة معهم . ولكن أنصاره كانوا فى خلاف متصل معه . ولم ينهض عبد الرحمن (الغافقى) لحربه الا بعد أن أرسلت نحوه حوالى عشر حملات . فنهض عبد الرحمن لمونوسة وتتبعه ففر الى خوانق الجبال . وتحرج مركزه وضيق المسلمون عليه الخناق وقتلوه وقبضوا على زوجته وأرسلوها الى بلاط الخليفة .

وتفيض رواية ايزيدور بعد ذلك فى ذكر أعمال العنف والاضطهاد التى أنزلها عبد الرحمن بحلفاء مونوسة من النصارى ، وخاصة أهل شرطانيـــة (Cerdana-Cerritania) ، وكيف أنه أحــــرق أناباديوس (Anabadius) أسقفها بعد ذلك (٢) .

وتهمنا من هذه الرواية مسألتان : الأولى هذا التفصيل الذى تورده عن أعمال عبد الرحمن واضطهاده للنصارى ، والثانية هى علاقة أودو

(١) ISIDORO PACENSE : *Chronicon*, C.58
CODERA, *Estudios àrabes*, VII pp. 141 Sqq. VIII pp. 115-118.

(٢) ISIDORO PACENSE : *Chronicon*, C. 58.

بالمسلمين ، وكيف أنه زوج ابنته لزعيم بربرى منهم لكى يأمنهم على بلاده .

فأما المسألة الأولى فسنناقشها عند عرضنا لأحاديث المدونات اللاتينية عن عبد الرحمن جملة ، وأما المسألة الثانية فذات أهمية خاصة لنا هنا ، لأنها تلقى بعض الضوء على علاقات أودو بالمسلمين .

ونقطة الضعف فى هذه الرواية هى زعمها أن مونوسة قام بثورته تلك حين بلغته أخبار ما كان البربر فى افريقية يقاسونه من مظالم العرب ، أى فى نفس الوقت الذى حدثت فيه الثورة البربرية التى فصلنا أمرها ، ولم تقع هذه الثورة الا بعد حركة مونوسة بعشر سنوات . ومن هنا لا يستقيم كلام ايزيدور ، وربما استطعنا القول بأن مونوسة انما وثب بالعرب لما كان من سوء معاملتهم البربر جملة فى الأندلس .

كان أودو دوق أقطانية ، بناء على هذه الرواية ، حليفا لمونوسة البربرى وحميا له قبل أيام عبد الرحمن الغافقى ، أى فى أيام عنبسة وربما فى أيام السمح ، وربما كان هذا من أسباب هزيمة السمح عند طولوشة . ومما يؤيدنا فى هذا الظن أن عنبسة ، حينما نهض بحملته التى نحن بصددها ، اتجه نحو بلاد الدوق رأسا واستولى على قرقشونة ، ثم انحرف الى سبتمانية من جديد وسار نحو نيمه على ما رويناه .

ولسنا نعلم — على أى الأحوال — ان كان مونوسة قد خرج مع عنبسة وساهم فى هذه الحملة أو لم يخرج ، وان كان انحراف الحملة عن بلاد الدوق يؤيد خروجه مع المسلمين . وليس ببعيد أن يكون وجود مونوسة فى جيش عنبسة هو السبب فى انصراف المسلمين عن بلاده ، وقد كانوا مستطيعين التوغل فيها والاستيلاء على كبار معاقلها .

ثم ان الدوق لم يسر لحرب المسلمين كما فعل يوم ساروا اليه يقودهم السمح بن مالك ، ولم يحاول أن يهاجمهم من خلف بعد أن تركوا بلاده خلفهم وساروا مع نهر ردانه صعدا حتى قاربوا السين . ولا يعلل ذلك الا بأنه كان فى ذلك الحين صديقا مواليا لهم . وربما كانت هذه الصداقة هى مصدر الرواية الفرنجية التى تتهم الدوق بأنه استدعى العرب لغزو غالة لأنه كان فى خصومة مع قارله (شارل مارتل) صاحب الأمر فى الدولة الفرنجية اذ ذاك [1] .

والواقع أن أودو لم يكن اذ ذاك على وئام مع دولة الفرنجة ، وكان قارله ينفس عليه مكانته ويود لو أزاله عن ولاية أقطانية (أكويتين) الغنية الواسعة ، وقد أوردت لنا الروايات اللاتينية أخبارا متفرقة عن عداء الرجلين وما كان بينهما من خصومة . وليست هذه العداوة بالأمر الغريب ، فقد كان معظم الأشراف الاقطاعيين فى غالة يخافون قارله ويكرهونه ، وكان الكثيرون منهم — وفيهم أودو — فى حالة حرب معه ، وهذا هو السبب المعقول الذى دفع بأودو الى مصادقة المسلمين ومصاهرة واحد منهم هو مونوسة .

لم يقع انصراف عنبسة عن أراضى الدوق اذن مصادفة ، وانما كان أمرا طبيعيا أملته الظروف العامة ، فقد انصرف العرب عن أراضيه لأنه كان حليفهم ، وربما كان هذا الحلف هو السبب فيما وفق اليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظرا فى حملة عنبسة .

---

(١) يقول إيزيدور :

Eudo Sarracenos in auxilium sui adscivit, qui venientes cum rege suo Abdirama transeunt Garonnam, Burdigalem usque perveniunt cuncta vastantes, acclesias igne crematis, Pictavis basilicam Sancti Hilarii incendunt.

كوديرا ، ص ٢٠٦ .

١٠٠ – وفاة عنبسة

ولم يستطع عنبسة ادراك الأندلس بعد هذه الغزوة الكبرى فقد داهمته فى طريق العودة جمــوع كبيرة من الفرنج التحمت معه فى موقعة أصيب أثناءها بجراح بالغة توفى على أثرها فى شعبان سنة ١٠٧ هـ / ديسمبر سنة ٧٢٥ م وقام بقيادة الجند الاسلامى والعودة به الى الأندلس قائد تسميه المراجع النصرانية Hodra أو Hodeyra وهما صيغتان محرفتان لعذرة [١] .

١٠١ – عذرة بن عبد الله الفهرى يواصل الغزو

وعذرة هذا هو عذرة بن عبد الله الفهرى الذى خلف عنبسة فى ولاية الأندلس بدون تعيين من عامل افريقية أو من مركز الخلافة ، وقد ظل فى الولاية سنتين وثلاثة أشهر (شوال ١٠٧ هـ — ربيع الأول ١١٠ هـ / فبراير — مارس سنة ٧٢٦ م — يونيو — يوليو سنة ٧٢٨ م) [٢] .

---

(١) يذكر ابن عذارى (البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٦) وابن الأثير (جـ ٥ ، ص ٣٧٣) أن عنبسة مات حتف أنفه ولم يستشهد . وقد أورد المقرى روايات مضطربة كثيرة نقلها عن ابن حيان والرازى يفهم منها أنه توفى مستشهدا (المقرى : نفح ، جـ ٢ ، ص ٩) ورواية إيزيدور الباجى غير واضحة ، لأنه يذكر أن عنبسة توفى ، فقام أحد قواده وهو Hodera (عذرة) بقيادة الجند والعودة بهم إلى وطنهم (الأندلس) ، وأن عنبسة أوصى له بذلك قبل وفاته :

... Qui dum rabidus pervolat, morte propria vitae terminum parat : atque Hodera (عذرة) consulem patriae sibi commisae vel principem exercitus repedantis, vel quasi refraenantis, in extremo vitae positus ordinat (c. 53).

بيد أن الكثيرين من مؤرخى غالة يشيرون إلى هذه الموقعة التى استشهد فيها عنبسة وقيام عذرة (الذى يسمونه فى بعض الأحيان Hodeyra) بجمع شتات الجنود والعودة بهم إلى الأندلس ، وقد أخذنا بروايتهم لأنهم أدرى بحوادث تاريخ بلادهم ، ولم يكن لنا عن ذلك مفر أمام صمت الرواية العربية .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

ولا تنسب الرواية الاسلامية الى عذرة أى عمل حربى فى غالة ، ولكن الرواية النصرانية تذكر أعمالا حربية خطيرة قام بها المسلمون بعد مقتل عنبسة مباشرة ، وحيث أن ولاية عذرة دامت سنتين وأشهرا فلابد أن هذه الأعمال وقعت خلالها ، ويجمل رينو أخبار هذه الأعمال فى قوله : « .. وقد قتل (عنبسة) فى احدى غزواته سنة ٧٢٥ م . واضطر خليفته عذرة الى قيادة الجيش فى طريق العودة الى الحدود . ولم تلبث الحرب أن استعرت من جديد فى عنف ، ولما كانت أمداد كثيرة قد أقبلت من الأندلس ، فقد نهض قادة المسلمين ، وقد شجعتهم المقاومة القليلة التى صادفوها ، وأخذوا يرسلون الحملات فى كل وجه . ويقول مؤرخ عربى أن رياح الاسلام أخذت تهب على النصرانية من كل ناحيــة ، فاقتحم المسلمون سبتمانية مرة أخرى وعادوا الى حوض الرون وغزوا بلاد الألبيين (Les Albegeois) واقليم رويرج (Le Rouergue) وجيفودان (Gévaudan) وليفليـــــه (Levelay) ونهبوها نهبــــا ذريعــا ، وأتت النيران على ما أغفلته سيوف العرب ، حتى لقد استنكر الكثيرون من الفاتحين أنفسهم هذا الاسراف فى أعمال العنف » [١] .

ولسنا نستطيع تحقيق ذلك على وجهه الصحيح ، وان كنا نقبل ما تذكره الروايات اللاتينية عن الأعمال التى وقعت أثناء ولاية عذرة لأن عبد الرحمن الغافقى حينما تولى وجد المسلمين فى حالة طيبة فى غالة ، ولو كان أمرهم وقف عندما انتهت اليه أعمال عنبسة وهو الرجوع الى الأندلس ، لما استطاع عبد الرحمن الغافقى أن يقوم بالعمل الكبير الذى قام به .

---

(١) REINAUD, *Invasions* ... 23.

ولم يشر رينو إلى مراجعه التى استند إليها فى ذلك .

وتضيف الروايات النصرانية أخبارا كثيرة عن أعمال العرب فى غالة خلال هذه الفترة التى تتحدث عنها وهى التى انقضت بين موت عنبسة وقدوم عبد الرحمن الغافقى ، وهذه الأخبار ملأى بالمبالغات عما تسميه مساءات العرب أو مظالمهم التى أنزلوها بأهل هذه النواحى ، ونحن نورد طرفا منها على سبيل استكمال الأخبار عن أعمال المسلمين الحربية فى غالة .

تذكر هذه الروايات أن المسلمين خربوا كنيسة رودس (Rhodès) الكبيرة وعاثوا فيها أى عيث ، واستقروا فى حصن قريب من موضع روكپريڤ الحالى (Roqueprive) [١] . وانضم اليهم نفر من أهل هذه النواحى وساروا معهم يغزون فى كل وجه ، ويحكى المؤرخون فى هذه المناسبة قصة شاب يسمى داتوس أو دادون أظهر بطولة كبيرة فى محاربة العرب وردهم عن ناحيته [٢] .

---

(١) ويجعلها بعضهم فى موقع بالاجييه (Balaguier)

REINAUD, *Op. cit.* p. 23.

والمراجع المعطاة .

(٢) أوردهذه الحكاية الشائعة ERMOLDUS NIGELLUS فى نص قصيدة لاتينية نشرها پرتس
M. PERTZ : *Monumenta Germaniae Historiae*, II, p. 466 Sqq.
وتبدأ قصة دادون فى البيت السابع بعد المائتين من أبياتها ، ووردت إشارة إليها فى كتاب « غالة المسيحية » *Gallia Christiana* جـ ١ ، ص ٢٣٦ ، وقد لخصها رينو فى كتابه عن غزوات العرب فى غالة كما يلى :

كان دادون شاباً صغيراً من قرية كونك (Conques) فى إقليم رويرج (Rouergue) عندما اقتحم المسلمون هذه الناحية ، فحمل السلاح وخرج لقتالهم مع غيره من رجال ناحيته ، فبينما هو فى بعض مطارداته للغزاة بعيدا عن قريته ، دهمها المسلمون ونهبوا بيته وأخذوا أمه أسيرة وأدخلوها فى حصنهم . فلما عاد دادون وسمع الخبر حمل سلاحه ومضى إلى الحصن يريد اقتحامه ، وسخر منه المسلمون خلف أسوارهم ، وقال له بعضهم : « إذا أردت أن نرد لك أمك فأعطنا الحصان الذى تمتطيه وإلا ذبحنا أمك أمام عينيك » ، فرفض دادون أن يجيبهم إلى ما طلبوا . فذبحوا أمه ورموا =

ويغلب على الظن أنه فى خلال هذه الفترة — أى بين سنتى ٧٢٥ و ٧٣٠ م (١٠٧ — ١١٢ هـ) — قام المسلمون بالغزوات التى تنسبها اليهم الروايات النصرانية فى أقاليم دوفينيه (Dauphiné) وليون وبورجونيا (Bourgogne) . ولا تذكر مراجعنا العربية عن ذلك شيئا على الاطلاق فى حين تختلف المراجع النصرانية فيما بينها اختلافا بينا بشأنها. فأما المقرى فيذكر : « ان الله ألقى الرعب فى قلوب النصارى ، ولم يعد أحد منهم ليظهر الا ليستأمن . فاستولى العرب على البلاد ومنحوا الأمان لمن أراد ، وساروا مصعدين حتى وصلوا حوض الردانة ، وهنالك ابتعدوا عن الشاطىء وتوغلوا داخل البلاد » .

ولم يذكر لنا المقرى البلاد التى وصلوا اليها حينما توغلوا فى غالة هذه المرة ، ويقول رينو فى تفسير عبارة المقرى تلك : « ولا نستطيع تعرف المواقع التى وصل اليها العرب الا بما خلفوه وراءهم من التخريب فى النواحى التى وصلوا اليها ، ففيما يحيط بڤيين (Vienne) وعلى ضفاف الرون تحولت الكنائس والأديرة كلها الى خرائب ، وكذلك تخربت كنائس لودون (Lyon) ونهبت ماكون وشالون على الساءون ، وتعرضت بون (Beaune) لتخريب ذريع ، وأشعلت النيران فى كنيستى سان نازير (Saint Nazaire) وسان چان فى أوتون ، وهدم دير سان مارتان (Saint-Martin) خارج البلدة ، ونهبت كنيسة سان أندوش (Saint-Andoche)

= إليه برأسها ، فبلغ من رعب الفتى وحزنه أن ذهب فترهب فى ناحية على ضفاف نهر الدوردون (Dourdon) وقد أنشىء فيما بعد فى مكان ترهبه دير كونك (Conques)

وقد أوردنا هذه الحكاية كنموذج لما كتبه مؤرخو غالة النصارى عن المسلمين فى هذه الفترة . وقد أورد رينو قصة أخرى من هذا الطراز يذهب رواة النصارى إلى أنها حدثت فى هذه المناسبة.

cf : REINAUD : *Invasions* ... pp. 26-29.

Gallia Christiana : II, p. 468.

فى سوليو (Saulieu) وعلى مقربة من ديچون هدم العرب كنيسة بيز (Béze) »[١].

ولم تشر المراجع التى أشار اليها رينو الى أن العرب هم الذين خربوا النواحى التى ذكرها كلها ، وانما هو الذى جعل دأبه — كلما وجد ديرا قد احترق أو كنيسة تخربت فى هذه المدة — نسبة ذلك الى المسلمين ، مع علمه بأن العصر كله كان عصر اضطراب وحروب بين النصارى فيما بين بعضهم وبعض فى هذه الجهات من غالة على وجه الخصوص ، ومع علمه بأن كلوڤس نفسه أنزل بالكنائس والأديرة فى جنوبى غالة وفى بورجونيا وفى أقطانية من التخريب والأضرار ما فاق كل وصف . وليس من المعقول أن المسلمين لم يكن لهم هم فى غاراتهم فى غالة الا تخريب الكنائس والأديرة واشعال النار فى المدن ، فقد فتحوا قبل ذلك مصر وافريقية والأندلس وهى كلها غاصة بالكنائس والأديرة وما اليها من المؤسسات النصرانية فلم يحرقوا ولم يخربوا ، فمن عجب أن ينقلب حالهم اذا عبروا الى غالة فيتحولوا الى برابرة مخربين لا يكادون يبقون على شىء !

الواقع أن هذا الكلام لا يقوله مؤرخ جاد يقدر معنى ما يقول . فليس من الجد فى شىء أن يقال ان العرب لم يفعلوا فى غالة غير تخريب الكنائس وحرق الأديرة ، والثابت المعروف عنهم أنهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديرا . واذا نحن قارنا المسلمين بالشعوب التى كانت تسود غالة فى ذلك الحين ، من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين

(١) REINAUD, *Op. cit.* pp. 29-30. ومراجعه هى :

Gallia Christiana IV. pp. 51. 450-860-1042.

Chronicon Moissiacense dans Hist. des Gaules, II, 655.

DOM PLANCHER : *Histoire de Bourgogne*, I. p. VII.

ومن اليهم ، لتبينا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب . ومهما بحثنا فى حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث فى غالة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادى رجالا نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم أو عبد الرحمن الغافقى .

ويلاحظ رينو الملاحظة التالية : « .. ان غارات العرب هذه التى يجمع الناس على أنها لابد أن تكون قد امتدت الى أبعد مما ذكرنا [١]

(١) يقول رينو : يذهب بعضهم أن العرب أرسلوا سرايا بلغت اللوار عند نيڤير (Nevers) من ناحية ، وبلغت فرانش كونتيه (Franche Comté) من ناحية أخرى . فاذا صدق هذا ، فلا بد أن يكونوا خربوا دير القديس كولومبان (Saint Colomban) فى نيڤير ، ويذهب بعضهم كذلك أنهم قتلوا معظم رجال الدين والرهبان فى بيزانسون (Besançon) . وهذه المزاعم ليست بعيدة عن التصديق ، خصوصاً فيما يتصل بفرانش كونتيه حيث لا زال كثير من المواضع يحمل اسم سارازان (Sarrazin) . ويقال كذلك إن كنيسة لوكسيل (Luxeuil) هدمت وهى فى سفح الڤوج (Vosges) وذبح رجالها وعلى رأسهم القديس ملان (Mellin)

cf : P. LECOINTE, *Annales Ecclesiastici Francorum*. IV pp. 728 Sqq. 795 Sqq.

MABILLON, *Annales Benedictini*, II. p. 88

MABILLON, *Acta Sanctorum Benedicti* II, 1ère partie pp. 527 Sqq.

وتذهب هذه المراجع إلى أن العرب لم يجدوا مقاومة جدية إلا عند بلدة صانص (Sens) إذ أن أسقفها (Ebbes) أو (Ebbon) تصدى لهم ، وجمع نفرا من أهل البلد وهجم بهم على المسلمين ، وألقى نارا على آلات حصارهم فتفرقوا . وكان هذا الرجل قبل ذلك فارساً وكوندا لبلدة تونير (Touner) ثم ترهب ورسمته الكنيسة قديساً فيما بعد .

ولا تذكر هذه النصوص المسلمين ولا تشير إلى أنهم هم الذين قاموا بهذه الأعمال ، ولكنها تقول إن الوند (Vandes) والوندال (Vandali) والجندال (Gandali) هم الذين كانوا يخربون ، فجاء مؤرخو الكنيسة فقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون ، وتابعهم رينو وغيرهم من المؤرخين المحدثين فى ذلك ، وهو تعسف لا معنى له وخاصة أن هذه التسميات أطلقت فيما بعد على المجريين الذين أغاروا على هذه النواحى وخربوها على أيام قارله وپيپن وشرلمان . وقد عاد رينو فتشكك فى أن المسلمين هم الذين قاموا بذلك .

انظر كتابه الآنف الذكر ، ص ٣١ — ٣٢ .

— تمت جميعها دون خطة مقررة من قبل ، ومع هذا فلم تلق الا مقاومة ضئيلة جدا ، مما يدلنا على الحالة السيئة التى كانت تسود فرنسا فى ذلك الحين وعلى عدم وجود أية حكومة ترعى شئونها . ولكننا اذا قارناها بما حدث فى اسپانيا قبل ذلك بسنوات ، لتبين لنا أنه لم يحدث فى أى موضع أن وجد الفاتح اقبالا من أهل البلاد ، اذا استثنينا بضعة أشخاص بلا دين أو وطن ، ولم يحدث أبدا فى أى مكان أن اتفقت معهم جماعة لها قيمتها من السكان ، وحتى فى المدن مثل أربونة وقرقشونة — حيث استقر العرب بصورة ثابتة — ظلت جماعة السكان على اخلاصها للنصرانية (١) .

وهذا أيضا كلام لا قيمة له من الناحية التاريخية ، فأى سند استند اليه هذا الباحث الفرنسى ليقول ذلك ؟ وما معنى القول بأن أحدا من سكان البلاد لم ينضم الى المسلمين ؟ ومن الثابت أن منطقة جبال البرت كلها ونواحى بسكاية وسبتمانية كانت تسكنها جماعات بدائية لم تستقر بعد على دين ولم تفهم بعد معنى الوطن ، بل لم يكن الفرنجة أنفسهم ، أصحاب الأمر فى غالة ، ليأخذوا الدين مأخذ الجد أو يشعروا بشعور « وطنى » نحو غالة . وأنى يكون ذلك وغالة كلها كانت فى دور التكون ، لم تصبح بعد « وطنا » يتعصب له أحد ؟ وأيسر دليل على مغالطة رينو وأمثاله هو أن أولئك الذين يزعم أنهم لم ينضموا الى المسلمين ولم يؤيدوهم هم الذين أنزلوا بمؤخرة جيش شرلمان الفرنجى المسيحى مذبحة رنشفالة ومأساة رولان بعد ذلك بأكثر من قرن .

* * *

وكان كبار رجال غالة فى حالة لا تمكنهم من النهوض لحرب المسلمين

(١) رينو : نفس المرجع ، ص ٣٢ .

فأما أودو فقد ركن الى السكون ولم يجرؤ على الخروج لملاقاتهم بعد الذى رأى من قوتهم ، ولم يجرؤ كذلك على طلب المعاونة من قارله لأن العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام ، وأما قارله فكان مشغولا بحرب الفريزيين سكان اقليم فريزيا الذى يعرف اليوم بالنورمندى والباڤاريين والسكسون غربى نهر الرين ، وكانوا يهددون نوستراسيا — قلب بلاد غربى الرين — بخطر داهم اذا ما عبروا الرين ، ولهذا لم ينهض قارله لملاقاة المسلمين حينما غزوا بورجونيا ، وكانت اذ ذاك داخلة فى طاعته .

لم تكن هذه الأحداث التى ذكرناها فى ولاية عذرة بن عبد الله الفهرى أعمالا عسكرية منظمة يمكن ادراجها فى سلسلة الغزوات المنظمة التى قام بها ولاة الأندلس فى غالة ، وانما كانت نشاطا عاما قام به المسلمون الذين استقروا فى سبتمانية وقاعدتها أربونة ، وبعض قواعد جنوبى غالة مثل طولوشة وطرسونة .

أما سلسلة الفتوح فتتصل من جديد عندما يتولى الأمر عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م .

١٠٢ — عبدالرحمن الغافقى

لا نزاع فى أن عبد الرحمن الغافقى كان أقدر قائد عسكرى عرفته الأندلس فى عصر الولاة . ومن المؤسف أن أخباره لدينا قليلة جدا لا تتناسب مع الدور الكبير الذى قام به فى تاريخ الاسلام . ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء التى ختمت حياة الغافقى كانت أليمة الوقع عند مؤرخينا ، فأوجزوا الكلام عنها قدر الطاقة ، وأصاب الايجاز سيرة عبد الرحمن ، فتعمدوا الاكتفاء بمجرد الاشارة اليه مع عظيم تقديرهم له .

كان عبد الرحمن جنديا أندلسيا ، قضى أحسن أيامه عاملا فى جيوش المسلمين المغازية فيما وراء البرتات . ويفهم من اجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان سليما من نزعة العصبية التى ابتلى بها غيره ، ومن دلائل ذلك أن عبيدة بن عبد الرحمن القيسى عامل افريقية المتعصب لقيسيته أقامه على الأندلس وهو يمنى من غافق . وقد أورد ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أن الرجل كان مسلما سليم الايمان حريصا على أصول الشريعة لا يحفل فى سبيل ذلك بغضب من بيدهم الأمر . يقول ابن عبد الحكم ، بعد الكلام عن احدى غزوات عبد الرحمن : « .. وكان فيما أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ذلك فى المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة (بن عبد الرحمن القيسى عامل افريقية) فغضب غضبا شديدا ، وكتب اليه كتابا يتوعده فيه ، فكتب اليه عبد الرحمن : « ان السموات والأرض لو كانتا رتقا لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجا . ثم خرج اليهم أيضا غازيا ، فاستشهد وعامة أصحابه » [1] .

وهذه هى الاشارة العربية الوحيدة التى تدل على ناحية من خلق عبد الرحمن . ويصفه ايزيدور الباجى بأنه كان رجلا نشيطا عنيفا قاسيا ، لا يبالى أن ينزل بالنصارى أقسى المظالم وأشد ألوان الاضطهاد والتخريب والقسوة [2] . ولا تضيف النصوص اللاتينية الأخرى الى أوصافه هذه شيئا ، وان كانت جميعها تتحدث عن شجاعته النادرة ومقدرته الحربية العظيمة . ولو أمدتنا المراجع العربية بأخبار مفصلة لاستطعنا

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١١٧ .

(٢) ايزيدور الباجى : فقرات ٥٨ — ٥٩ — ٦٠ .
وانظر أيضاً ، ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٥٨٤ .

تعرف مكان هذه الروايات النصرانية من الصحة ، ولكنها أقدم ما بين أيدينا وأكثره تفصيلا ، ولا مندوحة لنا عن الاعتماد عليها الى حد كبير .

وكان عبد الرحمن جنديا من طراز آخر غير طراز عنبسة ، واذا كنا قد قلنا ان هذا الأخير كان من طراز عقبة ، أى من الذين تستهويهم الغارات البعيدة المدى والضربات المدوية ، فلنقل عن عبد الرحمن الغافقى انه كان من طراز حسان بن النعمان ، من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر ، فيعمدون الى مراكز المقاومة الفعلية ويهاجمونها لكى يتم الفتح وتدخل البلاد فى حوزة الاسلام .

١٠٣ — خروج عبدالرحمن للغزو ، أوائل سنة ١١٤هـ/ ربيع سنة ٧٣٢م

عبر عبد الرحمن البرتات فى أوائل سنة ١١٤ هـ / ربيع سنة ٧٣٢ م . ولسنا نعلم على وجه التحقيق عدة الجيش الذى كان معه ، فأما المراجع النصرانية فتزعم أنه كان يقود أربعمائة ألف مقاتل فى حين تكتفى الرواية الاسلامية بتحديد عدة الجيش بعدد يتراوح بين سبعين ألف ومائة ألف . وليس لدينا ما يوضح هذا الأمر ، لأننا لا نستطيع قبول أى الرقمين ، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن عدة الجيش لم تكن لتزيد عن سبعين ألفا على أى حال ، وأن جل هؤلاء كان من البربر ، لأن الكثيرين من عرب افريقية والأندلس كانوا اذ ذاك فى شغل بما انصرفوا اليه من المنازعات العصبية من ناحية ، ومن الاستقرار فى القرى والاشتغال بالزرع من ناحية أخرى . ونستطيع أن نقول كذلك ان معظم هؤلاء كانوا يمنيين ، لأن عبد الرحمن الغافقى كان يمنيا ، ولأن غالبية سكان نواحى اقليم سرقسطة كانوا يمنية ، ومنهم كانت غالبية العرب المحاربين فى ناحية البرتات وما يليها .

وكانت مصلحة المسلمين تقتضى الاستمرار على صداقة أودو لكى يكون لهم عونا على حرب الفرنجة والخلاص منهم ، ولم يكن ذلك بالعسير لو كان عبد الرحمن الغافقى سياسيا كما كان قائدا ممتازا ، فقد وصل المسلمون الى قرب السين ، وكان على خليفة عنبسة أن يكمل عمله ، فيمضى بالمسلمين الى قلب الدولة الفرنجية . ولكن حركة مونوسة (١) أفسدت الأمر كله . وقد رأينا أنه من العسير أن نتعرف أسباب الجفوة التى طرأت بينه وبين عبد الرحمن ، وان كان من الممكن ردها الى ما كان بين العرب عامة والبربر عامة اذ ذاك من التحاسد والتباغض ، وبما كان فى خلق عبد الرحمن نفسه من الصلابة والاستقامة ، مما لا يستبعد معه أن يكون قد كره هذه الصداقة المتصلة وذلك العهد المتين بين مونوسة وأودو .

وعلى أى الأحوال ، كانت ثورة مونوسة ونهوض عبد الرحمن للقضاء عليها من أسباب فشل عبد الرحمن فى حملته الكبرى على غالة ، فقد غضب الدوق لما أصاب صهره وتوقع الشر من ناحية العرب وبدأ يظهر الجفوة نحوهم ، فلم تعد لهم مندوحة من حربه أولا ، ولهذا اتجه عبد الرحمن بقواته الى عواصم أقطانية ففتحها كما سنرى ، وفر من بقى من جند الدوقية الى الشمال وأخذوا يستنجدون ملك الفرنجة ، وانضمت قواتهم الى قواته فكثر جمع النصارى أمام المسلمين . هذا الى أن الحرب بين مونوسة وعبد الرحمن كانت حربا بين البربر والعرب فى حقيقة الأمر ، وسنرى أن نفوس العرب والبربر لم تكن متفقة فى هذه

(١) راجع عنه :

ISIDORO PACENSE. C. 61.

RODRIGO XIMENEZ DE RADA, p. 12.

الحملة كما كانت فيما سبقها ، وسيكون لهذا أثره البليغ فى هزيمة « بلاط الشهداء » التى سنفصل أمرها .

جمع عبد الرحمن جنده فى بنبلونة ، واحتفل فى اعداد حملته هذه احتفالا عظيما ، لأنه كان يرجو أن يكون فتح غالة على يديه . ثم اخترق بجنده جبال البرت فى أوائل صيف سنة ٧٣٢ م من ممرات رونشفالة التى ستشهد مأساة رولان بعد ذلك بسنوات ، أى أنه لم يسلك الطريق المألوف الذى سار فيه العرب الى ذلك الحين : طريق ساحل البحر الأبيض الذى يفضى الى سبتمانية وحوض الرون ، بل طريقا فى وسط الجبال يفضى الى قلب دوقية أقطانية مباشرة . فلما أفضى الى غالة اتجه أول الأمر نحو وادى الردانه لكى يمهد أمره ويحمى ظهره قبل أن يتجه الى دوقية أقطانية فى الغرب ، ويقال ان سبب اتجاهه الى وادى الردانة

١٠٤ – فتح آرل

خروج مدينة آرل (Arelatum) عن الطاعة وتوقف أهلها عن دفع الجزية ، فهاجمها واستولى عليها بعد معركة عنيفة (١) . فلما تم له ذلك وأمن ظهره توجه بجموعه نحو الغرب ليهاجم دوقية أقطانية (أكويتين) . وكانت هذه تتكون من عدد من الكونتيات أكبرها غسقونية وتمتد من جبال البرتات الى حدود اللوار فى الشمال ، ومن نهير الأليبه فى الشرق الى خليج بسكاية فى الغرب ، وكانت تعد أعظم امارات غالة بعد المملكة الفرنجية التى كانت تصاقبها على حدودها الشمالية مباشرة .

(١) عنان : دولة الإسلام فى الاندلس ، ص ٨٦ .

DOM VAISSETTE, *Op. cit.* I. p. 795.

١٠٥ – الاستيلاء على بردال (بوردو)

توجه عبد الرحمن بقواته نحو بردال (بوردو) ، فخف الدوق بقواته لكى يوقف تقدمه ، ولقيه على ضفاف الدوردونى (Dordonia) على مقربة من ملتقاه بالجارون (Garona) فانهزم هزيمة قاصمة فقد فيها عددا عظيما من فرسانه وفر هاربا [١] ، وتقهقر أمام المسلمين نحو الشمال تاركا لهم عاصمته بردال ، فدخلوها ونهبوها نهبا ذريعا [٢] ، فلما فرغوا منها انساحوا فى البسائط هناك يفتحون كل ما صادفهم ، فلما امتلأت أيديهم من الغنائم تقدموا نحو اللوار ، وكانت وجهتهم هذه المرة مدينة تور ثانية مدائن الدوقية على نهر اللوار وفيها كنيسة سان مارتان ، وكانت لها اذ ذاك شهرة ذائعة فى الآفاق ، فاقتحموا البلد وخربوا كنيستها [٣].

(١) ISIDORO PACENSE. *Chronicon*. C. 95.

ويبدو أن عدد القتلى من جيش أودو كان عظيما ، لأن إيزيدور يقول :

"Deus numerum morientiun vel pereuntium recognoscat".

(٢) DOM VAISSETTE, *Op. cit.* I. p. 795.

(٣) "Tunc Abderraman suprafatum Eudonem Ducem insequens, dum Turonensem ecclesiam, palatia diruendo et ecclesias ustulando depraedari desiderat"

ISIDORO PACENSE, *Op. cit.* c. 59.

ولم يذكر إيزيدور اسم كنيسة القديس مارتين (سانكتوس مارتينوس) التى ذكرناها فى النص ، ولكن رودريجيث خيمنيث ذكر أن العرب خربوا كنيسة البلد الرئيسية

Turonis civitatem, ecclesiam et palatia vastatione et incendio simili diruit et consumpsit.

cf : RODERIGUEZ JIMENEZ, 12-13.

أما صاحب ذيل تاريخ فريجيداريوس فيقول :

... Ad domum beatissimi Martini evertendam destinant

أى أنه يقول إن العرب أرادوا فقط تخريب الكنيسة ولم يفعلوا :

Scolastici Fregedarii Continuatio II

١٠٦ – أودو يستنجد بشارل مارتل

هنالك أسرع أودو الى قارله (شارل مارتل) يستنجد به ، إذ وجد نفسه مضطرا الى مصالحته ، وبهذا توحدت قوى النصرانية فى غالة للوقوف فى وجه المسلمين . ورحب قارله بالفرصة ، لأنه كان تواقا الى بسط نفوذه على أكوينين وأراضيها الواسعة ، ولأنه كان قد استشعر الخطر الاسلامى منذ حين ، فقد غزا المسلمون منذ عام فقط بورجونيا وهى داخلة فى بلاده وصعدوا حتى قاربوا اللوار . وقد عرف قارله كيف يأخذ للأمر عدته ، فجعل يجمع الجند والفرسان من كل ناحية ، ولم يدخر جهدا فى ذلك ، فقد كان الخطر فى هذه المرة واضحا جليا ، ويبدو أنه لم يكتف بمن كان عنده من الجند فى غالة ، فبعث يستقدم جندا من حدود الرين من نواحى أوستراسيا ، فأتته نجدات من جنود أجلاف أقوياء يحاربون شبه عراة فى مثل هذا الجو البارد ، ويصفهم ايزيدور بأن أيديهم كانت حديدية ترسل ضرباتها القاصمة فى سرعة وقوة ، وبهذا اجتمع لقارله جيش قوى قدير على الثبات للعرب ومنازلتهم [١] .

وينبغى أن نضيف هنا أن الفرنجة السالبين أنفسهم — ومنهم كان معظم جند قارله — كانوا قوما بدويين أشداء لا يقلون عن العرب صلابة ولا شجاعة ، فقد مهدوا بحرابهم وصدورهم غالة كلها وغلبوا البرغنديين والقوط الغربيين وبقايا الرومان فى غالة وغلبوا السكسون عدة مرات وما زالوا بهم حتى كسروا شرتهم ، وانصاعت لهم جماعات

(١) Ubi dum penè per septem dies utrique de pagnae conflictu excruciant, sese postremo in aciem parant, atque dum acrite r dimicant gentes septentrionales in ictu oculi ut paries immoviles permanentes. sicut et Zona rigoris glacialiter manent adtrictae, Arabes glodio enecant".

ISID.PAC. *Op. cit.* c. 59

كثيرة من المتبربرين كالسويف والآلان ، وكان ملكهم فى ذلك الحين فى صعود ، اذ كان قارله حاجب الملوك الميروفنجيين ، وكان أبوه پيپين قد استولى على السلطان منهم ، وخلفه قارله واعيا لهذا المطلب البعيد وهو ازالة الميروفنجيين عن الملك والحلول محلهم . وكان سياسيا قادرا ومحاربا ماهرا ، استطاع أن يجمع الناس حوله بالقوة تارة وبالسياسة تارة أخرى ، واجتمعت له قوات ظل يرقب بها الحوادث ، فلما بلغته أنباء الغزو العربى شعر ألا مندوحة له عن اتخاذ الأهبة ، ثم أقبل خصمه أودو يستغيث به فلبى النداء وأسرع للقاء المسلمين بنفس مشرئبة للظفر وجنود متطلعة للقتال [١] .

١٠٧ – المعسكر الإسلامى قبيل المعركة

وكان المعسكر العربى فى مثل هذه الحال من التوفز وعلو الحالة المعنوية : لم يكن ينقص المقاتلين الايمان ولم تكن الخبرة لتعوز القيادة ، ولكن أمورا أخرى كانت تفل من عزيمة الجيش وتقلل من أمله فى الظفر .

أول هذه الأمور أن العرب بعدوا مسافات شاسعة جدا عن مركز الدولة الاسلامية [٢] . ويكفى أن يتصور الانسان المسافة بين دمشق وجبل طارق ، وبين جبل طارق ونهر اللوار ليعلم أن الجيوش الاسلامية المحاربة فى نواحى غالة كانت تقوم فى الواقع بمغامرة أقرب الى قصص الأساطير منها الى حوادث التاريخ ، لأنها كانت فى وضع لا تستطيع معه أن تحصل على امدادات من الجند أو العتاد من مركز الخلافة . ولم يكن فى استطاعة هؤلاء المحاربين أن يحصلوا على امـداد من عامل

---

(١) GIBBON, *Decline and Fall*. II. p. 803

(٢) أشار جيبون إلى هذا البعد الشاسع إشارة لطيفة جدا .
انظر : اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها ، ج ٢ ، ص ٨٠٢ .

الأندلس فى قرطبة ، لأن عددا عظيما من عرب الأندلس لم يستقروا فى العاصمة بل تفرقوا فى نواحى شبه الجزيرة وشغلوا بها الى حد كبير عن الحكومة المركزية . وقد رأينا فيما مر من الحديث أن عرب الأندلس هؤلاء كانوا فى واقع الأمر جماعات متفرقة فى النواحى لا يستطيع العامل استقدام أجناد منهم على عجل ، وكانت العصبيات قد توزعتهم وفرقت بينهم ، فلم يعد من الميسور لعامل الأندلس أن يجمع قوات محترمة الا من بنى عصبيته . وربما لم يكن لهذه النقطة الأخيرة أثر كبير فى تكوين جيش عبد الرحمن ، لأنه كان فى الواقع بعيدا عن نزعة العصبية ، فاجتمعت اليه أعداد كبيرة من عرب الأندلس جميعا ، الا أن أثرها ظهر بعد مقتله ، فقد تفرق العرب واختلفوا فيما بينهم اختلافا شديدا أدى الى انسحابهم جملة ، ولو كانوا يدا واحدة لارتدوا بعد الهزيمة الى أقرب مركز لهم ليستجمعوا قواتهم من جديد كما فعلوا بعد الهزائم المتكررة التى جرت عليهم فى افريقية .

ولنضف الى هذا ما كان بين العرب والبربر اذ ذاك من أسباب الخصومة ، وهى ظاهرة تاريخية ينبغى ألا يهمل حسابها فى كل ما يتصل بتاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الهجرى الثانى ، وقد رأينا مثلا ثورة مونوسة وما جرته من وخيم العواقب ، وسنرى أثرها واضحا كذلك فيما أعقب موقعة البلاط . وكانت غالبية الجيش الاسلامى المقاتل فى غالة من البربر ، وليست لدينا أية تفاصيل عن أعدادهم أو طوائفهم ، مما يحول بيننا وبين استجلاء حقيقة الموقف فى المعسكر الاسلامى قبل المعركة الحاسمة .

ومسألة أخرى كانت تضعف الجيش الاسلامى وتقلل من أمله فى الظفر ، هى الغنائم التى جمعها الغزاة المسلمون من النواحى التى مروا

بها قبل لقاء الفرنجة فى الموقعة الفاصلة . وتتفق المراجع جميعا على أن الجيش الاسلامى كان يجر وراءه قطارا عظيما محملا بالغنائم والأسلاب من كل صنف ، وربما بالغت المراجع النصرانية فى وصف أعمال السلب والنهب التى قام بها المسلمون فى نواحى غالة ، ولكن أكثر الأحكام اعتدالا فى هذه الناحية يقرر أن المسلمين اجتمع لهم شىء عظيم جدا من أسلاب المدن وتحف الكنائس والقصور والحصون . ويبدو أن استمساك الجند بهذه المغانم كان عظيما ، لأنهم حملوها معهم حتى نهر اللوار ، ولو أحسنوا لبعثوا نفرا منهم ليودعها أربونة أو برشلونة حتى يطمئنوا عليها وتخلو أيديهم للعمل المقبل ، ولكنهم كانوا أحرص عليها من أن يفارقوها ، بل سنرى أنهم كانوا أحرص عليها منهم على النصر والظفر ، فكان هذا الحرص فى ذاته من أشد أسباب هزيمتهم ، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم وعرف كيف يستغله لصالحه .

١٠٨ – مكان المعركة

ولسنا نعلم مكان الموقعة الفاصلة بين المسلمين والفرنجة على وجه التحقيق : أغفلته الرواية الاسلامية فيما أغفلت ، وتركته الرواية النصرانية مبهما فذكرت أنها كانت الى شمال پواتييه Pictavens فى اتجاه تور ، أى على الطريق الرومانى القديم بين البلدين ، ونقول على « الطريق الرومانى » لأن اسم المكان كما تحدده الرواية العربية باسم « بلاط » الشهداء يفهم منه أنها وقعت على مقربة من قصر كبير « بلاط » [1] وربما كان أقرب الآراء الى الصحة فى هذا الموضوع ما ذكره پروڤنسال من أن الموقعة كانت « على مقربة من طريق رومانى يصل شاتلرو (Chatellerault) بپواتييه ، على مسافة نحو

(١) LEVI-PROVENCAL : *Hist. de l'Esp. Musulmane*, I. p. 44.

عشرين كيلو مترا من المدينة الأخيرة ، وربما كانت عند الموضع الذى يسمى اليوم (Moussais-la Bataille) [1] .

* * *

١٠٩ – معركة بلاط الشهداء

لم تقدم لنا الرواية الاسلامية الا اشارات عابرة مبتسرة عن هذه الموقعة الفاصلة . ولا يعلل هذا الاغفال الغريب بمجرد رغبة الرواة المسلمين فى اخفاء معالم هذا الحادث المحزن ، لأن هؤلاء المؤرخين قدموا لنا تفاصيل طيبة عن هزائم أخرى نزلت بالاسلام على يد النصرانية ، كهزيمة الخندق ومأساة « العقاب » ، وكانت هذه الأخيرة أخطر من « بلاط الشهداء » وكانت مصيبة الاسلام فيها أعظم ، فكان اخفاء معالمها أولى ، فكيف اتفق أن كل ما تقدمه الرواية العربية عن هذه الموقعة لا يزيد فى مجموعه على عشرين سطرا موزعة فى نحو سبعة مراجع أو ثمانية ؟ بل كيف نجد نصوص هذه الروايات من الاضطراب بحيث يذهب ابن عذارى على دقة روايته الى أن الموقعة حدثت سنة ١١٥ هـ لا سنة ١١٤ ؟ [2] بل كيف يذهب ابن خلدون الى أن قائد المسلمين الذى استشهد فى هذه الوقعة لم يكن عبد الرحمن الغافقى وانما محمد بن عبيد الله بن الحبحاب ، وهى شخصية لم نسمع بها الى الآن فى حوادث الأندلس ؟ [3] وكيف يذكر

(١) ظن الكثيرون أن المراد بلفظ « بلاط » طريق مبلط ، وترجمها النصارى إلى pavé ، ولكن المراد بلفظ بلاط فى الأندلس قصر أو حصن حوله حدائق تابعة له ، فيقولون « بلاط مغيث » و « بلاط الحر » و « بلاط يوسف » ويقصدون بذلك قصور أولئك الرجال ، واللفظ مشتق من palatum اللاتينية . وعلى هذا فبلاط الشهداء معناها فى الواقع « قصر الشهداء » ، مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

المقرى فى احدى رواياته أن الواقعة حدثت أيام السمح بن مالك ؟ [١] كيف يقع هذا التناقض كله وذلك الاهمال كله فى وقعة مشهورة فريدة فى بابها كوقعة البلاط مع أن نفس هذه المراجع أوردت لنا تفاصيل هزائم اسلامية أخرى حدثت فى نفس الفترة على درجة كبيرة من الدقة والعناية ، كما رأينا فى هزيمة « تهودة » و « الأشراف » اللتين مررنا بهما؟ ثم كيف نجد الرواية النصرانية لا تخطىء مرة واحدة فى ذكر اسم القائد الاسلامى الذى خلط رواتنا الثقات فيه هذا الخلط ؟

الواقع أن المسألة لا تعلل الا بشىء واحد : هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدة بحيث كان أوائل الرواة ينفرون حتى من مجرد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم ، فاندرجت أخبارها فى مدارج النسيان وتعاقبت عليها الأعصر فلم يبق فى ذاكرة الرواة منها الا أن أهل الاسـلام قد هزموا فى هذه الناحية هزيمة مروعة بين سنتى ١١٤ و ١١٥ هجرية .

والدلائل كلها تنطق بأن الهزيمة كانت مروعة حقا : أولها تسمية الموقعة ببلاط « الشهداء » ، وهى تسمية يفهم منها أن عدد من استشهد فيها من المسلمين كان عظيما جدا . وثانيها أن المسلمين لم يحاولوا الاقتراب من اللوار بعد ذلك أبدا ، ولو كانت هزيمتهم هناك يسيرة لعادوا الى المحاولة ، ولو بقيت منهم بقية صالحة ما ترددت فى العودة . وثالثها هذا الصمت الغريب الذى تسدله الرواية الاسلامية على الموقعة. ورابعها هذا الاجماع على فداحة خسارة المسلمين الذى نجده عند المؤرخين النصارى فى هذا الموقف ، فضلا عن مؤرخنا الأول ابن حيان

(١) ابن حيان فى المقرى : نفح ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

الذى لا تدع روايته مجالا الى الشك فى مصاب المسلمين فى هـذه الموقعـة [١] .

ولا مندوحة لنا عن الاعتماد على المراجع النصرانية فى وصف هذه المعركة الخطيرة ، وينبغى أن ننبه الى أن أقدم هذه المراجع — وهما المدونتان المنسوبة أولاهما الى ايزيدور الباجى وثانيتهما المنسوبة الى بلده مواسـياك (Moissiac) — قد كتبت أولاهما بعـد الحادث بنيف وعشرين عاما وثانيتهما بعده بنحو قرن ، ولم يزد ما كتبتاه معا عن الموقعة على بضعة أسطر ، أما التفاصيل الكثيرة فترجع الى مدونات متأخرة جدا تشوبها روح القصص والأساطير .

ونكتفى فى وصف تطورات هذه الموقعة بما أورده عنها ايزيدور الباجى وصاحب مدونة مواسياك وپاولوس دياكونوس وصاحب ذيل فريجيداريوس الأول والثانى [٢] .

(١) «... وذكر أنه – أى عبد الرحمن الغافقى (ويذكر ابنُ حيان السمحَ بن مالك خطأ)– قتل فى الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ،وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين ، فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان : فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن» .

ابن حيان برواية المقرى فى نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٢) ISIDORO PACENSE : *Chronicon.* cc. 58-59. 60.

Chronicon Moissiacense. p. 166.

PAULUS DIACONUS, *Ex Lib.* VI.

Scolastici Fregedarii. Continuatio. II, III, apud *Ajbar Machmua. p.* 168.

CODERA, *Op. cit.* pp. 118 Sqq.

REINAUD : *Op. cit.* p. 34 Sqq.

١١٠ – المعركة

وقع اللقاء بين قارله وعبد الرحمن فى الثانى عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م / أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ.

وتدل التفاصيل التى لدينا على أن كلا من الفريقين كان يحس خطورة هذا الصراع الحاسم ، فلم يشتبك الجيشان فى المعركة الحامية الا بعد بضعة أيام ظلا خلالها يتناوشان فى اشتباكات محلية ، ثم اشتبكا بعد ذلك فى قتال عنيف ، واجتهد الفرنجة ومن معهم من الألمان والسويف والسكسون فى اختراق خطوط العرب يومين متتاليين دون نتيجة ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد وهجم مشاتهم وفرسانهم على المسلمين هجوما عنيفا بالحراب ، ولكن هؤلاء ثبتوا ثباتا فريدا ، بل بدا فى بعض الأحيان — قرب مساء اليوم الثانى على الخصوص — أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائهم . ثم حدث بعد ذلك أن اندفعت فرقة من فرسان الفرنجة فاخترقت صفوف المسلمين فى موضع ، وأفضت الى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم ، وكانت شيئا عظيما جدا ، فريع الجند الاسلامى المحارب وخشى الكثيرون من أفراده أن يستولى عليها هؤلاء الفرنجة ، فالتفت بعضهم وعادوا الى الخلف ليبعدوا الأعداء عنها . وهنا اضطربت صفوف المسلمين واتسعت الثغرة التى نفذ منها الفرنجة ، فاندفعوا فيها فى عنف وقوة زلزلت نظام القوات الاسلامية ، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق ، بل أصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم على جيوش المسلمين ، اذ انهال عليهم الفرنجة من كل جانب وحصدوهم حصدا . وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فانتهزوا فرصة الظلام وتسللوا متراجعين الى الجنوب على عجل، وكان ذلك فى العشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ).

وحينما أسفر الصبح نهض الفرنجة لمواصلة القتال ، فلم يجدوا من المسلمين أحدا ، وتقدموا على حذر من مضارب المسلمين ، فاذا هى خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، فظنوا أن فى الأمر خدعة ، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه ، ولم يفكر أحد منهم فى تتبع المسلمين ، اما لأنهم خافوا أن يكون العرب قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركا ، أو لأن قارله تبين ما نزل بالمسلمين ورأى أنه يستطيع العودة الى الشمال مطمئنا الى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده .

١١١ – بعد المعركة

وسندع التعليق على هذه الموقعة وأهميتها الى أن نفرغ من تتبع الجيش الاسلامى فى أعقابها ، وليس لدينا مرجع عربى واحد نستطيع الاعتماد عليه فى هذا الصدد . ولا مفر لنا — هنا أيضا — من الاعتماد على الروايات النصرانية وحدها: اندفع المسلمون فى تقهقرهم نحو الجنوب مسرعين ، واتجهت جموعهم نحو أربونة فمروا على مقربة من جيريه (Guéret) وغزوا فى طريقهم بلدة ليموزين وخربوا كنيسة سولنياك (Solignac) ، وحينما أحسوا أن أحدا من النصارى لا يتتبعهم تمهلوا فى سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد . ويبدو أن فرقا منهم شردت عن الجيش فوقعت فى أيدى النصارى ، ولدينا تفاصيل كثيرة من هذا النوع ، ولكنها جميعها غير ثابتة ولا محققة ، ولا نستطيع لهذا أن نتحدث عنها بأكثر من هذه الاشارة [1] .

وتزعم الروايات النصرانية أن خبر الهزيمة الاسلامية تردد فى نواحى غالة الجنوبية واسپانيا الشمالية فتواثب أهلها بالمسلمين من كل ناحية ،

(١) *Gallia Christiana*, II. p. 566.
REINAUD. *Op. cit.* p. 49

وتخطفوا فلول قواتهم المتراجعة . وليس لدينا على ذلك دليل ، وان كان المعقول أن يطمع أهل هذه النواحى فى المسلمين ، لا لأنهم مسلمون بل لأن قواتهم فى غالة قد تفرقت بعد هذه المعركة ، فأسرع هؤلاء يفيدون من هذه الفرصة ، كما سيفعلون حينما ينقضون على مؤخرة جيش شرلمان النصرانى بعد ذلك بسنوات (١) .

وكانت هزيمة « البلاط » سببا فى تعجيل عبيدة بن عبد الرحمن بتولية عبد الملك بن قطن الفهرى ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق ان كان عبد الملك قد قدم الأندلس من افريقية أو كان من عربها المقيمين فيها ، ويغلب على الظن أنه كان من جند العرب فى الأندلس ، واختاره عبيدة للولاية من بينهم ، لأننا نجده من أول الأمر فى عصبة من الرجال يؤازرونه ويتعصبون له . وهو أمر لم يكن ليحدث لو أنه أتى من افريقية ، خصوصا وأن المراجع لا تذكر أن جماعة من العرب انتقلت الى الأندلس فى ذلك الحين .

١١٢ - عبدالملك ابن قطن الفهرى يسير إلى غالة

وكان أول ما اهتم به عبد الملك هو المسير الى غالة لاقرار أمر المسلمين فيها بعد موقعة البلاط وما تلاها ، وقد توجه بنشاطه أول الأمر الى نواحى شمالى الأندلس ، فهاجم نواحى أرغون ونبره ، ثم عبر البرتات وأفضى الى لانجدوك واهتم بتحصين المعاقل التى كانت ما تزال فى أيدى المسلمين . وكانت نواحى سبتمانية اذ ذاك فى فوضى شاملة بسبب الحروب المتوالية وبسبب الاضطراب الذى نجم عن هزيمة البلاط وتقهقر

(١) GREGOIRE DE TOURS dans RUINART, *De Gloria Confessorum*. p. 934 et 1402.
REINAUD, *Op. cit.* p. 50

جيوش المسلمين ، وكان الظاهرون من أهلها قد انتهزوا فرصة تلاشى أمر الدوق أودو لكى يتوزعوا النواحى فيما بينهم ويعلنوا أنفسهم أكنادا أو أدواقا بها ، واحتربوا فيما بينهم . وكانوا جميعا يكرهون أودو وقارله معا ، وخشوا أن تؤدى هزيمة المسلمين الى وقوعهم تحت سلطان أحدهما ، فجعلوا يستعينون بالعرب المتحصنين فى أربونة ، وتذكر المراجع منهم دوقا يسمى ماورنت (Maurontes) اتخذ لقب دوق مرسيلية وحالف جند المسلمين وطمع فى السيادة على پروڤانس كلها (١) .

وكان قارله مشغولا اذ ذاك بتقرير سلطانه فى ولايتى بورجونيا وليون اللتين تم له فتحهما ، وكان المسلمون قد فتحوهما ثم تخلوا عنهما بعد الهزيمة وخلفوهما فى فوضى شاملة ، فأقام قارله فيهما نفرا منَ المخلصين له يسمون Laudes (أى الخلصاء) وفرض طاعته على أشرافهما . ثم اشتغل بعد ذلك بأمر أهل فريزيا (Frisii) ومضى لاخضاعهم وأنفق فى ذلك وقتا ليس بالقصير . وأحب أن يضمن ولاء جنده فأطلق أيديهم فى ذخائر الكنائس وأملاكها ، فأغضب بذلك القساوسة وعامة الناس . وكان جنده الفرنجة يعتبرون أنفسهم سادة البلاد المفتوحة ، وكان قارله يميز جنده على أهل غالة الأصليين ويحرم عليهم الزواج منهم ويلزمهم بالعيش بعيدا عنهم ، فأبغضه أهل جنوبى غالة ، وفتر حماسهم نحوه ، وهكذا خسر ولاءهم (٢) ، وأعان ذلك العرب على الثبات فى هذه النواحى ، بعد أن كان أمرهم قد تحرج

(١) REINAUD, *Op. cit.* p. 52.
(٢) *Gallia Christiana*, I, p. 537. 544,600,620.
REINAUD, *Op. cit.* pp. 53-54.

وتواتر عليهم تواثب الناس ، حتى غدوا كالمحصورين فى أربونة وغيرها مما كان بيدهم من المعاقل .

١١٣ — المسلمون يستعيدون آرل

وكان قائد جند المسلمين فى أربونة وغالة رجـلا تسميه المراجع النصرانية بيوسف (Jussef) ، والغالب أنه يوسف الفهرى الذى ستصير اليه ولاية الأندلس فيما بعد ، فاتحد مع ماورنت دوق مرسيلية (Massilia) ، وسار فعبر الردانه واستولى على آرل (Arelatum) وخربها وأطلق يد جنده فيما حولها حتى صارت قفرا خرابا بعد ذلك أربع سنين ، وتوغل بعد ذلك فى پروڤانس واستولى بعد حصار طويل على بلدة فرتا(Fretta) التى تسمى اليوم(Saint-Remi)

١١٤ — الاستيلاء على أبنيون

ثم توجه نحو أبنيون(Avenionum) واقتحمها على أهلها بعد أن دافعوا عنها دفاعا عنيفا ، وأفضت جيوش المسلمين الى نهير الديورانس (Durance) ووقفوا عند ذلك الحد بعد أن استعادوا بقيادة يوسف هذا جزءا عظيما مما كانوا قد فقدوه بعد وقعة البلاط ، وقد ثبتت قدم المسلمين فى هذا الجزء أربع سنين لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيه [(١)] .

(١) *Chronicon Moissiacense*, p. 166.

Recueil des Historiens de France, II, p. 655

Fregedarii Scolastici Continuatio, dans *Recueil des Historiens de France*, op. cit. II p. 456.

ويسمى العرب فى ذلك النص الإسماعيليين :

"Denuo rebellante gente validissima Ismahelitarum, irrumpenteque Rhodanum Fluvium..."

PAPON : *Hist. de Provence*, I, p. 85.

M. DE LAGOY : *Description de quelques médailles inédites de Massilia* (Aix, 1834) p. 23.

REINAUD, *Op. cit.* pp. 54-55.

وقد لبث قارله ساكنا أثناء ذلك كله ، ولم يفكر فى المسير للقاء المسلمين مع نهمه الى الأرض وطمعه فى توسيع سلطانه بأى سبيل ، وبدلا من ذلك أسرع الى أقطانية حينما بلغه موت أودو سنة ٧٣٥ م وأرغم ابنه على حلف يمين الولاء له . ولا يعلل انصرافه عن العرب وتجنبه لقاءهم الا بأنه قد ذاق مرارة الحرب معهم وعرف جلـدهم وقدرتهم فصار يتجنبهم ، وقد رأيناه يتخوف تتبعهم بعد موقعة البلاط مما يدل على أن تجربة « البلاط » لم تكن عسيرة على العرب وحدهم ، بل على قارله أيضا . وكان هو أعرف الناس بأنه لولا تفطنه الى حيلة مهاجمة معسكر الغنائم لما استطاع كسب معركة البلاط ، وقد كان يقود المسلمين فيها بطل من أبطالهم هو عبد الرحمن الغافقى ، وهو جيش وحـده .

١١٥ — إخضاع إمارات البرت

وكان عبد الملك بن قطن قد اطمأن الى جهد قائده فى أربونة ، فلم يتجشم عناء المسير نحو الردانه ، فوجه همه نحو امارات جبال البرت[(١)] ليكسر شرة أهلها ، وكانوا كما رأينا قوما جبليين شديدى المراس قد ضروا على حروب الجبال والعصابات ولم يكن قد أخضعهم الى ذلك الحين أحد ، وقد لقى عبد الملك فى الحروب معهم بلاءً شديدا وهزموه فى معركة كبيرة لا تذكر المراجع زمانها أو مكانها ، وكان بطبعه رجلا سيىء السياسة عنيفا ظلوما ، فلم تلبث الشكوى منه أن وصلت الى افريقية واتصلت الى دمشق ، وانضافت الى ذلك هزيمته فعجلت بعزله . وكانت ولاية افريقية قد صارت الى

(١) لم تكن جبال البرت إذ ذاك فاصلا بين غالة وإيبريا كما هى اليوم فاصل بين فرنسا وإسبانيا ، وإنما قامت فيها إمارات تمتد على جانبى الجبال فى غالة وإيبريا ، وهذه الإمارات هى النويات التى نشأت حولها فيما بعد ممالك نبرة وأرجون .

عبيد الله بن الحبحاب ، فعجل بعزل عبد الملك وبعث على الأندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان أفضل من عبد الملك من كل وجه [١].

كان عقبة بطبعه رجلا مجاهدا ، مثله فى ذلك مثل عبد الرحمن الغافقى ، وكان قد اختار ولاية الأندلس لأنها « موضع جهاد » كما قال [٢] ، وكان مسلما صلبا عادلا متفانيا فى القيام بأعباء منصبه الجديد، وكان عبد الملك قد أفسد الأمور ونفَّر أهل الأندلس ، عربا وغير عرب ، مسلمين وغير مسلمين ، فصرف عقبة همه الى اقرار الأمور واشاعة العدل فى الناس ، ثم تجرد للغزو فى شمالى الجزيرة ، وصرف همه أول الأمر نحو الثائرين فى أشتريس ، فلما أوفى على غايته فى هذه الناحية انحدر الى الشرق ، فنزل سرقسطة وتوجه منها نحو البرتات وغالة .

١١٦ – عقبة ابن الحجاج السلولى يجدد نشاط الفتوح فى غالة

وكان المسلمون بعد أن ثبتوا أقدامهم فى پروڤانس قد تحصنوا فى المدائن الكبرى وحولوها الى رباطات ثم جعلوا يرقبون الحوادث . فلما أقبل اليهم عقبة بحماسه ورغبته فى الجهاد نهضوا معه نحو ناحية الدوفينيه (Dauphiné) واستولى عقبة على سان — پول — تروا — (Saint-Paul-Trois-Chateaux) ودونزير (Donzaire) وخربوهما . ثم اتجه نحو الشمال فى جرأة وحزم فاستولى على ڤالانس

(١) REINAUD : *Op. cit.* p. 55.

ويذكر رينو فى نفس الموضع أن الخليفة أبقى لعبد الملك ولاية الثغور الشمالية فى الأندلس ومنطقة البرتات ، ولا نعرف المصدر الذى استقى منه هذا الكلام ، وكل ما نعرفه هو أن عبد الملك بقى فى الأندلس بعد عزله وأنه كان يتمتع بمركز ممتاز بين اليمنيين فى الأندلس ، وقد ظل يدبر على عقبة حتى وثب به فى أخريات أيام ولايته واسترد ولاية الأندلس من جديد كما نعلم .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص٢٧ – ٢٨ .

وخرب جميع الكنائس المحيطة بڤيين (Vienne) ، وكان من معه من الجند ينتظرون هذه الفرصة بفارغ الصبر ليدركوا ثأر معركة « البلاط » ، فمضوا معه يشتدون لا يكادون يقابلون شيئا عامرا الا خربوه .

١١٧ – إعادة فتح بورجونيا

وصعد بهم عقبة مع ردانه حتى أعاد فتح اقليم بورجونيا كله ، واستولى على ليون من جديد ، وامتد جناح المسلمين الشرقى فى اقليم دوفينيه حتى وصل الى پيدمنت فى شمالى ايطاليا ، وبدا أن المسلمين مستعيدون مراكزهم كلها فى غالة عن قريب [١] .

هنا تحرك قارله للعمل من جديد ، وكانت حروبه مع أعدائه فى شمال أوستراسيا وشرقها قد انتهت الى هدنة مؤقتة سنة ٧٣٧ م واستطاع التفرغ للسير نحو الجنوب ، فعجل بارسال أخيه شلدبراند (Childebrand) — ساعده الأيمن فى كل حروبه — فى جيش كثيف نحو أبنيون ، وكتب الى لويتبراند(Luitbrand) ملك اللومبارد فى شمال ايطاليا يسأله المسير لمهاجمة جناح المسلمين الشرقى المتحصن فى جبل پيدمنت . وانحدر شلدبراند مع الرون حتى وصل أبنيون وبدأ حصارها ، وكان المسلمون قد أحكموا تحصينها فعجز الجيش الفرنجى عن اقتحامها ، واضطر قارله الى المسير بنفسه فى جيش جديد ، وشدد الأخوان الحصار واستعانا بآلاته ، وتقدم لويتبراند فى نفس الوقت وهاجم المسلمين عند پيدمنت ، وأمام هذا الضغط الشديد لم يستطع المسلمون الاستمرار فى الدفاع عن أبنيون ، ولكنهم لم يسلموا البلد

(١) *Gallia Christiana* : I, 703-737

REINAUD : *Op. cit.* p. 57.

واستماتوا فى الدفاع عنها حتى اقتحمها الفرنجة عليهم . ويصف صاحب ذيل مدونة فريجداريوس استيلاء قارله على البلد بقوله :

« ... وأحاط كارولوس (قارله) بالبلد وحاصر أسوارها حصارا حديديا (in modum Hierico) بجيش ضخم وأبواق ذات أصوات عالية وآلات حرب وأدوات مفزعة مركبة على الأسوار ، وحفرت حول الأسوار خنادق ، وتواترت على البلد جيوش جرارة فلم يلبث البلد أن سلم » (١) .

ثم تقدم الجيش الفرنجى نحو أربونة معقل العرب الرئيسى فى غالة، وتذكر المراجع النصرانية أن قائده كان يسمى أثيمة (Athima) وربما كانت صحته « هرثمة » . وتذكر المدونات اللاتينية أن أمم البرت وثبت بالمسلمين من جديد وقطعت مواصلاتهم مع الأندلس ، فلم يبق للقوات الاسلامية فى غالة الا أن تتصل بمراكزها الرئيسية فى اسبانيا عن طريق البحر ، فعجل عقبة بن الحجاج بارسال مدد عن طريق البحر يقوده قائد

(١) PAULUS DIACONUS , *Lib. VI* apud *Achbar Machmua.*, p.167
ونصه :

" ... Cum machines et restium funibus super muros et aedium moenia irrunt, urbem succedunt, hostes capitiunt interficientes trucidant..."

وخلف لويتبراند لوحة عند پاڤيا أشار فى بضعة أبيات نقشها عليها إلى ماصنعه مع العرب فى شمال إيطاليا بقوله :

Deinceps tremuere feroces
Usque Saraceni, quos dispulit impiger, ipso,
Cum dremerent Gallos, Carolo poscente juvari

cf : SIGONIUS, *De Regno Italiae*, anno 743

وأما تفصيل حصار قارله لأبنيون المذكور فقد ورد فى :

Fregedarii Continuatio III, apud *Achbar Machmua* pp. 168-169.

وانظر أيضاً
Recueil des Historiens des Gaules, II. p. 486.
REINAUD, *Op. cit.* pp. 57-59.

عربى يسميه ايزيدور الباجى (Amor) وصحته عمرو أو عمر على الغالب، فنزل المدد على شاطىء غالة فى موقع قريب من أربونة ، فأسرع قارله للقائه ، والتقى به يوم أحد على شاطىء نهير البر (Berre-Birra) على بضعة فراسخ من أربونة ، ويذكر صاحب مؤرخة مواسياك أن القائد العربى كان قد تحصن على ربوة عالية واعتمد على كثرة جنده ولم يتخذ الحيطة ، ففاجأه قارله على غرة وأنزل به هزيمة قبيحة استشهد فيها عمر نفسه ، ولم ينج ممن معه الا عدد قليل استطاع بعضهم الوصول الى أربونة ودخولها ، وحاول الباقون الهرب فى المراكب فتعقبهم الفرنجة فى مراكب صغيرة وأصابوا كثيرين منهم (١) .

١١٨ – قارله يفشل فى الاستيلاء على أربونة

وعاد قارله يشدد الحصار على أربونة ، واستبسلت حاميتها الاسلامية فلم يدرك الفرنجة منها على طول الحصار منالا ، فاضطر الى رفع الحصار والتقهقر الى الشمال . ويبدو أن أهل غالة الجنوبية وقفوا منه موقف العدو ولم يعينوه على ما طلب من اخراج المسلمين ، مما يدلنا على أن ما تذكره الروايات النصرانية عن مساءاتهم فى النواحى التى دخلوها ان هى الا مبالغات قساوسة ومزاعم رهبان نصارى . فأراد قارله الانتقام من أهل غالة ليعزى نفسه عن فشله أمام حصون أربونة ، فعسفهم عسفا شديدا ، وخرب حصون بيزييه وأجدة ونيمة . وقد لقيت هذه البلدة النصرانية الأخيرة من الويلات على يد قارله شيئا كثيرا ، فهدمت أسوارها وأطلقت فيها النيران ، وفعل قارله مثل ذلك بمجلونة (Magallona) وكانت اذ ذاك من المدن الزاهرة فى هذه الناحية . وعاد

(١) *Continuatio Scolastici Fregedarii* III, Loc. cit.
Chronicon Moissiacense apud *Achbar Machmua* pp. 165-166.

الى الشمال ومعه كثير من أسرى المسلمين وعدد من كبار الغاليين ، أخذهم معه كرهائن ليضمن بهم ارغام أهل نواحيهم على التخلى عن عون العرب ، مما يدلنا على أن أهل غالة الجنوبيـة كانوا يفضلون المسلمين على الفرنجة ، وذلك طبيعى ، لأن الفرنجة كانوا اذ ذاك أجلافا قساة بعيدين عن كل تمدن ، لا مقارنة بينهم وبين المسلمين أصـلا فى مسائل الحكم والتنظيم .

ويؤيد المؤرخ رينو ذلك بقوله : « ومن المؤكد أن سلطان قارله كان مبغضا الى أهل غالة الجنوبية ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم احتفظوا بجزء من النظم الرومانية وحضارتها ، فكانوا ينظرون الى أهل الشمال نظرتهم الى متبربرين همج لم تزايلهم طوابع الجلافة الجرمانية . ولم يستطع رجال الدين على الخصوص أن يغفروا لقارله استبداده بممتلكات الكنائس . وكان العرب فى تقدمهم قد استولوا على معظم الكنائس والأديرة ووضعوا أيديهم على ممتلكات هذه المؤسسات ، فلما أقبل قارله وأخرج العرب لم يعد الى رجال الدين ممتلكاتهم ، وانما فرق الأراضى والمنازل على جنوده ، فأثار ذلك استنكار الأتقياء وظل معظم الأسقفيات والأديرة خرابا لقـلة تعهدها بالعنـاية . ويذكر التاريخ ڤيليكاريوس (Vilicarius) أسقف ڤيين الذى حاول ، بعد خروج العرب من المدينة ، أن يسترجع ممتلكات أسقفيته ، فلما وجد أنها تفرقت فى أيدى غير رجال الدين غادر بلده ومضى الى دير القديس ماوريكيوس (سان موريتز الآن) . ولم تصلح هذه الأخطاء الا خلال الأعوام التالية شيئا فشيئا ، فى حكم پيپين وشارلمان »[١] .

(١) انظر عن هذه التفاصيل مدونة مواسياك والذيل الثالث لمؤرخة فريجيداريوس فى المواضع المشار إليها آنفا .

cf : CHARVET : *Hist. de la Sainte Eglise de Vienne*, p. 147.

REINAUD : *Op. cit.* pp. 59-61.

١١٩ — العرب وأهل غالة

وعبارة رينو تفسر لنا سر كراهية أهـل غالة الجنوبية للفرنجـة ، ولكنها لا تفسر لنـا سر ميلهم الى المسلمين ومؤازرتهم اياهم ، وليس لذلك الا تفسـير واحـد لم يشـأ المؤرخ أن يذكره ، وهو أن المسـلمين كانوا يحترمون الدين وأصحابه ، ولم تمتـد يدهم بالأذى الى أموال النـاس فيما دخلوه من البـلاد الا بقـدر ما اضـطرتهم اليـه الضرورات العسكرية . وقد رأينا المسلمين ينصفون الناس فى الأندلس ولا يكادون يؤذون رجال الدين أو المؤسسات الدينية ، فمن عجب أن تتغير خطتهم دفعة واحـدة بعد دخولهم غالة ! وقد كان قائدهم اذ ذاك رجـلا اشتهر بالعدل وايثار الحق هو عقبة بن الحجاج السلولى الذى تجمع المراجع النصرانية نفسها على الثناء عليه ، ومن أسف أن مراجعنا العربية تضن علينا بسطر واحد ينير أمامنا الطريق فى هذا الموطن المبهم ، الا عبارة يسيرة عن سلوك عقبة تؤيد ما قلناه ، تقول ان الرجل كان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوه الى الاسلام ويبين له فضائله ، فأسلم على يديه ألفا رجل بذلك[١] ، مما يأذن لنا فى القول أن عقبة ومن عمل تحت امرته من المسـلمين كانوا يؤثرون الرفق حتى مع الأسرى (وكان مصيرهم القتل فى قواعد الحرب فى تلك الأيام) فكيف بأهـل المدن والأرياف الذين يستسلمون ويؤدون الجزية دون حـرب ؟ وكيف، ولدينـا البرهان الساطع على حسن تصرف المسلمين مع أهل هـذه النواحى من انضمامهم الى المسلمين ومؤازرتهم اياهم على ملك الفرنجة وأودو وغيرهما من طواغيت الجرمان ؟ وحتى كتابات الرهبان — على تعصبها الشديد — تفيض بالشكوى من مساءات الفرنجة وملكهم قارله، وقد كتب معظمها بعد هذه الحوادث بسنوات ، أى فى ظلال امبراطورية

(١) ابن عذارى : البيان المغرب، ج ٢ ص ٢٩ .

شرلمان ، فلا بد أن كتابها خففوا كثيرا من مساءات قارله ، وأما مافيها من الأقوال عن أفاعيل المسلمين فمبالغات تقرب من الأساطير ، ولا يستطيع التاريخ المنصف أن يقبل الا القليل منها [1] .

وكان الدوق ماورنت قد عاد الى پروڤانس بعد انصراف قارله ، وعقد الخناصر مع المسلمين من جديد ، فتخوف قارله من عواقب ذلك وقرر المسير الى الجنوب مرة أخرى لمحاولة القضاء على هذا الخصم العنيد . فانحدر سنة ٧٣٩ م مع أخيـه شلدبراند ووجهتهما ماورنت وبلاده . واستوليا على ماسيليا (مرسيليا) قاعدة دوقيته وطرداه من البلاد . وأقاما المحارس على الشاطىء المقابل لشواطىء اسپانيا وحالا بذلك بين العرب وبين الاسترسال الى شرقى ردانه من جديد [2] .

بيد أن المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذا التحـدى ، وجعلوا همهم بعد ذلك نزول پروڤانس ودوفينيه من ناحيـة البحـر . وأعانهم الحظ بموت قارله (٧٤١ م / ١٢٣ هـ) واضطراب الأمر من بعده حينا حتى استقراره لابنه پيپين الثانى ، ولكن ظروفهم لم تعنهم على الاستفادة من هذه الفرصة استفادة كاملة ، لأن فتنة البربر فى

---

(١) راجع ما يقوله رينو فى هامش ص ٦٣ :

« يبدو أن التفاصيل الواردة فى تاريخ حياة القديس پوركاريوس Porcarius بخصوص أعمال التخريب التى أحـدثها العرب فى داخل إقليم پروڤانس تنصب على ما فعله المتبربرون فى هذه النواحى حينما نزلوها بعد سنة ٨٨٩ م » .

وهى ملاحظة قيمة تؤيد ما قلناه ، وهو أن الرهبان نسبوا كل ما أحدثه المتبربرون الجرمان من التخريب فى شمالى إيطاليـا وجنوبى غالة إلى العرب . ويشير المؤلف إلى كتـابات البولانديست (Bollandistes) بتاريخ ١٢ أغسطس ٧٣٧ م .

(٢) *Continuatio Fregedarii*, III, *Loc. cit.*
REINAUD. *Op. cit.* p. 63

الأندلس وافريقية كانت اذ ذاك على أشدها ، فتوقفوا عن مدد حامياتهم فى غالة [1] .

وكان عقبة بن الحجاج قد توفى (صفر سنة ١٢٣هـ / يناير ٧٤١م) على ما رأينا ، وصار الأمر مرة أخرى الى عبد الملك بن قطن : وثب عليه هو ومن معه من اليمنية واستبدوا بالبلاد وأشعلوا الأندلس نارا ، ثم أقبل بلج والقيسيون ونازعوه الأمر وانتزعوا الامارة وقتلوه . فثارت اليمنية على كلمة واحدة .

١٢٠ — عبد الرحمن ابن علقمة اللخمى ينصرف عن غالة بجنده

وكانت قيادة المسلمين فى غالة قد صارت الى عبد الرحمن ابن علقمة اللخمى على أوائل أيام عبد الملك بن قطن ، وكان عبد الرحمن يمنيا متعصبا فلم يكد يترامى اليه خبر مقتل عبد الملك حتى قرر المسير الى قرطبة للانضمام الى قطن وأمية ابنى عبـد الملك بن قطن ، وأخـذ معه معظـم من معـه من أنجاد الجنـد ، حتى لتزعـم المراجع العربيـة أن عـدة من سار معه الى قرطبـة كانت مائة ألف [2] . وهى مبالغـة ظاهرة ولكنها تدل على أن غالة خلت من أنجاد مقاتليها من المسلمين ، فتضعضع مركزهم فيها نتيجة لهذا ، وكان ذلك من أقوى الأسباب فى زوال أمر الاسلام من غالة جملة . وكان عبد الرحمن نفسه من خـيرة قادة المسـلمين وفرسانهم حتى لكان يلقب بـ « فارس الأندلس » وكان قيامه بقيادة جند الاسلام فى غالة خير ضمان لثبات أمر الاسلام فيها ، فأما وقد

---

(١) REINAUD. *Op. cit.* p. 72

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .
وانظر ايضا :
ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٦ .

انصرف بمن معه ، وألقى بنفسه فى معمعة « المصارة » وفقد الآلاف من خيرة جنده فيها ، فلم يعد للمسلمين أمل كبير فى الثبات فيما وراء البرتات ، خصوصا وقد انتظم أمر الدولة الفرنجية واستتب الأمر لبيبين فى أوستراسيا ودان له ابنا أودو صاحبا أقطانية بالطاعة ، وتمهد أمامه الطريق للتجرد لحرب المسلمين .

ولا غرابة والحالة هذه أن نقرأ فى المدونات النصرانية أن كبريات مدائن سبتمانية مثل بزييه ونيمة ومجلونة تخلصت من الحكم الاسلامى ، وقامت فيها حكومات محلية من أهلها ، وكذلك حدث فى امارات البرتات مثل كنتبريه ونبره ، خلعت طاعة المسلمين وصار أمر أهلها بأيدى أنفسهم (١) .

ولم يكد الأمر يستقر ليوسف الفهرى والصميل (من ربيع الثانى سنة ١٢٩ هـ / ديسمبر سنة ٧٤٦ م) حتى عجل يوسف بارسال ابنه عبد الرحمن فى بعث الى نواحى البرتات لاقرار أمر الاسلام فيها من جديد . فلقى مقاومة عنيفة ولم يوفق الى شىء يذكر . وكانت المواصلات بين جند المسلمين فى أربونة وأجنادهم فى شمالى الأندلس قد تقطعت ، فطمع فيهم ڤايفر (Vaifre) ولد أودو الذى صارت اليه أمور أقطانية بعد نزاع طويل مع أخيه فى سنة ٧٥١ م / سنة ١٣٣ هـ . وكان عبد الرحمن بن علقمة اللخمى قد عاد الى أربونة بعد هزيمته مع اليمنيين فى وقعة المصارة فتولى الدفاع عن أربونة ، ولكن أمره كان قد ضعف بسبب ما فقده من الجند فى حروب العصبيات فى الأندلس (٢) .

(١) REINAUD. *Op. cit.* p. 77

(٢) REINAUD. *Op. cit.* pp. 76-77.

١٢١ — بيبين الثانى يهاجم أربونة

وكان مركز بيبين قد قوى فى غالة كلها بعد أن انحاز اليه البابا ونقل اليه التاج من آخر الميروڤنچيين (سنة ١٣٣هـ/ سنة ٧٥١ م) فبادر بالمسير فى جيش كبير نحو أربونة عام ١٣٣ — ١٣٤ هـ / ٧٥٢ م . وأعانه الحظ بوجود حليف قوى من قوط جنوبى غالة يسمى أنسموندوس (Ansemundus) كان سلطانه يشمل بلدان نيمة وأجْدَة ومَجَلُونة وبزييه ؛ فسلمها اليه ؛ وبهذا لم يبق أمام بيبين الا أن يوجه قواته كلها نحو أربونة ؛ فتقدم وحاصرها فترة من الوقت ، ولم يلبث أن استبان مناعتها وصعوبة الاستيلاء عليها ، فتركها وخلف أنسموندوس ليمضى فى الحصار . ودارت الحرب بين أنسموندوس والمسلمين ، فلم يلبثوا أن أوقعوا به : فاجأه كمين منهم وقتله ، وحلت مجاعة شديدة بجنوب غالة كله ؛ فلم يستطع جند الفرنجة الاستمرار فى حصار أربونة ؛ فاضطروا الى الانسحاب منها ونجا البلد من خطر الحصار هذه المرة أيضا (١) .

ولم يجد جديد فى أمر أربونة خلال السنوات السبع التالية ، لأن أهل الأندلس شغلوا بأمر عبد الرحمن الداخل وتأسيس دولته ؛ فظلت حامية البلد قائمة بالدفاع عنها معتمدة على نفسها دون أن يعمر قلوبها أمل فى وصول نجدات من المسلمين ، ولكن الحظ أعانهم باشتغال بيبين عنهم بما دهاه من الثورات فى بلاده ، فظلت أربونة وبعض نواحى سبتمانية ثغرا اسلاميا يقوم للأندلس الاسلامى كالدرع الحصين دون أن يفطن أهل الأندلس الى هذا الدور الخطير الذى لعبه هؤلاء المسلمون المنعزلون فى هذه الناحية القاصية يحيط بهم الأعداء من كل ناحية .

(١) *Cronicon Moissiacense.* Loc. cit.

REINAUD. *Op. cit.* p. 78

ولم تغب عن عبد الرحمن الداخل أهمية هذا الثغر ، فلم يكد الأمر يستقر له حتى أسرع فى سنة ١٤٠ هـ / سنة ٧٥٨ م بارسال بعث قوى يقوده قائد تسميه المراجع النصرانية سليمان [١] ، ولكن التوفيق أخطأ هذا البعث ، اذ دهمه رجال العصابات فى ممرات جبال البرت الخطرة ومزقوه اربا [٢] . وكانت هذه آخر محاولة قام بها الأندلس لانقاذ آخر معاقل الاسلام فى غالة ، اذ روعت هذه الكارثة عبد الرحمن فلم يعد يفكر فى أمر حامية غالة ، وشغلته الثورات الكثيرة التى تواترت عليه ولما يستتب سلطانه .

فاذا كانت أربونة قد تركت لشأنها على هذا النحو المحزن ، ولم يعد أحد يفكر فى نجدة أهلها أو استغلال موقعها الذى بذل المسلمون تضحيات كبرى للتسكن منه ، ودافعت عنه جماعات منهم بعد جماعات ثبتت كلها للهجمات المتوالية من جيوش الفرنجة ومن انضم اليهم من جماعات الجرمان قرابة الثلاثين عاما ، اذا كان هذا حالها الذى صارت اليه ، فقد كان من الطبيعى أن يضعف أمر حاميتها الى حد لاتستطيع معه الثبات . والواقع أن انتصار رجال العصابات على البعث الاسلامى الذى أرسل

١٢٢ — سقوط أربونة (سنة ١٤١ هـ / سنة ٧٥٩ م)

(١) ذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء رجلين من رجال دولة عبد الرحمن الداخل يسمى كل منهما أباسليمان : الأول أبوسليمان حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، والثانى قطيس بن سليمان بن عبد الملك بن زيان أبو سليمان الكاتب . والراجح أن المراد هنا هو الأول ، لأن ابن الأبار يذكر أن عبد الرحمن ولاه طليطلة وأعمالها ، وقد توفى أبوسليمان هذا فى عهد عبد الرحمن فى حين توفى الثانى فى عهد الحكم الربضى .

انظر :

ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٥ وما بعدها وص ٦٠ .

(٢) REINAUD. *Op. cit.* p. 81

لنجدتها سنة ١٤٠ هـ / سنة ٧٥٨ م وتبيَّن نصارى جنوبى غالة أن حامية أربونة وحاميات غيرها من المعاقل الاسلامية فى سبتمانية باتت وحيدة منعزلة لا يزداد أمرها مع الأيام الا ضعفا ، فزاد طمعهم فيها وأخذوا يتربصون بها . فلما كانت سنة ٧٥٩ شعر أهل أربونة من النصارى أن فى استطاعتهم الوثوب بمن بينهم من المسلمين واخراجهم منها ، وكان الفرنجة قد أرسلوا بعثا حاصرها ، فتشجع أهل أربونة وانقلبوا على الحامية الاسلامية على حين غرة ، فقتلوا من أفرادها نفرا عظيما وأسرعوا ففتحوا أبواب البلد للفرنجة ، وعجل پيپين بارسال بعث قوى أكمل ما بدأ به أهل البلد ، وقضى على ما بقى للمسلمين من الجند فى أربونة ، وبهذا ضاع هذا المعقل الاسلامى الفريد ، بعد أن ظل فى يد المسلمين قرابة الثلاثين سنة يؤيد سلطانهم على سبتمانية ومعظم نواحى جنوبى غالة [١] .

وبقيت من المسلمين بعد ذلك جماعات صغيرة تسيطر على بعض نواحى دوقية الدوفينيه وكونتية نيس ، واعتصمت جماعات منهم فى شعاب الألب الغربية ، وظلت هذه الجماعات تقيم فى هذه النواحى طوال عصر شرلمان ، وتذهب بعض نصوص — غير موثوق فى صحتها — الى أن تلك الجماعات الاسلامية

١٢٣ — بقايا المسلمين فى غالة

(١) وردت تفاصيل كثيرة عن هذا الحادث فى قصة فيلومين PHILOMENE التى نشرها M. CIAMPI فى فلورنسه سنة ١٨٢٣ تحت عنوان :

Gesta Caroli Magni ad Carcassonam et Narbonam

ويبدو أن هذا المرجع لا يمكن الاعتماد عليه ، لأن رينو يقول إن المؤلف يزعم أنه كتبه بأمر شرلمان ، ولكن هذا الكتاب الذى كتب أول الأمر بالپروڤنسالية والذى يضع المؤلف فيه فى عصر شرلمان حوادث وقعت على أيام أبيه پيپين وجده قارله ، قد كتب فى القرن الثانى عشر على الأغلب ولا يستحق أية ثقة :

REINAUD, op. cit. p. 8I et note I.

استولت على جرينوبل فى تاريخ غير محدد بالضبط . وقد ظلت هـذه الجماعات الاسلامية مقيمة فى هذه النواحي حتى نزل المسلمون شاطىء فرنسا الجنوبى مقبلين من صقلية وقرصقة بعد مائة وثلاثين عاما على ما فصلناه فى دراسة أخرى [1] . ولكننا نستطيع القول أن تاريخ سيادة المسلمين فى جنوبى غالة ينتهى بسقوط أربونة سنة ٧٥٩ ميلادية [2] .

١٢٤ – نتائج سقوط أربونة

وبعد أن سقطت أربونة تغير الوضع فى شمال الأندلس الغربى تغيرا تاما ، اذ رفعت الولايات النصرانية الواقعة فى منطقة البرت رأسها وانتعشت بقيام الدولة الشرلمانية ، فقوى أمرها واستمدت العون من غالة ، وهنا يبدأ تاريخ « الثغر الاسپانى » الذى نشأت عنه امارة قطلونية (كتلونيا) فيما بعد . وسنرى شرلمان بعد سنوات يعبر البرت ويحاول الاستيلاء على سرقسطة [3] .

وقبل أن نترك غالة وتاريخ المسلمين فيها ، لابد من أن نتعرف أحوال المسلمين أثناء اقامتهم فيها ، والنظم التى ساروا عليها فى تنظيم ما كان تحت سلطانهم من نواحيها .

---

(١) انظر : حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية . مجلة الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٥٤ .

(٢) REINAUD. *Op. cit.* p. 82 et note I.

وراجعه :

Gallia Christiana, III, p. 1275.

M. DE COURCELLES : *Hist. généalogique des Pères de France*

المواد الخاصة بـ Clermont — Tonnère, Agoult ؛ ولا يوافق رينو على كثير مما ورد فى هذه المراجع .

(٣) REINAUD. *Op. cit.* pp. 81-82.

١٢٥ – أحوال جنوبى غالة تحت الحكم الإسلامى

لا نملك عن ذلك الموضوع الا معلومات عامة وأمثلة قليلة لا يؤمن القياس عليها . والثابت على أى حال أن مقام العرب فى غالة لم يدم على هيئة مستقرة الا نحو ثلاثين سنة ، وأن المسلمين لم يسيطروا فيها على مساحات واسعة يستطيعون أن يطبقوا عليها نظاما ثابتا كما كان الحال فى الأندلس مثلا ، ولو قد انتصر المسلمون فى وقعة البلاط وتلاشت المقاومة الفعلية أمامهم لأخذت الأمور مجرى آخر : اذن لنشأت ولاية جديدة فى غالة ، ولأرسل عامل الأندلس اليها العمال والرجال . فأما وقد انهزم المسلمون فى محاولتهم الكبرى فقد وقفت ممتلكاتهم فى غالة عند وضعها الأول ، وظلت معتبرة ثغرا للأندلس فيما وراء البرتات ، يقيمون فيها ويحافظون عليها ليحموا ما وراءها ، ولينهضوا فيها للغزو اذا ما أمكنتهم الفرصة. والمعروف أن الولايات الاسلامية كانت تولد عقب الانتصارات العسكرية الكبيرة ، هكذا نشأت ولايات العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس، وقد كان يحدث أن يملك المسلمون أرضا واسعة دون نصر حاسم ، كما ملكوا جزءا من آسيا الصغرى ، فلم تنشأ ولاية اسلامية فى آسيا الصغرى على الرغم من أن ما كانوا يملكونه من أرضها أيام الأمويين يزيد مرات كثيرة عن مساحة ولاية البصرة مثلا .

ظلت فتوح المسلمين فيما وراء البرتات معتبرة اذن ثغرا تابعا للأندلس من الوجهة الادارية ، والأدلة كثيرة على أن عمال الأندلس اعتبروا سبتمانية ثغرا عسكريا لا كورة ادارية ، وقد نشأ هذا الثغر فى أيام السمح بن مالك ، فهو الذى افتتح أربونة ونيمة وأجدة ومجلونة ووصل بالفتح الى ليون ، ولو لم ينهزم عند طولوشة لما اقتصر ثغر غالة على سبتمانية وبعض الأراضى الساحلية الواقعة شرقى الردانه ، ولجعل المسلمون عاصمة

ثغرهم فى أبنيون أو طولوشة أو غيرهما من كبار المراكز التى تسيطر على جنوبى غالة كلها ، فجاءت هذه الهزيمة قاضية على الآمال ، واضطر المسلمون الى الارتداد الى الجنوب والتحصن بناحية سبتمانية . وقد حاول عنبسة بن سحيم أن ينتصف لمقتل سلفه فقام بغارته الكبرى التى لم تزد على أن تكون مظاهرة عسكرية رائعة ولكنها قليلة الأثر ، ثم جاء عبد الرحمن الغافقى وأراد أن يفتح غالة فتحا دائما ، وأعد عدته لملاقاة النصرانية فى معركة حاسمة فانهزم هو الآخر وقتل ، ثم جاء عقبة ابن الحجاج وحاول أن يصل الى ما فشل فيه عنبسة وعبد الرحمن فكان أحسن حظا وان لم يصل الى نتيجة ، ومضى عن الولاية وأملاك المسلمين شمال البرتات لا تزيد عن اقليم سبتمانية .

١٢٦ – لماذا لم يوفق المسلمون إلى البقاء فى غالة ؟

ومن الواضح أن ضعف مركز المسلمين فى غالة انما أتى من اقتصار معظم محاولاتهم على العبور الى غالة من الأبواب والممرات الشرقية ، فانصرفت جهودهم كلها على الجنوب الشرقى لغالة وحوض ردانه ، ولو نفذوا من الغرب أيضا من أول الأمر لسيطروا على أقطانية وأزالوا هذه الشوكة من جنبهم وثبتوا أقدامهم فى جنوب غالة كله ، ولاستطاعوا أن يكونوا أثبت أقداما فى المعارك التى هزموا فيها على حدود هذه الدوقية عند طولوشة مرة وعند تور مرة أخرى . وربما كان سبب ذلك هو أن سلطان المسلمين لم يتمكن تماما فى الركن الغربى من جبال البرتات ، وظلت أقصى فتوحهم فى هذه الناحية عند بنبلونة جنوبى البرت ، وبقيت مساحات أخرى واسعة يسكنها أقوام جبليون ذوو مهارة حربية وجلد لم يخضعوا لسلطان المسلمين ، بل ظلوا يتربصون بهم الفرص ، لا يكاد يمر بهم بعث اسلامى الا هاجموه وتخطفوا رجاله ، ولا أمكنتهم

غرة فى المسلمين الا انتهزوها . وقد كان ترك المسلمين للسيطرة على هذه الناحية من آكد الأسباب فى زوال سلطانهم عن منطقة البرتات وما صاقبها من الشمال والجنوب ، وستكون هذه النواحى مهدا تولد فيه الكثير من الولايات الاسبانية النصرانية التى ستناوىء المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية وريباجورثا وغيرها . ولو قد اهتم المسلمون باكمال اخضاع منطقة البرتات وتثبيت أقدامهم فيها لتمكنوا من القضاء على كل قوة مناوئة لهم فيها ، ولكان هذا أجدى عليهم من الاسترسال فى مغازاة غالة لأن غزواتهم فى غالة لم تؤتهم أى ثمر على الاطلاق ، فى حين كان تمهيد الأمر فى نواحى البرتات تمهيدا تاما يؤمن الأندلس الاسلامى، ويقطع كل سبيل لنصارى الأندلس فى الاتصال بالجماعات النصرانية الكبرى فى غالة وايطاليا .

ولنلاحظ الى ذلك أن المسلمين خانهم الحظ فى الوقت الذى دخلوا فيه غالة ، فقد دخلوها فى ابان قيام الدولة الكارولنجية وكانت أسرة فتية فى طور التأسيس ، وكان رجالها يجتهدون فى اخمال البيت الميروفنجى للاستحواذ على العرش من دونه ، وكانوا قد أنشأوا لأنفسهم جيشا قويا جمعوه من خيرة الفرنجة ومن انضم اليهم من المتبربرين ، ومضوا يحاولون اخضاع غالة كلها وشمالى ايطاليا ، فأثارهم دخول العرب البلاد وتوغلهم فيها وغلابهم لكل من فكر فى مناوأتهم من أهل الجنوب. ولو قد فطن العرب للوضع السياسى فى غالة وحالفوا أودو وغيره من أكناد الجنوب وأدواقه لكان حظهم أحسن ، ولكنهم كانوا يجهلون كل شىء عن الحال فى غالة . ولهم فى ذلك عذر : فقد بعدت بهم الشقة ، ولم يعد هناك سبيل لاتصالهم المباشر بقلب الدولة فى دمشق ، وكان كل عماد المجاهدين فى غالة على الأندلس وأهله ، ولم تكن أحوالهم قد

استقرت بعد ، بل لم تكن أعدادهم كافية لسـيادة الأندلس نفسه ، فكيف بقطر جديد تفصله عن الأندلس جبال وعرة مثل البرتات وتقوم فيه شعوب جديدة فتية ، يعمر نفوس أهلها من الآمال مثل ما كان يعمر قلوب المسلمين أنفسهم ؟

ولا ينبغى أن نظن أن المسلمين لم يفكروا فى غزو غالة غزوا مستمرا والاستقرار فيها ، لأن الواقع أن نفوسهم تطلعت الى فتحها فتحا ثابتا من أول الأمر ، ولا يسعنا ونحن نتأمل جهود الحر بن يوسف والسمح ابن مالك وعنبسة بن سحيم وعبد الرحمن الغافقى وعبد الملك بن قطن الا أن نقرر أن هؤلاء القواد المقتدرين كانوا يشعرون أنهم يقومون بفتح منظم غايته ادخال البلاد فى رحاب الدولة الاسلامية ، لا مجرد القيام بغارات سريعة لا هدف لها بعد الغنيمة كما يفهم من كلام بعض المؤرخين المحدثين . بل لعلنا لو قارنا السمح والغافقى وعقبة بن الحجاج بغيرهم من رجال الفتوح الاسلامية الأخرى لتبينا أن فتوح غالة كانت من أمجد الجهود الاسلامية الحربية ، وأن تضحياتهم فى سبيلها من أغلى ما ضحوا به فى فتوحهم . وقد رأينا تفانيهم فى اتمام فتحها ، وتبينا أن تضحياتهم فى سبيلها لا تقل روعة عن تضحياتهم لفتح الأندلس نفسه، ولا نزاع فى أن السمح والغافقى وعقبة يعدون جميعا فى طليعة قادة المسلمين العظام ، ولا نزاع كذلك فى أن المسلمين ضحوا فى سبيل غالة أكثر مما ضحوا فى سبيل مصر مثلا ، وأن من استشهد من المسلمين فى نواحى غالة كانوا جـديرين بفتحها ، لو لم يكن الأندلس نفسـه مضطربا هذا الاضطراب .

وربما بدا غريبا أن نرد معظم السبب فى فشل المسلمين فى فتح غالة الى اضطراب الأحوال فى الأندلس وبعد غالة عن مركز الدولة الاسلامية

لا الى الجشع فى الغنائم كما يزعم بعض مؤرخى النصارى ، أو الى قوة الدولة الفرنجية كما يزعم بعضهم الآخر . ولكن هذه هى الحقيقة : فأما البعد السحيق عن مركز الدولة فقد حرم فاتحى غالة من توجيه الدولة وعون رجالها السريع ، وحرمهم من أمداد العنصر العربى الذى كان قوام الفتوح وعمودها الفقرى . ويكفى أن نذكر أن من دخل الأندلس من العرب كان قليلا لا يكاد يكفى لسيادة الأندلس نفسه ، وأن جزءا عظيما من هؤلاء استقر فى نواحى الأندلس ولم يشترك فى أعمال الغزو فيما بعدها من البلاد ، يكفى أن نذكر ذلك لكى تتبين أن عدد العرب فى الجيوش الاسلامية الغازية فى غالة كان قليلا جدا . فأما غالبية الجند الاسلامى المحـارب فى غالة فكانت من البربر ، وتدل الدلائل كلها على أن أعداد هؤلاء البربر كانت عظيمة وان لم تبلغ مئات الآلاف كما يزعم رواة أصحاب المدونات اللاتينية (1) ، والغالب أن معظم من كان يهجر الى الأندلس من البربر كان يهجر اليها طمعا فى فضل الجهاد ومغانمه ، ولهذا كانت جموعهم فى الجيوش الغازية عظيمة ، وكان طمعهم فى الغنائم كبيرا كذلك ، وقد كان لهذا وذاك أثرهما البعيد فى تطور أحداث الغزوات فى غالة كما رأينا .

فاذا كانت نوايا المسلمين الغازين فى غالة قد انعقدت على الاستقرار ، وطال مقامهم فى سبتمانية نيفا وثلاثين عاما ، فلا بد أنهم وضعوا نظاما لادارة النواحى التى خضعت لهم ، وليس لدينا الا اشارات عابرة تعيننا على تكوين فكرة عن هذا النظام . ويكفى أن ننبه الى أن كلامنا هنا مقصور على ما سار عليه العرب فى حكم سبتمانية فقط من النظم خلال

(1) انظر الفصل الرابع من كتاب رينو الآنف الذكر ، من ص ٢٢٩ فصاعدا .

السنوات الثلاثين التى سيطروا فيها عليها واتخذوا أربونة عاصمة لهم .

١٢٧ – طبيعة الحكم الإسلامى فى غالة

وطبيعى ألا يكون العرب قد مضوا فى حكم هذه الناحية كما حكموا مصر مثلا ، لأن مصر كانت ولاية مدنية فى حين كانت سبتمانية ولاية عسكرية ثغرية ، وكان المسلمون ينظرون الى هذه الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرتهم الى الولايات المدنية ، فكانوا أميل الى التساهل مع السكان فى النواحى الثغرية طمعا فى كسبهم الى جانب المسلمين ، وكانوا كذلك أكثر كرما على الجنود المقيمين فى الثغر منهم على المقيمين فى الولايات المدنية ، فقد وزع عمر بن الخطاب أراضى أقصى شرقى فارس على فاتحيها من المسلمين وسماها الثغور الهندية ، وقد فعل ذلك استئلافا لقلوب هؤلاء الجنود ولتقوية نفوسهم على سداد ثغرها . واعتبر عمر بن عبد العزيز الأندلس ولاية ثغرية ، فأقر الاقطاعات فيها ، وتسامح المسلمون مع أهل النواحى من النصارى فيه ، فمنحوا كل ناحية عهدا بحريتها فى كل شىء مع اشتراط أداء جزية معينة ، والخضوع للحاكم الاسلامى الذى يقيم فى الناحية فى بعض المسائل الكبرى [1] .

(١) موضوع حكومات المسلمين فى الولايات الثغرية فى حاجة إلى الدرس ، فقد كانت لها نظم خاصة تختلف كل الاختلاف عن النظم التى أقرها المسلمون فى الأراضى المفتوحة . أما فيما يختص بثغرنا هذا – غالة – فيقول محمد بن مزين ، ونصه فى غاية الأهمية لدراسة الموضوع كله ، والكلام هنا منصب على الأندلس : «... فبعث إليها السمح بن مالك عاملا ، فوردها فى جند سوى جندها الأول ، فأرادا النزول معهم فى أموالهم ومشاركتهم فيما بأيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر (ابن عبد العزيز) وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه فى الرجوع إلى بلادهم ، وإدالتهم بمن ورد مع السمح ، فمنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم وأشهد فى عقدهم على إقرارهم فى أموالهم ، وأقطع الواردين مع السمح إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية . لولا إقطاعات عمر بن الخطاب (رضه) الجند فيها لم يسدوها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإنا نستخير الله فى إجلاء المسلمين عنها . ثم إنه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله ...» .

انظر النص فى : DOZY : *Recherches.* I, app. I. p. V.

١٢٨ – المسلمون يعتبرون غالة إقليما ثغريا

وقد ذهب رينو الى أن المسلمين عاملوا سبتمانية على هذا الأساس ، وقال ان العرب ساروا فى حكمها على نفس الأسس التى قرروها فى صلحهم مع قلمرية (Coimbra) فى أقصى غربى الأندلس ، وانما تخير قلمرية بالذات لأنها كانت أشبه بالثغر هى الأخرى ، ولأننا عثرنا على نص معاهدتها مع المسلمين كاملا . وأهم ما فى هذه المعاهدة هو أن يكون لأهل قلمرية الحق فى أن يحكموا أنفسهم بقوانينهم التى تعودوا أن ينظموا بها أمورهم قبل مجىء المسلمين ، وأن يكون لهم حاكم منهم يقوم بالقضاء بينهم وينفذ الأحكام فيما عدا أحكام الاعدام اذ كان لابد من عرضها على الحاكم الاسلامى المقيم . وكان هذا العامل المسلم يقيم فى قلمرية ممثلا لسلطان المسلمين ، ومعه حامية تؤيده وتحميه وتمنع النصارى من الانتقاض عليه ، فاذا وقعت خصومة بين مسلم وواحد من أهل البلاد كان لابد من عرضها على الحاكم المسلم الذى يقضى فى الأمر بمقتضى الشريعة الاسلامية ، واذا اعتدى نصرانى على مسلمة أزلم باعتناق الاسلام والزواج منها ، فاذا كانت متزوجة لم يكن له من الموت مفر [1] .

فاذا طبقنا أشراط هذه المعاهدة على سبتمانية استطعنا أن نقول ان الحامية الاسلامية الرئيسية كانت تقيم فى أربونة ، وأن حامية اسلامية صغيرة كانت تقيم فى كل بلد كبير من بلاد سبتمانية ودوفينيه وما خضع للمسلمين من دوقية أقطانية وحوض ردانه ، وهذه الحاميات تقوم بحماية المكان واقرار السلام بين أهله وجمع أمواله . وكان للمسلمين الى جانب

(١) cf. : REINAUD. *Op. cit.* pp. 272 Sqq.

والمراجع الواردة فى الهوامش .

ذلك جند غاز كبير يخرج للغزو مع العامل المقيم أو مع عامل الأندلس نفسه اذا أقبل .

١٢٩ – نظام الحكم فى جنوب غالة

ولا نزاع فى أن العرب خففوا عن أهالى هـذه النواحى أعباء حكمهم الى أقصى حد مستطاع ، وليس لدينا دليل مادى على ذلك ولكننا نستند فى القول به الى أمرين : الأول هو تعلق أهل هـذه النواحى بهم ووقوفهم الى جانبهم أمـام الفرنجة ، وهـذا أمر لم يكن ليحدث لو لم يكن المسلمون قد اجتذبوا أهل هـذه النواحى بالتخفيف عنهم فى كل شيء ، والثـانى هو أن المسلمين كانوا أحلافا لنفر من أدواق هـذه النواحى مثـل ماورنت دوق مسيلية (مرسيليا) الذى ذكرناه ، ولم يكن هؤلاء الأشراف ليثبتوا على الولاء للمسلمين الا اذا كان هؤلاء قد أبقوا لهم على ما كان لهم من سيادة فى بلادهم . ولنلاحظ أن أراضى هؤلاء الأدواق المعاهدين لم تكن منفصلة عن أراضى المسلمين ، أى أنهم لم يستقلوا بنواحيهم عن السلطان الاسلامى ، بل اعترفوا به وأقاموا معه : فقد كان ماورنت يحكم مسيلية وما حولها من أراضى دوفينيه ، وقد أخضع المسلمون هذه النواحى ولكنهم لم يمسوا ماورنت ، فظل يحكم أهلها ويؤدى للمسلمين ما حق لهم من أموالها ، أى أنه كان شيئا يشبه « زعيم عجم الذمة » و « قومس النصارى » فى الأندلس ، مع فرق ظاهر وهو أن زعيم عجم الذمة كان رجلا مدنيا صرفا تقتصر مهمته على معاونة المسلمين على حكم البلاد ، وكان خاضعا لعامل الأندلس خضوعا تاما ، ولم تكن له سيادة فعلية الا فى حدود ضيقة ، فى حين كان « دوق عجم الذمة » فى ناحية سبتمانية سيدا قويا ذا جند وسلطان ، وكان حليفا للمسلمين لا خاضعا لهم ، وكان يتعاون مع المسلمين فى مهمتين رئيسيتين : اقرار السلام فى الناحية ، ثم حمايتها من الفرنجة وحلفائهم .

١٣٠ – موقف المسلمين من المسيحية فى غالة

وقد زعم رينو أن المسلمين اضطهدوا النصارى فى سبتمانية واستولوا على كنائسهم ، ولم يستند فى ذلك الى دليـل واحد مباشر أو غير مباشر . ولسنا ندرى لماذا أصر على الكلام عن هذه الناحية بهذا الأسلوب مع عـدم وجود الدليل . وربما كان الأصدق أن يقال ان المسلمين تركوا لأهل هـذه النواحى حريتهم الدينية كاملة كما فعلوا مع أهل الأندلس ، بل ربما كان الأقرب الى المنطق هو أن موقفهم من النصرانية ورجالها فى ناحية سبتمانية كان أكثر رفقا ، فقد كان لهم حلفاء من النصارى ، وكانوا يحاولون كسب رجال الدين فى جنوبى غالة لأن قارله كان قد أساء اليهم اساءات بالغة وانتزع أموال الكنائس وفرقها على جنده ، وشرد الكثيرين من القساوسة والأحبار . ولا نزاع فى أن حال الكنائس فى النواحى التى كانت خاضعة للفرنجة فى جنوبى غالة كانت أسوأ من حالها فى النواحى التى كانت خاضعة للمسلمين .

وليس لدينا كذلك أى وثيقة نستطيع أن نستخلص منها مقدار ما قرر المسلمون على أهل هذه النواحى من الجزى ، فلم يبق الا القول بأن المسلمين ساروا فى ذلك على نفس الأسس التى ساروا عليها فى الأندلس : أى أنهم تركوا الأرض التى فتحت عنوة فى أيدى أصحابها وأطلقوا فيها الأسرى وفرضوا عليها مالا يتراوح بين ثلث وربع المحصول ، وأما مافتح صلحا فقد تقرر عليه العشر . ويستبعد أن يكون المسلمون قد ملكوا الأرضين واشتغلوا بالفلاحة فى هذه النواحى لاضطراب الأحوال وعدم استقرار الأراضى فى أيديهم أزمانا طويلة . وهذا فيما نظن كان من أقوى الأسباب فى زوال أمر المسلمين من هناك ، لأن من كان فيها من المسلمين ظلوا مجرد جند قلق يقيم فى المدن أو يخرج للغزو ، ولم تتح

لهم الفرصة للانتشار فى الأرض وامتلاكها والاختلاط بأهلها ونشر الاسلام فيهم وتعريبهم .

ولم يكن سقوط أربونة وما تلاه من الأحداث التى ذكرناها هو ختام تاريخ المسلمين فيما وراء البرتات ، بل استمرت بقاياهم وآثارهم هناك زمنا طويلا وتجدد لهم تاريخ فى جنوبى حوض ردانه بعد قرن ونصف . اذ نزلوا هذه الناحية من البحر ، ولكننا نقف عند هذا الحد الآن ونحيل القارىء على ما كتبناه فى هذا الموضوع فى بحثنا عن « المسلمين فى حوض البحر الأبيض » .

وقد رأينا أن جهود المسلمين فى هذه النواحى لم تكن بالقليلة ولا بالعابرة ، وانما كانت جهودا مضنية جادة قصد من ورائها الى فتح غالة ومد رواق الاسلام على غرب أوروبا ، ولم يوفق المسلمون فى ذلك للأسباب التى ذكرناها . ولا يقلل ذلك من قيمتها فى ذاتها ولا من أهميتها التاريخية . وأبسط نتيجة نخرج بها من هذا العرض السريع هو أن المسلمين لم يدخلوا غالة غزاة نهابين لا ينظرون الى شىء بعد الغنيمة ، بل دخلوها فاتحين منظمين يريدون ادخالها فى رحاب دولتهم وتحويلها الى الاسلام ، ولو قد استقر لهم الأمر فى غالة الجنوبية لاتجه نظرهم الى ما وراءها ، ومن هنا كانت أهمية « بلاط الشهداء » فى تاريخ النصرانية فى غرب أوروبا ، فقد حالت بينها وبين الزوال فعلا . ولا يمكن القول بأن المسلمين لو كانوا انتصروا فى « بلاط الشهداء » وأقاموا حكم الاسلام هناك لما منع ذلك النصرانية من أن تعود كما عادت فى الأندلس ، لأن الذى أعاد النصرانية فى الأندلس هو عجز المسلمين عن فتح غالة ، وكانت نصرانية غالة هى نواة النصرانية فى غرب أوروبا اذ ذاك ، ولم يكن يليها الا شعوب وثنية ، أما البابوية فى روما فلم تكن لتستطيع شيئا ، لأنها

هى نفسها كانت فى حماية اللمبارد ، وكان أمرها اذ ذاك ضعيفا لم يتقرر على النحو الثابت الذى نراها عليه خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (١) .

* * *

١٣١ – مقارنة بين المسلمين والفرنجة فى غالة

ولقد أسرف الغربيون فى تقدير أهمية « بلاط الشهداء » وقالوا انها أنقذت حضارة غرب أوروبا أو المسيحية ووضعت حدا لسيادة الشرق على الغرب ، وما الى ذلك مما يحلو الكلام فيه لمؤرخى أوروبا وفرنسا خاصة . والواقع أن هذه كلها مبالغات لا يقبلها الحكم التاريخى الصحيح فلم يكن الفرنجة الذين تصدوا لرد المسلمين عن غالة بأصحاب البلاد ، بل كانوا غزاة أغاروا عليها وتملكوها بحد السيف . فاذا كان المسلمون أغرابا عن غالة فقد كان الفرنجة أغرابا أيضا ، ولم يكن لهم من الحق فيها أكثر مما لغيرهم . وقد كانوا يحكمون البلاد بالعنف والقسوة حكما أجنبيا خالصا ، وكانوا يترفعون عن أهل غالة الأصليين (الغاليين الرومان) ويعتبرونهم مجرد رعية عليها الخضوع . بل لم يكن هؤلاء الفرنجة الساليون مسيحيين مخلصين ، وانما كانوا ما يزالون أجلافا متبربرين أقرب الى الوثنيين منهم الى أهل الكتاب ، وكانت وطأتهم على الكنائس شديدة وظلمهم للرهبان ورجال الدين عنيفا ، ولا شك أن المسلمين كانوا أقرب الى روح المسيحية من أولئك المتمسحين . ولم يغلب الطابع المسيحى على الفرنجة الا من أيام ببين الثانى بن قارله بسبب تصديه لحماية البابوية من اللمبارديين حماية سياسية لا دينية ، وقد زاد ارتباط الفرنجة بالمسيحية على أيام شرلمان ، وهو أول ملك فرنجى مسيحى صادق . وقد كتب فى أيامه الكثيرون من أصحاب المدونات

(١) *cf* : REINAUD. *Op. cit.* pp. 282 Sqq.

النصرانية التى نقلت الينا أخبار الصراع بين العرب والفرنجة على غالة ، وصوروا حروب قارله مع المسلمين على أنها حروب شارلمانية مسيحية . أى أنهم كتبوا عن عصر بروح عصر آخر ، ونسبوا الى قارله ومعاصريه مالم يكن يعرفه هو . فلم يكن الرجل يفكر فى مصير المسيحية بقدر ما كان يفكر فى مصير مملكته ، وقد رأينا أن موقفه من الكنائس والقسيسين لم يكن موقف الصديق ولا موقف الراعى المسيحى وانما موقف الطاغية العسكرى الذى لا يفكر الا فى ملكه وأمواله ومغانمه . وليس الى الشك سبيل فى أن السمح بن مالك وعبد الرحمن الغافقى وأمثالهما كانوا يعرفون عن المسيح والمسيحية أكثر مما كان قارله ورجال مملكته يعرفون. ثم ان المسلمين كانوا أهل دولة ذات نظم وقوانين وقواعد مقررة ، فى حين كانت نظم الدولة الفرنجية فى طور التكوين ، كانت أصول الحكم فيها تعتمد على قوانين الجرمان الأولى ، وهى شبيهة بقوانين العرب الجاهليين ، فلم تكن الحرب اذن حربا بين اسلام ونصرانية بقدر ما كانت صراعا بين حضارة وجاهلية ، بين نظام وفوضى .

بل لم يكن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون بأنصار الثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب ، فلم يكن الفرنجة يعرفون من اللاتينية شيئا ، بل كان قارله نفسه لا يكتب اسمه ، لا باللاتينية ولا بغيرها (وكذلك كان شرلمان) وكان رجاله محاربين أجلافا لا يفقهون من اللاتينية شيئا ، بل لعلهم لم يكونوا قد سمعوا بعد بحضارة الرومان . ومن الثابت على أى حال أن الفرنجة والقوط الغربيين وأضرابهم من المتبربرين هم الذين أزالوا بقايا الحضارة اللاتينية من البلاد التى سيطروا عليها . وكان عليهم فيما بعد أن يتعلموا اللاتينية على أيدى رهبان ومعلمين أقبلوا من ايرلندة وبلاد الشمال . وقد بيّن هنرى پيرين هذه الحقيقة بما لا يحتاج الى

مزيد من البيان ، وقد أوجزنا نحن آراءه فى بحثنا الذى أشرنا اليه عن « المسلمين فى حوض البحر الأبيض » .

واذن فلم تكن موقعة البلاط انقاذا للمسيحية والحضارة اللاتينية كما يذهب معظم مؤرخى الغرب ، فقد كانت المسيحية فى حرج فى غالة عندما دخلها المسلمون ، وكانت اللاتينية قد تلاشت منها . وهذا كله يلقى ضوءا جديدا على مكان موقعة البلاط من التاريخ ، نعم ان المسلمين لو انتصروا فيها لسادوا غالة وغرب أوروبا ولكان القرآن الكريم يدرس الآن فى جامعة أكسفورد كما قال ادوارد جيبون ، ولكن انهزام المسلمين فيها لم يكن هو الذى أوقف تقدمهم ، لأنهم كانوا اذ ذاك قوما مجاهدين « الموت أحب اليهم من الحياة » كما قال رسل هرقل عندما سألهم عن المسلمين ، وكانت الهزائم لا تعنى فى حسابهم شيئا ، وقد رأيناهم ينهزمون المرة تلو المرة فى افريقية ، فلم يمنعهم ذلك من العودة والاصرار على الفتح . انما الذى أوقف تقدم العرب هم العرب أنفسهم ، بما شجر بينهم من فتن العصبية وما صرفهم عن مواصلة الفتوح من أحقاد النفوذ وتفاهة النظرة الجاهلية الى الحياة .

الفصل الثامن

قيام حركة المقاومة النصرانية

حينما وصلت جيوش الاسلام الفاتحة الى لُك (*Lugo=Lucus Asturum*) وأوغلت فى الجبال الصخرية المفضية الى سواحل كنتبرية القاحلة ، وأشرفت عند خيخون على خليج بسكايه [١] ، اعتقد قادة المسلمين أنهم فرغوا من افتتاح هذه الناحية ، وتحولوا بجهودهم الى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة فيما يلى الخط الممتد من برشلونة الى (أمايه) مارا بلاردة وسرقسطة وتطيلة وقلهرة ونخرة وما يلى ذلك من منطقة البرتات وما الى شمالها من أراضى غالة [٢] . ولم يكن يخطر على بال موسى وطارق — ومن جاء بعدهما — أن الركن الشمالى الغربى القصى المسمى « جليقية » الذى خلفوه وراءهم دون فتح — استصغارا لشأنه — انما كان فى الواقع حصنا لجأت اليه أعداد قليلة من بقايا القوط ، واطمأنت الى الحياة فى هضابه ووديانه ، وأخذت تنتظر الفرصة المواتية لتخرج منه وتنساح فيما يليه من الأرض رويدا رويدا ، لتكوّن لنفسها دويلة لا تزال تتسع بجهود أمرائها ومواتاة الظروف اياها حتى تصبح كتلة صلبة لن يستطيع العرب القضاء عليها ، ولا تزال أحداث الزمان تجرى بها الى سعود حينا والى نحوس حينا ،

(١) كان خليج بسكايه يعرف فى العصر الرومانى بالبحر الغالى الكنتبرى الأكويتا *Mare Gallicum Cantabricum Aquitanicum* . انظر

FRANCISCO CONDEMINAS Y LUIS VISINTIN : *Atlas Historico de España.* الخريطة رقم ٤ من هذا الأطلس .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

حتى تضعف دولة الاسلام فى شبه الجزيرة ، فيتنفس أهل جليقية الصعداء وينقلبون من الدفاع الى الهجوم ، ويتيح لهم المسلمون الفرص بما أسرفوا فيه من الخصومات فيما بين أنفسهم ، حتى اذا هدموا دولتهم بأيديهم وانفرد كل فريق منهم بقطعة منها ، أقبل هؤلاء المتحصنون فى الشمال يستعيدون من المسلمين البلاد بلدا بعد بلد ، حتى استخلصوا شبه الجزيرة كله من أيديهم ، بعد قرابة ثمانية قرون من الجهد والكفاح.

١٣٢ — انصراف العرب إلى المنازعات عن صيانة دولتهم

وليس من الصواب فى شىء أن يذهب الانسان الى أن العرب أخطأوا اذ تركوا هذا الركن القصى دون فتح ، فقد كان على أيام موسى هضبة مقفرة موحشة باردة لا أهمية لها من أية وجهة حربية أو عمرانية ، تحيط بها غابات كثيفة . وكان طبيعيا أن يخلفها العرب دون فتح . ولم تأت العلة — فيما بعد — من تركه ، بل من انقسام العرب أنفسهم وانصرافهم الى منازعات الجنس والعصبية : فقد قضت هذه المنازعات على أعداد كبيرة منهم ، وصرفت جهودهم عن مراقبة الجزيرة والاستمرار فى اليقظة على سلامة دولتهم فيها . بل أدت حروب العرب والبربر الى مبارحة معظم البربر للنواحى التى كانوا قد استقروا فيها فى الشمال الغربى الأقصى ، وانحدارهم الى الجنوب . بل الى عودة أعداد عظيمة منهم الى افريقية على ما فصلناه ، فتخلفت وراءهم مساحات فسيحة من الأرض كان من الطبيعى أن يتقدم القوط والايبيريون الرومان للسكنى فيها دون خوف ، فاستعادوا بهذا الشكل نحو خمس شبه الجزيرة دون أن يفطن العرب الى ذلك ، فاذا استوثقوا من أنفسهم فى هذا الخمس فقد كثرت أعدادهم وتنسموا شيئا من الرخاء أعانهم على الثبات للمسلمين وعلى ردهم عن

بلادهم أولا ، ثم شجعهم على التقدم نحوهم والاستيلاء على الأرض والبلاد من أيديهم فيما بعد .

١٣٣ – وتسمى هذه الحركة فى تاريخ اسپانيا بحركة «الاسترداد» الريكونكيستا *La Reconquista* ، والاسپان يعتبرون تطوراتها الحلقات الرئيسية لسلسلة تاريخهم القومى الذى يبدأ بضعة قرون قبل المسيح ، حينما هبط الفينيقيون شبه الجزيرة الايبيرية ، ويتصل أثناء العصور الاغريقية والرومانية والقوطية النصرانية ، ويستمر خلال الفترة الاسلامية متمثلا فى هذه الدويلات التى نشأت فى الشمال ، وأخذت تتسع حتى قضت على دولة الاسلام فى البلاد وأعادتها نصرانية كما كانت .

ولا شك فى أن اطلاق تسمية « الريكونكيستا » على حركة المقاومة النصرانية منذ ميلادها فى أوائل القرن الهجرى الثانى (النصف الأول من القرن الثامن المسيحى) وربطها بحركة الاسترداد الحقيقى التى بدأت بصورة جدية محسوسة بعد زوال خلافة قرطبة وانتثار دولة الاسلام فى شبه الجزيرة فى أوائل المائة الخامسة للهجرة ، لا يخلو من خطأ ، لأن اشتريس انما ولدت فى ناحية لم يفتحها العرب قط ، فميلادها لا يعد بدءاً لحركة الاسترداد ، وانما يعد ميلادا لحركة المقاومة للسيادة الاسلامية . وقد بدأت حركة المقاومة هذه فعلا فى أواخر أيام « پلاى » على ما سيجىء ، ونشطت على أيام أذفونش الأول ، ولكنها وقفت بعد ذلك زمانا طويلا ، ولم يتجدد نشاطها الا بعد أيام المنصور بن أبى عامر . ومن هنا يجوز لنا أن نعترض على ما تجمع عليه التواريخ الاسپانية من أن حركة الاسترداد انما كانت معركة دامت ثمانى قرون *La batalla de ocho siglos* ، وقد اعترض على هذه التسمية نفر من معتدلى المؤرخين الاسپان .

وقد كان مؤرخو الاسپان ومن شايعهم من الأوروبيين ينظرون الى الفتح الاسلامى على أنه حادث طارىء ، طال زمنه ثم انتهى أمره ، دون أن يخلف فى البلاد أثرا يذكر ، ولهذا كان هؤلاء المؤرخون يمرون بالفترة الاسلامية مرورا عابرا لا تظفر معه الا ببضع صفحات من مؤلفاتهم . ولم يتبين الاسپان أهمية هذه العصور الاسلامية الا من أواخر القرن الماضى ، ولم يعتبروها جزءا هاما مجيدا من تاريخهم الا من أوائل القرن الحالى ، نتيجة لجهود طائفة من المستشرقين الاسپان ، لم يدخروا جهدا فى كشف النقاب عن جمال هذه العصور الاسلامية وما قام خلالها من حضارات ، وما خلفته للاسپان وللحضارة البشرية من تراث مجيد .

فاذا كان هذا هو مكان حركة الاسترداد هذه من التاريخ الاسپانى العام ، فلابد لدارس التاريخ الأندلسى من الوقوف عندها بين الحين والحين ليرقب تطوراتها ، لأن العلاقات الحربية وغير الحربية بين المسلمين والنصارى فى اسپانيا تكوّن جزءا هاما من تاريخ العصور الاسلامية نفسها . بل ستكون هى الناحية الهامة الخطيرة من تاريخ هذه العصور ابتداء من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .

وطبيعى ألا نجد من مراجعنا العربية أى اهتمام كبير بمبادىء هذه الحركة ، لأنها كانت فى أول الأمر خافية أو كالخافية ، لا يكاد يحفل لها مؤرخ يتتبع الحوادث الهامة ، وطبيعى كذلك أن تهتم بها المراجع النصرانية اللاتينية الاسپانية اهتماما عظيما ، لأن مصنفيها كانوا قساوسة ورهبانا عاشوا فى مدائن الدول النصرانية الشمالية أو فى العواصم الاسلامية ، ولكن اهتمامهم بها لم ينفعنا كثيرا لأن أسلوبهم فى كتابة التاريخ فى هذه الأعصر كان يقتصر على تسجيل قوائم من التواريخ

والأحداث موجزة ايجازا شديدا ومضطربة اضطرابا بالغا ، ولهذا فاننا لا نستطيع الانتفاع بها الا الى حد محدود جدا .

لهذا كله كادت الحقائق الخاصة بتطورات هذه الحركة تضيع بين اهمال المراجع العربية واضـطراب المراجع النصرانية ، وظلت مبادئها وتطوراتها فى أدوارها الأولى نهبا مقسما بين الغموض والأسـاطير ، وأصبح من العسير جدا أن نكتب فى شىء من الثقة عن أول أبطالهـا المسمى پلاى[1] بن فافيلا وعن أول حوادثها الجسام التى تسميها المراجع بواقعة « كوڤا دونجا » .

١٣٤ـ الايبيريون الرومان — وكذلك يحيط الغموض فى مراجعنا العربية بحقيقة الأجناس التى كانت تسكن اشتريس وكنتبريه على أول أيام الفتح الاسلامى ، لأن أصحاب المدونات الإسپانية فى العصور الوسطى يسمونهم « القوط » فى حين يجعلهم العرب قوطا أو جلالقة ، وهم يريدون بالجلالقة أهل الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة الاسپانية ، والواقع أن هذه الناحية كانت تسكنها جماعات من الايبيريين ، وهم جنس قديم أقبل الى شبه الجزيرة من افريقية واستقر فيها من أقدم العصور ، يمتاز بالنشاط والذكاء ويعتبر أساس سكان شبه الجزيرة كلهم ، وأما من أتوا بعد ذلك فمهاجرون اختلطوا بهذا العنصر الافريقى الأصيل ، وأول من هاجر الى شبه الجزيرة واختلط به جنس أوروبى قديم — جرمانى فى الغالب — هاجر الى شبه الجزيرة من الشمال فى أعداد قليلة اختلطت بالعنصر الافريقى وتكون منهما العنصر المسمى بالايبيرى *Los Iberos* .

(١) Pelayo ، هذه هى الصورة الاسـپانية لاسمه ، أما صيغته فى اللاتينية فهى **Pelagius** وقد آثرت استعمال الصورة الاسپانية لأنها أشيع ، ولأن هناك من المؤرخين من يقول بأنهـا الأصل كما سنرى .

وتوالت الهجرات بعد ذلك على شبه الجزيرة ، أهمها هجرة الكلت وقد اختلط معظمهم بالايبيريين ، وبقيت بعض جماعاتهم صافية فى نواحى جليقية ، ثم نزلت البلاد جماعات من الفينيقيين واليونان ، ثم أعقبت ذلك موجة الفتح الرومانى الذى شمل البلاد كلها ونظمها للمرة الأولى تنظيما اداريا ، والى هذا الأثر العمـرانى ترجع القيمة العظيمة لهذه الموجة الرومانية التى طبعت البلاد بالطابع الرومانى ، حتى أصبح أهلها يعرفون بالايبيريين الرومان من ذلك الحين *Ibero-Romanos* ، فلما أقبل القوط لم يختلطوا بأهل البلاد ، فبقى سكان شبه الجزيرة ايبيريين رومانا فى حين كانت الطبقة الحاكمة من القوط[1] .

١٣٥ ـ صخرة پلاى — تتفق المراجع العربية وغير العربية على أن فلولا من القوط فرت أمام الفاتحين المسلمين ، ولا زالت تتقهقر نحو الشمال حتى اعتصمت منهم بركن قصى من « جليقية » تسميه المراجع العربية « صـخرة بلاى » والاسپانية (*Picos de Europa*) فى ناحية كنتبرية القاحلة[2] . وهناك اطمأن بها المقام ، لأن العرب عجزوا عن الوصول

(١) cf : F. OLORIZ : *Distribución geográfico del indice refálico en España* (Boletin de la Royal Sociedad Geogràfica, Vol. XXXDI, 1894, primer semestre) pp. 294-299.

(٢) تسميها المراجع العربية فى الغالب «الصخرة» اختصاراً ، وقد ترجمهـا لافوينتى إلى ألكانترا *El-Roco* مجاراة للمسلمين فى تسميتهم . وهم يجعلونها فى جليقيـة *Galicia* خطأً ، إذ أنها فى كنتبرية ، وهى أعلى قمم كنتبرية ارتفاعاً وأبعدها إلى الشمال ، وهى الناحية التى تحصن بها پلاى ومن معه . وثابت من المراجع الاسبانية أن «پلاى» وأصحابه احتموا من المسلمين فى مغارة أونجا (Cova de onga) الواقعة فى جبـال « پيكوس دى ايروپا » ، وقد وصفهـا الكونت سان سو بقوله : «كتلة هائلة من صخر الجبل يتبين الانسان فيها ثلاث قمم : قمة إلى الشرق تسمى « أندارا » وثانية وسطى تسمى *Bulnes* وثالثة غربيـة تسمى قمة كوڤا دونجا . ويبلغ متوسط ارتفاع الصخرة ٢٦٠٠ متراً .
cf : LE CONTE SAINT-SAUD : *Monographie des Picos de Europa, Etudes et Voyages*, Paris 1923.

اليها أو استصغروا شأنها ، ولم يجدوا على أنفسهم بأسا فى تركها حيث هى . وتبالغ المراجع العربية فى استصغار شأن هذه الأعداد ، فيقول عيسى بن أحمد الرازى مثلا : « .. ولم يبق الا الصخرة ، فانه لاذ بها ملك يقال له بلاى ، فدخلها فى ثلاثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعا ، وبقى فى ثلاثين رجلا وعشر نسوة ، ولا طعام لهم الا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعيى المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا : ثلاثون علجا ، ما عسى أن يجىء منهم ! » [١] . ويقول ابن عذارى : « فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلا ، وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا الا بعسل يجدونه فى خروق الصخرة ، وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم » [٢] . وانصرف المسلمون عن پلاى وأصحابه ، فاطمأن المقام بهم واختلطوا بأهل هذه الناحية من الايبيريين الرومان ، فأخذت أعدادهم تتزايد ، وازداد أمرهم ثباتا .

ومن الثابت أنه كان على رأس هؤلاء القوط الهاربين الى «الصخرة» نفر من أهل بيت لذريق ونفر من كبار القوط وعدد آخر من القساوسة ورجال الدين الذين فضلوا الهجرة والعيش فى هذه النواحى القاصية على العيش فى البلاد التى فتحها المسلمون . ويذهب بعض المؤرخين الى أن نفرا من هؤلاء الهاربين أخذ يفارق صخور كنتبريه ويعود الى مواطنه الأولى بعد أن اطمأن الى عدل المسلمين [٣] ، بل ان بعضهم تبع غيره من أهل البلاد ودخل فى الدين الجديد ، ولم تحدد لنا الروايات تاريخا لذلك

(١) عيسى بن أحمد الرازى ، فى نفح الطيب للمقرى : ج ٢ ، ص ٦٧١ – ٦٧٢ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) LEVI-PROVENÇAL : *Histoire de l'Espagne Musulmane*, I, p. 47.

وان كنا نظن أنه حدث خلال ولاية عقبة بن الحجاج السلولى (أى بين سنتى ١١٦ و ١٢١ هـ) .

١٣٦ – مونوسة

ولا نعلم على وجه التحقيق كيف حكم المسلمون ما فتحوه من نواحى كنتبرية وجليقية مما يلى هذه الصخرة ، ولكن اشارات متناثرة هنا وهناك تدل على أنهم أنزلوا بها جماعات من المسلمين معظمهم من البربر ، أقاموا هناك مرابطين ومستقرين ، وكان يرأس هذه الجماعات البربرية رؤساء من بنى جلدتها تتفق المراجع على ذكر واحد منهم هو مونوسة .

وقد سبق أن أشرنا الى هذا الزعيم البربرى عند كلامنا عن حملة عبد الرحمن الغافقى على غالة ، وبقى أن نستكمل الكلام عنه هنا اذ أنه كان أكبر قواد المسلمين فى الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة اذ ذاك .

وأقرب الآراء الى الصحة فى أمر مونوسة أنه كان من رؤساء الجند فى جيش طارق بن زياد [١] ، والغالب أن موسى وطارقا تركاه حاكما على أشتريس وما يصاقبها من نواحى جليقية ، ثم امتدت منطقة نفوذه بعد ذلك حتى شملت شمال شبه الجزيرة كله [٢] ، فقد رأينا صلاته الوثيقة بالدوق أودو صاحب أقطانية وصهره معه ، وما كان لذلك الصهر من أثر على سير الأحداث فى غالة .

ويستوقف نظرنا أن المراجع النصرانية الاسپانية تذهب الى أن مونوسة تعلق بابنة پلاى وتزوجها ، كما أحب ابنة أودو وتزوجها [٣] ،

(١) SAAVEDRA, *Estudio* ... p. 70

(٢) ESTANSILAO RENDUELES LLANOS : *Historia de la villa de Gijón desde los tiempos mas remotos hasta nuestros dias* (Gijón, 1867) p. 93.

(٣) عن علاقة مونوسة بابنة أودو انظر :
RODERIGO XIMENEZ DE RADA, *Historia arabum*. p. 12

كأنه كان ذا ولع خاص بالوقوع فى هوى بنات الأشراف والزواج منهن ! وقد علل بعض المؤرخين ذلك بافتراض وجود شخصين بنفس الاسم فى هذه الناحية فى ذلك الحين[1] . وهو أمر مستبعد . والأصح أن يقال

= وعن علاقته بابنة پلاى انظر :

BARRAU DIHIGO : *Royaume Asturien*, pp. 117-118.

وورد فى بعض الروايات أن ابنة أودو كانت تسمى لامبيجيا ، ويبدو أن هذه التسمية من ابتكار القصاص .

وأورد كوند عن هذه الحوادث رواية أكثر تفصيلا زعم أنه استقاها من مراجع عربية ، ولم نستطع تحقيق روايته هذه لأننا لم نجدها فى أى من مراجعنا العربية ، وربما كانت من ابتكاره ، تاريخه ملىء بأمثال هذه الابتكارات . وفيها إلى ذلك خلط ظاهر ، فهو يزعم أن تحقيقه هداه إلى أن مونوسة إن هو إلا عنبسة (بن سحيم الكلبى والى الأندلس) وأنه نازع عبد الرحمن الغافقى على الولاية لأنه كان يعتقد أنه أحق بها منه. ويقول إنه بينما كان مونوسة فى إحدى غاراته إذ وقعت عينه على لامبيجيا فأخذ بجمالها وسعى حتى تزوجها ، وحالف أباها أودو. فلما أراد عبد الرحمن غزو غالة عارضه مونوسة فى ذلك وأخذ جانب حميه أودو ، وأبى عبد الرحمن أن يقر المحالفة التى عقدها مونوسة وقال له أن لا حلف بين المسلمين والنصارى وأن السيف وحده هو الحكم بينهم ، فسارع مونوسة وأبلغ أودو بعزم عبد الرحمن حتى يستعد له ويحمى بلاده منه . وقرر عبد الرحمن محاربة مونوسة عقابا له على ما أخطأ فى حقه وحق إخوانه المسلمين . وهاجمه على غرة ، ففر مونوسة أمامه وتحصن منه بالجبال مستصحباً معه زوجته لامبيجيا ، وما زال المسلمون يطاردونه من صخرة إلى صخرة حتى أثقلوه بالجراح ، اشتد به الجوع والإجهاد وتقاعس النصارى عن نصره بسبب أفاعيله معهم فى أول أمره ، وانتهى أمره بأن سقط من شاهق واندقت عنقه فقطع المسلمون رأسه وبعثوا به إلى دمشق ، وأسروا لامبيجيا وأرسلوها إلى دمشق كذلك فضمها الخليفة إلى حريمه . وقد وقع ذلك لمونوسة فى مكان يسمى بويكريدا Buycreda . وهى رواية مليئة بالخطأ لا نجد ما يؤيدها ، وإنما أوردناها لأنها تذكر أن مونوسة رأى ابنة أودو فى إحدى غزواته فهام بها بالضبط كما حدث عند ما رأى ابنة پلاى (على ما تزعم الأقاصيص) مما يدل على الوضع والاختراع فيما يتصل بعلاقة مونوسة بپلاى

cf : CONDE : *Historia.* I, 83.

(١) LEVI-PROVENÇAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane.* I, p. 42.

وقد أنكر الأستاذ كوديرا وجود مونوسة إنكارا تاما ، وذهب إلى أن هذا اللفظ (Munuza) إن هو إلا تحريف للفظ ماسون (ويصححها كوديرا إلى Manresa) بليدة بجنوبى غالة غزاها الهيثم ابن عبيد الكلابى كما يقول ابن عذارى (البيان المغرب ، ج ٢، ص ٢٧) وقال إن القصاص =

ان علاقات مونوسة مع أودو وزواجه بابنته اختلط أمرها على بعض الرواة والقصاص ، فجعلوها مع پلاى ، وأطلق القصاص لخيالهم العنان فقالوا ان مونوسة رأى ابنة پلاى وأعجب بها فاختطفها وتزوجها . ولا يبعد على أى حال أن يكون مونوسة قد تزوج بعض نساء ناحيته أو تسراهن فكان هذا أصل أسطورته مع ابنة پلاى [1] .

وكل ما يمكننا استخلاصه من تلك الروايات هو أن مونوسة كان زعيم المسلمين المستقرين فى أقصى شمال شبه الجزيرة ، وأنه كان ذا نشاط وهمة ، فاتصلت الأسباب بينه وبين أودو من ناحية وپلاى من ناحية أخرى ، ونتيجة لطول الجوار نشأت بينه وبينهما، وأودو على الخصوص ، علاقات صداقة زادت أواصرها عندما وقع النفور بين العرب والبربر .

= ابتكروا القصة كلها ، فزعموا أن مونوسة كان زعيما بربريا وبنوا على زعمهم ذلك القصص كله ، وهو رأى ضعيف لم يقره عليهم إلا بعض المؤرخين الإسبان مثل باليستروس ، وغالبيتهم اليوم لا تقره .

cf : F. CODERA : *Manuza y el duque Eudon en Estudios historicos de historia arabe española*, Zaragoza 1903. p. 135. Sqq.

BALLESTEROS : *Historia* ..., II. pp. 9-10

JUAN JAURGAIN : *La Vasconie* ..., p. 34

REINAUD : *Invasions* ..., pp. 36 Sqq

LEVI-PROVENÇAL : *Histoire* ..., I. pp. 42-43 et notes

(١) وقد تحدث إيزيدور الباجى عن مونوسة فى شىء من التفصيل فقال إنه رجل من الجنس البربرى uno ex Maurorum gente اشترك فى فتح الأندلس وسار مع قوات المسلمين حتى أقصى الشمال وساهم فى إخضاع ناحية شرطانية (Cerritania فى اللاتينية و Cerdaña فى الإسبانية) وأظهر قسوة بالغة حتى لقد حرق أنامبادى أسقف شرطانية حيا ، واجتهد فى نصرة الإسلام ، حتى إذا ترامت إليه أخبار ثورة إخوانه البربر فى إفريقية انقلب على العرب وحالف أودو دوق أقطانية ، فرحب به أودو وزوجه إحدى بناته ليضمن عونه وعون من معه من البربر :

Et quia filiam suam dux francorum nomine Eudo Causa foederis ei in conjugio, ob persecutionem arabum differendam jam olim tradida

١٣٧ — پلاى

وهنا ينبغى أن نسأل : من هو پلاى هذا الذى تذكره النصوص وتنسب اليه أعمالا كثيرة جعلته فى الطليعة من شخصيات التاريخ الأسپانى ؟ نبدأ بروايات المراجع النصرانية عنه لأنها أوثق صلة بهذا الموضوع : يذكر أقدمها — وهى رواية مدونة البـلدة (Chronicon Albeldense) - أن پلاى كان ابن أمير قوطى يسمى برمودو (Vermudo) وابن أخى لذريق ، وأنه — أى پلاى — اختلف مع لذريق فنفاه هذا عن طليطلة قبيل دخول العرب البلاد ، فذهب الى اشتريس وأقام نفسه أمـيرا عليها ، وأقام بلاطه فى بليـدة (Cangas=Canicas) تسعة عشر عاما . ومات فيها سنة ٧٣٧ [١] . ورواية سبستيان السلمنقى أكثر تفصيلا ؛ فهى تذهب الى أنه عندما غزا العرب الأندلس هلك معظم القوط بالسيف أو بسبب الجوع ، وأن من نجا من أفراد بيتهم المالك فر بعضهم الى غالة ، ولجأ معظمهم الى اشتريس ، حيث أقاموا على أنفسهم پلايو بن الدوق فافيلا أميرا ، وقد حكم پلاى تسعة عشر عاما وتوفى سنة ٧٣٧ ، وألحد مع زوجته « جاوْدْ يوسا » فى كنيسة سانتا أويلالياد فيلابينو [٢] . وتضيف مدونة سيلوس (Chronicon Silense) أن پلاى كان حامل سيف لذريق (Spatarius regis Roderici) ، وأنه هرب الى اشتريس حينما غزا العرب البلاد وتشرد فى نواح غير معروفة منها (Vagabatur incertis locis) يجمع الناس لحرب المسلمين ، فلما اكتملت له العدة نازلهم وانتصر عليهم،فأكبره القوط لهذا وأقاموه عليهم أميرا[٣].

(١) HUICI : *Crónicas Látinas de la Reconquista. Chrónicon Albeldense*, : I p. 157.

(٢) HUICI, *op. cit.* I. p. 206

(٣) HUICI, *op. cit.* II. p. 44.

وأما تاريخ اسبانيا العام (*Crónica general de España*) الذى صنفه ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، فيذهب الى أن پلاى كان ابنا «لفافيلا» دوق كنتبريه الذى كان الملك اجيكا قد نفاه من طليطلة ، فمضى الى تُودَه *Tuy* واستقر فيها حينا ، وهناك مات بسبب ضربة عصا كانت قد أصابته من يد غيطشة ، الذى كان يطمع فى زوجته (أى زوج فافيلا) . فلما صعد غيطشة الى العرش نفى پلاى من طليطلة ، وأراد أن يفقأ عينيه، ففر الى كنتبريه ، وهناك تزعم أهل هذه الناحية . ودعاهم الى الوثوب بالعرب ، واستطاع الانتصار عليهم فى معركة عنـد مغـارة أونجـا (*La Cueva de Onga*)سنة ٧١٨م[١] ويضيف لوقا التُودى(*Lucas Tudense*) فى تاريخ العالم (*Chronicon mundi*) قصة تعلق « مونوسة » — الأمير المسلم على هذه النواحى ، وكان مقيما فى خيخون — باحدى بنات پلاى مما أدى الى الخصومة بين الرجلين ، ووقعت الحرب بينه وبين المسلمين ، فأقامه القوط ملكا عليهم قبل لقائه اياهم وانتصاره عليهم فى « معركة مغارة أونجا » ، وتوفى فى كانجاس سنة ٧٣١ م بعد أن حكم ثمانية عشر عاما ، ويذهب لوقا التـودى كذلك الى أن فافلة أبا بلاى كان ابنا لشندسفنتو ، وربما زعم لوقا هذا رغبة منه فى أن يجعل پلاى سليلا للبيت القوطى [٢] .

وأما الروايات العربية عن أصل « پلاى » فأكثرها تفصيلا رواية « ابن حيان » التى يقول فيها : « قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فل النصارى بالأندلس — بعد غلبة العرب لهم — علج يقال له

(١) *Primera Cronica General de Espana* (Madrid, 1906) pp. 303-499.

(٢) LUCAS TUDENSE. *Chrocrion Mundi*, apud :
SCHOTT : *Hispaniae ilustratae Scripiores varii* : 17 n. 2-220, 695 n. I.

بلاى من أهل اشتريس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، الثانى من أمراء العرب بالأندلس . وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها سنة ٩٨ من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن ، فطردوه وملكوا البلاد ، وبقى الملك فيهم الى الآن » [1] .

ويذهب صاحب « الأخبار المجموعة » الى أنه كان جليقيا من أهل أشتريس [2] . ويؤيده ابن خلدون فى رأيه هذا . ويقول : « ان آمم النصرانية أجفلت أمام المسلمين الى سيف البحر من جانب الجوف ، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة واجتمعوا بجليقية ، وملكوا عليهم بلايه ابن فافلة . فأقام ملكا فيهم تسع عشرة سنة ، وهلك سنة ١٣٣ ، وولى ابنه فافلة سنتين ، ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أذفونش بن بيطره الذى اتصل الملك فى عقبة الى اليوم ، ونسبهم فى الجلالقة من العجم كما تقدم ، ويزعم ابن حيان أنهم من أعقاب القوط ، وعندى أن ذلك ليس بصحيح ، فان أمة القوط قد دثرت وغبرت وهلكت ، وقل أن يرجع أمر بعد اندثاره وانما هو ملك مستجد فى أمة أخرى والله أعلم » [3] . أى أنه يقرر مع

(١) ابن حيان برواية المقرى ، نفح الطيب : ج ٢ ، ص ٦٧١ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص٦١ .

ونص عبارتها : « ... فثار أهل جليقية على المسلمين ، وغلظ أمر علج يقال له « بلاى » قد ذكرناه فى أول كتابنا ، فخرج من « الصخرة » وغلب على كورة (هنا كلمة أسقطها الناسخ ولم يلحظ ذلك الناشر) واشتريس ... » وقد جعل تاريخ هذا الحادث سنة ١٣٣ هـ / ٧٤٠ م — ٧٤١ م) ولما كان من الثابت أن بلايه توفى سنة ٧٣٧ م (حوالى ١٣٠هـ) فإن لافوينتى إى ألكانترا فى تعليقاته على الترجمة الاسبانية للأخبار المجموعة يذهب إلى أن مؤلف « الأخبار» يخلط فى هذه الفقرة بين أعمال بلاى وأعمال أذفونش بن بيطره ... وهو رأى معقول .

أنظر الترجمة الاسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٦٦ هامش ٥ .

(٣) أورد «دوزى» نص ابن خلدون فى ملاحق أبحاثه :

cf : DOZY : *Recherches* (3e éd. 1881) I, appendice III, pp. X, XI.

المقرى وصاحب الأخبار المجموعة أن بلاى جليقى من أهل الشمال ، وليس قوطيا ، ونلاحظ أن ابن خلدون لا يؤيد رأيه الا بدليل استحرجه من فلسفته ، فلا يمكن — فى رأيه — أن يكون الرجل قوطيا ، لأن ملك القوط قد اندثر ، ولا يمكن أن يقوم أمر أمة اندثرت ، وسنرى أن قانونه لم يصدق هذه المرة .

١٣٨ – كوڤادونجا

ولم يكن أحد من المؤرخين ليتنبه الى « بلاى » هذا لو لم يقترن اسمه بصراع قصير مع العرب أعانه الحظ على التوفيق فيه ، فانتصر عليهم وأبعدهم عن النواحى التى كان يبسط عليها سلطانه . وقد بالغت المراجع النصرانية فى تصوير هذا النصر ، وجعلته شيئا أشبه بالفتح العظيم ، وزاده مؤرخو الاسبان تقديرا واجلالا مع الزمن ، فجعلوه بدءا لصراعهم لاخراج المسلمين من بلادهم،وايذانا بميلاد اسبانيا النصرانية من جديد . ومن هنا أهميته التى تحدونا الى أن نقف عنده وقفة تتفق مع قدره فى التاريخ الاسبانى عامة .

تكاد المدونات اللاتينية الأسبانية كلها تجمع على ذكر هذا الانتصار ، وان اختلفت فيما بينها فى التفاصيل وتحديد التواريخ اختلافا بينا .

ومصدر هذه الروايات النصرانية كلها قصة طويلة أوردها « سبستيان السلمنقى » فى تاريخه يقول فيها : « ان بلاى حينما انتهى به المطاف الى ناحية « الصخرة » أعلن نفسه أميرا على ما يجاورها من النواحى واتخذ قرية كانجاس (Cangas=Canicas) مركزا لأعماله ، وهناك أعلن الثورة على العرب وصارحهم بالعداء ، فأرسل اليه المسلمون جيشا كبيرا يقوده قائد من كبار قوادهم يسمى علقمة [1] ،

(١) لم يرد ذكر علقمة اللخمى هذا على صورة صريحة فى مراجعنا الاسلامية . ولكن وجود ابنيه عبد الرحمن وتمام يؤيد وجوده فى الأندلس أوائل أيام الفتح ،فقد كان أولها قائدا =

فغزا اشتريس وتوغل فى أرضها ، فلما سمع بلاى بذلك تحصن فى جبل أوسبة *Auseva* فى مغارة القديسة مارية *Cova Sanctae Mariae* التى تسمى كذلك «مغارة أونجا» فحاصره المسلمون وضيقوا عليه ، وكان معهم أبه (*Oppas*) [1] أخو غِيطِشة الذي انضم الى المسلمين لأشياء نقمها عليه. فمضى أبه الى بلاى ، وحاوره محاولا اقناعه بالتسليم للمسلمين ، وأورد لنا سباستيان نص هذه المحاورة مفصلا ، فلم يفلح فى اقناعه . فاذا فشلت هذه المحاولة فقد قام المسلمون بهجوم عنيف على الجبل والمغارة بالمعاول (*Fundibala*) والسهام ، وهنا حدثت معجزة : اذ كانت السهام ترتد نحو المسلمين أنفسهم ! وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين وقتل ١٢٤ ألفا منهم ، فيهم القائد علقمة نفسه ، وأخذ «أبه» أسيرا ونجا من المسلمين ثلاثة وستون ألفا فروا هاربين . فتسلقوا جبل أوسبة وانحدروا من الناحية الأخرى ، وساروا فى خانق فى الجبل يسمى خانق أنكورا (*El Tajo de Ancora*) وانحدروا الى اقليم ليبانا (*Liebana*) ، وهنـا حدثت معجزة أخرى : اذ أن الجبل انهار من الناحية المشرفة على مصب نهر الديڤا (*Deva*) فطمر بقية المسلمين [2] .

= لقوات المسلمين فى جنوبى غالة وكان من كبار اليمنية ، وقد قام بدور كبير فى الحروب بين الشآميين والبلديين . وهو الذى قتل بلج بن بشر فى معركة «أقوة برطورة» ، ويصفه صاحب «الأخبار المجموعة» بأنه كان : «يعد فارس أهل الأندلس» وأنه «كان فارس نجدة مع جودة الاتشاء ، وعليه سلاح كريم لايحيك فيه سيفٌ حُصَين (بن الدجن العقيلى)» ، — أنظر الاخبار المجموعة ص ٤٣ — ٤٤ . وكان الثانى من كبار موالى بنى أمية فى الأندلس ، وكان من الأعمدة التى أقامت ملك عبد الرحمن الداخل ، راجع نفس المصدر : ص ٧٥ وما بعدها .

وابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٣٣ وما بعدها .

(١) هذه هى الصورة العربية لاسم Oppas كما أوردها صاحب الأخبار المجموعة (انظر ص ٨) وهو أحد ابنى غيطشة Witiza ملك القوط الذى غصبه لذريق العرش . وقد سماه ابن القوطية «عباس» .

(٢) AMBROSIO HUICI : *Las Cronistas latinas de la Reconquista*, I, (Valencia 1913). *Sebastiani Chronicon. Pelagius* p. 206.

وتلى رواية سباستيان فى الأهمية والطول رواية «مدونة البلدة» التى تذهب الى أن ثورة پلاى حدثت فى أيام يوسف الفهرى ، وكان مونوسة حاكما على أشتريس فى ذلك الحين ومقيما فى ليون ، فسار نحو پلاى جيش اسلامى يقوده رجل تسـميه المدونة ألقمان أو ألوامان (*Alcaman*=*Aloaman* = علقمان = علقمة ؟) وكان معه «أبه» فانهزم المسلمون وأسر «أبه» ، ومات مونوسة بعد ذلك بزمن . وأما الذين نجوا من القتل فقد هلكوا بناحية ليبانا (*Liebana*) اذ انهار عليهم الجبل بارادة الله [1] .

وورد ذكر الواقعة كذلك فى «مدونة سيلوس» ، ولكن ما فيها ان هو الا تكرار لما قاله سبستيان السلمنقى و «راهب البلدة» مع اضافات يسيرة . منها أن ثورة بلاى حدثت فى بليدة (*Cangas*) ، وهو يسمى علقمة (*Alchaman*) ويقدر العرب بمائة وسبعة وثمانين ألفا ، ويذكر أن معجزة انهيار الجبل حدثت على مقربة من نهر الديڤا بناحية ليبانا ، وأن مونوسة كان مقيما ببلدة خيخون فهرب عندما سمع بخبر الهزيمة ، وقتله أهل هذه النواحى فى قرية أولاليس (*Olalies*) [2] .

وتكتفى مدونة كمپستـيلة (*Compostela*) بالقول بأن پلاى طرد المسلمين من هذه الناحية واحتلها [3] ، فى حين لا تزيد مدونة «شرطانية» على أن المسلمين سادوا شبه الجزيرة كله الا «مغارة مارية المقدسة» [4] .

(١) A. HUICI : *op. cit. Chronicon Albeldense*.I. p. 159.

(٢) A. HUICI : *op. cit. Monachi Silensis Chronicon*, II, p. 50.

(٣) A. HUICI : *op. cit. Chronicon ex Historiae Compostellanae Codice* I, p. 80.

(٤) A. HUICI : *op. cit. Chronicon Cerratensis*, I, p. 90.

أما مراجعنا الاسلامية فقد أشارت الى وثوب پلاى بالمسلمين فى ناحية « الصخرة » ومحاولتهم القضاء عليه وهزيمته اياهم . واشاراتها كلها موجزة غير دقيقة التحديد ، ولكنها تدل على فهم أصحابها لأهمية الدور الذى لعبه پلاى فى تاريخ دول اسبانيا النصرانية والاسلامية أيضا ، وما ترتب على نهوضه فى وجه المسلمين وحربه معهم من النتائج البعيدة فى تاريخ شبه الجزيرة كله : فعيسى بن أحمد الرازى يقول : « وفى أيام عنبسة بن سحيم الكلبى قام بأرض جليقية علج خبيث يقال له « بلاى » من وقعة أخذ النصارى بالأندلس ، وجدّ الفرنج فى مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون فى ذلك » (١) مما يفهم منه أن الرازى كان يعتبر « پلاى » منشىء حركة المقاومة النصرانية ومجدد دولة النصرانية فى الأندلس من جديد بعد تفرق أمرها على أول أيام الفتح ، وأن نهوضه بأمرها كان الحجر الأول فى بنائها الجديد ، فقد قوى شأنها بعد ذلك ، ونهض أهلها الى مدافعة المسلمين عما استولوا عليه ، بعد أن كانوا لا يطمعون فى ذلك قبل ظهور « پلاى » . ولابن حيان — عميد المؤرخين الأندلسيين — رواية أخرى أدل على شخصية پلاى وقدره يقول فيها : « أنه فى أيامه — أى أيام عنبسة بن سحيم الكلبى — قام بجليقية علج خبيث يدعى « بلاى » ، فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم الى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس فى مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطمعون فى ذلك . وقيل انه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح الا « الصخرة » التى لاذ بها هذا العلج ، ومات أصحابه جوعا ، الى أن بقى فى مقدار ثلاثين رجلا

(١) عيسى بن أحمد الرازى برواية المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧١ .

ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش الا من عسل النحل يجمعونه فى جباح معهم ، فى خروق الصخرة . وما زالوا ممتنعين بوعرها الى أن أعيى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا : ثلاثون علجا ما عسى أن يجىء منهم .. »(١) مما يفهم منه أن « پلاى » كان شهما شجاعا ، فهاله تراجع قومه المستمر أمام المسلمين ، فنهض يستنهض هممهم «ويذكى قرائحهم حتى سما بهم الى طلب الثأر » وهى عبارة عظيمة المعنى والدلالة ، بل ان أحدا من مؤرخى اسبانيا النصرانية القدماء لم يقل مثل هذا القول الذى يحدد دور « پلاى » كواضع أساس حركة « الاسترداد » وصاحب الفضل الأول فيها .

وربما كان مؤرخانا الأندلسيان الكبيران — الرازى وابن حيان — أصدق نظرا وأصح تقديرا لپلاى من عامة من تناول الحديث عنه من أصحاب المدونات النصرانية ، الذين لا تخرج رواياتهم عن مبالغات وتفاصيل بعيدة التصديق عن انتصار پلاى على المسلمين عند مغارة أونجا عند سفح جبل أوسبة (*Auseva*) ، وهو انتصار محقق لا تنكره الرواية الاسلامية ، ولكن مبالغات الروايات النصرانية تلقى عليه ظلا من الشك ربما قلل من قيمته .

يقول صاحب « الأخبار المجموعة » بعد أن يشير الى ظهور پلاى فى ناحية الصخرة : « .. وغزاه أهل أستورقة زمانا طويلا ، حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة ، فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم وأخرج (يريد : أخرجهم) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخراج (٢) . وقتل من قتل ، وصار فلّهم الى خلف الجبل

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٩ — ١٠

(٢) هكذا فى الأصل ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا استغنينا عن حرف الجر « عن » .

الى أستورقة ، حتى استحكم الجـوع فأخرجـوا أيضا المسلمين عن أستورقة وغيرها ، وانضم المسلمون الى ما وراء الدرب الآخر ، والى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين » . ويقول بعد قليل : « وكاد أن يغلب عليهم — أى على المسلمين — العدو ، الا أن الجوع شملهم » [1]
ونستخلص من روايته هذه الحقائق الآتية :

أولا — أن « پلاى »خرج على المسلمين فى ناحية اشتريس واستقل بها فى ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى .

ثانيا — ان جند المسلمين القائم فى أستورقة حاولوا اخضاعه « زمانا طويلا » دون أن يوفقوا .

ثالثا — أن حركة الرجـل أخذت فى النمو ، حتى اذا وقعت فتنة أبى الخطار ، واشتغل المسلمون بحربه مع يوسف الفهرى والصميل ابن حاتم انتهز الرجل الفرصة وضاعف جهـده ، فهزم المسلمين هزيمة أخرجتهم عن جليقية جملة .

رابعا — أن صدى هذه الهزيمة تردد فى نواحى جليقية كلها ، فعاد بعض من كان أسلم من أهلها الى النصرانية ، وضعف الخراج تبعا لذلك.

خامسا — أن أهل هذه الناحية انقلبوا على المسلمين فقتلوا منهم من استطاعوا قتله ، وفر الباقى الىأستورقة ، ليحتموا بالعسكر الاسلامى المقيم هنالك .

سادسا — ولم يضع پلاى الفرصة ، فتقدم وأخرج المسلمين من أستورقة واستولى عليها .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

سابعا — وانسحب مسلمو هذه النواحى عن طريقين : طريق الغرب الى اقليم سرقسطة وطريق الجنوب الى ماردة وقورية .

وسنرى بعد قليل أن صاحب « الأخبار المجموعة » خلط بين أعمال « پلاى »وأعمال « أذفونش الأول » ، وأن عمل پلاى لم يتعد الحقائق الأربع الأولى .

ويقول صاحب فتح الأندلس : « وقام علج خبيث من أعيانهم فى أيام عنبسة هذا بأرض جليقية اسمه بلايه بن فافلة على من كان يملك أطراف جهته من العرب ، فنفاهم عنها . فملك سنتين ، ثم ملك ابنه فافلة بعده الى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، ثم هلك فاستولى على أهل جليقية بعده أذفنش بن بيطره جد بنى أذفنش هؤلاء الذين اتصل أمرهم الى اليوم » [1] . وهى رواية مختصرة فيها خطأ كثير فى نسب بلايه وفى تحديد التواريخ ، ولكنها تقرر أن پلاى كان مستقلا بناحيته عن المسلمين ثم ثار على من بأطراف هذه الناحية من العرب ، فهزمهم وطردهم عنها .

وللمقرى رواية لا تقل عن هذه أهمية ، وان لم يسندها الى أحد ، وذلك حيث يقول : « قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمـع فل النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم علج يقال له « بلاى » من أهل اشتريس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، الثانى من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها ، وهى سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن فطردوه ، وملكوا البلاد ، وبقى الملك فيهم الى الآن » [2] .

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٩ .
(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧١ .

وهى اشارة هامة تعيننا على تكوين فكرة عن حياة پلاى قبل لجوئه الى الصخرة وقيامه بالثورة على المسلمين ، وهى تحدد هروب پلاى من أيدى المسلمين بسنة ٩٨ هـ / ٧١٨ م وهو تحديد سيعيننا على ربط أحداث حياته بعضها ببعض .

وقبل أن نستخلص من هذه الروايات كلها سلسلة واحدة مترابطة الحلقات عن حياة « پلاى » وحركاته ، يجدر بنا أن نناقش التواريخ التى تقدمها لنا هذه الروايات .

ليس من اليسير مناقشة التواريخ المتضاربة التى يقدمها الينا المؤرخون عن هذه الحوادث ، لأن المؤرخين النصارى الذين يتحدثون عنها يختلفون فيما بينهم اختلافا عظيما ، فيجعلها « سبستيان » فى أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر أن قائد البعث الاسلامى المنهزم كان « علقمة » وهو من قواد طارق بن زياد ، فى حين يجعلها صاحب « مدونة البلدة » فى ولاية يوسف الفهرى ، أى بين سنتى ١٢٩ — ١٣٨ هـ / ٧٤٦ و ٧٥٦ م . أما مؤرخونا الاسلاميون فلا يكادون يتفقون هم الآخرون فيما بينهم ، فابن حيان والرازى يجعلان ثورة « پلاى » أثناء ولاية عنبسة بن سحيم (١٠٣ — ١٠٧ هـ / ٧٢١ — ٧٢٥ م) ، فى حين يجعلها صاحب « الأخبار المجموعة » فى بدء ولاية عقبة بن الحجاج السلولى (١٢٢ هـ / ٧٤٣ م) ويكتفى المقرى بالقول بأن پلاى هرب من قرطبة سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م ، وأنه كان فى اشتريس فى العام التالى (١٠٠ هـ / ٧١٨ م) ، دون أن يزيد على ذلك شيئا . أما هزيمة پلاى للعرب فيجعلها صاحب الأخبار المجموعة وصاحب فتح الأندلس فى أثناء ثورة البربر على العرب أى فى أوائل فتنة أبى الخطار والصميل ، أى بعد سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ — ٧٥١ م .

وقد حاول ادواردو ساڤدرا أن يستخلص من هذه التواريخ المتناقضة رأيا لا بأس من ايراده ، لأنه يمثل الرأى المتبع بين عامة المشتغلين بتاريخ هذه الأحداث من الاسبان المحدثين .

يقول « ساڤدرا » : ان رواية المقرى صريحة فى أن پلاى هرب الى صخرته (*Picos de Europa*) فى سنة ٧١٧ م ، وأنه كان هناك فعلا فى سنة ٧١٨ م فى ولاية الحر بن يوسف ، ويعود ابن حيان والرازى فيؤكدان أن پلاى قام بثورته فى ولاية عنبسة ، أى بين سنتى ٧٢١ — ٧٢٥ م ، وهذا تاريخ معقول ، لأن پلاى لابد أن يكون قد أنفق هذه السنوات فى جمع الأنصار والقيام بغارات صغيرة ومناوشات مع المسلمين أقلقت بالهم ، ففكروا فى ارسال بعث لتأديبه والقضاء على حركته . وحيث أن سبستيان يذكر أن وقعة « كوڤادونجا » كانت فى أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر اسم القائد علقمة — الذى تؤيد المراجع العربية وجوده فى هذه الأيام — فان أقرب الفروض الى الصحة أن علقمة هذا سار لحرب پلاى فى ولاية عنبسة ، وهناك حدثت الوقعة ، وانهزم هذا البعث الاسلامى ، واستشرى أمر پلاى بعد ذلك ، ولكن ظروف المسلمين لم تسمح بارسال قوة لتأديبه الا بعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، أى فى ولاية عقبة ، وهذا ما أشارت اليه المراجع الاسلامية من قيام عقبة ابن الحجاج بحملة تأديبية تتبعت پلاى ورجاله بالحرب حتى كادت تفنيهم ، ورجعت وهى تظن أن الرجل وأنصاره لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، ولهذا اختفى اسم پلاى حتى من المراجع النصرانية ، فلم نجد له ذكرا الا سنة ٧٣٧ م وهو عام وفاته الذى تحدده المراجع النصرانية (١) .

(١) EDUARDO SAAVEDRA: *Pelayo, Conferencia histórica.* Madrid 1906.

ولنا على هذا الرأى استدراك :

ذلك أن سبستيان السلمنقى لم يحدد تاريخا لواقعة « كوفادونجا » وانما ذكر أنها كانت فى أوائل أيام الفتح . فليس هناك ما يدعو الى القول بأنها حدثت أثناء ولاية عقبة بن الحجاج بالذات . وربما كانت أيام عقبة هى أبعد الأيام احتمـالا لوقوع هزيمة اسلامية على يد النصارى فى الأندلس . لأن الرجل كان محاربا لا يمل القتال ، وقد استنفد أيامه فى الحروب مع النصارى ، وظل يتتبع الثائرين فى جليقية حتى خيل اليه أنه قضى على كل أمل لهم فى القيام على المسلمين من جديد ، ثم انصرف بعد ذلك الى الناحية الشمالية الشرقية ودخل بنبلونة [1] وما يليها من البلاد شمالا ، ولو قد هزم له بعث على يد پلاى لما انصرف عنه ولواصل قتاله . والثابت من الروايات النصرانية والاسلامية أن پلاى تتبع المسلمين بعد انتصاره عليهم حتى أخرجهم من بلاده ، ولا يمكن أن يكون ذلك قد وقع على أيام عقبة . والمراجع الاسلامية صريحة كذلك فى أن پلاى طارد المسلمين وأخرجهم من بلاده أثناء فتنة أبى الخطار والصميل أى بعد سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ — ٧٥١ ميلادية .

بيد أن هـذا لا يتفق وما تجمع عليه الروايات النصرانية من أن « پلاى » توفى سنة ٧٣٧ ميلادية ، وهى فى مجموعها لا تستند على دليل

(١) يقول ابن عذارى عن أعمال عقبة الحربية : « وهو الذى فتح مدينة أربونة ، وافتتح جليقية وبنبلونة وأسكنها المسلمين . وتمت فتوحاته جليقية كلها غير « الصخرة » ، فإنه لجأ اليهـا ملك جليقية وكان بها ثلاثمائة راجل فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلا وحتى فنيت أزودتهم ، ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه فى خروق الصخرة ، وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم ، وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها وأجمل طريقة وأعدلها إلى أن غزا أرض افرنجة ... » — البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٩ ، وليس فى هذا كله إشارة إلى هزيمة ، ولا احتمال انكسار أى بعث إسلامى .

واحد يؤيدها فى هذا التحديد . بل ان الفونس العاشر يجعل وفاته قبل ذلك بست سنوات أى سنة (١٢١ هـ / ٧٣١ م) أى أثناء ولاية عقبة ابن الحجاج السلولى ، مما يدلنا على أن تحديد تاريخ وفاة پلاى بهذه السنة لم يخل من أن يناقضه مؤرخ مطام كهذا الملك العالم ، الذى قرأ كل التواريخ التى كتبت قبله ولم يقر ما أجمعت عليه .

ثم ان ابن خلدون — وقد اعتمد على الرازى وابن حيان فيما كتب من تاريخ ملوك الجلالقة — يجعل وفاة پلاى سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ — ٧٥١ م أى فى نفس السنة التى يؤكد صاحب الأخبار المجموعة أن پلاى هزم المسلمين فيها وأخرجهم من جليقية . ولما كان الرازى وابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة هم أقدم من حفظ لنا أخبار هذه الفترة البعيدة ، فاننا أميل الى الأخذ برأيهم ، ومتابعتهم فى القول بأن واقعة كوفا دونجا وقعت سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ — ٧٥١ م أثناء فتنة أبى الخطار والصميل ، وأن « پلاى » لابد أن يكون قد توفى بعد ذلك بقليل ، فى أواخر ٧٥١ م على الأرجح [1] .

وقد لاحظ دوزى أن التواريخ التى تحددها المدونات اللاتينية لأحداث هذه الفترة لا يمكن تأييدها ، وفضل عليها روايتى الرازى وابن حيان ، ولم يرض كذلك عن التواريخ التى قدمها ابن خلدون ، وختم كلامه عن موضوع تاريخ حوادث هذه الفترة بقوله : « انه لمن العسير جدا — ان لم يكن من المحال — أن نحل اشكالا من هذا النوع ،

(١) تذهب « مدونة البلدة » إلى أن كوفادونجا وقعت سنة ٧٥٦ م أى أثناء الصراع بين عبد الرحمن الداخل ويوسف الفهرى ، وقد أخذ بروايتهـا ماسديو ، فذهب إلى أن الوقعـة حدثت فى تلك السنة .

cf. J. F. MASDEU : *Historia Critica*, I. pp. 55 Sqq.

اذ ينقصنا الخيط الذى يدلنا على طريق الخروج من هذه المتاهة » [١] :

وهو على حق ، فليس لدينا ما يقنعنا بقبول ما تجمع عليه غالبية المراجع النصرانية من جعل وقعة كوڤا دونجا سنة ٧١٨ م وجعل وفاة پلاى سنة ٧٣٧ م ولا يذكر لنا مؤرخونا الاسلاميون هذه الواقعة محددة باسم أو بتاريخ ولو تقريبين لَهَا . ثم ان منطق الحوادث لا يستقيم اذا نحن فرضنا أن پلاى هزم المسلمين على أيام عنبسة أو على أيام عقبة : فلو قلنا أن الهزيمة وقعت فى أيام عنبسة لضاعت قيمتها كنصر حاسم رد المسلمين عن بلاد أشتريس ، لأن عقبة أتى بعد ذلك وغزاها حتى ألجأ پلاى الى « الصخرة » ، ولم يبق له الا على عدد قليل من الأنصار ، أى أن « كوڤا دونجا » لم تكن الوقعة الفاصلة التى ردت المسلمين عن تعقب النصارى ، بل عادوا اليها وأوغلوا أكثر مما فعلوا من قبـــل ، وانصرفوا عنها بعد ذلك بسنوات من تلقاء أنفسهم ، لأن عقبة اضطر الى مغادرة الأندلس الى افريقية ، كما يقول باليستروس [٢] ، فلا يكون والحالة هذه لكوڤا دونجا ولا لپلاى فضل فى ارتدادهم أو فى ميلاد اشتريس ، ولا تكون « كوڤا دونجا » والحالة هذه الا مناوشة خسرها المسلمون وعادوا بعدها الى الظفر .

ولما كانت الروايات النصرانية وما بين أيدينا من الروايات الاسلامية تجمع على أن انتصار پلاى على المسلمين كان حاسما ، وأنه أعقبه اخراجهم

---

(١) DOZY, *Recherches*, I, p. 96.

(٢) BALLESTEROS, *Historia* ..., II, p. 181.

وهو خطأ : لأن عقبة أقام بالأندلس حتى انتهت ولايته نهاية غير واضحة ، وقد تتبعت مرجعه الذى أشار إليه ، وهو الأخبار المجموعة ، فلم أجد فيه ذكراً لهذا ، لا فى الأصل ولا فى الترجمـــة الاسبانية ولا فى التعليقات عليها : الأصل العربى : ص ٢٨ ، الترجمة الاسبانية : ص٣٨ — ٣٩ .

من جليقية ، فلا مفر لنا من القول بأن هذا الانتصار حدث بعد أيام عقبة ، وفى أوائل فتنة أبى الخطار وثوابة بن سلامة العاملى أى فى سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ — ٧٥١ م أو فيما بعدها ، ولا محيص لنا فى هذه الحالة من جعل وفاة پلاى بعد ذلك بقليل فى نفس السنة ، تمشيا مع تحديد ابن خلدون لسنة وفاته .

فاذا انتهينا من تقرير أحداث حياة « پلاى » وتحديد تواريخها ، فلنعرض حياته وما قام به من الأعمال مستخلصة من مجموعة ما لدينا من المراجع الاسلامية والنصرانية .

نستطيع أن نقبل ما يذكره ألفونس العاشر — الملك العالم — من أن « پلاى » كان ابنـــا لفافيـــلا دوق كنتبرية ، وأن فافـــلا (*Fafila*) هذا كان قد استقر فى توده (*Tuy=Tude*) — عاصمة كنتبرية فى ذلك الحين — بعيدا عن البلاط القوطى فى طليطلة ، لأن نزاعا قام بينه وبين الملك « اجيكا » (*Egica*) فلما مات هذا الأخير وخلفه غيطشه ، تجدد النزاع بينه وبين « فافلة » ، اما لأن غيطشة طمع فى زوج فافلة (أم پلاى) أو لسبب آخر ، والمهم هو أن النزاع ثار بين الرجلين ، وفر فافلة مرة أخرى الى كنتبرية حيث مات هناك مخلفا ابنه « پلاى » .

فلما وثب لذريق بغيطشة وآله ، انضم اليه « پلاى » وأعانه على ادراك العرش ، فكافأه على ذلك بأن جعله « حامل سيفه » (*spatarius*) واستمر « پلاى » على هذا حتى فتح العرب الأندلس ، فكان ممن وقعوا فى أيديهم أسرى ، فاحتفظوا به لديهم فى قرطبة رهينة .

ولما كانت أيام الحر بن عبد الرحمن بن يوسف الثقفى ، عامل الأندلس بين سنتى ٩٧ و ١٠٠ هـ / ٧١٧ — ٧١٩ م . أمكنت پلاى

الفرصة ، ففر من قرطبة ، وتشرد فى نواحى شمالى الأندلس فترة من الزمن ، وتنقل فى اشتريس حتى استقر به المقام فى بلدة « كانجا دى أونيس » ، وهناك التف حوله نفر من القوط الهاربين من المسلمين ونفر من الايبيريين الرومان المقيمين فى هذه الناحية ، فأخذ يحرضهم على الوثوب بالعرب ، ويعيب عليهم طول الاستسلام والتراجع أمام المسلمين حتى استنهض هممهم ، وجمعهم على الوثوب بهم .

وكان عامل المسلمين على نواحى أشتريس القائد البربرى « مونوسة » ، فوقعت بينه وبين پلاى مناوشات ، وظل مونوسة يحاربه ويطارده حتى ألجأه الى التحصن « بالصخرة » فى عدد قليل جدا من أنصاره ،ولو ظل مونوسة مكانه لقضى على پلاى فى ذلك الحين ، ولكن نزاعا وقع بينه — أى بين مونوسه — وعبد الرحمن الغافقى ، فحاربه وما زال به حتى قتله على يد قائده البربرى « ابن زيان » سنة ١١٣ هـ ٧٣١ م .

وخلا الجو أمام « پلاى » بذلك ، فتشجع وخرج من « الصخرة » وأخذ فى التوسع حتى استولى على خيخون التى كان « مونوسة » يقيم فيها ، وبسط سلطانه على اقليمى أشتريس وكنتبرية ، واتسع ملكه ، وأخذ ينازع من جاوره من الأدواق ، حتى شمل سلطانه جزءا من جليقية وناحيتى أشتريس وكنتبرية .

فلما ولى الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى (١١٦—١٢٣ هـ / ٧٣٤ — ٧٤١ م) تجرد للقضاء على هذه الدويلة التى قامت فى وجه المسلمين فى شمالى الأندلس وأخذت تنتقص من سلطانهم على شبه الجزيرة ، فما زال يحارب پلاى ويقتطع أراضيه جزءا جزءا حتى رده

الى « الصخرة »كما كان ، وأدخل الكثيرين من أهالى اشتريس فى الاسلام ، وكادت الدويلة الناشئة أن تنهار وينتهى أمرها .

ثم ساعفتها المقادير بما وقع من الخلاف بين اليمنيين والقيسيين فى الأندلس عقب وثوب عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمنية بعقبة وانتزاعهم الأمر من يده ، فتنفس پلاى ومن معه الصعداء ، وأخذوا يغادرون الصخرة وينتشرون فيما والاها من نواحى اشتريس .

ووقعت فى أثناء ذلك الفتنة البربرية ، واشتد الصراع بين العرب والبربر فى نواحى شبه الجزيرة كلها ، وكان عقبة قد خلف على اشتريس علقمة اللخمى ومعه قوة من الجند تقيم فى استورقة (*Astorga=Asturicum*) أو فى ليون (*Leon=Legio*) فهال علقمة ومن معه ما رأوا من تقدم پلاى وأصحابه فى أرض المسلمين ، فنهضوا اليهم فى قوة يسيرة ، وتوغلوا فى بلادهم حتى أدركوا الصخرة ، وتحصن پلاى منهم فى جبل أوسبة (*Auseva*) واحتمى نفر من أنجاد جنده فى مغارة كبيرة تسمى « مغارة أونجه » (*Covadunga=Cova de Onga*) أو « مغارة مارية المقدسة » ، فلما أراد العرب اقتحام الجبل والصعود الى المغارة هبط عليهم پلاى وأصحابه فهزموهم ، وقتلوا علقمة ، وارتد المسلمون مسرعين نحو استورقة وشردت جماعة منهم ، ومضت تضرب فى نواحى اشتريس القاحلة حتى نزلت ناحية ليبانا *Liebana* حيث هلكوا ، اما على يد الجلالقة أو لسبب آخر . وتشجع پلاى وأصحابه فتقدموا واستعادوا ما كانوا فقدوه ، وعاد أمرهم كما كان ، وأتاح المسلمون لهم هذه الفرصة بما انشغلوا فيه بعد ذلك من فتنة أبى الخطار والصميل ، فاطمأن پلاى وأصحابه ، وقوى مركزهم وثبتت أقدام الدولة الجديدة .

١٣٩ – أهمية كوڤا دونجا هذه هى خلاصة ما بين أيدينا من النصوص عن « پلاى » ومعركة « كوڤادونجا » . وواضح جدا أن هذه المعركة لم تكن فى واقع الأمر أكثر من مناوشة انهزم فيها المسلمون لأسباب أخرى غير ما تزعمه الروايات النصرانية من تفوق پلاى وأصحابه فى الشجاعة والنجدة أو من تدخلّ قوى علوية خفت لنجدة النصارى فى اللحظة الحاسمة . ولم يعد المسلمون الى مهاجمة هذه النواحى الشمالية القاصية الا فى أيام المنصور بن أبى عامر ، فظلت منذ يوم «كوڤادونجا» مهدا لدولة اشتريس الناشئة ، فثبتت قواعدها ورست أصولها على نحو لم يستطع المسلمون معه ازالتها بعد ذلك أبدا ، أى أن هذه الوقعة كانت ايذانا بميلاد اشتريس وبدءاً حاسما لحركة المقاومة النصرانية فى شبه الجزيرة . وهى على هذا الاعتبار حادث فاصل من حوادث التاريخ الأسبانى .

وربما بدا لنا أن التواريخ الاسبانية تبالغ فى تعظيم هذه الموقعة ، وربما كان مرد هذه المبالغة الى « پلاى » وأصحابه ومعاصريهم من القصاص . بيد أنه لا حرج على پلاى وأصحابه ، ولا حرج كذلك على الروايات النصرانية فى مثل هذه المبالغة ، لأن هذه المناوشات ، التى وقعت بين المسلمين والنصارى فى نواحى اشتريس وانتهت بانتصار هذه الجماعات النصرانية التى اختارت العيش فى هذه الناحية القاصية القاحلة — مستقلة عن سلطان المسلمين — على العيش فى ظلالهم ، قد وضعت أساس الدولة الاسبانية النصرانية التى سيتاح لها أن تناوىء المسلمين قرناً بعد قرن حتى تتيح الظروف لها فرصة اخراجهم من البلاد.

والتاريخ الصحيح يعتبر « كوڤادونجا » ميلاداً لهذه الحركة التى ستصل حلقات تاريخ اسبانيا النصرانية وتعيد البلاد الى النصرانية

والى ميدان الحضارة الغربية من جديد . وليس الى الشك سبيل فى أن حركة پلاى تعد حادثا رئيسيا فى تاريخ اسبانيا كله ، لأن العبرة فى أمثال هذا الحادث ليست بالتفاصيل الدقيقة ولا بالأرقام الصغيرة أو الكبيرة ، بل العبرة فيها بالمعنى التاريخى الذى يستتر خلف الحادث نفسه . « ونحن — كما يقول المؤرخ باليستروس — بعيدون جداً عن الحادث بدرجة لا تسمح لنا بأن نزعم أننا نستطيع أن نقدر أعداد المقاتلين أو أن نصف الحركات الحربية على وجه الدقة ، ثم ان هذا ليس هو الأساسى ولا المهم ، فسواء أوجد فى هذه المعركة هذا العدد أو ذاك من المقاتلين ، وسواء أكانت وقعت فى هذا المكان بعينه أو فى مواقع أخرى ، فان الأمر المهم هو أن بعثا اسلاميا — ربما كان صغيرا — أراد أن يقضى على مركز حركة ثورية ، وحاول الوصول الى الموضع الذى اعتقد رجاله أنه وكر رجال العصابات والثائرين ، ففشل فى ادراك ماطلب بسبب النخوة والشجاعة التى أبدتها حفنة من الرجال كانوا يقاتلون قتال اليائس منافحين عما بأيديهم ، وأنقذوا بهذا الكفاح ما هو أغلى مما كانوا يملكون فى ذلك الحين ، وهو الاستقلال عن السيادة الأجنبية. وقد أقاموا بعد ذلك محافظين على كرامتهم وممتلكاتهم محتملين ما كلفتهم هذه المحافظة من باهظ التكاليف » .

« ثم ان ازدياد الاجلال لكوڤادونجا مع مرور الزمن ، واتجاه الأنظار خلال الأعصر الى هذه البقعة من الجبل التى أشرنا اليها بالذات، ليدلان على أنه قد وقع فيما يحيط بها ويقاربها حادث باقى الأثر من حوادث الصراع الذى أراد خلفاء من حضروه وشهدوه أن يخلدوا ذكره . فكيف وبين يدينا وثائق تؤيد وقوع هذا الحادث بالفعل ؟ ولسنا نريد بهذه التأكيدات كلها أن نقول — بأى حال — ان الموقعة كانت

من الكبر بما يتفق مع هذه المعانى التى ذكرناها ، وليس معناه كذلك أن الكارثة التى نزلت بالعدو كانت بالشدة التى يصفها بها الرواة الذين استرسلوا مع خيالهم وحماسهم أكثر مما ينبغى ، وانما معناه أن النقد السليم يقرر الصفة الرمزية للواقعة ، فقد كانت بدءاً لعمل مجيد ، وكانت أول حجر فى بناء ضخم . وكانت هذه الهزيمة الصغيرة وذلك الفشل اللذان أصابا القوة الحربية الاسلامية عوامل أفهمت النصارى أن أعداءهم لم يكونوا معصومين من الهزيمة ، وذلك وحده يوضح لنا كيف أن الحادث الصغير أصبح منذ هذا التاريخ معتبرا فى نظرهم رمزا وهدفا وغاية بعيدة عالية . أى أنه انما كان فى الواقع الملموس بدء استقلالهم وبدء التحرر من السلطان الاسلامى . وهذا أمر ذو قيمة لا تقدر » (١) .

وأما من وجهة النظر الاسلامية فهذه الحادثة فى ذاتها لم تكن تعنى شيئا لو لم يعقبها من الأحداث ما زاد فى قيمتها وأهميتها : فلو لم يختلف المسلمون على أنفسهم وينقسموا شيعا لما كان لكوڤادونجا ولا لبلاى نفسه أهمية كبرى ، فان انهزام الجيوش الاسلامية لم يكن بالأمر النادر ولا الحاسم ، وقد انهزمت هذه الجيوش فى افريقية مثلا عشرات المرات ، وكانت الهزائم فى بعض هذه الحالات قاسية بل قاصمة ، ولكنها لم تكن حاسمة . لأن المسلمين استطاعوا أن يجمعوا صفوفهم بعد كل هزيمة ويعودوا للقتال حتى يقضوا على الحركة ويستعيدوا ما يكون قد ضاع منهم . فأما فى هذه المرة فقد عجز المسلمون عن اخضاع هذه الناحية ، وقامت فيها الدولة النصرانية ولم تختف من التاريخ بعد ذلك أبدا ؛ فأصبحت لهذا حادثا حاسما له خطره فى تاريخ

(١) BALLESTEROS : *Historia* ..., II, pp. 180-181.

اسبانيا الاسلامية . والثابت على أى حال أن المسلمين لم يتركوا هذا الركن القصى من جليقية دون فتح لأنهم هزموا أمام بلاى أو غيره ، أو لأنهم احتقروا هذه البقية الباقية من الثائرين ، بل لأنهم انصرفوا عنها الى التافه من منازعات الجنس والعصبية ؛ فأضعفوا أنفسهم من جهة ، وأعطوا رجال الحركة فرصة كانوا فى أشد الحاجة اليها ليثبتوا أقدامهم وليتحولوا من جماعة من الثائرين المطاردين الى دولة مستقرة لها كيان ولها سيادة على ما تملكه من الأرض من جهة أخرى ، ومن الواضح جدا أن هذه الحركة وانصراف العرب عن القضاء عليها قد أنشأ فى شبه الجزيرة وضعا جديدا سيكون محورا من محاور التاريخ الأندلسى كله وهو : أن أسبانيا لن تكون من ذلك التاريخ قطرا اسلاميا خالصا ، وانما ستكون قسمة بين الدولة الاسلامية والدولة النصرانية ، وأن كلا من هاتين الدولتين ستسير فى طريقها ، وأن النزاع بينهما سيستمر ، وأن هذا النزاع سينتهى بعد قرون طويلة برجحان الكفة النصرانية وزوال أمر المسلمين والاسلام من البلاد .

ولم يخف هذا المعنى على مؤرخينا الاسلاميين ، فهذا ابن حيان يقول عن جماعة بلاى : « ... وما زالوا ممتنعين بوعرها — أى بوعر الصخرة — الى أن أعيى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا ثلاثون علجا ! ما عسى أن يجىء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة والاستيلاء الى ما لا خفاء به . وملك بعده — أى بعد بلاى — أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السمة ... »(١) . وهذا ابن سعيد يقول : « فآل احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه الى أن ملك عقبه

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٠ .

من كان فيها المدن العظيمة ، حتى أن حضرة قرطبة فى يدهم الآن ، جبرها الله ، وهى كانت سرير السلطنة لعنبسة »[١] .

وينبغى كذلك أن نقرر أن هذه الحادثة أخذت جانبا عظيما من قيمتها من طبيعة هذه الطوائف القوطية والايبيرية الرومانية التى اعتصمت بهذا الركن ، فقد كانت طبيعة صلبة مثابرة لا تكف عن القتال ولا تخشاه ، وهى لم تقنع بالسلامة من أيدى المسلمين ، وانما عولت على الاستمرار فى مناجزتهم ، ومضت فى ذلك بصبر وجلد يستوقفان النظر . وأحسن رجالها الاستفادة من هذا الوضع الذى كانوا فيه على بساطة شأنه ، وما زالوا يحاربون ويجالدون ، لا يتركون غرة من العرب الا انتهزوها ، حتى أصبحوا مع الزمن قوة يخشى بأسها .

فاذا صح هذا استبانت لنا القيمة الحقيقية لشخصية بلاى فى التاريخ الاسبانى عامة ، فهو واضع أساس الدول النصرانية الشمالية الغربية التى ستحمل لواء المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية « وهو أبو بنى أذفنش هؤلاء » كما يقول مؤرخونا الأندلسيون ، وقد رأينا أن معظم أحداث حياته لا زال نهبا موزعا بين القصاص وأصحاب الملاحم الشعرية الأسطورية ، ولكن المهم أن التاريخ الصحيح يعترف له بجمع شمل النصارى المتفرقين وقيادتهم فى حرب المسلمين قيادة موفقة ، وفى هذا كفاية ، فلا معنى اذن لانكار وجوده كما فعل بعض المسرفين فى الشك من المؤرخين [٢] ولا معنى للاصرار على أنه ينحـــدر عن صلب البيت

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) مثل MAYANS و MASDEU (يقر وجوده ولكنه يشك فى نسبة الكثير من أعماله إليه) و SARMIENTO و PELLICER و CASIRI و NOGUERA

cf : BALLESTEROS : *op. cit.* p. 194.

الحاكم القوطى القديم ، لأن الواقع أن الرجل سما الى أوج الملوك بما قام به من دور كبير : « وربما كان بلايو هذا ، منشىء الأسرة الأشتورية رجلا عاديا من العوام ، رجلا بسيط الأصل رقيق الحال ، ولكنه امتاز على أى حال بخصال ممتازة أهلته للرياسة . وسواء أكان قوطيا أم ايبيريا رومانيا ، فقد استطاع أن يضع نفسه على رأس المغلوبين فى لحظات الخطر المحيق ، وحاز لنفسه القيادة عن جدارة » كما يقول باليستروس [١] ، فذلك لا يغير من الواقع شيئا ، لأنه يبقى لبلاى بعد ذلك فضل اقامة دولة للنصرانية فى الشمال وتعزيزها أمام الفتح الاسلامى الجارف ، وفضل تكوين هذه النواة التى تكونت حولها فيما بعد دول استطاعت أن تسير بالتاريخ الاسبانى الى الأمام حينما عجز المسلمون عن الاستمرار فى القيادة بعد انهيار دولة الخلافة الأموية وفشل كل المحاولات الجليلة التى قام المسلمون بها لجمع الكلمة واعادة سيادة الاسلام على شبه الجزيرة .

هذا ، وليس بين مؤرخى الأسبان المحدثين اجماع على اقرار ما تذهب اليه الروايات النصرانية من انحدار بلاى عن صلب قوطى — ملكى أو غير ملكى — بل منهم من يذهب الى أنه من أهل اشتريس الأصلاء ، أى كلتى أو ايبيرى رومانى ، وأن اسمه الأصلى ليس بلاجيوس (*Pelagius*) كما تورده المدونات النصرانية بل پلايو (*Pelayo*) بدليل وجود ألفاظ كثيرة فى اللغة الأشتورية تنتهى باليـــاء والواو (*yo*) منها أسماء أعلام مثل (*Voicayo*) و (*Poyayo*) و (*Olayo*) و (*Ubayo*) وألفاظ مثل (*orvayo*) و (*carbayo*) و (*borgayo*)[١] و (*argayo*)[٢] .

(١) **BALLESTEROS** : *op. cit.* p. II, 174.

(٢) RICARDO BURGUETE : *Rectificaciones historicas*, p. 284.

بل من علماء الاسپان من يقرر أن أصل پلاى من ناحيـــة ليبانا بالذات [١] ، ومراجعنا العربية تؤيد هذا الرأى ، وهى أقدم من المراجع النصرانية ، فهى تسميه پلاى وهى تسمية أقرب الى پلايو منها الى پلاجيوس ، ثم ان أوثق مؤرخينا الاسلاميين يؤكدون أن الرجل كان جليقيا على ما سبق ذكره .

وقد كانت عاصمته طول حياته بليدة كانيكاس اللاتينية (*Canicas*) الاسبانية (*Cangas de Onis*) ، وأغلب الظن أنه دفن بها مع زوجته جاوديوسا (*Gaudiosa*) ، وخلفه ابنه فافلة (*Fafila*) على ما تجمع عليـــه المراجع النصرانية (يؤيدها فى ذلك ابن خلــدون) ، ولم يكن على شىء من خصال أبيه ، وانما كان مولعا بالصيد ، وقتله دب أثناء الطرد بعد أن حكم سنتين لم يكد يفعـــل خلالهما شيئا ذا بال كما يقول سباستيان السلمنقى [٢] ، ويجعـــل المؤرخــون وفاته فى ســـنة ٧٣٩ م وذلك لا يتفق مع ما ذكرناه ، والأصح أن يكون قد توفى سنة ٧٥٢ م أى قبل قيام الدولة الأموية بأربع سنوات ، ودفن مع زوجته فروليبا (*Froleba*) أو (*Froiliuba*) فى كنيسة سانتا كروث فى كانجاس .

وقد انتهت ولاية عقبة بن الحجاج الذى كان يرجى أن يتم القضاء على حركة بلاى على يديه نهاية غير واضحة ، فمن قائل انه مات حتف أنفه اثر مرض ألم به ، وأنه أوصى لعبد الملك بن قطن بالولاية من بعده [٣] ومن قائل أن اليمنيين انتهزوا فرصة ثورة بربر افريقية على العرب أثناء ولاية عبيدة بن عبد الرحمن ، فعزلوه وولوا شيخهم عبد الملك بن قطن

(١) BALLESTEROS : *op. cit.* p. 182.

(٢) *cf* : JIOS AMQZA GARCIA SALA : *Gijon en la Historia general de Asturias.* II pp. 445-499

(٣) ابن القطان ، فى البيان المغرب لابن عذارى ، جـ ٢ ص ٢٩ .

مكانه [١] ، وهكذا اختفت هذه الشخصية العربية المجاهدة فى « ليل الزمان » كما يقولون ، ولو قد أتيحت له فرصة أطول لترك أثرا بعيدا فى تاريخ الغرب الاسلامى .

وكان من سوء طالع الدولة الاسلامية الأندلسية الناشئة أن الأمور صارت الى عبد الملك بن قطن من بعده ، اذ أن عبد الملك كان يمنيا شديد العصبية قليل السياسة ، فلم تلبث الأمور أن ساءت بين يديه ، واشتعلت نيران الثورة البربرية فى الأندلس ، وأعقبها قدوم طالعة بلج من الشآميين الى الأندلس واحتدام الخصومة بين هـؤلاء الشآميين ومن كان فى الأندلس من قدماء الفاتحين والمهاجرين من العرب والبربر الذين يطلق عليهم لفظ « البلديين » ، مما جعل الأندلس الاسلامى شـعلة نار ، فهلكت من العرب أعداد كبيرة ، وفنيت من البربر جماعات ، وعادت جماعات أخرى منهم الى مواطنها الأولى فى افريقية ، فلم يقف تراجع المسلمين عند حدود اشتريس كما رأينا ، بل خلت المساحة الواسعة الواقعة بين نهرى المنهو ودويره من سكانها المسلمين ، وأصبحت أرض فضاء حاجزة بين الدويلة النصرانية فى أقصى الشمال والدولة الاسلامية التى أصبحت تحد من الشمال بخط يبدأ من افراغه على ساحل المحيط الأطلسى ويمتد الى قورية فطليطلة ، ثم يصعد حتى لارده فى ناحية الشرق . ولم يوقف هذا التقلص الا قدوم عبد الرحمن الداخل واقامته صرح الدولة الأموية فى سنة ١٣٤ هـ / ٧٥٦ م .

١٤٠ – أذفونش ابن بِطْرُه (ألفونسو الأول)

وكان من حظ الامارة النصرانية الناشئة فى نواجى جليقية أن صارت قيادتها بعد فافيلا الى زعيم قوى نشيط هو أذفونش (ألفونسو) الملقب بالأول . ولم يكن من بيت بلاى ، وانما كان ابنا لبطره (*Pedro*) دوق كنتبرية ، وكان

(١) الرازى فى نفح الطيب للمقرى ، جـ٢ص ١١ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ص ٢٩ .

أذفونش قد تزوج بنتا لبلايو تسمى ارمنسندا Ermensinda ، وارتقى العرش بعد موت فافله ، مما يفهم منه أن فافله بن بلاى مضى صغيرا دون أن يخلف عقبا [١] .

تولى أذفونش بن بطره دوق كنتبرية شئون امارة بلايه الصغيرة فأضاف اليها دوقية كنتبرية ، فاتسعت حدودها اتساعا طيبا مكنها من الخروج من صخرتها القاحلة التى كانت حروب عقبة بن الحجاج السلولى قد ألجأتها اليها .

ويجمع المؤرخون على أن أذفونش الأول كان زعيما واسع النشاط بعيد المطامع : تولى وقد ازاح عن الامارة النصرانية خطر المسلمين الى حين ، وشغلتهم عنها حروبهم سنوات طوالا ، فعجل أذفونش بانتهاز الفرصة ، واستغلها أحسن استغلال لصالحه ، فلم يخلف العرش الا وهذه الامارة النصرانية الصغيرة دويلة ذات حدود ومعالم وأسباب من القوة تمكنها من الحياة والاستمرار فى التقدم ، ولم يستطع المسلمون بعد ذلك القضاء عليها ، فلا غرابة أن يعتبر الاسپان حكومة أذفونش الأول الميلاد الحقيقى لاسپانيا النصرانية .

وقد اختلفت آراء المؤرخين فى أعمال بطره كما اختلفت فى بلاى وأعماله ، فذهب هركولانو الى أنه لم يكن أكثر من زعيم جماعة من رجال العصابات [٢] ، وذهب ساموذا الى أنه كان مجرد نهاب يباغت المواضع العامرة لينهب ما فيها ، دون أن يجد حرجا فى ذلك [٣] ، فقد كان أمثاله من القادة يعيشون على السلب فى هذه الأعصر ، وربما

(١) BALLESTEROS : *op.cit.* II. p. 184

(٢) ALEJANDRO HERCULANO: *Historia de Portugal* (Lisboa, 1863 IV.

(٣) SAMOZA, *op. cit.* p. 431-504.

حركته الى القيام ببعض غاراته عوامل دينية . ومهما يكن من أمر فقد كان الرجل صاحب فتوح وحروب ، وقد اقترن عصره باتساع مفاجىء لدولة أشتريس الناشئة أصبحت بعده تسيطر على نحو خمس شبه الجزيرة كله ، وقد ذهبت المدونات النصرانية ومن تابعها من المؤرخين مذاهب شتى فى تفصيل حروبه وفتوحه التى قام بها حتى بلغ بدولته الصغيرة هذا المبلغ [١] .

١٤١ – المسلمون يخلون الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة

لم يكد أذفونش يستقر فى الامارة ويوطد أمورها بعد اتساعها الجديد حتى وجد البربر الذين كانوا يحتلون نواحى أشتريس وكنتبرية وجليقية وعامة النواحى التى يسميها صاحب الأخبار المجموعة « خلف الدروب »[٢] يهجرون مساكنهم وأوطانهم وينحدرون الى الجنوب ، ووجد أن الهجرة لا تقتصر على البربر بل تشمل العرب كذلك ، فقد انجفل الذين كانوا يقيمون منهم فى هذه النواحى القاصية الى نواحى وسط الأندلس وجنوبها ، وأن الكثيرين منهم هلكوا فى الفتنة التى وقعت بينهم . وقد كان انجفال المسلمين — ما بين عرب وبربر — من هذه النواحى حادثا خطيرا يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقوله : « فقضى

(١) MASDEU, *op. cit.* XII pp. 60 sqq.

(٢) الدروب هى الطرق التى كان المسلمون يسلكونها فى طريقهم من سهول الجنوب والوسط إلى النواحى الساحلية العامرة فى أقصى شمال الأندلس ، ومعظمها طرق رومانية قديمة بين الهضاب والجبال وأهمها دربان : درب شرقى من طليطلة إلى وادى الحجارة إلى حوض إبره ، ثم يسير بمحاذاتهماراً بقلهرة وتخره حتى بنبلونة Pampelona ومن ثم يفضى إلى إلبه Alava والقلاع Castilla وأشتريس Asturias . ودرب غربى يبدأ من الجوف El Algarve ويسير إلى ماردة Merida وقورية Coria ثم طلبيرة Talavera فطليطلة Toledo ومنها إلى سلمنقة Salamanca وسمورة Zamora فجليقية .

أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا فى أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقة والمداين التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن الا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها الى وسط الأندلس ، الا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم ، فانهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر ، فأخرج اليهم عبد الملك (بن قطن) جيوشا فهزموها وقتلوا العرب فى الآفاق »[1] . وبهذا لم تبق منهم فى هذه الناحية بقية ، ولم يعد العرب الى الاستقرار فى « المداين التى خلف الدروب » بعد ذلك ، وكان ذلك آخر عهدهم بها : زالت آثارهم منها على الرغم مما بذلوا من جهد فى فتحها والاستقرار فيها ، زالوا منها لا على يد القوط أو الأيبيريين الرومانيين بل على يد البربر شركائهم فى الدين وحلفائهم فى هذا الفتح الكبير .

١٤٢ – هجرة أعداد كبيرة من البربر إلى إفريقية

وليت البربر حينما فعلوا ذلك استقروا فى مواضع العرب وأقاموا يعمرون هذه النواحى ، بل اتجهت همتهم الى التجمع فى جيوش والسير الى الجنوب للقضاء على العرب جملة ، فتحرج مركز العرب ، ولم يجد عبد الملك بن قطن شيخ اليمنيين وسيد الأندلس اذ ذاك بدا من الاستعانة ببلج بن بشر ومن معه من الشاميين الذين كانوا محصورين فى سبتة لكى يخلصوهم من البربر (١٢٣ هـ / ٧٤١ م) فعبروا ونازلوا البربر وانتصروا عليهم فى مواقع حاسمة عند شذونة وعلى مقربة من قرطبة وعلى وادى سليط El Rio Salado (أوائل ١٢٤ هـ / منتصف ٧٤١ م) وقتلوا منهم أعدادا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

عظيمة . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعقبوهم بالأذى والقتل فى نواحى الأندلس كلها « فلم ينج منهم الا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش فى الأندلس ، فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم »[1] .

١٤٣ – المجاعة تجتاح شبه الجزيرة

ولما كان البربر هم غالبية من استقر فى نواحى الشمال الغربى للأندلس وريفها من المسلمين : فقد بدأت هذه الأرياف والمزارع تخلو من العنصر الاسلامى ، وكانت الحروب بينهم وبين العرب ، وبين العرب وأنفسهم قد خربت الزرع وحالت بين المزارعين من أهل البلاد ، وبين مواصلة عملهم الآمن فى الحقول ، فأخذت المحاصيل تقل من منتصف سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) ، وتوالى ذلك خلال السنوات التالية ، فلم تحل سنة ١٣٣ هـ / ٧٥١ م حتى شملت الأندلس جميعه المجاعة الكبرى التى أشرنا اليها ، انضافت مساءاتها الى مساءات الحروب والمنازعات فقل العمار فى النواحى وضربت المجاعة بجرانها ، حتى تقطعت أوصال البلاد ، « وكانت البرد قد قطعها الجوع فلابريد » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة[2] . وهبطت البلاد كلها خلال السنوات التى أعقبت هذه الثورة البربرية هبوطا بالغا خيف منه على مصير الاسلام فى البلاد جملة .

١٤٤ – إخراج المسلمين من جليقية وماجاورها

لم يكن أذفونش وأصحابه يترقبون بخصومهم المسلمين فرصة هى أحسن من ذلك ، فعجلوا بانتهازها ، وتشجع من كان فى طاعة المسلمين من أهل النواحى الشمالية من الايبيريين الرومان فوثبوا بالعرب فى نواحى جليقية

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٨ .

وما يصاقبها ، ويشير الى ذلك صاحب الأخبار المجموعة اشارة فيها خطأ في تحديد التواريخ ولكنها تصور الحال تصويرا حسنا بقوله : « وغلظ أمر علج يقال له بلاى قد ذكرناه فى أول كتابنا ، فخرج من الصخرة ، وغلب على كورة (كلمة ناقصة) واسترس (خطأ من الناشر وصحتها أشتريس) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل أستورقة حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابة ، فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين (ومائة) هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخراج ، وقتل من قتل ، وصار فلهم الى خلف الجبل الى أستورقة حتى استحكم الجوع ، فأخرجوا أيضا المسلمين عن أستورقة ، وغيرها ، وانضم الناس الى ما وراء الدرب الآخر والى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين (٧٥٤ م) . واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت اجازتهم من واد بكورة شذونة يقال له وادى برباط ، فخف سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو الا أن الجوع شملهم » (١) . مما يفهم منه أن نصارى الأندلس استغلوا الفرصة استغلالا كاملا ، فلم يدعوا وسيلة يمكنهم أن ينالوا فيها من المسلمين الا ابتدروها ، ولو لم تشملهم هم الآخرين المجاعة لكان بلاؤهم فى المسلمين أشد وأبعد مدى .

١٤٠ — حدود دولة الإسلام تتراجع إلى نهر دويره

وتؤيد المراجع النصرانية ذلك بما تذكره من الفتوحات التى تنسبها الى أذفونش بن بطره ، وهى لا تذكر أنه وجد هذه النواحى خالية أو شبه خالية فدخلها ، وانما تذكر أنه فتحها على المسلمين بحد السيف وانتزعها من أيديهم ، وهذا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦١-٦٢ .

خطأ كما رأينا . وفى نصوص هذه المدونات النصرانية تفصيل لما أوجزه صاحب الأخبار المجموعة من قوله « فأخرجوا أيضا المسلمين عن أستورقة وغيرها » . لأن « غيرها » هذه كانت مدائن كثيرة لا تقل أهمية عن أستورقة مثل افراغه Praga وپورتو Oporto وفيزيو Visiu والنواحى المحيطة بهذه البلاد حتى نهر دويره Duero (١) . أما قول صاحب الأخبار المجموعة : « وانسحب المسلمون الى ما وراء الدرب الآخر » فمعناه انسحابهم عن طريق الدروب الشرقية المفضية الى حوض ابره واقليم سرقسطة الذى لم تنله المجاعة لخصبه ، وقد استطاع المسلمون الثبات أخيرا عند قورية وماردة فى الغرب مخلفين وراءهم مراكز هامة مثل ليون Leon وسمورة Zamora ولدسما Ledesma وشلمنقة Salamanca وسلدانيا Saldana وسيمانقاس Simancas وشقوبية Segovia وأبله Avila وأوكا Oca وأوسما Osma وميراندا (٢) . وكلها مراكز هامة فتحتها الجيوش الاسلامية بعد العناء والنصب وفقدها هؤلاء العرب والبربر بسبب منازعات قبلية عنصرية عمياء لا معنى لها . وأصبحت حدود الأندلس الاسلامى الشمالية قبيل مجىء

(١) DOZY, *Recherches* ..., I. p. 121
BALLESTEROS : *Historia* ..., II. p. 185

(٢) DOZY : *op. cit.* p. 123
وقد جعل المقرى فتح بعض هذه النواحى فى أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وفى عهد فرويلة الذى ابن أذفونش بن بطرة ، وقال : «وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره ، قوى أمر الجلالقة واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة بن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم ، فلك مدينة لكه وبرتقال وسموره وشلمنقة وقشتالة وشقوبية ، وصارت الجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبى عامر آخر الدولة ...» (نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٧) . ولكن إجماع المؤرخين منعقد على أن هذه المدائن سقطت فى أيدى النصارى فى أيام أذفونش .
انظر : BALLESTEROS : *op. cit.* II. p. 185

عبد الرحمن الداخل تبدأ من ناحية الشرق عند بنبلونة فى أقصى الشمال الشرقى ثم تنحدر الى تطيلة على الابره ومنها الى وادى الحجارة الى الشمال من طليطلة بين حوض الابره والتاجه ، ثم طليطلة وطلبيرة فى حوض التاجه ، ثم قورية وتنتهى الحدود عند قلمرية على ساحل المحيط الأخضر . أى أن الأندلس الاسلامى فقد ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل مقدم عبد الرحمن الداخل (١٣٨ هـ / ٧٥٦ م) .

وقد لاحظنا أن مؤرخينا الاسلاميين لا يؤيدون دوزى فى هذا الرأى الذى انتهى اليه من أن أذفونش أخذ هذه النواحى دون قتال مع المسلمين وأن هؤلاء انسحبوا منها قبـل اقترابه منها ، وهم يستعملون عبارة « أخرجهم منها » وهى واضحة الدلالة . وتفسير ذلك يسير ، وهو أن الذين هجروا النواحى بسبب المجاعة وحروب العرب والبربر كانوا جند المسلمين ورجال حامياتهم وغالبية المستقرين منهم فى هذه النواحى ، وقد بقيت خلف هؤلاء جمـاعات من المسـلمين معظمهم من البربر لم يستطيعوا الرحيل وأقاموا فى منازلهم خلف الدروب على رغم الخطر المحيط ، فاستقوى عليهم أذفونش حينما وجدهم دون حماية وأخرجهم مما كانوا قد استقروا فيه ، وقد بقيت من البربر رغم ذلك كله بقية فى بعض النواحى القاصـية ، وتكاثرت فيها وتركت أسماءها على بعض المواضع فى أقصى نواحى جليقية وأشتريس .

١٤٦ – ما بين نهرى المنهـو والدويره منطقة فـــراغ

وليس معنى ذلك أن مملكة أشتريس الناشئة اتسعت حتى شملت ذلك كله ، لأن الواقع أن أذفونش الأول لم يستول بالفعل الا على النـواحى المحيطة بأشتريس أى ناحيـة لنيبانا وبردوليا Vardulia وساحل جليقية ، وليس من المؤكد أنه احتل ليون . وأما الباقى وهو المساحة الواسعة الممتدة بين

حوضى المنهو والتاجه فكانت فى ذلك الحين أرض فضاء فاصلة بين اسپانيا الاسلامية فى الوسط والشرق والجنوب والغرب ودولة أشتريس النصرانية فى أقصى الشمال [١] .

وتؤيدنا المراجع النصرانية فى هذا القول لأنها لا تقول ان أذفونش استقر فى هذه البلاد الكثيرة التى تعددها ، وانما تكتفى بالقول بأنه خربها وأقفر أريافها (Eremavit campos) [٢] .

تذهب التواريخ الاسپانية الى أن أذفونش الأول حكم عشرين سنة امتدت من ٧٣٩ م الى ٧٥٧ م [٣] ، ويقرر ابن خلدون أنه لم يحكم الا ثمانى عشرة سنة ويجعلها من ١٣٥ هـ الى ١٤٢ هـ / ٧٥٣—٧٦٠ م وهو خطأ ظاهر فى الحساب ، والغالب أنه أراد أن يقول ثمانى سنوات فقط ، ونظن أن حكومة أذفونش لم تزد على هذه السنوات الثمان تبع للحساب الذى قدمناه . وتوفى فى أوائل حكم عبد الرحمن الداخل . فكأنما أرادت المقادير أن تتدارك المسلمين فى هذا القطر الواسع برجل يعيد اليهم ما فقدوا على يد أذفونش الأول [٤] .

(١) BALLESTEROS : *op. cit.* p. 185

(٢) MANUEL RISCO : *España Sagrada*, XXXVII. p. 93.

(٣) DOZY : *Recherches* ..., I, p. 95

(٤) انظر نص ابن خلدون الذى أورده دوزى ذيلا لأبحاثه :

DOZY, *op. cit.* appendice III p. XII.

وإليك قائمة ملوك أشتريس الأول وتواريخ حكمهم كما أوردتها المدونات اللاتينية مقارنة بما أورده ابن خلدون (ص ٩٥ من الأبحاث) :

المدونات اللاتينية	ابن خلدون
بلاى Pelayo ٧١٨–٧٣٧م	١١٤–١٣٣هـ/٧٣١–٧٥١م
فافلة Fafila ٧٣٧–٧٣٩م	١٣٣–١٣٥هـ/٧٥١–٧٥٣م
أذفونش بن بطرة Alfonso I ٧٣٩–٧٥٧م	١٣٥–١٤٢هـ/٧٥٣–٧٦٠م
فرويلة بن أذفونش Froila ٧٥٧–٧٦٨م	١٤٢–١٥٢هـ/٧٦٠–٧٦٩م
أورال بن فرويلة Aureiio ٧٦٨–٧٧٤م	١٥٢–١٥٨هـ/٧٦٩–٧٧٥م
شيلون Silon ٧٧٤–٧٨٣م	١٥٨–١٦٨هـ/٧٧٥–٧٨٥م
مورقاط Mauregatos ٧٨٣–٧٨٩م	١٦٨–١٧٥هـ/٧٨٥–٧٩٢م

١٤٧ – آراء المؤرخين فى أذفونش

وقد اختلفت أحكام المؤرخين الاسپان على أذفونش الأول، فمن قائل انه لم يكن الا رئيس عصابات يفجأ بها الأماكن الآمنة العامرة ويخربها ، ومن قائل انه لم يكن يرمى من وراء هذا الجهد كله الا الى السلب والنهب ، ومن قائل انه كان يسعى واعيا الى استرجاع اسپانيا من المسلمين . وربما كان أصح الآراء فيه أنه كان يغاور كل من جاوره طمعا فى الغنائم التى لم يكن ليستطيع تسيير أموره فى دولته بدونها ، وطمعا فى توسيع رقعة مملكته الصغيرة . أما القول بأنه كان يسعى لاسترجاع البلاد من المسلمين فمبالغة فى التقدير لا يؤيدها الواقع ، لأن الرجل كان يغاور جيرانه النصارى وينزل بهم من البلاء أشد مما أنزل بالمسلمين ، ثم انه — آخر الأمر — لم يلق المسلمين فى موقعة واحدة ولم يفكر فى السير الى نواحيهم ، وانما اقتصرت جهوده على النواحى الخالية التى لم يكن ليتوقع فيها مقاومة . ثم انه لم يحتل من البلاد التى خلت من أهلها المسلمين الا ما ذكرنا من نواحى أشتريس وليبانا وبردوليا ، أما الباقى فقد قام باخراج بقية المسلمين منه آهل البلاد من الايبيريين الرومان ، بعد أن أخرج المسلمون أنفسهم بأنفسهم منها .

ومهما يكن من الأمر فقد انتقلت دولة النصارى فى الشمال فى عصره من طور الى طور : اتسعت حدودها واطمأنت أمورها وابتعد عنها الخطر الاسلامى ، فأتيحت لها الفرصة للتكون والسير نحو القوة ، وأصبحت نواة صلبة لن يستطيع المسلمون القضاء عليها بعد ذلك ، بعد أن كانت قد قاربت الزوال خلال ولاية عتبة بن الحجاج السلولى ، قبيل الثورة البربرية المشئومة .

الى هنا نقف بهذه القطعة من تاريخ الولايات النصرانية الشمالية خلال عصر الولاة ، بعد أن حددنا الوضع السياسى العام فى شبه الجزيرة الايبيرية فى مطالع الامارة الأموية الأندلسية على يد صقر قريش.

الفصل التاسع

المجتمع الأندلسى - ١

العرب والبربر والموالى

دامت فترة الولاة ستة وأربعين عاما هجريا ، تبدأ من رجب سنة ٩٢هـ (ابريل — مايو ٧١١ م) وتنتهى فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٠ مايو سنة ٧٥٦ م) وهو اليوم الذى أعلنت فيه امارة عبد الرحمن ابن معاوية الداخل علـى الأندلس جميعه وولدت فيه الدولة الأموية الأندلسية . وقد جرت العادة بأن ينظر المؤرخون الى هذه الفترة على أنها فترة تمهيد قصيرة لا أهمية لها فى تاريخ الأندلس الاسلامى ، بل نظر اليها بعض المؤرخين على أنها فترة عابرة أنفقها العرب فى منازعات قبلية وعبث لا طائل تحته . ولعلنا رأينا فيما مر بنا من أحداثها أنها أهم من أن ينظر اليها هذا النظر السطحى ، لأن ما عبر بها من الأحداث كان له من النتائج البعيدة ما سنلاحظ أثره فى كل دور من أدوار تاريخ المسلمين فى شبه الجزيرة الأندلسية بعد ذلك ، فقد قام المسلمون خلال هـذه الفترة بأعظم جهود حربية قاموا بها فيما وراء البرتات خلال تاريخهم الطويل ، ووضعت فى أثنائها أسس النظم الادارية والمالية التى ستجرى الأمور بمقتضاها حتى قيام الخلافة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر فى أواخر سنة ٣١٦ هـ (أوائل سنة ٩٢٩ م) ، وفى خلالها أيضا ولدت الولايات النصرانية الاسپانية فى شمالى غربى الجزيرة وشمالها ، ونشأت كذلك عداوة العرب والبربر ، وكلها ظواهر تاريخية ذات آثار ومضاعفات تاريخية دائمة . وقد عرضنا لهذه الظاهرات كلا على حدة بحسب ما اقتضاه المقام ، وبقى أن نلقى نظرة عامة على الفترة كلها ، لنكون لأنفسنا فكرة صحيحة عن الأندلس الاسلامى فى فجر تاريخه

ا — العـــرب

١٤٨ – طالعة موسى

دخل العرب الأندلس على هيأة تيار متصـل لم تسجل المراجع من موجاته الا عددا قليلا تسميه « الطوالع » جمع طالعة ، وهى الجماعة من العرب الذين دخلوا الأندلس . وأول هـذه الطوالع طالعة موسى (١) ، لأن الجيش الذى أقبل مع طارق لم يكن يضم الا طائفة قليلة من العرب ، ورجاله على هذا لا يسمون بطالعة طارق. كانت طالعة موسى تضم نحو اثنى عشر ألفا من العرب ، معظمهم من القيسية واليمنية وموالى بنى أمية ومن لحق بهذه الطوائف الثلاث من البربر المنتمين الى موسى بن نصير ، وقد كانوا فى حكم العرب رغم أصلهم البربرى .

وقد استقرت هذه الطوائف فى كل ناحية على طول الطريق الذى سار فيه موسى ، أى فى نواحى الجزيرة الخضراء واشبيلية وسرقسطة وبعض نواح متفرقة فى أقصى الشمال والشمال الغربى ، فيما تسميه المراجع « ما وراء الدروب » . والأدلة كثيرة عن أن معظم اليمنيين استقروا فى ناحية سرقسطة ، وتناثرت جماعات منهم فى قرطبة وحواليها وفى اقليم اشبيلية ومرسية ، وكان القيسيون قلة فى هذه الطالعة استقر معظمهم فى نواحى الجنوب .

وحينما أقبل الحر بن يوسف الثقفى الى الأندلس فى ذى الحجة سنة ٩٧ هـ (أغسطس سنة ٧١٦ م) استصحب معه أربعمائة من « وجوه أهل افريقية » ، ويبدو أنهم كانوا نخبة عربية ممتازة لأن صاحب فتح

(١) المقرى : نفح ، ج ١ ، ص ١٤١–١٤٤ .

الأندلس يصفهم بأنهم كانوا « أول طوالع الأندلس المعدودين » ، ولما كان معظم عرب افريقية من اليمنيين ، فاننا نستطيع أن نقول ان معظم هذه الطالعة كانوا من اليمنيين ، ولما كان الحر قد قدم بهم ليشدوا أزره فقد أقاموا فى قرطبة وما حواليها [1] .

١٤٩ — طالعة بلج

وأهم هذه الطوالع — بعد طالعة موسى — هى طالعة بلج ابن بشر القيسى فى ذى القعــدة سنة ١٢٣ هـ (ينــاير سنة ٧٤١ م) الذين نجوا من مذبحة العرب فى موقعة الأشراف ، ولجأوا الى سبتة وتحصنوا بها حتى عبروا الى الأندلس فى ولاية عبد الملك بن قطن الفهرى الثانية على ما فصلناه ، وكان عدد هــذه الطالعة يقارب العشرة آلاف غالبيتهم العظمى من القيسيين .

١٥٠ — البلديون

ولما كان أهل الطوالع السابقة على طالعة بلج قد استقروا فى البلاد وتقسموا خير نواحيها فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أهل البلد وأصحابها ، وتسموا بالبلديين وكرهوا أن يقبل اليهم مثــل هذا العدد العظيم من الشآميين ويقاسمهم خيرات البلد بل يحاول أن يغلبهم عليها ، فنفروا من هجرتهم وانبروا ينازعونهم السيادة عــلى البــلاد .

١٥٢ — الشآميين

ومن تاريخ نزول بلج وجمــاعته القيسية بدأ النزاع بين اليمنية والقيسية فى الأندلس ، لأن الأقلية القيسية التى كانت هناك لم تلبث أن انضمت الى القيسية المقبلة بنازعة العصبية القبلية، وقد أظهرت هذه الجماعة القيسية من الشجاعة والنجدة ما مكنها من القضاء على ثورة البربر فى زمن قليل ، فارتفعت بمقدمهم أسهم القيسيين

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٣ .

وبدأ الصراع المحزن بين جذمى العرب الكبيرين ، واحتدمت نيران هذا الصراع بينهما خلال ولايتى بلج وثعلبة بن سلامة العاملى (ذو القعدة ١٢٣ هـ / يناير ٧٤١ م الى رجب ١٢٥ هـ / مايو ٧٤٣ م) لأن بلجا وثعلبة كانا من أعنف القيسيين .

انتزع بلج ومن معه من الشامية الولاية من اليمنيين ، وما زالوا بشيخ الأندلس اذ ذاك — عبد الملك بن قطن — حتى تخلصوا منه . ولم يكن عبد الملك يمنيا صرفا بل كان فهريا ينتسب الى مضر ، ولكنه كان يمثل البلديين ، فما زال الشاميون برئيسهم حتى قتله . ولما كان عبد الملك يمثل زعامة البلديين — ومعظمهم يمنيون — فقد ثارت اليمن على كلمة واحدة فى كل ناحية يتودهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمى « صاحب أربونة » أى حاكم الثغر الأعلى (اقليم سرقسطة وما يليه شمالا حتى أربونة) وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن فى ناحية ماردة .

« .. وحشدوا من أقصى أربونة وراجعوا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فاذا فرغوا كان لهم فى أهل البلد رأى »[1] ، وانضمت اليهم جماعة قليلة من اليمنيين كانت فى جيش بلج يتزعمها عبد الرحمن بن حبيب رأس العرب البلديين فى افريقية فيما بعد ، ونهضت هذه الجماعة كلها لتحارب القيسيين الدخلاء لتستعيد منهم الزعامة ولتخرجهم من البلاد جملة .

١٥٢ — النزاع بين البلديين والشآميين

وقد احتدم الصراع بين العرب فى شبه الجزيرة ، وينبغى أن ننبه الى أمر هام ، هو أن ما تلا ذلك من أدوار الصراع بين العرب لم يكن فى حقيقة الأمر صراعا خالصا بين كلب

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

وقيس بقدر ما كان صراعا بين عرب الأندلس القدماء (البلديين) والعرب الدخلاء الذين أخذوا يعرفون من ذلك الحين بالشآميين ، وهى تسمية دقيقة تدلنا على أنهم لم يكونوا قيسيين خالصين بل كانت فيهم قلة يمنية ، بل سيتطور وجه النزاع بعد قليل ، ولن يصبح مجرد صراع بين البلديين والشآميين بل صراعا بين حزبين كبيرين غالبية الأول من القيسية وغالبية الثانى من الكلبية ، وتنضم الى كل من الحزبين جماعات من طوائف متفرقة من العرب تميل بها مصالحها الخاصة الى هذا الحزب أو ذاك .

وقد بلغ هذا الصراع بين هذين الحزبين الكبيرين أقصاه فى شوال سنة ١٢٤ هـ / أغسطس سنة ٧٤٢ م ، حينما التقى رجالهما فى موقعة أقوه برطورة التى انتصر الشآميون فيها انتصارا حاسما وصارت اليهم قيادة الأندلس من ذلك الحين الى قيام الدولة الأموية ، ولم يرفع البلديون رأسهم من جديد الا بفضل عبد الرحمن الداخل وقيام دولته بعد ذلك بأربع عشرة سنة . ولما كانت غالبية الشآميين قيسية ، فان هذه الفترة كلها تعتبر فترة سيادة القيسية على الأندلس .

١٥٣ — سيادة الشآميين على الأندلس وأثرها

ولم ير الأندلس فترة هى أسوأ من هذه قبل وقوع الأزمة الكبرى التى تعرض أمر الاسلام خلالها للضياع مدى امارات محمد والمنذر وعبد الله ، لأن الشآميين أوقدوا البلد نارا ونشروا بين أهلها روحا من التقلقل والاضطراب لا سبب لها فى الواقع الا ما جُبل عليه القيسيون من ميل الى الفوضى واستهانة بالدماء واسراف فى الخصومة .

وقد بدأت هذه الفترة المظلمة بولاية ثعلبة بن سلامة العاملى (شوال ١٢٤ هـ/أغسطس ٧٤٢م) ، فقد كان قيسيا جافيا غليظا لا تكاد

تخالط خلقه رحمة أو رفق ، ومما رواه المؤرخون من أفاعيله هذه السوق التى أقامها عند « المصارة » لبيع أعدائه من العرب المغلوبين فى موقعة أقوه برطوره ، فيقول صاحب الأخبار المجموعة : « ولقد بلغنا أنه باع أشياخهم لمن ينقص بهم ، لقد قيل انه صاح على ابن الحسن — رجل كان بالأندلس من أهل المدينة — وعلى الحرث بن أسد — من جهينة من أهل المدينة — فقال : من يخسر على هذين الشيخين ؟ ! فقال قائل : أحدهما عندى بعشرة دنانير ! فقال الصائح : من ينقص ؟ فلم يزل يصيح : من ينقص ؟ حتى باع أحدهما بكلب والآخر بعود .. »(١) .

ولم ينقذ البلديين — واليمنيين خاصة — الا قدوم أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى واليا من قبل حنظلة بن صفوان عامل افريقية ، وكان الناس قد استغاثوا به وكتبوا اليه يقولون : « أعنا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل وخفنا العدو على ذرارينا » . فوصل أبو الخطار فى اللحظة المناسبة ، وأنقذ اليمنيين من الذل والفناء ، ورضيه عرب الأندلس جميعا ، ولهذا يسمى عسكره عسكر العافية (٢) .

١٥٤ — تفريق الشآمية فى النواحى

وقد بدأ أبو الخطار بدءا طيبا ، وأراد أن يستعين بآراء قوم ليسوا من اليمنية ولا من القيسية ، فاستشار أرطباس شيخ أهل الذمة ، وكان رجلا عاقلا مجربا كما سيجىء ، فأشار عليه بتفريق الشآميين فى النواحى ، لأن بقاءهم الى جواره فى العاصمة وضواحيها خطر على الحاكم والمحكومين ، فعمل على تفريقهم فى الكور التى لم يكن فيها من البلديين أحد ، وأنزلهم فى هذه النواحى مع أصحابها من أهل الذمة ، على أن يكون لهم ثلث الخراج وللدولة

(١ و ٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٤ .

الثلثان .ويبدو أنه وجد صعوبة فى اقناعهم بقبول ذلك ، لأنه اضطر الى اخراج ثلاثة من زعمائهم من البلاد هم : ثعلبة بن سلامة العاملى والوقاص بن عبد العزيز الكنانى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، لأنهم كانوا سبب فساد الأندلس ، ووكل بهم من أخرجهم من البلاد [١] . وأبى الباقون منهم بعد ذلك طاعة أمره ، فلم يزل أبو الخطار يلاطفهم حتى استأمنوا اليه وأقاموا معه ، وتوسع لهم فى البلاد ، فأنزل كل قوم على قدر منازلهم فى الشرق[٢] .

وقد فرقهم أبو الخطار على الكور على أساس لطيف : تخير لكل قوم ناحية تشبه من حيث المناظر والبيئة المحيطة بها الناحية التى أتوا منها من الشرق على النظام التالى :

جند مصر : فى كورة أكشونبة وباجه وبعض نواحى كورة تدمير .

جند الأردن : فى كورة ريه .

جند دمشق : فى كورة البيرة .

جند قنسرين : فى كورة جيان .

١٥٥ – خصومة القيسية واليمنية تعود

ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السيرة لدام السلام وعاد الى البلاد هدوءها ، ولكن أبا الخطار لم يلبث أن نبض فيه عرق اليمنية ، فمال الى قومه وحاباهم وأخذ يعسف القيسيين ، وكان من سوء حظه أن كان بين هؤلاء القيسيين رجل من طراز الصميل بن حاتم الذى أشرنا اليه ، وكان بدويا

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٠ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٣٦ .

جلفا من جند قنسرين ، وكانت اليه زعامة القيسية بعد اخراج زعمائهم الآخرين ، وبلغ من سلطانه على قومه أنهم كانوا يطيعونه فى كل ما يريد دون أن يسألوه السبب ودون أن تكون هناك حاجة ظاهرة الى ذلك . فلم يلبث أن تصدى لأبى الخطار ، وذهب اليه مرة يشكو اليه أمرا لحق يمنى ، فتعمد أبو الخطار الاسراف فى اهانته فلكز وشتم ، فخرج عنه، فأتى داره ، وبعث الى خيار قومه ، فشكا اليهم ما لقى ، فقالوا له : نحن لك تبع .. [١] .

هكذا ثارت نيران العصبية مرة أخرى : أثارها أبو الخطار بسوء سياسته والصميل بعنفه وبداوته وجهله ، وانقسمت البلاد حزبين من جديد ، وثارت بينهما حرب مخربة لم ينقذ مصير الاسلام فى الأندلس منها الا قدوم عبد الرحمن بن معاوية .

١٥٦ – تحول الصراع من القبلية إلى الحزبية

لم يكن هذان الحزبان الجديدان هما المضريين والقيسيين كما كان الحال قبل قدوم طالعة بلج ، ولم يكونا كذلك البلديين والشاميين كما كان الحال منذ دخول بلج الى مجىء أبى الخطار ، بل تكونا من جماعتين من القبائل ألفت بين عناصر كل منهما عوامل المصلحة وحب البقاء : ذلك أن أبا الخطار لم يعسف القيسيين كلهم ، فبقيت منهم جماعة الى جانبه تؤيده ، ولم ينصف اليمنيين كلهم فانضمت جماعة منهم الى الصميل ، ولا نستطيع أن نسمى هذين الحزبين الا بحزب أبى الخطار وحزب الصميل ، وان كانت اليمنية أغلب على الأول ، والقيسية أغلب على الثانى . واليك التكوين القبلى لكل من الحزبين — على قدر ما تعيننا المراجع على تصوره:

(١) أخبار مجموعة ، ص ٥٦ .

حزب أبى الخطار	حزب الصميل
طوائف من : جذام (يمن)	معظم قبائل : لخم (يمن)
فهر (عدنان)	جذام (يمن)
قضـاعة	قيس (عدنان)
جند حمص (خليط)	غطفان (قضاعة) [1]

أى أن الأمر لم يعد عصبية قبلية بل عصبية حزبية ، وربما عصبية موطن . فسنرى عند بياننا لمنازل القبائل العربية فى شبه الجزيرة أن هذه الجماعات التى تآلفت كانت متجاورة المواضع ، ولا يعزى انضواء بعض جند حمص الى حزب أبى الخطار الا الى أن اقليم حمص الذى كانوا فيه ، وهو اقليم اشبيلية ، كان يضم مواطن القبائل التى انضموا اليها .

وقد رشح الصميل بن حاتم ، وهو قيسى ، لرياسة حزبه رجلا من جذام ، أى من اليمن ، هو ثوابة بن سلمة الجذامى ، وهو ما كان ليفعل ذلك الا وقد تبين أن معظم المنضوين تحت رايته كانوا من اليمن . ثم اننا نستنتج من قبول القيسية الذين كانوا مع الصميل لذلك الوضع أن العصبية القبلية لم تعد المحرك الرئيسى لجماعات العرب ، بل عصبية المصلحة والموطن ، أى العصبية السياسية . وقد كان الصميل نفسه رجل سياسة ودهاء قبل أن يكون رجل قبائل : كان رجلا واقعيا لا يؤمن الا

(١) جاء فى الأخبار المجموعة أن الصميل بن حاتم عند ما قرر مخاصمة أبى الخطار قال لقومه : « والله ما أحب أن أعرضهم للقضاعية واليمانية ، ولكن اللطف ندعو بالله مرج راهط ، وندعو لخما وجذاما ، وندخل منهم رجلا نقدمه يكون له الاسم ولنا الخط . قال : فكتبوا إلى ثوابة ابن سلمة الجذامى وكان من أهل فلسطين ، ثم ساروا حتى وفدوا عليه فأجابهم ، وأجابتهم لخم وجذام ... » (ص ٥٦–٥٧) .

وانظر تعليق دوزى على هذا الوضع :

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, I pp. 175-177

بما ينفعه ، وربما كان خلقه هذا هو الذى أخرج الصراع من الميدان القبلى الصرف الى ميدان السياسة والمصالح .

وتولى حزب الصميل الحكم ، وقام ثوابة بن سلمة بالأمر ، ولم تطل مدة ولايته أكثر من عام ، وكاد الانشقاق يقع فى صفوف الحزب ، اذ تنازع الرياسة عمرو بن ثوابة ويحيى بن حريث ، ولـكن الصميل تدارك الأمر بذكائه واختار رجلا من محارب بن فهر ، أى من قريش الظواهر ، وكانت بطون قريش الظواهر كلها أشبه بالمحايدة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فكان اختيار الصميل لهذا المحاربى — وهو يوسف الفهرى — حسما للنزاع وارضاء للفريقين ، ودليلا على مهارته السياسية .

ومن دلائل غلبة الروح السياسية على عرب الأندلس خلال هذه الفترة الأخيرة من عصر الولاة أن الذين تحركوا لاستنقاذ أبى الخطار من سجنه لم يكونوا أهله من اليمن ، بل كانوا من قضاعة . وقضاعة على ما نعرف مشكوك فى موضعها من عدنان وقحطان ، فبعضهم يجعلها من العدنانية وبعضهم يجعلها من القحطانية ، وان كان الأخيرون أكثر : قامت جماعة من القضاعية قوامها مائتا راجـل وأربعون فارسا واختطفوا أبا الخطار وفروا به الى منازل بعض القبائل اليمنية بناحية اشبيلية ، وكان يقود أولئك القضاعيين عبد الرحمن بن نعيم الكلبى (يمن) فبدأ حزب أبى الخطار ينهض من جديد ، واشتد ساعده عندما أخطأ الصميل فعزل يحيى بن حريث شيخ لخم عن كورة ريه . فنفر يحيى بن حريث ومن تابعه من لخم وانضموا الى حزب أبى الخطار . وشيئا فشيئا انفصلت بقية القبائل اليمنية التى كانت فى حزب الصميل وانضمت الى أبى الخطار ، فلم يبق مع الصميل الا قيس . وهكذا وقف قيس وكلب مرة

أخرى وجها لوجه ، وهوى عرب الأندلس الى درك النزاع القبلى الخالص من جديد ، وانضم البلديون — ومعظمهم من يمن — الى الكلبية حزب أبى الخطار ، ووقف اليمنيون فى جانب والقيسيون فى جانب على النحو التالى :

اليمنيون يرأسهم ابن حريث

حمير + كندة + مذحج + قضاعة

القيسيون يرأسهم يوسف الفهرى والصميل

مضر + ربيعة

ومن غريب ما وقع أن أهل بعض القبائل المتجاورين الذين عاشوا الى ذلك الحين فى سلام ووئام ، جعل بعضهم يودع بعضا ثم يخرج كل منهم ليأخذ مكانه فى صفوف الجبهة التى سيقاتل فيها دون أن تكون لديه أى دوافع خاصة لهذا الخروج . وليس أنصع من هذا دليلا على أن العرب ظلوا ، رغم الاسلام ورغم ما نالوا من خبرة ، بدوا جاهليين فى أعماق نفوسهم لا يكاد اختلاف الأحوال والظروف يغير من طبعهم الأصيل شيئا[1] .

وقد سدر العرب فى هذا الصراع وكأنهم كانوا يعيشون وحدهم فى ذلك القطر ، أو كأن جماعاتهم فيه بلغت من الكثرة بحيث غطت على ما عداها . ولكن الواقع — وهذا أغرب ما فى الموضوع — أنهم لم يكونوا الا قلة بالنسبة لبقية سكان الجزيرة . وعلينا أن ندرس الآن

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٨–٥٩ .

توزيع القبائل العربية فى شبه الجزيرة فى هذه الفترة ، فلعل ذلك يعيننا على تفهم ذلك الوضع الذى يبدو من الغرابة بمكان .

١٥١ – تكاثر العرب فى الأندلس

واذا أخذنا بالمعلومات القليلة التى لدينا عن أعداد العرب الذين نزلوا الجزيرة لم نستطع أن نقدرهم الا ببضعة آلاف: فقد كانت طالعة موسى تضم ١٣ ألف وطالعة بلج ١٠ آلاف واصطحب الحر بن عبد الرحمن الثقفى معه أربعمائة ومجموع هؤلاء ٢٢٤٠٠ ، فاذا افترضنا أن بضعة آلاف آخرين دخلوا الجزيرة فرادى أو جماعات لم نستطع تقدير أعداد من دخلوا الجزيرة من صرحاء العرب بأكثر من ثلاثين ألفا . فاذا حسبنا من قتلوا فى حروب العصبيات ومن استشهدوا فى الفتوح وراء البرت تبينا أن بقية هذا العدد القليل لا يمكن أن تغمر شبه الجزيرة الواسع على هذه الصورة التى رأيناها .

بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن جميع العرب الذين دخلوا الجزيرة دخلوها رجالا بدون نساء ، ثم اتخذوا النساء من أهل البلاد ، وقد توسعوا فى ذلك ، فكثرت نساؤهم وكثر عيالهم أيضا . ولكى نعطى القارىء فكرة عن خصوبة أولئك الداخلين نذكر جانبا من نسل عبد الرحمن الداخل وبنيه ، وقد أحصاهم ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب . وقد اخترناهم لأنهم الوحيدون الذين لدينا احصاء بالأرقام عنهم وعن أولادهم وأعقابهم ، وينبغى أن نلاحظ أن ابن حزم لم يذكر الا الظاهرين من بنى أمية ، أى أنه ترك الخاملين ، والخاملون فى العادة أكثر أولادا ، وقد ترك كذلك ذكر الخلف من الاناث فى الغالب .

أعقب عبد الرحمن بن معاوية سبعة ذكور ، وهشام ابنه ستة ، والحكم الربضى ثمانية عشر ، وعبد الرحمن الأوسط مائة ولد ، منهم خمسون ذكرا وخمسون أنثى ، والأمير محمد نيفا وثلاثين ذكرا ، والأمير عبد الله أحد عشر ذكرا ، وعبد الرحمن الناصر أحد عشر ذكرا ... الى آخره (١) .

فاذا نحن أحصينا الذكور فقط تبينا أن ستة من رجال البيت الأموى أنجبوا ١٤٤ ولدا ذكرا ، أى بمتوسط ١٩ ولدا للواحد ، وذلك غير البنات . واذا اعتبرنا هذا العدد أعلى من الطبيعى ، لأن عبد الرحمن الأوسط أخل بالتوازن الطبيعى وجاوز الحد المألوف ، أمكننا الاجتزاء من ذلك العدد بعشرة لكل شخص ، وأمكننا أيضا أن نطبق نسبة التكاثر هذه على بقية العرب ، فقد كانوا جميعا فى سعة من النساء والعيش فى ذلك البلد الطيب الرخى .

ومعنى ذلك أن أولئك الثلاثين ألفا من العرب أصبحوا بعد عشرين سنة من دخول العرب الجزيرة ٣٠٠ ألف ، غير من انضم أو انتسب اليهم من مواليهم ممن أتى معهم من المشرق أو المغرب أو انضم اليهم من أهل البلاد .

وهذا التقدير لا يحل تلك المعضلة التاريخية حلا تاما ، ولكنه يجعلها أقرب الى المعقول والممكن . وربما زادت وضوحا اذا ذكرنا أن العرب انتشروا فى شبه الجزيرة انتشارا واسعا بحيث لم تخل منهم ناحية من

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (طبعة بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨) ، ص ٨٦-٩٣.

نواحى الشرق (من شماله الى جنوبه) والجنوب والوسط والغرب حتى نواحى قلمرية وشنترين وأشبونة. وقد كان العرب، رغم ما رأيناه فيهم من العنف فى خصوماتهم بين بعضهم البعض ورغم اعتزازهم بعصبهم العربى قوما يحسنون العشرة ، بعيدين ، كأفراد أو جماعات صغيرة ، عن نزعات السيادة والتعالى التى تمسك بها من سبقهم من الرومان والقوط. ثم ان مطامعهم فى أموال أهل البلاد المفتوحة كانت قليلة ، وسنرى عند دراستنا للناحية المالية ، أن الادارة العربية لم تكلف أهل البلاد شيئا ثقيلا . ومن ثم فقد كان العرب لا يحلون فى ناحية من نواحى الأندلس حتى تتصل العلاقات بينهم وبين من حولهم من أهل البلاد ، خاصة وأن العرب كانوا يعاهدونهم ويرتبطون معهم بأواصر القربى ، أى أنهم لم يكونوا سادة أو حكاما بقدر ما كانوا مساكنين أو معايشين ، فأمن اليهم الناس وأقبلوا عليهم ، واختلط الحيان ، وبدا وكأن العرب أكثر من عددهم الحقيقى .

١٥٨ – مراجعنا عن منازل العرب بالأندلس

ولدينا عن منازل العرب فى شبه الجزيرة معلومات طيبة فى معظم ما لدينا من المراجع ، وقد أورد المقرى فى نفح الطيب صفحات من « فرحة الأنفس » لمحمد بن أيوب ابن غالب الغرناطى من أهل القرن السادس الهجرى ، وأورد أبو محمد على بن حزم فى تضاعيف « جمهرة أنساب العرب » معلومات وبيانات مستفيضة عن منازل العرب فى الأندلس ، نستطيع اذا نحن جمعناها وأضفنا اليها ما لدينا من بيانات ابن غالب وغيره أن نحدد منازل العرب فى شىء كثير من الدقة ، بل نستطيع أن نرسم خريطة ديموجرافية لعرب الأندلس .

ومن الواضح أن معلومات ابن حزم وابن غالب لا تنصب فقط

على الفترة التى ندرسها ، وأن بعض من ذكرا من العرب دخلوا الجزيرة فيما بعد ، وخاصة أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام الرضى ، ولكننا نستطيع الأخذ بها دون التعرض لخطأ كثير ، لأن الذين دخلوا الأندلس بعد فترة الولاة لا يمكن أن يكونوا الا شيئا ضئيلا بالنسبة لمن دخلوها فى تلك الفترة . ثم ان الداخلين أيام الامارة الأموية كانوا يفدون فرادى أو فى جماعات صغيرة ، وكانوا فى الغالب ينزلون قرطبة أو يقصدون أهل قبائلهم فى النواحى ، أى أن دخولهم لم يغير الوضع العام ، وفى امكاننا أن نعتمد على تفصيلات ابن حزم وابن غالب فى شىء كثير من الاطمئنان .

وواضح مما بين أيدينا من النصوص أن جماعات العرب التى دخلت الأندلس كانت تضم أعدادا طيبة من فحول العرب ممن يمثلون الخصال الرئيسية الأصيلة لهذا الجنس خير تمثيل . وسواء نظرنا الى الأعمال الايجابية كعملية الفتح نفسها ومواصلة الفتوح فيما وراء الأندلس ، أو الى النشاط السلبى كحروب العصبية ومنافسات الرياسة ، فاننا تتبين هذه الفحولة العربية بصورة لا نجدها فيما يشبه الأندلس من حيث الوضع العام مما فتحه المسلمون من البلاد . وقد أشار الى ذلك المقرى بقوله : « فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الاسلام بالأندلس وتتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم الى الحلول بها ، فنزل بها من « جراثيم » العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، الى أن كان من أمرهم ما كان »[1] ... ، والمراد بـ « الجراثيم » هنـــا الأصـــول .

(١) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٧١ .

ويتفق ابن حزم وابن غالب وابن سعيد على أن هؤلاء الأعقاب الذين يشير اليهم المقرى كانوا كثيرين ، وأن هذه الكثرة لم تقتصر على فريق دون فريق : ففى الحديث عن المنتسبين الى محارب بن فهر (من قريش الظواهر) يقول ابن حـــزم — برواية المقرى — : « ولهـــم بالأندلس عدد وثروة ، وأما المنتسبون الى عموم كنانة فكثير ، وجلهم فى طليطلة وأعمالها »[1] . وفى الحديث عن تميم (مضر) يقول ابن غالب : « انهم خلق كثير بالأندلس »[2] ، وهكذا الأمر مع معظـــم القبائل التى يذكرها أولئك المؤرخون .

١٥٩ـ القحطانيون

وقد كانت جماعات اليمنية تفوق العدنانية كثرة عدد وسعة أقاليم ، قال المقرى فى الكلام عن القحطانية : « وهم الأكثر فى الأندلس ، والملك فيهم أرسخ الا ما كان من خلفاء بنى أمية ، فان القرشية قدمتهم على الفرقتين ... »[3] . ويقول ابن غالب : « ومن الأزد من ينتسب الى الأنصار على العموم ، وهم الجم الغفير بالأندلس . قال ابن سعيد : والعجيب أنك تعدم هـــذا النسب بالمدينة ، وتجد منه بالأندلس ما يشذ عن العدد كثرة . ولقد أخبرنى من سأل عن هـــذا النسب بالمدينة فلم يجد الا شيخا من الخزرج وعجوزا من الأزد »[4] ، وهى مبالغة من ذلك الداعيـــة الأندلسى البارع ، يخفف من غلوائها ما يصرح به ابن غالب أن من الأزد — أزد الأندلس — من يفضـــل الانتساب الى الأنصار ، لأن هذا الانتساب كانت له قيمته الاجتماعية

(١) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٢ .

(٢) نفس الموضع .

(٣) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ .

(٤) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ .

فى الأندلس ، ولهذا كان يلجأ اليه « الجم الغفير » من الأزد فيما نظن .

غير أننا عندما ننظر فيما لدينا من البيانات نلاحظ أن القبائل اليمنية التى نزلت الأندلس لم تكن تزيد على العدنانية هذه الزيادة التى تتحدث عنها النصوص ، فقد أحصينا مجموع ما ذكره ابن حزم وابن غالب وابن سعيد من هذه وتلك فكانت العدنانية ٤٢ قبيلة واليمن ٥٢ ، ولا تفسر الغالبية اليمنية الا على أحد وجهين : فاما أن تكون أعداد من دخلوا الأندلس من القبائل اليمنية أكثر بكثير من أعداد من دخلوا من القبائل العدنانية ، أو أن يكون « الجم الغفير » من العرب الداخلين قد زعموا لأنفسهم أنسابا أنصارية — ما بين أوس وخزرج — التماسا للمكانة والمنزلة ، وقد يكون الأمران قد حدثا معا .

واذا نحن أمعنا النظر فيما لدينا من البيانات عن منازل العرب فى الأندلس لاحظنا ما يلى :

١٦٠ — ملاحظات على منازل العرب فى الأندلس

١ — أن ما يقال من أن العرب اختصوا أنفسهم بأغنى نواحى الأندلس وتركوا للبربر النواحى القاحلة التى لا خير فيها غير صحيح ، فقد ترك العرب لغيرهم نواحى من أخصب ما فى الأندلس ، فقد تركوا مثلا أحواض الواديانة والتاجة ونهر شقورة (نهر مرسية) ونهر شقر (نهر بلنسية) والوادى الأبيض ووادى لكه وغيرها كثير ، ولم تكثر منازلهم بشكل واضح الا فى حوضى الوادى الكبير ووادى ابره الأوسط وفروعهما الكثيرة . بل هم لم يعمروا من وادى ابره الا النهر الرئيسى والفروع الجنوبية ، أما الشمالية فتركوها دون سكنى ، ونزل البربر فيما عدا ذلك كله . ولو أننا وازنا بين ما احتله العرب وما احتله البربر ، لوجدنا الكفتين متعادلتين تقريبا .

١٦١ — استقرار العرب على طول خطوط الفتح

٢ — ونستطيع أن نقول بصفة عامة أن العرب استقروا على طول خطوط الفتح الأول ، فنرى منازلهم تنتشر ابتداء من الجزيرة الخضراء ، وتملأ معظم المنطقة الواقعة جنوب نهر شنيل وحوض الوادى الكبير ، ثم تكثر بصورة ظاهرة فى اقليم اشبيلية ، وتستمر على طول الوادى الكبير وفروعه . وعند اقليم اشبيلية تنتشر منازل العرب فى نفس الاتجاه الذى سار فيه موسى ، وتكثر فى نواحى أونبة ولبلة وباجة ، وتتصل حتى بطليوس ثم نواحى طلبيرة وطليطلة فوادى الحجارة وقلعة أيوب ودروقة وحوض ابره الأوسط حول سرقسطة فى منطقة واسعة تشمل حوض نهير جَلّيَق Gallego ونهير الحَمّة Rio Alhama .

ومن أحواز قرطبة يمتد خط عربى آخر ، على طول طريق طارق بن زياد حتى طليطلة مارا بقلعة رباح .

ومن حوض الوادى الكبير انساح العرب شرقا ، فملأوا نواحى ما يعرف عادة بشرق الأندلس ، وهى نواحى بلنسية وتدمير (مرسية) ولقنت والمرية ومالقة . ويبدو أن هذا الامتداد متأخر قليلا عن عصر الولاة ، ولكنه لا يتعدى أيام هشام بن معاوية . لأننا سنجد الجماعات العربية التى استقرت بشرق الأندلس قد تأصلت فيه على أيام الحكم الربضى . وقد زحف العرب مع السهل الساحلى الشرقى حتى وصلت بعض جماعاتهم الى برشلونه ، فاستقرت فيها بطون من تجيب (كندة) .

٣ — أن واحدا من جذمى العرب الكبيرين (عدنان وقحطان) لم ينفرد بالسكنى فى ناحية بعينها الا فى قليل من المواضع ، بل الأغلب أن نجد قبائلهما متجاورة فى كل ناحية تقريبا .

١٦٢ – منازل العرب فى الأندلس ويمكن اجمال توزيع قبائل عدنان وقحطان فيما يلى :

أ – مواضع سكنتها مجموعات متساوية تقريبا من قحطان وعدنان :

عدنان	قحطان
اشبيلية ونواحيها	
مرة بن ذبيان – غطفان – عك – غافق – هوازن بن عكرمة .	هوازن – جذام – الأشعر – جزيلة ثوابة – بلى – لخم – مراد – لبَبَص الخيار بن مالك – الأنصار (١) .
البيرة وغرناطة	
خزيمة – أسد – مرة بن ذبيان – نمير بن مضر .	طيئ – همدان – غسان – الحضارمة (٢) .
وادى آش	
خويلد	سعد العشيرة
بطليوس	
زهرة	حضارمة

ب – مواضع غالبية من نزلها من قحطان (اليمنيون) :

عدنان	قحطان
سرقسطة ونواحيها	
	خزرج – عذرة – قضاعة – تجيب – كندة – جذام .
تدمير	
ربيعة	جذام – دوس – غافق – حضارمة

(١) كانت كتلة اليمنيين فى ناحية إشبيلية وغرب الأندلس أقوى مجموعاتهم وأكثرهم نظاماً ، وكان لها شيخ يرأسها هو «أبو الصباح» شيخ اليمانية فى غرب الأندلس ، ومسكنه قرية مورة من شرف إشبيلية (ابن القوطية ، ص ٢٠)

(٢) يؤيد كثرة اليمنيين فى إقليمى إلبيرة وجيان ابن القوطية بقوله : «ثم خاطبوا القحطانيين بالبيرة وجيان مثل جد بنى أضحى بالهمدانيين (يغلب أن هذا اسم قرية) وجد [بنى] حسان وبنى عمر أصحاب وادى آش الغسانيين ميسرة وقحطبة الطائيين بجيان» – ص ٢٢ .

عدنان	قحطان
ريه	
نهد	جزيلة – خزرج – ذو رعين –
مالقة	
خزيمة	حضارمة
شذونة	
كنانة	جزيلة – عرمرم – جذام
استجة ومورور	
غافق	لخم – خثعم
الجزيرة الخضراء	
كنانة	خولان – بنو عذرة – لخم – جذام

ج – مواضع غالبية من نزلها من عدنان :

عدنان	قحطان
جيان	
ملكان – مزينة – شوذر – ربيعة – غنم – أنوصى	بنو منخل – جذام – مرة – عنس (١) .
باجة ولبلة	
	عوف – زهرة (٢) .
أونبه	
خشين	سلرل – الطماح – مطروح
طليطلة	
الزبارقة (تميم) – باهلة – كنانة	الأنصار

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) جاء فى افتتاح الأندلس لابن القوطية : «وكانت الرياسة بلبلة لعبد الغفار ابن عم أبى الصباح ، وبباجه لابن عمه أيضاً عمرو بن طالوت وكلثم بن يحصب» (وكلهم يمن) .

د ـ مواضع لم يسكنها الا قحطانيون :

عدنان قحطان

قلعـــــة رباح

خزرج ـ جذام .

دلايـــــة

عذرة ـ قضاعة

قرية صالحة (قرب مالقة)

غســـــان

قلعـــــة خولان

خـــــولان

برشـــــلونة

تجيب

دار بلى (شمالى قرطبة)

بلى

ه ـ مواضع لم يسكنها الا عدنانيون :

عدنان قحطان

مدينة مرســـــية

ملكان ـ أقصى بن مضر

طلبـــــيرة

عـــــوف

بلنســـــية

هـــــوازن

وينبغى أن ننبه الى أن هذا الاحصاء تقريبى ، فقد اعتمدنا فيه على ابن حزم وابن غالب وابن سعيد وبعض مؤرخين آخرين وردت فى ثنايا كلامهم اشارات لمنازل العرب فى الأندلس . وقد أدخلنا قضاعة فى جملة

اليمن ، مع اختلاف النسابة فى جعلها من عدنان أو قحطان ، لأن الرأى الأغلب هو أنهم قحطانيون [١] . وينبغى أن نلاحظ أن معظم ملاحظات ابن غالب لا تشير الى المواضع ، فهو يقول مثلا : « ومن أهل الأندلس من ينتسب الى الأوس أخى الخزرج ، ومنهم من ينتسب الى غافق بن عك ابن عدثان بن أزان بن الأزد .. » [٢] .

٤ ـ أن هناك نواحى معينة حببت الى العرب سكناها ، فتكاثروا فيها . ونستطيع أن نعتبر هذه المواضع مراكز العروبة فى الأندلس ، فقد كانت هى المهاد التى تكاثروا فيها وانتشروا منها الى غيرها من النواحى . وقد ظل العنصر العربى غالبا على هذه النواحى حتى نهاية تاريخ المسلمين فى الأندلس ، وكانت الى نهاية القرن الخامس الهجرى نقط ارتكاز للاسلام الأندلسى ، ومن هذه المواضع قرطبة مثلا — ولم نذكرها فى الاحصاء السالف الذكر لأن العرب من كل قبيلة نزلوها ، بحيث لا تجد قبيلا عربيا الا كان منه فى قرطبة — واشبيلية ونواحيها . واستجة ورية وقبرة والجـزيرة الخضراء والبيرة وجيان ومالقة وتدمير وسرقسطة وشذونة وقرمونة ولبلة وباجة وأونبة .

٥ ـ ويقول المقرى : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ ، الى أن قطع ذلك المنصور بن أبى عامر ، الداهية الذى ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم وتعصبهم فى الاعتزاء » [٣] ، ومعنى ذلك أن كل قطعـة من العرب نزلت بناحية ظلت محتفظة بكيانها القبلى ، رغم تزاوجهم مع أهل

(١) وقد كان القضاعيون فى الأندلس يعتبرون أنفسهم من اليمن ، جاء فى الأخبار المجموعة : «فأصفقت يمن الأندلس ، حيرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها ، واحتازت مضر وربيعة إلى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل» (ص ٥٨) .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٣) المقرى : نفح ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

البلاد . وقد حافظت الدولة على هذا الكيان القبلى الى أيام المنصور ، لأن هذه القبائل كانت — كما سنرى عند كلامنا على التنظيم الادارى — أساسا من أسس تكوين الجيش الأندلسى ونظام الضرائب .

٦ — ويبدو أن الكثير من القبائل التى نزلت مواضع فى الريف بعيدة عن المدن اتخذت لأنفسها حصونا تعتصم بها ، وقد ظهرت أهمية هذه الحصون أثناء الفتنة التى شملت عهود الأمراء محمد والمنذر وعبد الله ، فقد تحولت الحصون والقلاع أثناءها الى مدن ظلت تحمل أسماء أصحابها ، ومثال ذلك حصن مراد (بين اشبيلية وقرطبة) وقلعة بنى سعيد (أو قلعة يحصب) فى اقليم غرناطة ، وقلعة خولان (بين الجزيرة الخضراء واشبيلية) .

ومنهم من أنشأ قرى كاملة ظلت تحمل أسماء أصحابها ، مثل منزل همدان (على ستة أميال من غرناطة) ومنزل طيىء (جنوبى مرسية) ودار بلىّ (شمالى قرطبة) وغيرها .

وكانت هذه المواطن العربية كلها فى دور التكوين خلال الفترة التى نتحدث عنها : كانت كِسَر القبائل الوافدة من المشرق تتجمع الى ذوى قرباها وتكون العصبيات التى لعبت الدور الخطير الذى فصلنا تاريخه . وسنرى فيما بعد أن قبائل العرب لم تغير مواضعها الا فى النادر ، وان كان كل مركز قد مد له فروعا فيما بعد وأنشأ مراكز أخرى تنتمى الى نفس الأصل .

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يدخلون الأندلس رجالا فقط ، ثم يتخذون النساء من أهل البلاد ، وعلى هذا فالأجيال الثانية من هؤلاء العرب جميعا لا يمكن أن يكونوا عربا من ناحية الدم ، بل ربما جاز اعتبارهم مولدين ، حتى البيت الأموى نفسه كان بيتا مولدا ، انما كانوا عربا بالاحساس والاتجاه واللغة الى حد كبير .

وبديهى أن أولئك جميعا لم يعودوا يتكلمون العربية فى حياتهم العادية بعد الجيل الثانى ، فقد غلبت عليهم فى المخاطبة والمعاملات لغة أهل البلاد ، اختلطت بها لغة العرب ونشأت عن ذلك « عجمية أهل الأندلس » أو « اللطينية » كما يسميها ابن حزم ، وقد بلغ من غلبة هذه «العجمية» أن ابن حزم يذكر جماعة من العرب بالذات فيقول : « داربلىّ بشمال قرطبة ، وهم هناك الى اليوم على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللطينية ، نساؤهم ورجالهم ، ويقرون الضيف ، ولا يأكلون الية الشاة الى اليوم ، ولهم دار أخرى بمورور » [1] ، مما يفهم منه أن كلام عرب الأندلس « باللطينية » كان أمرا عاما شذت عنه هذه القبيلة . وبطبيعة الحال لم يكن لسان عرب الأندلس قد استعجم بعد فى فترة الولاة ، ولكن العملية كانت قد بدأت على أى حال [2] .

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ .

(٢) اعتمدنا فى هذه المعلومات ، كما أشرنا آنفاً على :

جمهرة أنساب العرب لابن حزم (نشر ليڤى پروڤنسال) ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

ابن غالب : فرحة الأنفس ، مقتطفات أوردها المقرى فى نفح الطيب (القاهرة ١٩٤٩) جـ ١ ، ص ٢٧١–٢٧٩ .

ابن سعيد : مقتطفات من المغرب فى الأغلب ، أوردها المقرى فى نفح الطيب ، نفس الجزء والصفحات السابقة .

المقرى : نفح الطيب ، ملاحظات للمؤلف فى نفس الصفحات .

الأخبار المجموعة : طبعة لافوينتى إى ألكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة جايانجوس وساڤيدرا وكوديرا ، مدريد ١٩٢٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، طبعة ليڤى پروڤنسال وكولان ، لايدن ١٩٤٧ .

LÉVI-PROVENÇAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane* (2e. éd. vol. I, Paris 1951) pp. 71 Spp.

ELIAS TERES : *Linajes Arabes en Al-Andalus*, Segun la "*Jamhara*" de Ibn Hasin, Al-Andalus vol. XXII fasc. 1 pp. 55-113.

ب – البربر

١٦٣ – تيار الهجرة البربرية إلى الأندلس

من الواضح أن أعداد من اشترك من البربر فى فتح الأندلس وفى فتوح غالة كانت تزيد على أعداد العرب أضعافا ، وأن هذه الأعداد لم تقتصر على من اشترك فى الجيوش الغازية ، اذ أن تيارا من الهجرة البربرية اتصل واستمر عقب الفتح مباشرة ، وأن شبه الجزيرة لم يلبث أن امتلأ بهؤلاء المهاجرين . قال المقرى فى نفح الطيب : « وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق ، وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق » (١) .

وبين أيدينا نص يؤيد غلبة البربر على العرب أول الأمر ، لا من حيث العدد فقط ، بل من حيث القوة أيضا ، قال ابن القوطية بعد فراغه من أخبار عبد العزيز بن موسى : « ومكثوا سنين لا يجمعهم وال ، الا أن البربر قدموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى ابن نصير » مما يدل على أن البربر هم الذين اختاروا ثانى ولاة الأندلس ، وقد رضى به بقية مسلمى الجزيرة وظل فى الولاية حتى ولى الحر بن عبد الرحمن الثقفى . ولو لم يكن البربر غالبين على الأمر فى الأندلس حينذاك لما استطاعوا تولية وال يرضاه جميع المسلمين (٢).

وقد أمدنا ابن حزم فى الجمهرة بمعلومات غاية فى الأهمية تلقى ضوءا على الهجرة البربرية الى الأندلس . ومن الواضح أن كلام ابن حزم يتعلق بمنازل البربر فى الأندلس على أيامه ، ولكننا نستطيع بمقارنة هذه المعلومات بما لدينا من أخبار فترة الولاة أن تتبين مَن من أولئك البربر نزل الأندلس فى ذلك الزمن المتقدم .

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٣–١٤ .

وينبغى أن نلاحظ أن التحديد فيما يتصل بالبربر أعسر منه فيما يتصل بالعرب ، لأن الهجرات العربية الكبيرة انتهت بنهاية عصر الولاة ، فلم يفد منهم على الأندلس بعد ذلك الا أفراد أو بيوت أو جماعات قليلة ، أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلا ، بحكم الجوار أولا ، وبحكم الجاذبية الخاصة التى كانت لشبه الجزيرة الأندلسية على بربر الشمال الافريقى ثانيا ، ولأسباب سياسية ثالثا . ومن ثم فان القطع بشىء فى هذه الناحية لا يخلو من مجازفة ، وكل ما سنذكره فيما يتصل بمنازل البربر خلال عصر الولاة ينبغى أن يؤخذ بحذر .

١٦٤ – جماعات البربر الأولى

يذهب ابن خلدون الى أن جموع البربر التى دخلت الأندلس مع الفتح وبعده بقليل كانت من قبائل مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة (١) ، وهذه القبائل كلها من زناتة أى من البربر البتر ، وكل منها أشبه بالشعب الكبير الذى تتفرع عنه القبائل الصغيرة ، وكانت بطونها متفرقة فى نواحى المغرب ، ولكن كتلة هوارة ونفوسة كانت منتشرة على سواحل البحر الأبيض من حدود مصر الى طرابلس ، أما مديونة فكانت منازلها على ساحل البحر من نواحى المغرب الأوسط الى سبتة ، ومطغرة كانت تحتل اقليم طنجة وتمتد على ساحل المحيط الأطلسى . ومن هذه الأصول الأربعة كان جيش طارق بن زياد ، وكانت الأعداد البربرية التى أتت عقيب الفتح وشاركت فى اتمامه وفى فتوح غالة . ويضيف ابن حزم اليها نفزة ، وهم أولاد نفزاو أكبر أبناء لاوى الأكبر جد اللواتيين جميعا . ونفزة قبيل ضخم لا يقل عن مطغرة وهوارة ونفوسة ومديونة ، ويذكر أيضا مغيلة وملزوزة وهما بطنان صغيران من بطون البتر ينتسبان الى ضَرِىّ بن مادغيس آخى لاوى الكبير ، ومعنى ذلك أن أولئك البربر الذين دخلوا الأندلس

(١) ابن خلدون ، طبعة بولاق ، ج ٦ ، ص ١٠٦ وما يليها .

أول الأمر كانوا جميعا بترا ، وفيهم زناتية مثل مكناسة والباقى من بطون بترية أخرى .

ولم يكن البربر اذ ذاك يقسمون أنفسهم هذا التقسيم الحاد الى بتر وبرانس ، لأن ذلك ظهر فيما بعد ، عندما سرت عدوى العصبية القبلية من العرب الى البربر ، وعندما بدأ البربر يستقلون بأنفسهم ويقيمون الدول معتزين بالعصبيات والأصول : بدأت ذلك صنهاجة من البرانس ثم تلتها زناتة من البتر . أما فى الفترة التى نحن فيها ، فلم يكونوا جميعا الا بربرا الى جوار العرب . وتدل الدلائل على أنه كانت فيهم جماعات مصمودية ، فيحدثنا صاحب « فتح الأندلس » أنه كان يرأس جماعة البربر بتاكرنا « فى جبال رندة » زعيم يسمى عبد الرحمن بن عوسجة [١] ، وهو جد بنى عوسجة المصموديين (من البتر أى البرانس) الذين كثروا فيما بعد فى الأندلس وعمروا نواحى جنوب شنتبرية الغرب ، حتى صارت تسمى « بلاد عوسجة » ، واليه أيضا ينسب دانس بن عوسجة الذى أنشأ قصر أبى دانس Alcocer de Sal على مقربة من قلنبيرة Colenbeira [٢] فى البرتغال الحالية . ويذكر ابن القوطية أن رئيس بربر ناحية مورور أثناء دخول عبد الرحمن بن معاوية كان ابراهيم ابن شجرة [٣] ، وهو من المصامدة . ويذكر ابن القوطية أيضا أن جماعة من الهواريين نزلت خلال عصر الولاة على مقربة من جيان ، والهواريون مختلف فى نسبهم ، فهم من البتر حينا ومن البرانس حينا ، كما يختلف العرب فى نسبة قضاعة [٤] .

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٣ .
(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٤٦٥ .
(٣) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٥٣ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

وقد ذهب سيزار دوبلر فى بحث قيم عن « منازل البربر فى الأندلس » يبحث عن أسماء المواضع الاسپانية التى يمكن ردها الى أصل بربرى ، واستنتج من هذه الأسماء أن البربر لابد أن يكونوا قد سكنوها وأعطوها أسماءهم . واستطاع بذلك اكتشاف الكثير من منازل البربر مما لم يسجله المؤرخون ، ولا نستطيع القطع بأن هذه المنازل ترجع الى عصر الولاة ، لأن تيار البربر لم ينقطع عن الأندلس طوال العصور الاسلامية ، ولكننا نستطيع القول بأن المواضع التى ذكرها دوبلر فى أقصى الشرق أو فى الشمال أو قاصية الغرب يمكن اعتبارها منازل قديمة ترجع الى عصر الفتح الأول ، لأن البربر الذين نزلوا الأندلس ابتداء من عصر الناصر كانوا يستقرون فى الجنوب والوسط والشرق ، دون أن يستقروا فى أماكن متطرفة كانت فى ذلك الحين ميدان حرب . واعتمادا على ذلك يمكن القول بأن مواضع مثل التالية يمكن اعتبارها من منازل البربر الأول فى الأندلس :

Villa Nova de Curem فى البرتغال الحالية نسبة الى بربر وهران .

Tunis فى البرتغال الحالية نسبة الى بربر تونس .

Alquerubim فى البرتغال الحالية نسبة الى بربر القيروان .

Arzila فى البرتغال الحالية نسبة الى بربر أرزيلا ، وهى أصيلا .

Adzenata فى الشرق على مقربة من قسطليون Castellon نسبة الى زناتة

Sanet أو Senet قرب لاردة نسبة الى زناتة .

Benisanet قرب طركونة نسبة الى زناتة .

Butsenit قرب لاردة نسبة الى زناتة .

Barasal قرب جواردا فى البرتغال نسبة الى بنى برزال (زناتة) .

Mequinenza فى الثغر الأعلى عند ملتقى الابره بنهيره الأشقر (Segre) نسبة الى مكناسة .

Ceneja قرب قسطليون نسبة الى صنهاجة .

Cenija ضاحية من ضواحى سرقسطة نسبة الى صنهاجة .
Azinhaga فى البرتغال نسبة الى صنهاجة .
Cotanes قرب بلد الوليد نسبة الى كتامة .
Cotanillos حى من أحياء شقوبية نسبة الى كتامة .
Cotimos و Alcoutim فى البرتغال نسبة الى كتامة .
Benigomar بناحية انكا نسبة الى غمارة .
Gómara بناحية صورية Soria نسبة الى غمارة .
Gomeriz و Gomeris فى جليقية نسبة الى غمارة .
Albornos بناحية آبله نسبة الى البرانس .
وغير ذلك كثير [١] .

وقد ذكرنا هذه المواضع على سبيل المثال لا على سبيل الحصر لنستنتج أن البربر انتشروا منذ العصر الأول فى نواحى شبه الجزيرة كلها . وقد اكتفينا بذكر المواضع المتطرفة فى أقصى الشمال الشرقى والشمال والغرب وتركنا غير ذلك من مواضع الوسط والجنوب والجنوب الشرقى والجنوب الغربى ، اذ لا تكاد تخلو ناحية من هذه النواحى أو مدينة من مدنها من منازل بربرية . ثم اننا — كما قلنا — لا نستطيع القطع بأن البربر نزلوا مواضع الجنوب والوسط والجنوب الشرقى والجنوب الغربى من أول الأمر [٢] .

(١) انظر :
CÉSAR E. DUBLER: *Ueber Berbersiedlungen auf der Iberischen Halbinsel* وقد نشره فى SACHE und ORT, *Festschrift Jakob Jud* ، وهو عدد من "*Romanica Helvetica*" Band 20, pp. 183-203. Zuerich. Genf. 1942 والنقد الذى كتبه J. OLIVER ASIN فى مجلة الأندلس . العدد الأول سنة ١٩٤٣ ، ص ٢٦٢–٢٦٧ .

(٢) ودليل ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة حيث يقول فى كلامه عن الصراع بين العرب والبربر فى الأندلس : «وكانت قد رأست البربر على أنفسها ابن [بياض الأصل] وحشدوا من جليقية وأستورقة وماردة وقورية وطلبيرة ، فأقبلوا فى شىء لا يحصيه عدد حتى أجازوا نهرا يقال له تاجه» (ص ٤٠) وهى عبارة تدل على أن جماعات البربر فى النواحى التى ذكرها كانت كثيرة قبل =

بيد أننا نستطيع القول بأن المواضع التى قامت فيها امارات بربرية فيما بعد أو التى ولى عليها أمراء بنى أمية وخلفاؤهم ولاة من البربر كانت منازل بربرية من قديم الزمان ، لأن الأمراء لا يولون أميرا بربريا على ناحية معظم سكانها عرب أو من أهل البلاد . ومن غير الممكن كذلك أن تقوم امارة بربرية فى ناحية لا يغلب على سكانها العنصر البربرى ، لأن حكم هذه النواحى كان لا يقوم الا على عزوة وعصب متأصلين .

١٦٥ – البربر فى الثغور

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفسر البيانات التى يقدمها ابن حزم فى كلامه على « بيوتات البربر فى الأندلس » فى جمهرة أنساب العرب عن أصول البربر ومنازلهم ، مثل قوله :

أمراء الثغر [١] :

بنو هذيل	من مديونة	
بنو عبدوس	من سَرتَة	من ناحية صَدِّينه
بنو غزلون	من تيروال	
بنو عميرة	من ألهاصة من نفزة	من ناحية شاطبة
بنورزين	من مديونة	السهلة
بنو ذى النون	من هوارة	وبذة
بنو فَرَ:فَرَن .	من هوارة	ماردة ومِدلِّين
بنو نبيه وبنو الأخطل		شذونة
بنو الفرج	من مصمودة	وادى الحجارة
بنو مضى	من مصمودة	قصر مضى

= هذه الفتنة حتى استطاعوا أن يحشدوا منها أعدادا لا تحصى . وقد هجر الكثير من اولئك البربر مواضعهم بعد ذلك على ما فصلناه ، ولكن بقيت منهم فى كل من هذه النواحى جماعات قليله . أما فى نواحى طلبيرة وماردة وقورية فقد ظلت جماعات كثيرة منها على طول العصور الإسلامية .

(١) يلاحظ ان الكثير من المواضع التى سيذكرها ليس من الثغر .

بنو رسين	من مصمودة	
بنو زروال	من مغيلة	المتنانية
بنو الياس	من مغيلة	شذونة
بنو عزون	من زناتة	شنتبرية

فهؤلاء جميعا كانوا أمراء على نواحيهم مما يدل على كثرة بربرية فيها ، ثم ان وصفه لهم بأنهم « أمراء الثغر » يدل على أن معظم أمراء الثغر كانوا من البربر ، أى أن معظم النواحى الشمالية كانت منازل للبربر . وعندما نذكر ما قلناه عن مونوسة الذى كان والى الثغر كله من حدود البرت الى المحيط ، تتأكد لدينا هذه الحقيقة . أضف الى ذلك آن مجموعة منازل البربر التى ذكرها ابن حزم تكون خطا واحدا يبدأ من نواحى جبال البرت عند لاردة ووشقة ثم ينحدر الى ناحية مدينة سالم (قاعدة الثغر الأوسط فيما بعد) فقد نزلها بنو سالم من البرانس وأعطوها اسمهم ، وسكن الى جوارهم بنو الفرج وبنو عوسجة . وفى الدائرة الواسعة التى تحيط بمدينة سالم والتى تضم شنتبرية والسهلة ووادى الحجارة نجد كتلة بربرية ضخمة تعمر هذه النواحى كلها الى أحواز طليطلة،وهذه الكتلة تتكون من بنى الفرج وبنى سالم وبنى عوسجة وبنى صبرون بن شبيب وآل وهب بن عامر الهواريين ، وكل هؤلاء من البرانس ، ثم بنى عزون وبنى بلال وبنى نعمان وكلهم من البتر . وتمتد هذه الكتلة البربرية شرقا فتشمل تيروال حيث نزل بنو غزلون وناحية البونت حيث نزل بنو قاسم ، ثم تتصل هذه السلسلة البربرية ، بناء على البيانات التى يقدمها صاحب الأخبار المجموعة ، فتشمل مناطق طلبيرة (جنوبى طليطلة) وماردة وقورية بين التاجه والدويره ثم تصل الى ساحل المحيط عند قلنبيرة حيث نجد فرعا من بنى عوسجة وبنى

دانس عند قصر أبى دانس . ويذكر ابن حزم فرعا من بنى الفرج استقروا فى طرسونة أى فيما يلى جبال البرت من نواحى غالة ، وهذه الجماعة ان هى الا بقية من البربر الذين كانوا يعمرون النواحى القصية من الأندلس والذين كانوا يمتدون بحذاء خليج بسكاية ويعمرون حوض نهر المنيو ويتوغلون فى جليقية ، وقد اكتشف سيزار دوبلر — كما رأينا — مواضع ذات أسماء بربرية كثيرة فى هذه النواحى القاصية .

وقد رأينا فى كلامنا عن البربر والعرب كيف انسحب معظم البربر الذين كانوا يعمرون « ما وراء الدروب » أى شمالى نهر الدويره الى الجنوب وعاد بعضهم الى افريقية ، ورأينا كيف أن جموعهم أزعجت العرب واضطرت عبد الملك بن قطن الى السماح لجند بلج بدخول الأندلس لينقذوا من فيه من العرب ، ولولا أن أعداد أولئك البربر كانت كثيرة جدا لما أفزعت العرب الى هذا الحد . ومعنى هذا أن ما يلى نهر دويره شمالا والحوض الأعلى لنهر ابره ثم ما بين نهر الدويره وتاجه، هذه النواحى الفسيحة كلها كانت عامرة بالبربر وكانت لهذا دار اسلام فى ذلك الوقت المبكر ، ولم يخرجها من بلاد الاسلام ويجعلها بلادا نصرانية أو بلادا خلاء مفتوحة للامتداد النصرانى من الشمال ، الا هذه الفتنة العمياء التى وقعت بين شعبى الاسلام الكبيرين اللذين فتحا هذا البلد وأدخلاه فى نطاق الدولة الاسلامية الواسعة [١] .

والأدلة كثيرة على أن البربر الذين دخلوا الجزيرة أول الأمر اختلطوا بعرب الطالعة الأولى المسمَّين بالبلديين وأصبحوا معهم حزبا واحدا لا فرق فيه بين عربى أو بربرى ، بل كان الجانبان البا واحدا

(١) هذه البيانات مستقاة من «جمهرة» ابن حزم ، ص ٤٦١–٤٦٧ . وعبارة «الأخبار المجموعة» التى أشرنا إليها واردة فى ص ٤٠ وقد أوردناها بنصها فيما سبق .

على الشآميين أو عرب الطالعة الثانية . قال ابن القوطية فى « افتتاح الأندلس » : « وتولى أمر قرطبة والشآميين والأمويين ثعلبة ابن سلامة العاملى ، وانصرف عبد الرحمن بن علقمة الى الثغر ؛ وبقى عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشآميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهرى ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا » (١) . وقال فى خبر ولاية أبى الخطار : « فلما أشرف من فج المائدة والحرب قائمة بين الشآميين والأمويين وبين البلديين والبربر ونظر الفريقان الى اللواء خلوا الحرب .. » (٢) . وقال بعد ذلك : « فقال أهل البلد والبربر : سمعنا وأطعنا ، ولكن لا محل فينا لهؤلاء الشآميين فيخرجوا عنا » (٣) . وقال بعد خبر تفريق الشآميين فى الكور : « وبقى البلديون والبربر على غنائمهم لم ينتقصهم شىء » (٤) . وقد ظل هذا الحلف بين البلديين والبربر قائما حتى نهاية عصر الولاة ، بل ان « الموالى » أنفسهم — وسنتحدث عنهم — كانوا ينقسمون قسمين : البلديين والبربر فى ناحية والشاميين فى ناحية أخرى ، وكانت الصدارة بين الموالى للشاميين منهم .

ويؤيد صاحب الأخبار المجموعة ما قلناه عن اتحاد العرب البلديين مع البربر بقوله فى سياق الحديث عن الصراع بين بلج وأصحابه والعرب البلديين : « فبيناه محصورا قد نزل أهل البلد من البربر والعرب وجلهم

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٩ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

البربر على ماردة اذ حضرهم عيد فطر أو أضحى » (١) ثم يقول بعد ذلك : « فجمع له أهل البلد — العرب والبربر — جمعا » (٢)

١٦٦ – هل اختص العرب أنفسهم بأحسن نواحى الأندلس؟

وقد كثر كلام المؤرخين المحدثين فى أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن نواحى الأندلس ، فلم يتركوا للبربر الا النواحى الجبلية أو القاحلة أو القصية فى الشمال ، وأن ذلك كان من أكبر أسباب الثورة البربرية . ولكننا رأينا فى كلامنا على هذه الثورة أن الذى أغضب البربر لم يكن احتجان العرب لأحسن المواضع ، وانما لسوء سياسة العرب جملة ، فقد تخاصم العرب فيما بين بعضهم وبعض بسبب سوء هذه السياسة لا بسبب انفراد فريق منهم دون آخر بخيرات البلاد . ذلك أن شبه الجزيرة الايبيرية فسيح يتسع لأضعاف من نزل هناك من العرب والبربر معا . ثم ان العرب لم يختاروا مواضعهم ، فهم لم يدرسوا شبه الجزيرة ويتبينوا الطيب من أرضها وغير الطيب ، ولكنهم استقروا حيث شاءت لهم المقادير على طول خطوط الفتح ، أى فى النواحى التى عرفوها لأول دخولهم البلاد . وقد فرق أبو الخطار عددا عظيما من الشآميين فى الكور ، التى عرفت فيما بعد بالكور المجندة ، واختار لهم هذه الكور بنفسه ، أى أن الذين نزلوا لم يختاروها هم بأنفسهم ، أى أن العرب لم يكونوا يتخيرون بل كان استقرارهم فى الغالب نتيجة مصادفات ؛ فقد رأينا مثلا كثرة العرب وتزاحمهم فى منطقة جيان ، والسبب فى ذلك واضح يفسره قول ابن الخطيب فى كلامه عن فتح جيان والبيرة ومالقة ان طارقا « سار فى معظم الناس الى كورة جيان يريد

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

طليطلة »[1] . فلو لم يكن « معظم الناس » قد مروا بهذه الناحية لما كثر العرب فيها ، ولو أن العرب مروا أول الأمر بناحية قطلونية ورأوا خصب أراضيها لتزاحموا فيها ، ولكن لم يعرفها منهم الا القليل فى زمن متأخر فظلت شبه خلاء منهم ، لم يسكنها الا جماعة من تجيب ، وقد أشرنا الى ذلك .

ولدينا دليل واضح على أن العرب الأول لم يختصوا أنفسهم دون البربر بأحسن الأرضين ، وهو أن عرب الطالعة الأولى ، طالعة موسى ، كانوا دائما أحلافا للبربر على الشآميين لأنهم تقاسموا معهم ما نزلوا به من البلاد ، وساءهم جميعا — عربا وبربرا — أن يحاول الشآميون مشاركتهم فى هـذه الأراضى فنفروا يدافعونهم عنها ، واشـتدت الخصومة بين الجانبين .

وحقيقة الأمر أن المسلمين الأول الذين دخلوا البلاد ، عربا وبربرا ، استقروا حيث نزلوا أو ساروا ، ولجأ كل فريق منهـم الى ما يناسب مزاجه من النواحى : فأما العرب فكانوا يفضلون دائما البسـائط والمنخفضات والنواحى الدافئة والقليلة المطر فى الجنوب والشرق والغرب وناحية سرقسطة ، وأما البربر فكانوا فى بلادهم يعيشون فى بلاد جبلية عالية ، فألفوا مثل هذه البلاد فى الأندلس ، فاستقروا فيها باختيارهم . ففى الجنوب مثلا استقر العرب فى شذونة واستجة ، واختار البربر منطقة رندة الجبلية فسكنوها ، وسميت تاكرنا باسم بعض قبائلهم ،

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، ج ١ ، ص ١٠٧ . وقد نسب ابن الخطيب فتح هذه الناحية أول الأمر إلى طارق ثم عاد فصحح ذلك فى نفس الصفحة فقال إن هناك من يقول إن ذلك الفتح تم فى أيام موسى بن نصير سنة ٩٣ على يد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته على ما قلناه .

وأعجبتهم نواحى قبرة ومورور وأشونة فنزلوها واختلطوا مع العرب فى بقية نواحى الجنوب . ثم ان جماعات من البربر أحبت الانفراد بنواح يكونون فيها مستقلين ، على مثل أحوالهم فى بلادهم الأولى فى افريقية، فاستقروا فيما بين نهرى دويره وتاجه ، وهى نواحى هضاب مرتفعة تناسبهم من كل وجه .

١٦٧ – تحول البربر إلى بلديين وأثره

استقر البربر اذن الى جانب العرب فى بعض النواحى ، ومنفردين بأنفسهم فى نواح أخـرى ، واختلطوا فى كل ناحية بالأهلين وارتبطوا معهم بروابط الزواج وتحولوا مع الزمن الى « بلديين » أى أندلسيين . وقد كان لهؤلاء البربر أثر عظيم جدا فى انتشار الاسلام فى الأندلس ، فان البربرى قريب جدا من حيث المزاج والطبع — والأصل أيضا — من أهل البـلاد الأصليين ، وخاصة أولئك الذين كانوا يعمـرون الأرياف منهـم ، فامتزجوا بهم دون تكلف . ثم ان البربر لم يعرفوا عصبية الجنس التى أفسدت على العرب الكثير من أمورهم ، وكانوا شـديدى الحماس للاسلام ، فقد كان الاسلام بالنسبة لهم رمز سيادة ، فأظهروا العصبية له ، واجتهدوا فى نشره ، وأعانهم على ذلك أنهم بطبعهم جنس متدين شديد التعلق بعقيدته ، فلا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الجماعات البربرية التى انبثت فى نواحى البلاد من أكبر العوامل فى تحول أهلها الى الاسلام . ولو درسنا طبيعة الاسلام الأندلسى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى على الأقل ، لتبينا أنها تشبه طبيعة الاسلام المغربى عامة من حيث التمسك الحرفى بأهداب العقيدة والتزام مذهب واحد والتعصب له ، والحرص على تبجيل رجال الدين ، والمتصوفين منهم بصفة خاصة ، والميل الى تقديس الأولياء وحب الجهاد فى سبيل الدين وما الى ذلك .

وقد أشار ليفى بروفنسال الى غلبة الطابع البربرى على الأندلس بقوله: « وفى هذا الصدد ، ربما كان « الطابع البربرى » أظهر وأوضح اليوم فى اسپانيا وجنوبى البرتغال من « الطابع العربى » بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ ، وذلك فى كثير من ظواهر الحياة الريفية ، والنشاط الزراعى » [١].

١٦٨ – غلبة الزناتيين على البربر الأول فى الأندلس

وكان معظم من أقبل الى الأندلس خلال هذه الفترة الأولى من الزناتيين ، وكان زعماؤهم كذلك زناتيين ، فقد كان أبو زرعة طريف وطارق بن زياد زناتيين وكان زعيم البربر فى ثورتهم الكبرى التى أشرنا اليها زناتيا ، وكان بنو الخليع وبنو وانسوس الذين أعانوا عبد الرحمن الداخل على اقامة امارته زناتيين ، وقد رأينا أن معظم أسماء الأماكن البربرية فى نواحى أشتريس وجليقية زناتية . ثم ان البتر (ومنهم زناتة) كانوا أول أهل افريقية اسلاما ، وقد انضمت جماعات منهم الى المسلمين منذ أيام عقبة بن نافع وأسلمت واشتركت فى فتح المغربين الأوسط والأقصى ، وكان ولاة افريقية يتخذون منهم حرسهم وخاصة جندهم [٢] . وكان منهم زعماء الثورة فى افريقية ، مثل ميسرة المطغرى وخالد بن حميد الزناتى . وذلك كله يؤيد غلبة العنصر الزناتي على من دخل الأندلس من البربر خلال هذه الفترة الأولى .

ومن المعروف أن الزناتيين كانوا أقرب الى العرب وأشبه بهم من الصنهاجيين ، فقد كانوا بدوا مثلهم ، ثم انهم كانوا على الوثنية حتى دخول المسلمين البلاد ، ففتح لهم الدين الجديد أبواب التحضر والانتظام فساروا جنبا الى جنب مع العرب الأول ، وخاصة البلديين منهم .

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane* (2e. éd. Paris, 1950 vol. I p. 88.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ .

وكان هؤلاء البربر فى مجموعهم أبسط طبعا وأكثر سذاجة من العرب ، وأقرب الى تذوق بساطة الاسلام من كثيرين من العرب الذين أقبلوا الى الأندلس بعد تقلب طويل فى الفتن فى المشرق ، ولهذا كان أولئك البربر يصرون على التمسك بمبادىء العقيدة ، وكانوا يحاجون العرب وينتقدون تصرفاتهم معهم مستندين الى أصول الشريعة ، كما كان يلقنها لهم دعاة اسلاميون انبثوا بين صفوفهم . ولهذا أيضا سهل اجتذاب الكثيرين من أولئك البربر الى مبادىء الخارجية ، الأباضية والصفرية بصفة خاصة ، لأن دعاتها بين البربر كانوا كثيرين ولأن ظاهر هذه المبادىء ، كما كان أولئك الدعاة يشرحونها ، أقرب الى مبادىء الاسلام الصحيح .

١٦٩ – البربر والفتوح فى غالة

والى هذه الجماعات البربرية يرجع جانب كبير من دافع العرب الى الاسترسال فى الفتوح فى غالة ، كانت جماعات البربر تجوز الى الأندلس وقلوبها معلقة بالفتح والجهاد وما يتعلق بهما من مغانم وأسلاب ومكاسب ، وكانوا يتجمعون فى الأندلس فلا يستطيع العمال تركهم دون عمل يتسكعون فى العاصمة وحولها ، فكانوا ينهضون معهم للغزو . ولا شك أن حملات واسعة المدى ، كتلك التى قام بها السمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم ، ما كانت لتتم لولا وجود هذه الجماعات البربرية المتوفزة المتعطشة للفتح ومغانمه . وكلما زاد نشاط الفتح زاد هؤلاء البربر ضراوة على الحرب وطمعا فى المغانم ، وربما اشتد طمع بعضهم فى الأسلاب فكان ذلك من أسباب فشل بعض الحملات .

كان فى هؤلاء البربر اذن قوة تدفعهم الى الاسترسال فى الفتوح ،

كما كانت شعوب المتبربرين يدفع بعضـها بعضا نحو أراضى الدولة الرومانية .

هكذا يمكننا تعليل جانب من هذا النشاط الحربى العظيم الذى أبداه المسلمون فى فتوح الأندلس وغالة .

ومن العسير جدا أن نقدر أعداد العرب والبربر الذين اشتركوا فى هذه الأعمال الحربية ، لأن أعداد من اشترك منهم فى الجيوش الرسمية — وهى الأعداد التى رواها المؤرخون — لا تكون الا نسبة ضئيلة من العرب والبربر الذين هاجروا الى الأندلس على هيأة تيار متصل : فقد كانت الاضطرابات السياسية فى المشرق ، وميل خلفاء بنى أمية الى القيسية حينا والى اليمنية حينا ، سببا فى هجرة جماعات من العـرب معظمهم من اليمنيين والمدنيين الى الولايات وخاصة المغرب والأندلس، وقد استقر نفر قليل من هؤلاء العرب فى افريقية واستمر الأكثرون فى طريقهم حتى حطوا رحالهم بالأندلس ، أما البربر فكان تيارهم أقوى وأعدادهم أكبر ، ولا يمكننا تصور تحول بلد كالأندلس الى الاسلام هذا التحول السريع الا بافتراض أن أعداد المهاجرين المسلمين كانت كبيرة فعلا [1] .

ومن الطريف أن نلاحظ أن البربر — على حداثة عهدهم بالاسلام — كانوا أكثر تمسكا بالاسلام وحماسا للفتح من العرب ، لأن الاسلام كان وسيلتهم الأولى فى النهوض بأنفسهم والاحتفاظ بحقهم كأنداد

(١) ويؤيد ذلك بوضوح قول الرازى : « إن الذى أزعج موسى من الأندلس أبو نصر رسول الوليد ، فقبض على عنانه وثناه قافلا ، وقفل معه من أحب إلى المشرق ، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها فأقاموا فيها» مما يدل على أن عدداً قليلا جداً ممن ورد البلاد من الفاتحين المسلمين قد غادرها وعاد إلى إفريقية أو إلى المشرق . وسنلاحظ أن معظم من يقبل إلى الأندلس يستقر فيه ولا يعود يفارقه أبداً (المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٧) .

للعرب وسادة فى البلاد المفتوحة وأصحاب حق فى الغنائم والأرضين ، ولهذا نراهم يحتجون دائما على العرب ويتهمونهم بمخالفـة الدين ويطالبونهم بتنفيذ أشراطه . وكانوا اذا استقروا فى الأرياف استمسكوا بالاسلام حتى يميزوا أنفسهم عن أهل البلاد ، ولهذا لا نبالغ اذا قلنا ان جانبا عظيما من الفضل فى اسلام أهل الأندلس يرجـع الى هؤلاء البربر الذين آمنوا بالدين الجديد فى سذاجة وقوة ، واحتفظوا بهذا الايمان لأنه يكسبهم حقوقا معنوية ومادية لا يبلغونها بدونه .

وقد أساء العرب معاملة هؤلاء البربر من أول الأمر كما رأينا ، فنما فى نفوسهم شعور من الخوف من العرب ، حتى اذا قامت الثورة البربرية فى افريقية وانتقلت الى الأندلس وقعت القطيعة بين الحيين وصار الأمر بينهما الى عداء سافر خطر . وقد انتهى الدور الأول من الصراع بانتصار العرب ، فهاجر من البربر من هاجر ، وأقام على خوف من أقام ، حتى بدأت بشائر الدولة الأموية فانضموا الى عبد الرحمن ، وهم لا يكادون يثقون فى حسن نواياه ، وكان لابد له من أن يخوض صراعا طويلا معهم — كما فعل مع غيرهم — حتى يخضعهم للدولة الجديدة ، وانتهى الأمر بهم الى الطاعة والاستقرار .

١٧٠ — البربر والعرب البلديون

ولا نزاع فى أن البربر انضموا الى البلديين وكونوا حزبا واحدا منذ بدء الصراع بين هؤلاء وبين الشآميين كما قلنا ، ولكن انضمامهم هذا لم يكن خالصا ولا صادقا ، لأنهم عرفوا من ويلات البلديين الى ذلك الحين ما نفرهم من العرب جملة ، ولصاحب الأخبار المجموعة عبارة عظيمة الدلالة ذكرها أثناء روايته للنزاع بين بلج بن بشر والبلديين ، قال : « فلما بلغ ابنيه (ابنى عبد الملك ابن قطن وهما أمية وقطن) ما كان ، حشدا من أقصى أربونة ، وراجعا

أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشآم ، فاذا فرغوا كان لهم فى أهل البلد رأى » (١) مما يدل على ما كان يخامر نفوس البربر جميعا نحو العرب — بلديين وشآميين — من الكراهية والخوف .

وقد أشرنا الى ما خلفه القيسيون من الأحقاد فى قلوب البربر بسبب أفاعيلهم فيهم عندما نزلوا البلاد بقيادة بلج ، ورأينا أن البلديين انضموا الى الشآميين أثناء هذه المحنة ، فلما انتهت بالقضاء على البربر وتقتيلهم فى كل ناحية زاد نفور من بقى منهم ، وأخذوا ينظرون الى العرب نظرهم الى عدو ، فكانوا لا يسيرون معهم الا على خوف ، ومن دلائل ذلك ما يرويه ابن القوطية فى أخبار عبد الرحمن بن معاوية الداخل وانشائه دولته ، قال : « فلما كان بالعشى ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون فى العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر مثل بنى الخليع وبنى وانسوس وغيرهم وقال لهم : خاطبوا بنى عمكم وعظوهم وأعلموهم أنه ان تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم . فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية فأجابوهم الى ما أحبوه ووعدوهم الى أن انحرفوا عن عسكرهم ، فلما أصبح لهم (كذا) قالوا للعرب : انا لا نحسن الحرب الا فرسانا فاحملوا من بقى منا على الخيل ، فأرجلوا العرب وحملوا البربر على خيلهم . ودخلوا رجالة فخرقوا الى عبد الرحمن ، ووقعت الهزيمة على عبد الغفار » (٢) مما يدل على أن

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤١–٤٢ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٢ .

بعض البربر الذين كانوا فى صفوف عبد الرحمن كانوا متخوفين مترددين يفكرون فى الانقلاب عليه ، وأنه استعان على كسبهم بتخويفهم مما سيصيبهم على أيدى العرب اذا هو انهزم ، وكان هذا التخويف كافيا لتغيير رأيهم فأخلصوا فى القتال فى صفوفه ونصروه .

١٧١ — جماعات السودان فى الأندلس

وينبغى أن نذكر أنه كانت هناك الى جانب البربر الذين هاجروا الى الأندلس واشتركوا فى الفتوح جماعات من السودان أو السود ، فقد قال صاحب « فتح الأندلس » مثلا فى كلامه عن غزوات موسى : « وقدم السودان بين يديه للفتح والغارة » (١) ، ويبدو أن أعدادهم كانت قليلة ، ولهذا كان أثرهم قليلا . والغالب أنهم ظلوا مجرد جنود يحاربون الى جانب هؤلاء وأولئك ، ثم اندرجوا فى جيوش الدولة الأموية بعد ذلك ولم نعد نسمع عنهم .

١٧٢ — تأثر البربر بالبيئة المحلية

تأثرت جماعات البربر المستقرة فى الأندلس بالبيئة الجديدة تأثرا عظيما ، فكان الجيل الأول منهم لا يكاد ينقضى حتى يطلع الجيل الجديد أندلسيا قد أنسى أصله واتخذ الأندلس وطنا ، فأما من الناحية العقلية المعنوية فكانوا يجتهدون فى التعرب : يتعلمون العربية ويقبل من له ميل منهم على دراسة الاسلام والتفقه فيه ، وأما من الناحية المعاشية فنجد البربر قد ارتبطوا بمن يجاورونهم من أهل البلاد بالصهر والقرابة ، وأخذوا عن أمهاتهم الاسبانيات لغتهن فى الحديث ، أى أن شأن أولئك البربر كان شأن غيرهم من مهاجرة العرب ، طوتهم البيئة الأندلسية الغلابة فى ثناياها ، فأصبحوا أندلسيين ،

(١) فتح الأندلس ، ص ٥ .

ومنهم من اتخذ لنفسه اسما عربيا زيادة فى التعرب ، ومن هنا كانت أسماء جماعاتهم ذات الأسماء العربية التى ذكرنا بعضها . ومن الواضح أن البربر كانوا أسرع اندماجا من العرب فى البيئة الجديدة ، فقد حالت بين العرب وبين الاندماج السريع الكامل عصبيتهم ولغتهم العربيتان ، أما البربر فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبين الاندماج ، لا عصبية ولا لغة مكتوبة . ثم عمل الاسلام عمله فيهم ، فانتظموا وتحضروا ، وأصبحت غالبيتهم مع الزمن فى جملة العرب الأندلسيين . وقد كان لهؤلاء الأندلسيين الذين رجعوا الى أصل بربرى أعظم الأثر فى بناء الأندلس الاسلامى من كل ناحية .

وقد أشار ليفى پروفنسال الى أن الزواج بينهم وبين العرب كان قليلا أو منعدما ، وليس لدينا ما يؤيد ذلك ، لأن العرب مهما قيل فى اعتزازهم بأنفسهم لم يكونوا يعتبرون أنفسهم جنسا متميزا بدمه عن غيرهم ، كما كان الحال مع الرومان أو القوط ، بل كانوا من أكثر الشعوب امتزاجا بغيرهم . وللاسلام فى ذلك أثر واضح .

جـ — المـــوالى

ولا يكتمل الكلام على العرب والبربر بدون الاشارة الى الموالى ، فقد كانوا خلال هذه الفترة كلها عاملا من أكبر العوامل فى توجيه تيار الحوادث ، ثم كانت لهم بعد ذلك اليد الطولى فى اقامة دولة عبد الرحمن الداخــل .

١٧٣ — موالى بنى أمية

نجد الموالى — مذكورين باسم « موالى بنى أمية » — لأول مــرة فى حديث ابن القوطيــة عن بلــج بن بشر وفراره الى ناحية طنجة بمن نجا من العرب من « معركة

الأشراف » ، وذلك حيث يقول : « وانخذل بلج بن بشر فى عشرة آلاف حتى نزل بمدينة طنجة : منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى » [1] . ولسنا نجد لهؤلاء الموالى قبل ذلك ذكرا ككتلة « متماسكة » ، وانما نجد أفرادا منهم مذكورين هنا وهناك مما يسمح لنا بالقول بأن قيام « موالى بنى أمية » كحزب أو كقوة سياسية فى الأندلس يرجع الى تاريخ دخول بلج بن بشر الأندلس ؛ وقد انضم اليهم بعد ذلك من كان فى الأندلس من موالى بنى أمية ومن دخلها بعدهم ، ثم من دخل فى ولاء البيت الأموى من أهل البلاد .

١٧٤ — تكوين كتلة المـــوالى فى الأندلس

ولا يتضح من اشارة ابن القوطية هذه ما اذا كان أولئك الموالى من موالى بنى أمية فى المشرق أو ممن دخــل فى ولائهم من أهل المغرب ، ولكن ما لدينا من أخبارهم بعد ذلك يدل على أن عددا قليلا منهم كان من موالى المشرق وأن أكثرهم كانوا من أهل المغرب الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية أو عمالهم . ومن الجدير بالملاحظة أننا نجد فيهم قبيلتين بربريتين كاملتين ، هما بنو الخليع وبنو وانسوس [2] .

ولا نزاع فى أن افريقية كانت تضم عددا عظيما من موالى البيت الأموى الذين كان الخلفاء يبعثونهم مع الجيوش ؛ فحينما خرج كلثوم

---

(١) وهؤلاء الموالى جزء من عدد عظيم من الموالى كان هشام بن عبد الملك قد بعث بهم إلى إفريقية . قال ابن القوطية : « فقدم كلثوم [بن عياض] إفريقية ومعه ثلاثون [ألفاً من موالى] بنى أمية وعشرون ألفاً من بيوتات العرب » ، وقد انهزم هذا الجيش أمام البربر فى موقعة بقدورة (أو نقدورة) ولم ينج من الجيش العربى إلا بلج وأصحابه ، ثم «انخذل بلج بن بشر فى عشرة آلاف حتى نزل مدينة طنجة ، وهى المعروفة بـ « الخضراء » ، منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربى» ، ص ١٥ .

(٢) كان بنو وانسوس موالى عبد العزيز بن مروان . (ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١) .

ابن عياض من المشرق لقتال البربر مثلا كان جيشه يتكون من « عشرة آلاف من بنى أمية وعشرين ألفا من بيوت العرب »[1] . والمراد ببنى أمية هؤلاء مواليهم من أهل الشام أو العراق وفارس ، ومن البديهى أن الكثيرين من هؤلاء الموالى المشارقة قد شاركوه فى فتح الأندلس واستقروا فيه ، وتكونت منهم ، وممن انضم اليهم ممن دخل فى ولاء بنى أمية من أهل المغرب والأندلس ، هذه العصبة القوية التى سيكون لها أعظم الأثر فى مجرى الحوادث فيما بعد . وقد دخل فى ولاء بنى أمية نفر كبير من أهل المغرب ودخل فى ولاء عمالهم ، وخاصة موسى بن نصير ، عدد عظيم كذلك ، وقد ارتبط هؤلاء جميعا برابطة الولاء نحو البيت الأموى حتى البربر الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية كانوا أقرب الى اخوتهم فى الولاء منهم الى بنى عمومتهم من البربر ، مما يدل على أنهم كانوا يعتبرون رابطة الولاء الجديدة أقوى من رابطة العصبية الأولى[2] .

ويبدو أن التفرقة بين الموالى وغيرهم كانت واضحة فى ذلك العصر ، وأن الموالى كانوا معتبرين فى مركز اجتماعى ومعنوى لا يقل عن العرب ، بل اننا نلاحظ أن العرب كانوا يميلون الى أن يعتبروا أنفسهم موالى ، فقد ذكر ابن القوطية فى أخبار أرطباس أنه « دخل عليه عشرة من الشآميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف ابن بخت والصميل بن حاتم ، فسلموا وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه ، فلما أخذوا مقاعدهم وحيى بعضهم بعضا دخل ميمون العابد . جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموالى الشآميين .. فقال الصميل :

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

وقد كان بنو وانسوس موالى عبد العزيز بن مروان . نفس المصدر ، ص ٢١ .

يا أرطباس ، ما يعجزك من سلطان أبيك الا نفاد الطية : أدخل عليك ، وأنا سيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابى هؤلاء معى ، وهم سادات الموالى بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان .. » (ص ٣٨—٣٩) . أى أن الصميل وصف العشرة الذين كانوا معه بأنهم من الموالى . وابن القوطية يقول انهم كانوا عشرة من الشآميين فقط ، مما يفهم منه أن الشآميين جميعا كانوا يعتبرون وصفهم بالموالى شرفا لهم . ويؤيد ذلك أن الصميل قال لهم بعد ذلك : « أنتم ملوك » ولم يكن ليصفهم هذا الوصف لو لم يكونوا من سادات العرب جملة لا من الموالى فحسب .

وظاهر أن أعداد هؤلاء الموالى زادت فى الأندلس زيادة عظيمة ، بدليل أن بلج بن بشر عندما سار للقاء اليمنية الذين كان يقودهم عبد الرحمن بن علقمة وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن خرج فى « عشرة آلاف من الأمويين والشآميين »[1] . ثم تزايدت أعدادهم بعد اضطراب الأمر على الأمويين فى المشرق ، ومصداق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن « الطلب حينما اشتد على بنى أمية هربوا الى الآفاق ، وكانوا يسمعون فى الرؤية أن مستراحهم بالمغرب ، فنزع أكثرهم الى افريقية »[2] ، ولابد أن الكثيرين منهم عبروا الى الأندلس ، وسنرى براهين ذلك فيما يلى من الأحداث .

١٧٥ – الموقف السياسى للموالى

وكان هؤلاء الموالى يعتبرون أنفسهم تابعين للبيت الأموى أو لمن عهد اليه الأمويون بالولاية ، وهم لهذا لم ينضموا الى عبد الملك بن قطن لأنه انتزع الأمر من الوالى الرسمى الذى سلفه

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٥ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

وهو عقبة بن الحجاج ، وحينما أقبل بلج بعهد خاله كلثوم بن عياض عامل هشام انضموا اليه ، فلما قتل بلج انضموا الى خليفته ثعلبة بن ثوابة ، وكانوا لهذا يحاربون البلديين لأنهم كانوا يعتبرونهم ثائرين على بنى أمية ، ومصداق ذلك ما يقوله ابن القوطيـــة : « وانصرف عبد الرحمن بن علقمة الى الثغر ، وبقى عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشآميين ، ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهرى ، ويقولون لعرب الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا .. » [١] .

وبقى هؤلاء الموالى الى جانب الشآميين حتى أقبل أبو الخطار ، ولا نسمع لهم ذكرا فى عهده ، والظاهر أنه فرقهم فى النواحى فيمن فرق من الشآميين ، لأننا سنجد جماعات منهم عند مجىء عبد الرحمن متفرقة فى نواحى ريه وشذونة وتاكرنا ، ولكن غالبيتهم العظمى بقيت فى قرطبة وفيها زعماؤهم من أمثال يوسف بن بخت وأمية بن يزيد وتمام بن علقمة وأبو فرَيْعة .

وحينما انتصر يوسف الفهرى على أبى الخطار وتخلص منـــه ، بمعاونة الصميل بن حاتم ، اعتبر نفسه الوالى الشرعى وحاول لهذا أن يضع يده على موالى بنى أمية ، فجعل يسميهم « موالينا ويظهر الميل اليهم » [٢] على اعتبار أنه الوالى الشرعى للأندلس والنائب عن خلفاء بنى أمية وصاحب حق الولاء على مواليهم . ولو قد كان يوسف صاحب رأى وسياسة لأفاد منهم ولقوى مركزه بهم فى صراعه المقبل مع عبد الرحمن ابن معاوية ، ولكنه كان ضعيف الرأى بعيدا عن السياسة ، وكان أمره

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .

كله بيد وزيره الصميل بن حاتم ، فاستطاع هذا أن يكسبهم اليه ، فكانوا الى جانبه الى أن ظهر عبد الرحمن الداخل .

ولم يعل أمر موالى بنى أمية فى فترة كما علا خلال الفترة التى سبقت قدوم عبد الرحمن ، فقد كانوا كتلة طيبة متناسقة من الرجال الأشـــداء . وقد أيدوا يوسف الفهـــرى والصـــميل لتحاملهما على القحطانية [١] ، لأنهم كانوا يكرهون هـــؤلاء القحطانيين (اليمنيين) ورؤساءهم ، فكانوا خـــير نصير ليوسف والصـــميل فى صراعهما مع أبى الصباح وغيره من كبار اليمنيين . قال صاحب الأخبار المجموعة : « وكان لبنى أمية يومئذ بلاء عظيم معروف وصبر محمود ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ومن الصميل وجميع قيس ومضر ، فخرجوا مع قيس فبمن قوى من بنى أمية » [٢] .

١٧٦ - الموالى وقيــام الدولة الأموية

فلما أقبل بدر مولى عبد الرحمن واتصل بهم بدأ موقفهم من المضرية يتغير ، لأن بدرا خاطبهم بأحب لغة الى نفوسهم ، وأفهمهم أن انضمامهم للأمر الجديد انما هو انقاذ لهم من فوضى العصبيات فى الأندلس . والمراجع فى خلاف على ما اتفق معهم عليه : هل طلب منهم العمل على « اجارة » عبد الرحمن وايوائه لانقاذه من البربر فقط ، أو تحدث اليهم فى تحويل السلطان الى عبد الرحمن واقامة دولة جديدة . والرأى الثانى أصح ، لأن تطور الحوادث يؤيده ويدل على أنهم كانوا يسعون لتمهيد السلطان لعبد الرحمن لا لمجرد ايوائه وتأمينه .

ولم يخف ذلك على الصميل ، رغم محاولة موالى بنى أمية خداعه ،

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٦ .

وكان الرجل رغم اسرافه فى الشراب وتشعث ذهنه ذكيا يفهم بواطن الكلام ، ولهذا لم يكد يوافق على ايواء عبد الرحمن. ويعد موالى بنى أمية بارغام يوسف على اجارته وتزويجه ابنته ، حتى روّى الأمر على نفسه وتبين خطورته ، فبعث من استوقف رسوليهم فى منتصف الطريق ، وأسرع بنفسه على فرسه الأبيض « الكوكب » وقال لهما : « انى منذ أتيتمونى برسول ابن معاوية وكتـابه لم أزل فى ادارة ، فاستحسنت ما دعوتما اليه ، ثم كان منى اليكما ما كان . فلما فارقتكما روّيت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بوله . وهذا رجل قد حكمنا عليه ، مع ما له فى أعناقنا (يريد يوسف الفهرى) ... وأنا أعلمكما أن أول سيف يسل عليه (أى على عبد الرحمن) فسيفى ، فبارك الله لكما فى رأيكما .. » (١) .

وهى عبارة خطيرة الدلالة ، لأن الصميل كشف بها عن أعمق ما كان يدور بنفوس الموالى ، وأعلن اليهم عداءه الصريح لما يريدون ، ومن هذه اللحظة فهم هؤلاء الموالى ألا خـير هناك يرجونه من يوسـف والصميل والمضرية جملة ، وبدأت أفكارهم تتجه وجهة أخرى . اتجهوا نحو اليمنيين الذين كانوا يكرهونهم ويحاربونهم حتى هذه اللحظة ، وقد جاء هذا التغير الحاسم دليلا على ما كان يمتاز به هؤلاء الموالى من تمام المعرفة بأحوال البلد وسلامة حسهم السياسى ، فقد سارت قضية مولاهم عبد الرحمن من ذلك الحين صعدا ، وقد قال أبو عثمان عبيد الله ابن عثمان أحد كبار هؤلاء الموالى يصف هـذا التحول : « فانقطع رجاؤنا من مضر وربيعة بأسرها ، ورجع رأينا الى أطناء اليمن وادخالهم فى رأينا ، ففعلنا ذلك من فورنا : لم نمر بيمانى له بال وثقنا به الا عرضنا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

عليه أمر ابن معاوية ودعوناه اليه ، فألفينا قوما قد وغرت صدورهم يتمنون شيئا يجدون به سبيلا الى طلب ثأرهم ، ورغبوا فى عقد بنى أمية بالأندلس ، ثم رجعنا الى جندنا وقد يئسنا من مضر فابتعنا مركبا .. » (١) .

واصاحب « فتح الأندلس » عبارة على جانب عظيم من الأهمية تبين موقف هؤلاء الموالى وعلاقتهم بعبد الرحمن وبنى أمية ، وذلك حيث يقول : « وشاور (عبد الرحمن) كل من معه من الأمويين فقالوا : انما يرضى لك هذا الفهرى ببعض أعماله التى هى أعمالك وأعمال جدك . وانما هو عامل لعامل ابن عمك ، فيخرج عهده الذى يحاجنا به ، فانما هو من عمال جدك أمير المؤمنين هشام ، فلا والله لا نرضى لك بهذا حتى نكافحه دونك ويعود الى حالته الأولى ويترك الأمر لك » (٢) . أى أن قدوم عبد الرحمن قد حل رابطة الولاء التى تربطهم الى هذا الفهرى الذى هو فى الواقع عامل لعامل افريقية ، وعامل افريقية من عمال بنى أمية ، فما معنى الولاء له وعبد الرحمن حفيد هشام مقيم بينهم ؟

والواقع أن موالى بنى أمية قاموا بدور خطير جدا فى اقامة أمر عبد الرحمن وتحويل تاريخ الأندلس كله وجهة جديدة ، ولولا مؤازرتهم له والتفافهم حوله لما قام أمره ، ولولا اخلاصهم له ولبنيه لما استطاعت الامارة الأموية أن تسير على هذا النحو الموفق الذى سارت عليه .

١٧٧ — موال من أصول اسبانية

وقد دخل الكثيرون من أهل الأندلس فى ولاء بنى أمية بعد الفتح ، فقد قال ابن حزم مثلا فى « الجمهرة » فى سياق الكلام عن بنى قَسِّى : « كان قسى قومسَ الثغر فى أيام

(١) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٥٢ .

القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشآم وأسلم على يدى الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمى الى ولائه ، ولذلك كان بنو قسى فى أول أمرهم ، اذا وقعت الفتنة بين المضرية واليمانية يكونون فى جملة المضرية ، فولد قسى : فرتون وأبو ثور وأبو سلامة ويونس ويحيى »(١) وتحدثنا الحوليات الأندلسية عن عدد كبير من هؤلاء الموالى الأندلسيين وبيوتهم : بنو بارون ، بنو غومس ، بنو غرسية ، بنو قارله ، بنو مرتين ، وغيرهم . فقد دخل آباء هذه البيوت أول الأمر فى ولاء بنى أمية فى المشرق ، ثم انتقل ولاؤهم الى بنى أمية الأندلسيين ، وظل بعضهم محتفظا بهذا الولاء ، واندرج بعضهم الآخر فى عداد المولدين . ولا شك أن هذا الولاء سار على نفس الأسس التى جرى عليها نظام الولاء فى المشرق ، مع فرق واضح : هو أن الموالى فى الأندلس كانوا موالى البيت الأموى لا موالى قبائل عربية ، كما كان الحال مع الكثير من الموالى الفرس ، فلم تذكر الحوليات الأندلسية ولاء قوم لقبيلة الا نادرا ، فقد ذكر ابن حزم مثلا فى « الجمهرة » من بيوت البربر بنى سالم وبنى الفرج وقال انهم موالى بنى مخزوم (٢) .

١٧٨ – طبيعة ولاء الأندلسيين

وليس لدينا نص يثبت أن هؤلاء الموالى الأندلسيين أو بعضهم كانوا موالى عتاقة الا فى حالات قليلة ؛ فقد ذكر المؤرخون أهل ناحية من نواحى ماردة باسم « موالى موسى » وهم موالى موسى بن نصير ، ويغلب على الظن أنهم دخلوا فى ولاء موسى بعد فتح الناحية عنوة فأعتقهم وصاروا مواليه . وذكر ابن الفرضى فى حديثه عن بعض علماء الأندلس مثل سعدان بن ابراهيم .. بن زياد

(١) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٤٦٧ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٦٥ .

وابنه قاسم أن الأب كان « مولى الامام عبد الرحمن بن معاوية ولاء عتاقة »(١) . ولو قد كان سعدان هذا وأمثاله من موالى بنى أمية الذين أتوا من المشرق لاكتفى ابن الفرضى بالقول بأنه مولى بنى أمية ، كما هى عادته ، أما وقد ذكر أنه مولى عتاقة فلا يفسر الا بأنه كان ممن صاروا الى ملكية الأمويين من أهل البلاد أو البربر ثم أعتقوهم فصاروا مواليهم بالعتاقة .

ويؤيد هذا ما يذكره ابن الفرضى عن عالم آخر هو اسماعيل بن بدر ابن اسماعيل بن زياد اذ يقول انه « مولى نعمة لبنى أمية من أهل قرطبة » (٢) ، وموالى النعمة هم موالى العتاقة مع اختلاف يسير ، هو أن مولى النعمة لا ينبغى أن يكون رقيقا ثم أعتق ، بل قد ينعم عليه بالولاء كشارة من شارات الاعزاز والتقدير . وهم فى الأندلس يختلفون عن الموالى اطلاقا ، لأن ابن الفرضى يذكر الكثير من الموالى محددا ولاءهم الأول أو مكتفيا بالقول بأنهم موالى بنى أمية ، مثال ذلك : اسماعيل بن خلف المعروف بابن الخبازة من أهل سرقسطة « وينسب الى ولاء بنى أمية »(٣) ، واسماعيل بن القاسم بن عبدون « مولى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من أهل قاليقلا »(٤) ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم « مولى عثمان بن عفان رحمه الله »(٥) ، وحرث ابن أبى سعد « مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية » (٦) ، وحسن بن

(١) ابن الفرضى : علماء ، ترجمة رقم ٥٤١ ، ١٠٧٠ .
(٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس (طبعة كوديرا، مدريد ١٨٩٢) ترجمة رقم ٢١٤.
(٣) نفس المرجع ، رقم ٢٢٠ .
(٤) نفس المرجع ، رقم ٢٢١ .
(٥) نفس المرجع ، رقم ٢٧٨ .
(٦) نفس المرجع ، رقم ٣٢٤ .

عبيـد الله بن محمد .. بن رافع « مولى رسـول الله صلى الله عليه وسلم » (١) ، وزكريا بن يحيى بن عايذ بن كيسان « مولى هشام » (٢) ، وسليمان بن عبد الرحمن بن يزيد « مولى معاوية بن أبى سفيان » (٣) ، وهـكذا . وقد يكتفى المؤرخـون بقولهم : « من الموالى » (٤) ، كما هى الحال مع سعيد بن حميد بن عبد الرحمن ، أو بقولهم : « مولى لهم» (٥) كما هي الحال مع سعيد بن عثمان بن سليمان التجيبي . وقد يذكر الولاء محددا فى دقة كقول ابن الفرضى فى ترجمة شمر بن نمير : « مولى بنى أمية ثم لآل سعيد بن العاصى » (٦) : وقد يرد ذكر الولاء فى صورة غير واضحة ، كقول ابن الفرضى فى ترجمة سهل بن ابراهيم ابن نوح : « نسبه فى البربر ويوالى بنى أمية » ، وقد أشرنا فيما سبق الى دخول أعداد من البربر فى ولاء الأمويين ، فقد رأينا أن بنى وانسوس يعتبرون أنفسهم موالى عبد العزيز بن مروان .

١٧٩ – موالى الاصطناع واذن فقد عرف الأندلس فى هذا الوقت المبكر نظام الولاء ، وكان الموالى اما مشارقة أقبـلوا الى الأندلس مرتبطين بروابط ولاء قديمة للبيت الأموى أو لأفراد منه ، أو مغربيين دخلوا فى ولاء بنى أمية أو قوادهم أو بعض قبائل العرب ، وانتقلوا الى الأندلس محتفظين بهذا الولاء ، أو اسپانا دخلوا فى ولاء بنى أمية أو قوادهم وظلوا محتفظين ، هم وأبناؤهم ، بهذه العلاقة .

(١) نفس المرجع ، رقم ٣٤١ .
(٢) نفس المرجع ، رقم ٤٤٣ .
(٣) نفس المرجع ، رقم ٥٥٧ .
(٤) نفس المرجع ، رقم ٤٨٢ .
(٥) نفس المرجع ، رقم ٤٨٤ .
(٦) نفس المرجع ، رقم ٤٩٥ .

والنصوص التى بين أيدينا لا تسمح لنا بالحكم على طبيعة ولاء الاسپان ، ولكن الأحداث لا تدل على أنهم كانوا موالى عتاقة ، بل موالى اصطناع ، دخلوا فى ذلك الولاء التماسا للحماية أو شرف المنزلة ، كما رأينا فى حالة بنى قسى .

ومما يؤيد ما ذهبنا اليه من أن معظم أولئك الموالى كانوا موالى اصطناع ، أن عبد الرحمن الداخل عندما أراد أن يكسب يوسف الفهرى بعث اليه وفدا من مواليه ، « وبعث معهم بكسا وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار ، وكتب اليه يذكر له اصطناع آبائه لجد يوسف (أى اصطناع بنى أمية لعقبة بن نافع جد يوسف الفهرى) ولأهله ، ويدعوه الى الصهر والتوسعة » (١) مما يدل على أن الاصطلاح المستعمل فى الأندلس للولاء هو الاصطناع .

وكان أهل الأندلس يرعون حرمة الولاء ، ويحافظ الخلف منهم على ما ارتبط به السلف منهم ، فقد ذكر ابن القوطية كيف أن محمد ابن موسى — وكان من بيت من العرب يقال لهم بنو موسى ، « وكان بنو عبـد الرحمن الغـافقى عامل الأندلس المتقـدم ذكره يدعون أنهم مواليه » — عندما تولى الوزارة أيام الأمير محمد ، « بعث فى بنى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وكان لهم عدد وثروة بمرنانة الغافقيين من شرف اشبيلية ، فقال لهم : انكم تدعون أمرا لو كان حقا وعلمناه لم يَحِلّ لنا الانتفاء عنه ، فهلم الى أن تخلطونا بأنفسكم وتدعون أهلا ، فان كنا مواليكم كما تقولون فنحن منكم ، وان كنا من

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٥-٧٦ .

العرب فنحن بنو عمكم ، فأجابه القوم وشكروا على ذلك ، وصاروا أهلا وصاهر بعضهم بعضا ، وانقطعت تلك الدعويات من يومئذ » (١)

١٨٠ – أهمية الموالى فى تاريخ الأندلس

وعلى أى الأحوال لم يكن الموالى فى الأندلس فى هذه الفترة وما بعدها ، فى نفس الوضع الذى كان فيه موالى المشرق ، فهنالك كان المولى فى وضع اجتماعى أقل من وضع الحر ، أما هنا فقد كان الولاء شارة امتياز ، ولم يحدث الا نادرا أن ترفع العرب على الموالى ، فقد ذكر ابن القوطية أن العرب احتجوا عندما عين عمرو بن عبد الله بن الليث — وكان مولى — قاضيا للجماعة فى قرطبة (٢) ، وفيما عدا ذلك كان الموالى فى مركز اجتماعى لا يقل فى شىء عن مركز الأحرار . وعندما أتى عبد الرحمن وأعانوه على اقامة الدولة أصبحوا فى مركز أعلى من مركز العرب الأحرار ، فقد أصبحت الوظائف الكبرى مقصورة عليهم ، وحرص أمراء بنى أمية على الاحتفاظ ببيوت الموالى واعطائهم مكانا ممتازا فى الادارة والمجتمع ، فلم يكونوا يعتمدون الا عليهم . وقد أخلصت بعض بيوت أولئك الموالى للبيت الأموى اخلاصا عميقا مستمرا ، وحملت عن البيت الأموى جانبا كبيرا من المسئولية ، بحيث لا يمكن التأريخ للبيت الأموى بدون التأريخ لهذه البيوت الى جانبه ، ومن أكبرها بنو أبى عبدة وبنو حدَير وبنو شهيد وبنو عبد الرءوف وبنو فُطَيس وبنو مغيث (٣) — وأصلهم كلهم من موالى بنى أمية ، بعضهم موالى البيت الأموى نفسه ، وبعضهم

(١) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٧٦ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٣ .
(٣) هم أولاد مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك (أخبار مجموعة ، ص ١٠) وأول من امتاز منهم فى الأندلس عبد الكريم بن مغيث . وقد قتل مغيث فى معركة القرن بافريقية (أخبار ، ص ٣٤) .

موالى قوادهم ؛ وقد كان موالى البيت الأموى يسمون بموالى قريش ، وكانت لهم الصدارة على غيرهم من الموالى . وفى عهد عبد الرحمن الناصر زاد مركزهم ارتفاعا حتى صاروا يسمون بالأبناء (١) .

فأما بنو أبى عبدة فهم أبناء حسان بن أبى عبدة مولى مروان بن الحكم ، وقد دخل جدهم الأندلس سنة ١١٣هـ/٧٣١ م مع ابنه عبد الغافر الذى أصبح فيما بعد وزيرا لعبد الرحمن الداخل . وقد ظل أبناء هذا البيت يتولون كبار المناصب الى أيام المنصور بن أبى عامر، وقد تفرع عن هذا البيت بعد ذلك بيت أبى الحزم بن جهور أصحاب قرطبة فى عصر الطوائف (٢) .

وبنو حدير هم أبناء مولى من موالى عبد الرحمن الداخل ، ولا شك أن أصلهم من موالى بنى أمية فى الأندلس ، لأن المراجع لا تذكر أن عبد الرحمن آتى بمولاه هذا من المشرق . وقد ظهر أمر بنى حدير عندما نبغ منهم موسى بن محمد بن حدير الذى تولى أمر قرطبة أيام الأمير محمد ، وقد ظل بنو حدير يتقلبون فى كبار الوظائف حتى أيام الناصر (٣) . أما بنو شهيد فهم أبناء مولى من موالى عبد الرحمن الداخل ، وقد ظلوا فى الوظائف الى أيام الدولة العامرية . وكذلك كان الأمر مع بقية البيوت التى ذكرناها (٤) . ومن الطريف أن بعض مؤسسى

(١) LÉVI-PROVENÇAL: *L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle* (Paris, 1932) p. 106
LÉVI-PROVENÇAL : *Histoire de l'Espagne Musulmane.* 2e. éd. II, p. 126, III, p. 194.
(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٣٢–١٣٣ .
LÉVI-PROVENÇAL, *L'Espagne Musulmane.* II, p. 101
(٣) الحلة السيراء ، ص ١٢٣–١٢٤ .
(٤) LÉVI-PROVENÇAL, *Op. cit.* pp. 99 sqq.

هذه البيوت دخلوا الأندلس عربا أحرارا ثم دخلوا هناك فى ولاء بنى أمية المشارقة ، ثم انتقلوا الى ولاء بنى أمية الأندلسيين ، ومثال ذلك بنو شهيد وبنو عبد الرءوف .

وفى عداد هذه البيوت من موالى بنى أمية ذوات الأصول المشرقية تدخل بيوت الموالى ذوات الأصول البربرية ، مثل بيت الزجّالى ، وذات الأصول الاسپانية كبيت بنى قسى ، وان كان وضع هذه البيوت الأخيرة يختلف عن وضع الموالى المشارقة والمغاربة من حيث الوظائف ، فقد قصرها أمراء بنى أمية على الموالى البلديين والشآميين ؛ ولكن مركز الموالى الاسپان الاجتماعى كان عظيما ، فقد كانوا سادة فى نواحيهم (١) .

وقد بلغ من اختصاص أمراء بنى أمية هذه البيوت بالوظائف أن كان أفرادها يتنافسون على الوظائف حتى يتحير الأمراء ، ومع ذلك كانوا لا يفكرون فى اخراجها عنهم ، كما حدث أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فقد « تنافس الوزراء كلهم فى خطة الحجابة ، واضطره كل واحد منهم الى ألا يولى غيره ، فأخذته ضجرة ، فأقسم ألا يولى واحدا منهم ، وأمر بالاقراع بين الخزّان (خزان الأموال) وكان الخزان يومئذ موسى بن حدير شيخ الخزان ، وابن بسيل الملقب بالغماز وطاهر بن أبى هارون (وكلهم من أهل بيوت الموالى هذه) ومهران بن عبد ربه لاقديم له ، وكان له به اتصال وهو ولد فخرجت اليه القرعة فولى الحجابة أعواما .. ثم مات .. » . وقد وضعت خطا تحت « لا قديم له » لأن ابن القوطية أراد بها أن مهران لم يكن من أهل هذه البيوت القديمة ، وقد كانت توليته الحجابة مصادفة ، ثم عادت بعد ذلك الى آل غانم ثم الى آل شهيد وهم من موالى البيت الأموى .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٢ .

١٨١– آراء حول أصل ولاء الاصطناع

وقد لاحظ بعض الباحثين شيئا من التشابه بين « الاصطناع » الذى شاع فى الأندلس الاسلامى ونظام الانتفاع Benefactoria أو Behetoria الذى عرفته الدولة الليونية الأشتورية الاسپانية ، و « البنفاكتوريا » أقرب الى نظام « الالجاء » الذى عرفته الدولة الاسلامية فى المشرق ابتداء من القرن الرابع الهجرى ، ومعناه أن يلتجىء مالك صغير الى مالك كبير و « يلجىء » اليه أرضه ويصبح من أتباعه فى نظير قيام المالك الكبير أو الاقطاعى القوى بحمايته ؛ فكان الرجل يعتبر « لاجئا » والأرض « ملجأة » ؛ وهذا بالضبط هو ما يعنيه المصطلح الرومانى Beneficium الذى أصبح فيما بعد لونا من ألوان الاقطاع الأوروبى . وقد لاحظ ليڤى پروڤنسال أن صاحب القاموس اللاتينى العربى المعروف بالڤوكابيولستا *Vocabulista* يترجم كلمة Benefacere بلفظ « اصطنع » بل ان لفظ « مولى » انتقل كما هو الى المصطلح القانونى فى تلك المملكة النصرانية ، فكانوا يقولون Maullatus . وقد ذهب الذين يرجعون نظم الدولة الليونية الأشتورية كلها الى أصول رومانية ، الى أن مسلمى الأندلس أخذوا نظام الاصطناع عن نظام الولاء الرومانى Patrocinium وهو رأى معقول اذا نحن اعتبرنا الظروف الخاصة التى أحاطت بتكوين النظم الاسلامية فى الأندلس ، فقد يكون أولئك الأندلسيون الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية من الداخلين فى ولاء البيت القوطى ، فلما صار الأمر للمسلمين انتقلوا بولائهم الى بنى أمية ليحتفظوا بما كان لهم من ميزات اجتماعية واقتصادية . وهذا هو التفسير المعقول لما فعله قسى عندما ذهب الى المشرق ليدخل فى ولاء الخليفة الأموى مباشرة (١) .

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Esp. Mus.* III. p. 210-213.

١٨٢ـ ملاحظات أخيرة على الموالى فى الأندلس

ومهما يكن من أمر فقد عرف الأندلس الاسلامى فى ذلك العصر نظام الموالى ، وكان هؤلاء أنواعا وطبقات : منهم موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموالى عثمان بن عفان ، وموالى خلفاء بنى أمية ، ثم موالى بعض موالى البيت الأموى مثل مغيث الرومى وموسى بن نصير ، ثم موالى بعض القبائل العربية ، وقد كان عددهم جميعا قليلا بالنسبة لعدد السكان ، ولكن عددهم كان محترما بالنسبة لعدد العرب . وقد كان من الممكن أن يظل الموالى فى نفس الوضع الذى كانوا فيه فى المشرق ، ولكن الظروف المضطربة التى أحاطت بالعرب خلال فترة الولاة ، وانصرافهم الى التحارب فيما بين بعضهم وبعض أعطت هؤلاء الموالى مركزا ممتازا ، اذ ظلوا كتلة واحدة يسعى اليمنيون والشآميون الى كسب تأييدها ، ثم سنحت لهم الفرصة بدخول عبد الرحمن بن معاوية فاجتهدوا فى اقامة دولته ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، ومن ذلك الحين أصبحوا أهل الدولة وأصحاب اليد العليا ، فارتفع بارتفاعهم معنى الولاء فى الأندلس ، وأصبح وسيلة من وسائل علو المنزلة فى المجتمع وعلو المرتبة فى الادارة ، وأصبح أقرب الى « الاصطناع » منه الى الولاء الصرف . وأفاد من ذلك الاسپان الذين نقلوا ولاءهم من البيت القوطى الى البيت الأموى ، أو الذين دخلوا منهم فى ولاء الأمويين على أساس الپاتروسينيوم الرومانى ، فاحتفظوا بمكانتهم وثرواتهم وزاد مركزهم قوة كلما طالت بالبيت الأموى الأيام فى الأندلس [١] .

---

(١) ويؤيد ذلك ان أولئك الموالى أصبحوا يسمون «بالأبناء» أى أبناء بيت الإمارة أو «أبناء نعم الخلفاء» كما يقول ابن القوطية (ص ٨٣) ، بل كان كبارهم يسمون خلفاء الأمراء ، وقد كان الواحد منهم يسمى «خليفة» (انظر : ابن القوطية ، ص ٦٩) .

وسيجرى على اصطناع الموالى كل أمراء البيت الأموى وخلفائهم ، فقد اتخذ كل منهم لنفسه موالى انضموا الى طبقة الموالى ، حتى المنصور بن أبى عامر اتخذ لبيته موالى عرفوا بالموالى العامريين .

وأساس هذا الاختلاف بين وضع الموالى فى المشرق ووضعهم فى الأندلس يرجع الى الظروف الخاصة التى أحاطت بهذا البلد خلال الفترة التى نتحدث عنها . ولو لم تكن هذه الظروف لظل موالى الأندلس فى نفس وضع أشباههم فى المشرق ، بل ربما تلاشوا كقوة سياسية ، كما كان الحال فى مصر الاسلامية مثلا . وهذه الناحية تبين الأهمية الخاصة لعصر الولاة ، فلولا ظروفه الخاصة لما كانت نظم الأندلس على النحو الفريد الذى نعرفه ، وسنرى مصاديق ذلك عند دراستنا لنواح أخرى من النظم الأندلسية التى وضعت أسسها فى عصر الولاة .

الفصل العاشر

المجتمع الأندلسي - ٢

المولدون والمستعربون

تحدثنا فى الفصل السابق عن عناصر السكان التى دخلت الأندلس بالاسلام أو مع الاسلام ، ووضعت أساس اسلام الأندلس وعروبته ، وبدأت فى تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية صفحة «الأندلس» ذات الحضارة الزاهرة والشخصية الفريدة فى بابها بين صفحات التاريخ . تحدثنا عن العرب والبربر والموالى ، وقصرنا الكلام عنهم على فترة التأسيس التى تعنينا فى هذا الكتاب . وبقى الآن أن نتكلم عن الجزء الأكبر من عناصر سكان الأندلس : المولدين وأهل الذمة من نصارى ويهود .

١٨٣ – إسبانيا فى النطاق الغربى قبل دخول العرب

وسنرى فى سياق كلامنا على هذين العنصرين أن الاسلام والعروبة قد أثرا فيهما تأثيرا لا نكاد نجد له مثيلا فى غير الأندلس مما دخل فى رحاب الاسلام ، فهذا الشعب الايبيرى الذى دخل عليه المسلمون كان قبل دخولهم شعبا أوروبيا نصرانيا فى غالبيته العظمى ، يضم مجموعات قليلة من اليهود ، وكان داخلا فى نطاق الغرب الأوروبى الذى نشرت فيه روما حضارتها ولغتها ، وكان متجها بايمانه نحو روما عاصمة المسيحية الغربية ، وكان يدين بالولاء للكنيسة الكاثوليكية (١) ، ويتحدث لغة رومانية ايبيرية يغلب عليها الطابع الرومانى ، سماها العرب لأول سماعهم اياها بالعجمية أو عجمية أهل الأندلس ، وعندما زادت معرفتهم

(١) انظر : MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES: *La Iglesia en la Espana Visigoda* (en *Historia de España dirigida* por RAMON MENÉNDEZ PIDAL) tomo III. pp. 265. sqq.

بها سموها اللطينية (١) : وكان هذا الشعب — نتيجة لذلك كله — يدور فى فلك الحضارة الغالبة على غرب أوربا اذ ذاك ، وهى حضارة لاتينية متأثرة بما حملته جماعات المتبربرين الى غرب أوروبا من ثروة لغوية جرمانية تختلف من قبيل لقبيل ، ونظم سياسية جرمانية بدائية كان لها أبعد الأثر فى تكوين النظم السياسية وقواعد القانون التى جرت عليها ممالك الجرمان جميعا فى غرب أوربا فيما بعد (٢) .

١٨٤ – طبيعة حركة الامتداد الإسلامى

ثم دخل المسلمون هذه البلاد : لم يدخلوها كما دخل القوط سادة حكاما يباعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس حفاظا على سلامة عنصرهم أو صيانة لهيبة سلطانهم ، بل دخلوها أثناء حركة الامتداد الدينى الفكرى البشرى التى بعثها الاسلام فى عالم القرن السابع الميلادى . وانه لمن مخالفة الواقع مخالفة مقصودة أن يقال ان امتداد الاسلام كان حركة فتوح أو غزوات ، أو أنه كان انشاء لامبراطورية سياسية يسودها جنس بعينه ، وانما كان فى الواقع حركة استيقاظ تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضا ، فلا يكاد الاسلام يقبل على بلد حتى يستيقظ أهله ويهبوا ليحملوا رايته بأيديهم . فقد فتح عرب الجزيرة الشام والعراق

(١) انظر : RAMÓN MENÉNDEZ PIDAL: *Origenes del Espagnol* (3a. éd. : Madrid, 1950.)
مقدمة الكتاب ، حيث يقول إن اللغة التى كان يتكلمها أهل إيبيريا قبل القرن الحادى عشر الميلادى لا يمكن تعرفها إلا على وجه التقريب ، نظراً لقلة الأصول التى يعتمد عليها ، وكل ما يمكن قوله إنها كانت تضم ألفاظاً قليلة من لغة القوط ، أما بقيتها فكانت لهجات مختلفة من اللاتينية العامة Latin Vulgar . ولا زالت الدراسات مستمرة لتعرف هذه اللغة . انظر :
ISIDIRO DE LAS CAGIGAS, *Los Mozárabes* (Madrid, 1947) p. 58-59 y nota 42 p. 73.

(٢) سندرس هذه الناحية فيما بعد .

ومصر ، ثم انتقلت الراية — فيما يتصل بنا هنا — الى الشام ، ففتح الشام المغرب ، ثم فتح المغرب الأندلس . وكان العرب يقومون فى تلك الحركة كلها بدور الدافع الأول أو المحرك الأول ، فلا تزال هذه الشعوب تنظر اليهم وتلتفت بقلوبها نحوهم ، لا على اعتبار أنهم شعب بعينه ، بل على اعتبار أنهم رمز الحركة كلها ، فصاحب الدعوة ورسولها عربى ، وكتاب الدعوة ودستورها — وهو القرآن — عربى ، والمثل الأخلاقية التى أدت الى النصر عربية .

ومهما كان حكمنا اليوم على المثل الأخلاقية الجاهلية ، فلا نزاع فى أنها بدت لأهل هذه الأعصر شيئا عظيما شديد الجاذبية . ولا نزاع كذلك فى أن العربى الذى حمل عبء الفتح الأول ، وشارك فى بقية الفتوح ، وهاجر الى البلاد المفتوحة ، كان — مهما حكمنا على تصرفاته الشخصية فى تلك البلاد — شخصا ممتازا جديرا بأن يقلد ، فقد كان على الجملة شجاعا لا يهاب شيئا ، دءوبا لا يمل السعى ، كريما لا يضن بذات يده ، عنيفا — اذا استثيرت عواطفه — عننا جاهليا كان أهل تلك الأيام يرون فيه صورة جميلة من صور الرجولة . وكان الى جانب ذلك رقيقا تهفو نفسه الى كل ما هو رقيق جميل ، حتى لقد يحركه بيت من الشعر الى ما لا يحركه اليه الخطر الداهم (١) ، وكان ألوفا بسيطا لا يستتر الى

(١) مثال ذلك أن أبا الخطار كتب إلى هشام بن عبد الملك بأبيات جعلته يغير سياسته نحو اليمنية ، مما كان له أبعد الأثر فى تاريخ الأندلس فى هذه الفترة ، وهذه الأبيات هى :

أفاءتم بنى مروان قيسا دماءنا ... وفى الله — إن لم تنصفوا — حكم عدلُ
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا ... وليست لكم خيل تعد ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا ... وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا ... بلاء ، وأنتم — ما علمتُ — لها غُفلُ

...... إلى آخره .

جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصاهرهم ، وتمتزج دماؤهم بدمائه ويشركهم فى أصله وحسبه . وكان رغم أصله البدوى القاسى يحب اللين والترف ويستطرف الجمال فى شتى صوره ، ويستطيب الحياة الناعمة ، ومن ثم فاننا نجد هذا العربى الذى أشعل الأندلس نارا ، كما رأينا ، لم يخرب ما نزل به من مدائن ، وما مر به من منشآت. فعلى الرغم مما رأينا ، من احتراب عرب الأندلس بعضهم مع بعض ، واسرافهم فى الخصومة على هذا النحو الذى رأيناه ، ظلت المدن التى نزلوها قائمة عامرة تدور الحرب بظواهرها أو بعيدا عنها وهى آمنة ، بل هم اعتبروا هذا الصراع أمرا خاصا بهم لا شأن لأهل البلاد به ، فلم يؤذوهم أو يسيئوا اليهم .

ومن أعجب ما يقرأ الانسان فى حوليات هذه الأيام أن الصميل ابن حاتم ، هذا البدوى الجافى ، على ما رأيناه من عنفه وجاهليته وقسوته على خصومه من العرب ، ذهب الى أرطباس كبير عجم الأندلس على أيامه فى رفقة عشرة من رؤساء عرب الأندلس ومواليهم ليطلب اليه أن يمنحهم شيئا من الأرض ، ولقد حاوره أرطباس محاورة ند لند ، بل أخذ يقرعه ويقول له : « يا أبا جوشن ، ان أهل دياناتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر علىَّ بر من بررت ! » ثم مضى يلقى عليه درسا فى الايمان فقال : « انكم باكرامكم [من أكرم] الله ، انما تكرمونه عز وجل .وقد روينا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكرم اللهُ من عباده ، وجبت كرامته على جميع خلقه » .

= قال ابن القوطية : «ولما وردت الأبيات منه ولى حنظلة بن صفوان الكلبى على إفريقية ، وأمره أن يولى ابن عمه أبا الخطار الأندلس ......»

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٨–١٩ .

ثم يعلق ابن القوطية على ذلك بقوله : « فكأنما ألقمه حجـرا ! ثم « وهبهم » مائة ضيعة ، صار لكل واحد منهم عشر ضياع » (١) .

فهذه صورة من المعاملات بين العرب « الفاتحين » وأهل البلاد ، واذا كان هذا هو موقف الصميل ، على عتوه وجبروته ، فمن باب أولى يكون التعامل بين عامة العرب وعامة الناس أبسط وأقرب الى التعامل بين ناس لا يختلف أحد منهم عن أحد بشيء . وبرهاننا على ذلك أن نفس الخبر يقص أن واحدا من كبار صالحى العرب ، وهو ميمون العابد ، أتى ليطلب من أرطباس أن يعطيه ضيعة من ضياعه يعتمرها بيده ويؤدى اليه الحق عنها ويأخذ الحق ، فقال له أرطباس : « لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعة مناصفة » ودعا بوكيل له فقال له : « ادفع اليه المجشر الذى على وادى شوش وما فيه من الغنم والبقر والعبيد وادفع اليه القلعة بجيان ، وهى المعروفة بقلعة حزم ، فسلكها ... » (٢) .

١٨٥ – العرب وأهل البلاد

وإذن فلم يستقر العرب فى الأندلس سادة مترفعين ، وانما نزلوها ناسا عاديين يطلبون العيش فى سلام الى جانب أهل البلاد . وربما كـان هذا السلوك العربى أثرا من آثار البيئـة الأندلسية فيمن نزلهـا من العرب والبربر ، فقد كان الايبيريون الرومان شعبا مسالما مجدا حسن العشرة ، لم يلبث أن أنس الى العرب وأنسوا اليه . ولدينا صورة طريفة جدا عن الحياة العائلية فى بيوت العرب بعد أن اتخذوا النساء من أهل البلاد ، قال صاحب « الأخبار المجموعة » فى أخبار عبد العزيز بن موسى : « ثم ان ابنـه

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩

عبد العزيز تزوج امرأة للذريق يقال لها أم عاصم ، فهم بها ، فقالت له : ان الملوك اذا لم يتتوجوا فلا ملك لهم ، فهل لك أن أعمل لك مما بقى عندى من الجوهر والذهب تاجا ؟ فقال لها : ليس هذا فى ديننا ! فقالت له : من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليه فى خلوتك ؟ .. فلم تزل به حتى فعل . فبينا هو يوما جالس معها ، والتاج عليه ، اذ دخلت امرأة كان قد تزوجها زياد بن النابغة التميمى ، من بنات ملوكهم ، فرأته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجا ؟ فقال : ليس فى ديننا استحلال لباسه ، فقالت : فو دين المسيح انه لعلى امامكم ! فأعلم بذلك زياد حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، ثم تحدثا به حتى علمه خيار الجند ، فلم تكن له همة الا كشف ذلك حتى رآه عيانا ، ورآه أهله صدقا ، فقالوا : تنصر ! ثم هجموا عليه فقتلوه .. » (١) . وربما تكون يد القصّاص قد فعلت فعلها فى هذا الخبر ، ولكن مغزاه فى جملته عظيم القيمة ، فهو يدل على روح المودة العائلية التى كانت تسود بيوت العرب بعد استقرارهم فى الأندلس واتخاذهم النساء من أهل البلاد ، وهو كما رأينا جو عائلى فيه ألفة وفيه محبة وفيه دعابة ذات معان عظيمة بالنسبة لمن يؤرخ لذلك المجتمع العربى الايبيرى ، أو الأندلسى بتعبير أصح ، الذى نشأ عن الفتح الاسلامى للبلاد (٢) .

١٨٦ – التزاوج بين العرب وأهل البلاد

لقد اتجه اهتمام خليان ريبيرا ، عندما أراد دراسة موضوع التزاوج بين المسلمين وأهل البلاد ، الى الجوارى ، ومضى يلتمس فى مجموعات الوثائق المستعملة — كمجموعة أبى

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ .

(٢) JULIAN RIBERA Y TARRAGO, *Disertaciones y Opúsculos* (Madrid 1928) tomo I. p. 122.

جعفر أحمد بن محمد بن مغيث — نصوصا تثبت اقبال العرب على شراء الجوارى الجليقيات والقطلونيات ومن اليهن [١] ، ولكن قلته أن الزواج بالجوارى كان قليلا بالأندلس ، فقد كن غاليات الثمن فى تلك البلاد . قال الاصطخرى : « والذى يقع من المغرب الخدم السـود من بلاد السودان والخدم البيض من الأندلس والجوارى المثمنات ، تأخذ الجارية والخادم عن غير صناعة على وجوههما ألف دينار وأكثر » [٢] . ولم يكن يستطيع دفع هذا الثمن الا القليل ، أما بقية العـرب والبربر فكانوا يصاهرون أهل البلاد مصاهرة عادية كالذى رواه ابن القوطية عن زواج سارة القوطية ابنة المَنْدْ بن غيطشة ، من تزويج هشام بن عبد الملك اياها من عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية ، وولد له منها ولدان : ابراهيم واسحاق، ثم توفى عنها فى العام الذى دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حَيْوَة بن ملامس المذحجى وعمير بن سعيد اللخمى ، فعنى ثعلبة بن عبيد الجذامى بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه اياها ، وولدت له حبيب بن عمير جد بنى سيد وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجُرْز ، وهؤلاء أشراف ولد عمير باشبيلية ، اذ كان له أولاد من غيرها ، ولم يشرفوا شرف هؤلاء ، وهذا الخبر فى كتاب عبد الملك بن حبيب فى فتح الأندلس فى أرجوزة تمام بن علقمة الوزير أو أكثره » [٣] .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٥ وما يليها .

(٢) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالاصطخرى : مسالك الممالك ، طبعة دى خويه ، ليدن ١٩٢٧ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦ .

ولقب بنى حجر الوارد هنا : الجُرْز ، يغلب أنه لفظ عجمى : **el gordo** ، أى السمين . وبنو سيد الوارد ذكرهم فى النص يمكن أن تكون صحة اسمهم بنو سعيد .

واذن فقد ارتبط الكثيرون من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد وعاشوا معهم متجاورين متساوين ، وعن طريق هذا التجاور انتشر الاسلام بين أهل الجزيرة . ومن الواضح أن المسلمين لم يحاولوا ارغام الناس على دخول الاسلام ، لا عن عدم اهتمام بنشر الاسلام ، أو عن كراهة لانتشار الاسلام بسبب اضراره ببيت المال كما يقول ليفى پروفنسال[١] ، بل لأن هذا كان أسلوب العرب الذى جروا عليه فى نشر الاسلام فى كل بلد دخلوه : كانوا — على الأغلب — يدعون الناس حتى يتبينوا فضائل الاسلام بأنفسهم ويدخل منهم فيه من يريد ، بل ليس صحيحا أن الجيوش الفاتحة لم تكن تعنى بالدعوة الى الاسلام ، لأن الحقيقة أنها كانت تضم دعاة للدين ، بل كان الفاتحون أنفسهم يحرصون على ادخال الناس فى الاسلام ، ومثال ذلك : « أن الناس قحطوا بافريقية عاما فخرج [موسى بن نصير] فاستسقى ، فأمر رجلا فقص على الناس ورققهم ، فجعل يذكر ... » [٢] .

وذكر أن عقبة بن الحجاج السلولى كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ، وكان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام حينا ويرغبه فيه ويبشره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يده بذلك الفعل ألف رجل»[٣].

ولا نملك من النصوص ما يمكننا من تتبع انتشار الاسلام فى الأندلس ، ولكن ابن القوطية وابن عذارى يؤكدان انتشار الاسـلام وقوته فى

---

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane* (2e. éd. Paris, 1950) tome I, p. 74.

وقد قال ذلك أيضاً فى كتابه عن «إسپانيا الإسلامية فى القرن العاشر» ص ٣٢–٣٣.

(٢) انظر القطعة التى أوردها خليان ريبيرا بتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ويغلب أنها مقتطعة من «الإمامة والسياسة» ، ص ١٨٤ .

(٣) المقرى : نفح الطيب ، طبعة محيى الدين ، ج ٤ ، ص ١٨ .

الأندلس فى أول ولاية السمح بن مالك (١٠٠ هـ / ٧١٩ م) ، قال ابن القوطية : « كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قد عهد الى السمح باخلاء الأندلس من الاسلام ، اشفاقا دخل عليهم (كذا) اذ خشى تغلب العدو عليهم ، فكتب اليه السمح بن مالك يعرفه بقوة الاسلام وكثرة مداينهم وشرف معاقلهم ، فوجه حينئذ جابرا مولاه ليخمس الأندلس .. »[١] .

أما ابن عذارى فيقول ان السمح كتب الى عمر بن عبد العزيز يقول : « ان الناس قد كثروا بها وانتشروا فى أقطارها ، فأضرب عن ذلك »[٢] ، والمراد بالناس هنا المسلمون . ثم ان الأندلس يبدو لنا ، عند دخول عبد الرحمن الداخل ، بلدا اسلاميا استبحر الدين واستقرت قواعده فيه . وتلك ظاهرة فريدة فى بابها ، فان الفتح الاسلامى للأندلس لم يكن قد مر به نصف قرن ، ومع ذلك فهى حقيقة واقعة لا مناص من قبولها وانتظار ما عسى أن نعثر عليه من نصوص تفسرها وتقدم لنا تفاصيلها .

١٨٧ – عجم الأندلس

وقد كان المسلمون يطلقون على أهل الأندلس جميعا اسم العجم أو عجم الأندلس ، وربما أطلق اسم الروم ومفرده رومى ، وان كانت هذه التسمية نادرة الاستعمال . فلما تمكن سلطان المسلمين أصبحوا يسمون عجم الذمة أو الذمة أو أهل الذمة ، فمن كان لهم عهد منهم سموا المعاهدين ومفرده المعاهد ، وربما قالوا المعاهدة من النصارى أو النصارى المعاهدون : أما اليهود فكانوا يسمون اليهود فقط أو الذميين[٣] .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .
والعبارة التى كتبنا إلى جوارها (كذا) يمكن تقويمها هكذا : إشفاقاً [مما] دخل عليهم ...
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب (الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٤٨) ، ص ٢٦ .
(٣) انظر البيان الذى أورده سيمونيت :
FRANCISCO JAVIER SIMONET, ***Historia de los Mozárabes de España*** **(Madrid, 1897-1903) pp. VII-IX del Prólogo.**

فلما بدأ أهل البلاد يدخلون فى الاسلام أطلق على من أسلموا منهم المسالمة — مفرده مسالم — أو الأسالمة — مفرده أسلمى — ثم أطلق على أولادهم الذين نشئوا على الاسلام اسم المولدين — مفرده مولد — واستمرت هذه التسمية تطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، ثم تلاشت بسبب اختلاط الناس وتحول أهل المملكة الاسلامية فى الأندلس الى أندلسيين دون تمييز[١] .

١٨٨ – خطأ تسميتهم بالمستعربين

أما لفظ « مستعرب » ، وجمعه مستعربون ، فلم يظهر فى النصوص أو الكتابات الرسمية الا فى زمن متأخر على خلاف ما يظن ، وربما كان اللفظ جاريا على الألسن فى اللغة الدارجة ، كما نقول نحن «افرنجى» ، فاذا كتبناه قلنا فرنسى أو انجليزى أو أوربى أو أمريكى . ودليلنا على ذلك أن اللفظ لا يظهر فيما لدينا من كتب المؤرخين والجغرافيين والفقهاء وأهل الأدب ومن اليهم ، ولكنه ظهر فى وثائق العقود الجارية بين الناس ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم فى كتابات نصارى الأندلس سواء باللاتينية أو الاسبانية القديمة (عجمية الأندلس) ابتداء من القرن الحادى عشر أيضا . ففى الوثائق اللاتينية كانوا يقولون : Castellanos, Mozárabes atque Francos ، وذلك تمييزا للنصارى الأندلسيين من أهل النواحى التى استولى عليها ملوك اسبانيا النصرانية عن القشتاليين والفرنجة وهم المهاجرون الى اسبانيا النصرانية من أهل غالة ، ممن أقبل للاشتراك معهم فى حرب المسلمين ، ثم استقر فى النواحى التى استغلتها النصارى وأصبح من أهلها . وكان ملوك النصارى

(١) انظر : سيمونيت : نفس المصدر ، ص ١٦ من المقدمة .
LÉVI-PROVENÇAL, ***Hist. de l'Espagne Musulmane*** **(2e. éd.) I. pp. 74-75.**

يميزون رعاياهم من القشتاليين وحلفاءهم من الفرنجة عن نصارى الأندلس الاسلامى الذين دخلوا فى طاعتهم . فقد كان أولئك الأخيرون مستعربين ثقافة ولسانا وأسلوب حياة ، وكانت لهم طقوسهم الدينية الخاصة بهم المسماة El Rito Mozárabe ، وكان لهم رجال دين خاصون بهم يقيمون صلواتهم على أسلوب خاص وبلغة خاصة هى عجمية أهل الأندلس ، وهى خليط من الايبيرية الرومانية القديمة واللاتينية الدارجة والقوطية والعربية ، ثم ألغيت هذه الطقوس فيما بعد ، وفرضت الطقوس الكاثوليكية واللغة الكاثوليكية على نصارى اسپانيا جميعا .

ويبدو أن هذه التسمية كانت شائعة على ألسن نصارى الأندلس فقط ، وأن استعمالها فى اسپانيا النصرانية لم يبدأ الا عندما استولى ملوك النصارى على بلاد فيها اسپان نصارى مستعربون ، لأن احدى الوثائق التى صدرت عن الامبراطور ألفونسو السابع حوالى سنة ١١١٨ تقول : quos vacabunt Mozárabes (= الذين يسمون مستعربين) ، وفى خطاب وجهه البابا يوجين الثالث الى أهل طليطلة سنة ١١٤٦ م (سقطت طليطلة فى أيدى النصارى سنة ١٠٨٥ م) يقول : quidam Muzárabes Noncupantur (=أولئك الذين يسمون مستعربين) ، وجاء فى تاريخ حياة القديس تيوتونيوس Teotonius التى كتبت فى نفس العصر:
quandam christianorum gentem quos vulgo mozárabes vocant
(= وأولئك النفر من المسيحيين الذين يسمون فى اللغة الدارجة مستعربين) وفى منشور صدر عن الامبراطور ألفونسو السابع الى أهل وادى الحجارة سنة ١١٣٣ يقول :

ad vos totos christianos Muzarabis quos ego traxi cum Dei auxilio de potestate sarracenorum...

(= اليكم ياجميع النصارى المستعربين الذين استخلصتهم بفضل الله من سلطان العرب) . ونصوص ذلك العصر كله تفرق بينهم وبين نصارى قشتالة والفرنجة تفريقا واضحا كما رأينا ، بل كانت النصوص تؤكد اختلافهم عن بقية النصارى فى طقوس العبادة ، بسبب اختلاطهم بالعرب واستعرابهم ، فقد جاء فى كتاب عن الراهب شيمينيوس أسقف طليطلة :
Ergo ejusmodi homines quod arabibus permixti viverent Mistárabes appelati sunt et illorum ecclesiasticus ritus officium Mistárabum
(= ولهذا يسمى الناس الذين عاشوا مع العرب مستعربين ، وطقوسهم الكنسية تسمى الطقوس المستعربية)[١] .

وخلال القرن الثانى عشر ظهرت الكلمة فى وثائق النصارى الأندلسيين فى البلاد التى استولى عليها النصارى ، وكانوا يكتبون هذه الوثائق بالعربية ، فكانوا يقولون مثلا : « دون يوان مستعرب » (= السيد خوان — أيام العرب كان يسمى يحيى — المستعرب) . وفى بعض الأحيان كانت الكلمة تكتب بصيغتها العجمية ، مما يدل على أن اللفظ

---

(١) أورد هذه النصوص كلها سيمونت فى مرجعه الذى أشرنا إليه (ص ٨ وما يليها من المقدمة).

وقد جرت عادة المؤرخين المحدثين على تسمية أهل الذمة من النصارى الذين عاشوا فى ظلال الحكم الإسلامى بالمستعربين ، وهى تسمية خاطئة كما رأينا . وأول من وقع فى ذلك الخطأ هو سيمونيت نفسه، فانه لم يعن بدراسة تاريخ هذا اللفظ ، وإن كان هو صاحب الفضل فى اكتشاف أصله العربى ، فقد كان الناس قبله فى حيرة من هذا الأصل ، وجعله بعضهم محرفاً عن Mixtarabes أى المختلطين بالعرب . ونلاحظ أننا نقرأ اللفظ «مستعرِب» بكسر الراء وصحته بفتحها ، لأن أهل الأندلس كانوا يقولون «موزاراب» لاموزاريب. وقد جرى على نفس الخطأ فسمى نصارى الأندلس الإسلامى مستعربين ليڤى پروڤنسال وإيزيدورو دى لاس كاخيجاس وبقية مؤرخى إسپانيا الإسلامية من الأوروپيين . وقد عنينا نحن هنا بالبحث عن هذا اللفظ فى كتب المسلمين فلم نجده ، فرجح لدينا أنه كان لفظاً دارجاً جرى على ألسنة الناس فى الأندلس للدلالة على الذميين الذين استعربوا لسانا وأسلوب حياة ، وأنه لم يظهر فى الكتابات إلا من القرن الثانى عشر الميلادى أو أواخر الحادى عشر على الأكثر : ظهر فى الكتابات اللاتينية أولا ثم انتقل إلى كتاب الإسپان أنفسهم كما هو وارد فى النص .

لم يكن يكتب قبل ذلك بالعربية ، فقد جاء فى احدى الوثائق « دون يوان — مستارَب » . ولكن الأغلب أن ترد الكلمة فى هذه الوثائق فى صورتها العربيــة الصحيحة : « دون بِطْرُه بن مرتين مســتعرب » و « دون لب بن بيطره مستعرب » و « .. من كبار مدينة طليطلة من المدرجين والمستعربين والقَشْتَلَنين » و « دون دُمِنْقُه (Domingo) ابن بيطره الذى كان آمينا للحصارين » . بل كانوا يستعملون اللفظ فى صيغته الاسپانية : « .. بقرية عين الديك المسماة ببال دى مستعربِش فى شِشْلة مدينــة طليطلة » ، أى أن قرية عين الديك كانت تســمى Val de Mozárabes (وادى المستعربين) فى ناحية طليطلة [1] .

واذن فلفظ مستعرَب لم يستعمل عند عرب الأندلس بصورة رسمية، وانما كان الجارى قولهم : « العجم » أو « النصارى » أو « نصارى الذمة » ، تفريقا لهم عمن أسلم منهم حديثا (الأسالمة والمسالمة) أو أبناء هؤلاء (المولدين) . فابن حيان يقول : « حصون المسالمة والنصارى » و « تحزبت المسالمة مع المولدين » ، وابن الأبار يقول : « فصب على المولدين والعجم منه » .

ويبدو أن الاستعراب كان يسبق الاسلام فى معظم الحالات ، فقد اختلط « العجم » بالمسلمين وأخذوا لغتهم وأسلوبهم فى الحياة ، ثم كان يسلم منهم من يسلم شيئا فشيئا ، بل كان بعض أولئك العجم ما يكادون يسلمون حتى يظهروا تفوقا فى العربية ، بل منهم من تفوق فى الفقه ، فقد جاء فى « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضى فى ترجمة عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، من أهل اشبيلية أنه كان « من مسالمة الذمة ، فملأ

(١) F. J. SIMONET, *op. cit.* pp. XIV-XV.

اشبيلية علما وبلاغة ولسانا ، حتى شَرِقت به العرب ، فلما حدثت الثائرة بينها وبين الموالى قتل يومئذ ، وذلك سنة ٢٧٦ » [1] .

وكان هذان الفريقان : أهل الذمة والمسالمة ، ثم أبناؤهم من المولدين ، يكونون معظم سكان الأندلس ، ابتداء من نهاية الفترة التى تتحدث عنها . وكان عــدد أهل الذمة أكثر بكثير من المسالمة والمولدين أول الأمر ، ثم لم يزل عدد هؤلاء الأخيرين يزيد حتى أصبحوا معظم سكان الأندلس .

١٨٩ – المسالمة والمولدون

فأما عن المسالمة والمولدين فواضح من النصوص أنه لم يكن هناك فرق ما بين وضعهم العام ووضع العرب والبربر المسلمين أصلا ، فقد كان الذمى اذا أسلم انتقل الى وضع المسلمين دون تفريق أو تمييز ، وهذه ظاهرة أخرى يختلف فيها الأندلس عن سائر نواحى الدولة الاسلامية ، بل ليس لدينا دليل واحد على أن الأندلس عرف التمييز بين الصلح والعنوة . نعم شرع بعض الولاة فى احصاء نواحى الأندلس وتعرف ما فتح منها صلحا وما فتح عنوة ، كما سنرى، ولكن هذه العمليات لم تتم ، وبقى الحال فى الأندلس مبهما فى هــذه الناحية ، فأصبح غير المسلمين كلهم ذمة دون تمييز ، ومن أسلم منهم دخل المجموعة الاسلامية ، وتلاشى كل شىء يتصل بأصله تماما . وربما كان السبب فى ذلك هذه القلقلة التى سادت عصر الولاة كله ، فلم يتسع وقت الولاة لتنظيم شىء أو لتحديد وضع ، فسارت الأمور على عواهنها ، وسنرى مصاديق ذلك فى كلامنا عن الادارة والمال فى الفصل التالى ، وسنتبين أن ذلك كان من حسن حظ الأندلس ، ورب ضارة نافعة ! فلو أن « جهبذة » الولاة والعمال عملت فى هذا البلد عملها الذى عملته فى

(١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ترجمة ٦٤٧ .

غير الأندلس من بلاد الاسلام لما أسلم أهله واستعربوا بهذه السرعة ، ولما كانت لأهله هذه الصفحة المشرقة فى تاريخ الاسلام .

وربما كانت الجماعات الأولى من أولئك الذين أسلموا من العبيد ورقيق الأرض ، فقد رأينا أن اسپانيا القوطية ضمت من الأولين آلافا كثيرة ، ثم ان حالة رقيق الأرض كانت من السوء بحيث بدا الاسلام لأولئك الناس وكأنه خلاص من المتاعب والشقاء . وسنرى أن الجبايات فى الأندلس كانت أخف بكثير من مثيلاتها فى الأمصار الأخرى ، وان أهل الأرياف كانوا أحرارا ، سواء أسلموا أم لم يسلموا ، وأنهم تمتعوا فى ظل هذا العهد الجديد الذى طلع عليهم بأمان ورفاهية لم تعرفهما أوروبا الى أواخر القرن العاشر الميلادى على الأقل .

١٩٠ — رأى پروڤنسال

كان أولئك المسالمة والمولدون اذن من طبقات اجتماعية شتى قبل اسلامهم ، كان منهم العبيد ورقيق الأرض والزراع وأهل المدن بشتى صنوفهم : الأشراف والأوساط وأهل الأسواق ، وكان فيهم موال وغير موال ، فتساووا جميعا فى رحاب الاسلام . وجدير بنا أن نلاحظ أن الأندلس لم يعرف التشدد والتعصب حتى امارة الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، عندما قامت دولة الفقهاء وتسلطوا على العامة ونصبوا أنفسهم حكاما الى جانب الأمراء . ويؤيد الأستاذ ليڤى پروڤنسال ما ذهبنا اليه من اقبال أهل الجزيرة على الاسلام ويقول : « وقد أصبح نفر من أبناء أولئك المسلمين الجدد من مياسير أهل الطبقة الوسطى ، بل منهم من أصبحوا سادة أغنياء عن طريق التجارة أو الزراعة ، وقد مضوا فى هذا المضمار حتى غاب عنهم أن أجدادهم كانوا مستقرين فى اسپانيا قبل الاسلام بزمن طويل ، وذهب بعضهم الى ادعاء نسب عربى — دفعوا فى تلفيقه مالا كثيرا — يسمح لهم بالزهو بأنهم من

أصول عربية ، واحتفظ بعضهم بعد اسلامهم بأسمائهم القديمة ، وظلوا يعرفون بها مثل بنى أنجلين Angelino وبنى شبَرِيق Savarico الاشبيليين ، وفيما بعد ذلك بزمن طويل ، بنى لُنْق Longo وبنى القَبْطُرنُه Kabturno وآخرين كثيرين . ولقد فخر أحد مؤرخى اسپانيا الاسلامية ، وهو ابن القوطية ، الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى ، بأصله الذى يرجع به الى بيت الملك غيطِشة ، وهذا هو السبب فى تلقبه بابن القوطية . ولكن الذى كان يحدث فى غالب الأحيان أن التزاوج بين المولدين والمسلمين الداخلين كان يقضى عند بيوت هؤلاء المولدين على ذكريات أصولهم الاسپانية البعيدة . وقد حدثت على عجل حركة اختلاط بشرية واسعة المدى بين عناصر سكان أهل الجزيرة الأندلسية ، وأصبح من العسير شيئا فشيئا تمييز أهل البلاد الأصليين من الداخلين عليهم » .

« ومهما يكن من امر فانه — حتى فى حالة أولئك الاسپان الذين تخلوا عن دين آبائهم واتخذوا أسلوب حياة المسلمين الداخلين ، واندرجوا فى نطاق نظامهم الاجتماعى — لم يفقد المولدون أبدا شخصيتهم الخاصة بهم . وانه ليرجع الى وجود أولئك المولدين فى ذلك البلد — ووضعه متطرف وجزرى منعزل بالنسبة لبقية بلاد الاسلام — أن تميز الأندلس فى نواح كثيرة بأنه قطعة فريدة فى بابها فى عالم الاسلام ، سواء أكان ذلك التفرد فى صور حياته السياسية أو كان فى مثله الأعلى الحضارى والثقافى . ومن المهم ألا ننسى أنه ابتداء من القرن الثامن (الميلادى) أو التاسع على الأكثر ، حتى القرن الخامس عشر ، لم تكن اللغة العربية فقط هى اللغة الوحيدة المستعملة فى الأندلس ، وأنه كانت هناك عناصر كثيرة من سكانه تتحدث بلهجات دارجة عجمية مشوبة بالايبيرية والعربية ولكنها مشتقة قبل كل شيء من اللاتينية ، وليس هناك ما يمنع من القول بأنه الى عصر

متأخر من عصور التاريخ الأندلسى ، غلبت على ألسنة أهل الأندلس رطانة عامة اسپانية[1] فى كل مكان تقريبا ، وتحدث بها الناس أكثر مما كانوا يتحدثون بالعربية ، ومن الطبيعى أن يكون ذلك أظهر فى الأرياف منه فى المدن ، وقد غلبت هذه الرطانة بصورة أوضح على اللهجات البربرية » [٢] .

آراء فى أجناس سكان الأندلس

١٩١ – وفى موضع آخر من « تاريخ اسپانيا الاسلامية » يقول ليڤى‌پروڤنسال: «وتعطينا عبارة لم تنشر بعد لمؤلف أندلسى نجهل اسمه ، أوردها فى سياق رسالة قديمة عن كبار بيوت أهل فاس[٣]

(١) استعمل المؤلف هنا لفظ κóinε اليونانى . والكوينيه كانت لغة دارجة مستعملة فى البلاد التى على شواطئ البحر الأبيض كلها ، وكانت جارية على ألسن التجار والملاحين فى نواحى هذا البحر كلها .

(٢) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espcgne Musulmane* (2e. éd.) Paris,1950 Vol. I, pp. 76-77.

وقد علق المؤلف على هذه العبارة فى الهامش بالإشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من قول ابن حزم أن عرب دار بلى شمالى قرطبة كانوا إلى عصره لا يتحدثون «اللطينية» (الجمهرة ٤١٥) مما يدل على أن ذلك الفريق من العرب كان شيئاً نادراً .

(٣) اسم هذا الكتاب « ذكر مشاهير أهل فاس فى القديم » ، وقد ألف فى القرن الخامس عشر . انظر :

LÉVI-PROVENÇAL: *Islam d'Occident.* I p. 39 note 45.

وتوجد نسخة من هذا المخطوط فى المكتبة الشريفية فى رباط (رقم ١٣٩٤) والنص المشار إليه فى الورقة ٢١ .

وإليك نص التعليق الذى يشير إليه پروڤنسال فى هذا المرجع : ورد هذا المخطوط من مكتبة البعثة العلمية القديمة فى مراكش ، وهو موجود فى المكتبة الشريفية فى رباط تحت رقم د ١٣٩٤ (D. 1394) وقد نسب هذا المؤلف الصغير إما إلى عبد القادر الفاسى المتوفى سنة ١٠٩٠هـ/١٦٨٠م – انظر عنه كتابى (كتاب پروڤنسال) تاريخ الشرفاء *Historiens des Chorfa*, pp. 264-265. – أو إلى أبى الوليد إسماعيل بن الأحمر مؤلف كتاب « روضة النسرين » المتوفى فى فاس عام =

بيانا بالغ الغرابة عن التكوين البشرى للمجتمع الأندلسى وعن اختصاص كل عنصر من العناصر التى كان يتألف منها السكان المسلمون فى الجزء الذى ساده الاسلام من شبه الجزيرة فى نهاية الخلافة بشىء من الأعمال الزراعية أو الصناعات اليدوية : ويمكن تقسيم هؤلاء السكان بناء على ما ذكره ذلك المؤلف المجهول الى أربعة أجناس : البربر الذين دخلوا الأندلس من المغرب أو افريقية ، وأهل البلاد من النصارى الذين دخلوا الاسلام ، واليهود الذين أسلموا ، ثم — بطبيعة الحال وفى المكان الأول — العرب ، ويضمون الهاشميين وبقية العرب الذين هاجروا الى الأندلس من جزيرتهم بكل جراثيمهم (= أصولهم) . وقد انضافت لكل من هذه الأجناس جماعات من الموالى » .

« واستنادا الى المعلومات التى يوردها هذا المؤلف ، كان العرب الذين دخلوا اسپانيا من الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو ليبية أو افريقية وحتى من السوس الأقصى ، يتجمعون فى المدن الكبيرة ، حيث كانوا يتجنبون قدر المستطاع الاشتغال بالحرف البسيطة ويحتلون أعلى الوظائف فى خدمة الدولة أو القضاء ، واشتغل بعضهم بالتجارة أو عنوا باستثمار أراضيهم . وليس فى هذه العبارة — أى عبارة المؤلف الأندلسى — شىء جديد لم نكن نعلمه . ويكفى أن نلقى نظرة على خريطة

= ٨٠٧/١٤٠٤–١٤٠٥ . ويبدو أن نسبة الكتاب إلى المؤلف الثانى أقرب إلى المعقول ، بشرط أن يُفهم أن الإشارات المتعلقة بحوادث وقعت بعد وفاة ابن الأحمر قد أضيفت فيما بعد ، وهى إشارات كثيرة تتعلق بحوادث القرن التاسع الهجرى . انظر :

عبد الحى الكتانى : فهرس الفهارس ، فاس سنة ١٣٤٦ للهجرة ، ج ١ ، ص ١٠١ :

Actes du VIIIe. Congrès de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, dans Hespéris, t. XIX. 1934 p. 196.

وقد اطلعنا على هذا المخطوط والفقرة المشار إليها وأبدينا آراءنا فيها فى المتن .

توزيع السكان فى الأندلس فى القرن التاسع ، لكى تتبين أن المهاجرين العرب لم يعقدوا صفقة خاسرة عندما استقروا فى الأندلس فى المناطق الأوفر غنى أو الأكثر خصبا أو التى حبتها الطبيعة بخيراتها من الجزء الساحلى والذى يليه الى الداخل فى جنوبى الجزيرة أو شرقها . فقد كانوا يختصون أنفسهم فى هذه النواحى بأحسن الأراضى ، ويضمنون لأنفسهم بذلك دخولا تسمح لهم بالعيش عن سعة سواء فى ممتلكاتهم ، أو — وكان هذا هو الأغلب — فى عواصم النواحى أو فى كبار المدن ، وخاصة اشبيلية وبلنسية وسرقسطة ، وحتى فى العاصمة (قرطبة) فى القرن العاشر ، اذ اجتذبتهم اليها لطائف الحياة المترفة التى كان يحياها أشراف قرطبة حول بلاط الخليفة ... »[١] .

وقد عاد پروڤنسال ففسر كلام ذلك المؤلف الأندلسى وذهب الى أن سكان الأندلس يقسمون ، بناء على ذلك الكلام ، كما يلى :

(ا) أبناء الاسپان الذين دخلوا فى طاعة المسلمين صلحا ودخلوا فى الاسلام وأقاموا فى مواضعهم التى كانوا فيها .

(ب) أبناء الاسپان الذين دخلوا فى طاعة المسلمين عنوة ، فأصبحوا بحكم الفتح أسرى ثم أسلموا وأقاموا فى مواضعهم .

(جـ) أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، وأبناء أسرى النصارى الذين أتت بهم الفتوح والغزوات ، ثم اعتنقوا الاسلام واستقروا نهائيا فى الأندلس[٢] .

ثم قال : « ان هذا التقسيم يبدو مطابقا للواقع اذا عرفنا أن دخول

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *op. cit.* III pp. 172-173.

(٢) LÉVI-PROVENÇAL, *op. cit.* III p. 180.

الاسلام لا يستتبع من تلقاء نفسه المساواة فى الحقوق الكاملة بين من أسلموا صلحا ومن أسلموا عنوة . وعلى أى الأحوال ، فقد اقتصر أولئك المسلمون الجدد — الذين كانوا يعرفون كما رأينا بصورة عامة بالمولدين والمسالمة (أو الأسالمة) ، وبحسب هذا النص — على تربية الماشية والزراعة فى الأرياف وعلى صيد السمك والأعمال البحرية على الساحل . أما فى المدن فقد زاولوا ، هم ومواليهم حرفا وأشغالا يدوية واشتغلوا كذلك بالتجارة الصغيرة ، وذلك كله على وجه التقريب .

وهذه الملاحظات ، مهما بدا لنا من قلة أصالتها لا تخلو من قيمة . فهى تؤكد الدور العظيم الذى قام به المولدون — الذين كانوا يؤلفون أكثر أهل الأندلس من ناحية العدد والأهمية — فى الحياة الاقتصادية فى البلاد ، فقد كانوا فى هذه الناحية أوفر العناصر نشاطا وأكثرها تلاؤما مع ظروف الحياة فى شبه الجزيرة ، مثلهم فى ذلك مثل المستعربين ثم البربر الى حد معين . وقد دل الأمويون (الأندلسيون) على أحسن صور الحكمة السياسية عندما شجعوا هذه العناصر على النهوض ، وذلك باطلاق الحرية الكثيرين منهم فى أن يتمولوا ويندرجوا أكثر فى الجماعة الاسلامية ، حيث كان العنصر الفاتح يكوّن أرستقراطية قليلة العدد جدا . وكذلك دل الذين سبقوهم الى حكم الأندلس فى القرن الثامن على مقدرة سياسية عندما احتضنوا المولدين . فحلوا — على الصورة الوحيدة المعقولة — تلك المشكلة التى واجهتهم كما واجهت غيرهم من حكام المسلمين فى كل البلاد التى استقر فيها أمر الاسلام ، وذلك الحل هو السيطرة — بمساعدة سادة البلاد القدماء أنفسهم — على بلاد واسعة لم يكن الفاتحون وحدهم ليملكوا من قوى الاحتلال ما يكفى للمحافظة عليها ولمواجهة موقف العداء الذى اتخذه أهل البلاد الذين كانوا

ينتظرون أول فرصة ليتحرروا من سلطان كانوا يرون أنه يجاوز حد الاحتمال »(١) .

١٩٢ – خطأ هذه الآراء والأحكام

وهذه الأحكام العامة كلها لا تخلو من أخطاء : فأما عبارة ذلك المؤلف المجهول فواضح أنه لم يعتمد فيها على معرفة صحيحة بأحوال الأندلس خلال تلك العصور الأولى ، فلم يكن سكان الأندلس يتألفون من العناصر الأربعة التى ذكرها أولا وهى : العرب والبربر والنصارى واليهود الذين أسلموا ، أو من العناصر الثلاثة التى ذكرها ثانيا وهى : الاسبان الذين فتحت نواحيهم صلحا ثم أسلموا ، والذين فتحت نواحيهم عنوة ثم أسلموا ، ثم أبنــاء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، ويضاف اليهم أولاد أسرى الغزوات والفتوح الذين استقروا فى الأندلس .

فأما تقسيمه الأول فواضح منه أنه أسقط النصارى الذين ظلوا على دينهم ، وكانوا كما سنرى يمثلون نسبة عالية من سكان البلاد ، وأما تقسيمه الثانى فظاهر أنه مضطرب غير مستقيم . ثم ان تفريقه بين من فتحت نواحيهم صلحا ومن فتحت نواحيهم عنوة لا محل له هنا ، فان مسلمى الأندلس لم يستطيعوا أبدا تمييز أرض صلح من أرض عنوة فى هذه البلاد ، وانتهى بهم الأمر الى اعتبار من أسلم منهم جميعا مسلمين يتمتعون بنفس الحقوق ، ومن لم يسلم منهم أهل ذمة ، وطبقوا عليهم أشراط الشريعة فى أبسط صورها . وينبغى أن نلاحظ أن صدر الاسلام لم يعرف ما عرفته العصور المتأخرة من مضايقات أهل الذمة ، كاختصاصهم بملابس خاصة وتحريم ركوب بعض الدواب عليهم وما الى ذلك ، انما

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *op. cit.* III. pp. 180-183.

كان الاسلام اذ ذاك سمحا طلقا يترك الناس وشأنهم ما أدوا الأموال المفروضة عليهم ، وهذه السماحة هى التى حببت الناس فيه وجعلتهم يقبلون عليه ، وكأنما اجتذبهم اليه عــدم اصرار المسلمين الأول على ادخالهم فى الدين ، فلما أقبل الفقهاء وأخذوا يقننون ويشرعون ويخرّجون ويستعينون بالعوام على اقامة جاه لهم لا يقل عن جاه الدولة — ان لم يزد عليه — ظهرت هذه المضايقات التى ازدادت ثقلا كلما بعد العهــد بسماحة الاسلام الأولى وبساطة من حملوا لواءه . وكلما زاد الفقهاء اثقالا على من بقوا على دينهم من أهل البلاد ازدادوا تمسكا به ونفورا من الدخول فى الاسلام ، لأن المسألة لم تصبح مسألة دعوة سمحة وانما تحديا وتهديدا ، والتحدى من جانب يبعث تحديا فى الجانب الآخر كما يقول آرنولد توينبى فى دراسته الجليلة للتاريخ .

وأغلب الظن أن أحكام هذا المؤلف مســتقاة من بعض افتراضات المؤرخين المتأخــرين ممن كانوا ينظرون فى كتب الفــروع والأحكام والفتاوى ويستخرجون منها أحكاما يطلقونها على الماضى ، ظنا منهم أن الاسلام كان هكذا دائما ، أو رغبة منهم فى توجيه سياسة أهل الحكم فى أيامهم حيال الذميين وجهة خاصة بالزعم بأن ذلك كان الحال أيام « السلف الصالح » .

١٩٣ – هل كان العرب أرستقراطية مترفعة عن غيرها فى الأندلس ؟

ولقد تابع پروڤنسال هذه الآراء فقال بأنه كان هناك فى الأندلس تمييز بين أهل الصلح وأهل العنوة ، وسنرى أن شيئا من هذا لم يكن فى الأندلس ، ثم اعتبر اليهود جنسا قائما بذاته ، ولم يكونوا الا قلة اندرج معظمها فى عــداد المسلمين . ثم ذهب يقول من عنده ان العرب كانوا يكونون أرستقراطية خاصة ، والواقع أنهم لم يكونوا كذلك ، وانمــا كانت الأرستقراطية

الحقيقية فى بيوت الموالى ولم يكونوا عربا على ما رأيناه فى الفصـل السـابق ، وقد ظل الجاه والسلطان فى هـذه البيوت الى آخر أيام الخلافة الأموية ، أما العرب فقد اندرج منهم فى أهل البلاد من اندرج ، وبقى منهم فى العواصم نفر يطلبون العيش كغيرهم ، وبقيت منهم فى الأرياف جماعات محتفظة بأراضيها كما احتفظ غيرهم من غير العرب بأراضيهم ، فيما عدا عرب الكور المجندة ، وكان لهؤلاء وضع خاص كما سنرى ، اذ كانوا نواة القوة العسكرية للدولة أول الأمر ، وكان لهم من الامتياز والاعتزاز بأنفسهم ما كان لأمثالهم من العسكريين فى كل مكان فى تلك العصور . وعندما استبدل أمراء بنى أمية جند الصقالبة بجند العرب وجعلوا أولئك الصقالبة نواة جيشهم انحدر جند العرب الى المكان الثانى ، فأحفظهم ذلك ، وكان من أكبر أسباب الفتنة الكبيرة التى أشعل العرب نارها من أوائل حكم الأمير محمد الى أوائل عهد الناصر . ويلاحظ بصفة خاصـة أن ثورة العرب هـذه وغضبهم على الأمراء ، الذين أحلوا غيرهم مكانهم فى الجيش واعتمدوا على الموالى فى شئون الدولة ، كانا السبب الأول فى اتجاه العرب الى أذى المولدين والعجم ، وهذا الأذى بدوره هو الذى روع هؤلاء واستنهضهم الى المقاومة ، فكان ذلك عصب ثورة عمر بن حفصون وغيره ممن قادوا ثورات المولدين ومن انضم اليهم من نصارى الذمة ، ولم يكن سبب ثورتهم سوء المعاملة أو ثقل الجبايات ، ولم يكونوا ينتظرون أول فرصة للتحرر من نير كانوا يرون أن احتماله يجاوز الطاقة كما قال پروفنسال .

* * *

من الطبيعى أن يكون أهل الذمة معظم أهـل الأندلس الاسلامى خلال السنوات الأولى التى أعقبت الفتح ، وأن

يقل عددهم شيئا فشيئا ، كلما قدم عهد الاسلام فى البلاد حتى يصبحوا أقلية بالنسبة الى العرب والبربر والمسالمة والمولدين . ولقد بينا فيما سبق كيف أنهم كانوا يعيشون على اتصال مباشر بالمسلمين ، ما بين عرب وبربر فى الريف والمدن ، وأشرنا كذلك الى أن التمييز الواضح بينهم وبين المسلمين فى الوضع والمعاملة ، لم يظهر الا فى عصر متأخر ، عندما تمكن أمر الفقهاء ووضعوا ما شاءوا من القيود لا على الذميين فحسب ، بل على المسلمين أيضا .

ولقـد أخطأ كثير من الباحثين الذين تعرضوا لدراسـة أحوال الذميين فى الأندلس وغيره من بلاد الاسلام ، عندما التمسوا الحدود والقواعد التى وضعت لهم من كتب الفقه والنظم الاسلامية ، وفاتهم أن هذه الكتب كلها وضعت فى زمن متأخر عن عصر صدر الاسلام ، فهى لا تمثل الوضع فى صـدر الاسـلام ، بل هى لا تمثـل الوضع فى العصور التى كتبت فيها ، فالكثير مما تحتويه من قواعد وأحكام انما تمثل « أمانى » مؤلفيها ، وما كانوا يرون أن يكون عليه أهل الذمة بحسب ما انتهى اليه تصورهم وتفسيرهم للآيات والأحاديث وآراء كبار الأئمة . ونحن اذا قرأنا اليوم كتاب « الخراج » لأبى يوسف أو كتاب « الأموال » لأبى عبيد أو « الأحكام السلطانية » للماوردى انما ندرك أن مافى كتبهم انما هو « المثل الأعلى » للنظم الاسـلامية كما ارتآه أولئك الفقهاء ، وليس هناك مؤرخ محقق يقول بأن هذا هو النظام الذى كان جاريا بالفعل : اذ الواقع أن أحوال المسلمين كانت أسوأ بكثير ، وأحوال الذميين أحسن بكثير مما فى هذه الكتب ، وكان هدف الفقهاء من هذه المبالغة هو طلب الرفق بالمسلمين والتشديد على الذميين ،

حسبانا منهم أن هذا يسرع باسلامهم ؛ ولم يتحقق شىء مما رجوه : لا المسلمون تحسنت أحوالهم ، ولا الذميون أسرع اسلامهم .

١٩٥ – وضع الذميين فى المجتمع الأندلسى خلال هذه الفترة

ولقد رأينا فيما سبق كيف كان لون العلاقات بين كبار عرب الأندلس وكبير نصارى الذمة أرطباس ، ورأينا كيف كان الأمر صداقة بين الجانبين لا سيادة جانب على جانب، وأن ميمون العابد ، وكان قطبا من أقطاب الاسلام الأندلسى فى ذلك العصر ، ذهب يطلب الى هذا الذمى قطعة أرض ليزرعها على أساس المزارعة ، أى اقتسام الثمر بينه وبين صاحبها ، ولو أن العرب كانوا غاصبين مستبدين — كما زعم خاثيير سيمونيت وايزيدورو دى لاس كاخيجاس — لما احتاج هذا الرجل الى أن يطلب أرضا من أرطباس على هذه الصورة .

ولا نزاع فى أن العرب لم يسيئوا النصارى الذين صالحوا على أنفسهم بسوء ، فقد روى صاحب « فتح الأندلس » أن موسى بن نصير رأى النبى صلى الله عليه وسلم أثناء عبوره الى الأندلس فنصحه « بالرفق بالمشركين » (١) ؛ وهى رواية أسطورية فى الغالب ، ولكنها على أى حال تدل على اتجاه المسلمين حيال غير المسلمين أثناء الفتح وبعده بقليل . ومما يؤيد ذلك عبارة للرازى يقولها فى سياق الحديث عن أم عاصم (ايلونا) زوج لذريق : « وكانت قد صالحت عن نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها فى ظل نعمتها ، الى أن نكحها الأمير عبد العزيز فحظيت عنده ؛ ويقال انه سكن بها فى كنيسة باشبيلية » (٢) : مما يدل على أن من كان يصالح على نفسه

(١) فتح الأندلس ، ص ٥ .
(٢) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

من النصارى ويقبل دفع الجزية كان يضمن حرية دينه والبقاء « فى ظل نعمته » . وسنرى أن ذلك كان صحيحا فى جملته وتفصيله ، وان كل ناحية من نواحى الأندلس صالحت على نفسها بمعاهدة خاصة ، وأن هذه المعاهدات اختلفت فيما بين بعضها وبعض ، من حيث الصيغ والتفاصيل واتفقت فى الروح والأساس . بل اننا نلاحظ أن الفاتحين كانوا يتصرفون تصرفا واسعا فيما يعقدونه من عهود مع أهل النواحى ، بل ذهب بعضهم الى حد « الابتكار » الذى يتجاوز ما تبيحه السوابق والقواعد ، ومن أمثلة هذا ما يرويه صاحب فتح الأندلس من أنه « عندما وصل موسى الى الفج المنسوب اليه انقطع اليه أهل ذلك الموضع ، فأقرهم على حالهم ، فسموا موالى موسى » (١) .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما حكاه الرازى عن فتح طارق لاستجة ، قال : « ثم نازل أهل استجه ، وهم فى قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالا شديدا ، حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم ان الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون بعد ذلك حربا مثلها ، وأقاموا على الامتناع الى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها ، وكان مغترا سيىء التدبير ، فخرج الى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقا هنالك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق فى الماء ، فأخذه وجاء به الى العسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية وخلى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه .. » (٢) . وقد كان المسلمون يحرصون على الوفاء بعهودهم ، حتى فى الحالات التى يبدو لهم أنهم خدعوا فيها ، كحالة تدمير الذى احتال

(١) فتح الأندلس ، ص ١٤ .
(٢) المقرى : نفح ، ج ١ ، ص ٢٤٣–٢٤٤ .

على جند المسلمين بحيلة بارعة فصلنا أمرها فى كلامنا عن الفتح ، وقد وفى المسلمون رغم ذلك لتدمير ، قال الرازى : « فمضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم » (١) .

١٩٦ – عهود المسلمين للنواحى وقد ضاعت نصوص معظم المعاهدات التى عقدها المسلمون مع مافتحوه من النواحى ، ولكن بقى لنا النص الكامل لمعاهدة عبد العزيز بن موسى مع تدمير وقطعة هامة من عهد موسى بن نصير لأهل ماردة أوردها الرازى فى القطعة الباقية من تاريخه فى ترجمتها الاسپانية ونصها : « ... فذهبوا (يريد أهل ماردة) اليه ، وقالوا انهم يتركون له كل ما كان لمن مات منهم ومن جرح (فى القتال بينه وبينهم) وممتلكات الكنائس وما فيها ، وكذلك ما تحويه من الأحجار الكريمة وغيرها من الأشياء الطيبة وكل ممتلكات رجال الدين . وبعد أن تم التوقيع على ذلك فى عهود صحيحة (مؤكدة) فتحوا له الأبواب وأدخلوه البلد وأسلموه اياها . ولم يمس المسلمون من أقام فى البلد من النصارى بأذى ، وأما من أراد ترك البلد منهم فتركوه يمضى دون أذى .. » (٢) . وأما نص الأمان الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى لصاحب تدمير فقد

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .

(٢) النص :

"...Et fueronse para el, et pleitaron que le diessen todo el aver de los muertos, et de los feridos, et de las iglesias, et de lo que en ellas estaba, ansi como piedras preciosas et otras nobles cosas, et todo el aver de los clerigos. Et despues que esto fué firmado por buenas cartas abrieronsse las puertas, et acogieronlo dentro, et entregaronlo de ella. Et aquellos christianos que hi moravan nos les facian mal, et los que irse querian ibanse, et non les facian mal..."

PASCUAL DE GAYANGOS, *Memoria sobre la autenticidad de la Crónica denominada del Moro Rasis.* p. 78.

أورده الضبى فى « البغية » ، ووردت ترجمته الاسپانية فى قطعة الرازى المشار اليها ، وقد أوردنا نصه فى كلامنا عن فتح الأندلس وسنعرض له فى الفصل التالى عن الادارة ، ويهمنا فى هذا المقام أن ننص على ما فيه من الضمانات التى منحها للذميين .

وقد اعتمد نفر من الباحثين الاسپان فى دراسة أحوال أهل الذمة فى الأندلس على وثيقة تسمى « عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه للنصارى » . وهى وثيقة ظاهرة الوضع ، اذ أنها تشير الى الزام النصارى بملابس خاصة منها « القلنسوة » و « العمامة » وهى ملابس لم يعرفها المسلمون فى أيام عمر رضى الله عنه ، وتحرم عليهم كذلك ركوب الخيل وما الى ذلك ، ولم يعرف عن عمر أنه نهى النصارى عن ذلك . والحقيقة أن هذا « العهد » من وضع فقهاء العصور المتأخرة ، ولا يجوز اتخاذه أساسا لدراسة أحوال أهل الذمة فى عصر صدر الاسلام (١) .

١٩٧ – تطور النظم الإسلامية ويبدو أن مؤرخى الاسلام جميعا ، ما بين قدامى ومحدثين، مسلمين وغير مسلمين ، يغيب عنهم أن النظم التى جرى المسلمون عليها فى حكم الأقاليم والمعاملة التى اختصوا بها أهل الذمة لم توضع كاملة من أول الأمر ، وانما تكاملت شيئا فشيئا مع الزمن ، وخضعت فى كل مكان للظروف المحلية . ومن أمثلة ذلك أن أبا يوسف يذهب فى كتاب « الخراج » الى أن تقدير الجبايات تقديرا اجماليا ودفع

(١) نشر هذا النص المستشرق بيلان فى المجلة الأسيوية الفرنسية . انظر :

BELIN, *Fetoua relatif à la condition des dzimmis, et particulièrement des chrétiens, en pays musulmans*, dans *Journ. Asiat.* tome XVIII de la IVe. serie. pp. 126 sqq et 138 sqq.

وترجمه سيمونيت فى كتابه الآنف الذكر . ملحق ٢ ، ص ٨٠١ وما يليها .

الخراج جملة واحدة غير جائزين ، فى حين أن الوثائق البردية التى عثرنا عليها تدل على أن حكام المسلمين جروا على ذلك أول الأمر : ففى مصر مثلا اتفق عمرو بن العاص مع ممثلى القبط على أن يؤدوا ما عليهم جملة واحدة تشمل الجزية والخراج جميعا ، وقد جرى الأمر على ذلك أيام عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى السرح ، ثم كان التقسيم والتقنين بعد ذلك [١] . بل ان تحديد معنى الجزية والخراج غير واضح ؛ فتسمى الجزية فى بعض الأحيان « خراج الرءوس » ويسمى الخراج « جزية الأرض » . ذلك أن الذين عقدوا العهود مع أهل البلاد المفتوحة هم الفاتحون ، وهم رجال عسكريون عمليون ، كل ما كان يعنيهم اقرار الأمن وضمان طاعة البلاد المفتوحة واشعار أهلها بسماحة الاسلام وعدل الدولة الاسلامية ، ثم ضمان حق الدولة فى الجبايات ؛ وهم لهذا كانوا لا يدققون فى طريقة الجباية ولا يتدخلون فى شئون أهل البلاد الا بالقدر الذى يضمن حقوق الدولة . ولم ينتقل الأمر الى أيدى الفقهاء والمقننين الا فيما بعد ؛ وقد بدأ الفقهاء عملهم على أسلوب علمى : يسألون عن الصلح والعنوة ، ويلتمسون الأحكام من القرآن الكريم والسنة ، ويتصرفون فيما يصدرونه من أحكام تصرفا واسعا ذكيا يدل على ادراك وسعة فهم ، كما نرى فى موطأ مالك وما استند عليه مثل مدونة سحنون : ثم مضى عهد كبار الفقهاء وأئمة الشرع فى منتصف القرن الثالث الهجرى

(١) انظر مناقشة ذلك فى :

C.H. BECKER, *Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam.* II, p. 83 sqq, 124 sqq.

–, *Die Entstehung von Usr und kharagland in Aegypten* in *Zeitschrift der Assyriologie*, XVIII (1904 - 1905) 301 - 319.

–, *Papyri Schott Reinhardt*, I (Heidelberg, 1906) S. 37 sqq.

تقريبا ، وبدأ عهد « الفقهاء السياسيين » أى الفقهاء الذين طمحوا الى السلطان عن طريق التقرب من الحكام حينا أو الاستعانة بالعوام حينا آخر لاقامة جاه يستندون اليه . ولا نجد هذه الظاهرة على صورتها الواضحة ، التى يمكننا تأريخها ، الا فى المغرب والأندلس ، وفى هذا البلد الأخير بصورة خاصة ، حيث نجد دولة الفقهاء وجها لوجه أمام دولة الأمراء ، ونجد دولة الفقهاء تبنى جاهها على ايمان العوام ، وتشرع بما يرضيهم ويستثير عواطفهم ؛ ومن هنا كانت مناداتهم بكل ما يرضى مشاعر الجماهير ، ومن ذلك التشدد مع الذميين ، وتحريض الأمراء عليهم وتحريض العامة على الأمراء اذا هم قربوا رجالا منهم [١] . وكان الفقهاء حريصين على أن يؤيدوا مذاهبهم بتفسيرات خاصة لأحكام الشرع ، وربما ابتكروا وثائق ونسبوها الى رجال الدولة الاسلامية الأولى ، كما رأينا فى الوثيقة المنسوبة الى عمر بن الخطاب وكما نرى فى الوثيقة المنسوبة الى عبد الرحمن الداخل وغير ذلك كثير [٢] .

والحقيقة أن المسلمين الأولين كانوا يجرون على تسامح كريم صادر

(١) انظر مثلا تحريض الفقهاء للعامة على الحكم الربضى لأنه أطلق يد ربيع التومس متولى المعاهدين بالأندلس من النصارى فى المعاون والمغارم على المسلمين (أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ، طبعة بيروت بعنوان : إسبانيا الإسلامية ، بيروت ١٩٥٦) ؛ ص ١٥ . وتحريض هاشم بن عبد العزيز للأمير محمد على قومس بن انتنيان بسبب توليته إياه الكتابة (ابن القوطية : افتتاح ، ص ٨٢–٨٣) .

(٢) أورد سيمونت نص هذه الوثيقة الموضوعة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل ، وهو : «بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى الأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من ساير البلدان ، كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ومثلها من البغال مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح فى كل عام إلى خمس سنين . كتب بمدينة قرطبة ، ثلاثة من صفر عام اثنين وأربعين ومائة » .

عن ادراك فطرى أن هذه هى السياسة المثلى لاجتذاب الناس الى الاسلام واقناعهم بعدالة الدولة الاسلامية . وذلك أمر لاينبغى أن يغيب عنا عند التأريخ للنظم الاسلامية : ينبغى أن نقف عند ما لدينـا من الوثائق الأصيلة وشواهد المؤرخين الموثوق فيهم دون محاولة اكمال الفجوات من أحكام أبى يوسف وقدامة بن جعفـر ويحيى بن آدم وأبى عبيـد ابن سلاّم .

* * *

١٩٨ — المسلمون يدعون أهل الذمة أحرارا

ضمن المسلمون للنصارى واليهود من أهل البلاد حريتهم ، وأدخلوهم فى ذمتهم مقابل الجزية والخراج على ما تقضى به الشريعة الاسلامية . وسنرى فى الفصل التالى أن المسلمين فى الأندلس لم يفرقوا كثيرا بين الصلح والعنوة ، فنال كل المسيحيين تقريبا نفس الحقوق ، ولم يمس المسلمون من الممتلكات الا ما كان ملكا لبيت لذريق وأفراده أو للذين قتلوا فى الحرب مع المسلمين ، وكذلك أملاك الكنيسة ، فاعتبرت هذه كلها غنيمة أخرج خمسها فجعل ملكا للدولة ، وترك الباقى بيد من كانوا يزرعونه يؤدون عنه خراجه فيئا للجماعة الاسلامية كلها . ولما كانت أملاك الكنيسة والبيت المالك كثيرة جـدا ، فان الدولة لم تستطع احصاءها كلها ، بسبب اشتغال الأمراء بالحروب والفتن ، فوضع الكثير من أفراد الجيوش الغازية أيديهم على أرض كثيرة واستقروا فيها على أن يؤدوا للدولة ما لها من مال . بل ان المسلمين أطلقوا أسرى النصارى فى أراضى الخمس ليعمروها ، فكأنهم اعتبروهم مزارعين كغيرهم ممن استسلم وباء بالجزية والأثمان .

١٩٩ — النصارى يتقاضون بقانونهم

وقد ترك المسلمون نصارى الأندلس أحـرارا ينظمون أمورهم على النحو الذى أرادوه ، ما داموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الأموال ، فظلوا يفصلون فى أقضيتهم

وفقا للقانون القوطى القديم [١] ، وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان يدير أمور الجمـاعات المسيحية الكبيرة فى المدن والأرياف رجال من نصارى عجم الأندلس يسمون بالقمامسة ، وواحدهم قومس Comes ، وهو لقب كبير كان مقصورا قبل ذلك على القوط ، فلما أزال العرب أمر القوط صار القمامسة من أهل البلاد ، فكأن الفتح الاسلامى رد اليهم اعتبارهم من هذه الناحية [٢] .

٢٠٠ — الجماعات النصرانية تنظم أنفسها

وقد ترك العرب الجماعات النصرانية نظامها المدنى الذى كانت جارية عليه أيام القوط ، وهو نظام مدنى وادارى أيضا ، أى أن القائمين بأمره كانوا مسئولين عن كل ما يتصل بأمور رعاياهم فيما بين أنفسهم . كانوا يجمعون ضرائبهم ويؤدونها الى بيت المال نيابة عنهم ، وكانوا يعينون لهم القضاة الذين يفصـلون فى منازعاتهم بحسب القـانون القوطى ، وكانوا يشرفون على كنائسـهم ويتولون أمور قساوستها ، أى أنه وجد من أول الأمر نظامان اداريان جنبا الى جنب : واحد للمسلمين وواحد للنصارى . أما فى القضايا التى تقع بين المسلمين وغير المسلمين ، فكان ينظر فيها قضاة المسلمين ويحكمون فيها بشريعة الاسلام ، ولهـذا جاء فى أحد كتب الفقـه الأندلسية : « ويستحب للقاضى الجلوس للحكم فى رحاب المسجد الخارجة عنه من غير تضييق عليه فى جلوسه فى غيرها ، ليصل اليه اليهودى والنصرانى والضعيف وهو أقرب المواضع » [٣] .

---

(١) المعروف باسم Forum Judicum وفى الإسبانية Fuero Juzgo ويعرف باسم Lex Gothorum أو Lex Judicum .

(٢) SIMONET, *op. cit.* pp. 106-107.

(٣) SIMONET, *op. cit.* p. 99

٢٠١ – التشريع الإسلامى والقانون القوطى

وسنرى فى الفصل التـالى أن مسلمى الأندلس فى ذلك العصر كانوا يجرون فيما يتصل بالتشريع والتنظيم على مذهب الأوزاعى ، وهو مذهب أهل الشام فى ذلك العصر ، يعتمد على القرآن والسنة ، ويفسح مجال الرأى ، فيعتبر ما فعله الصالحون من خلفاء بنى أمية من الآثار الصالحة التى يمكن القياس عليها ، وقد كان العصر الأموى كله عصر فتوح وحروب وتوسع كثرت فيه المشاكل والمسائل الناجمة عن الحروب والفتوح ودخول أمم جديدة فى الاسلام ، وكان لابد من القضاء فيها برأى سريع حازم عملى ، ولهذا قيل ان فقه الأوزاعى فقه عسكرى ، وكان معظم امتداد الاسلام اذ ذاك فى بلاد جرى أهلها على التشريع البيزنطى أو الرومانى ، فدخل تشريع خلفاء بنى أمية ورجالهم الكثير من أصول القوانين البيزنطية والرومانية ، ولهذا قيل ان فقه الأوزاعى تأثر بالتشريع الرومانى [1] ، وقد رفض الكثيرون من المفكرين المحدثين هـذا الرأى اعتزازا منهم بأصالة التشريع الاسلامى [2] .

ونظن أن الوضع فى الأندلس يعطينا رأيا نافعا فى هذا الموضوع ، فها نحن أمام حالة فريدة فى بابها : تشريعان ساريان جنبا الى جنب تقر الادارة الاسلامية ما يصدر عنهما : تشريع اسلامى يطبق على المسلمين ، وغير المسلمين فى حالات خاصة ، وتشريع قوطى رومانى نصرانى يطبق على النصارى . والتشريعان يسيران جنبا الى جنب . فاذا ذكرنا أن معظم أهل الأندلس فى الفترة الأولى بعد الفتح كانوا نصارى ، أى يطبق عليهم

(١) انظر :
JOSEPH SCHACHT, the Origins of Mohammedan Jurisprudence; 72. 288-289

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ص ٢٤٨ .

القانون القوطى ، وأن القاضى المسلم كان اذا جلس للحكم ، جلس فى موضع يصل اليه فيه النصارى واليهود ، وأنه كان يستمع الى متخاصمين قد يكون بعضهم مسلمين وبعضهم نصـارى ، ويجتهد فى أن يصدر حكما يرضاه المتخاصمون ويكون فى نفس الوقت متمشيا مع أحكام الشريعة الاسلامية ويكون قابلا للتنفيذ فى نفس الوقت — أفليس من المعقول فى هذه الحالة أن يستمع القاضى وهو فى مجلسه الى ما يقوله النصرانى معتمدا فيه على ما جرى عليه العمل من القانون القوطى ، ولم يكن كله متعارضا أو بعيدا عما يقول به الشرع الاسلامى ؟ لقد كان القاضى المسلم فى ذلك الحين قاضى المسلمين ، وكان يسمى لهذا « قاضى الجند » لأن المسلمين جميعا كانوا اذ ذاك معتبرين جندا ، ولم يسم بـ « قاضى الجماعة » الا فى زمن متأخر [1] ، عندما صارت الجماعة الأندلسية كلها جماعة اسلامية ، وتضاءل نفوذ « قاضى العجم » حتى اقتصر على الأقلية المسيحية . وكان « قاضى الجند » هذا مضطرا الى الاستماع الى حجج المتخاصمين ، والكثيرون منهم نصارى أو مسالمة ، ومنهم من يطالبون بحقوق أقرها لهم القانون القوطى ، فهل يستبعد والحالة هذه أن يجتهد القاضى فى العثور على رأى يضمن للناس حقوقهم ويربطه بطريقة ما بأصول التشريع الاسلامى ؟ [2] لقد جاء فى وصية عقبة ابن الحجاج السلولى الى قاضيه مهدى بن مسلم — وهى دستور القضاة فى الأندلس اذ ذاك ، وكان مهدى بن مسلم من أبناء المسالمة ، أى من

(١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٢١ .

(٢) راجع ما يقوله جوزيف شاخت عن فقه الأوزاعى وحركة إدخال بعض قواعد التشريع التى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة فى الفقه الإسلامى :
JOSEPH SCHACHT, *op. cit.* pp. 288-289.

المولدين ، أى نشأ فى بيت يتحدث أهله بالعجمية ويجرون على ما جرى عليه قومهم من قوانين القوط — : « ... وأمره أن يساوى بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلى به ، ويستأنى بكل عيى اللسان ناقص البيان ، فان استقصاء الحجة ما يكون به لحق الله تعالى قاضيا وللواجب فيه راعيا ، فقد يكون بعض الخصوم ألحن بحجته وأبلغ فى منطقه وأسرع فى بلاغ المطلب ، وألطف حيلة فى المذهب وأذكى ذكاء وأحضر جوابا من بعض ، وان كان غير الصواب مرماه ... »(١) . والاشارة هنا — كما يغلب على الظن — الى أولئك الذين لا يحسنون الابانة عما فى نفوسهم بالعربية ، اذ هم حديثو عهد بها ، فاذا ذكرنا أن مهدى بن مسلم هو الذى كتب عهده بنفسه عن الأمير عقبة بن الحجاج تأكد فى نفوسنا هذا المعنى(٢) .

ولدينا أمثلة قليلة جدا من قبول قضاة الأندلس لأشياء مما جرى به العرف أو القانون الجارى فى تلك البلاد بين أهل البلاد . قال الخشنى : « ومن ذلك أن أحمد بن أبى خالد سمع محمد بن عمر بن لبابة يقول : حضرت وقد خاصم اليه رجل فى فرن بناه صاحبه فأضر الدخان به وبالجيران ، وهذه المسألة يقول [فيها] ابن قاسم أن ذلك من الضرر الذى يجب قطعه ، ولا يباح اتخاذه ، فقضى سليمان بن أسود بغير ذلك: أن يجعل أنبوبا فى أعلى الفرن ، فيخرج الدخان من أعلاه فلا يضر ذلك بمن جاوره ، فكان محمد بن عمر [بن لبابة] يفتى بهذا ويحمل الناس عليه فيما أخبرنى أحمد بن خالد »(٣) . وهناك مثل آخر يحكيه الخشنى

(١) الخشنى : قضاة الأندلس ، ص ٢١ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

فى ترجمة القاضى الحبيب بن أحمد بن زياد اللخمى ، فقد ذكر أن مجاعة حدثت فى أيام الأمير محمد ، فكثر التطاول من المفسدين ، « فولى السوق حينئذ ابراهيم بن حسين بن عاصم ، وأمره بالاجتهاد ، وعهد اليه بالتحفظ وأذن [له] بالتنفيذ فى القطع والصلب بلا مؤامرة منه ولا استئذان ، فكان ابراهيم يجلس فى مجلس نظره فى السوق ، فاذا أوتى بالفاسد المفدح قال له : اكتب وصيته ! ودعا له بشيوخ فأشهدهم على ما يوصى به ، ثم صلبه ونحره ، فكان بين يديه من المصلوبين عدد عظيم . فأتاه قوم بنفر من جيرانهم فشكوا اليه تطاولا على ما يكون من أشرار الأحداث ، وهم لا يشكون أنه سيزجره الزجر القوى ، وان أفرط فى عقابه فالسجن ، فقال لشيخ منهم : ما يستحق عندك ؟ فقال — على وجه المثال — : ما استحق هؤلاء ! وأشار الى المصلّبين ، فقال ابراهيم ابن حسين [له] ولأصحابه : انصرفوا ، فانصرفوا . ثم قال للفتى : اكتب وصيتك ! فقال له : اتق الله فىّ ، فانه لم يبلغ ذنبى أن أستحق القتل والصلب . فقال له : بذلك شهد عليك الشهود ، فقتله وصلبه . فلما بلغ الشهود ذلك أتوه فقالوا له : لم نشهد عندك على الفتى بذنب يجب فيه القتل ! فقال : أو لم يقل قائلكم انه يستحق ما يستحق هؤلاء؟ فقالوا له: « على المثل ! » ، قال : فإثم ذلك فى رقابكم ، اذ لم تحسنوا الابانة من أنفسكم »(١) .

وظاهر أن هذين الحكمين مستقيان من جارى العرف والقانون القوطى ، فوضع المداخن أمر لم يكن معروفا فى المشرق ، والحكم به يعتبر تجديدا مقتبسا من البيئة الأندلسية ، وقتل الحدث للذنب البسيط غير جائز فى الشريعة الاسلامية ، ولكنه جائز فى شريعة القوط . بل ان

(١) الخشنى : قضاة الأندلس ، ص ١٧٨–١٧٩ .

القضاة أنفسهم كانوا يجيزون لأنفسهم ما لا يجيزه أهل التقى والورع فى المشرق ، فقد خطب زياد بن عبد الرحمن — الذى أصبح قاضيا فيما بعد — ابنة القاضى معاوية بن صالح ، وأحب رؤيتها قبل البناء بها « على ما يفعله بعض الناس ، فتحيل النساء عليه فى ذلك وأتين به عند العشاء الآخرة ، فصار فى الاسطوان ، فنفرت دابة معاوية منه واشتد قلقها من أجله ، حتى خرج معاوية الى الصلاة فسمع حس الدابة فرابه ذلك ، فدعا بالمصباح ، فوجد زيادا فى مذود الدابة فى بعض زوايا الاسطوان . فما زاد على أن قال له : استوصوا [بحرمات المسلمين يستوص الله] بكم خيرا ، ثم خرج الى الصلاة » (١) . وأمر كهذا ما كان يجيزه عرف أهل التقى والعلم فى المشرق ، ولو فعله رجل لما ولى القضاء أبدا ، ولكن زياد بن عبد الرحمن ولى القضاء بعد ذلك وصار من كبار أهل العلم والفتيا ، وهذا أثر من آثار البيئة الأندلسية فى تصرفات شيوخ الأندلس وحكمهم على الأشياء .

وروى الخشنى أن القاضى محمد بن زياد اللخمى كان يتساهل مع السكارى ويتغافل عنهم ، حتى لقد أتوه برجل « يتمايد سكرا » فأمر القاضى بأخذه ليقيم عليه الحد ، وكان يرافق القاضى صديق له فقيه هو محمد بن عيسى الأعشى ، فلما كان فى موضع ضيق . « تقدم القاضى وتأخر الأعشى ، ففى تأخره عن القاضى التفت الى الذى كان يمسك السكران فقال : يقول لك القاضى : أطلقه ! فأطلقه ، ثم افترقا جميعا . ونزل القاضى ودعا بالسكران ، فقيل له : أمرنا عنك أبو عبد الله الفقيه أن نطلقه ، فقال : وفعل ؟ قال : نعـم ! قال : أحسن ! » . وقد علق الخشنى على ذلك محتجا ، وقال : « وما أتى عن القضاة فى هذا المعنى

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥ .

خاصة من الاغضاء عن السكارى والتغافل لهم والرقة عليهم ، فلا أعرف لذلك وجها من الوجوه يتسع لهم فيه القول ويقوم لهم فيه العذر ، الا وجها واحدا ، وهو أن حد السكر من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل ، ولا أتى فيه حـديث ثابت عن الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم .. الى آخـره » (١) . وقد فات الخشـنى ، وهو من فقهاء القـرن الرابع الهجـرى ، أن قضـاة الأندلس أيام محمد بن زياد ، أى منتصف القـرن الهجـرى الثـانى ، لم يكونوا يحكمون بالنصوص فقط ، بل كانوا يجتهدون ويراعون البيئة المحلية ، ويتأثرون بما حولهم ، وأن القانون كائن حى يغتذى بما حوله وينمو ويتطور ، واذا كان تاريخ أى جماعة يتجلى بأصدق صوره فى تاريخ تشريعها ، فلا شك أن المجتمع الاسلامى والشرع الاسلامى لا يشذان عن هذه القاعدة ، وأن التشريع فى صدر الاسلام كان حيا متطورا متقبلا لكل جديد ، مثله فى ذلك مثل الجماعة الاسـلامية فى ذلك العصر ، فلما جمدت هذه الجماعة جمد هو الآخر ولم يعد يتطور .

وقد جمد التشريع الاسلامى ووقف عن التطور عندما تحول الى علم ثابت الأصول والفروع على أيدى الفقهاء ، ولا يبدو ذلك فى صورة هى أوضح مما ظهر به فى الأندلس والمغرب ، فقد كان التشريع فى هذين البلدين أول الأمر سهلا مرنا يأخـذ من البيئة المحلية كثيرا ويطوع ما يأخذه لأصول الاسلام ، بل اشترك نفر من أهل المغرب والأندلس مع مالك بن أنس فى تكوين مذهبه ، فأهل الأندلس يذهبون الى أن مالكا روى عن قاضيهم معاوية بن صالح (٢) ، وأهل المغرب يقولون

(١) الخشنى : قضاة ، ص ١٠٢–١٠٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٠ .

ان سحنونا كان صاحبا لابن القاسم يجالسه ويشاوره [1] ، واستمر ذلك حتى اكتمل مذهب مالك وأقبل الى المغرب والأندلس تلاميذ مالك ونشروا مذهبه وحملوا الناس عليه وكرهوا كل تجديد أو ابتكار . هنا جمد التشريع ولم يعد له سبيل الى التطور ، وأخذ باب الرأى يضيق شيئا فشيئا حتى أصبح « رأىَ مالك » فقط وأصبح الفقهاء هم أهل الحديث ، وتلاشى مذهب الأوزاعى وقامت دولة المالكية وفقهائها .

ومن المحقق أن تشريع قضـاة الأندلس الأول قد ضاع معظمه ، قال الخشنى : « وذكر محمد بن وضاح قال : قال لى يحيى بن معين : جمعتم حديث معاوية بن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلدا لم يكن أهله يومئذ أهل علم ! قال : أضعتم والله علما عظيما ! » [2] . وقال محمد بن عبد الملك بن أيمن انه بحث عن كتب معاوية بن صالح فلم يجدها ، قال: «فلما انصرفت الى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أهلها »[3] . ويؤكد الخشنى أن أحد قضاة ذلك العصر الأول فى الأندلس ، وهو المصعب بن عمران ، لم يكن « بالمتسع فى علم السنن ولا فى رواية الأخبار » فبماذا كان يحكم ؟ ثم يقول بعد ذلك ان « زياد بن عبد الرحمن أول من دخل الأندلس بالفقه والحلال والحرام » [4] مما يفهم منه أن أحكام الأندلس لم تكن تجرى قبل ذلك على فقه ثابت معروف ، بل على الاجتهاد والرأى

---

(١) المالكى : رياض النفوس (قام على نشره حسين مؤنس سـنة ١٩٥١) ج ١ ، ص ٢٥٠ وما يليها .

(٢) الخشنى : قضاة الأندلس ، ص ٣١ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

والقياس . وربما كان المراد هنا أن زيادا أول من دخل الأندلس بفقه مالك ، وهو أمر لا يغير من الوضع كثيرا ، ولدينا براهين تؤيد ذلك ، فمن ذلك ما يحكيه ابن القوطية من أن عيسى بن مزاحم عندما تزوج سارة القوطية قدم معها الى الأندلس « وقبض ضياعها » [1] ، والزوج فى الشريعة الاسلامية لا يقبض أملاك زوجه الا بشروط ، ولكن القانون القوطى يقره مبدأ عاما . ويؤيد ما نقوله النباهى فى حديثه عن المصعب ابن عمران القاضى ، قال : « وكان يروى عن الأوزاعى وغيره ، وكان لا يقلد مذهبا ، ويقضى بما يراه صوابا » [2] . ومن الثابت أن قضاة الأندلس فى ذلك العصر لم يكونوا يرون بأسا بمخالفة ما ينص عليه الأئمة ، ومن ذلك أن القاضى محمد بن بشير كان « لا يجيز الشهادة على الخط فى غير الأحباس ، ولا يرى القضاء باليمين مع الشاهد » ، وقد علق على ذلك محمد بن عمر بن لُبَابة بقوله : « قد علم القاضى — حفظه الله — اختلاف أهل العلم ، وما ذهب اليه مالك وأصحابه من اليمين مع الشاهد ، وما ذهب اليه قضاة بلدنا منذ دخلته العرب ، من أنهم لا يرون اليمين مع الشاهد ولا يقضون به .. » [3] مما يدل على أن قضاة الأندلس كانت لهم آراء خاصة يجرون عليها .

٢٠٢ — عمـل قرطبة — ومن الثابت أيضا أنه كان لقضاة قرطبة فقه خاص يجرون عليه وينكره غيرهم من قضاة المغرب والمشرق ، وهذا الفقه القرطبى يسمى بتسمية خاصة تدل على أنه مستقى من جارى العرف وأعمال الناس بحكم العادة ، فكان يسمى « عمل قرطبة » ، وللمقرى

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦ .

(٢) النباهى : قضاة الأندلس ، ص ٤٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

رواية طويلة فى هـذا الباب لا بأس من ايرادها على تواليها لأهميتها . قال المقرى : « واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب ، حتى أنهم يقولون فى الأحكام : هذا مما جرى به عمل قرطبة . وفى هـذه المسألة نزاع كبير ، ولا بأس أن نذكر مالابد منه من ذلك . قال الامام ابن عرفة رحمه الله تعـالى : فى اشتراط الامام عـلى القاضى الحكم بمذهب معين — وان خالف معتقد المشترط اجتهادا وتقليدا — ثلاثة أقوال : الصحة للباجى ، ولعمل أهل قرطبة ، ولظاهر شرط سحنون على مذهب من ولاه الحكم بمذهب أهل المدينـة ، قال المازرى : مع احتمال كون الرجل مجتهدا . الثانى : البطلان للطرطوشى ، اذ قال : فى شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم . الثالث : تصح التولية ويبطل الشرط ، تخريجا على أحد الأقوال فى الشرط الفاسد فى البيع للمازرى عن بعض الناس ، انتهى مختصرا . قال ابن غازى : ان ابن عرفة نسب للطرطوشى البطلان مطلقا ، وابن شاس انما نسب له التفصيل ، انتهى .. ولما ذكر مولاى الجد الامام قاضى القضاة بفاس سيدى أبو عبد الله المقرى التلمسانى فى كتابة القواعد شرط أهل قرطبة المذكور ، قال بعده ما نصه : وعلى هذا الشرط ترتب عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل الى المغرب ، فبينما نحن ننازع الناس فى « عمل المدينة » ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلى وابن مسعود ومن كان معهما : ليس التكحل فى العينين كالكحل ، سنح لنا بغض الجمود ومعدن التقليد !

الله أخر مدتى فتأخرت   حتى رأيت من الزمان عجائبا

يالله والمسلمين ! ذهبت قرطبة وأهلها ولم يبرح من الناس جهلها ! ماذاك الا لأن الشيطان يسعى فى محو الحق فينسيه ، والباطل لا زال يلقنه ويلقيه . ألا ترى خصال الجاهلية — كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك — وأسماءها — كالعتمة ويثرب — وكذا التنابز بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه كيف لم تزل من أهلها (يريد أهل قرطبة) وانتقلت الى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأسا ، بل يجعلون العادات القديمة أسا ، وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسيب وما انخرط فى ذلك السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين لا نحفظه الا قولا ، ولا نحمله الا كلا ؟ .. انتهى » [1] :

وهذه عبارة لا تحتاج الى تعليق ، فهى تجمل كل ما قلناه من تأثر التشريع فى الأندلس بالبيئة المحلية ، وجرى القضاة فى قضائهم « على العادات القديمة » واعتبارهم ما يصدرون من أحكام « عملا » خاصا بهم يلتزمونه ولو اشترط الأمير الذى يوليهم أن يحكموا بمذهب معين . وذلك هو الأمر الطبيعى المعقول ، لأن القانون جزء من الحيـاة العامة يتأثر بما فيها ويجاريه ولا مفر للقضاة من افساح المجال لما جرى عليه الناس ، ما دام لا يتعارض مع الأصول ، وما دام مالك قد اعتبر عمل أهل المدينة أساسا من أسس تشريعه ، وأبو حنيفة قد خضع للبيئة العراقية وصاغ فى حدودها مذهبه ، فقد كان من الطبيعى أن يكون لقضـاة الأندلس فلسفة خاصة فى أحكامهم ، فلسفة قائمة على قبول جارى العرف والقانون والتقليد ، وان وصف الفقهاء ذلك بأنه « جهل عظيم » .

٢٠٣– اختلاف نظم القضاء فى الأندلس عن مثيلاتها فى المشرق

وانما استطردنا هذا الاستطراد لأن منطق التاريخ — الى جانب ما أوردناه من البراهين — يؤيد ما ذهبنا اليه من تأثر التشريع فى الأندلس بالتشريع القوطى الذى كان العمل

(١) المقرى : نفح الطيب ، طبعة محيى الدين ، ج ٢ ، ص ٩٣–٩٤ .

جاريا به فى الأندلس قبل أيام المسلمين : واذا كان هناك قاض للعجم يحكم بـ « سنة النصارى » ، وقاض للمسلمين يحكم بسنة الاسلام ، جنبا الى جنب ، وكلما انقضى حين دخل نفر من النصارى فى الاسلام وصار منهم قضاة وفقهاء ، فان تسرب أشـياء من « قضـاء العجم » الى قضاء المسلمين أمر طبيعى . بل بلغ من ذلك التأثر أن أخـذ تنظيم القضاء العام فى الأندلس صورة يختلف فيها عن نظم القضاء فى المشرق جملة وتفصيلا ، فظهر نظام القضاة المشاورين وتألفت منهم هيئة تسمى « المَشْورَة » وهى صورة « الكوريا » Curia القضائية فى نظام القضاء الرومانى ، وهذه « المشورة » أو الكوريا هى التى تضع القواعد الفقهية وتحدد المبادىء ، فى حين اقتصر أمر القضاة على التطبيق ، مما لا يتسع المجال لدراسته فى العصر الذى نؤرخ له (١) .

---

(١) ليس هنا مجال الكلام عن وجوه اختلاف نظم القضاء فى الأندلس عن مثيلاتها فى المشرق . وقد أشار إلى ذلك خليان ريبيرا فى مقدمته لتاريخ القضاة للحارث بن أسد الخشنى ، واعتمد على كلامه ليڤى پروڤنسال فيما أورد من مادة طيبة عن القضاء فى الأندلس فى الجزء الثالث من «تاريخ إسپانيا الإسلامية» . وقد قدمتُ مادة طيبة عن الموضوع فى بحثى عن «سقوط خلافة قرطبة» (بالفرنسية) ويهمنى أن أشير هنا إلى بعض المراجع الهامة لدراسة هذا الموضوع لم يشر إليها أحد من اشتغل به . وهى :

JOSÈ LOPEZ ORTIZ: *La recepción de la Escuela Maliqui en España.*

—, *La Curia Musulmana.*

SANCHEZ ALBORNOZ: *Los Arabes y las origines del feudalismo.*

LACARRA: *Fueros navarros del siglo XII.*

GONZALEZ PALENCIA: *El Fuero latino de Albarracin*

SALVADOR VILA: *El capitulo del matrimonio del formulario notorial de Aben Mcguit.*

وكلها ظهرت فى حوليات تاريخ القانون الإسبانى :

Anuario de Historia del Derecho Español.

ابتداء من المجلد السابع سنة ١٩٣٠ وما يليه .

وفى كتاب « المعيار المُعْرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » لأبى العباس أحمد بن يحيى التلمسانى الونشريشى (أو الونشريسى) طبع حجر ، فاس ١٣١٤ و ١٣١٥ ، مادة طيبة ونافعة ابتداء من الجزء الخامس .

٢٠٤ – العرب يحترمون نظم البلديات

وقد وجد العرب فى الأندلس مدنا كبيرة كثيرة منظمة أمورها تنظيما طيبا ، وصادفوا لأول مرة نظم البلديات وحكومات المدن ، ووجدوا كل مدينة وحدة قائمة بذاتها ولها زمام حولها يتبعها . وقد كانت أحوال المدن الرومانيـة فى غرب أوروبا قد اضطربت واضمحلت بسبب غـارات الجرمان وما أحدثتـه من الفوضى والاضطراب والفقر ، ولكن هيكل التنظيم المدنى كان باقيا ما يزال(١) . وقد احترم العرب هذا التنظيم على اعتبار أنه جزء من احترامهم لعهودهم مع أهل الذمة ، وكانوا أول الأمر معظم أهل المدن . وقد أفاد العرب من احتفاظهم بهذا النظام فيما بعد ، اذ أنه عندما أسلم معظم أهـل المدن وتعربوا اتسعت حدود هذا النظام فشمل المسلمين أيضا من أهل المدن ، وعرّب وأصبح جزءا من النظام العام للأندلس .

٢٠٥ – قومس الأندلس

أقام العرب على أهل الذمة والنصارى رئيسا منهم ولقبوه بقومس الأندلس أو زعيم نصارى الذمة ، وجعلوه مسئولا أمامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى ، وأحاطوه بما يليق به من الاحترام . وكان أول القمامسة هو ارطباس ، وسنتحدث عنه بعد قليل .

---

(١) لم يدرس أحد إلى الآن تطور أحوال المدن الإسپانية خلال العصور الوسطى ، وكل ما لدينا معلومات عامة مستخلصة من تطور أحوال المدن فى غالة وإيطاليا . والرأى الغالب هو أن الاضمحلال العام الذى شمل المدن الرومانية جميعا خلال العصر الرومانى المتأخر أدى إلى تدهور المدن ، فاختفى بعضها وتحول الباقى إلى قرى ، وأصبح التقسيم الإدارى زراعياً خالصاً يقوم على وحدات ضرائبية تعرف الواحدة منها باسم territoria وإن ظل الناس يطلقون لفظ المدينة على التيريتوريا وموضع المدينة القديمة civitas وزمامها urbs . انظر :

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : en *Historia de España* dirigida por D. Ramon Menéndez Pidal. Vol. III (Madrid, 1940) p. 220.

والآراء التى يبديها المؤلفان حافلة بالأخطاء. وقد أتى الخطأ من أن هذين الباحثين الإسپانيين نقلا أقوال مؤرخين ألمان وفرنسيين حاسبين أن مثل ذلك قد حدث فى إسپانيا ، وفاتهما أن الفتح الإسلامى أوقف اضمحلال المدن فى إسپانيا كما سترى فيما يلى .

حقيقة أن هذا اللقب لم يظهر في النصوص الا أيام عبد الرحمن الداخل ، ولكن صورة الخبر الذى يتضمن هذا اللقب عند ابن القوطية تدل على أن الوظيفة كانت قديمة والجديد هو اللقب [١] . وستستمر الوظيفة بهذا اللقب بعد ذلك .

٢٠٦ – العرب يتركون لأهل الذمة حرية اختيار رؤسائهم

ويذكر الراهب الذى كتب مدونة البلدة *Chronicon Albeldense* أن العرب تركوا لأهل البلاد من النصارى حق اختيار حكامهم ومنظمى أمورهم :

".. Et unusquisque ex illorum origine de semit epsos comites eligerent, qui per omnes habitantes terrae illorum pacta Regis congregarentur" [٢]

وورود هذا اللفظ بصيغة الجمع فى هذا النص يفهم منه أنه كان هناك أكثر من قومس ، والأقرب الى المعقول أنه كان على رأس النصارى فى كل ناحية قومس ، لأن كل ناحية فى اسپانيا كان لها قومس على أيام الرومان ثم القوط من بعدهم ، فأقر العرب هذا الوضع [٣] ، واشترطوا

(١) انظر عن لقب قومس Comes فى إسپانيا القوطية :
MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, *op. cit.* p. 221

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 108.

(٣) يبدو أن هناك شيئاً من الالتباس فى قول مانويل توريس فى الموضع الذى أشرنا إليه فى الهامش قبل السابق أن القومس فى أيام القوط كانت له سلطات عسكرية ومالية وقضائية ، ولهذا كان يسمى Comes civitatis (قومس المدينة) أو Comes territorii (قومس الناحية) أو Comes provinciae (قومس المديرية) أو Comes exercitus (قومس الجيش) إذ يغلب على ظننا أنه كان هناك أكثر من قومس ، لكل منهم اختصاص ، وفوق هؤلاء جميعاً كان الدوكس dux أى القائد أو الحاكم الأعلى ، وهذا هو الذى كانت له الاختصاصات المتعددة . ويبدو أن القمامسة كانوا قد أصبحوا فى أواخر أيام القوط مجرد موظفين ، كل منهم يوكل بناحية من نواحى الإدارة ، وصغر شأنهم تبعاً لذلك ، لأننا لا نجد القمامسة يتصدون للعرب دفاعاً عن نواحيهم . حقيقة أنهم كانوا جميعاً قوطاً ، وقد هربوا بعد واقعة وادى لكه ، ولكن يمكن أن يقال أيضاً أن أمرهم كان قد ضعف ، فلم تعد لهم القيادة ، ولهذا لم تذكرهم النصوص .

– كما هو واضح فى النص – أن تنتخبه الجماعة النصرانية بنفسها ، على خلاف ما كان الحال عليه أيام القوط ، اذ أن ملك القوط كان يعين القمامسة من أصحابه والمقربين اليه ، اذ أن المعنى الأصلى للفظ Comes هو رفيق أو صاحب . وهذا التغيير فى طريقة تعيين القمامسة طبيعى ، لأن ملك القوط قد زال ، فانتقل حق اختيار الحكام الى الجماعة النصرانية ، واكتفى العرب باختيار القومس الأعلى وهو الملقب بقومس الأندلس ، ولم يروا أن يتركوا له حق تعيين قمامسة النواحى ، لأن ذلك كان يعطيه سلطانا واسعا خطرا ، اذ أن الغالبية العظمى من أهل البلاد كانت نصارى. وسنرى بعد قليل كيف أن قومس الأندلس أساء التصرف مع اخوانه فى الدين ، حتى فى الحدود التى وضعها العرب لسلطانه .

ويذهب سيمونيت الى أن سلطان قمامسة المدن كان لا يقتصر على المدن التى ينتخبهم أهلها ، بل يمتد الى كل الناحية الداخلة فى زمامها ، ويقول : « ولا شك أنه كان يعاون القمامسة موظفون آخرون أصغر منهم ، كانوا يعملون تحت ادارتهم خاضعين لسلطانهم فى المدن ، وينوبون عنهم فى القرى الداخلة فى زمام ناحيتهم ، وكانوا يتولون الأعمال المختلفة من ادارية ومالية وقضائية »[١] .

وكان أصحاب وظائف أهل الذمة يلقبون أول الأمر بألقابهم

٢٠٧ – الوظائف القوطية تدخل فى النظام العربى العام

اللاتينية التى عرفت بها أيام الرومان والقوط ، ثم عربها الناس عندما غلبت العربية على غيرها فى شبه الجزيرة ، ثم أخذت اللفظة العربية على ألسنة الناس صورة اسپانية عندما جرت فى الاستعمال الدارج ، وقد صحب هذا التطور اللفظى تطور فى معنى الوظيفة واختصاصها فى بعض الأحيان .

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 108.

٢٠٨ – قاضى العجم

كان القاضى يسمى أولا « يودكس Judex » ، ثم حلت محلها لفظة « القاضى » العربية ، ثم صارت هذه اللفظة على ألسنة الناس ألكالد Alcalde ، وبهذه الصورة دخلت اللغة القشتالية وظلت فيها الى اليوم ، وتطور معنى الألكالد أيضا مع الزمن فصار الى ما يشبه « العمدة » عندنا (فى المدن الصغيرة والقرى) ، والأغلب أن هذا التطور حدث عندما أسلم معظم الناس وتضاءل بذلك اختصاص قاضى العجم فى الفصل فى القضايا ، وأصبح أشبه برئيس شرفى تنتخبه الجماعة النصرانية من غير اختصاص واضح ، كما هى حالة العمد فى المدن الصغيرة . وقد حدث تطور شبيه بذلك أيام القوط فى اختصاصات القضاة : فقد كان للقوط قضاة من أنفسهم يسمون فى اللاتينية Millenarii وفى الدارجة Theofadi الى جانب قاضى الأهالى من الايبيريين الرومان الذى كان يسمى Judex ، ثم غلب اختصاص هذا الأخير حتى أصبح قاضى الايبيرين الرومان والقوط جميعا وتحول قاضى القوط (الميليناريوس أو الثيوفادوس) الى موظف عسكرى [١] .

(١) يستعمل لفظ يودكس (Judex = قاض) فى التشريعات القوطية استعمالا واسعاً ، فيطلق على القاضى وعلى الموظف بصورة عامة ، وربما أطلق لفظ يودكس على حاكم الناحية بدلا من Comes ، ومن ثم فان ما يذكره القانون القوطى Liber Judicum من وجود iudex provinciae أو iudex civitates ليس معنـاه قاضى المديرية أو قاضى المدينة بل يراد به الحاكم . وكان لهؤلاء اليوديسس Iudices نواب فى النواحى . وكان يشترط فى اليودكس أن يكون من القوط فى حين كان النواب Vicarii من أهل البلاد . ويلاحظ أن هذا الاضطراب فى استعمال لفظ يودكس لم يقتصر على اللفظ بل شمل الإختصاصات أيضاً ، فأصبح حاكماً أو موظفاً كما رأينا . وقد انتقل هذا الى قضاة العجم فى الأندلس الإسلامى ، فهم يسمون فى بعض الأحيان «الوزير القاضى» ولفظ وزير هنا ليس مجرد لفظ تشريف ، بل يدل على أن قاضى العجم كان يتمتع بسلطات تنفيذية إلى جانب وظيفته القضائية . ولا نجد قضاة مسلمين يلقبون بالوزير القاضى، إلا فى الأزمنة المتأخرة عند ما انحط معنى لفظ وزير ، وأصبح مجرد لقب تشريف .

انظر : MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : *ibidem.* و PEDRO AGUADO BLEYE, *Manuel de Historia de España*, tomo I (Madrid, 1947) p. 368.

٢٠٩ – صاحب المدينة

والى جانب القومس ، وهو حاكم المدينة وزمامها ، وهو ما عرف فى النظام الاسلامى بالكورة ، كان يوجد فى النظام الرومانى ثم القوطى حـاكم خـاص للمدينـة Defensor Civitatis أى حامى المدينة أو حارسها ، فبقيت هذه الوظيفة وعربت الى « صاحب المدينـة » ، وصارت فى عجمية أهـل الأندلس Zahalmedina أو Zafalmedina أو Zalmedina ، وستدخل هذه الوظيفة فى النظم الاسلامية الأندلسية ، وسيتولاها مسلمون فيما بعد [١] .

٢١٠ – المشرف

وكان هناك موظف يوكل بشئون المال فى الناحية ، يعرف قبل العرب باسم Praefectus aerarii فعربها العرب الى « المشرف » وانتقل هذا اللفظ الى عجمية أهل الأندلس فى صور شتى : alamosérife و almossarif و almoxerife و almoxarife ، وبهذه الصورة الأخيرة بقى اللفظ فى اللغة القشتالية .

٢١١ – مستخرج الخراج

أما قومس الخزانة Comes thesaurorum فقد حل محله « مستخرج الخراج » أو مستخرج خراج الذمة ، الى جانب عامل الخراج المعروف فى النظم الاسلامية ، وقد تضاءلت أهمية « مستخرج الخراج » مع الزمن .

(١) ذهب سيمونت فى كتابه المعروف Historia de los Mozárabes (ص١٠٨–١٠٩) إلى أن تعريب هذه الوظائف كان كما يلى :

judex = القاضى

practor urbanus = صاحب المدينة

praefectus acrarii = المشرف

وقد خالفناه فى ذلك كما يرى فى النص

وقد خلط بين المحتسب والأمين والعريف ، وصوبنا ذلك فى كلامنا .

٢١٢ – صاحب الشرطة

وكان هناك موظف مكلف بالأمن فى المدينة يعرف باسم praetor urbanos فحل محله « صاحب الشرطة » ؛ وقد انتقل هذا اللفظ الى عجمية أهل الأندلس فى صور مختلفة مثل Sahba و Seorta و Sacbascorta ، ودخلت الوظيفة فى النظام الاسلامى كما هو معروف . ومن الطريف أن العرب أخذوا نظام الشرطة ولفظها فى المشرق من البيزنطيين (شرطة = Securitas) ثم حملوا الوظيفة بلفظها الى الأندلس حيث أخذ اللفظ صورة عربية فى العجمية الأندلسية .

٢١٣ – الأمين

وكان العمال فى المدن منظمين منذ العصر الرومانى على صورة هيئات تشبه النقابات تعرف كل منها بالكلية collegia [1] ، وكان لكل منها رئيس مسئول عن أهل الحرفة وضرائبهم أمام الدولة ، وقد اضطرب نظام هذه النقابات على أيام القوط ، فلما أقبل العرب أعادوا تنظيم هذه النقابات ، وجعلوا على رأس كل منها رئيسا من أهلها يسمى « الأمين » ، وقد انتقل هذا اللفظ الى عجمية الأندلس ، فكان يقال el alamin

٢١٤ – العريف

وكان لهذا التنظيم أثره فى استقرار أحوال المدن وأهلها ، وكان معظمهم كما قلنا من أهل الذمة . وقد ظهرت نتائج هذا الاستقرار بصورة خاصة بين الصناع ، اذ تحسنت أحوالهم بصورة لم تكن قبل أيام المسلمين ، وظهر من بينهم أساتذة مهرة فى صناعاتهم عرف الواحد منهم بالعريف والجمع عرفاء ، وقد انتقل لفظ عريف الى عجمية أهل الأندلس فى صورة alharif (وتحرف الى alhariz) ومنها الى التشتالية el alarife واقتصرت بعد ذلك على رؤساء البنائين ، ولا زال اللفظ باقيا فى الاسپانية الى اليوم .

(١) AGUADO BLEYE, *op. cit.* p. 248.

وقد تطورت هذه المصطلحات بعد ذلك تطورا أوقع الكثير من الباحثين فى الخطأ ، فخلط بعضهم بين الأمين والمحتسب ، وسنتحدث عن هذا الأخير فى كلامنا على التنظيم الاسلامى العام للأندلس ، وخلطوا بين القاضى والوزير ، لأن لفظ الوزير أخذ معانى خاصة فى الأندلس ، منها معنى الأستاذية أو التمكن من صناعة ما ، بل أصبح لفظا من ألفاظ التشريف ، فيقال : الوزير القاضى فلان ، أو الوزير المشرف فلان ، أو الوزير الكاتب وما الى ذلك . ويبدو أن هذا الترخص فى استعمال لفظ الوزير ، والقاضى كذلك ، بدأ أولا بين جماعات أهل الذمة ، فكانوا يخاطبون قاضيهم بقولهم : «الوزير القاضى الأفضل دون ملنده بن لـِنْبَـطَار رحمه الله » أو « الوزير القاضى دُمِـنْقُه أَنْتـُلِين » ، ومن الغريب أن لفظ القاضى فى الاسپانية وهو Juez لقى أيضا مثل ذلك الانحدار ، فقد جاء فى قاموس بطرس القلعى (Pedro de Alcalá) فى تعريف لفظ alarife : Juez albañir (= قاض بناء ، يريد معلم بناء) ، و juez de edificios (= قاضى مبان ، يريد معلم مبان) [1] .

٢١٥ – الزراع

وسنتحدث فى الفصل التالى عن تنظيم العرب للسكان عموما ، ولكن ما دمنا بصدد الكلام عن أهل الذمة ، فلنقل شيئا عن الزراع ، وكان معظمهم أول الأمر من أهل الذمة . لقد أزال العرب النظام الذى كان سائدا أيام القوط والذى كان يجعل الزراع جميعا اما رقيق أرض Servi ، أو عمال أرض أحرارا أقرب الى الرقيق ingenui inferiores ، أو عبيدا esclavi فأزال العرب ذلك كله ، فلم يبق الا الأحرار والعبيد أو الأرقاء ، فاذا أسلم الرقيق صار حرا له ما للأحرار من حقوق ؛ أما رقيق المسلمين الأندلسيين فحكمهم حكم

(١) Cf.: SIMONET, *op. cit.* p. 109.

الرقيق كله فى العالم الاسلامى ، وهو معروف . وقد احتفظ العرب بالتنظيم العام للزراع فى قرى أو ضياع aldeas .

٢١٦ – المسلمون والكنيسة

يحلو لبعض المؤرخين أن يصوروا ما أصاب الكنيسة الاسپانية من الأذى على أيدى المسلمين ، ويطيل بعضهم — مثل سيمونت ولاس كاخيجاس — الحديث بالتفصيل عن الكنائس التى تهدمت والمتاعب التى لقيها بعض النصارى على أيدى المسلمين ، ولا يسع القارىء وهو يتتبع ما يقولونه الا أن يأسف اذ يجد مؤرخين محدثين لا زالوا يجرون فى مضمار عصب الدين فى حديثهم عن أشياء وقعت قبل قرون متطاولة ، خاصة وقد عادت اسپانيا نصرانية ، وأصبح كل ما يتصل باسپانيا الاسلامية تاريخا ماضيا ، وأصبحت المبالغة فى العصبية الدينية أو العنصرية مجرد تشويه للتاريخ .

ومن الغريب أن هذه العصبية تشمل عصور ما قبل الاسلام ، ففى كل ما لدينا من التواريخ التى كتبت حديثا لاسپانيا يحاول المؤرخون أن يثبتوا أن اسپانيا كانت على الأقل منذ المجمع الدينى الطليطلى الثالث الذى عقد فى سنة ٥٨٩ بلدا كاثوليكيا خالصا لا شبهة فيه لمذهب مسيحى آخر ، ولا صوت يعارض قواعد هذه العقيدة كما قررها ذلك المجمع ، بل اننا لنجد مفكرا طائر الصيت مثل مارثيلينو مننديذ اى پلايو يتصدى لنقد المذهب الآريوسى فى حماس المبشر الذى يخشى خطر أقوال آريوس المصرى على العقيدة الكاثوليكية الراهنة . هذا وقد ذهب آريوس وذهبت أيامه منذ نيف وثلاثة عشر قرنا (توفى آريوس سنة ٣٣٦ م) ولم يكن الرجل الا مفكرا مسيحيا حاول جهده أن يصل الى الحق بحسب ما انتهى اليه فهمه لنصوص الكتاب المقدس ، والمؤرخون المنصفون ينظرون اليه باجلال ، لا تقديرا لرأيه ، بل لأنه كان أحد الباحثين عن

حقيقة العقيدة المسيحية فى عصر كان البابوات والأساقفة وغيرهم من رجال المسيحية يحاولون فهمها وتوضيح قواعدها . واذا ذكرنا أن آريوس ولد سنة ٢٨٠ وأيفع وأخذ يتعرف عقيدته المسيحية حوالى سنة ٣٠٠ وأن المسيحيين جميعا كانوا اذ ذاك يطلبون النجاة فى باطن الأرض ، ويقيمون كنائسهم فى السراديب والمغاور ، اذا ذكرنا ذلك قدرنا جهده كمفكر وكمؤمن مسيحى ، لأن المسيحية لم يعترف بها ديانة كغيرها من ديانات الامبراطورية الرومانية الا بعد صدور منشور ميلان فى سنة ٣١٢ ، ثم ان الذى دحض آراء آريوس وقطعه بالحجة كان مفكرا مصريا آخر هو أثناسيوس المعروف باسم الأنبا طناش ، فقد تولى بطريركية الاسكندرية بعد الأنبا اسكندر ، ونحن عندما نؤرخ للكنيسة المصرية انما ننظر لآريوس — رغم انكار الكنيسة المصرية له — على أنه مفكر جدير بالتقدير ، وشخصية لها قيمتها فى تاريخ الفكر المسيحى والانسانى عامة دون أن يملكنا الخوف من أن تعود آراؤه فتشوب عقائد الكنيسة القبطية المصرية .

ولكن مننديذ پلايو وأجوادو بلاى من مؤرخى اسپانيا المحدثين يحملان عليه حملة عنيفة ، ويرددان كلام القديس ايزيدور الاشبيلى فى حماس كأننا لازلنا اليوم فى معركة الآريوسية والكاثوليكية [1] .

٢١٧ – المسيحية فى إسپانيا القوطية

وهذه الروح نفسها هى التى تسود ما لدينا اليوم عن أحوال الكنيسة أيام القوط ، فلم تكن المسيحية الاسپانية أيام القوط كتلة واحدة : كانت هناك نزعات وآراء معارضة

(١) MARCELINO MENENDEZ y PELAYO, *Historia de los Heterodoxos Españoles*, tomo I (Madrid, 1946) pp. 306 sqq.
AGUADO BLEYE, *op. cit.* I p. 363.
وانظر ص ٣٤٧ حيث يقرر پلاى أنه غير آسف على إحراق كتب الآريوسيين وغيرهم من المخالفين ويسخر من أحرار الفكر الذين يأسفون على ضياعها !

ينادى بها جماعات من الناس ، ولم تكن كلها رحمة وسلاما ، فقد كانت هناك اضطهادات ومحاكمات وكان هناك ضحايا ، ولكن هذا كله يسدل عليه ستار كثيف ، فلا نظفر الا باشارات عابرة عنه ، والهدف من ذلك فيما يبدو هو تصوير هذه الكنيسة على أنها كانت رمزا لوحدة الوطن الاسپانى وسلامه ، مما يجسم بطبيعة الحال ما أصاب اسپانيا بدخول الاسلام فيها ودخولها فى الاسلام ، ويعظم بالتالى قيمة عودتها الى المسيحية .

٢١٨ – الكنيسة والدولة أيام القوط

بل ان أجوادو بلاى ، وهو مؤرخ معاصر له مكانة ، يحاول أن ينفى عن الكنيسة القوطية خضوعها للدولة ، وهى حقيقة بسيطة يسلم بها المؤرخون المنصفون لا تضير الكنيسة الكاثوليكية فى شىء ؛ واليك مثلا من حديثه :

« ان الاتحاد الوثيق بين الكنيسة والدولة ، ابتداء من المجمع الطليطلى الثالث ، لا يسمح بالقول بأن الكنيسة القوطية كانت كنيسة قومية (يريد أنها كانت كاثوليكية أى عالمية) ، ذلك لأن الملك كان لا يوجهها ولا يحكمها ؛ ولا يجوز كذلك أن نسمى الدولة القوطية حكومة ثيوقراطية ، لأن الكنيسة لم تكن تسود الدولة . حقيقة كان الملك يتدخل فى الشئون الكنسية ، ولكن هذا التدخل يرجع فى أصوله الى أيام الامبراطورية وأيام الآريوسية . كان ملوك القوط يدعون المجامع الدينية للانعقاد ، كما كان يفعل ذلك قبلهم الامبراطوران قسطنطين وثيودوسيوس . بل ان ملوك القوط لم يكونوا يدعون الى عقد المجامع فقط ، بل كانوا يحضرون جلسة الافتتاح للمجمع الطليطلى يحيط بهم نفر من الحاشية الملكية aula regia ، وكانوا يقرأون الكتاب الملكى tomo regio وهو برنامج الموضوعات التى سيبحثها المجمع . وكانت

قرارات المجمع توقع بامضاءات من حضر من رجال الحاشية الى جانب امضاءات الأساقفة والقساوسة ورعاة الكنائس » .

« ولم يكن لمجامع طليطلة سلطة تشريعية فيما يتصل بالشئون المدنية ، بل فى الشئون العقيدية فحسب . ولم يكن للقرارات المتصلة بالعقيدة أثر فى الشئون المدنية الا اذا أقرت ذلك القوانين التى يصدرها الملوك . كانت القرارات فى هذه الحالة تعتبر قوانين ، لا بمحض صدورها عن المجامع ، وانما باقرار الملوك اياها . كان الأساقفة بصفتهم من كبار أهل الدولة يعتبرون جزءا من الحاشية الملكية ، وكانوا تبعا لذلك جزءا من المحكمة التى تنظر فى الجرائم السياسية والمخالفات التى يرتكبها أهل الطبقة العليا . وقد شاعت هذه الصور من تدخل الملوك فى شئون الكنيسة بعد ذلك بقليل فى كل الدول الأوروبية فى العصر الوسيط . ان تأثير الكنيسة فى قرارات الملوك لم يكن ناشئا عن أن القانون يقرر ذلك ، ولم يكن قائما على أساس من النظام العام ، بل كان سببه الامتياز الفكرى الذى تمتع به رجال الدين ، ولم يقتصر هذا الامتياز على اسپانيا ، بل كان شائعا فى كل بلاد غرب أوروبا » .

ثم يقول بعد ذلك : « ... ان مجمع طليطلة ، بعد انعقاده الرابع فى سنة ٦٣٣ ، وبسبب اعتبار لعنة الكنيسة مبدأ سياسيا ، أصبح محكمة عليا ، ضمانا للملك ورعاياه ، وكانت هذه المحكمة تفرض على الناس احترام شخص الملك ، وأقامت من نفسها سلطانا معدلا لسلطان الملك ، وأوجدت نوعا خاصا من الجرائم ضد الوطن يعاقب بعقوبتين : عقوبة مدنية ولعنة الكنيسة . وقد قال مننذ پيدال: ان هذه الملكية الكاثوليكية التى كان للأخوين لياندرو وايزيدور عليها أثر عظيم لا يمكن أن تكون ثيوقراطية . لم يكن رجل الدين يحكم بل يوجه ، وكان ينفع الحاكم

كما ينفع المحكوم : ان التداخل والتشابك بين الكنيسة والدولة كانا أقوى فى اسپانيا منهما فى أى بلد آخر معاصر ، لأنهما كانا من صنع المجامع » [١] .

وهذا الكلام — الذى اجتهد العالمان الجليلان فى صياغته على هذا النحو الذى يبدو وكأنه « تأملات » أكثر مما هو حقائق تاريخية — يحاول الرد على حقيقة تجمع عليها كتب التاريخ غير الاسپانية ، وقد أوجزها جيبون فى عبارة بسيطة عندما قال ان اسپانيا القوطية كانت : a priest ridden state «دولة يركبها القساوسة» ، وربما كانت خلاصة ما أراد أجوادو بلاى الرد عليه فى عبارته الآنفة الذكر .

لقد عرفت الكنيسة كيف تستغل نصرها بتحويل ريكاريدو الى الكاثوليكية وفرض سلطانها على الدولة ، فاستولت على أرضين وعقارات بلغت خمس الأرض الخصيبة فى اسپانيا كلها ، وقامت سيفا مسلطا على رءوس الناس ، كما ستصبح المالكية فيما بعد ، فحرقت كتب المذاهب المخالفة ، وفى مقدمتها المذهب الآريوسى ، وعوقب المعارضون بالقتل والنفى والتشريد وانتزاع أبنائهم منهم وما الى ذلك من العقوبات[٢] .

٢١٩ — رأى راينهارت دوزى — ولسنا نريد أن نجارى المؤرخ راينهارت دوزى فى مبالغته فى تصوير سوء حالة الكنيسة وما جر اليه اتحادها مع الدولة فى ذلك العصر ، فقد كان دوزى ملحدا يحسب أن حرية الفكر معناها مهاجمة رجال الدين أيا كانوا ، ولقد قسا فى « تاريخ اسپانيا

(١) MENENDEZ PIDAL, *Historia de España*, tomo III (Madrid, 1940) *Introducción*, p. XLI.
AGUADO BLEYE, *op. cit.* p. 366.

(٢) MENENDEZ PELAYO, *op. cit.* I p. 352.
وهذا المفكر الجليل يبرر ذلك كله ويدافع عنه .

الاسلامية » على رجال الدين جميعا نصارى ومسلمين . ولكننا نكتفى من كلامه بعبارة تغنى عن كلام كثير ، فقد قال بعد أن سخر ما شاء له أسلوبه اللاذع من رجال الدين عندما صاروا الى القوة والسلطان :
« ... ومن الآن فصاعدا ، وبعد أن أصبحوا ملاكا لأراض فسيحة تعمرها أعداد غفيرة من رقيق الأرض ، وأصحابا لقصور فاخرة تعج بالعبيد ، تبين القساوسة أنهم أسرفوا فى المسير ، وأن زمان تحرير الرقيق لم يحن ، وأنه لن يحين الا بعد انتظار قرون لا أدرى عددها . لقد دهش القديس ايزيدور الفرَمى [١] وهو متأبد فى صحارى الصعيد ، من أن مسيحيا يستطيع أن يملك عبدا ، فى حين أن قديسا آخر يحمل اسم ايزيدور أيضا ، هو أسقف اشبيلية المشهور ، الذى كان خلال زمن طويل روح مجامع طليطلة الدينية و « فخر الكنيسة الكاثوليكية » كما قال الآباء الذين اجتمعوا فى المجمع الثامن ، لا يردد عندما يتحدث عن الرق آراء سميه وانما آراء حكماء الأعصر القديمة ، آراء أرسطو وشيشيرون . لقد قال الفيلسوف الاغريقى : « ان الطبيعة خلقت بعض الناس ليحكموا وبعضهم الآخر ليطيعوا » ، وقال الفيلسوف الرومانى : « ليس هناك ظلم فى أن يقوم بالخدمة أولئك الذين لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم » ، وايزيدور الاشبيلى يقول نفس الشىء :

acquus Deus ideo discrevit hominibus vitam, alios servos constituens, alius dominos, ut licentia male agendi servorum potestate dominantium restringatur.

(= ... ولهذا السبب أيضا ميز الله مصائر الناس بعضهم على بعض:

(١) هو القديس Sanctus Isidorus Pelusii نسبة إلى پلوزيوم وهى الفرما . ولهذا سميناه الفرمى .

فصار بعضهم عبيدا ، وصار بعضهم سادة ، وذلك حتى يكون سلطان السادة مانعا لسريان الشر الذى يصدر عن العبيد) .

ولكنه يناقض نفسه ، لأنه يقرر أن كل الناس سواسية أمام الله وأن خطيئة الانسان الأول ، وهو يعتبرها أصل العبودية ، قد زالت بالخلاص (بدخول المسيحية) . « واننا لبعيدون كل البعد عن الرغبة فى لوم رجال الدين اذ لم يعتقوا العبيد ، وعن الرغبة فى مجادلة رأى أولئك الذين يؤكدون أن العبد غير قادر على عبء الحرية . نحن لا نجادل ، وانما نكتفى بأن نقرر حقيقة كان لها نتائج هامة ، وهى أن رجال الدين بسبب تناقضهم ، لم يحققوا آمال الرقيق . وقد ساء حال أولئك المساكين بدلا من أن يتحسن ، لقد اتخذهم الجرمان — مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من الشعوب الجرمانية فى ولايات الدولة الرومانية الأخرى — خدما خاصا لهم وفرضوا عليهم السخرة . وجدير بنا الاشارة الى عرف جد ولم يكن معروفا أيام الرومان فيما يبدو ، وهو أن تلزم أسرة من الرقيق بأداء خدمة معينة الى السيد بصورة وراثية ، فتقوم أسرة بعينها بزراعة الأرض للسيد ، ويخلف الآباء الأبناء فى ذلك ، وتقوم أسرة أخرى على نفس المنوال بالصيد ، وثالثة بحراسة قطعان الماشية ، ورابعة بأعمال النجارة وخامسة بالحدادة وهكذا » (١) :

« ولم يكن الرقيق أو العبد ليستطيع الزواج بدون موافقة سيده ، فاذا تزوج دون أن يحصل على هذه الموافقة اعتبر زواجه كأن لم يكن ، وفصل بينه وبين زوجته بالقوة ، واذا تزوج رجل من طبقة الرقيق امرأة فى ملك سيد آخر تقاسم السيدان الأولاد مناصفة . واذن فقد كان

(١) انظر : MUÑOZ, *Fueros*, p. 123-125.

قانون القوط فى هذه الحالات أقل انسانية من قوانين الامبراطورية الرومانية ، لأن الامبراطور قسطنطين حرم التفريق بين النساء وأزواجهن وبين الآباء وأبنائهم والاخوة واخوتهم (١) وعلى العموم لا يمكن الشك فى أن حالة طبقة الرقيق لم تكن بالغة القسوة تحت سلطان القوط ، [ويتبين ذلك] عندما تتأمل القوانين العديدة القاسية التى أصدرها القوط ضد الرقيق والعبيد الآبقين ، وعندما نرى رقيق أشتريس — وكانت أحوالهم فيها قد بقيت على ما كانت عليه فى اسبانيا كلها دون تغيير — يقومون بثورة عامة ضد سادتهم » (٢) .

ثم يستطرد دوزى قائلا : «واذا كان القساوسة لم يحسنوا بصورة ما أحوال الرقيق ، فانهم لم يفعلوا شيئا أيضا للطبقة الوسطى ، ظل أهل هذه الطبقة (الكوريالس Curiales) على ما كانوا عليه : تابعين للأرض التى يعيشون عليها . وعلاوة على ذلك ، لم يعد من حق أى مواطن أن يبيع ممتلكاته . لقد انتقل الحرص على جباية أموال الدولة من أباطرة الرومان الى ملوك القوط ، ضمن ما انتقل اليهم من تقاليد الرومان ، بل انه ليبدو أن التلاميذ (وهم القوط) لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم (وهم الرومان) فى هذا المضمار . ظلت الطبقة الوسطى اذن فى شقائها وسوء أحوالها ، ولا تنكر قرارات مجامع طليطلة ذلك » .

(١) انظر :
MUÑOZ, *Del Estado de las personas en los reinos de Asturias y Leon*

(٢) *Forum Iudicum*, V, 4, 19 : *De non alienandis privatorum et curialem rebus.*

وهذه التعليقات الثلاثة الأخيرة واردة بنصها على هامش كلام دوزى الذى نتابعه :
Cf: R. DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne* (2e éd. dirigée par LÉV-PROVENÇAL. Leyde, 1932) vol. I, p. 265-266.

« وبقيت كل الجروح التى كان الناس يئنون منها فى العصور الرومانية : ظلت الملكية محصورة فى أيد قليلة (فى صورة اقطاعيات ضخمة) ، وبقى الرق بصورة عامة ، ونتيجة لذلك ظل العمل فى الأرض نصيب الزراع وملك الأراضى نصيب الملاك » [١] .

٢٢٠ — الحالة العامة بعد اتحاد الكنيسة والدولة

والواقع أن اتحاد الدولة والكنيسة ، بعد تحول ريكاريدو الى الكاثوليكية لم يجلب معه السلام واتحاد الشعب كما يتصور بعض المؤرخين ، ولم يأت وصول رجال الدين الى السلطان الا بالنتائج الطبيعية التى تنتجت عن مثل هذه الظاهرة على طول التاريخ : اضطهاد المخالفين والقسوة عليهم والمحاكمات الدينية واثراء رجال الدين وتحول الدين الى أداة للحكم ، وتعرض لكل ما تتعرض له أدوات الحكم كلها من نزوع الى الاستبداد ، وأخطاء فى السياسة ، وتعرض رجال الدين للنقد والمخاصمات ونفور الناس . وقد حدث مثل ذلك فى الاسلام ، عندما وصل المعتزلة الى السلطان أيام المأمون ، وعندما قامت دولة المالكية فى الأندلس ابتداء من أيام عبد الرحمن الأوسط .

ومع ذلك ، فان الاتجاه الغالب على التأريخ الاسپانى للعصر القوطى ينكر هذه الحقيقة ، ويتصدى لدحضها بالحماس والبلاغة والقسوة فى الحكم على المخالفين ، لا بحقائق التاريخ . ويبدو هذا الاتجاه فى أظهر صورة فى كلام كاتب اسپانيا الأكبر فى العصور الحديثة مننذ پلايو ، واليك مثلا من كلامه الذى يذكرنا بعنف أبى محمد على بن حزم فى مجادلاته مع خصومه : « يقولون ان المجامع الدينية اغتصبت

(١) DOZY, *Ibidem.*

اختصاصات ليست من حقها . من الذى يستطيع تأييد هذا السخف ؟ فى أى ناحية كان العلم وفى أيها كان الجهل ؟ لمن كانت الكنيسة تتنازل عن وظيفة تعليم أبنائها وتوجيههم ؟ أكانت تنزل عنه لأتباع ويتريك (Los Witericos) وخشندش Los Chindasvintos أو إيرڤيج Los Ervigios الذين وصلوا الى الحكم عن طريق قتل الملك السابق أو بواسطة حيلة حقيرة تحرمه من التاج ؟ لقد كانت الانسانية تستطيع أن تحقق تقدما واسعا فى حكم أمثال أولئك الأمراء ! ان وصاية المجامع على الدولة لم تفرض فرضا ولم تنتزع انتزاعا ، وانما ساقها القانون الالهى وسعى اليها ملوك القوط أنفسهم » .

« لم يوافق كل الشعب الآريوسى على الانفضاض عن عقيدته ، وذلك لسوء حظه وحظ الملكية القوطية ، فبالاضافة الى بعض الدخلاء من الأساقفة ، كان هناك عنصر محارب معاد (للكاثوليكية) ولا يمكن التفاهم معه ، عنصر لم ينسجم مع الحضارة الاسپانية الرومانية ، التى لم يستطع ادراك كنهها ، ولم يستمع الى تعاليم الكنيسة ، بل تصدى لاضطهادها قدر ما استطاع عن طريق مؤامرات أو ثورات ضد الملوك الذين كانوا يؤيدونها . هذه المعارضة العسكرية الكافرة تمثلت أولا فى صورة ويتريك Witerico وتمثلت ظاهرة الى حد ما فى اغتصاب خشندش Chindasvinto للعرش ، وفى الحرب التى شنها هيلديريك وپولس (Hilderico y Paulo) على الملك « وامبا » ، وتمثلت قبل كل شىء فى موقف غيطشة وأولاده ، أو أولئك الخونة — أيا كانوا — الذين فتحوا للعرب أبواب الزقاق . وقد وصلوا دون شك الى ادراك ما طلبوا من الانتقام الوضيع ، وزالوا من الوجود كشعب جزء وفاقا لهم على ما كان من شرهم وخبثهم . ان الشعب الذى نهض لاسترداد أرض الوطن

شبرا شبرا كان شعبا اسبانيا رومانيا ، اذ اندمج فيه القوط الطيبون اندماجا تاما ، أما عصبة النبلاء الذين باعوا وطنهم فقد أغرق الله ذكرهم فى بحر التاريخ »[١] .

٢٢١ – الخلافات الدينيـة والفتح الإسلامى

وهذا الكلام يفتح لنا بابا فى تفسير سرعة انتشار الاسلام فى الأندلس ، فهو — على مافيه من مجافاة « لسياسة العـلم » كما يقول أصحابنا الأندلسيون فى نقدهم لابن حزم — يربط بين تصرف غيطشة وأولاده والنفور الذى ساد بعض جماعات من أهل اسبانيا القوطية من استبداد الكنيسة واستعانتها بسلطان الملوك . وعلى ضوء هذه الاشارات نفهم أن عداء غيطشة لايخيكا كان من بعض نواحيه نفورا من سلطان الكنيسة واتجاهها الى فرض مذهبها بالقوة . واذا نحن ذهبنا نتعمق الأمر تبين لنا أن الأمر فى اسبانيا قبيل الاسلام كان يشبه الى حد بعيد الموقف فى مصر قبيل الفتح ، فقد كانت منازعات المذاهب فى مصر على أشدها ، وكانت مصر ابتداء من القرن الثالث المسيحى فى صراع متصل مع الدولة البيزنطية ، وكان المصريون — قبل أن تتدخل الدولة البيزنطية فى نزاع العقـائد — يسوون مشاكلهم بأيديهم ، كما حدث فى الصراع بين الآريوسية والأثناسيوسية ، اذ انتصرت الأخيرة وتلاشى مذهب آريوس ، وتفرق الباقون من المتأثرين به ، ومنهم أوريجانس ، الذى ذهب الى أنطاكية حيث تكونت حوله مدرسة كان لها فى تاريخ المسيحية الشرقية تاريخ طويل ، واتحد المصريون مع أهل الاسكندرية فى محاربة كل بدعة تناقض المذهب الأرثوذكسى كما تقرر فى مجمعى نيقية وافيسوس

(١) MENENDEZ PELAYO, *Historia de losheterod oxos ...* I, p. 347-348.

الأول ، فلما تدخلت الدولة وتصدت لحماية الأرثوذكسية ، وأخذت تفرض على الناس مذاهب معينة ، كما حدث فى مجمع افيسوس الثانى ؛ بدأ المصريون وأنصارهم يتخذون موقفا معارضـا للدولة ، بدافع التحدى لسلطانها فى صورة معارضة لسلطانها السياسى ، وظهر هذا بصورة واضحة فى مجمع خلقيدونية الذى تصورت كنيسة القسطنطينية أنها قضت فيه على منافستها كنيسة الاسكندرية فخاب ظنها ، لأن النزاع تحول بعد ذلك الى نزاع قومى ، وصمد المصريون وتحولوا شيئا فشيئا نحو المونوفيزية وثبتوا عليها رغم اضطهاد قيرُس ، ثم انضم قيرس الى أقباط مصر ، ولم يجد مخرجا من أذى الدولة اياه الا بالاتفاق مع العرب ، اذ رجا أن يجد فى حكمهم خلاصا من اضطهاد الدولة وتدخلها الدائم فى شئون العقيدة .

وقد درجنا فى دراستنا لتاريخ مصر على أن ننظر الى الخلافات المذهبية التى كانت متأججة بين مصر والدولة البيزنطية على أنها من آكد الأسباب فى تيسير فتح مصر على العرب أولا ، وفى دخول المصريين فى الاسلام بعد ذلك . فأما عن أثر هذه الخلافات فى تيسير الفتح فأمر ظاهر لا يحتاج الى شرح طويل ، وأما عن تيسيرها دخول المصريين فى الاسلام فنقول فيه ان مناقشات رجال الدين فى موضوع طبيعة المسيح واجتهاد كل صاحب مذهب فى اجتذاب الناس الى رأيه وتنفير الناس من مذاهب الآخرين ، ثم تدخل الدولة وحرصها على فرض آراء معينـة فى ذلك الموضوع ، كل ذلك أوقع الناس فى حيرة كبرى من أمر دينهم ، وتضاربت الآراء فى أذهانهم ، فلم يعرفوا أيها الصحيح ، ولم يعرفوا كذلك بأيها يأخذون ليضمنوا سلامة عقيدتهم من ناحية وسلامة أبدانهـم من أذى الحكام من ناحية أخرى . فاذا هم فى ذلك اذ دخل عليهم العرب بالاسلام

بساطته ويسر أصوله ، فبدا لهم وكأنه مخرج من ذلك الحرج كله ، ووجدوه يقرر نبوة عيسى عليه السلام ويلغى مسألة الطبيعتين باستنكاره بنوة المسيح لله وتقريره أنه نبى كغيره من الأنبياء ، وتأكيده ذلك بنفيه مسألة صلب المسيح مما ينقض نظرية الخلاص نقضا مبرما . وكان القول « بالخلاص » عبئا ثقيلا على نفوس الناس ، اذ لم يتصوروا كيف يخلق الواحد منهم محملا باثم خطيئة الانسان الأول ، وكيف ينبغى عليه أن يسعى فى خلاص روحه بالايمان بالصلب أولا ثم بشراء نصيبه من الخطيئة بألوان من الحرمان والعذاب من بينها تلقى الشهادة ثانيا .

وينبغى أن نذكر ذلك كله عند دراستنا لفتح المسلمين للأندلس ودخول أهله فى الاسلام ، فأما عن أثر الأحوال فى اسپانيا فى تيسير الفتح فقد فسرناه عندما قلنا ان القوط كانوا طبقة حاكمة متعالية منفصلة عن الناس ، وكان حكمهم ثقيلا على الناس ، فلما كسر العرب القوط دانت لهم البلاد ، كما دانت لهم مصر بهزيمة البيزنطيين . ولا عبرة بالقول بأن القوط غيروا سياستهم حيال الناس بعد قرارات مجمع طليطلة الثالث فى سنة ٥٨٩ وبعد الغاء الملك رخشنفنتو للقانون الذى يحرم زواج القوط بأهل البلاد بعد ذلك بسنوات قليلة ، فان سلوك الناس لا يتغير بالقوانين بل بفعل الزمن ، وكان ما بين هذه التشريعات الطليطلية ودخول الاسلام زمنا قصيرا لا يسمح بحدوث هذا التغير الحاسم الذى يتغنى به منندذ بلايو (١) ، فقد ظل القوط حكاما معتزين بالسلطان وان أشركوا معهم رجال الدين فيه ، ولو أن أيام القوط طالت لكان من الطبيعى أن يحدث التمازج الذى افترضه منندذ بلايو ، ولكن العرب دخلوا

(١) MENÉNDEZ PELAYO, *op. cit.* p. I. 345.

الأندلس والقوط على ما هم عليه من الانفراد بالسلطان ، فكانت المعركة بينهم وبين القوط لا بينهم وبين الايبيريين الرومان ، ولهذا كانت قصيرة المدى ، وساعد على تقصير مداها ما كان من ضعف القوط واختلافهم فيما بين بعضهم وبعض . ويقرر ذلك منندذ پلايو بقوله : « لقد كان لحرص نبلاء القوط على الانتقام (بعضهم من بعض) ثمراته الطبيعية . وربما لم يكن أولئك النبلاء يحسبون أن عملهم هذا سيؤدى الى هذه النتائج البعيدة ، فقد توجت الغارة العربية التى قام بها طارق وموسى بنصر سريع عجيب ، وذلك بفضل العناصر المعادية التى كانت تغلى فى اسپانيا ، وفتحت المدن والحصون عنوة أو صلحا ، واستسلمت فى أوريولة المقاومة الضعيفة التى حاولها تدمير . وهو القوطى الوحيد الذى حاول أن يرفع رأسه وسط الدمار العام ، وقامت الحاميات العربية واليهودية فى اشبيلية وقرطبة وطليطلة وباجة ... » (١) .

٢٢٢ – رأى فى الخلافات الدينية المسيحية

وإذن فقد كان للخلافات الدينية أثر بعيد فى تيسير الفتح الاسلامى للأندلس ، كما كان لها نفس الأثر فى فتح مصر .

والمؤرخون الاسپان يستنكرون هذه الخلافات ويحملون حملة بالغة على ما خالف العقيدة الكاثوليكية منها ، ويصفون أصحابها بالخيانة والاجرام والمروق وما الى ذلك ، ولكنهم لو أمعنوا النظر لبدا لهم الأمر أهون من ذلك بكثير . فان المسيحية نفسها كانت الى ذلك الحين موضع مناقشات ، وكانت أصولها غير واضحة أو محدودة ، وكانت المجامع الدينية فى الشرق والغرب تجتهد فى تحديد أركان العقيدة ، وكل مجمع ينشر على الناس رأيا يقرر أنه الصحيح ويحاول أن يحمل

(١) MENÉNDEZ PELAYO, *op. cit.* II, p. 7-8.

الناس على الأخذ به ، وكان الخلاف بين ما تصدره هذه المجامع يبدو فى بعض الأحيان وكأن كلا منها ينادى بدين يختلف عما ينادى به الآخر .

كانت الكنيسة الشرقية تعتبر مذهبها هو المذهب القويم (أورثوذكس) ، والكنيسة الغربية تعتبر مذهبها عالميا (كاثوليكى) ، وكانت كل منهما تكفر الأخرى ، بل كان فى داخل كل منهما أكثر من مذهب ، ففى الشرق كانت عشرات المذاهب أظهرها النسطورية والمونوفيزية والخلقيدونية ، وفى الغرب كانت الحرب المذهبية بين الأسقفيات بعضها وبعض ، وبينها وبين البابوية ، وقد كانت هذه الأخيرة لا تعنى عقيدة فقط وانما عقيدة ودولة ، فقد كان بابوات روما يرون اذ ذاك أنهم ورثة الرسول بطرس من ناحية وورثة أباطرة الرومان من ناحية أخرى ، ولم يكن ذلك خافيا على أحد ، فكان الملوك يؤيدون بابوات روما أو يناهضونهم تبعا لمصالح عروشهم ، فقد أيدهم الفرنجة وحاربهم اللومبارد ، وكانت علاقاتهم بكنيسة طليطلة علاقة ولاء يشوبه الحذر ، وبين الحين والحين ، كانت الخلافات تقع بين البابوات ومطارنة طليطلة ، فقد كتب يوليانوس مطران طليطلة الى البابا فى سنة ٦٥٣ يصفه « بجهل مخجل » وكانت الخلافات على أشدها فى مسائل العقيدة داخل الكنيسة الاسبانية : حول مسألة الرؤيا Apocalipsis أو مركز كنيسة روما (كنيسة الرسول بطرس) أو قداسة التعميد de sacramento babtismatis وما الى ذلك ، وكانت المناقشات بين الأساقفة حول هذه الموضوعات تطول وتشتد ، وتنتهى عادة بقرار من مجمع طليطلة يفرض على الناس فرضا .

فاذا كان هذا حال البابوات والمطارنة والأساقفة من الحيرة فى مسائل

العقيدة فما بالنا بغير رجال الدين من عامة الناس، وكانت غالبيتهم العظمى لا تقرأ ولا تكتب ولا تفهم من اللاتينية حرفا ؟ كيف ننتظر أن تكون أمور العقيدة مقررة فى أذهانهم بهذه الصورة التى يفترضها مؤرخو اسبانيا ؟ انما الطبيعى أن تكون أذهانهم مبلبلة كما كانت حال غيرهم من عامة المسيحيين فى ذلك العصر ، وليس أدل على ذلك من انتشار السحر والكهانة والشعبذة فى اسبانيا وغالة ، وهى ظواهر لا تعم الا فى أزمنة الاضطراب السياسى وانتشار المخاوف وضعف الايمان وهبوط مستوى العقائد . ولم يقبل عليها عامة الناس فقط بل الملوك والنبلاء وبعض رجال الدين ، وابتداء من المجمع الطليطلى الثالث لا تخلو قرارات مجمع منها من بضع مواد تحرم السحر والكهانة والتوسل بالأشجار والأحجار وما اليها لكف أذى الأرواح الشريرة ، بل ان المجمع الخامس اعتبر من يمارس السحر أو يلجأ الى الكهان ملعونا من الكنيسة محروما من رحمة الله ، واننا لنلمح فى بعض قرارات المجامع ضد السحر أن بعض الناس كانوا يلجأون اليه ليتخلصوا من الحكام ، وأن بعضهم الآخر كان يقدم القرابين للشياطين ، بل انحدر الناس الى الوثنية الصريحة حتى اضطر المجمع الطليطلى الثانى عشر عام ٦٨١ الى حفز همم القساوسة على القضاء على عبادة الأصنام ، ولم ينحسم الأمر مع ذلك فنجد المجمع السادس عشر يحرم من رحمة الله عبدة الأوثان والأحجار وعيون الماء والأشجار والعرافين والسحرة ، وقرر المجمع الحادى والعشرون طرد القساوسة الذين يصنعون الأحجبة والرقى[1] .

لم تكن النصرانية فى اسبانيا القوطية اذن بالشمول الذى تتصوره ،

(١) MENÉNDEZ PELAYO, *op. cit.* I, p. 422-428.

ولم تكن العقيدة المسيحية واضحة محددة المعالم لعامة الناس ، وانما كانت القلوب فى حيرة والعقول تتلمس طريقها لتفهم ما تلقى اليهـا ، وكانت الخلافات المذهبية كثيرة متضاربة ، وقد قامت مجامع طليطلة بجهد عظيم فى سبيل تحديد أصول العقيدة ، وقامت تفرض رأيها بالقوة والعنف ، فكان لذلك أثره الطبيعى : نفـر الكثيرون منها وأخـذوا يعارضونها ، ولما كان الملوك يؤيدون الكنيسة ويأتمرون بأمرها ، فقد أصبحت المعارضة الدينية معارضة سياسية أيضا . ولا شك أن الخلاف بين بيتى غيطشة واخيكا كان له وجهه الدينى ، والأسقف لذريق الطليطلى يؤيد ذلك فيقول : « ان غيطشة لم يكن طاغية بغيضا فحسب ، بل كان ملكا منشقا على الكنيسة وثائرا ، يؤيد اليهود ويحابيهم ، ويجمع مجلسا فى طليطلة ، ويصدر قرارات منكرة ، ويرد على تحذيرات البابا بفصل مملكته عن البابوية ، ويصدر قرارا يحرم به على رعاياه الاعتراف بسلطان البابا ويثير غضب الكنيسة بتعيين قريبه أوپه Oppas مطرانا لطليطلة . فقد حشره فى هذه الوظيفة حشرا روع الناس ، وكان يحتـل كرسى المطرانية قبل ذلك سِنِدرِد (الذى عاد اليه عندما اعتلى لذريق العرش) وقتل فافله Fávila دوق كنتبريه وسمل عينى ثيودوفريدو Theodofredo وهدم أسوار المدن وأحرق السلاح ، لا حبا فى السلام ، كما زعم بعض المولعين بالمتناقضات ، ولكن ليحول دون قيـام الثورات على سلطانه المستبد »(١) .

(١) Apud MENÉNDEZ PELAYO, *op. cit.* p. 367-368.

٢٢٣ – الإسلام يضع حداً للاضطهادات الدينية المسيحية فى الأندلس

ولقد أعفى أصحاب هـذه المذاهب والآراء من اضـطهاد الكنيسة والدولة عندما صار الأمر للمسلمين ، فقد دخلت الغالبية العظمى من أهل البلاد فى الاسلام ، اذ وجدت فيه حلا سعيدا مريحا للمشكلة العقيدية . وتلك ظاهرة واسعة المدى لا ينبغى أن تغيب عن نظر أحد ممن يدرسون تاريخ انتشار الاسلام : كانت المشكلة الدينية هما ناصبا لكثيرين جـدا من المسيحيين فى تلك الأعصر . فأما العوام والبسطاء فقد أراحوا أنفسهم من العناء ولم يتعبوا أنفسهم فى مسائل الطبيعة والطبيعتين وما يترتب عليهما، ونجوا بأجسامهم كذلك من سلطان الحاكمين الذين كانوا يخرجون كل يوم برأى جديد فى هذه المشاكل ، وأخذوا يرددون ما يقال لهم أو صاغوا العقيدة الجديدة فى قالب الوثنية القديمة . وأما الأقلية المفكرة فكان بلاؤها عظيما ، اذ كانت تصر على أن تفهم دينها فى حين أصر رجال الدين على أن يفهموه نيابة عنهم وما عليهم الا التصديق والترديد . وهذا الكلام ينطبق على كل بلاد المسيحية فى ذلك العصر .

ثم جاء الاسلام يقدم لهم حلا يطمئن اليه معظم الناس وينجو به معظم القلقين ، بل جاء يعرض حماية لمن أراد أن يقول قولا لا ترضى عنه الكنيسة ، فأمنت البقية الباقية من النساطرة فى العراق وبعض نواحى الشام ، وأمن المونوفيزيون فى مصر والشام ، وأمن أصـحاب الأقوال المختلفة فى اسپانيا . وفى ظلال الخلفاء قال يوحنا الدمشقى ما شاء له القول ، وتفلسف اسپيرايندوس فى الأندلس ما شاءت له الفلسفة ، دون أن يخشى أحد منهم أن يحدث له ما حدث لجريجوريوس حاكم قرطاجنة افريقية البيزنطى سنة ٦٤١ ميلادية ، فقد كان رجلا متدينا وأرثوذكسيا

مخلصا ، وكان يعارض كل رأى يناقض المذهب الأرثوذكسى كما أقرته الدولة أيام قنسطنطين الثالث ، ثم قتل قنسطنطين هذا فجأة فى مايو سنة ٦٤١ وتولى العرش هرقلوناس وقامت بالوصاية عليه أمه مارتينه ، فأصدرت أمرها بالارتداد الى مذهب هرقل ، وكان مونوثيليا ، ووصل الخبر الى جريجوريوس فأنكره ، حاسبا أنه اشاعة ، « وقام فى الناس يؤكد لهم أن الأوامر بمطاردة الأرثوذكسية ان هى الا وسيلة يراد بها النيل من الامبراطورية المؤمنة الطاهرة الذيل ، وأراد أن يؤكد للناس مقالته ، فحضهم على الاجتهاد فى تتبع المونوثيليين واضطهادهم ، غير عالم أن اليوم يومهم ، فلم تكد الأخبار بأفاعيله تصل القسطنطينية ، حتى دعى الى هناك ليحاسب أعسر الحساب على ما اقترف من جرم ، فرحل الرجل الى القسطنطينية ، وهو — من حيرته — لا يكاد يعرف لنفسه مصيرا » (١) .

وربما بدا غريبا أن يقال ان دخول المسلمين هذه البلاد كلها قد وضع حدا للاضطهادات الدينية فيها ، ولكن هذا هو الواقع . فان المسلمين تركوا المسيحيين الذين أرادوا أن يظلوا على دينهم أحرارا يفعلون ما يشاءون ، ولم تجد البابوية ولا رجال الدين وسيلة لأذى المخالفين ، فقنعت بالشىء الوحيد المعقول : المجادلة والأخذ والرد ، فبينما كانت اللعنة الأبدية والقتل والسجن والتشريد نصيب من يخالف الرأى الرسمى للبابوية والمجامع أيام القوط ، نجد البابا ورجاله يكتفون بخطابات يدحضون بها آراء البياندوس Elipandus مطران طليطلة الذى قال بعد الفتح العربى بقليل ان المسيح ، من الناحية البشرية ، كان ابنا لله بالتبنى فحسب :

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص ٤٥ .

"(Christus) Unigenitus autem vocatur secundum divinitatis excellentiam,quia sine fratribus. Primogenitus secundum susceptionem hominis, in qua per adoptionem gratiae fratres habere dignatus est, de quibus esset primogenitus".

وهى مقالة لو نطق بها أحد فى أيام القوط لكان جزاؤه القتل ، ولكن البابا هدريان الأول ورجاله لم يستطيعوا الا حض المخلصين لهم من رجال الدين على مطاردة هذا الرأى الذى انتشر حتى آمن به نفر من نصارى أشتريس وكنتبرية ممن كانوا خارجين عن طاعة المسلمين ، وكتب ايتريوس Heterius كتابا فى الرد عليه :

Liber Etherii adversus Elipandum, sive de adoptione Christi filii dei.

وقد استمرت هذه الآراء تظهر وتختفى خلال العصور الاسلامية ، ولم يكن لأحدها من الصدى أكثر مما يكون لرأى يطرح للناس ، فيؤيده من يريد وينصرف عنه من يريد ، ولا يبقى آخر الأمر الا الرأى الذى يقبله العقل ويطمئن اليه القلب ، ولو كانت هناك المجامع وسلطان الدولة لأصبح لكل رأى منها فرقة كما كان الأمر أيام الدولة البيزنطية ، اذ أنه لا يحيى الآراء ويقوى المذاهب شىء كالاضطهاد . وقد وقفت الدولة الاسلامية فى الأندلس موقف الحياد الكامل ، ولم تفعل فعل الدولة العباسية مثلا عندما ناصرت النساطرة على من سواهم . وقد بلغ من عدم حفل الدولة الاسلامية فى الأندلس لهذه المذاهب ، ولآراء نصارى الأندلس جملة ، أن ضاق ذرع المتظهريين من رجال الدين بهذه الدولة التى تغرى المسيحيين بتسامحها على دخول الاسلام ، ولا يقرأ أحد من أهلها شيئا مما كان رجال الدين هؤلاء يكتبونه فى نقد الاسلام ويملأونه بالطعن الجارح !

لقد شكا الراهب ألبَر القرطبى من أن أحدا من اخوانه النصارى لا يقرأ اللاتينية أو يلقى بالا الى الكتب المقدسة المكتوبة بها ، لأن الناس فى الأندلس كانوا فى شغل عن ذلك بالعربية ودراستها ومحاولة التمكن منها ، فلما لم يستمع أحد لشكاته أخذ يحرض المسيحيين على التحرش بالاسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم ، فجعل نفر من النصارى يفعلون ذلك ويعرضون أنفسهم للأذى ، فكانت محنة نصارى قرطبة أولا ثم طليطلة ثانيا ، وهى الفتنة الوحيدة من نوعها فى التاريخ ، لأن الغالب أن تضطهد الأكثرية الأقلية ، أما هنا فقد شاء طموح رجال الدين الا أن تضَطهدالأغلبيةَ الحاكمة بالطعن فى مقدساتها ، ولم يدفع هذا النفر من رجال الدين المسيحيين الى تحريض الناس عليها الا هذا التسامح الذى جرى عليه أمراء بنى أمية فى الأندلس . وهو تسامح بلغ حد الاهمال ، حتى شعر رجال الدين أن أمرهم قد ضاع فلا هم يجدون سبيلا الى الحكم ، ولا هم يملكون الوسيلة الى السيطرة على عقول الجماهير باظهار براعتهم فى مسائل الدين ، فلم يجدوا طريقا للخروج من ذلك الخمول الا بركوب هذا المركب الوعر .

٢٢٤ – أثر الإسلام فى نصرانية الأندلس

ولقد ذهب سيمونيت ومن تبعه الى القول بأن كل ما ظهر بين نصارى الأندلس خلال العصور الاسلامية من الآراء المخالفة لرأى كنيسة روما انما كان أثرا من آثار الاسلام فى نصارى الأندلس ، وليس ذلك من الضرورى ، لأن المسيحية نفسها ضمت كل لون من المذاهب والآراء قبل ظهور الاسلام ، مثال ذلك أن مذهب اليباندوس — الذى أشرنا اليه — أقرب ما يكون الى قول

النسطورية ، وقد عرفت اسپانيا النسطورية قبل مجىء الاسلام[1] ، ومثال ذلك أيضا أن القس اسپيرايندوس Espiraindus وكان من شيوخ الكنيسة الاسپانية فى أوائل القرن التاسع الميلادى (أى فى أيام الأمير الحكم بن هشام المعروف بالربضى) ، كتب رسالة صغيرة « ضد بعض المذاهب المنحرفة التى ظهرت فى هذه الفترة التعيسة ، يقول أصحابها بانكار سلطان أنبياء الكنيسة وعلمائها ، وجرءوا على أن يضعوا ألوهية المسيح موضع الشك ، وعلى انكار عقيدة الثالوث ، اذ أضلتهم الآراء الاسلامية » كما يقول سيمونيت فى أسلوبه المقذع الجافى ، وعنوان رسالة اسپيرايندوس :

Speraindeo Abbas contra haereticos quosdam negantes trinitatem personarum in unitate substantiae atque divinitatem in Christo[2] .

ولا نستطيع القطع بأن هذه المذاهب كانت أثرا من آثار الاسلام ، لأن هذه الآراء نفسها ظهرت فى المسيحية فى المشرق والمغرب قبل ظهور الاسلام ، ولا يستبعد أن يكون وجود الاسلام فى الأندلس قد أعطى أصحابها حججا وآراء وقوى مركزهم .

* * *

٢٢٥ – المسلمون والكنيسة الإسبانية

واذن فلم تكن المسيحية فى اسپانيا قبل دخول الاسلام ثابتة الأركان ولا موحدة الكلمة ولا متمكنة فى قلوب الناس جميعا على النحو الذى يصوره المؤرخون عادة ، بل لم يكن كل النصارى بآمنين على أنفسهم ولا راضين عن الوضع الذى

(١) انظر عن النسطورية فى إسبانيا :
MENÉNDEZ PELAYO, *op. cit.* I p. 313 sqq.

(٢) SIMONET, *Mozárabes*, p. 341-342.

كانت عليه . ومن هنا فانه يبدو لنا أن ما يسرف فيه بعض المؤرخين من الكلام عما أصاب المسيحية على أيدى المسلمين مبالغ فيه ان لم يكن مناقضا للحقيقة والواقع . حقيقة أن المسلمين اعتبروا أملاك الكنائس التى تركها أساقفتها وقساوستها وفروا ملكا للدولة ، وقصروا نفوذ رجال الدين على الدين ، وذلك لا يعنى أذى المسيحية والمسيحيين ، فقد كانت الكنيسة كما رأينا تملك نحو خمس الأرض العامرة ، وكان رجال الدين يتولون الحكم باسم الملوك ، ويتعرضون لكل ما يتعرض له أصحاب الحكم من أخطاء وعداوات ، وليس ذلك من صالح الدين فى شىء . بل من الغريب أن أولئك الذين يتهمون العرب بأنهم خربوا عشرين أو ثلاثين كنيسة يفعلون ذلك باسم حرية الفكر وحرية العقيدة ، ونحن جديرون بأن نسألهم : كم مسجدا بقى فى اسپانيا بعد أن أصبحت السيادة فيها للنصرانية ؟

كان فى اسپانيا على أيام القوط ست كنائس جامعة على رأس كل منها مطران ، وكانت هذه الكنائس الست تقوم فى قواعد الأقسام الادارية الكبرى كما كانت على أيام الرومان ، وهى : طركونة وماردة واشبيلية وافراغه وقرطاجنة وطليطلة ، ويبدو أن مجمع طليطلة الثانى عشر قد اعتبر مطرانية طليطلة رأس المطرانيات جميعا .

ثم تلى ذلك الأسقفيات وعددها احدى وعشرون فى اسپانيا القرطاجنية ، ومن المفيد أن نذكرها هنا ، لأن معظمها سيكون قواعد كور فى التنظيم الادارى الاسلامى ، وسنذكرها بأسمائها اللاتينية ونتبع كل اسم بمقابله العربى ان وجد ثم القشتالى الذى أخذ عن الصيغة العربية فى بعض الحالات ، وبقى الى اليوم :

Acci	وادى آش	Guadix
Arcávica	أركبيقة	Arcàbica (عاصمة إقليم كونكه اليونانى)
Beacio أو Biatia	بياسة	Baeza
Boasti	بسطة	Baza
Bigastra	(فى مرسيه)	Bigastro
Cartago	قرطاجنة	Cartagena
Castulo	قسطلونة	Cazlona
Compluto	مدينة المائدة	Alcalá de Henares
Diania	دانية	Denia
Illici	إلش	Elche
Mentesa	منتيشة	La Guardia, Jaen
Oreto	أوريط	Granatula, Ciudad Real
Oxuma	أشونة	Osma
Palentia	—	Palencia
Setabis	شاطبة	Játiva
Segobia	شقوبية	Segovia
Segòbriga	—	Segorbe
Segontia	—	Sogüenz..
Valentia	بلنسية	Valencia
Veleria	(فى قونقة)	en Cuenca
Urci	على مقربة من	Villaricos

وفى ولاية بيطى عشر أسقفيات هى :

Hispalis	إشبيلية	Sevilla

Asidonia	شذونة	Medina Sidonia
Astigi	استجة أو إسْتِجَة	Ecija
Córduba	قرطبة	Córdoba
Egabro	قبرة	Cabra
Elepla	لبلة	Niebla
Eliberis أو Iliberri	إلبيرة	Elvira
Italica	طالقَة	Italica
Malaca	مالَقَة	Malaga
Tucci	—	Martos

وفى لشدانية (Lusitania) — وهى البرتغال الحالية — ثلاث عشرة أسقفية هى :

Emerita	ماردة	Mérida وهى القاعدة
Abela	أبِلَه	Avila
Beseo	بيزو	Viseo
Caliabria (على مقربة من Cuidad Rodrigo)		—
Cauria	قورية	Coria
Conimbria	قلمرية	Coimbra
Ebbora	يابرة	Evora
Egitania	—	Idania la Vieja
Lameco	—	Lamego
Olisipone	الأشبونة	Lisboa
Ossonoba	أكشونبة	Oxonoba (Faro)
Pax Julia	باجه	Beja
Salamantica	شلمنقه	Salamanca

وفى جليقية تسع أسقفيات هى :

Braga	—	Braga القاعدة
Asturica	استرقه	Astorga
Auriense	—	Orense
Britonia	—	Santa Maria de Breto
Dumio	قرب Braga	(cerca de Mondeñeds)
Iria	—	Padron (Coruña)
Lucus	لُك	Lugo
Magneto أو Portucale	برتقال	Meinedo o Oporto
Tude	توده	Túy

وفى اسپانيا الطركونية (الشرق) ١٥ أسقفية هى :

Tarracona	طركونة	Tarragona القاعدة
Auca	أوقة	Oca
Ausona	أشُونة	Osona (فى مقاطعة فيش Vich)
Barcimona	—	Barcelona
Caesaraugusta	سرقسطة	Zaragoza
Calagurris	قلهرة	Calahorra
Dertosa	طرطوشة	Tortosa
Egara	—	Tarrasa
Empurias	امبرياش	Ampurias
Gerunda	جرندة	Gerona
Ilerda	لاردة	Lerida
Osca	وشقة	Huesca
Pampilona	بنبلونة	Pamplona

Tarazona	طرسونة	Tirassona
Urgel	—	Urgello

وفى المقاطعة النربونية ثمان أسقفيات هى :

Narbonne وهى القاعدة	أربونة	Narbona
Agde	أجدة	Agatha
Beziers	—	Beterres
Carcasonne	قرقشونة	Carcassona
Elna-Perpignan	—	Elena
Ludève	—	Luteba
Magallon Montpellier	مجلونة	Magalona
Nime	نيمه	Neumaso

فمجموع المطرانيات والأسقفيات على هذا كان ٧٧ ، منها ٨ خارج شبه الجزيرة و ٦٩ فى شبه الجزيرة [١] . ومن هذا العدد الكبير يذهب أصحاب المدونات النصرانية ، ويتابعهم المؤرخون المحدثون ، الى أن العرب خربوا عددا يبلغ الأربعين ، وهذا القول مبالغة نعرفها من أولئك الرهبان ، لأن المعروف أن المسلمين لم يخربوا فى الشام أو مصر كنيسة واحدة ، فلا يعقل والحالة هذه أن يخربوا فى اسپانيا نحو نصف الكنائس والواقع يدحض هذا الزعم ، وأبسط الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخربوا كنيسة قرطبة ، مع أنهم استولوا على البلد عنوة ، بل اكتفوا بمشاركة المسيحيين اياها ، وعندما انتشر الاسلام فى البلد ، وضاق نصف الكنيسة بالمصلين اشترى عبد الرحمن الداخل النصف الآخـر من

(١) AGUADO BLEYE, *op. cit.* p. 364-365.

النصارى ، وأذن لهم فى بناء كنيسة أخرى بدل القديمة التى أصبحت كلها مسجد قرطبة الجامع .

بيد أننا لا نستبعد أن يكون بعض الأذى قد أصاب الكنائس الواقعة فى الأقاليم التى ظلت خلال الفترة التى تتحدث عنها دار حرب ، وهى كنائس أقاليم جليقية والولاية النربونية والجزء الشمالى من اسـپانيا الطركونية وولاية لشدانية . فقد ظلت هذه النواحى ميدان صراع ينال التخريب كل ما فيها : كنائس وغير كنائس ، وهى لم تتخرب لأن المسلمين أرادوا تخريبها ، بل لأن هذا فعل الحرب فى كل زمان ومكان :

وربما كان الذى أوقع أولئك الرهبان من أصحاب المدونات النصرانية فى الخطأ هو أن الكثيرين من الأساقفة تركوا أسقفياتهم وهربوا أمام الجيوش الاسلامية ، ظنا منهم أن المسلمين سيفتكون بهم ، ولجأوا الى بلاد الشمال القصى ، فظن الرهبان أن هروب الأسقف والقساوسة معناه تخريب كنيستهم . وقد عاد الكثيرون منهم الى كنائسهم بعد أن رأوا أن المسلمين لا يعتدون على الكنائس أو رجال الدين ، ويؤيد ذلك القول سيمونيت كبير الحاملين على الاسلام والمسلمين بين المؤرخين الاسپان المحـدثين [١] .

وعلى أى الأحوال ، فان المراجع النصرانية نفسها تذكر أن الأسقفيات والكنائس الآتية بقيت وعاش أهلها فى سلام مع المسلمين :

مطرانيات طليطلة وماردة واشبيلية ،

وأسقفيات وادى آش — اركبيقة (فى ولاية قونقه) — شذونة — استجه — برشلونة — بسطه — بياسة — بيجاستر (نقلت

(١) SIMONET, *op. cit.* 122-123.

فيما بعد الى قرطاجنة) — قَلَهَرة — قورية — سرقسطة — مدينة المائدة (Compluto-Alcalá de Henares)— قلمرية — قرطبة — قبرة — لبلة — البيرة (غرناطة) — جَرَنْدة — الش — مالقة — ارجلّو (Urgel) — اوسمه — سِجِبيَّة (Exea-Segîa) — سيُجونتيا (Siguenza) — توكى(Martos) — أرشى (Urci ، على مقربة من المرية) — طالِقَة — بلنسية .

المجموع احدى وثلاثون مطرانية وأسقفية .

فاذا ذكرنا أن عدد هذه الكراسى الكنسية داخل شبه الجزيرة كان أيام القوط تسعة وستين ، منها تسعة فى جليقية فى ناحية لم تخضع للمسلمين ، ومثلها سبعة لم تخضع لهم من كراسى الولاية الطركونية الخمسة عشر ، وخمسة من كراسى ولاية لشدانية فى نواح لم تدخل فى طاعة المسلمين ، ومثلها أربعة من كراسى ولاية اسپانيا القرطاجنية — اذا استبعدنا هذه الكراسى التى كانت واقعة فى نواح خارجة عن دار الاسلام وعددها خمسة وعشرون كرسيا ، كان الباقى الذى دخل فى ديار المسلمين من قواعد الكراسى الكنسية أربعا وأربعين . وقد ذكرنا أن المراجع النصرانية نفسها تؤكد وجود واحد وثلاثين ، أى أن الذى اختفى من الكراسى الكنسية أحد عشر .

نقول « اختفى » ولا نقول أزيل أو محى ، لأن هناك ظاهرة هامة لا ينبغى أن نهمل أمرها فى ذلك الحساب ، وهى أن قيام دولة الاسلام فى الأندلس اقتضى تغييرات ادارية استدعاها وضع الدولة الجديدة : أعيد تنظيم بعض الأقسام الادارية القوطية عند تحويلها الى كور ، فأخرجت من بعضها بلاد ضمت الى أقسام أخرى ، ونقلت قواعد بعض أقسام الى مدن أخرى أكثر مناسبة للمطالب الادارية الاسلامية وهكذا ،

فكانت النتيجة أن خمل بعض المدن فلم يعد يستحق أن يقوم فيه كرسى كنسى . ولم يقتصر هذا الأمر على الأندلس الاسلامى بل حدث مثله فى امارة أشتريس التى أصبحت مملكة ليون فيما بعد ، فقد ضم مثلا كرسى افراغه (Braga - Bracara) الى كرسى لُك (Lugo - Lucus) ونتيجة لذلك قل عدد الكراسى الكنسية فى الأندلس الاسلامى . وعندما كانت تعمر ناحية وتتمدن قاعدتها — أى تصبح مدينة — كان المسلمون لا يمانعون فى انشاء كرسى كنسى فيها ، ومثال ذلك ما حدث لبطليوس عندما عمرت وكبرت وأصبحت قاعدة كورة : أنشأ المسيحيون فيها كرسيا كنسيا رغم قربها من قورية وماردة . وكان فى كل منها كرسى ، بل كانت الأخيرة مطرانية [١] .

٢٢٦ — انتقال مركز المسيحية الأندلسية إلى قرطبة

وربما كان أهم تغيير فى النظام العام للنصرانية فى الأندلس هو انتقال مركز الثقل من طليطلة الى قرطبة . لم ينقل المسلمون كرسى المطرانية الكبرى من طليطلة الى قرطبة ، بل تركوه كما كان مراعاة لمشاعر النصارى ، ثم حرصوا على أن يكون المطران قريبا منهم فى العاصمة ، بل عقدت مجامع طليطلة فى قرطبة [٢] ، وذلك اجراء بسيط لم يؤثر فى أحوال النصارى ولم يمس نظام الكنيسة ، بل استدعاه الصالح العام ، وربما يكون رجال الدين أنفسهم هم الذين حرصوا على أن يكونوا على مقربة من الأمراء والخلفاء ، ولكن مؤرخى اسپانيا النصرانية ينقدون ذلك ويعتبرونه عدوانا على كنيستهم وتعصبا على النصرانية ، وهذا أغرب ما يمكن سماعه من قوم

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 122-123.

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 123-124.

لم يبقوا فى الأندلس كله — عندما صار الأمر اليهم — على مسجد واحد أو مسلم واحد ! ومهما يتأمل الانسان فى منطق أولئك المؤرخين لا يسعه الا أن يأسف أن يكون هذا مبلغ نفر من أهل الديانة والفكر والعلم فى عصرنا هذا من الاحساس الانسانى .

٢٢٧ – الكنيسة الأندلسية فى النطاق الشرقى

حل أمراء قرطبة محل ملوك القوط ، فانتقل اليهم بذلك الاشراف الأعلى على شئون الكنيسة فى بلادهم ، وجعلوا قرطبة المركز الفعلى للنصرانية الأندلسية ، واحتفظوا لأنفسهم بالحق فى تعيين المطران — أو اقرار انتخابه بقول أصح — وفى الموافقة على الدعوة لعقد المجامع الدينية . وكان هذا فى ذاته تغييرا حاسما فى تاريخ الكنيسة الاسپانية . لأن مطرانية طليطلة كانت معتبرة قبل الفتح تابعة لكنيسة روما روحيا وأدبيا وماليا أيضا من بعض الوجوه ، فقطع العرب هذه العلاقة وجعلوا للنصرانية الاسپانية كيانا مستقلا ، فلم يعد النصارى المقيمون فى النواحى الخاضعة للمسلمين يرسلون شيئا من أموالهم الى روما ، وانقطع مجىء القساوسة والرهبان ورسل البابوية من غالة وايطاليا بصفة رسمية ، أى أن هؤلاء النصارى انفصلوا تماما عن اخوانهم النصارى فى ايطاليا وغالة وبقية أوروبا ، وتغير اتجاه أولئك النصارى من الغرب الى الشرق ، واندرجت النصرانية الأندلسية فى عداد النصرانية الشرقية وان كانت كاثوليكية ، وأخذت تتأثر تبعا لذلك بمؤثرات نصرانية — واسلامية — آتية من الشرق . ومن هنا فقد أخذت طقوس هذه الكنيسة الأندلسية تختلف عن الطقوس التى سادت الكنيسة الكاثوليكية عامة . وقد أتى هذا الاختلاف نتيجة لدخول الكنيسة الأندلسية فى النطاق الشرقى ، ونتيجة لثبات هذه الطقوس على ما كانت عليه أيام دخول المسلمين ، فى حين ظلت بقية

الكنائس الكاثوليكية التى كانت على اتصال دائم مباشر مع البابوية خاضعة لكل ما تقرره البابوية من تعديلات وتحديدات تصدر بها أوامر من المجمع الكنسى العام أو مجمع الكرادلة فى روما .

٢٢٨ – الطقوس القوطية الكنسية

ويذهب مؤرخو الكنيسة الاسپانية الى أن أول من أدخل هذه الطقوس الى اسپانيا كان القديس الرسولى سان توركواتوس Sanctus Torcuatus مؤسس كنيسة وادى آش ، ثم حدد أصولها وشعائرها القديسان لياندروس وأخوه ايزيدور ، ولهذا يسميها الأسقف رودريجو خيمينيث شعائر ايزيدور ولياندروس Officium Isidori et Leandri ، ويسميها بعضهم الايزيدورية فحسب Isidoriano . ثم شاعت وجرى بها العمل أيام القوط ، ومن هنا أطلق عليها اسم الطقوس القوطية Oficio Góteco-Officium Góticum ، وربما سميت الطقوس الطليطلية Oficio Toledano لأن مجمع طليطلة الرابع قرر تعميمها فى كنائس اسپانيا وغالة النربونية كلها . وقد جرى بها العمل فى الكنائس فى الأندلس الاسلامى دون أن يتعرض لها المسلمون بشىء ، وعندما بدأ ملوك ليون يتغلبون على بلاد المسلمين، أطلق الليونيون على من كان فى هذه البلاد اسم المستعربين كما قلنا ، وأطلق هذا الوصف أيضا على شعائرهم فسميت بالشعائر المستعربية Oficio Mozárab .

٢٢٩ – البابوية والطقوس القوطية

وما كادت البابوية تقف على أقدامها فى حماية الدولة الكارولنجية الفرنجية حتى أخذت تلقى الشكوك فى قيمة هذه الطقوس وكاثوليكيتها ، فبدأت بارسال حبرين أيام البابا يوحنا العاشر لينظرا فى أمر هذه الطقوس ويعرضا عليه رأيهما فيها ، فذهب الحبران الى كنائس ممالك اسپانيا النصرانية وعادا ليقررا أنها

شعائر كاثوليكية سليمة . ولكن البابوية أصرت رغم ذلك على الغاء هذه الشعائر واحلال الشعائر الرومانية (نسبة الى روما) محلها ، وما زال البابا جريجوريوس السابع حتى حمل شانجه ملك نَبَرّه وألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على الاستجابة لما يريد ، فألغيت الشعائر المستعربية فى نبرة وقشتالة وليون فيما بين سنتى ١٠٧٧و١٠٧٨ رغم معارضة شديدة من نصارى هاتين المملكتين (١) .

ثم جاء دور نصارى الأندلس الاسلامى عندما بدأوا يدخلون فى طاعة ملوك اسبانيا النصرانية بعد استغلاب بلادهم . لقد ظلوا آمنين على شعائرهم ما داموا فى حمى المسلمين ، فلما صاروا الى حماية ملوك النصرانية بدأت متاعبهم وعادوا الى ما كانوا فيه فى العصر القوطى ! وقد تحول الأمر الى صراع دموى اشتبك فيه أنصار الشعائر المستعربية مع أنصار الشعائر الرومانية ، ولو أن أمرا كهذا حدث أيام المسلمين لما وسعت الكلمات غضب المتحاملين على الحكم الاسلامى ، ولكن ما أشد اختلاف معايير القيم فى أيدى أولئك النـــاس ! لقد جمع الامبراطور ألفونسو السادس مجمعا فى برغش عام ١٠٨٥ ، وألغى الشعائر المستعربية التى حافظ عليها المسلمون وأحل محلها شعائر فرضت على الناس فرضا بسلطان الرهبان الكلونيين ، وهم أجانب عن اسبانيا ، كانوا يدخلونها اذ ذاك سادة لأهلها وقساوستها أيضا .

(١) يحتج سيمونيت على موقف البابوية من الطقوس القوطية ، ولكن احتجاجه رقيق لطيف لا يقاس بحملاته المقذعة على المسلمين ، ولو أن المسلمين مسوا طقوس الكنيسة لما وجد فى ألفاظ العنف – بل البذاءة – ما يكفيه . وقد رأيت الإشارة إلى ذلك لبيان روح التعصب الشديد الذى كتب به هذا المؤرخ ومن تابعه ، وهو تعصب يشوه الصورة التاريخية للأندلس الإسلامى تشويهاً تاماً.

Cf: SIMONET, *op. cit.* p. 695.

ولم يرض الشعب عن ذلك ، وسرت فى صفوفه روح المقاومة ، وقال قائلهم : « نموت أو نستبدل هذا الملك بملك آخر قبل أن نقبل هـذا التغيير » . ووقف الملك وحيدا أمام رعيته كلها . وتدخل نفر من الوسطاء فى الأمر ، واستقر الرأى أخيرا على تحكيم القدرة الالهية جريا على شريعة العصور الوسطى : اتفق الطرفان على أن يوقدوا نارا ثم يلقى فيها بكتاب صلوات وفق الطقوس المستعربية ، وكتاب صلوات آخر وفق الطقوس الكاثوليكية ، وما يحترق منهما فهو البـاطل . ويقص ردريجو الطليطلى هذا الخبر ويؤكد أن النار أكلت كتاب الشـعائر الرومانية فى حين بقى كتاب الشعائر القوطية سليما لم يمس ! ويؤكد صاحبنا سيمونيت هذا الخبر ، ويروى رواية أخرى يتهم أصحابها بأنهم ممالئون للبابا ، اذ أنهم يقولون ان كتاب الصلوات الرومانى عندما طرح لم يقع فى النار ، أما القوطى فوقع فيها ولم يصب بأذى وهكذا ثبت أن الاثنين على حق ! (١) .

ويقولون ان الطقوس المستعربية سلمت من الأذى نتيجة لهذا الحكم الالهى ، ولكن ذلك لم ينفعها طويلا ، فما زال البابوات يؤيدهم الملوك يلحون عليها حتى تلاشت آثارها خلال القرن السابع عشر .

وانما استطردنا مع تاريخ هذه الطقوس لكى نؤكد ما قلناه ، وهو أنها كجزء من التقاليد الاسبانية القومية عاشت فى سلام طالما كان الأمر للمسلمين ، فلما انقضت أيامهم زالت واختفت فى ليل التاريخ مع ما ذهب من آثار المسلمين ..

* * *

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 699.

٢٣٠ – وظائف الكنيسة

بقى نظام الكنيسة بعد الفتح سليما دون تغيير ، كل ما حدث هو أن أسماء الوظائف تغيرت تبعا لاستعراب ألسنة الناس، وظهرت لها أسماء هى مزاج من أسمائها الأولى وألفاظ عربية ، واليك بيانا بأهم هذه الوظائف كما وردت فى كتابات نصارى الأندلس ، نوردها على سبيل المثال :

Metropolitanus — مطران أو مِطْرُوبُل (Metrópol) .

Episcopus — أُسْقُف أو أسقوف .

Archi-presbiter — أرج بِرِشْبِطَر ، وربما سموه بالتسمية الاسپانية Arcipreste فقالوا أرْجِبْرِشْت أو أرسبرشت . وقد يضعون له اسما مركبا Archi اليونانية الاغريقية «وقس» العربية ، فقالوا : أرج قس .

Archidiaconus — أرجدياقُن أو أرسدياقُن (اسپانية : Arcidiacono أو Arcediano) .

وقد أبقى المسلمون على كل المؤسسات ذات الصبغة الدينية دون أن يمسوها بأذى ، كأديرة الرجال والنساء والبيع الصغيرة والمصليات العامة والخاصة Capellas ، واحتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم [1] ، ثم غيروها شيئا فشيئا من تلقاء أنفسهم عندما أخذهم تيار الحضارة المشرقية واستعربوا لسانا وأسلوب حياة ، بل الكثيرون منهم أخذوا أسماء عربية يعرفون بها بين الناس وان كان لكل منهم اسمه الكنسى اللاتينى أو الاسپانى الأصل .

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 127.
ISIDORO DE LAS CAGIGAS, *Los Mozárabes*, I. p. 65

٢٣١ – المسلمون وأملاك الكنيسة

وقد وضع المسلمون أيديهم على جزء كبير من أملاك الكنيسة الواسعة ، واستولوا كذلك ، أيام الفتح فقط ، على الكثير من ذخائر الكنائس وخاصة تلك التى تركها رجالها وسدنتها وهربوا . وعندما استقر الأمر لم يعودوا يمسون ذخائر الكنائس . وقد اعتبر المسلمون ما وقع فى أيديهم من ذلك غنائم يجرى عليها حكم الخمس ، فأما خمس أراضى الكنيسة فقد اعتبر ملكا للدولة ووزع الباقى بين الفاتحين ، وكان الجند فى الغالب يتركون الأرض بيد زراعها يؤدون اليهم عنه مالا ، ويدفعون منه ما يشاءون لكنائسهم ، فكأن الأمر لم يتغير كثيرا بالنسبة لهذه الأرضين ، وأما الذخائر فأخذت الدولة خمسها وتوزع الجند الفاتح الباقى . وكانت الأديرة النصرانية طوال الأعصر الاسلامية آمنة لا يروع أصحابها شىء ، وقد درج المسلمون على التردد عليها لالتماس النبيذ الطيب على عادة مُجّان المشرق فى هذا الباب ، وقد بلغ من تسامح المسلمين مع نصارى الذمة أن أذنوا لهم فى قرع النواقيس .

وظلت الجماعات النصرانية فى المدن والأرياف ملتفة حول أساقفتها وقسسها ورعاتها ، لم يتدخل المسلمون فى شىء من علاقاتها بهم ، فظلت الكنائس تؤدى وظائفها الاجتماعية الى جانب وظائفها الدينية ، فكان القساوسة يعقدون الزيجات ويعمّدون المواليد ويختارون لهم الأسماء ، ويسجلون المبايعات والعقود بين الناس . وليس بصحيح أن المسلمين خصصوا للنصارى أحياء خاصة يقيمون فيها كما يذهب بعض المؤرخين، فليس لدينا دليل واحد على ذلك ، ثم هو ليس بمعقول ، وقد كانت عملية دخول النصارى فى الاسلام على قدم وساق .

والآن وقد ألممنا بأحوال أهل الذمة من النصارى ، فلنمر سراعا بتاريخ جالياتهم خلال عصر الولاة .

٢٣٢ — سياسة أمراء المسلمين تجاه أهل الذمة

كان عهد عبد العزيز بن موسى — ثانى عمال الأندلس المسلمين — عهد أمن وخير للنصارى الاسپان ، فقد كان الرجل سمحا لينا لا يميل الى الشدة الا فى حيث لا يجد لنفسه محيصا عنها ، وقد تزوج أيلونة Egilona زوج لذريق (فيما يقال) وسماها أم عاصم ، وكان بينه وبينها ود كريم كانت نتيجته وبالا عليه ، لأنه أسرف فى الانقياد لها وأحب أن يرضيها باتخاذ سمات ملوك القوط ، فأنكر العرب عليه ذلك وقتلوه [١] . ولم ينفرد عبد العزيز بن موسى بهذا الزواج بل فعل ذلك غيره من كبار العرب ، وقد ذكر لنا الرواة منهم زياد بن النابغة التميمى ، مما يدل على أن حركة الامتزاج بين العرب والبربر والاسپان بدأت من زمن مبكر جدا ، وهذا طبيعى ، لأن المسلمين حينما دخلوا هذا البلد دخلوه رجالا بغير نساء ، فلا بد أنهم اتخذوا نساءهم من أهل البلد ، أى أن الجيل الثانى من مسلمى اسپانيا كان هجينا ، ولما كان ورود العرب الى الأندلس قليلا جدا نظرا لبعد المسافة ، فان الدم العربى الصريح تلاشى فى هذا القطر على عجل ، ولن نجد عند قيام الامارة الأموية عربيا صريحا الا فى النادر ، حتى عبد الرحمن الداخل نفسه كان هجينا [٢] ، اذ كانت أمه بربرية من نفزة ، وهذا فى ذاته من غرائب المقادير : أن تكون أمه من المغرب ، وأن تقسم له الحظوظ سيادة الأندلس حيث كان الكثيرون من رعاياه هجناء من نفس الجنس . وقد أمن نصارى الاسپان فى عهد عبد العزيز وبدأوا

(١) ابن عبد الحكم ، ٢١٢ .
الأخبار المجموعة ، ص ٢٠ .
SIMONET, *op. cit.* p. 149.

(٢) انظر عن ذلك :
JULIAN RIBERA, *Disertaciones y Opúsculos* I, p. 4-15.

يطمئنون الى حكامهم الجدد ، ويبالغ بعض مؤرخى الاسپان فى التعليق على سياسة عبد العزيز ، فيذهبون الى أنه مال الى النصرانية وأنه كان يفضل الاسپان على العرب ، ولكن هذه مبالغات لا يؤيدها نص ولا منطق ، وكل ما فى الأمر أن دواعى الشدة قد انقضت وهدأت البلاد فلم يبق الا اللين والمجاسنة ، وقد فعل ذلك غير عبد العزيز من فاتحى المسلمين كعمرو بن العاص فى مصر [١] .

ولم يصادر المسلمون فى ذلك العهد المبكر من كنائس اشبيلية — وكانت عاصمتهم اذ ذاك — الا واحدة هى كنيسة القديسة رفينا Santa Ruffina وتسميها بعض المراجع كنيسة رُبينه ، ولم يأخذوها كلها بل جزءا منها جعلوه مسجدا ، وبقيت بعد ذلك كنائس كثيرة مثل « كنيسة الماء » وغيرها ، مما يدل على أن المسلمين لم يمسوا عقيدة الاسپان فى كثير [٢] .

٢٣٣ — بيوت فيها مسلمون ونصارى

وفى ذلك العهد المبكر وجدت أسر مختلطة فيها مسلمون ونصارى كبنى ألمُنْد أخى غيطشة ، فقد كان حليفا للمسلمين وتوفى عن ولدين وبنت ، فأما الولدان فهما أُبَّه (أو عباس) الذى قتل فى واقعة كوڤادونجا وأصبح الثانى مطرانا لاشبيلية ، وأما سارة فقد اختلفت مع عمها أرطباس فذهبت تشكوه الى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها من عمها ورد عليها ضياعها وزوجها عربيا هو عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية (المؤرخ) وولد له منها ولدان : ابراهيم واسحاق ، ثم

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 152.

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 151.

توفى عنها فى العام الذى دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حَيْوة بن ملامس المَذْحِجى وعُمَيْر بن سعيد اللخمى ، فعُنى ثعلبة بن عبيد الجذامى بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية، فأنكحه اياها وولدت له حبيب بن عمير جد بنى سيد (لعل صحتها سعيد) وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجُزْز .. » أى أن اسحاق وابراهيم ابنى عيسى بن مزاحم[1] المسلمين كان لهما خال نصرانى هو مطران اشبيلية . ولا نزاع فى أن مثل هذا حدث فى أسر كثيرة ، ونحن اذ نشير الى هذا انما نضع أصبعنا على بدء حركة « ذوبان » العنصر العربى فى العنصر الايبيرى ، هذا الذوبان الذى نتج عنه شعب اسبانيا الاسلامية حاملا خصائص العرب والبربر والاسبان .

٢٣٤ – خلفاء عبد العزيز بن موسى وأهل الذمة

وتذهب المراجع النصرانية الى أن خلفاء عبد العزيز وهم أيوب بن حبيب اللخمى والحر بن يوسف والسمح بن مالك كانوا معادين لنصارى الأندلس حاملين على النصرانية ، وليس ذلك صحيحا ؛ لأن ثلاثتهم أنفقوا خير أيامهم فى الجهاد فيما وراء البرتات ، وربما يكونون قد عسفوا نصارى النواحى التى ذهبوا لفتحها ، فحسب الرهبان المؤرخون أنهم فعلوا بالاسبان مثل ذلك[2] ، وليس ذلك صحيحا ولا نملك نصا واحدا يشير اليه ولو عن طريق غير مباشر . بل الثابت أن كبار القساوسة كانوا نشطين فى ذلك العهد فى تجديد الكنائس ، ويذكر ايزيدور الباجى أن فريدواريوس أسقف وادى آش Freduarius, Accitanae sedis Episcopus. وأربانس Urbanus, Toletanae sedis urbis Regiae cathedralis أسقف طليطلة

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٥–٦ .

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 156-157.

عمرا كنيسة وادى آش فى ذلك الحين واشتهر أمرهما وانجفل الناس اليهما دون أن يتعرض المسلمون لهم فى ذلك بشىء ، ويذكر سيمونيت — رغم تعصبه — أمثلة كثيرة تدل على أن النصرانية الاسبانية انتعشت بعد الفتح الاسلامى — كما حدث لنصرانية مصر — انتعاشا ظاهرا[1] بعد دخولها فى طاعة المسلمين أيضا .

وكان سندريدو Sindredo مطران طليطلة قبيل أيام الفتح قد هجرها وفر حينما أقبل المسلمون[2] ، وصالح نصارى البلد على أنفسهم بشروط خاصة احتفظوا فيها ببلدهم شبه مستقل : احتفظوا بحكومة محلية يقيمونها بأنفسهم ، واحتفظوا بمعظم كنائسهم وبرجال الدين الذين بقوا فيها بعد فرار المطران وبعض رجاله . فظل هذا البلد عامرا بالكنائس الكبيرة ، أعظمها كنيسة « جميع القديسين » Omnium Sanctorum ، وظلت الأديرة التى فى أرباض البلد قائمة لم يمسسها المسلمون بأذى كبير ، وان كانوا قد استولوا على الكثير من ذخائرها كمذبح كنيسة طليطلة الكبيرة المشهور فى النصوص العربية بمائدة سليمان .

أما الكنيسة الجامعة السابقة ، وهى كنيسة القديسة مريم (سانتا ماريا) التى كانت معتبرة قبل ذلك قاعدة المسيحية الكبرى فى اسبانيا فقد حولها المسلمون الى مسجد جامع ، وانتقل مركز المطرانية الى كنيسة أخرى كبيرة تسمى كنيسة القديسة ماريا دى ألفيثن Santa Marîa de Alficen ، وقد نقل النصارى الى هذه الكنيسة أوراقهم

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 160-162.

(٢) التاريخ المنسوب لإيزيدور الباجى ، فقرة ٣٥ . SIMONET, *op. cit.* p. 163.

ووثائقهم وكل ما كان فى الكنيسة القديمة من الذخائر ، وظلت على ذلك طوال العصور العربية [١] .

وكان العرب قد أقاموا حليفهم أبه (عباس) [٢] مطرانا للبلاد خلفا لسندريدو ، ولكن أهل البلد لم يرضوا به وتركوه فى مطرانيته ، وأقاموا لأنفسهم مطرانا آخر يسمى أوربانو Urbano وكان قبل ذلك مرتلا فى الكنيسة ، ولم يعترض المسلمون على ذلك .

٢٣٥ – ثورة أكويلا واستسلامه

وكان المسلمون بعد أن فرغوا من تثبيت أمرهم فى البلاد واخضاع مراكز المقاومة فيها ، قد مضوا فى احتلال بقية النواحى التى كانت قد تركت على حالها لانعدام المقاومة فيها . مثال ذلك أن طركونة واقليمها تم احتلالهما على يد الحر بن يوسف ، وكانت طركونة عاصمة ولاية اسپانيا الطركونية ، وكانت فيها كنيسة جامعة على رأسها مطران ، وكان يقيم فيها أحد أبناء غيطشة المسمى أكويلا Aquila ، فحسب أن العرب يتركون هذه الناحية له كما ظن غيره من آل غيطشة أن العرب يتركون البلاد لهم ، فلما استبان أن العرب مقيمون فى البلاد وأنه لن يصل الى العرش على أيديهم حاول الوثوب بهم فى طركونة ، فسار اليه السمح وأخضع البلد وأنزل به شيئا من التخريب . فلما قتل السمح بعد ذلك فى وقعة طولوشة حاول أكويلا الثورة من جديد ، ولكن عنبسة بن سحيم قضى على حركته ونهب البلد نهبا ذريعا ، واستسلم أكويلا وانتقل الى طليطلة فأقام فيها ، ولم يحاول

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 166.

(٢) هكذا كتب ابن القوطية اسمه ، انظر ص ٤ .

الثورة بعد ذلك ، وقد استعرب أبناؤه من بعده وحفظت لنا النصوص اسم أحد أحفاده وهو حفص بن أَلْبَرّ Alvaro قاضى العجم [١] .

٢٣٦ – نصارى الأندلس يحجون إلى بيت المقدس

ومن طريف ما يلاحظ أن نصارى الاسپان انتهزوا فرصة دخولهم فى طاعة الدولة الاسلامية لكى يذهبوا الى بيت المقدس للحج ، ويذكر لنا الرواة النصارى قصة قس يسمى القديس ڤيليبالدو San Willibaldo ذهب للحج الى الأراضى المقدسة ، ووصل الى الرُّها ليزور كنيسة القديس توماس فيها ، فاشتبه عامل البلد العربى فى أمره وسجنه ، ثم أطلق سراحه حينما استبان أنه من أهل الذمة فى الأندلس ، ويبدو أن هذا الحادث أخاف ڤيليبالدو فلم يعد الى بلده وانما الى دير مونت كاسينو فى ايطاليا ، ومنها انتقل الى روما سنة ٧٤١ حيث أقامه رجال الكنيسة أسقفا لمدينة أيخشتتات فى ألمانيا [٢] . ولكن يبدو أن عدد هؤلاء الحجاج النصارى لم يكن كبيرا .

٢٣٧ – عبد الرحمن الغافقى وأهل الذمة

وتجمع المراجع النصرانية على أن نصارى الأندلس لقوا أذى كبيرا على يد عبد الرحمن الغافقى وعبد الملك بن قطن ، ولا نملك من النصوص العربية ما يؤيد هذا أو ينفيه وان كانت الدلائل كلها تدل على أن عبد الرحمن اشتد مع نصارى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة بسبب احتماء مونوسة بهم ، وكان بطبعه رجلا عسكريا عنيفا ومسلما متفانيا لا يكاد يحفل لغير الاسلام

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٥ . سيمونيت ، ص ١٧٠–١٧١ .

(٢) SIMONET, *op. cit.* I. 175.

والمسلمين . ويؤكد ايزيدور الباجى أن عبد الملك بن قطن عسف النصارى عسفا شديدا فى ولايته الأولى (١) .

٢٣٨ – موقف عبد الملك بن قطن من أهل الذمة

وقد أراد عبد الملك أن يعتدى على تدمير صاحب ناحية مرسية الذى عقد العرب معـه الصلح المعروف على يد عبد العـزيز بن موسى ، ووضع ابن قطن يده على بعض أراضيه ، فلم يسع تدمير الا الرحيل الى المشرق حيث لقى هشام بن عبد الملك وشكا اليه عامله عبد الملك بن قطن ، فأحسن هشام لقاءه وأكد له شروط الصلح الذى عقده عبد العزيز بن موسى وأقره أخوه سليمان ابن عبد الملك ، وانتهز تدمير الفرصة واتصل بنصارى الشام حيث لقى منهم اكراما عظيما ، ثم عاد الى بلاده حيث أقام فى اقليمه آمنا حتى توفى سنة ٧٤٣ م (٢) .

٢٣٩ – المسلمون ونصارى قلمرية

وكان المسلمون حينما فتحوا نواحى الغرب قد قبلوا من أهل قلمرية Conimbria صلحهم وأقروا البلد على حاله ، وأقام عبد العزيز بن موسى عليه حاكما عربيا تسميه وثيقة لاتينية Alboacem ibn Mahamat Alhamar ibn Tarif — وربما كانت صحة الاسم العربى أبا عاصم بن محمد الأحمر بن طريف — فى سنة ٧١٦ م . وكانت المدينة اذ ذاك عامرة وبها كنيسة كبيرة ، فأقام أبو عاصم على عجم البلد قومسا يسمى آيدولفو Aidulfo ، فلما مات خلفه ابنه أتاناجيلدو Atañagildo وأعقبه ابنه تيودوس Theodus ، وأقام

(١) الأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .
سيمونيت ، ص ١٨٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .
سيمونيت ، ص ١٨٣ .

على الأسقفية قسا يسمى لوربان Lorban . واستمر أمر البلد على هذا الحال من الاستقلال تحت السيادة الاسلامية العليا حتى سقطت فى يد النصارى سنة ١٠٥٨ ميلادية ، وحول هذا البلد تكونت فيما بعد امارة البرتغال وحلت محل ولاية لشدانية (لوزيتانيا) الرومانية ، وانما أشرنا الى ذلك لنضع أيدينا على أوائل احتلال المسلمين للبرتغـال وحكمهم اياها . وقد أحسن أبو عاصم معاملة نصارى ناحيته وارتبط مع أهلها بأواصر الود وصار يخرج للصيد — وكان مولعا به — معهم ، وكان يوقر الرهبان ويقربهم ، وتذهب الوثيقة التى أشرنا اليها الى أنه ألزم نصارى قلمرية بأن يدفعوا جزية مقدارها ضعف ما كان يدفعه المسلمون النازلون فيها ، وجعل على كل كنيسة جزية قدرها خمسة وعشرون مثقالا Pesanta من الفضة ، وعلى كل أسقفية مائة مثقال وعلى كل دير خمسين مثقالا ، واستثنى من ذلك دير لوربان فقد أعفاه من كل شىء ، لأن رئيسه كان حليفا للمسلمين (١) ، وترك رهبانه أحرارا . وتذكر المراجع حاكما مسلما آخر لقلمرية فى هذه الفترة يسمى مروان بن موسى ، حكمها بعد أبى عاصم وسار على طريقته فى التودد الى الأهلين والاحسان اليهم والولع بالصيد .

٢٤٠ – عقبة ابن الحجاج وأهل الذمة

وتختلف المراجع فيما بينها على موقف عقبـة بن الحجاج السلولى من النصارى وحالهم فى أيامـه ، فأما القطعـة الاسبانية التى بين أيدينـا من تاريخ الرازى فتقول فى حوادث سنة ٧٣٤م : « وقد وضـع عقبة هـذا أموره كلها فى أيدى النصارى ، فأراحوه وأعانوه ، وكانوا معه بالليل والنهار »(٢) . وأما

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 182.

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 184-185.

ايزيدور الباجى فيقول عنه أنه « راك البلاد روكا جديدا وأحصى كل ما فيها ، وطالب النصارى بأن يؤدوا ما عليهم بأشد ألوان العنف ، ولم يغادر أى وسيلة تمكنه من ملء خزانة الدولة بالمال من أى طريق » (١).
ولكنه يقرر فى نفس الوقت أن عقبة لم يختص النصارى وحدهم بهذه الشدة ، بل عامل بها المسلمين كذلك ، أى أنه اشتد على الناس أجمعين .
والواقع أن عقبة كان رجلا حازما شديد الحرص على حقوق الدولة ، دائم المواظبة على القيام بواجباته . وقد روينا أخبار اجتهاده فى محاربة النصارى فى الشمال وفى غالة ، وكان الى ذلك مولى بعيدا عن نزعة العصبية العربية ، فلا يبعد أن يكون قد قرب أهل البلاد وسوى بينهم وبين العرب فى المعاملة ، وبهذا تصدق الروايتان وتضيفان شيئا جديدا هاما عن عقبة بن الحجاج وحكمه فى الأندلس .

وتذكر الروايات النصرانية أن الراهبين الأخوين ڤوتو Voto وفيلكس Felix أنشآ فى عهد عقبة دير سان خوان دى لاپينيا San Juan de la Peña فى لحف جبل أورويل Oruel فى أقصى الشمال ، وقد ازدهر هذا الدير فيما بعد وكان له أثر بعيد فى التاريخ الأندلسى بعد ذلك بثلاثة قرون : اذ اتخذه أنييجو خيمينيث Iñigo Jiménez المعروف باسم أريستا Arista وكرا وعاصمة لامارة بنبلونة التى أنشأها وكان لها دور عظيم فيما بعد فى حركة الاسترداد ، وقد أصبح اسم هذه الامارة حينما اتسعت بعض الشىء مملكة شُبْرُب El Reino de Sobrarbe ودخلت بعد ذلك فى مملكة نبرة . وكان الأخوان ڤوتو وفيلكس من أغنياء النصارى فى سرقسطة ، فلما رأيا تكاثر المسلمين فى هذه الناحية وانتشار

(١) إيزيدور ، فقرة ٦١ .

الاسلام بين أهلها باعا ممتلكاتهما وفرقاها على الفقراء ومضيا الى جبل أورويل حيث أنشآ دير پينيا هذا ، مما يدلنا على أن المسلمين حينما نزلوا هذه الناحية لم يستولوا على ما بيد أهلها النصارى من الأملاك ، بل تركوهم على حالهم ، وكانت سرقسطة قد صالحت عن نفسها بشروط طيبة ضمنت لأهلها الحرية فى كل شىء ، وقصة هذين الأخوين ترينا كيف كانت عناصر المقاومة النصرانية تتكون فى بطء منذ أوائل أيام الحكم الاسلامى ، وتدل كذلك على أن المسلمين تركوا النصارى من أهل البلاد أحرارا فى انشاء ما يريدون من الأديرة(١) .

فلما وقعت الثورة البربرية أثناء ولاية عبد الملك بن قطن واشتدت المجاعة فى الأندلس ، أخذ بعض النصارى الاسپان يهاجرون الى نواحى الشمال القاصية : الى أشتريس وكنتبرية ، ويبدو أن أعداد هؤلاء المهاجرين لم تكن كثيرة ، لأن مراجعنا العربية لا تشير اليها (٢) .

وقد عرفنا فيما سبق أن أبا الخطار فرق الشآميين وأنزلهم فى بعض كور الأندلس « وكان انزالهم على أموال أهل الذمة من العجم »(٣) ، « وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة » . وقد حاول سيمونيت أن يفسر هاتين العبارتين بأن أبا الخطار فرض على النصارى الاسپان الذين أنزل العرب فى كورهم ضريبة جديدة مقدارها ثلث أموالهم ، وهو تفسير

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 190-191.

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 193.

إيزيدور فقرة ٦٣-٦٦ .

(٣) ابن القوطية ، ص ٢٠ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

فتح الأندلس ، ص ٣٦-٣٧ .

خاطىء ، اذ لم يزدد على أهل الذمة شيء جديد ؛ وانما أخذ الشآميون ثلث الجباية ، ومن هنا لا محل لما يذهب اليه سيمونيت من القول بأن حال أهل الذمة ساء فى أيام أبى الخطار بسبب هذه الزيادة المزعومة .

بيد أن أبا الخطار أخطأ فى انزال بعض الشآميين فى نواحى تدمير التى ضمن العرب سلامتها بصلح أوريولة الذى عقده تدمير مع عبد العزيز ابن موسى ثم عاد هشـام بن عبد الملك فأكده . وكان صاحب تدمير اذ ذاك أتاناجيلدو Atanagildo الذى خلف أباه تدمير سنة ٧٤٣ م ؛ فلم يكد يسمع بتصرف أبى الخطار حتى اعترض عليه وأعلن أن ذلك يخالف نصوص معاهدة أوريولة ، وكانت العلاقات بين أتاناجيلدو والنازلين فى أرضه من البلديين طيبة ، فنهضوا ينصحون أبا الخطار بالعدول عن ذلك ، فغضب أبو الخطار ، وأراد عقاب أتاناجيلدو ، ففرض عليه غرامة قدرها سبعة وعشرون ألف قطعة من الذهب ، وسبه وأهانه ، فمضى أتاناجيلدو يتحبب الى جند مصر من الشآميين الذين كانوا بأرضه ، واجتذبهم باحسانه ، فتوسطوا له عند أبى الخطار ، وما زالوا به حتى أسقط الغرامة ورد على الرجل اعتباره واحترم حقوقه [١] . وانما ذكرنا هذه الحكاية لكى نستدل منها على أن علائق من الود كانت قد تأصلت بين العرب النازلين فى الأرياف وأهلها من النصارى الاسبان ، فهـذا أتاناجيلدو يعاونه البلديون والشآميون على رفع الظلم عنه ، وسنرى فى تاريخ كبير نصرانى آخر — هو أرطباس — أمثلة أخـرى كثيرة تؤيد ذلك .

ويذهب الاصطخرى الى أن المسلمين وضـعوا يدهم على نصف

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 199-200.

كنيسة قرطبة الجامعة (١٣١ هـ/٧٤٨ م) أى فى هـذه الفترة التى نتحدث عنها . ذلك أنهم كانوا قد عاهدوا أهل قرطبة على أول الفتح بأن يدعوا لهم هذه الكنيسة الجامعة المعروفة بكنيسة القديس بجنت أوبزنت San Vicente (Sanctus Vicentius) وأقاموا لأنفسهم مساجد صغيرة . فلما نقلوا مركز الدولة الى قرطبة وكثر المسلمون فيها وفى أرباضها ، ضاقت بهم هذه المساجد الصغيرة واحتاجوا الى مسجد جامع ، فقاسموا النصارى كنيستهم الجامعة كما فعـلوا فى دمشق والرها ، « فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة فى كنيستهم العظمى التى كانت بداخلها ، وابتنى المسلمون فى ذلك الشطر مسجدا جامعا ، وبقى الشطر الثانى بأيدى الروم وهدمت عليهم سائر الكنائس »[١] . ويذهب مؤرخونا الى أن ذلك تم على أول زمان الفتح ، والواقع غير ذلك ، لأن الثابت من صلح قرطبة مع المسلمين أن هؤلاء تركوا للنصارى كنيسة سان بجنت الجامعة ، ولدينا نص من الأخبار المجموعة يدل على أنها كانت لا تزال كنيسة فى سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م[٢] ، وللرازى رواية تدل على أن ذلك حدث فى ولاية أبى الخطار ، وبعد سنة ١٣٠ هـ/٧٤٧ م على الأغلب[٣] .

٢٤١ – أرطباس

وفى هذه الفترة تظهر شخصية أرطباس Ardabast زعيم عجم الذمة وابن غيطشة الى جانب كبار الشخصيات العربية فى أيام أبى الخطار ومن جاء بعده . ويبدو لنا أرطباس رجلا مهذبا حسن

(١) ابن عذارى : بيان ، جـ ١ ، ص ١٤٤ .
ابن بطوطة : رحلة ، ص ١٩٨ .
ابن جبير : رحلة ، ص ٢٦٣ .
(٢) الأخبار المجموعة : ص ٦١ .
(٣) المقرى : نفح ، جـ ١ ، ص ٣٦٨ .

التصرف واسع الحيلة ، ينصح عمال الأندلس فى شئون سياسة بلاده ويعامل زعماء العرب بكياسة تدعو الى الاعجاب . ومن أمثلة ذلك رواية ابن القوطية التى أتينا بطرف منها ، وهى رواية تدل على حسن تصرفه وتلقى ضوءا على أسلوب حياة العرب والاسپان والنصارى فى ذلك العصر ، وقد ذكرنا فيما سبق فقرة منها ولا بأس من ايرادها على تواليها هنا ، يقول : « وحكى الشيخ ابن لبَّابة رحمه الله عمن أدركه من الشيوخ أن أرطباس كان من عقلاء الرجال فى أمر دنياه ، وأنه دخل عليه عشرة من الشآميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم ، فسلموا وجلسوا على الكراسى المحيطة بكرسيه . فلما أخذوا مقاعدهم ، وحيا بعضهم بعضا ، دخل ميمون العابد جد بنى حزم البوابين ، وهو أحد الموالى الشآميين ، فلما رآه أرطباس داخلا قام اليه والتزمه وجعل يقوده الى كرسيه الذى قام منه ، وكان مصمَّدا بالذهب والفضة ، فأبى الرجل الصالح من الجلوس عليه ، وقال له : لا يحل لى هذا ! فجلس على الأرض وجلس معه ، ثم قال له : ما جاء بمثلك الى مثلى ؟ فقال ميمون : قدمنا الى هذا البلد وظننا أن ثوانا لا يطول فيه ، ولم نستعد للمقام ، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ، ما تتوهم به أنا لا نعود الى موضعنا معه ، وقد وسـع الله عليك ، فأريد أن تعطينى ضيعة من ضياعك أعتمرها بيدى ، وأؤدى اليك الحق منها وآخذ الحق . فقال له ارطباس : لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعة مناصفة ! ودعا بوكيـل له فقال له : ادفع اليه المجشر الذى على وادى شَوس وما فيه من الغنم والبقر والعبيد ، وادفع اليه القلعة بجيان ، وهى القلعة المعروفة بقلعة حزم ، ملكها [بياض] فشكر وقام ، وعاد أرطباس الى مقعده ، فقال له الصميل . ياأرطباس ! ما يعجزك

من سلطان أبيك الا نفـاد الطيبة ! أدخل عليك ، وأنا سـيد العرب بالأندلس ، ويدخل أصحابى هؤلاء معى ، وهم سادات الموالى بالأندلس، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان ! ويدخل هذا السوءال ، فتصير من اكرامه الى حيث صرت ! فقال له أرطباس : يا أبا جوشن ! أهل دياناتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ! ولو أخذك لم تنكر علىَّ برَّ من بررت ! وكان الصميل أميا لا يقرأ ولا يكتب : انكم أكرمكم الله ، [وأنتم] انما تكرمونه عز وجل [اذا أكرمتم الصالحين]. وقد روينا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكرم اللهُ من عبـاده وجبت كرامته على جميع خلقه ، فكأنما ألقمه حجرا . فقال له القوم : دع هذا وانظر فيما قصدنا له ، حاجتنا وحاجة الرجل الذى قصدك وأكرمته واحدة ، فقال : أنتم ملوك ، وليس يرضيكم الا الكثير ، فوهبهم مائة ضيعة ، صارمنها لكلٍ منهم عشرضياع ؛ منها طُرُّش لأبى عثمان ، والفُنْتين لعبد الله بن خالد ، وعُقدة الزيتون بالمُدَوَّر للصميل بن حاتم » ؛ وهى حكاية حافلة بكل ما يعيننا على تصور العلاقات بين العرب ونصارى الاسپان فى ذلك العصر [1] .

ولم يكن أرطباس رجلا كريما كيسا فى كل حال ، بل ذكر المؤرخون ما يدل على جشعه وطمعه ، فقد انتهز فرصة وفاة أخيه المُنذ وتركه ابنة واحدة هى سارة وابنين صغيرين ووضع يده على أملاكهم وكانت ألف ضيعة ، فذهبت سارة الى المشرق ، وعادت منه وقد حكم لها هشام باسترداد ضياعها ، وزوجها عيسى بن مزاحم [2] . وكان أرطباس يتخذ

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .
وقد حرف سيمونيت هذه العبارة عند ترجمتها ، انظر ص ٢٠٥ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤-٥ .

هيئة الأمراء فيجلس على كرسى مصَمّد بالذهب والفضة كما رأينا فى الفقرة السابقة ، ويضرب لنفسه قبة عظيمة اذا خرج مع الأمير « وحولها من الهدايا غير قليل ، اذ كانت الهدايا تتلقاه فى كل محلة من ضياعه . فنفس عليه الأمير [عبد الرحمن بن معاوية] ... » [(١)] .

٢٤٢ – المطران سيشيليا

وتدل الدلائل كلها على أن النصارى لم يصبهم شىء من الأذى أثناء الحروب العنيفة التى دارت بين العرب ، بين أبى الخطار والصميل ، فقد ازدهر أمر مطرانية طليطلة ورأسها حبر جليل ضليع له صيت فى الحوليات النصرانية وهو سيشيليا Cixilia ، كان دائم الحرص على سلامة العقيدة النصرانية ، حتى لقد كان يشتد مع أصحاب المذاهب الخارجة على الكاثوليكية ، وكـان يعسر ما يهى من الكنائس ، وكتب النصارى فى امتداحه القصائد اللاتينية [(٢)] .

ومن دلائل الحرية التى كان النصارى يتمتعون بها فى هذه الفترة تمكنهم من نقل الكثير من الأشياء المقدسة التى انتثرت من الكنائس التى تهدمت الى كنيسة أبيط الجامعة ، حتى لقد عمرت هذه الكنيسة لهذا العهد وانتقلت من بيعة صغيرة الى كنيسة كبيرة عامرة ، ولم يتعرض المسلمون للنصارى فى شىء من ذلك ، مما يدل على أنهم تمتعوا بحرية كاملة فى كل ما يتصل بأمورهم الدينية [(٣)] .

ويذكر ابن حيان فى عِداد الثوار الذين خرجوا على يوسف الفهرى

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٦–٣٧ .

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 207.

ويكتب اسمه فى النصوص بصور مختلفة : Zixilanus, Cixilanus, Cigilia

(٣) SIMONET, *op. cit.* p. 211-212.

رجلا يسمى عروة بن الوليد ، ثار فى مدينة باجه فى أهل الذمة وغيرهم ، فملك اشبيلية وكثر جمعه ، الى أن خرج عليه يوسف فقتله » [(١)] ولم يذكر لنا ابن حيان شيئا نتعرف منه شخصية الوليد هذا ، ولكن الغالب أنه لم يكن نصرانيا مستعربا ، وانما عربيا جمع نفرا من العرب وأهل الذمة وثار بهم فى هذه الناحية .

وربما كان دافع هؤلاء النصارى الى الاستجابة لدعوة رجل كالوليد هو الزيادة التى فرضها يوسف على أهل الذمة ، ذلك أن الجباية نقصت بسبب هلاك الكثيرين من النصارى أو فرارهم من أرضهم نتيجة للحروب العنيفة التى دارت بين العرب أيام يوسف ، فطالب يوسف الباقين منهم بأداء المبالغ التى كانت قد تقررت عليهم فى اتفاقات الصلح ، فثقل ذلك على أفرادهم وترددت شكواهم منها [(٢)] .

٢٤٣ – النصارى يعمرون بعض البلاد الخالية

وحينما ازدادت الحروب بين العرب حدة ، وضربت المجاعة بجرانهـا على الأندلس بين سـنتى ١٣٣ و ١٣٨ هـ / ٧٥٠–٧٥٥ م ، وعادت جماعات البربر التى كانت تعمر النواحى الشمالية الغربية من شبه الجزيرة واستولى أذفونش الأول على الكثير منها ، كثرت هجرة النصارى من البلاد التى كانت خاضعة لحكم المسلمين الى هذه النواحى الخالية الفاصلة بين دار الاسلام وبلاد مملكة ليون ، فيما بين نهرى تاجه ودويره لتعميرها ، فعمرت لك وليون وسلمنقة وأبله وأوكا وشقوبية وأمايا ، وقد كان المهاجرون الى هذه النواحى من كل طبقات النصارى : أشرافا وغير أشراف tam nobiles quam ignobilis.

---

(١) المقرى : نفح ، جـ ٢ ، ص ١٣ .

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 217.

وعمرت لذلك بالنصارى وقام على تعمير كنيستها حبر كبير هو أدواريوس (Odoarioفى النصوص الاسپانية) وكان قد فر منها حينما دخلها العرب، فعاد اليها مع أذفونش الأول واستقر فيها ومضى يقيم شعائر النصرانية فيها من جديد وجعلها أسقفية عامرة ، واتخذ لقب مطران .

٢٤٤ — تعمير شقوبية

وكذلك عمرت شقوبية بعد أن كان الكثيرون من أهلها قد تركوها وهربوا الى الجبال على أوائل أيام الفتح ، ولكن معظم الهاربين عادوا بعد أن صالح البـاقون منهم على أنفسهم بصلح طيب ضمن لهم حرية تامة فى كل شىء لقاء دفع جزية مقررة، وكانت المدينة قبل الفتح عامرة بالكنائس الكبيرة ، مثل سانتا ماريا دلوس هويرتوس Santa Maria de los Huertos وسان ڤيسنت San Vicente ولاترينيداد La Trinidad وسانخيل San Gil وسان أنطون San Antón وكلها قديمة ترجع الى ما قبل عصر ريكاريدو(١) . وقد اطمأن النصارى فى بلدهم هذا بعد أن تأكدوا أن العرب لن يصيبوهم بضرر ، فمضوا يقيمون كنائس جديدة أهمها سان ماركوس San Marcos وسان بلاس San Blas وشنت ياقب Santiago. وكان العرب ينزلون كثيرا بهـذه المدينة فى غزواتهم نحو الشمال ، ثم تخوفوا من كثرة النصارى فيها ، فأخرجوا الكثير منهم الى الأودية المحيطة بها لكى يجعلوا البلد ثغرا . ويبدو أن مقامهم بها لم يطل ، لأنهم لم يخلفوا فيها الا أثرا قليلا جدا ، ولم يرد لها ذكر كثير فى التوازيخ الاسلامية ، وقد احتفظت لنا الروايات النصرانية بأسماء ثلاثة من أحبار هذا البلد لقبوا بالمستعربين الثـلاثة Los tres santos mozárabes كانوا على جانب عظيم من الزهد والصلاح ،

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 223.

حتى لقد فرقوا أملاكهم فى الفقراء وخرجوا الى بادية عند مصب نهر الدوراتون el Rio Duratón وخف اليهم الناس وعمرت بهم هذه الناحية القاحلة من برديل Bardulia ، وهكذا نلاحظ أن الفتح الاسلامى أدى — بطريق غير مباشر — الى تعمير الكثير من نواحى الأندلس الخالية ، وكانت هذه الناحية من أعمر نواحى برديل حينما تكونت فيها امارة قشتالة خلال القرن التاسع الميلادى (١) .

وعندما اشتد ساعد الاسلام وانتظمت أموره فى خلال الدولة الأموية استعاد المسلمون المنطقة الواقعة بين نهرى التاجه ودويره ، ووضعوا أيديهم على كبار مدائنها مثل أبلة وشقوبية . وقد ثبتت حدود الاسلام فيما بعد عند خط فى منتصف المسافة بين الدويرة وتاجه ، فبينما كانت أبلة وشقوبية من بلادهم نجد شلمنقه خارجة عنها . ولم يحاول المسلمون الوصول الى نهر الدويره والثبات عنده بصورة دائمة .

٢٤٥ — ميلاد إمارات شبرب وأرغون ونبرة

وفى خلال السنوات الأخيرة من فترة الولاة تقلص سلطان المسلمين عن كثير من نواحى الشمال الشرقى القاصية فى جهة البشكنس Vasconia كما تقلص ظلهم من ناحيـة الشمال الغربى على ماروينا ، والى هذه الفترة يرجع ميلاد امارات شبرب Sobrarbe وأرغون Aragon ونبرة Navarra فى ناحية البشكنس وجبال البرت ، وكانت هذه الناحية قبيل دخول العرب البلاد مقسمة الى ثلاث مقاطعات صغيرة هى Calagurri (قلهره) فى الجنوب و Segia (Exea de los la balleros) فى الشمال الشرقى و Pamplona (بنبلونة) فى الشمال(٢). وكلها واقعة فى سهل ريوخه Rioja

(١) IBID, p. 226.

(٢) IBID, p. 227.

وكانت قلهرة مركز أسقفية عامرة ، فلما افتتحها العرب هرب كبار رجال الدين فيها الى غالة أو الى جليقية ، وأقام بعضهم فى أبيط (Oviedo) .

وفى هذه السنوات أيضا عاش ذلك الراهب الذى كتب الحوليات التى نسبت زمانا طويلا الى ايزيدور الباجى Isidorus Pacensus ، اذ حسب الناس أنه كان أسقفا لباجه (Pax-Julia) فى البرتغال الحالية . وقد ثبت بعد أبحاث طويلة أن هذه الحوليات لم تكتب فى باجه وانما فى طليطلة ، ولم يكتبها ايزيدور ولكن راهب غير معروف . وهذه الحوليات تاريخ طيب جدا لأحداث الأندلس فى هذه الفترة ، ولأحداث الخلافة الأموية المشرقية كذلك . مما يدل على أن نصارى تلك الأيام كانوا يعرفون الكثير عن أحوال المسلمين عامة وتاريخهم كذلك[1] .

٢٤٦ – اليهود فى إسبانيا قبل الفتح

أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب الى سياسة القوط حيال اليهود ، وبينا كيف كانت هذه السياسة بعيدة الأثر فى موقفهم من الدولة القوطية جملة ، وفى موقفهم من العرب الفاتحين .

وعلينا الآن أن ندرس موقف المسلمين منهم بعد الفتح ، وأن نرى كيف كان دخول المسلمين خيرا عليهم ، وسنرى فى غضون الكلام كيف كان موقف المسلمين حاسما فى تاريخ اليهود جملة ، وان المسلمين لو واصلوا سياسة القوط والكنيسة الطليطلية من اليهود لما كان لهم اليوم شأن فى الوجود .

كان موقف الدولة الرومانية من اليهود موقف عداء واضطهاد ،

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 231.

وما زال ذلك العداء يشتد حتى قضى الرومان على دولة اليهود فى فلسطين وخربوا بيت المقدس وهدموا معبد سليمان سنة ٧٠ ميلادية ، فتفرق اليهود فى نواحى الأرض . وبلغ من كراهة الرومان لليهود أنهم حسبوا أول الأمر أن النصارى يهود ، والى هذا الظن الخاطىء يرجع السبب فى الاضطهادات الأولى التى لقيتها النصرانية من الرومان .

وقد ورثت الكنيسة المسيحية عن الدولة الرومانية هذه الكراهة ، وفى تلك العصور الأولى من تاريخ المسيحية كانت جرائم اليهود حيال المسيح وأصحابه ماثلة أمام المسيحيين جميعا ، فحرص المسيحيون على تتبع اليهود طلبا للثأر . وقد كان هذا التتبع هادئا غير ملحوظ فى المشرق ، وأما فى الغرب ، فقد ثابرت كنيسة روما على تتبع اليهود وتشريدهم ، فهربوا الى النواحى التى كان سلطان هذه الكنيسة فيها ضعيفا ، هربوا الى اسپانيا والشمال الافريقى وبلاد الشرق ، وربما أوغل نفر منهم فى بلاد الجرمان حتى أدركوا سواحل البلطيق ، وفى بلاد الصقالبة حتى الفولجا وشواطىء البحر الأسود .

٢٤٧ – اضطهاد القوط لليهود

وقد كثرت جماعاتهم فى اسپانيا حتى اننا لنجد مدنا كاملة يعمرها اليهود فى أواخر العصر القوطى ، ومن تلك المدن اليشانه Lucena والبيره Ileberis من مدن الجنوب . وعندما وصل رجال الدين الى السلطان على عهد ريكاريدو ، بدأت المجامع الطليطلية تضييق الخناق عليهم ، فأصدر المجمع الطليطلى الثالث قرارا بضرورة تعميد الأولاد الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية ، ثم أصدر ششبوتو سنة ٦١٣ قرارا يخير اليهود بين التنصر أو الهجرة من البلاد . وقد عارض القديس ايزيدورو هذا القرار ، وأيد مجمع طليطلة الرابع

قرار ششبوتو فاضطر الكثيرون من اليهود الى الهجرة وتظاهر بعضهم الآخر باعتناق المسيحية ، وهؤلاء هم الذين يسمون باليهود المستترين Judaizantes . وقد ضاق القوط بهم ذرعا فقرر المجمع الطليطلى الثامن ضرورة تعميدهم من جديد ، وامتحان نصرانيتهم بتقديم لحم الخنزير اليهم ليأكلوا منه . ثم حرمت اقامة الشعائر الدينية اليهودية ، وصودر ربع أملاك من ظلوا على اليهودية ، وصبت لعنة الكنيسة على المسيحيين الذين يعاونون اليهود على اقامة شعائرهم ، وقد تتبع القوط اليهود حتى طردوهم من أربونه .

وبلغ هذا التعقب مداه على أيام الملك ايرڤيج حيث قرر المجمع الطليطلى الثامن عشر ارغام اليهود جميعا على التنصر أو مبارحة البلاد فى مدى عام ، فكانت النتيجة أن زاد عـدد اليهود المستترين . وبدأ اليهود يتحركون سرا للقضاء على الدولة القوطية ، وأحس القوط بما كانوا يدبرون ، فقرر المجمع الطليطلى السادس على أيام اخيكا اعتبار اليهود جميعا رقيقا وتوزيعهم على المسيحيين ، وحـرم على هؤلاء الأخيرين عتقهم ، وتقرر فصل أولادهم عنهم ، وتنصير الأولاد وتربيتهم تربية مسيحية ، واستثنى من ذلك يهود سبتمانية(1) .

وقد حاول اخيكا أن يخفف الوطأة عن اليهود ، فأزال عنهم بعض ما كانوا يلقونه من ارهاق ، ولم يكد اليهود يتنفسون الصعداء حتى بدأوا يكيدون للقوط ، ونمى الى اخيكا أنهم يتصلون بأبناء عمومتهم فى المغرب ويحاولون اغراء العرب بفتح اسپانيا ، فانقلب عليهم ، وأصدر

(1) MANUEL TORRES y PEDRO PRIETO BANCES, *op. cit.* III, p. 180-183.

المجمع الطليطلى السابع عشر قرارا فى سنة ٦٩٤ بالعودة الى الاضطهاد السابق . وليس لدينا — من مراجعنا العربية — دليل على اتصال اليهود بالعرب وتحريضهم اياهم على المسير الى اسپانيا ، وان كنا لا نستبعده ، لأننا سنجد اليهود الى جانب العرب أثناء الفتح وبعده(1) .

٢٤٨ – المسلمون واليهود

وقد رأينا كيف وقف اليهود الى جانب المسلمين أثناء الفتح ، وكيف كانوا يدلونهم على عورات البلاد وثلمات الأسوار وما الى ذلك ، وكان من الطبيعى أن يكافئهم المسلمون على ذلك ، فاتخذوا منهم حرسا لما يفتحونه من البلاد الى جانب الحرس الاسلامى . وقد لقى اليهود بعد ذلك تسامحا مطلقا من العرب ، سواء خلال عصر الولاة أو ما بعده ، فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم يمارسون شعائرهم ما أحبوا ، ولا نسمع خلال العصور الاسلامية باضطهاد اليهود الا ابتداء من القرن الحادى عشر ، أى بعد سقوط الخلافة وافتراق الكلمة وشيوع الفوضى . ولقد كانت الأندلس جنة اليهود خلال العصور الوسطى كلها : بلغ بعضهم مبلغ الوزارة ، ونظر اليهم المسلمون نظرتهم الى اخوان ، حتى أصبح الأندلس موئل اليهود ، بل ان حركة بعث اللغة العبرية والأدب العبرى بدأت فى اسپانيا ، نشأت ونمت بين أظهر المسلمين وتحت أعينهم ، بل كان بعض علماء المسلمين يعينون اليهود على انشاء نحو لغتهم . ولقد استعرب اليهود منذ زمن مبكر ، فأخذوا لغة العرب وملابسهم واندرجوا فى غمارهم(2) .

(1) IBIDEM. III, 132.

(2) LÉVI-PROVENÇAL, *Histoire...*, I, p. 80-81.

٢٤٩ – تنظيم جماعات اليهود

وليست لدينا مراجع عربية أو عبرية عن أحوال جماعات اليهود فى الأندلس الاسلامى ، ولكن القوانين والمنشورات التى أصدرها ملوك اسبانيا النصرانية عندما سقطت بلاد الأندلس الاسلامى فى أيديهم واحدة بعد أخرى ، تعطينا فكرة عن تنظيم هذه الجماعات فى ظلال الاسلام . وجدير بالملاحظة أن أمراء المسلمين وخلفاءهم لم يصدروا تشريعات خاصة باليهود ، مما يفهم منه أنهم كانوا متساوين مع بقية السكان ، فلم تكن هناك حاجة الى تشريعات خاصة لهم . بعكس ماحدث عندما سيطرت النصرانية على البلاد ، اذ أفرد اليهود بمعاملة خاصة ، ومضايقات انتهت بالقضاء عليهم فى اسبانيا كلها . وهذا وحده يكفى للدلالة على فضل المسلمين على يهود اسبانيا ، وهو فضل لم يعن مؤرخ يهودى واحد بالاشارة اليه : لقد أظلهم الاسلام واستنقذهم من أذى القوط والكنيسة ، وبسط عليهم أمراء المسلمين أمانهم ، فلما زال أمر المسلمين من اسبانيا كان ذلك ايذانا بزوال أمر اليهود أيضا .

وتبدو لنا جماعات اليهود ، فى الوثائق الاسبانية ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، منظمة تنظيما دقيقا . وليس من المعقول أن جماعات اليهود كانت على هذا التنظيم من أول الأمر ، ولكن الطبيعى أن يكون قد بدأ فى صورة بدائية ، ثم تكامل مع الزمن ، وقد أتاح له الحكم الاسلامى فرصة هذا التكامل ، بما ضمن من حقوق الذميين ، ومنهم اليهود .

رأينا فى كلامنا عن الفتح كيف أن المسلمين كانوا اذا وجدوا فى بلد يهودا جعلوهم فى جملة حرس المدينة ، و « ضموهم الى القصبة » أى

أنهم أوسعوا لهم مكانا فى الجزء المحصن من البلد ، وهو القصبة . ومن الطبيعى أن يتجمع اليهود فى جزء معين من القصبة ، وهذا الجزء هو الذى أصبح مع الزمن حى اليهود أو حارة اليهود ، وحارة هنا تعنى حيا أو قسما من المدينة ، كما هو الحال فى المغرب الى اليوم ، اذ تقسم المدينة الى حارات ، وهذا الحى أو الحارة هو الذى عرف فيما بعد باسم اليودرية أو الخودرية Juderia فى مصطلح اسبانيا النصرانية.

٢٥٠ – حكومة الجماعات اليهودية

وتسمى جوالى اليهود فى النصوص الاسبانية باسم عربى: aljama (الجماعة) ، ويغلب أن يطلق هذا الاسم على جماعة اليهود فى النواحى الداخلة فى دولة الاسلام ، أو فى نواحى قشتالة وليون التى تأثرت بالحضارة العربية بصورة ظاهرة ، أما النواحى التى لم تتأثر بالحضارة الاسلامية الا قليلا ، مثل قطلونية ، فالغالب أن تسمى باسم عبرى : كاحال Kahal . وكان يرأس كل جماعة نفر من الظاهرين منهم يسمى الواحد منهم « البَرُور » ، وكان لهذا النفر مجلس يسمى « البَرُوريم » (البَرورين) وقد يسمى البَرور مُقدَّما (الجمع فى العبرية مقدميم = مقدَّمين) أو نعمان (والجمع نعمانيم Ne'emanim) . وكان لكل جماعة نفر من المستشارين يعرفون عادة باليوعاظيم (الواعظين) ، ويغلب أن لفظ مقدَّم غلب فى جماعات اليهود التى أقامت فى البلاد الاسلامية ، وقد ترجم هذا اللفظ الى الاسبانية عندما زال أمر الاسلام ، فأصبح المقدَّمون فى المدن التى استغلبها النصارى يعرفون باسم أدلانتادوس(adelantados) أو (Adenantados) .

وكان البَرورون والمقدَّمون والنعمانون ينتخبون أول الأمر ، ثم

أصبح السابقون منهم يعينون من يخلفهم ، وكانت مدة ولايتهم عاما ، وقد اختلف عددهم من مدينة لأخرى بحسب حجم الجماعة اليهودية وأهميتها . وكانوا مسئولين أمام الحكومة الاسلامية عن كل ما يتصل بالجماعة من ضرائب والتزامات أخرى .

وكما كانت للنصارى قوانينهم ، فكذلك كانت لليهود قوانينهم وقضاتهم ، وكانت الادارة الاسلامية لا تتدخل فى شئونهم ، بل كان للجماعة اليهودية الحق فى تطبيق ما تصدره محاكمها من عقوبات . وفى الحالات التى كان الخلاف فيها يقع بين مسلمين ويهود ، كان الأمر يرفع لقاضى المسلمين .

وكانت لليهود بيعهم التى تقام فيها صلواتهم ، وكانوا أحرارا فى ذلك لا يعرض لهم المسلمون فى شىء ، وليس لدينا دليل على أن حى اليهود كان يحاط بأسوار فى البلاد الاسلامية ، بخلاف الجودريات فى البلاد النصرانية ، فقد كانت لها أسوار عالية . وكذلك كان الحال فى بقية بلاد النصرانية ، فقد عرفت فى پولندا وألمانيا باسم الجتو Ghetto. وكانت العلاقات بين المسلمين واليهود متصلة مطلقة من كل قيد ، مما جعل اليهود يسرعون بالاندماج فى الجماعة الاسلامية ، فاستعربت ألسنتهم وأخذوا لباس المسلمين ، وأسلمت منهم جماعات كثيرة مع الزمن[1] .

---

(١) اعتمدنا فى جمع هذه المعلومات على ما كتبه اليهود عن تاريخهم فى إسبانيا ، ومن الغريب أن نفراً منهم يستطرد عن أحوال اليهود فى الأندلس الإسلامى كأنهم يتهربون من الاعتراف بفضل المسلمين ، وفريق آخر منهم ينكر الواقع ويتحامل على المسلمين . وجدير بالملاحظة أن كثيراً جداً من هذه المؤلفات كتب قبل اعتداء اليهود الحالى على العرب واغتصابهم قطعة من فلسطين لإنشاء دولة فيها ، مما يدل على أن اليهود – حتى علماءهم – كانوا يضمرون العداوة والكيد للمسلمين منذ زمن طويل . انظر . =

وبعد ، فهل أجدى ذلك على الاسلام والمسلمين شيئا ؟

كانت النتيجة أن وقف اليهود الى جانب النصارى عندما بدأ الصراع بين الجانبين على مصير اسپانيا ، ووضعوا أنفسهم فى خدمة الغزاة يقومون لهم بنفس المهمة التى قاموا بها للمسلمين . واذا نحن فسرنا موقف اليهود من الدولة القوطية بما كانوا يلقون منها من العنت ، فما تفسير خياناتهم للمسلمين ولم يلقوا منهم الا خيرا ؟ لقد أحس المسلمون فى القرن الحادى عشر بخطأ أجدادهم فيما جروا عليه من تسامح واكرام مع اليهود ، ولكن الوقت كان قد فات ! بيد أن الاسپان أنفسهم تكفلوا بسداد الدين لليهود ، فما كاد الأمر يستتب لهم حتى بدأوا يطاردون اليهود قبل أن يطاردوا المسلمين . وما زالوا يلحون عليهم حتى استأصلوا شأفتهم من البلد الذى تخونوه أكثر من مرة . وفر من نجا بحياته منهم الى المغرب ونواحى البحر الأبيض وهم اليهود السفراديون ، وهم نصف يهود العالم اليوم . والنصف الآخر هم الأشكنازيون ، وهم سلائل أولئك الذين ذكرنا أنهم فروا أمام اضطهاد الرومان والكنيسة الكاثوليكية الى بلاد الجرمان والصقالبة ، تكاثروا هناك وانضمت اليهم جماعات من الهاربين من انفجارات العداوة التى كانت تثور بهم فى بلاد أوروپا الغربية ، وفى ألمانيا وپولندا ونواحى روسيا ، عاشوا فى

= ABRAHAM A. NEUMAN, *The Jews in Spain.* (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 volumes. 1948.

FRITZ BOER, *Die Juden in Christlischen Spanien*

JACOB, *Sources of Spanish — Jewish History* (New York 1894)

J. PERLES, *Rabbi Salomo ibn Abraham ibn Adereth.* (Breslau 1863).

مخابىء وأحياء مقفلة تسمى الجِتّو ، ولم يبارحوها الا مع العصور الحديثة . ثم تجمع اليهود جميعا على أيامنا ونسوا ما أسلف اليهم الناس جميعا من أذى ، ولم يصبح لهم هدف فى الحياة الا القضاء على العرب والمسلمين ، وما أحسن اليهم فى التاريخ أحد بمثل ما أحسن العرب والمسلمون ..

الفصل الحادي عشر

الإدارة والمال

٢٥١ – قلة المراجع عن شؤون الإدارة والمال

لم تصمت مراجعنا العربية — الأندلسية وغير الأندلسية — عن ناحية من نواحي التاريخ كما صمتت عن نواحي الادارة وشؤون المال . فعلى طول التاريخ الاسلامى وعرضه ، ليس لدينا بيان رسمى واحد عنيت دولة من الدول الاسلامية بوضعه ، تورد فيه النواحى الداخلة تحت سلطانها وحدودها ، وما يتبع كلا منها من المدن والقرى بوصفها وحدودها ، وما ينبغى على أهلها من مال ، وما كان لهؤلاء الناس من حقوق مختلفة الأوضاع القانونية على الأرض وما فيها ؛ كما هو الحال فيما يتصل بنظم الدولة الرومانية . واعتمادنا فيما يتصل بالمشرق على بضعة بيانات نقلها بعض المؤرخين والجغرافيين ، عن أوراق وقعت بين أيديهم بطريق المصادفة ، تحدد دخل جزء من الدولة أو نفقاته فى فترة معينة ؛ ومثال ذلك البيان الذى أورده ابن خلدون فى « المقدمة » ، نقلا عن خط رجل يسميه أحمد بن محمد بن عبد الحميد « بما يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحى ، نقلته من جراب الدولة »[1] . وهو بيان ناقص لا يبين الا دخل جزء من أجزاء الدولة ، وهو بعد ذلك حافل بالمشاكل ، سواء فيما يتصل بأسماء النواحى وتقسيمها ، أو معانى المصطلحات التى يستعملها . ومثال ذلك أيضا البيان الذى أورده قدامة ابن جعفر فى جزء من « كتاب الخراج » نشره دى خويه فى ليدن

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ط . بولاق ، ص ١٥٠–١٥١ .

سنة ١٨٨٩ ، عن دخل الدولة العباسية أيام المعتصم[1] ، وهو بيان مضطرب فى حاجة الى دراسة طويلة . وهناك بيان ثالث وصل الينا عن طريق المصادفة البحتة ، فقد أراد الوزير على بن عيسى بعد عزله أن يقدم للخليفة المقتدر « حسابا » عما وصل اليه من أموال الجباية وما أنفقه منها ، وقد عثر البارون ألفريد فون كريمر على ذلك الحساب ونشره ؛ وهو بيان خاص لا نستطيع الاعتماد على مافيه اعتمادا تاما ؛ نظرا لأنه صادر عن وزير فى موقف الدفاع عن نفسه[2] .

وهذه البيانات كلها لا تعيننا على رسم صورة كاملة لتقسيم الدولة الادارى وشؤونها المالية ، حتى اذا استعنا فى فهمها بالشروح التى أوردها الخوارزمى فى كتابه القيم « مفاتيح العلوم »[3] للمصطلحات المالية ، وبالتفصيل الطيب للمصطلحات الجغرافية والادارية الذى أورده ياقوت فى مقدمة « تقويم البلدان » . وربما كانت مصر أوفر البلاد الاسلامية حظا من هذه الناحية ، نظرا لما لدينا من الوثائق البردية ذات القيمة العظيمة ، ونظرا لاهتمام بعض مؤرخى مصر ، كالمقريزى فى « خططه » والقلقشندى فى « صبح الأعشى » ، والنويرى فى « نهاية الأرب » ، بالكتابة فى مسائل الادارة والتقسيم الادارى وشؤون المال .

* * *

(١) أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ ، ص ٢٣٧–٢٤٠ .

(٢) ALFRED VON KREMER, *Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.*

(٣) الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم (صنفه سنة ٣٦٦ ﻫ) القاهرة ١٣٤٤ ﻫ ، ولايدن ١٨٩٥ .

ولكننا لا نملك ، فيما يتصل بالأندلس ، شيئا يشبه ذلك .

٢٥٢ – التقسيم الإدارى

وبين هذا الحشد الحافل من المؤلفات الأندلسية فى كل فن ، لانجد مؤلفا عنى بناحية كالتى عنى بهـا المقريزى والقلقشندى والنويرى ؛ حتى ابن حيان ، أمير مؤرخى الأندلس ، لم يجد علينا الزمان بنسخة كاملة من تاريخه . وليس فى القطع التى بين أيدينا منه شىء يتناول التقسيم أو التنظيم الادارى ، بل لم يورد لنا بيانا شافيا عن نواحى الدولة وأموالها ، مع أنه وأباه كانا من كتاب الدولة ورجال الدواوين ، ومع أنه كان ينقل عن أحمد بن محمد الرازى وابنه عيسى بن أحمد . وكان كلاهما من عمال الدولة وخواص الأمراء .

ولا يعلل هذا الصمت الا بافتراض أن التقسيم الادارى للأندلس والجبايات التى تقررت على النواحى لم تكن ، بالنسبة للأمراء أو كتابهم، مسألة تستوقف الاهتمام والنظر ، كأن العرب حينما دخلوا البـلد وجدوا فيه نظاما اداريا جاريا ثابتا صالحا فجروا عليه ، دون الحاجة الى اعادة التخطيط والتنظيم ، وكأن الظروف العامة فى الأندلس ، الى سقوط الخلافة الأموية على رأس المائة الخامسة للهجرة ، كانت مستقرة بصفة عامة ، وكأن مقادير الجباية كانت وافرة طوال هذه الفترة ، فلم تقع الدولة فى أزمات مالية وادارية كالتى تعرضت لها دولة العباسيين ، أزمات جعلت الناحية المالية هى المشكلة الرئيسية للخلافة العباسية من أواخر القرن الهجرى الثالث ، ولم يتورط الأمراء والخلفاء الأندلسيون فى تلك الأخطاء الفادحة التى زعزعت الأسس العامة التى قامت عليها دول المشرق ، فاضطرت الى اعادة التنظيم والروك ، وزيادة الجبايات وابتكار الجديد منها ، وما الى ذلك .

وهذا — على الأقل — هو ما يبدو لنا مما بين أيدينا من

٢٥٣ – كتاب الأندلس وتقسيمه الإدارى

تاريخ الأندلس . فعلى الرغم مما يحفل به هذا التاريخ من أخبار الفتن والثورات ، فان الحـال كان دائما رخيـا والناس فى سعة وبيت المال عامرا بالدخل والمدخر ، حتى فى أيام فتنة العرب وأهل الذمة التى شغلت الأندلس من أواخر امارة محمد الى منتصف عصر عبد الرحمن الثالث ، لا نسمع عن افلاس بيت المال أو مصادرات العمال والوزراء والتجار التى يحفل بها تاريخ دول المشرق ، وهذا أمر لا يمكن أن ينتج الا عن رخاء شامل جعـل عامة السكان بنجوة من الفقر المدقع الذى يؤدى الى الثورة ، ولا يمكن أن يكون الا اذا كانت هناك موارد مستمرة منتظمة لثروة الأفراد والدولة ، مما لا يمكن أن يتحقق الا مع افتراض وجود نظام ادارى سليم وتنظيم مالى صالح ، هذا بالاضافة الى الحكمة الادارية التى اتصف بها الأمراء والخلفاء ، والنزاهة — النسبية — فى شؤون المال والحكم التى اتصف بها الوزراء والعمال ورجال الدولة فى العاصمة والنواحى .

وهذا الاستقرار الادارى والاقتصادى ، هو الذى صرف المؤرخين والجغرافيين عن الموضوع ، لأن مؤرخ التاريخ الاسلامى انما يؤرخ عادة للحوادث الجسيمة والثورات والفتن والاضطرابات ، فاذا لم يجد من ذلك شيئا ملأ فراغ صفحاته بأخبار الشعراء والكتاب والفقهاء ومن اليهم . وان الناظر الى تاريخ دول المشرق فى موجـز تاريخى جامع ، مثل « الكامل » لابن الأثير ، ليجد أن المشكلة الرئيسية التى دار عليها تاريخ المشرق حتى نهاية العصر العباسى الأول هى مشكلة الحكم : من يحكم ومن لا يحكم ؟ من يرث الخلافة ومن لا يرثها ؟ وابتداء من خلافة

الواثق تختفى مشكلة الحكم لتحل محلها المشكلة المالية ، فقد كانت الدولة فى حالة افلاس حقيقى من عهد المتوكل ، وعلى صخرة الأزمة المالية تهاوى الخلفاء والوزراء والكتاب ، وعجز الجميع عن أن يجدوا لها حلا ، وانتهى الأمر بزوال الدولة كلها جملة . وواضح أن المشكلة المالية بدأت من أول يوم قامت فيه دولة بنى العباس ، فقد تربع خلفاؤها على امبراطورية واسعة تضم ولايات فسيحة ، لكل منها طبيعة وأحوال خاصة ، فكان لابد من وضع نظام ادارى وآخر مالى ، ولم يوضع هذا ولا ذاك . ومضت الأيام والخليفة لا يعرف ما عنده وما ليس عنده ، والرعية لا تعرف ما عليها ، ولم يتنبه الى الأمر أحد طالما كانت الدولة فى سعودها والجباية وافرة ، ولكن الانفاق كان دائما أكثر من الوارد ، وقد أحس بذلك هارون الرشيد فطلب الى أبى يوسف القاضى أن يضع له دستورا اداريا ماليا ، فوضع له مبحثا فقهيا لم ينتفع به الرشيد أو من جاء بعده . وجاء يوم وجد الخليفة فيه بيت المال خاليا ، فبدأ فى مصادرة أموال الناس ، ونظر الوزراء والكتاب الى المكوس والمغارم والمعاون يقتضونها من الناس قسرا ، فثبطت الهمم وأخـذت الثروة القومية تتلاشى ، ونزر الوارد الى بيت المال شيئا فشيئا ، حتى وصلت الدولة الى الافلاس ، وبدأت مأساة تصفية الدولة العباسية من القرن الرابع الهجرى .

أما فى الأندلس فلم يحدث من ذلك شىء ، وهذا ما يحدو بنا الى القول بأنه لابد أنه كان هناك نظام ادارى مالى ثابت سليم ، لأن الثروة الطبيعية للبلاد لاتغنى شيئا اذا كان النظام فاسدا . فقد كان « ارتفاع » الأهواز مثلا مضرب المثل ، ولكن سوء النظام وفساد ذمم العمال هبطا بها الى حضيض الفقر البالغ . ومصر كذلك كانت من أغنى بلاد دولة

الاسلام فى المشرق ، ولكنها أفلست تماما فى منتصف العصر الفاطمى بسبب سوء الادارة وفساد النظام المالى ، وتوالت عليها المجـاعات والغلوات والمحن التى يفصلها ويشرح أسبابها المقريزى فى كتابه الفريد فى بابه « اغاثة الأمة وكشف الغمة » . ولسنا نجد فى الأندلس شيئا يشبه ذلك : لانجد أميرا أو خليفة يمسح أراضى الدولة أو يعيد تحديد الأقسام الادارية ، لانجد كورا يجمع بعضها الى بعض أو تقسم تقسيما جديدا لمواجهة ظروف ادارية طارئة ، ولا نجد جبايات ثقيلة تفرض على الناس فيشكون منها . وهذه ظاهرة لا تفسر الا بما قلناه : وجد العرب تقسيما اداريا مستقرا صالحا ، فأخذوه كما هو ، ووضع العرب من أول الأمر نظاما ماليا لم يحتاجوا بعد ذلك الى تغييره ، ومضى العمل به على ماهو عليه ، ولم يتعرض واحد من النظامين لشىء من التغيير الحاسم يستوقف انتباه المؤرخين .

ثم اننا نجد أن كل التفاصيل التى لدينا عن تقسيم الأندلس الى كور وأقاليم تتفق فيما بينها اتفاقا واضحا مع اختلاف العصور التى كتبت فيها ، وحتى مع افتراض أن كل ماكتب بعد الرازى أخذ عنه ، فلا يعقـل أن ينقـل عنه أحمد بن عمـر بن أنس العـذرى المتوفى سنة ٤٧٨/١٠٨٥ ، وأبو عبيد البكرى المتوفى سـنة ٤٨٧/١٠٩٤ ، ومحمد بن أيوب بن غالب الغرناطى المتوفى فى أواخر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، وأبو الحسن على بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥/١٢٨٦ ، ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميرى الذى كتب فى سنة ٨٨٦/١٤٨١ ، وغيرهم كثيرون ، دون أن يشير واحد منهم الى تعديل أو تغيير أصاب نظام الكور وحدودها وما يتبعها من المدن رغم اختلاف الأعصر التى كتبوا فيها . ولقد زار الأندلس رحالة

كابن حوقل ، وكتب عنه جغرافيون كابن الفقيه وابن رستة والاصطخرى والمقدسى ، وهم جميعا ممن يهتمون بالتقسيمات الادارية ونظم المال ، فلم يبين أحد منهم حقيقة ذلك التقسيم أو التعديلات التى أدخلت عليه، بل وقف ياقوت طويلا عند مصطلحات الأندلسيين الادارية ، وبين الفروق بينها وبين ما يستعمله أهل المشرق ، دون أن يشير الى أصول هذه المصطلحات وما يمكن أن يكون قد نالها من التغير والتعديل . وكل ذلك يلقى فى الروع أن الرازى ، عندما كتب « صفة الأندلس » ، انما كان يكتب عن نظام مقرر ثابت لم يتكلف العرب فى وضعه مشقة . وليس فى ما بين أيدينا من كتب التاريخ اشارة الى وضع هذا النظام أو من وضعه أو فى أى وقت كان وضعه ، مما ينتهى بنا الى القول بأن العرب وجدوا فى الأندلس عند دخولهم تقسيما اداريا ثابتا للبلاد ، فساروا عليه مع بضعة تعديلات شكلية اقتضتها الأحوال الجديدة — وسنشير اليها — واستبدلوا ما وجدوا من التسميات والمصطلحات بما حملوه معهم من المشرق ؛ وثبت الأمر على ذلك .

فاذا صح هذا الرأى ، فما هو هذا التقسيم ؟ هل هو تقسيم اسبانيا الادارى على عهد القوط ؟ ثم ، ما هو هذا التقسيم القوطى ؟ ما أصله وما حدوده ، وما هى درجة انطباقه على ما بين أيدينا من تقسيم الأندلس الاسلامى الى كور وأقاليم ؟ .. أم هل هو التقسيم الكنسى الى مطرانيات وديقونيات ؟

٢٥٤ – أصول التقسيم الإدارى الإسلامى فى الأندلس

من الثابت أن القوط لم يضعوا لاسبانيا تقسيما اداريا ، وأنهم قنعوا بالتقسيم الرومانى الذى وجدوه فى البلاد عند دخولهم ، فلنرجع الى العصر الرومانى لنتتبع هذا التقسيم من أوله .

كانت للرومان عناية خاصة بالتنظيم الادارى ، فلا تكاد ناحية من النواحى تدخل تحت سلطانهم حتى يخضعوها للنظام الادارى العام لدولتهم ، ويحددوا وضعها السياسى داخل الدولة أو علاقتها بها اذا كانت محالفة أو صديقة ؛ وكان مجلس الشيوخ لا ينفك يعيد النظر فى النظم ويعدلها أو يعيد وضعها بما يتفق مع الظروف القائمة . فلما اختفت الجمهورية وجاء عصر الامبراطورية تابع الأباطرة هذا الاهتمام ، ومن هنا كان لكل ولاية من ولاياتهم تاريخ ادارى حافل بالتطورات . وفيما يتصل باسبانيا سار هذا التطور جنبا الى جنب مع امتداد سلطان الرومان على الجزيرة وتمكن قبضتهم منها ، وتأثر الى جانب ذلك بما قام فى البلاد من ثورات أو حركات معادية للرومان . ويهمنا من هذه التقسيمات كلها التقسيم الأول الذى وضع سنة ٢٠٦ قبل الميلاد ، والتقسيم الأخير الذى تم فى عهد دقلديانوس ، والذى يسمى عادة تقسيم قسطنطين أو « قسمة قسطنطين » كما يقول كتابنا الاسلاميون .

٢٥٥ – تقسيم دقلديانوس المعروف بقسمة قسطنطين

فأما التقسيم الأول فهو الذى يجعل اسبانيا قسمين اداريين كبيرين ، يحكم كلا منهما موظف كبير بلقب پروكنسل Proconsul أولا ثم بلقب پرايتور Praetor فيما بعد ؛ هذان القسمان هما اسبانيا الدنيا Hispania Citerior واسبانيا القصوى Hispania Ulterior . وقد كان هذا التقسيم أساسا لكل تقسيم جاء بعده فى الفترة الرومانية ، فانقسمت اسبانيا القصوى فى عهد الامبراطور أجريپا سنة ٢٧ قبل الميلاد الى ولايتى بيطى Betica ولشدانية Lusitania . وفى أيام كاراكالا ظهرت ولاية اسبانيا الدنيا الجديدة الأنطونية Hispania Nova Citerior Antoniana وتضم اقليمى جليقية وأشتريس ، وفى عهد دقلديانوس ظهرت ولايتا

اسبانيا الطركونية Hispania Tarraconensis واسبانيا القرطاجنية Hispania Cartaginensis [1] . وهذا يصل بنا الى تقسيم دقلديانوس الأخير الذى ينسب الى قسطنطين ، وبمقتضاه أصبحت اسبانيا ديقونية Diocesis — أى عملا كبيرا بالمصطلح العربى — تابعة لمديرية الغالتين Praefectura Galliarum داخلة فى القسم الغربى من الدولة الرومانية ، وهو التقسيم الذى وصل الينا فى وثيقة رسمية اسمها : بيان بالوظائف الجليلة فى الدولة وغير ذلك Notitia dignitatum utriusque imperii [2]. وتضم اسبانيا بحسب هذا البيان ست ولايات Provinciae ، هى : باطقة Betica، ولشدانية Lusitania ، وجليقية — أشتريس Calicia Astúrica ، والولاية الطركونية ، والولاية القرطاجنية ، ثم أضيفت اليها مرطانية الطنجية Mauretania Tingitana والجزائر الشرقية Provincia Balearica

وقد ذكر كتابنا العرب هذه التقسيمات مع تحريفات ظاهرة سنتحدث عنها فيما بعد ، فقال أحمد بن عمر بن أنس العذرى : « ... تمّ ذكر الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذى جزأها على ستة أجزاء: أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء ،

(1) MANUEL TORRES, *La Peninsula Hispanica, Provincia Romana.* *En Historia de España* dirigida por R. MENÈNDEZ PIDAL, II. Madrid, 1935. p. 371-372.

(2) نشر هذه الوثيقة الهامة Seeck سنة ١٨٧٦ ، وانظر عنها أيضاً :

TH. MOMMSEN, *Vergeichnis der römischen Provinzen aufgesetzt um* 297. Abhandlungen der Berliner Akad. d. Wiss. Phill. Hist. Kl. 1862. S. 489-518. Gesammelte Schriften, vol. V. 1908, S.S. 561-588.

C. JULLIAN, *De la réforme provinciale attribuée à Diocletien.* Rev. Hist. XIX, 1882, p. 331-374.

وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة ، الى أقصى الغرب ، وأضاف الثلاثة أيضا فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريولة الى سرقسطة وما وازاها . وسماها غير قسطنطين بالأندلس الغربى وبالأندلس الشرقى ، وذلك بجرى الأنهار ؛ فما جرى منها الى الغرب سماه الغربى ، وما جرى أنهاره الى الشرق سماه بالشرقى . والقسمة من تدمير ، ونهرها جار الى الشرق »[1] . واذا نحن نظرنا الى التقسيم الرومانى الأول الى اسبانيا الدنيا واسبانيا القصوى تبينا أنه ينطبق تماما مع كلام العذرى ، فيما عدا المدن التى يذكرها ، فان الحد الفاصل بحسب التقسيم الرومانى هو نهر تدمير بالفعل ، أما قوله ان بعضهم يسمى القسمين الأندلس الشرقى والأندلس الغربى فيفسره تصور الجغرافيين المسلمين للهيأة العامة لشبه الجزيرة الايبيرية ، وهو تصور يجعل الساحل الشرقى لشبه الجزيرة كله ساحلا جنوبيا تقريبا .

ولأبى عبيد البكرى نص أكثر تفصيلا وأهمية ، لا بالنسبة للتقسيم الادارى أيام الرومان ، بل أيام المسلمين كما سنرى ، قال :

٢٥٦ — قسمة قسطنطين كما يعرضها البكرى

« وحدّت الأوائل الأندلس بعبارات مختلفة . وحدّها قسطنطين حدودا ستة : جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة ، وهو حد ما بين غاليوش (Gallos = الغاليون) وبين الأندلس (إسبانيا) وأضاف إليها سبع مدن مما حواليها وهى بَطَرَّش (Béziers = Betteris بيزيه) ، وطلوشة (Tolosa = تولوز) ومقلونة (Maguelonne = Magallona)، ونومنشو (Nimes-Nemausc) وقرقشونة.

(١) أحمد بن عمر بن أنس العذرى : نظام المرجان فى المسالك والممالك (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) ورقة ١٧ .

وفى قرقشونة هذه الكنيسة العظمى عندهم ، تسمى شنتت مريّة غرائية (Sainte Marie de Grâce) وفيها سبع سوار من فضة ، ولها يوم عيد ترده العجم من الآفاق ، وبينها وبين برشلونة ٢٥ يوما .

وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة (Braga = Bracara) ، وهو حوز جليقية وشلطيانة (Celtiana) وهو بلد ابن غومس [١] ، وجعل لها اثنتى عشرة مدينة مما حواليها ، منها : مدينة برطقال (Portus Gallensis = پورتو) ، ومدينة تُوذَى (Túy = Tude) ومدينة أوْرِيَة (Auria = Sedes Auriensis = Orense) ، ومدينة لكه (Lugo = Luco = Lucus Asturicum) ومدينة برطانية (Santa Maria de Bretoña = Britonia) ، ومدينة أشترقة (Astorga = Asturica) ، ومدينة شنت ياقو (Santiago) ، ومدينة كنيسة الذهب [٢] ، ولها يوم يرد فيه من افرنجة ومن رومة ومن جميع نواحيهم كلها . ومدينة ايرية (Iria = Iria Flavia وتسمى اليوم Padrón) ، ومدينة بطقة ، ومدينة شارّة (Sarria) .

وجعل الجزء الثالث من مدينة طركونه (Tarragona - Tarracona) وأضاف اليها مدينة سرقسطة وأشقة (Huesca = Osca وتسمى أيضا وشقة) ولاردة وطرطوشة وتطيلة ، وأعمال بلدان ابن شانجو كلها [٣] ،

(١) فى القرن الحادى عشر كان الإقليم الواقع فى الركن الشمالى الغربى من إسبانيا فيما بين شنت ياقب والبحر يسمى بلاد الكلت Celticos .

أما ابن غومس ، فالمراد به على الأغلب غرسية بن فرناندو الأول ملك جليقية فى أيام البكرى (ملك من ١٠٦٥ إلى ١٠٧١) .

Cf: LÉVI-PROVENÇAL, *La Péninsule Ibérique*, p. 247, n. 3-4.

(٢) يبدو أن هنا اضطرابا فى سياق الكلام . وقد يستقيم المعنى إذا قلنا : و [هى] مدينة كنيسة الذهب ...

(٣) المراد هنا شانجه الرابع ملك نبره ، وقد حكم بين سنتى ١٠٥٤ و ١٠٧٦ .

Cf : LÉVI-PROVENÇAL, *La Péninsule Ibèrique*, p. 248. n. 1

وبلد بليارش (Pallars) ، وبرشلونة وجرندة (Gerona) ، ومدينة أنبورش (Ampurias) ، ومدينة بنبلونة ومدينة أوقه (Oca = Auca) ومدينة قلهرة (Calagurris = Calahorra) ، ومدينة طرسونة (Tarazona) ، ومدينة أماية (Amaya وتكتب أيضا أمايا) .

وجعل الجزء الرابع عشرين مدينة ، قاعدتها مدينة طليطلة ، وأضاف اليها مدينة أوريط (Oreto = Oretum) ، ومدينة شقوبية (Segovia) . ومدينة أركبيقة (Ercávica) ، ومدينة وادى (الحجارة) ، ومدينة شغونسة (Sigüenza) ، ومدينة آكشومة (Osma = Oxuma) ، ومدينة بلنسية ، ومدينة بلازيا (Palencia = Palentia ?) ، ومدينة أوريولة ، ومدينة ألش (Elche) ، ومدينة شاطبة ، ومدينة دانية ، ومدينة بياسة (Baeza) ، ومدينة قسطلونة (Cazlona = Castulona) ، ومدينة منتيشة (Mentesa) ، ومدينة وادى آش (Guadix) ، ومدينة بسطة (Baza) ومدينة أرش (Urci) وهى بجانة (Pechina) [١] .

وجعل الجزء الخامس قاعدته مدينة ماردة ، وأضاف اليها اثنتى عشرة مدينة ، وهى : باجه (Beja) ، مدينة أكشونبه (Ocsonoba) ، ويابره (Evora) وشنتره (Cintra) ، وشنترين (Santarem) ، والأشبونة وقلمرية (Coimbra) ، وقورية (Coria = Caurium) ، وشلمنتقة (Salamanca = Salamantica) ، وسموره (Zamora) وهى محدثة برا الى شنت ياقوب .

(١) يلاحظ أن الإقليم المجاور للمرية وبجانة كان يسمى أُرش اليمن ، وقد ذهب ابن عبد المنعم الحميرى فى مادة بجانة إلى أن الأُرش من الأُرش وهو العطية أى النحلة ، أى أن أرش اليمن معناه الإقليم الذى منح لليمنيين ؛ وهذا غير صحيح ، وأصل أرش هنا لفظ Urci القديم ، وهو موضع قديم فى تلك الناحية .

انظر الترجمة الفرنسية للروض المعطار ؛ ص ٤٧ ، هامش ٣ .

وجعل الجزء السادس قاعدته مدينة اشبيلية ، وأضاف اليها لبلة (Niebla) وقرطبة وقرمونة ومورور (Moron) ومرشانة والجزيرة (Algeciras) وتاكرنا وريه وأشونه (Osuna) واستجه (Ecija = Astigi) وقبرة وأعمالها الى بجانة ، والبيرة وجيان ومنتيته (؟) وباكرته (؟) وأبذه (Ubeda) وبياسة (Baeza) » (1) .

وخلاصة كلام أبى عبيد البكرى أن تقسيم قسطنطين يجعل اسبانيا ستة أقسام كبرى يسميها أجزاء ، وكل قسم يتبعه عدد من المدن كما يلى:

١ — قسم نربونة : ويتبعه ٧ مدن لم يذكر البكرى منها الا خمسا ، هى : بطرش — طليوشة — مقلونة — نومشو — قرقشونة .

٢ — قسم براقرة : وهو حوز جليقية وبلاد الكلت ، وتتبعه ١٢مدينة لم يذكر البكرى منها الا ١١ هى : برطقال — توذى — أورية — لكه — برطانية — أشترقة — شانت ياقو — مدينة كنيسة الذهب (كذا) — ايرية — بطقة — شارة .

٣ — قسم طركونة : ويتبعه ١٤ مدينة هى : سرقسطة — أشقه — لاردة — طرطوشة — تطيلة — بليارش — برشلونة — جرندة — أنبورش — بنبلونة — أوقه — قلهرة — طرسونة — أماية .

(١) أبو عبيد البكرى : قطع من جغرافية البكرى نشرها ليڤى پروڤنسال ذيلا على ترجمته الفرنسية لـ «الروض المعطار »

LÉVI-PROVENÇAL, *La Péninsule Iberique*, pp. 246-249.

وأدخل فى ذلك الجزء « أعمـال بلد ابن شانجه كلها » أى نبره (ناڤار) .

٤ — قسم طليطلة : ويتبعه ٢٠ مدينة ذكر منها ١٨ هى : أوريط — شقوبية — أركبيقة — وادى الحجارة — شغونسة — أكشومة — بلنسية — بلازيا — أوريولة — ألش — شاطبة — دانية — بياسة — قسطلونة — منتيشة — وادى آش — بسطة — أرش (بجانة) .

٥ — قسم ماردة : ويتبعه ١٢ مدينة ذكر منها ١٠ هى : باجة — أكشونبة — يابرة — شنترة — شنترين — الأشبونة — قلمرية — قورية — شلمنتقة — صمورة .

٦ — قسم اشبيلية : ويتبعه ١٧ مدينة هى : لبلة — قرطبة — قرمونة — مورور — مرشانة — الجزيرة الخضراء — تاكرنا — ريه — أشونة — استجة — قبرة (وأعمالها) — البيرة — جيان — منتيتة (؟) — باكرتة (؟) أبذة — بياسة .

ونلاحظ مايلى :

١ — أن البكرى لا يعطى الأجزاء أسماء واضحة ، ولا يضع لهـا حدودا بل يكتفى بالقول : « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » و « جعل الجزء الثالث من مدينة طركونة » ، والمراد بهـذا على الأغلب : « من حد مدينة نربونة » و « من حد مدينة طركونة » ، ويراد بذلك الزمام الذى يتبع المدينة بحسب النظام الرومانى كما سنرى.

٢ — أنه لم يذكر قواعد الأجزاء الا فى ثلاث حـالات : الرابع وقاعدته طليطلة ، والخامس وقاعدته ماردة ، والسادس وقاعدته اشبيلية.

٣ — المفهوم ضمنا أن لكل مدينة مما يذكر أعمالا تابعة لها ، فهو يقول مثلا : « وقبرة وأعمالها الى بجانة » ، ويقول مرة أخرى : « وصمورة وهى محدثة برا الى شنت ياقوب » ، وهى عبارة جعلها ليڤى پروڤنسال فى ترجمته الفرنسية :

Zamora (Samūra) ville de fondation moderne, dédiée à Saint Jaques.

أى أنه قرأ بِرا بكسر البـاء ، وفسر « الى شنت ياقب » بقوله : « بشنت ياقوب » . ونفضل نحن أن نقرأ العبارة : « وصمورة ، وهى محدثة ، [وأعمالها] بَرا الى شنت ياقوت » قياسا على « وقبرة وأعمالها الى بجـانة » .

٤ — وقد سميت الأجزاء اما باسم القاعدة ، كما هو الحال فى الأجزاء الرابع والخامس والسادس ، أو بالنسبة الى المدينة الرئيسية فيه ، التى يميزها بقوله مثلا : « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » ، أو « وجعل الجزء الثانى من مدينة براقرة » ، ويريد أن الجزء يحكم من المدينة التى يذكرها .

* * *

٢٠٧ — التقسيم الكنسى واذا نظرنا الى هذا التقسيم وجدناه ينطبق تماما من حيث الأجزاء على التقسيم الكنسى لاسبانيا أيام القوط ، فقد كانت هناك ست مطرانيات تقابل تماما أجزاء قسطنطين بحسب رواية البكرى ، وينطبق كذلك على تقسيم دقلديانوس الذى وصل الينا فى وثيقة سنة ٢٩٧ م التى أشرنا اليها ، واليك جدولا مقارنا يوضح هذه الحقيقـة :

تقسيم دقلديانوس پروڤنسيات (ولايات)	تقسيم قسطنطين أجـزاء	التقسيم الكنسى مطرانيات	قواعد الأجزاء
	ما بين جاليوش والأندلس	أربونة	نَرْبُونة
جليقية أشتريس	حوز جليقية	جليقية	بْرَاقَرَة
طركونة	طركونة	طركونة	طركونة
قرطاجنة	طليطلة	قرطاجنة	طليطلة
لُشْدانية	ماردة	لُشْدانية	ماردة
باطِقَة	إشبيلية	باطِقَة	إشبيلية

ويلاحظ أن تقسيم دقلديانوس لا يجعل ولاية نربونة داخلة فى ديقونية اسبانيا وانما فى ديقونية غالة ، وكانت الاثنتان تكونان مديرية الغالتين Praefectura Galliarum كما قلنا .

وقد أضيفت الى ديقونية اسبانيا فى نفس عهد دقلديانوس ولاية مرطانيـة الطنجيـة (Mauretania Tingtana) ، وهى اقليم طنجـة أو ما عرف فيما بعد باسم العدوة الافريقية . وفيما بين ٣٧٠و٤٠٠ ميلادية أضيفت الى اسبانيا ولاية الجزائر الشرقية (Provincia Balearica) .

وسنقف عند هذا التقسيم قليلا ، لأنه فيما نعتقد الأساس الذى قام عليه كل تقسيم ادارى آخر لشبه الجزيرة ، بما فى ذلك التقسيم العربى . لأن شبه الجزيرة الايبيرية مقسـم طبيعيا الى أقسـام تصلح بهيئتها الجغرافية لأن تكون أقساما ادارية ، وخاصة بالنسبة للأقسام الصغيرة. واذا كان تقسيم اسبانيا الى عمالات كبيرة ، ثم تقسيم هذه العمالات الى

مديريات قد مر فى أدوار مختلفة ، حتى انتهى الى الصورة التى ثبت عندها فى تقسيم دقلديانوس سنة ٢٩٧ ميلادية ، فان تقسيم هـذه المديريات الى أقسام ادارية أصغر لم يكلف الرومان أى عناء ، بل يبدو أن الرومان وجدوا هذه الأقسام الصغيرة قائمة ، فلم يكن عليهم الا أن يثبتوا حدودها الجغرافية ويضعوها فى الوضع القانونى الذى ينسجم مع نظمهم الخاصة بالمدن والأقاليم . وهذه التقسيمات نفسها هى التى أخذتها الكنيسة وجعلتها أساسا لتقسيم المطرانيات الى ديقونيات ، مع بعض تغييرات طفيفة اقتضتها مطالب التنظيم الكنسى [١] ، وأخـذها العرب بعد ذلك مع ادخال تغييرات محلية فى الغالب اقتضتها طبيعة النظام الاسلامى العام ، وسنتحدث عن ذلك فى حينه .

* * *

٢٥٨ – المدينة أساس للتقسيم الإدارى الرومانى

ومن الواضح أن هناك تشابها بين الأسس العامة التى سار عليها كل من الرومان والعرب فى تقسيماتهم الادارية . فقد كانت « المدينة » هى الأساس الذى قام عليـه التنظيم الادارى السياسى الرومانى[٢] ، وكانت المدن هى المراكز التى اعتمد عليها العرب أيضا فى الحكم والادارة . ولقد انتفع العرب باهتمـام الرومان بالمدن وتنظيمهم اياها وعنايتهم باتقان بنيانها وتزويدهم اياها بما استطاعوا تزويدها به من وسائل العمران المدنى ، ولا يبدو ذلك بصورة هى أوضح مما يبدو بها فى الشام والأندلس . ففى الشام تعلق

(١) MANUEL TORRES y RAMÓN PRIETO BANCES, en *Hist. de España*, dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, III, Madrid 1940. pp. 276-279.

(٢) MANUEL TORRES, en *Hist. de España*, dirigida por R. MENÉNDEZ PIDAL, II Madrid 1935, p. 379.

العرب بالمدن وتجمعوا فيها وجعلوها مراكز عسكرية ، وألحقوا بكل منها جانبا من الريف اعتبروه حوزا للمدينة أو زماما ، وهذا هو ما عرف بالأجناد . أما فى الأندلس ، فكان شأن المدن أهم ، وكان الرومان عندما دخلوا البلاد ، قد وجدوا فيها مراكز ومواضع عامرة بالناس ، بعضها يلتف حول مدن كبيرة (Civitas - Civitates) وبعضها يلتف حول مدن بدائية أقرب الى القرى (Gens - Gentes) .

وكان مفهوم المدينة عند الرومان مفهوما سياسيا واجتماعيا خاصا ، أخذوه عن الاغريق وأضافوا اليه وعدلوه بما يناسب الطبيعة العسكرية السياسية الخاصة بدولتهم . وأصبحت المدينة مرادفا لنظـام سياسى يتضمن حريات وحقوقا وواجبات معينة يعتبر الحصول عليها حصولا على حق المواطنة الرومانية . فاذا دخل الرومان بلدا قسموه أقساما بحسب طريقة دخول نواحيه فى حوزتهم : عنوة أو صلحا أو بمحالفة أو ما الى ذلك . وقد يرفع الرومان مستوى بعض النواحى بعد زمن ويمنحونها حق المدينة أى حق المواطنة . ولم تكن المدينة عندهم مجرد مدينة ، بل كان لها زمام محيط بها (Orbs-is) تابع لها حكمه كحكمها وسكانه مواطنون فيها ، لهم ما لأهلها من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات . واذا كان هذا الزمام واسعا قسم الى أقسام ، لكل قسم اسم ينسب الى قرية كبيرة أو الى زراعة غالبة عليه أو الى ظاهرة معينة تميزه كسند جبل أو جبل أو ساحل أو سهل او ما الى ذلك . فلم تكن هناك نواح لا تتبع مدينة ما ، واذا ذكرت مدينة قصد فى نفس الوقت ماتتبعها من النواحى . وقد ثبت الرومان زمامات المـدن وفصـلوا أمرها فيما أصدروه من وثائق خاصة بها [١] .

(١) MANUEL TORRES, *op. cit.* p. 374.

وعندما ظهر نظام الولايات (Provinciae) فى نهاية أيام الجمهورية الرومانية نشأت المديريات عن مجموعات من المدن وزماماتها ، وحددت مساحة كل منها بمعرفة لجنة خاصة من عشرة رجال ، وأصدر بمديريات كل ناحية من أملاك الرومان قانون خاص يحدد ما يتبع كلا منها من المدن وأحوازها ، وفيما يتصـــل باسبانيا لدينا قانون أو قائمة ولايات اسبانيا (Lex o Formula Provinciae Hispaniae) الذى يحدد مايتبع كل مديرية من المــدن والنواحى . واذا كانت المديريات قد تكونت من زمامات ما أدخل فى حوزها من مدن ، فان الأساس الثابت للتقسيم الادارى فى اسبانيا كان المدينة وحوزها ، فقد تغيرت حدود المديريات من عصر لعصر ، أما زمامات المدن فقد ظلت ثابتة وظلت هى الأساس ، ومضى الأمر على ذلك بقية أيام الرومان وأيام القوط أيضا .

وقد تحددت أحواز المدن بالوثائق التى كان يصدرها الرومان ، فقد كانوا أهل تنظيم وترتيب ، وعناية بتسجيل كل شىء . وقد كانوا اذا فتحوا بلدا اجتهدوا فى ترتيب أرضه وأهله : فأما الأرض التى وجدوها أو أدخلوها فى حوزة مدينة فاحتفظ أهلها بالحقوق التى منحها الرومان للمدينة ، واعتبرت هذه الأرض (Municipia) من الناحية القانونية . وأما الأرض التى استصفوها أو وجدوها طلقة لا تتبع أحدا فقد أنشأوا فيها المستعمرات (Coloniae) وجلبوا اليها المعمرين (Coloni) لتعميرها لقــاء ضريبة يؤدونها على أساس ما يمتلكه كل معمر من أرض . أما المدن نفسها فقد اختلف وضعها بحسب علاقتها بالرومان ، فهناك مدن دخلت فى طاعة الرومان صلحا ، وهناك مدن دخلت فى طاعتهم عنوة . وكانت للرومان أسس قانونية معقدة خاصة بهذه المدن ، فمنها ما صالح الرومان بعقد صلح يجعلها حليفة لهم (Foedera) ، ومنها ما منحه

الرومان وضع الحليف (déditio) ، ومنها ما كان يمنح حق انشاء مجلس بلدى له حق التصويت فى المسائل الهامة ، ومنها ما لم يكن له هذا الحق (sine sufragio) ، ومنها ما كان يدفع للرومان جزية معينة (Stipendium) أو (Tributum) ، ومنها ما كان معفى منها . وكان للوضع الخاص بكل مدينة أثر عظيم فى تاريخها خــلال العصرين الرومانى والقوطى ، سواء فيما يتصل بمركز البلد فى الاقليم الذى يقوم فيه أو بطريقة حكومته لنفسه والحوز التابع له أو بعلاقته بالدولة المركزية : الرومانية أولا ثم القوطية بعد ذلك .

والمهم لدينا أن هذا كله كان عظيم الأثر بالنسبة لوضع هذه البلاد ونواحيها فى الدولة الاسلامية . فنلاحظ مثلا أن معظم نواحى اسبانيا لم تقاوم الفاتحين المسلمين ، لأنهم عقدوا مع أهلها محالفات محلية تشبه تلك التى كانت قائمة بينهم وبين الرومان ، فلم يتغير عليهم شىء بدخول المسلمين ، ومن ثم فلم يكن هناك ما يدعو الى المقاومة ، واستقر معظم هذه النواحى داخل الدولة الاسلامية استقرارا سلميا قائما على تعاقد مكتوب ، عقد حفظ لها حقوقها وحدد التزاماتها حيال الدولة الاسلامية. وقد احترم العرب هذه العهود ، حتى فى أيام الفتن التى فصلنا أمرها حرص العرب على ألا يمسوا المدن وأهلها ، وتبعت المدن نواحيها ، فكان ذلك من أوكد أسباب الاستقرار والرخاء فى الأندلس الاسلامى فيما بعد .

ومن المعروف أن أوضاع المدن قد تقارب بعضها من بعض خلال القرون الرومانية المتأخرة ، وأن أوضاع الناس قد تقاربت كذلك ، فلم يعد هناك الا الأحرار والعبيد ، فأما الأحرار فكان منهم أهل المدن الأصــلاء (Cives) وأهــل النواحى التــابعون لبلديتها (Municeps)

والمعمرون (Coloni) والزراع (Inculae) . وكانوا كذلك اما مدنيين تابعين لمشيخة البلد (Curia) أو أهل قبائل جرمانية لم يستقروا بعد تابعين لمشيخة القبيلة ، وكانت تكون من المشيختين هيئة تسمى (Comitia Tributa) أو (Comitia Curiata) تقوم بحكم البلد والحوز التابع له ، يتقاسم رجال المشيختين الوظائف فيها(١) .

* * *

٢٥٩ – القوط والتقسيم الرومانى

ولم يدخل القوط تغييرا ذا بال على هذه الأوضاع ، فقد حلوا فى البلاد محل الرومان(٢) ، وكانوا من الناحية القانونية معتبرين مجرد نازلين فى البلاد بمقتضى العرف الرومانى المسمى (Hospitalitas) وهو لفظ عسير الترجمة ، فمن الناحية اللغوية معناه « الضيافة » ، أما فى الواقع فأخذ معنى الاستيلاء على نسبة معينة من الأرض والعقار ، أى أن الهوسپيتاليتاس كانت أول الأمر اذنا للقوطى فى أن ينزل وعائلته « ضيفا » على مزارع رومانى مع اعطائه حق الملكية على ما يتنازل له عنه المزارع الرومانى وينزله فيه من بيت أو أرض . ثم أصبحت هذه الضيافة حقا مقررا للجرمانى يستولى بمقتضاه على أراض وعقارات . وربما أقطعت الدولة لحلفائها من الجرمان ناحية بأكملها ينزلونها مزارعين مع أهلها ويكون لهم فى الواقع حق ملكيتها ، ومهما كانت الصورة التى نزل بها القوط أرض الدولة ، فان الأمر انتهى بتملك القوط لما نزلوا به من النواحى على صورة تعبر عنها احدى المدونات بقولها فيما يتصل بانزال الدولة

(١) MANUEL TORRES, *op. cit.* p. 384.

(٢) ANTONIO BALLESTEROS y BERETTA, *Historia de España y su influencio en la historia universal,* tomo I (2a. ed. Madrid, 1934. p. 909.

الرومانية للقوط فى أقطانية : « ان أقطانية سلمت القوط Aquitania Ghotis tradita » .

وكانت القاعدة فى مثل هذه الحالة أن القوط كانوا يستولون على ثلثى الأرض ، ويتركون للمزارع الرومانى أو اللاتينى أو الايبيرى الرومانى الثلث فحسب ، أى أن كل قرية أو ناحية كانت تسلم ثلثى أرضها للنازلين بها من القوط ، وكانت القسمة تحدد تحديدا دقيقا فى حالة نزول الجرمانى الأرض واشتغاله بالزراعة بيده أو بواسطة عبيده . أما فى حالة عدم اشتغال الجرمان بالزراعة ، فكانت القاعدة أن يفلح الناس الأرض ويسلموا ثلثى الغلة للقوط ، وكانت حصص القوط تسمى الأنصبة ، واحدها نصيب (Sors, sortes) ، أما الباقى بيد أهل البلاد فكان يسمى بالأثلاث (Terciae) (١) . ولم تكن القسمة لتقتصر على الأرض ، بل كانت تشمل ما عليها من الدور والماشية والرقيق أيضا. وخرجت من القسمة أراضى الغابات (Compascua) وأراضى المراعى ، فقد تركت مشاعا . أما الأراضى التى كانت تملكها الدولة فقد وضع ملوك القوط أيديهم عليها ، فى حين دخلت الضياع الكبيرة (Latifundiae) فى القسمة أيضا ، وانتقلت ملكيتها لكبار القوط (٢) .

وقد دخل القوط غالة واسبانيا قبائل ، يرتبط أفراد كل قبيلة منها برابطة تقابل العصبية العربية تسمى (Sippe) وتسمى فى المصطلح الرومانى (Centena) ، لأن الغالب أن كل قبيلة كان عليها أن تقدم

(١) MANUEL TORRES y RAMÓN PRIETO BANCES, *op. cit.* III. p. 151.

(٢) ANTONIO BALLESTEROS, *op. cit.* I. p. 913.

للجيش القوطى مائة من المقاتلين . وقد انحلت روابط العصبية القبلية القوطية بتقادم عهدهم فى البلاد ، وخاصة فيما يتصل بالمزارعين منهم .

٢٦٠- اضمحلال المدن خلال العصر القوطى

وقد أصاب المدن فى الدولة الرومانية كلها اضمحلال عام ، حتى ليذهب بعض الباحثين الى أنها أخذت تتلاشى ابتداء من القرن الرابع الميلادى، نتيجة لغارات الجرمان واضطراب أمور الدولة وضياع الأمن ، وقد تحول بعضها الى قرى أو حصون ، واختفى بعضها الآخر تماما ، وتحول غرب أوربا كله الى عالم زراعى قروى ، وانحطت فيه كل الظواهر المتصلة بالمدن كالتجارة والصناعة المنظمتين ، وتحول المجتمع الأوربى الى مجتمع زراعى ، وهى الصفة الغالبة التى يوصف بها المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى المبكرة .

ولما كان العرب قد دخلوا اسبانيا أوائل القرن الثامن الميلادى ، أى فى الوقت الذى كانت المدن تتلاشى فيه فى بقية غرب أوربا ، فقد وجدوا فيها كثيرا من المدن باقية فى حالة اضمحلال شديد . وذكرها قليل فى النصوص على أى حال ، وتذكرها النصوص أيام القوط بالتسميات الثلاث التى كان الرومان يستعملونها : - (Civitas, Civitates - Oppidum, Oppida - Urbs, Urbis) دون تفريق بين أنواعها أو أهميتها ؛ والثابت أنهم كانوا يطلقون هذه التسمية على كل موضع مأهول مسور ، وكان لها نظام خاص لحكومتها هو نظام المشيخة (الكوريا) الذى أشرنا اليه . وتذكر النصوص أيضا قرى كبيرة غير مسورة وتسميها (Vicos) ، وتذكر القلاع (Castillos) ، ولم تكن مجرد قلاع بل كان يعيش الناس فيها وحولها ، وتذكر الپاجى (Pagi) — مفردها پاجوس — ويراد بها الدوار الريفى ، أما المدينة المحصنة القائمة على

مرتفع من الأرض فتسمى (Castrum) ، وتذكر المراجع البرج (Burgos) وهى معسكرات القوط التى تحولت الى مدن أو قرى كبيرة ، والڤيلا (Villa) وهى الدوار يقيمه المالك الكبير وسط أرضه ، ثم يتحول الى قرية وربما مدينة وربما سورت وحصنت . وهذه المواضع كلها سيسميها العرب مدنا دون تمييز أول الأمر ، ثم يميزون بعضها عن بعض بمرور الزمن .

٢٦١- الكنيسة تحتفظ بالتقسيم الرومانى

واذا كانت أحوال الدولة الرومانية فى عصورها المتأخرة قد أدت الى اضمحلال المدن واختفائها شيئا فشيئا ، فان الكنيسة احتفظت بالهيكل العام للتنظيم الرومانى القديم، فجعلت المديريات على تقسيم دقلديانوس وقسطنطين مديريات كنسية (Provinciae Ecclesiasticae) يمتد سلطان مطران كل منها على جميع النواحى التى كانت داخلة فيها فى التقسيم الرومانى ، وجعلت المدن الكبيرة الواقعة فى الولاية ديقونيات (Diocesi) يتولى كل منها أسقف (Episcopus) ، وجعلت الأقاليم التابعة لكل مدينة من هذه أبرشيات (Parrochiae) يتولى كلا منها برشبطر (Presbiterus) يعينه الأسقف ويناوله كتاب الصلوات (Liber Officialis) وهو شارة التعيين . وقد أحكمت الكنيسة هذا التنظيم واحتفظت به قائما ، وان تعارض مع الواقع [1] ، فقد تضاءلت مدن كانت كبيرة فى العصر الرومانى ولم تصبح غير قرى ، ومع ذلك ظل لأهلها الحق فى أن يكون لهم أسقف ، وتلاشت مدن أبرشية تماما ، ومع ذلك كان لها برشبطر يمثلها ويتحدث باسمها ، وأصبح هذا التقسيم النظرى هو التقسيم

(١) ANTONIO BALLESTEROS, *op. cit.* I p. 930.

الادارى فى نظر الناس . ولم يحدث هذا فى اسبانيا وحدها بل فى كافة بلاد الامبراطورية الغربية ، التى دخلت شيئا فشيئا تحت سلطان كنيسة روما . وظل هذا الوضع قائما حتى أقبل العرب وقضوا على القوط واتصلوا بالناس رأسا ليستعينوا بهم على تنظيم البلاد ، وأخذوا عنهم هذا النظام وأعطوه صفة ادارية مع تعديلات اقتضتها ظروف الدولة العربية الاسلامية .

وهذه الظروف تتلخص فى أن مركز الثقل فى الأندلس الاسلامى كان فى الجنوب ، فى حوض الوادى الكبير وجنوبه بصورة خاصة وما يوازى حوض هذا النهر فى شرق الأندلس وغربه ، فتزاحم الناس هناك وتزايد العمران وأزهرت المدن القائمة ، ونمت قرى وتمدنت وأصبحت مدنا مما اقتضى انشاء كور جديدة صغيرة حول المدن التى كبرت وعظم شأنها . فبينما كان مركز الثقل أيام الرومان فى الشمال الشرقى حول طركونة ونربونة (ولم تنشأ ولايات باطقة وجليقية ولشدانية وما اليها الا فيما بعد) ، وبينما كان مركز الثقل أيام القوط هو الوسط حول طليطلة ، نجد أن اهتمام العرب انصرف معظمه الى الجنوب .

٢٦٢ – الاتجاه العربى فى التقسيم الإدارى

وكان الاتجاه الادارى فى الأندلس الاسلامى يميل نحو الأقسام الادارية الصغيرة تيسيرا لضبط الأمن وربط المال، بل يبدو أن ذلك هو الاتجاه فى الادارة الاسلامية عامة ، فحوض الدجلة والفرات مثلا كان يضم ما لا يقل عن خمس عشرة كورة ، ولا يشذ عن ذلك الا الشام ، فقد قسم الى مناطق عسكرية كبيرة تسمى « الأجناد » كما قلنا .

ثم ان النظم الادارية الاسلامية كانت لا تميل الى تجزئة الوحدات

الادارية الى أجزاء والأجزاء الى أجزاء أصغر كما رأينا فى النظام الرومانى والنظام الكنسى الذى قام على أساسه . فاكتفى المسلمون بالكور ، كل كورة تتبعها مدن وكل مدينة تتبعها أقاليمها أو زماماتها ، وقد أدى ذلك الى تبسيط السلم الادارى ، فالادارة المركزية يتبعها عمال الكور ، وعمال الكور يتبعهم عمال المدن وهم المسئولون عن زمامات المـدن أو أقاليمها ، وجرت العادة أن يعين عامل المدينة عاملا خاصا بالمدينة نفسها يسمى صاحب المدينة . ومن هنا فقد كان عدد الموظفين فى الادارة الاسلامية لا يبلغ خمس عددهم فى الادارة الرومانية ، وخاصة منذ أيام دقلديانوس الذى زحم الادارات بالموظفين وجعلهم طبقات بعضها فوق بعض ، فثقل عبؤهم على الخزانة من ناحية واتسع المجال لأكل أموال الدولة من ناحية أخرى .

٢٦٣ – الأجناد

وقد عرف الأندلس الاسلامى نظام الأجنـاد أو الكور المجندة . وقد أخذ العرب هـذا النظام عن البيزنطيين ، والمراد بها ولايات عسكرية ينزلها « جند » والجنـد خمس فرق من المحاربين ، وهى تقابل (Tema) فى التنظيم البيزنطى ، ويسميها العرب البند والجميع بنود ، وهى تقابل الثغور ويحكمها قائد عسكرى . وكان الجند أول الأمر تنزله قبيلة واحدة أو عدة قبائل متحالفة . ويكون لها خراج الناحية فى مقابل تقديمها لجند كامل أى خمس فرق من المحاربين. ولم يعرف نظام الأجناد الا فى الشام ، اذ قسمها المسلمون الى أجناد خمسة هى : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين (وتبعتها أول الأمر بلاد الجزيرة) . وقد كان نظام الأجناد من أوكد أسباب قوة الدولة الأموية ، اذ ضمن لها المحاربين [1] . ومن الشام انتقل نظام الأجناد

(١) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجى ، ج ١ ، ص ٣٨ .

الى الأندلس على أيام أبي الخطار الحسام بن ضرار سنة ١٢٥/ ٧٤٣ مع اختـلاف واحد، هـو أن الجند في الشـام كـان يضم كـورا كثيـرة أمـا في الأنـدلس فكان يقـابل كـورة واحدة. ومن هنـا يغلب على الظن أن أجنـاد الأندلس كان عليها أن تقدم أعـداداً من الجند أقـل من خمس فرق. وقـد ظلت هـذه الأجناد عصبـاً من أعصاب القـوة العسكريـة الأنـدلسيـة الى منتصف حكومة عبد الرحمن الناصر على الأقـل. ولدينـا من عهد الأمـير محمد بيان بأعداد من كانت بعض النواحي تقدمه من الفـرسان الى جيش الدولة. واذا نظرنا الى هذا البيان تبينا أهمية نظام الأجناد بالنسبة للقـوة العسكرية للامارة الأموية الأندلسية:

كورة البيرة	٢٩٠٠ فارس	جيـان	٢٢٠٠ فارس
كورة قـبرة	١٢٠٠ »	باغـة	٩٠٠ »
كورة تاكرنا	٢٩٩ »	الجزيرة	٢٩٠ »
كورة استجة	١٢٠٠ »	قرمونة	١٨٥ »
كورة شذونة	٦٧٩٠ »	ريه	٣٦٠٠ »
كورة فحص البلوط	٤٠٠ »	مورور	١٤٠٠ »
كورة تدمير	١٥٦ »	ربينـة	١٠٦ »
قلعـة رباح وأوريط	٣٨٧ » [1]		

وهذا البيان ناقص ، والكور المخطوط تحتها هى من الكور المجندة، ويلاحظ بوضوح أن أربعا من الكور المجندة كانت تقدم من الفرسان أضعاف ما تقدمه عشر كور غير مجندة . وذلك يعطينا فكرة عن الأهمية

(١) ابن حيان ، برواية ابن عذارى : البيان المغرب ، طبعة پروفنسال وكولان (لايدن ١٩٥١) ج ٢ ، ص ١٠٨–١٠٩ .

العسكرية لنظام الأجناد . ولم يبين لنا أحد من المؤرخين النظام المالى الخاص بالأجناد فى الشام والأندلس ، ولكننا نستنتج ذلك من البيان المقارن الذى أوردناه ، اذ لا يفسر أن كورة شذونة تقـدم أضعاف ما تقدمه كورة أكبر منها وهى تدمير الا بأن هذه الكور كانت تقدم فرسـانا بدلا من الضرائب ؛ ويؤيد ذلك قول المؤرخين ان الشاميين الذين نزلوا هذه الكور «كان انزالهم على أموال العجم من خير ونعم»[1]، أى فى مقابل تملكهم لجزء معين من أملاك العجم ونعمهم ، ويؤيده أيضا أن عرب الكور المجندة بالذات هم الذين قاموا بالثورة الكبيرة التى شغلت عصرى محمد وعبد الله وجزءا من عصر الناصر ، وأسبابها ترجع الى تمسك العرب النازلين بهذه النواحى بما كان لهم من حق التملك والاستقلال بنواحيهم ثم ميلهم الى عسف من كان يسكنها من أهـل البلاد ، ونفور هؤلاء لمحاربتهم ، ورفض أولئك العرب لطاعة الامارة القرطبية اعتزازا منهم بما كانوا فيه من استقلال بنواحيهم وما اجتمع

(١) ابن عذارى : البيان المغرب (نفس الطبعة) ص ٣٣ . وقد نقل لنا ابن الخطيب كلام ابن حيان فى هذه المناسبة ، فقال إن الذى أشار على أبى الخطار بذلك كان أرطباس ، أشار عليه «بتفريق القبائل الشآميين الغالبين على البلد من دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزالهم بالكور ، على مثل منازلهم التى كانت فى كور شامهم ، ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة إلبيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجه ، وبعضهم بكورة تدمير ، فهذه منازل العرب الشآميين ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة ، وبقى العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم ...» — الإحاطة ، طبعة محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ، ص ١٠٩ .

ويلاحظ أن هذه هى أول مرة تنزل الدولة الإسلامية فيها عرباً على أموال العجم من رعاياها وتعطيهم الحق فى تملك ثلث أملاك هؤلاء الأخيرين . وفى النسختين المخطوطتين اللتين نشر عنهما الأستاذ عنان «ثلثا أموال أهل الذمة» ، وقد استبعد الناشر هذه الصورة وأثبت «ثلث» من عنده ، ونظن أن الثلثين أصح لأنها تقابل أنصبة القوط من الأرض (Sors-Sortes) على ما ذكرناه ، ثم إن صاحب الرأى فى إنزال هؤلاء الشآميين على أموال العجم قوطى هو أرطباس . وسنعود للكلام على هذه الناحية عند الحديث عن الناحية المالية .

لهم من الثروة نتيجة لذلك الاستقلال . ومن طريف ما يلاحظ أن ثورات العرب ووثباتهم بالدولة فى الأندلس وغـيره كانت تقعَ فى كثير من الأحيان نتيجة للرخاء والثروة وشعور العرب بقوتهم ، ونزوعهم الى التخلص من السلطان . وهذا سبب من أسباب الثورات فات بيكون أن يذكره ضمن ماذكر من أسباب الثورات .

ولسنا نجد فيما بين أيدينا من نصوص التاريخ اشارة واحدة الى قيام واحد من الولاة أو الأمراء أو الخلفاء بتكوير الأندلس ، أو تقسيمه الى أقسام ادارية ، حتى أحمد بن محمد الرازى صاحب أول وأوفى تاريخ للأندلس لم يشر الى ذلك . ونحن نجد الأندلس فى كلامه مقسما تقسيما اداريا ثابتا منذ زمن طويل . فهو يذكر ما يذكر من الكور على اعتبار أنها أشياء معروفة . أما فى جغرافيته فهو يعطينا بيانا كاملا لايضم اشارة واحدة الى تغيير أو تعديل . والاستنتاج البسيط من ذلك هو أن أحدا من المسلمين لم يضع هذا النظام وانما وجدوا تقسيما قائما فأخـذوه .

٢٦٤ – المقدسى والتنظيم الإدارى للأندلس

ولم يتحدث من الجغرافيين المشرقيين عن تقسيم الأندلس الى كور الا المقـدسى فى « أحسن التقاسـيم » ، أما الاصطخرى وابن حوقل فكلامهما عام غير دقيق ولا يمكن التعويل عليه فى هذا المطلب . فاذا نظرنا فى كلام المقدسى بشىء من التدقيق وجدناه حافلا بالمشاكل ، وخاصة اذا قارناه بكلام الرازى ، والمصطلح الذى يستعمله مضطرب ، ولا غرابة فى ذلك ، فهو رجل مشرقى على علم تام بأقاليم المشرق ، وخاصة خراسان وهيطل ، وهو يحاول أن يطبق على الأندلس ما وجد من القواعد هناك ، فشاب

كلامه لبس شديد . ولكننا لا نستطيع الا أن نضعه موضع الاعتبار ، نظرا لقلة ما لدينا من المعلومات عن هذا الموضوع .

يجعل المقدسى قرطبة كورة كبيرة ، ويسمى أقاليمها الرساتيق ، ويقول فى رواية المعلومات التى أخـذها عن « بعض الأندلسيين » : « قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا . قلت : فاشبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال : هذه نواح لها أقاليم، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة ، وهم يسمون الرسـتاق اقليما ، فعلمت أنها كور على قياسنا ، وأنها ان لم تكن أجل من كور هيطل ، فليست بأقل منها . فيحصل القول وأثبت الدلائل على أن مثل المغرب كمثل المشرق ، كل واحد منهما جانبان ، فكما أن المشرق خراسان وهيطل يفصل بينهما جيحون ، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم . غير أنا نعجز عن تكوير الأندلس ، فتركناها على الجملة ؛ ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها واتضح عنـدنا أمرها . وعرضت كتابى على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ثمانى عشرة كورة ، فعدّ : بجانة — مالقـة — بلنسية — تدمير — سرقوسة (كذا وصحتها سرقسطة) — يابسة (كذا ، وربما كانت صحتها بياسة) — وادى الحجارة — تطيلة — وشقة — مدينة سالم — طليطلة — اشبيلية — بطليوث — باجه — قرطبة — الجزيرة الخضراء . وسألت آخر ، فقال : صدق ، وزاد لبيرة — خشنبة . ويجوز أن يكون بعض هذه البلدان نواحى قياسا على ايلاق وكَش والصَّغانيان ، والله أعلم بالصواب »[1] .

(١) شمس الدين المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، (طبعة دى خويه) لايدن ١٩٠٦ ، ص ٢٣٤–٢٣٥ .

ولو عددنا الكور التى يذكرها لوجدناها ١٧ لا ١٨ ، فاذا أضفنا اليها الاثنتين اللتين يذكرهما بعد ذلك كان الحاصل ١٩ كورة ، ثم انه يذكر كورا مثل سرقوسة ويابسة ، ليست من كور الأندلس ، ونظن آنه ينبغى تصحيح الأولى الى سرقسطة والثانية الى بياسة . ومعلوماته كلها فى هذا الصدد غير دقيقة ، وعذره واضح . ولكن له عبارة تستوقف النظر لعظيم دلالتها ، وذلك حيث يقول : « وأما الأندلس ، فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أننا لانقف على نواحيها فنكورها ، ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال انها ألف ميل »[1] ، وموضع الغرابة فى هذه العبارة أن الاصطخرى كتبها بينما كان كتاب الرازى فى جغرافية الأندلس ذائعا بين الناس منذ أمد طويل . ومن عجب أن مثل الأصطخرى — على تدقيقه وسعة اطلاعه — لا يستأنس بمثل هذا المرجع . وهذا القول يصدق كذلك على ابن حوقل ، واذا كنا نستنتج من ذلك شيئا ، فهو أن كتاب الرازى لم يكن متداولا بالصورة التى نتصورها الى نهاية القرن الرابع الهجرى ، أما بعد ذلك فقد كان المرجع الأول لمن كتب فى صفة الأندلس .

ويذهب المقدسى الى أن الكورة فى الأندلس تعادل الرستاق والاقليم فى المشرق ، وعبارته هنا مضطربة لا نستطيع الاعتماد عليها ، فهو يقول: « وهم يسمون الرستاق اقليما ، فعلمت أنها كور على قياسنا » ، ثم انه يقول : « قلت : وهل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا »، ونخلص من ذلك بأن المقدسى يرى أن الأندلس تنقسم الى كور ، والكور تنقسم الى رساتيق ، أى أقاليم ، وهذا ينطبق على تعريف ياقوت الحموى للكورة وللرستاق[2] .

(١) نفس المصدر ، ص ٢٢٢ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، (طبعة الخانجى) ، ج ١ ، ص ٢٦-٢٨ .

والغالب على الجغرافيين المسلمين فيما يتصل بالأندلس أن يكتفوا بذكر المدن كناية عن الكور التى هى قواعدها ، فيقولون مثلا : جيان وماردة ويريدون كورتى جيان وماردة . وقد وقعوا بسبب ذلك فى أخطاء واضحة ، لأن الكورة فى الأندلس كانت تضم أكثر من مدينة كبيرة ، وليست كل مدينة كورة ، وانما جاء الخطأ من أن المدن فى الأندلس كانت لها أحواز تابعة لها ، وهى التى سميت أقاليم ، فنظر الجغرافيون فوجدوا مدنا لها أقاليم ، فحسبوا أن كل مدينة كورة .

٢٦٥ — نصوص جديدة

وبين أيدينا الآن ثلاثة نصوص جديدة غاية فى الأهمية بالنسبة لموضوعنا : الأول أصل كامل للترجمة البرتغالية لجغرافية اسبانيا للرازى ، والثانى مختصر لجغرافية الرازى وضعه ابن غالب وضمنه كتابه « فرحة الأنفس » ، والثالث قطعة صالحة من جغرافية أحمد بن عمر بن أنس العذرى للأندلس .

٢٦٦ — ترجمة كاملة لجغرافية الرازى

فأما الترجمة البرتغالية لنص جغرافية أحمد بن محمد الرازى فهى أكمل ما لدينا من النصوص المترجمة لهذه الجغرافية التى ضاع أصلها العربى ، وقد عثر عليها الأستاذ البرتغالى لويس لندلى سِنترا ضمن نسخة كاملة من ترجمة برتغالية كاملة لتاريخ اسبانيا العام الذى صنفه الملك العالم ألفونسو العاشر ، وترجم القطعة الجغرافية الى الفرنسية الأستاذ ليفى پروڤنسال ونشرها فى مجلة الأندلس ، وقدم لها بمقدمة قال فيها ان هذه النسخة أكمل من كل ما لدينا من ترجمات جغرافية الرازى ، وذكر كيف آن هذه الجغرافية — فى صورتها العربية — هى الأصل الذى نقله عدد عظيم من الجغرافيين وأولهم فى المغرب أبو عبيد البكرى وابن عبد المنعم الحميرى ، وفى المشرق القزوينى . وقال ان هذا النص يدل على آن الناقلين عن الرازى

قد أفسدوا هيكل جغرافيته بما أدخلوه من معلومات جغرافية ، ظنوا أنها تضيف شيئا ، واستطرادات تاريخية ضيعت الكثير من نظام الأصل وتناسقه(١)

٢٦٧ – تعليق منتق من « فرحة الأنفس » لابن غالب

وأما قطعة محمد بن أيوب بن غالب فقد نشرها الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، وهى ليست نص ابن غالب بل « تعليقا منتقى » منه كما يدل على ذلك العنوان . ولكننا ما نكاد نطالعه حتى تتبين أن ابن غالب قد نقل جغرافية الرازى نقلا حرفيا فى معظم المواضع ، وأفسد هذا النقل هنا وهناك باختصارات أخلت بالسياق واضافات من عنده . غير أننا نستطيع بمقابلة النص المترجم لجغرافية الرازى بهذا النص أن نستخرج جغرافية الرازى كاملة مع الاستعانة بالفقرات التى نقلها عنه البكرى وابن سعيد والمقرى وابن الخطيب وغيرهم . وقد كونا نحن هـذا النص الكامل للاستعانة به فى هذا الفصل عن تقسيم الأندلس الادارى . وسنرى فى الفصل التالى أن الرازى اعتمـد فى تصنيف جغرافيته على صفة للأندلس صنعها المؤرخ اللاتينى الاسبانى باولوس أوروزيوس المعروف عند العرب بهروشيش (٢) .

---

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *La description de l'Espagne d'Ahmad al-Razi.* al-Andalus, vol. xviii 1953, fasc. I pp. 51 sqq.

وهى ترجمة فرنسية للنص الذى نشره لويس لندلى سنترا .

Crònica Geral de Espanha de 1344, edicào critica de texto português por LUIS F. LINDLEY CINTRA. II, Lisboa 1952 (Academia Portuguesa de Historia)

ونص جغرافية الرازى يقع فى صفحات ٣٩–٧٥ من هذه الطبعة .

(٢) الدكتور لطفى عبد البديع : نص أندلسى جديد : قطعة من كتاب «فرحة الأنفس» لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة . وعنوان القطعة : تعليق منتق من [فرحة] =

٢٦٨ – قطعة من جغرافية العذرى

والقطعة الثالثة نص فريد فى بابه لأحمد بن أنس العذرى فى جغرافيــة الأندلس ، عثر عليه الدكتور عبد العــزيز الأهوانى وتفضل فأذن لنا فى الاستفادة منه . ومن أسف أن النص ناقص ، فهـو لا يتناول الا بضـع نواح من الأندلس ، ولكنه تناولها تناولا شاملا عظيم القيمة بالنسبة لموضوعنا(١) .

واذا نحن درسنا المعلومات التى تتضمنها هذه الأصول الثلاثة على ضوء البيانات القيمة التى يقدمها لنا ياقوت فى مقدمة « معجم البلدان » وفى تضاعيف مواده الخاصة بالأندلس خرجنا بنتائج ايجابية تمكننا من تصور التقسيم الادارى للأندلس الاسلامى تصورا لا يبعد عن الحقيقة كثيرا . وأول ما يستوقف نظرنا أن الأندلس كان له من أول الأمر نظام خاص يختلف كثيرا عن النظم التى جرى عليها العمل فى الدولة الاسلامية . واذا كان المسلمون قد جروا فى التقسيم على أساس الكورة والرستاق فى بلاد الجزيرة وما يليها شرقا ، ونظام الكورة فقط فيما يتصل بمصر ، ونظام الأجناد فيما يتصل بالشام ، فان الأندلس لم يعرف هذه التقسيمات المشرقية الا فى صورة معدلة تتفق مع ظروفه الخاصة ، بل هو لم يعرف

= الأنفس فى تاريخ الأندلس ، للحافظ محمد بن أيوب بن غالب الأندلسى ، مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد ١ ، جزء ٢ (القاهرة نوفمبر ١٩٥٥) ، ص ٢٧٢ وما يليها .

(١) عثرت على ترجمة العذرى واسم كتابه عند ياقوت ، فقد قال فى مادة المرية : « وينسب إليهـا أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى ، ويعرف بالدلائى المرى . رحل إلى مكة ، وسمع من أبى العباس أحمد بن الحسين الرازى وطبقته ، وبمصر جماعة أخرى . وهو مكثر ، سمع منه الحميرى وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم ، وكانا شيخيه ، سمع منهما ، وكان قديما كلما رجع من المشرق سمعا منه . وله تآليف حسان ، منها «كتاب أعلام النبوة» وكتابه المسمى «نظام المرجان فى المسالك والممالك» . ومولده فى ذى القعدة سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية » .

ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجى ، ج ٨ ، ص ٤٣ .

نظام الرساتيق أصلا ، وكان تطبيق نظام الأجناد فيه تطبيقا محدودا من حيث المساحة التى طبق عليها ومن حيث طبيعته ذاتها كما رأينا .

ونبدأ فنلاحظ أن الترجمات التى لدينا لجغرافية الرازى تقسمها الى أقسام تسميها (Distritos) أو (Districts) وهى لفظة يجعلها ليفى بروفنسال معادلة للفظ كورة . فاذا قارنا ذلك بنص ابن غالب ، لاحظنا أن هذا الأخير يذكر نوعين من الأقسام الادارية : الكورة والمدينة ، ولكى نستطيع تبين المراد بهذين المصطلحين والفرق بينهما نذكر ما يورده من الكور والمدن :

الكور : قبرة — البيرة — جيان — تدمير — بلنسية — ماردة — باجه — لبلة — قرمونة — اشبيلية — مورور — شذونة — الجزيرة الخضراء — ريه — استجة .

المدن : طرطوشة — طركونة — لاردة — بريطانية — أشقة — تطيلة — سرقسطة — مدينة سالم — شنتبرية — طليطلة — قلعة رباح — أوريط — فريش — شنترين — أشبونة — أكشونبة — قرطمة — حصن بيشتر .

وهذا بخلاف قرطبة ، وكان لها وضع خاص سنتحدث عنه .

ونلاحظ أن صاحب « التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » قد وقع فى أخطاء فى عملية التلخيص ، فقد ذكر مثلا « لبلة » تحت اسم حصون لبلة ، والحقيقة كما يتبين من « ياقوت » أن لبلة كورة ، وكذلك جعل « قرطمة » مدينة قائمة بذاتها مع أنها عند الرازى وياقوت مدينة من مدن كورة رية . ويلاحظ أيضا أن « الانتقاء » من « فرحة الأنفس » عمد الى اختصار مخل فى بعض الأحيان ، فقد روى ياقوت عن ابن غالب

نفسه قطعا كبيرة هامة ساقطة من التعليق الذى بين أيدينا . وسنشير فى بعض تعليقاتنا الى أخطاء أخرى وقع فيها صاحب التعليق .

أما النص المترجم لجغرافية الرازى ، فواضح أن المترجمين أدخلوا يدهم فيه ، فأضافوا أشياء جديدة لايمكن أن تكون عند الرازى ، وفى بعض الأحيان تكون الاضافة خفية يعسر تبينها ، وفى أحيان أخرى تكون واضحة يلحظها القارىء وهو يتصفح ، ومن ذلك اضافة كورة باسم اشتانيا (Exitania) بين قلمرية ولشبونة ، وجعله بطليوس كورة ، وكذلك باروشة ورقوبل (Racupel) وسرتة (Zorita) . وواضح أن الذين قاموا بالترجمة لألفونسو العاشر حاولوا تعديل تقسيم اسبانيا على الصورة التى كانت عليها أيام هذا الملك . ومن هنا فان ذلك النص قد يفيد الذين يدرسون نظم اسبانيا النصرانية فى القرن الثانى عشر الميلادى فائدة لا يجدونها فى أصل آخر . وستظهر هذه الاضافات كلها فى جغرافية الادريسى ، مما يدل على أن هذه الترجمة المحرفة كانت بين يديه وهو يؤلف كتابه .

* * *

وبعد ذلك نسأل : ما السر فى التقسيم الى مدن وكور ؟

٢٦٩ — التقسيم إلى مدن وكور

اذا نظرنا الى « المدن » وجدناها تشبه الكور الى حد بعيد ، فكل مدينة منها حوز واسع فيه أقاليم ومدن أخرى وقرى ، فمدينة طرطوشة « لها حصون كثيرة وأقاليم واسعة »[1] ، ومدينة لاردة « لها حصون كثيرة »[2] ، ومدينة بريطانية لها احواز

(١) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٨٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

ومدن ، « فمن مدنها بيشتر وهى من أمهات مــدن الثغر » ، « ولها حصون كثيرة » (١) ، وكذلك مدينة وشقة ، ومدينة تطيلة لها مدائن كبيرة مثـل طرسونة وأرنيط وفارة وناجره (٢) ، ومدينــة فريش « لها من الأقاليم اقليم لواته واقليم المرج واقليم السند واقليم قسطانية واقليم موالى موسى »(٣) ، وهكذا . بل ان « ياقوت » يتحدث عن لاردة كما لو كانت كورة ، فيقول : « ينسب الى كورتها عدة مدن وحصون ، تذكر فى مواضعها » (٤) ، ويقول ان فريش « لها رستاق يكون فيه قرى » (٥) ، وهو يتحدث عن شلون ويقول : « ناحية بالأندلس من نواحى سرقسطة نهرها يسقى أربعين ميلا طولا » (٦) ، والناحية هنا هى الاقليم ، لأنه يقول ان أهل الأندلس « يسمون الناحية اقليما » ، أى أن ناحية واحدة من نواحى مدينة سرقسطة تبلغ ٤٠ ميلا طولا ، وهو يذكر أوقانية (Ocaña) ويقول : « جبل من أعمال طليطلة بالأندلس من ناحية القاسم فيه قرى وحصون » (٧) ، ويذكر أشقة ويقول : « مدينة بالأندلس متصلة الأعمال بأعمال بريطانية » (٨) . وعندما يتحدث عن طرطوشة يقول . « مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية ، ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد فى جملتها » (٩) . ويقول عن مدينة قلعة أيوب :

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨٩–٢٩٠ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج٧ ، ص ٣١٣ .

(٥) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٣٧٤ .

(٦) ياقوت ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ .

(٧) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ .

(٨) ياقوت ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٩) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٤٢ .

« مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر .. من أعمال سرقسطة ، ولها عدة حصون »(١) ، ويقول عن قلهرة : «مدينة من أعمال تطيلة فى شرق الأندلس » ، أى أن مدينة تطيلة تتبعها مدينة أخرى هى قلهرة (٢). ويقول عن بقيرة (Viguera) : « مدينة فى شرق الأندلس معــدودة من أعمال تطيلة ، بينهما أحد عشر فرسخا » (٣) .

ويفهم من ذلك كله أن هناك أقساما ادارية تسمى مدنا أو تنسب الى مدن ، أقسام واسعة لها أحواز فسيحة فيها مــدن كبيرة وقرى وحصون . وهذا شيء لاشبه له فى المشرق . فان المدينة هناك مدينــة ولا زيادة ، لها خطتها وأرباضها ، وهى بدورها تتبع الكورة التى تقع فيها . أى أن نظام المدن كأقسام ادارية لم يعرف الا فى الأندلس .

فاذا نظرنا الى هذا النوع من المدن وجدناه كله فى الثغور الشمالية والغربية . كلها تقع فى حوض نهر ابره ، وما بين ابره وتاجه ، وفى حوض تاجه ، ثم ما بين المجرى الأدنى للوادى آنه وساحل المحيط ، فيما عدا فريش ، وسنتحدث عنها فيما بعد ، أى أنها كانت النواحى الثغرية ، السياج الذى يحمى الأندلس الاسلامى . وهــذا السياج يبدأ عند طرطوشة فى الشرق ثم طركونة فلاردة — بريطانية ، وشقة ، تطيلة — سرقسطة — مدينــة سالم — شنتبرية — طليطلة وقلعــة رباح — شنترين — أشبونة — أكشونبة .

وهناك ثلاث من هذه المدن تستوقف انتباهنا بصورة خاصة ، هى

---

(١) ياقوت ، ج ٧ ، ص ١٤٨–١٤٩ .

(٢) ياقوت ، ج ٧ ، ص ١٥٤ .

(٣) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

قرطبة وطليطلة وسرقسطة . فأما قرطبة فلا تذكر النصوص انها كورة ، بل مدينة تتبعها أقاليم ومدن أخرى ، بل ان ابن عبد المنعم الحميرى يقول عن قرطبة : « وهى فى ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات »(١) ، وليس فى تخطيط قرطبة كما نعرفه ما يؤيد أنها كانت تحيط بها خمسة أسوار ، وانما الذى يفهم من ذلك أنها كانت مدينة ذات حوز واسع فيه خمس مدن تتبعها ، ويفسر ذلك قول المقدسى فى « أحسن التقاسيم » : « وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة والمنسوبة اليها والمدن ، فقال : انا نسمى الرستاق اقليما ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قنبانش ، فج ابن لقيط .. الخ »(١). أى أن المراد بمدن قرطبة أقاليمها ، وسنعود الى هذه العبارة بعد قليل. بل يبدو أن ابن عبد المنعم الحميرى اختلط عليه أمر أبواب قرطبة فحسبها أسوارا ، فقد ذكر المقدسى أن « للمدينة خمسة أبواب : باب الحديد ، باب العطارين ، باب القنطرة ، باب اليهود ، باب عامر » . وليس لدينا فى أى مرجع ذكر لكورة تسمى كورة قرطبة ، مما يفهم منه أنها كانت « مدينة » على النظام الأندلسى الذى ذكرناه .

وينطبق ذلك أيضا على سرقسطة وطليطلة ، فهما اما تذكران دون صفة معينة ، أو يقال « مدينة » . ومع ذلك فقد كانت كل منهما ذات « ولاية واسعة » تتبعها مدن وحصون وقرى ، فسرقسطة « لها مدن

(١) ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٥٣ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٢ .

ومعاقل ، منها مدينة قلعة أيوب ، عظيمة جليلة القدر ، ولها من الأقاليم عدة »(١) . وكذلك طليطلة فهى « من أجل المدن قدرا وأعظمها خطرا وأشدها حصانة .. ولها من الأقاليم اقليم شاقرة وفيه حصون عدة ، ثم اقليم شِشِنلة ، ومدينة وقش ، ثم اقليم الاشبورة واقليم القاسم وغير ذلك »(٢) . وابن عبد المنعم الحميرى يذكر طليطلة على أنها مدينة ، ويقول : « ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة ، وعلى بعد منها فى جهة الشمال الجبل المعروف بالشارات »(٣) ، وياقوت يقول : « طليطلة مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادى الحجارة من أعمال الأندلس ، وهى غربى ثغر الروم وبين الجوف والشرق »(٤) .

وأما فريش ، فهى درع قرطبة ، فهى بأقاليمها الواسعة تقوم الى الشمال الغربى من العاصمة ، وتمتد أقاليمها شمالها وشمال شرقيها ، وهذه الأقاليم كثيرة يذكر منها ابن غالب خمسة ، هى « اقليم لواته واقليم المرج واقليم السَّنَد واقليم قسطانية واقليم موالى موسى »(٥) ، فهى اذن فى عداد الثغور ، ولهذا ظل حكمها حكم الثغور ، واعتبرت مدينة .

واذا تذكرنا قسمة قسطنطين التى حدَّت الأندلس حدودا ستة هى : نربونة وجليقية وطركونة وطليطلة وماردة واشبيلية ، والتى قام على

(١) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص ٢٨٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٨-٢٨٩ .

(٣) ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٣٢ .

(٤) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٥٦-٥٧ .

(٥) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص ٢٩٠ .

أساسها التقسيم الكنسى الى ست مطرانيات هى : جليقية وقاعدتها براقرة ، ولشدانية وقاعدتها ماردة ، وباطقة وقاعدتها اشبيلية ، وقرطاجنة وقاعدتها طليطلة ، وطركونة وقاعدتها طركونة ، وأربونة وقاعدتها أربونة لاحظنا أن اثنين من هذه الأقسام خرجا من أول الأمر عن نطاق الأندلس الاسلامى هما جليقية وأربونة ، فالباقية هى لشدانية وباطقة وقرطاجنة وطركونة ، واذا ذكرناها بقواعدها قلنا ماردة واشبيلية وطليطلة وطركونة، وقد استبدل المسلمون اشبيلية بقرطبة وطركونة بسرقسطة ، أى أن الباقية على هذا الأساس هى أقسام ماردة وقرطبة وطليطلة وسرقسطة . وهذا يفسر لنا بقاء الثلاث الأخيرات من هذه مدنا ، فقد كانت كل منها على أيام الرومان فالقوط قاعدة قسم ادارى كبير يعدل سدس البلاد ، أو قاعدة ولاية كبيرة تضم عددا من الديقونيات على النظام الرومانى حسب تقسيم دقلديانوس ، والديقونية ليست ولاية ، وانما هى مدينة لها حوز أو زمام ، وقد أصبحت هذه المدن تسمى دوقيات أوكونتيات على أيام القوط ، وعلى هذه الهيئة دخلت فى التنظيم الاسلامى ، فبقيت مدنا لها أحواز[١] .

* * *

والخلاصة أنه كانت هناك كور ومدن ذات أحواز واسعة حتى اشتبهت بالكور . وقد عبر عن ذلك ابن حوقل بقوله: « وفيها — أى فى الأندلس — مدن يزيد بعضها على بعض فى المحل والجباية والارتفاع والولاة والقضـاة والمخلّفين على رفع الأخبار ، ويقال لأحدهم مخلّف ، وليس بها مدينة غير معمورة ذات

٢٧٠ — المدينة كقسم إدارى

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, tome III (Paris, 1953) p. 48.

رستاق فسيح الى كورة ، فيها ضياع عِداد وأكَرة وسعة وماشية وسائمة وعدة وعتاد وكراع » [١] ، واذن فليس فى الأندلس — على قول ابن حوقل — الا مدينة ذات رستاق فسيح أو كورة ، وهذا هو الذى قلناه.

وهذا هو الذى حير الجغرافيين المشارقة فى أمر تقسيم الأندلس ، فالأصطخرى يقول : « والأندلس بلدان عريضة كثيرة المدن خصـبة واسعة ، ومدينتها العظمى تسمى قرطبة » [٢] ، ثم يمضى فى وصف الأندلس فلا يذكر غير المدن ويقول مثلا : « ثم الى بلاد مرسية على مدينة لقنت ، الى بلاد بلنسية » ، ثم يقول : « وهذه المدن التى ذكرناها على الشط كلها مدن كبار عامرة » ، ثم « ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليطلة ونفزة وسرقسطة ولاردة ووادى الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة ومورور واستجه وريه ، وكلها مدن عظام » [٣] ، ثم « ووادى الحجارة مدينة ، وهى وما حواليها من المدن والقرى تعرف بمدن بنى سالم » . وهو لا يذكر « الكورة » فى الأندلس الا فى ثلاث حالات : « وريه كورة عظيمة خصيبة ومدينتها أوجذونة ، ومنها كان عمر بن حفصون ، الذى خرج على بنى أمية بها ، وفحص البلوط كورة خصبة واسعة ، ومدينتها غافق ، وقورية مدينة كانت كبيرة الا أنها خربت بعصبية وقعت بينهم .. وماردة من أعظم مدن الأندلس وكذلك طليطلة..وشنترين كورة عظيمة ومدينتها قلمرية..» [٤]، أى أن الأمر مختلط عليه ، فمعظم الأندلس عنده مدن لها بلاد ، فيما

(١) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٣٨ ، ج ١ ، ص ١١٦

(٢) الأصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٤١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤١–٤٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

عدا ثلاث يجعلها كورا مع خلط واضح . هـذا مع علمنا باهتمـام الأصطخرى بالتقسيمات الادارية ، وذكره الكور والرساتيق بالتحديد فى كل ناحية يتحدث عنها (١) .

وموقف المقدسى ، وهو لا يقل عن الأصطخرى اهتماما بالتقسيمات الادارية ، لا يختلف عن موقف الأصطخرى ، فهو يقـول : « وأما الأندلس فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أنا لانقف على نواحيها فنكورها ، ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال انها ألف ميل ، وقال ابن خرداذبة : الأندلس أربعون مدينة ، يعنى المشهور منها ، لأن أحدا لم يسبقنا الى تفصيل الكور ووضع القصبات ، فبعض المدن التى ذكر قصبات على قياس ما رتبنا . وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة ، والمنسوبة اليها ، والمدن ، فقال : انا نسمى الرستاق اقليما ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قنبانش ، فج ابن لقيط ، بلاط مروان ، حصن بلكونة ، الشنيدة (السند ؟) ، وادى عبد الله ، فريش ، المائدة ، جيان ، وعلى ما دل آخر الاسم ، هى ناحية مدنها : الجعز ، بيغوا ، مارتش ، قانت (يريد لقنت) ، غرناتة ، منتيشة ، بياسة ، وسائر مدن الأندلس المذكورة : طرطوشة ، بلنسية ، مرسية ، بجانة ، مالقـة ، جزيرة جبل طارق ، شذونة ، اشبيلية ، أخشنبة ، مرية ، شنترين ، باجة ، لبلة ، قرمونة ، موذور ، استجة » (٢) ، وهذا كلام مختلط بعض الشىء ، ولكننا نخرج منه بما يلى :

(١) لاحظ مثلا دقته فى الكلام عن فارس وعنايته الشديدة بتقسيماتها الإدارية ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٣-٢٢٤ .

١ — أن ابن خرداذبة يقول ان الأندلس أربعون مدينة .

٢ — أن أحدا من الجغرافيين والكتاب لم يسبق المقدسى الى ذكر كور الأندلس وقصبات هذه الكور .

٣ — أن أهل الأندلس يسمون الرستاق اقليما .

٤ — أن أقاليم قرطبة ١٣ .

٥ — سائر مدن الأندلس المذكورة ١٦ ذكرها بأسمائها . وجعلها كلها مدنا ليس فيها كورة واحدة .

وللأصطخرى نص آخر طويل ملخصه ما يلى :

١ — أن لقرطبة ١٣ رستاقا هى :

أرجونة على ١٥ ميلا .

قسطلة على ١٣ ميلا من أرجونة .

شوذر على ١٨ ميلا من قرطبة .

مارتش على ١٥ ميلا من قرطبة .

قنبانش على ١٥ ميلا من قرطبة بموضع يقال له قنبانية .

مرج ابن لقيط على ٢٥ ميلا من قرطبة .

بلاط مروان على ٣٠ ميلا من قرطبة .

بثريانة

حصن بلكونة على ٤٠ ميلا من قرطبة .

الشنيدة (السند) على يومين من قرطبة ، المنزل فج ابن لقيط .

وادى عبد الله على ٤٠ ميلا من قرطبة ، المنزل وادى الرمان .

فريش على ٦٠ ميلا من قرطبة .

جيان على ٥٠ ميلا من قرطبة ، اسم الرستاق أولبة .

٢ — يعتبر الأصطخرى جيان كورة ، ويقول ان « بكورتها حر هو فى عداد نواحيها » . ومن رأينا أن «حر» ينبغى أن تقرأ : جزء .

ومدنها ، أى مدن جيان :

الجَعْز على ١٠ أميال من جيان.

بيغــوا .

مارتش فى قنبانية .

منتيشــة .

غرناطة ، على واد به مُنْيَة طوله ١٣ ميلا فيه للسلطان كل عجيبة .

بياســة .

٣ — ويقول : قلت : هل بقى لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا ، قلت : فاشبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان . قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة . وهم يسمون الرستاق اقليما ، فعلمت أنها كور على قياسنا .

٤ — عرض المقدسى كلامه على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ١٨ كورة ، فعد : بجانة — مالقة — بلنسية — تدمير — سرقسطة — يابسة ؟ — وادى الحجارة — تطيلة — وشقة — مدينة سالم — طليطلة — اشبيلية — بطليوث — باجة — قرطبة — شذونة — الجزيرة الخضراء .

وزاد آخر : لبيرة — خشنبة[1] .

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٤-٢٣٦ .

وغريب أن يخلط المقدسى هذا الخلط مع أنه كتب كتابه بعد الرازى بنحو قرن ، فان جغرافية الرازى كتبت حوالى سنة ٨٩٠ م . فى حين أن المقدسى كتب كتابه سنة ٩٨٥ . ومن الواضح أنه لم ينظر فيه واكتفى بالاعتماد على معلومات أخذها عن بعض الأندلسيين مشافهة ، وربما كانت لمعلوماته لهذا السبب أهمية خاصة .

والمهم لدينا أن أولئك الأندلسيين قالوا ان بلادهم أقاليم ، وأنهم يسمون الرستاق اقليما ، والمعروف أن الرستاق جزء من الكورة . وعندما أرادوا أن يطبقوا تقاسيم المشرق على الأندلس قالوا ان الأندلس يجب أن تكون على ذلك ١٣ كورة . ويهمنا فى كلامه ما نقله عن ابن خرداذبة أن الأندلس ٤٠ مدينة . وحقيقة قال ابن خرداذبة ذلك . وقد ألف ابن خرداذبة كتابه بين سنتى ٢٣٠و٢٣٤ (٨٤٤—٨٤٨) . وقال ذلك أيضا اليعقوبى الذى كتب بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، والهمدانى وقد كتب بعد اليعقوبى بثلاثين سنة . أما معاصره ابن رستة فحديثه عن الأندلس قليل القيمة[1] .

فاذا كان أوائل الجغرافيين — من أمثال ابن خرداذبة واليعقوبى والهمدانى وابن رستة — لا يشــيرون صراحة الى أن الأندلس كان مقسما الى كور ، وانما هو عندهم مقسم الى مــدن ، ولا يذكرون « الكورة » الا نادرا وعلى سبيل التجــوز لا التحديد ، واذا كان متأخروهم — كالأصطخرى وابن حوقل والمقــدسى — ينصون على

(١) Cf: JOSÉ ALEMANY BOLUFER, *La geografía de la Peninsula Iberica en los escritores árabes* (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX 1919 n. 3-4 pp. 119 sqq.

« المدن » نصا صريحا ، فلا تذكر الكورة عندهم الا على سبيل الشرح والتوضيح ، كما رأينا فى حالة المقدسى ، فان ذلك يدل على أن الأساس الأول الذى اتخذ لتقسيم الأندلس كان الأساس الرومانى والقوطى من بعده ، وهو نظام المدن ذات الحوز . فاذا قالوا مدينة تطيلة مثلا أرادوا بذلك « ولاية » واسعة منسوبة الى تطيلة . ولم نأت بلفظ « الولاية » هنا من عندنا ، بل انه مصطلح يستعمله الجغرافيون كقول ياقوت : « طرطوشة ، مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد فى جملتها »[1] . وقوله : « كَركِى ، اسم حصن من أعمال أوريط بالأندلس له ولاية وقرى »[2] . و « ولاية » هى الترجمة الاصطلاحية للفظ (Provincia) ، وقد سميت الديقونيات الرومانية ولايات دوقية (Provincia Ducado) ودوقية كونتية (Provincia Condado)[3] بحسب رتبة القائد الذى كان يتولاها ، لأن الأقسام الادارية كلها أصبحت وحدات عسكرية ، فقد كان القوط شعبا محاربا . وحل محلهم العرب ، وكانوا شعبا محاربا أيضا ، فمضوا على هذا النظام ، واعتبروا الأندلس كله مدنا لا كورا .

* * *

٢٧١ — ظهور مصطلح الكورة

أما مصطلح الكورة فلم يظهر الا بعد سنوات ، وظهر على سبيل التجوز لا على أنه مصطلح ادارى . وأول ما نسمع به فى سنة ١٣٥/٧٥٢ فى خبر تفريق أبى الخطار الحسام ابن ضرار الكلبى للشامية على ست كور مذكورة بأسمائها وهى :

(١) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٤٣ .

(٢) ياقوت ، ج ٧ ، ص ٢٤١ .

(٣) LÉVI-PROVENÇAL, *op. cit.* III, p. 48.

البيرة وريه وشذونة واشبيلية وجيان وباجة[1] . وتذكر أيضا تدمير ولكنها لم تكن اذ ذاك كورة ، وانما كانت ناحية معاهدة بيد صاحبها تدمير ، ولم تصبح كورة الا فى عهد عبد الرحمن الداخل .

ونلاحظ أن هذه الكور كلها فى الجنوب والجنوب الغربى ، وأنها كانت كورا مجندة على نظام أجناد الشام الخمسة ، ولم تكن أجناد الشام « كورا » ككور مصر مثلا ، بل كانت مناطق عسكرية كما قلنا . على أن لفظ الكورة يستعمل بعد ذلك ، فقد ذكر صاحب « الأخبار المجموعة » أن الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى ومن معهما « اجتمعوا على يوسف بأن تركوا كورة ريه ليحيى بن حريث »[2] .

ويبدو أن نظام الكور فيما يتصل بنواحى الجنوب عمم من أيام عبد الرحمن الداخل ، أما نواحى الثغور التى ذكرناها فقد ظلت مدنا ذات أحواز حتى نهاية أيام الخلافة .

بهذا يكون العرب قد أخذوا — فيما يتصل بالتقسيم الادارى — بالنظام الرومانى القوطى الذى وجدوه ، ثم عدلوه بعض الشىء بحسب ما اقتبسوه من نظم المشرق ومؤثراته ، ولكنهم تركوا نواحى الحدود والثغور كما هى : مدنا عسكرية ذات أحواز[3] .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٣) ويلاحظ أن مصطلح الكورة لم يكن فى بلاد الإسلام محدد المعنى بالشكل الذى نتصوره ، خذ مثلا تعريف ياقوت للكورة ، وهو أدق ما لدينا : « ذكر حمزة الأصفهانى أن الكورة اسم فارسى بحت (كذا) يقع على قسم من أقسام الاستان . وقد استعارتها العرب وجعلتها اسما للاستان ، كما استعارت الإقليم من اليونانيين ، فجعلته اسما للكشخر . فالكورة والاستان واحد ... قلت أنا : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة ، كقولهم : دارابجرد ، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة=

٢٧٢ – التقسيمات الفرعية : الإقليم

ولكنهم لم يتابعوا المشرق فى التقسيمات الفرعية للكور والمدن . فهم لم يقسموا الكورة والمدينة الى رساتيق أو ما يشبهها . لأن الرستاق — كالكورة — قسم زراعى يشتمل على مساحة مزروعة فيها قرى . ولم تكن المساحات الأرضية هى أساس التقسيم فى الأندلس ، بل كانت المدن وما يتصل بها من أحواز . واذا كانت المدينة تابعة للكورة فى المشرق ، فان الكورة هى التى تتبع المدينة فى الأندلس . ولهذا فقد قسمت الكورة أو المدينة فى الأندلس الى مدن أو نواح ، لكل مدينة أو ناحية حوز يسمى الاقليم. قال ياقوت فى تعريف الرستاق : « قلت : الذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى. ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد (أى أرض زراعية) عند أهل بغداد ، وهو أخص من الكورة والاستان »[1] .

= دارا بجرد ، ونحو نهر الملك ، فانه نهر عظيم مخرجه من الفرات ، ويصب فى دجلة ، عليه نحو ٣٠٠ قرية ، ويقال كذلك جميعه نهر الملك ، وكذلك ما أشبه ذلك» – (ياقوت ، ج ١ ، ص ٣٦) .

وهذا كلام غير متناسق لا يخرج الإنسان منه بمفهوم واضح للكورة . وربما كان سبب ذلك الغموض أن «الكورة» كمصطلح إدارى لم تستعمل بصورة منتظمة إلا فى مصر . أما فى العراق وما يليه شرقاً فكان المصطلح يستعمل تجوزا ، وقد استعمله الجغرافيون من أمثال المقدسى والاصطخرى للتسهيل . وهما يخلطان بين الكورة والرستاق والاستان والرّم وما إلى ذلك من المصطلحات الإدارية . أما فى الأندلس ، فلم يستعمل لفظ «كورة» استعمالا دقيقاً ، وأظهر مثال لذلك استعماله فى الروض المعطار . مثلا : أتليش : «... وهى قاعدة كور شنتبرية» (ص ٢٨) – ألش : «... من كور تدمير» (ص ٣١) – أندة : «... مدينة من كور بلنسية» – أوريولة : «... حصن بالأندلس ، وهو من كور تدمير» (ص ٣٤) ، ومثل هذا كثير جدا . وقد ذهب ليڤى پروڤنسال إلى أن كور هنا معناها كورة ، أى أن الجمع يستعمل فى معنى المفرد .

LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Esp. Mus.* III, 48.

ولكننا نرجح أنه يستعمل الكورة هنا بمعنى الإقليم .

(١) ياقوت : معجم ، ج ١ ، ص ٣٧–٣٨ .

وقال فى تعريف الاقليم عند الأندلسيين : « الاصطلاح الثانى لأهل الأندلس خاصة ، فانهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة اقليما ، وربما لا يعرف هذا الاصطلاح الا خواصهم ، وهذا قريب مما قدمناه عن حمزة الأصفهانى ، فاذا قال الأندلسى : أنا من اقليم كذا ، فانما يعنى بلدة أو رستاقا بعينه »[1] . وهذا تعريف واضح يدل على أن الأندلسيين يعنون بالاقليم القرية الكبيرة أو البلدة وحوزها المتصل بها طبعا . قارن ذلك بمعنى الاقليم عند المشارقة : « كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى اقليم ، نحو الصين وخراسان والعراق والشام ومصر وافريقية ونحو ذلك »[2] فالاقليم فى الأندلس بلدة تتبعها أرض ، وفى المشرق أرض تتبعها بلاد ، والفرق واضح لا يحتاج الى بيان . فى الشرق أخذ العرب الأساس الفارسى وهو الأرض ، وفى الأندلس أخذوا الأساس الرومانى وهو المدينة . ولا عجب والحالة هذه أن كانت مدن الشرق جميعها قرى كبيرة فى اضمحلال متصل ، ومدن الأندلس مدنا حقيقية ذات نظام وتخطيط وهيئة ، وكانت فى صعود دائما . ولا غرابة فى أن يفاخر المقرى المشارقة بمدن الأندلس ، ويقول اننا نجد فى الأندلس المدينة الكبيرة الى جانب المدينة الكبيرة . ولا غرابة أيضا فى أن نجد فكرة أمراء الأندلس فى انشاء المدن أقرب الى المفهوم الصحيح للمدن ، وما من ناحية اختطوها هناك الا بقيت الى يومنا هذا ، وأمامنا مرسية والمرية ونطيلة ومدينة سالم وقلعة أيوب وما اليها ، نستطيع أن نقارنها بالبصرة والكوفة وواسط والأنبار والفسطاط والمهدية وما اليها مما دثر وذهب أمره ، لأنها اما كانت معسكرات أو مراكز زراعية .

---

(١) ياقوت : معجم ، ج ١ ، ص ٣٩ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من الأقاليم التى تنقسم اليها الكور والمدن ذات الأحواز ، ولكن العذرى يقدم لنا نصوصا تزيد معنى الاقليم الأندلسى وضوحا ، ويهمنا بصفة خاصة حديثه عن أقاليم قرطبة ، قال :

عدد أقاليم قرطبة ، وهى خمسة عشر اقليما :

اقليم المُدوَّر :

عدد قراه فى المغارم [1] تسعون قرية ، منها فى العشور ثلث [...] .

القمح : ٨٥ مديا و ٤ أقفزة .

الناض [2] : ٣٩٨٠ مثقالا .

الطبل [3] للعام : ٤١٤٠ دينارا .

الصدقة والبيزرة : ٤١٢ دينارا و ٤ دراهم .

اقليم القصب :

القرى فى الوظائف ٨٧ ، منها فى العشور ٥٦ قرية .

القمح : ١٤٢ مديا .

الشعير : ١١١ « .

الطبل للعام : ٢٧٠٠ دينار و ٤ دراهم .

الناض للحشد : ٤٧٧٢ مثقالا .

---

(١) المغرم : تسمية عامة تطلق على الضرائب غير الشرعية ، والجمع مغارم .

(٢) كانت الضرائب على المنقولات فى الأندلس تجبى نقداً أو عيناً ، فاذا بيعت نقداً سميت الناض ، وإذا بيعت عيناً سميت وظيفا ، وكان الناض يعتبر فى الأندلس ضريبة خاصة بالجيش ، ولهذا يسمى أحياناً الناض للحشد .

(٣) الطبل ضريبة شخصية ، كان الناس يؤدونها عيناً ، وتعتبر معونة مالية للدولة فى مقابل الخدمة من الإعفاء العسكرية .

الصدقة والبيزرة : ٢٠٣ دنانير و ٤ دراهم .

اقليم لَوْرة :

القرى : ٦٤ قرية ... منها للعشور ...

القمح : ١٧٣ مديا و ١٠ أقفزة

الشعير : ٣٠٠ ... و ... قفيز

الناض للحشد : ٢٤٧٢ مثقالا

اقليم الصَّدف :

القرى : ٢٨ قرية ، منها للعشور ...

القمح : ٨٩ مديا و ١١ قفيزا ...

الشعير : ١٩٣ مديا ...

[الناض] : [...] ٤٧٥ مثقالا .

الصدقة : [...]

الطبل للعام : [...] ٥٥ [...] و $\frac{2}{7}$

اقليم بنى مَثْرة :

القرى : ١٧ قرية

القمح : ١١٧ مديا [...] أقفزة

الشعير : ٢٥٤ مديا و ٣ أقفزة

اقليم منتيَانة :

القرى : ٢٦ قرية

القمح : ١٢١ مديا [٠٠٠] قفيزا

الشعير : ٢٢٨ مديا و ٦ أقفزة .

الناض للحشد : ٧٠٠ مثقال

اقليم كَرتَش :

القرى : ٦٠ قرية ، منها للعشور ٣٠ قرية

القمح : ٢٢٠ مديا [٠٠٠] أقفزة

الشعير : ١١٦ مديا و ٦ أقفزة

الناض للحشد : ٧٣٠ مثقالا

الطبل للعام : ١٧٨٢ دينارا ، و ٤ دراهم

الصدقة والبيزرة : ٤٩ دينارا و ٤ دراهم

وهكذا بالتفصيل في بقية الأقاليم ، وهذه هى أسماؤها مع عدد قراها :

اقليم الفَتنل : ٤٨ قرية

اقليم الهَزْهاز : ٧٣ قرية

اقليم وايُه الملاحة : ٨٤ قرية

اقليم وايه الشَّعْراء : ٩٤ قرية

اقليم أولية السهلة : ١٠٢ قرية

والى هنا ينتهى بيان الأقاليم كما يورده العذرى ، أى أنه يذكر أن عدد الأقاليم ١٥ ولا يذكر الا ١٢[1] .

ونخرج من هذا البيان القيم بأن الأقاليم كانت محددة تحديدا دقيقا بما على كل منها أن تؤديه من الجبايات ، وهذا التحديد لا يذكر ما على كل قرية أن تؤديه بل تذكر جملة ما ينبغى أن يؤديه كل اقليم فى مجموعه من أصناف الضرائب . أى أن الاقليم كان وحدة مالية فى نظر الدولة ، وهذه هى الحقيقة الأولى التى تهمنا ملاحظتها هنا .

ثم نعود فنسأل : ما هو الأساس الذى عمل عليه هذا التقسيم ؟ لو أن المسلمين هم الذين وضعوه للاحظنا بين الأقاليم لونا من التناسب فى عدد القرى على الأقل ، فلا نجد اقليما ١٧ قرية واقليما ١٠٢ ، ثم ان أسماء معظمها ليس عربيا مما يدل على أن الاقليم بحدوده واسمه كان موجودا قبلهم ، كما حدث فى مصر ، عندما أخذ العرب الباجركيات البيزنطية (Pagarchoi) وسموها كورا ، وتلك هى الحقيقة الثانية التى يهمنا النص عليها .

واذن فالأقاليم وحدات ادارية مالية وجدها العرب بحدودها عند دخولهم ، فتبنوا هذه الحدود وحددوا ما عليها من المال . كل اقليم يضم

---

(١) قال أبو عبيد البكرى : «وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليلة ، وكانت جباية هذه الأقاليم فى أيام الحكم بن هشام :

الحشد وناض الطبل وناض البيزرة للعام ١٤٢٠٠٠

ومن وظيفة القمح ، مديا ٥٣٠٠٠

ومن الشعير ... ... ٧٣٠٠٠ ...»

أوراق من جغرافية البكرى جمعها ليڤى پروڤنسال ذيلا على ترجمته الفرنسية للروض المعطار :

LÉVI-PROVENÇAL, *La Péninsule Ibérique*, p. 250-251.

عددا من القرى ، فهناك قرى تدفع العشور ، وهى بطبيعة الحال قرى الحبوب ، والزراعات ، وقرى تؤدى جبايات تحدد بحسب طبيعة انتاجها، وهى نواحى الثمار والأشجار والزيتون والغابات والصـيد والمعادن وما اليها . والقرية فى ذاتها ليست وحدة ، بل الاقليم هو الوحدة .

والعذرى نص آخر يذكر الأقاليم بحدودها الجغرافية ، واذا ضممنا هذا النص الى النص السابق ازداد معنى الاقليم عندنا وضوحا . يقول العـذرى :

أقاليم سرقسطة :

اقليم المدينة : وهو من باب سرقسطة ، قبلةً منها الى عقبة مليلة .

اقليم قصر عباد : وهو متصل باقليم المدينة . وقصر عباد مجاور لطرطوشة ، وهو فى هذا العصر منصرف الى طرطوشة .

اقليم قُتَنْدة : وهى على ستين ميلا من مدينة سرقسطة . وفى هذا الاقليم يخرج نهر بلطش (Pleitos) من فج يعرف بفج بذره (Fedro ?)

اقليم زيدون : وهو مجاور لطرطوشة ، ومجاور لبلنسية ، ومجاور لتدمير ، ومجاور لشنت بريه . وفى هذا الاقليم من ناحية مدينة غَلَنواذه يتفجر نهر شليقه (Jalico) ثم يمضى حتى يواقع نهر شلون (Jalón) .

اقليم بَلَنْطُش (Pleitos) : ونهره يسقى من قرية مواله (Muela del Ebro) الى مدينة سرقسطة ، طول ٢٠ ميلا ، غرب عن عين بلطش .

اقليم قنتش : وله عين ، يسقى من ناحية بلد نوبه (Villa Nueva) الى أن ينصب ماؤها فى نهر ابره ، طوله ٢٠ ميلا .

اقليم شَلُون : وهو غربى من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية

قبانِس (Cabañas de Ebro) وركله (Ricla) . وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ثمانين قرية .

الى آخر هذه الأقاليم ، وواضح أن هذه التحديدات كلها زراعية ، تعنى بالرى والأنهار والعيون وما تسقيه . والتقسيم الزراعى فى أساسه مالى ، لأن الذين يرسمونه ينظرون الى ما يغله كل قسم وما يؤديه من جباية . ثم ان التحديدات الجغرافية تحديدات ثابتة لا تتغير بتغير الأعصر، أى أن حدود الأقاليم كما أقرها المسلمون كانت موجـودة قبلهم ، فأخذوها كما هى ، بأسمائها فى معظم الحالات ، وترجموها أو أعطوها أسماء عربية فى أحوال قليلة .

وليس معنى ذلك أن كل الأقاليم أخذها العرب كما هى ، بل الحكم هنا على الأمر الغالب ، لأن استقرار قبـائل العرب والبربر فى بعض النواحى أوجد أقاليم جديدة تنسب الى من سكنها ، كاقليم القاسم أو بنى القاسم الداخل فى حوز مدينة سالم ، فقد كان اقليما واسعا نسب الى أولئك القوم ، وهو الذى ذكره الادريسى باسم اقليم القواصـم وصحتها القواسم ، واقليم بنى مرة فى حوز قرطبة واقليم زنانة واقليم كنانة فى حوز بلنسية ، وما الى ذلك .

٢٧٣ - الجـزء

ويذكر العذرى الى جانب الأقاليم أقساما ادارية أخرى تسمى الأجزاء ، مفردها « جزء » . وهو يورد هذه الأجزاء بعد الأقاليم مباشرة ، مثال ذلك فى كلامه عن بلنسية يقول :

أقاليم بلنسية :

اقليم الـمِنَيرة (Almenara) ، اقليم أنده (Onda) ، اقليم شُشَرب ؟ ،

اقليم زناتة (Zanete) ، اقليم كنانة (Benicanena) ، اقليم شلينة ، اقليم أولهيل (Ollierea) ، اقليم لبايه ؛ وله رتبة أوليــة ، اقليم ممح ؟ ، اقليم شارقة (Jerica) .

ثم تلى ذلك الأجزاء دون أى تفصيل :

جزء الساحل ، جزء قلبيرة (Calavera) وجزء الجزيرة ، جــزء البيضــاء (Albayda) وغلثار ، جزء الأسناد ، جــزء فحص شاطبة ، جزء براكانه ، جزء مدينــة التراب ، جزء مصمودة ، جزء بنى غتيل ، جزء قسطانية ، جزء فقيرة (Viguera) ، جزء مسل ، جزء مربيطر .

ونلاحظ أولا أن عشرة على الأقل من هذه الأجزاء منسوبة الى مدن من كورة بلنسية ، وأن اثنين منسوبان الى أقوام : مصمودة ، بنو غتيل ؛ واثنين منسوبان الى معالم جغرافية : الساحل ، الأسناد .

وليس هناك ما يدل على أن هذه الأجزاء كان فيها قرى . وقد وقع فى ظنى أنها قد تكون أجزاء من أقاليم ، فلم يصح ذلك ، ولم يصح أيضا أن تكون أجزاء أو أحياء من مدينة بلنسية نفسها .

وقد وجدت عند ياقوت — وهو كنز الجغرافية الاسلامية ، ولم يدرس بعد دراسة كافية — تعريفا للجزء فى الأندلس يعيننا بعض الشىء على فهم معناه ، فقد قال فى كلامه عن مدينة رباح : « ولها عدة قرى ونواح ، ويسمونها الأجزاء ، تقوم مقام الاقليم ، كما ذكرنا فى اصطلاحهم فى لفظة الاقليم فى أول الكتاب ، منها جزء البكريين ، وجزء اللخميين وغير ذلك » (١) . وقال تحت لفظ «جزء» : « رمل الجزء بين الشحر

(١) ياقوت ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .

وبيرين ، طوله مسيرة شهرين ، تنزله أفناء القبائل من اليمن ومعد ؛ وعامتهم من بنى خويلد بن عقيل ، قيل انه يسمى بذلك ، لأن الابل تجزأ فيه بالكلأ أيام الربيع فلا ترد الماء » (١) . وهذا التعريف ينطبق على ما ذُكر آنفا من الأجزاء : «جزء البكريين وجزء اللخميين وغير ذلك» .

ثم لاحظت أن الأجزاء لا توجد الا فى النواحى التى تكثر فيها أراضى المراعى مما نزلته بطون العرب بكثرة : اشبيلية وبلنسية وقلعة أيوب وما يشابهها ، ولا توجد فى النواحى المحروثة المزروعة من قديم الزمان ، فاذا أضفنا الى ذلك ما لاحظناه من أن معظم الأجزاء ينسب الى مدن ، خرجنا من ذلك بأن الأجزاء قد تكون مساحات من الأرض خصصت للابل والماشية ، وينطبق عليها حكم أرض العشب والكلأ فى التشريع الاسلامى ، فلا تكون مملوكة لأحد ، وانما مشاعا للجماعة كلهـا ، ولا يجبى عنها مال . وقد كانت فى شبه الجزيرة أراض كثيرة يجرى عليها هذا الحكم من قديم الزمان ، وهى أراضى المراعى المشاع (Compascuas) التى ذكرناها آنفا .

بهذا تكون قد اجتمعت لنا فكرة واضحة الى حد ما عن الأساس الذى اتخذه العرب لتقسيم الأندلس تقسيما اداريا : ساروا على ماوجدوه قائما فى البلاد مع تكييفه على نحو يتفق مع ظروفهم فى شبه الجزيرة دون أن يغيروا روحه : ظلت المدينة هى الأساس تتبعها الأرض ، وحينما حولوا بعض المدن الى كور ظلت المدينة أساس الكورة ، ولم تكن الكورة هى الأساس تتبعها المدينة . ولم تكن المدينة فى الأندلس بمعناها فى المشرق : مجموعة من الأبنية يحددها سورها ، بل بالمعنى الرومانى : نواة لاقليم أو أقاليم كل أهلها يعتبرون من أهل المدينة . وقد اقتضى

(١) ياقوت ، ج ٣ ، ص ٩٣ .

الأمر اعتبار الكثير من مدن الجنوب وحدات مستقلة ، فجعلوها كورا ، لأن مركز الثقل فى الأندلس الاسلامى كان فى الجنوب ، ولهذا صغرت مساحات الكور فى الجنوب بينما اتسعت فى الشرق والغرب . أما الوسط ونواحى الشمال فقد ظلت مدنا بالمعنى الرومانى القديم ، مدنا لها أحواز وفى أحوازها تقع مدن أخرى ذات أحواز .

٢٧٤ – المدينة الأم وقد جرت العادة بأن تسمى المدينة الرئيسية بالأم والجمع أمهات ، والمدن الفرعية بالبنات مفردها بنت ، وقد تتحول الأم الى بنت اذا زادت عليها فى العمارة احدى بناتها . قال ابن عبد المنعم الحميرى فى كلامه عن طرسونة : « كانت مستقر العمال والقواد بالثغور. وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، المعروف بصاحب الأرض ، اختارها محلا وآثرها على مدن الثغور منزلا. وكانت ترد عليها عُشْر مدينة أربونة وبرشلونة ، ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة ، عند تكاثر الناس بتطيلة وايثارهم اياها لفضل بقعتها واتساع خطتها» (١) . وكذلك حدث لالبيرة ، فقد كبرت بنتها غرناطة وأصبحت الأم وعادت البيرة من بناتها . ومثل ذلك حـدث لبجانة ، اذ اختطت وعمرت واتسعت حتى صارت أما ، « ثم خربت وانتقل أهلها الى المرية وعادت المرية أما » . وتسمى المساحة التى تشغلها المدينة نفسها بخطة المدينـة ، وقد تكون الأم أكبر مدن الناحية وأهمها دون أن تكون القاعدة أو القصبة ، لأن القاعدة أو القصبة يشترط فيها الحصانة والمنعة ، وخاصة فى نواحى الثغور . فلم تكن قبرة

(١) الروض المعطار ، ص ١٢٣ .

وقد يستعمل لفظ «الأم» للدلالة على أكبر مدن الناحية، قال صاحب «الروض» فى الكلام عن أولية السهلة (ص ٣٤) : «بالأندلس ، قريبة من قرطبة ، تعرف بالرملة ، وهى أم الأقاليم ، كثيرة الأهل واسعة الخطة ، مثمرة الأرضين ، بها ديار للعجم متقنة البنيان ...»

مثلا قصبة الكورة المنسوبة اليها ، بل كانت القصبة بيّانة ، لأنها — كما يقول ياقوت — « كبيرة حصينة على ربوة يكتنفها أشجار وأنهار » (١). وكذلك الحال مع قلب — وهى Calpe القديمة — فقد كانت أول الأمر قاعدة كورة مورور (٢) . وعندما اختط الأمير محمد مدينة مجريط جعلها قاعدة « مدينة » وادى الحجارة . وكذلك عندما اختط عبد الرحمن الأوسط مدينة مرسية ، نقل اليها قاعدة كورة تدمير ، وكانت قبل ذلك فى أوريولة (٣) . وتسمى الضواحى بالأرباض ، مفردها ربَض : اذا كانت صغيرة متصلة بعمارة المدينة ، فاذا كانت كبيرة منقطعة عن عمارة البلد سميت بالحاضر ، مثـال ذلك أن طَريانة كانت « حاضرا من حواضر اشبيلية » (٤) .

وكما تتبع المدينة مدن ، فكذلك تتبعها حصون ومعاقل .

٢٧٥ – الحصون والمعاقل ويغلب على الظن أن هنـاك فرقا بين الحصن والمعقل . فالحصن موضع محصن مأهول يشبه أن يكون مدينـة ، وقد تتبعه حصون أخرى ، وقد يكون له حوز . مثال ذلك حصن بيطرة فقد عرفه ياقوت بقوله : « بلدة وحصن من أعمال سرقسطة » (٥) ، وقال عن كَرَكى : « اسم حصن من أعمـال أوريط بالأندلس له ولاية وقرى »(٦) ، وقال ابن عبد المنعم عن قَيْشَاطة : « حصن بالأندلس

(١) الروض المعطار ، ص ١٦٢ والترجمة الفرنسية ، ص ١٩٤ وتعليق ٣ .

(٢) ياقوت ، ج ٨ ، ص ٣٩٤ .

(٣) ياقوت ، ج ٨ ، ص ٢٤ .

(٤) ياقوت ، ج ٦ ، ص ٤٧ .

(٥) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٦) ياقوت ، ج ٧ ، ص ٢٤١ .

كالمدينة ، بينه وبين شوذر اثنا عشر ميلا ، وفى قيشاطة أسواق وربض عامر وحمام وفنادق » [1] . أما اذا اتسـع الحصن عن ذلك فيصبح « قلعة مدينة » أى حصنا كبيرا ومدينة كبيرة أيضا ، ومثال ذلك قلعة أيوب وقلعة رباح . فى حين أن المعقل لا يزيد عن أن يكون موضعا محصنا يلجأ اليه المزارعون اذا داهمهم خطر ، أى أنه مجرد كرال (Kraal) . وقد كانت المعاقل كثيرة جدا فى الأندلس ، لا يشذ عن ذلك الا معقل « رُندة » فقد تحول الى بلد .

ومن غير الميسور الآن تقدير حوز كل كورة ومدينة ، أو رسـم خريطة دقيقة للأندلس الاسلامى وتقسيماته الادارية ، لأن البيانين اللذين يقدمهما نص جغرافية الرازى المترجم و « التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » وما لدينا من جغرافية العذرى وأوراق جغرافيـة البكرى . كل هذه لا تقدم احصاء بأقاليم كل كورة ومدينة وحدود هذه الأقاليم ، ولعل جغرافية العذرى لو كانت كاملة لأعانتنا على ادراك هذا المطلب ، ولكنها كما قلنا ناقصة ، فلم يبق لدينا الا الاكتفاء بمعرفة الأسس العامة للتقسيم واحصاء الكور والمدن على ما بيناه ، وربما أعاننا الحظ فى المستقبل على أكمال الصورة . وقد ذهب ليفى بروفنسال الى أنه من الممكن رسم صورة كاملة للتقسيم الادارى للأندلس بالاستعانة بكتب التاريخ ، وهذا صحيح ، ولكن ما بين أيدينا من أصول تاريخ الأندلس مبثور فى مواضع شتى ، كما هو الحال مع جغرافية العذرى . وقد أحصى بروفنسال سبعا وعشرين كورة غير الثغور . وهذه الكور هى : قرطبة — فحص البلوط — قبرة — استجة — اشبيلية — قرمونة —

---

(١) الروض المعطار ، ص ١٦٥ .

وراجع أيضاً كلامه عن حصن «جنجالة» (ص ٦٧) وحصن الثلج (ص ١٠٨) وحصن الكرس (ص ١٦٦–١٦٧) .

لبلة — أكشونبة (شلب) — باجة — مورور — شذونة (قلسانة) — الجزيرة الخضراء — تاكرنا (رندة) — ريه أو مالقة — البيرة — جيان — بجانة — تدمير (مرسية) — شاطبة — بلنسية — طليطلة — طلبيرة (أقلش) — ماردة — بطليوس — شنترين — لشبونة — قلمرية [1] .

وقد تكون هذه هى كور الأندلس فى القرن العاشر الميـلادى ، ولا نستطيع الآن أن نناقش هذه القائمة ، لأننا لا نملك احصاء كاملا لما فى كتب التاريخ من معلومات .

* * *

٢٧٦ — تقسيم مجارى الأنهار

وقد تبع اعتبارَ المدن وأحوازها وحدات ادارية بضع صور ادارية لا نجـد لها شبيها فى المشرق ، كاتباع الأنهـار أو أجزاء منها للمدن التى تقع عليها أو الأقاليم التى تقع فيها ، مثال ذلك قول العذرى فى كلامه عن اقليم جَلّقْ من أقاليم سرقسطة : « ونهره يسقى ماوازى قنطرة سرقسطة عشرون ميلا . ومخرج نهـر جَلّقْ (El Gallego) من جبال السيرطانيين ، ثم يخرج الى ناحيـة وشقة الى سرقسطة ، ويقع فى ابْرُه ، والجزء الأعلى من نهر جَلّقْ يروى من الصخيرة الى منزل حسان الى قنطرة سرقسطة عشرون ميلا » [2] . فهنا نرى بوضوح أن النهر تابع للاقليم ، بل أن الأجزاء التى يرويها محددة تحديدا تاما ، كما تحدد النواحى التى ترويها الترع والقنوات فى نظم الرى الحالية . وتسمية النهر باسم الاقليم هنا ليست تسمية جزافية بل لها معنى التبعية الادارية . ومثال ذلك أيضا قوله فى الكلام

---

(١) LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, III pp. 49-51.

(٢) العذرى : نظام المرجان ، ورقة ١٦١ .

عن اقليم شلون (El - Jalón) : « وهو غربى من سرقسطة ، ونهره يسقى من قرية قبانش وركله الى باب سرقسطة ٤٠ ميلا ، وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ٧٠ ميلا » (١) . ومعنى ذلك أن أربعين ميلا من مجرى شلون تبع لاقليم شلون ، والباقى خارج عن هده التبعية . وعلى هذا الأساس قالوا نهر مرسية ونهر بلنسية وما الى ذلك ، فقد كانت لهذه الأنهار أسماؤها الجغرافية وكان العرب يعرفونها ، ولكن نسبة النهر هنا تحمل معنى التبعية ؛ أى أن نهر مرسية داخـل فى حوز مرسية وأقاليمها ، ونهر بلنسية كذلك . بل ان مجارى الأنهـار الطويلة كانت تقسم ، فيدخل كل قسم منها فى حوز مدينة ، ومثال ذلك نهر الوادى الكبير ، فهو فى زمام اشبيلية نهر اشبيلية ، والجزء الداخل من مجراه فى حوز قرطبة يسمى نهر قرطبـة ،وفى حوز جيان يسمى نهر جيان ، وقس على ذلك بقية كبار الأنهار .

٢٧٧ – المراسى

وكانت لمسلمى الأندلس من أول الأمر عناية بالموانى ، نظرا لأهمية الصلات مع العدوة الافريقية . وكانوا يسمون الميناء مرسى ، وهى تسمية لها معناها بالنسبة لطبيعة الموانى الاسلامية فى الغرب الاسلامى فى هذه العصور الأولى . ويلاحظ أن أهل المغرب والأندلس دون غيرهم من أهل الدولة الاسلامية ، توسعوا فى استعمال لفظ المرسى مقابلا للميناء،وخاصة فيما يتصل بما أنشأه المسلمون منها ؛ فهم يقولون « مرسى تونس » و « مرسى الخزر » و « مرسى الدجاج » و « مرسى المرية » و « مرسى بجانة » وما الى ذلك ، وهـذه كلها موان جديدة نشأت بعد الفتوح الاسلامية ، أى أن الميناء كان يبدأ

(١) نفس المصدر والصفحة .

عادة بأن يكون مرسى للسفن ثم يتطور بعد ذلك كما تطورت تونس والمرية وبجانة ، فأصبحت مدنا ومراسى فى نفس الوقت . ويفهم من كلام صاحب « الروض المعطار » أن الميناء قد يبدأ فى أول أمره رباطا بحريا ، ثم ينشأ عنده مرسى ، ثم يتحول الى مدينة ، كما حدث فى المرية (١) ؛ وقد يبدأ اقطاعا بحريا لقبيل من العرب فى مقابل حفظ الساحل ، فينشأ فيه مرسى ثم ميناء كما كان الحال مع بجانة . وفى حالة هـذه الأخيرة نضع أيدينا على « ميلاد » مدينة . قال صاحب «الروض» : « وبقرب بجانة كان جامع الاقليم الأعظم ، الا أنها كانت حارات مفترقة ، حتى نزلها البحريون وتغلبوا على ما كان فيها من العرب ، وصار الأمر لهم ، فجمعوها وبنوا سورها »(٢) . وقد كانت بجانة—كما هو واضح هنا— قرية صغيرة (هى التى تعرف باسم Pechina) ، وكان حولهـا أحياء كثيرة آهلة متفرقة هى المسماة هنا بالحارات . وكان لأهل هـذه الحارات مسجد جامع كبير بقرب بجانة ، فقام أولئك البحريون بجمع الحارات بعضها الى بعض ، وأقاموا سورا حولها وحول بجانة والمسجد الكبير ، فنشأت المدينة .

٢٧٨ – الضياع

وتظهر « الضياع » فى الأندلس الاسلامى من أول الأمر ، فقد ذكر ابن القوطية أن أبناء غيطشة حالفوا طارق بن زياد على « أن يمضى لهم ضياع أبيهم وكانت ٣٠٠٠ ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك » ، وقد أجابهم طارق الى ذلك ؛ وقد خص أرطباس منها ألف ضيعة كان يفرق منها على العرب . والضيعة الواحدة هى مقابل

(١) الروض المعطار ، ص ٣٧ .

(٢) الروض المعطار ، ص ٣٧ .

الڤيلا (Villa) فى النظم الرومانيـة ، والضياع الكثيرة المتجاورة تقابل اللاتيفونديوم (Latifundium) . واذا كانت النصوص تدل على أن نظام الضياع استمر فى الأندلس واتسع مداه ، كما كان الحال فى المشرق أيضاً ، إلا أننا لا نملك ما يدل على بقاء نظام الملكيات الشاسعة (Latifundia) وربما لاحظنا تشابها بين الڤيلا ، وهى القصر الريفى تحيط به ضيعة أو ضياع واسعة يملكها صاحب القصر ، ومصطلح « المُنْية » الذى كان شـائعا فى الأندلس . فتعريف المنية عندهم قريب من تعريف الڤيلا ، ولكن هناك فرقا واضحا بين الضياع والمنيات ، فالضياع قرى تصير الى ملك مالك كبير وربما أقام فيها ، فى حين أن المنية ضيعة تنشأ حول قصر ريفى ينشئه المالك الكبير ، ولكن كليهما من حيث الهيئة والوضع يقابل الڤيلات الرومانية ، ومعروف أن هذه الڤيلات أيضا كانت تختلف فيما بينها ، ففيها ما يشبه الضياع وفيها ما يشبه المنيات .

٢١٩ – الفحص

وهناك مصطلح آخر تحسن الاشارة اليه فيما ذكرنا من مصطلحات جغرافية ادارية ، وهو مصطلح « الفحص » وهو كثير الاستعمال فى المغرب أيضا حتى يبدو لنا أن أصله مغربى ، وقد وضع ياقوت تعريفا للفحص ، قال : « وسألت بعض أهل الأندلس : ما تعنون به ؟ فقـال : كل موضع يُسكَن — سهلا كان أو جبلا ، بشرط أن يزرع — نسميه فحصا ، ثم صار علما لعدة مواضع » (١) وكانت الفحوص فى الأندلس كثيرة ، ومعظمها أقاليم فى كور ومدن ، فيقال اقليم الفحص من أعمال طليطلة أو من أعمال آكشونبة أو اشبيلية . وأكبرها فحص البلوط الذى أصبح كورة فيما بعد .

* * *

(١) ياقوت ، مادة فحص .

وقد يكون بعض الحقائق التى ذكرناها قد وقع فيما بعد ، ولكننا كما ذكرنا نؤرخ لنظام بدون تاريخ ، لم يذكر واحد من مراجعنا متى وُضع أو متى عُدل ، فلم يبق الا أن نذكر ما لدينا من المعلومات منطلقة حتى تعيننا أصول جديدة على مزيد من التوضيح ، واذا كان الرأى الذى ذهبنا اليه ، فيما يتصل بأصول هذه الأنظمة ، أن العرب أخذوها مما وجدوه جاريا لدى دخولهم ، فليس هناك ما يمنع من القول بأن معظم ما أثبتناه من النظم حدث أثناء فترة الولاة التى نتحدث عنها ، ثم دخله الضبط والترتيب والتفصيل والتدقيق فيما بعد .

٢٨٠ – المشيخة والكوريا

وقد بيّنا كيف كانت هذه النظم فريدة فى بابها فى العـالم الاسلامى كله ، ومن الطبيعى أن ينسحب هذا الحكم على ما بُنى عليها ، فاذا قلنا ان دخول العرب أحيى المدن التى كانت تتلاشى رويدا رويدا فى الأندلس قبلهم ، وأن ذلك الاحيـاء استتبع انتعاش مشيخات البلاد أو الكوريات الرومانية المدنية القديمة ، فقد انبنى على ذلك تعميم فكرة المشيخات أو المجالس على كثير من النظم الاسلامية فى الأندلس ، مما أدى الى ظهور هيئات خاصة بالأندلس كهيئة « الفقهاء المشاورين » وجماعة الوزراء وما الى ذلك مما جدَّ بعـد الفترة التى نؤرخ لها من النظم .

ذلك أن لفظ مشيخة كان له معنى خاص فى الأندلس ، فالمشيخة فى المشرق هى الرياسة أو هى الوظيفة أو الأستاذية ، فيقولون مثـلا ان فلانا « تولى مشيخة دار الحديث » أو « مشيخة الحديث بتربة أم صالح ومشيخة الرباط الناصرى ومشيخة المالكية » أو « ولى مشيخة المدرسة بالقدس ومشيخة الرباط الناصرى بالجبل » أو « برع فى النحو وانتهت اليه المشيخة » ، أما فى الغرب الاسلامى فكان له معنى المجلس

أو الجماعة ، قال ابن خلدون : « واستبد مشيخة كل بلد بأمره » أو « وكانت مشيختها فى القديم فى بنى ورمان من أهلها بما كاثروا ساكنها وملكوا عامة ضياعها ، وكان مشيخة قابس لذلك العهد فى بيوتات من أهلها » . والمعنى فى هذه النصوص واضح ، فهو الجماعة من أعيان الناس يتولون أمر البلد . ويفسر دوزى معنى المشيخة هنا بأنه « الحق الذى كان لعدد من الأسر الكبيرة فى أن تؤلف مجلسا بلديا يحكم البلد أو مجلسا جمهوريا » ، بل ان الكلمة وردت بمعنى المجلس البلدى أو أعضائه ، وذكر بطرس الكلاعى Pedro de Alcalá فى قاموسه أن الشيخ هو العضو فى مجلس البلد (Jurado en la cibdad) والمشيخة هى الطائفة [1] . وهذه كلها معان لم تعرف الا فى المغرب والأندلس ، وفى هذا الأخير خاصة ، وثابت على أى حال أن العرب عندما قضوا على سلطان القوط عقدوا مع أهل كل بلد استسلم لهم عقدا أو معاهدة ، وكان التعاقد يتم مع الكوريا القديمة ، وترجمها العرب الى المشيخة ، وكانت هذه المعاهدات سببا فى احياء مشيخات البلاد ، فأصبح فى كل بلد مشيخة من أهله هى التى تتخاطب مع العرب وتضمن لهم الأمن والأموال ، فنشطت المشيخات وانتظم أمرها ، وعندما أسلم أهل البلاد احتفظوا بمجالسهم وهى مشيخاتهم ، ومن هنا كان للمدن فى الأندلس نظام بلدى يرعى شئونها وشئون أهلها . وثبتت صلاحية هذا النظام فامتد حتى شمل الحرف ، فأصبح لأهل كل حرفة مشيخة أو مجلس ، ونشأت مشيخة الفقهاء ، وهى جماعة من الفقهاء يتخذهم الأمراء والخلفاء مستشارين وسموا « الفقهاء المشاورين » ، ووزعت اختصاصات الوزير بين نفر من الوزراء كان لهم مجلس .

(١) انظر دوزى : ملحق التواميس ، مادة شيخ ، ج ١ ، ص ٨٠٩

٢٨١ – انفصال العرب عن أهل البلاد أول الأمر

وظاهر من النصوص أن أهل البلاد من النصارى واليهود عاشوا أول الأمر منفصلين عن العرب ، مستقلين بحكومة أنفسهم ، وكان لهم رئيس أعلى يسميه ابن حيان «قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين » [1] . أى أنه هو الذى كان يتصل بأهل الذمة ويستخرج ماعليهم من الأموال ويؤديها للحكومة المركزية . وكان تعامله مع مشيخات البلاد ، أى أن كل مشيخة كانت تجمع ضرائب بلدها وتؤديها الى القومس . وقد أشرنا فيما سبق الى حكومة البلد وذكرنا بعض ما عثرنا عليه من ألقاب موظفيها . وقد أقام العرب لكل ناحية حاكما من المسلمين ، فأما حاكم الكورة فكان يسمى العامل أو الوالى ، وأما حاكم المدينة ذات الحوز فكان يسمى القائد ، لأنه كان يختار من العسكريين لأن هذه المدن كانت كلها ثغورا أو مناطق عسكرية على ما قلناه ، وكان حوز الكورة أو المدينة يسمى العمل أو النظر أو الولاية أو الحوز .

أما العرب فقد عاشوا أول الأمر مستقلين بأنفسهم ، سواء من نزل منهم المدن أو من عاش منهم فى الريف ، وقد احتفظ لنا ابن الخطيب فى الاحاطة بنص رواه عن ابن حيان والرازى يوضح أحوال المسلمين من عرب وبربر تمام التوضيح ، ونحن نورده هنا بنصه مع تقسيمه الى فقرات زيادة فى البيان :

١ — « قال أبو مروان (بن حيان) : أشار على أبى الخطار أرطباس قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء

(١) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة (طبعة محمد عبد الله عنان) الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٠٩

المسلمين — وكان هذا القومس شهير العلم والدهاء — لأول الأمر ، بتفريق القبائل الشاميين الغالبين [١] على البلد ، من دار الامارة قرطبة ، اذ كانت لا تحملهم ، وانزالهم بالكور على شبه منازلهم التى كانت فى كور شامهم .

٢ — ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة البيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجة ، وبعضهم بكورة تدمير ، فهذه منازل العرب الشاميين [٢] .

٣ — وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة .

٤ — وبقى العرب البلديون والبرابرة شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، الا من كان قد نزل منهم لأول قدومه فى الفتوح على غنائمهم [٣] لم يعرض لهم فى شىء منها .

٥ — فلما رأوا (يعنى العرب الشاميين) بلدانا شبه بلدانهم بالشام نزلوا وسكنوا واغتبطوا ، وكثروا وتمولوا ، الا من كان قد نزل منهم لأول قدومه موضعا رصينا فانه لم يرتحل عنه ، وسكن به مع البلديين ،

(١) قرأها محمد عبد الله عنان : العسّلميين ، وشرحها فى الهامش بأنها نسبة إلى علم مكان بالشام ، ولا محل لذلك التكلف لأن صحتها الغالبين كما أثبتناه .

(٢) النص هنا ناقص وغير دقيق ، وصحته ما أورده ابن عذارى إذ قال إن أبا الخطار أنزل أهل دمشق بإلبيرة وأهل الأردن بريّه وأهل فلسطين بشذونة وأهل حمص بإشبيلية وأهل قنسرين بجيان وأهل مصر بباجة وبعضهم بتدمير .

انظر ابن عذارى : البيان ، طبعة ليڤى پروڤنسال وكولان ، ليدن ١٩٥١ ، ص ٣٣ .

(٣) أثبتها محمد عبد الله عنان : عنائهم ، وهى قراءة لا يستقيم بها المعنى ، والصحيح ما أثبتناه . وسنفصل فيما يلى كيف اعتبر جند الأندلس الأرض غنيمة بخلاف ما يقضى به تشريع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه .

فاذا كان العطاء أو حضر الغزو لحق [١] بجنده ، وهم الذين كانوا سموا الشاذة [٢] حينئذ .

٦ — قال أحمد بن موسى [الرازى] [٣] : وكان الخليفة يعقد [للشاميين] لواءين : لواء غازيا ولواء مقيما .

وكان رزق الغازى بلوائه (أى صاحب اللواء) ٢٠٠ دينار ويبقى المقيم (أى صاحب اللواء المقيم) بلا رزق ثلاثة أشهر ثم يدال (صاحب اللواء) بنظيره من أهله أو غيرهم .

٧ — وكان الغزاة من الشاميين ، مثل اخوة المعهود له (أى صاحب لوائهم) أو بنيه أو بنى عمه يرزقون عند انقضاء غزاته ١٠ دنانير .

٨ — وكان يعقد المعقود له (أى صاحب اللواء) مع القائد (أى قائد الجيش المركزى ، ومعنى يعقد له أن يتعهد له) يتكشف عمن غزا ويستحق العطاء ، فيعطى على قوله تكرمة له .

٩ — وكانت خدمتهم (أى خدمة الشاميين) فى العسكر (أى الجيش العام للدولة) واعتراضهم اليه (أى أن قيادة الجيش هى التى كانت تستعرضهم قبل الخروج) .

١٠ — ومن كان من الشاميين غازيا من غير بيوتات العقد (أى من غير بيوتات أصحاب الألوية) ارتزق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو .

(١) أثبتها عنان : ولحق بجنده ، والواو زائدة .

(٢) أثبتها عنان : الشادة بالدال ، وهو خطأ . راجع دوزى : ملحق القواميس ، مادة شاذ ، ج ١ ، ص ٧٣٩ .

(٣) أضفنا ما بين الحاصرتين من عندنا ، لأن المراد أحمد بن محمد بن موسى الرازى لا أحمد ابن موسى العدوى الذى ذكره عنان فى الهامش نقلا عن كشف الظنون .

١١ — ولم يكن يعطَى أحد من البلديين شيئا غير المعقود له .

١٢ — وكان البلديون أيضا يعقد لهم لواءان : لواء غاز ولواء مقيم.

١٣ — وكان يرتزق الغازى [بلرائه] مائة دينار وازنة . وكاز يعقد لغيره الى ستة أشهر ، ثم يدال بنظيره من غيرهم .

١٤ — ولم يكن الديوان والكتبة الا فى الشاميين خاصة .

١٥ — وكانوا أحرارا من العُشر ، معدين للغزو .

١٦ — ولا يلزمهم الا المقاطعة على أموال الروم التى كانت بأيديهم .

١٧ — وكان العرب من البلديين يؤدون العشر مع سائر أهل البلد (= أهل البلاد) .

١٨ — وكان أهل بيوتات منهم (أى من أهل البلاد) يغزون كما يغزو الشاميون ، بلا عطاء ، فيسير بهم الى ما تقدم ذكره ؛ وانما كان يكتب أهل البلد فى الغزو .

١٩ — وكان الخليفة يخرج عسكرين الى ناحيتين .

٢٠ — فيستتر بهم (أى يستعين بالمقيدين من أهل البلاد فى الغزو ليحتمى بهم أثناء غياب العسكرَين الرسميين فى الغزو) .

٢١ — وكانت طائفة ثالثة يسمون « النظراء » من الشاميين والبلديين، كانوا يغزون كما يغزو أهل البلد من الفريقين » (١) .

وهذا نص واضح مفصل يلقى ضوءا على أسلوب حياة العرب ووظيفتهم فى المجتمع الأندلسى . وأهم ما يعنينا منه هو أن جماعات العرب انتشرت فى البلاد ونزلت النواحى وملكت الأرض ، وكثرت

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ص ١٠٩-١١١ .

وتمولت . وغالبية هؤلاء من البلديين ، أما الشاميون فقد كانت لهم الصدارة ، كانوا عماد الجيوش وأصحاب الديوان والكتبة فيه ، وكان عليهم أن يقدموا للجيش المركزى لواءين ، لواء يخرج للغزو ولواء يقيم على الأهبة ، واللواء الغازى لا يقيم فى الغزو الا ثلاثة أشهر ثم يعود ويخرج الثانى ، وكان لكل لواء أمير يرزق ٢٠٠ دينار عن كل غزوة ، أما الجند وأقارب صاحب اللواء فكان الواحد منهم يرزق عشرة دنانير فى نهاية كل غزوة . وكانوا فى مقابل هذه الخدمة الحربية المستمرة يعفون من أداء العُشر ، ويستولون على ثلث أموال من نزلوا بأرضهم من أهل البلاد . أى أن الدولة منحتهم حق ملكية ثلث هذه الأموال . فاذا ذكرنا أن القوط أيضا كانوا يستولون على ثلث الأموال فى مقابل الخدمة العسكرية ، تبينا أن أولئك الشاميين حلوا فى الواقع محل القوط فى وضعهم وحقوقهم . واقطاع المحاربين الثلث عرف غير اسلامى ، وانما هو استمرار لتقاليد القوط مع خلاف واضح استتبعته العدالة الاسلامية ، فان القوطى كان يستولى على الثلثين (Sors - Sortes) ويترك لأهل البلد الثلث (Tercia) ، أما العرب فلم يسمحوا للمحارب منهم بغير الثلث وتركوا الثلثين لأهل البلاد .

أما العرب البلديون — وهم القدامى من اليمنيين والشاميين ، ومعظمهم من اليمنيين — فقد اختلطوا بأهل البلاد وزرعوا وحصدوا وسقط عنهم التكليف العسكرى ، غير أنهم كانوا يستطيعون الانخراط فى ألوية خاصة بهم ، ولا يقدر عطاء الا لرؤسائهم أصحاب ألويتهم ، أما المقاتلون منهم فلم يكونوا يعطون شيئا ، وحسبهم ما كانوا يحصلون عليه من غنيمة ، وكانوا يدفعون العشر كغيرهم من زراع أهل البلاد ،

فى حين كان الشاميون معفين من العشور ، بالضبط كما كان القوط معفين من الضرائب .

٢٨٢ – اشتراك أهل البلاد فى الجيوش

والاشارة الى أهل البلاد هنا جديرة بالملاحظة ؛ والمراد بهم كما قلنا أهل البلاد الأصليون ، فهؤلاء لم يكونوا ملزمين بالغزو بل كان يتطوع منهم من يريد ، ويقيد اسمه فى سجلات المعسكر ولكنهم كانوا لا يرزقون ، شأنهم فى ذلك شأن البربر والعرب البلديين ، وكانت تؤلف منهم قوات احتياطية يستعين بها الحاكم اذا خرجت جيوشه للغزو .

٢٨٣ – التقليد الشامى

والخلاصة أن الشاميين الذين أتوا مع بلج أصبح لهم مركز ممتاز ، فهم رجال الأجناد وأهل الديوان ، وهم لا يدفعون العشور ؛ أى أن الدولة الاسلامية الأندلسية صارت شامية بعد مجىء طالعة بلج : أصبح أهل الشام أصحابها وذوى المكانة العليا فيها ، وهذا ما يعرف فى تاريخ الأندلس بالتقليد الشامى ، وقد أيد أمراء بنى أمية هذه الشامية على طول تاريخهم ، حتى أن الأمير محمدا رفع الشاميين فوق غيرهم ، وقرر لهم ذلك الامتياز الذى سيحافظون عليه حتى منتصف امارة عبد الرحمن الناصر على الأقل .

* * *

٢٨٤ – الإدارة المركزية

لا تكاد المراجع التي بأيدينا تقدم لنا شيئا يعيننا على تكوين صورة تقريبية عن النظام الذى أدار العرب به شئون الأندلس خلال الأربعين سنة التى سبقت قيام الدولة الأموية ، وقد كان من الميسور أن نقول ان الأندلس أدير على النحو الذى أديرت به مصر مثلا خلال القرن الأول الذى تلا الفتح ، لو كانت

لدينا بضع معلومات رئيسية تؤيد القول بأن الأمر فى الأندلس كان كما كان فى غيره من البلاد التى فتحها المسلمون ، ولكن هذه المعلومات الرئيسية ليست بين أيدينا مع الأسف ، حتى الخراج والجزية — وكانا موضع اهتمام مؤرخى الفتوح — لا نجد لهما ذكرا واضحا فى تواريخ الأندلس التى بين أيدينا ، بل ليس فيها ذكر لقدر الخراج أو نظامه ولو مرة واحدة نستطيع القياس عليها ، ولو أننا قلنا ان الأندلس لم يرسل الى دار الخلافة خراجه مرة واحدة لما بالغنا ، ويبدو من مجموع ما لدينا من المعلومات أن عرب الأندلس الذين فتحوه أداروه على غير نظام ثابت معروف كما سنرى [1] . وسنورد فيما يلى ما لدينا من البيانات عن الادارة المركزية .

* * *

٢٨٥ – نظام الولاية

ويبدو اضطراب هذا النظام فى صورة واضحة جدا فى طريقة تولى ولاة الأندلس مناصبهم ؛ فقد فتح الأندلس على يد عامل افريقية موسى بن نصير : بعث مولى من مواليه

---

(١) اكتفى صاحب «فتح الأندلس» فى بيان سياسة المسلمين فى الأندلس بقوله إن موسى غفت عينه أثناء العبور إلى الأندلس و «رأى موسى النبى صلى الله عليه وسلم فبشره بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد للمشركين ...» ، وهذا هو كل ما نجده فى هذا الكتاب عن حكومة المسلمين فى الأندلس فى عهد الولاة !

انظر : «فتح الأندلس» ، ص ٥ .

وقد اكتفى نفس المؤلف فى الكلام عن تصرف طارق فى الغنائم بقوله : « وجمع طارق الغنائم وأخرج خمسها ، وقسم باقيها » دون أن يذكر لنا ماذا فعل طارق بهذا الخمس – (فتح الأندلس ، ص ٧) . ثم أكد بعد ذلك أمر تقسيم الغنائم بين الفاتحين وفصل تلك الغنائم بأنها كانت سبياً ومتاعا وأرضين ورباعا (أى بيوتاً) – نفس المصدر ، ص ١٣ . وبلغ من اضطراب أخبار مصير خمس الدولة من المغانم أن ذهب نفس المؤلف إلى أن هشام بن عبد الملك وهبها لحفيده عبد الرحمن (كذا) فأرسل هذا من لدنه نائباً عنه ليجمعها له ، وتلك أسطورة من غير ريب ؛ يغلب أنها ظهرت بعد قيام الدولة الأموية الأندلسية – (فتح ، ص ١٥) .

البربر هو أبو زرعة طريف فاستطلعها له ، ثم بعث مولى آخر بربريا هو طارق بن زياد ففتحها ، ثم عبر هو بنفسه فأتم هـذا الفتح وأصبح أول ولاتها ، واعتبرت الأندلس جزءا من المغرب يولى عليها عامل المغرب من يريد من رجاله ، كما اعتبرت افريقية ولاية تابعة لوالى مصر فى أول أمرها ، ولهذا ترك موسى عليها ابنه عبد العزيز بن موسى حينما رحل الى المشرق فى أواخر سنة ٩٥هـ . ولم يثبت الخليفة سليمان بن عبد الملك فى الولاية ، فظل واليا معتمدا على وصاة أبيه له بالحكم .

فلما قتل عبد العزيز بن موسى انفرد جند الأندلس باقامة واليهم ، فأقاموا أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير : لم يوله والى افريقية ولا الخليفة سليمان بن عبد الملك أيضا ، ويفهم من النصوص أن البربر كانوا أصحاب اليد الطولى فى قيامه بالولاية .

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يصحح هذا الوضع الشاذ ، فقرر أن يعيد هذا الحق الى والى افريقية ، فلما ولى على افريقية محمد بن يزيد عجل هذا فبعث اليها الحرّ بن عبد الرحمن ، ويبدو أن الحر أحس أن عرب الأندلس سيعارضون فى ولايته وسيدافعون عن هـذا الحق الذى كسبوه لأنفسهم ، فاستصحب معه أربعمائة من وجوه افريقية ليؤيدوه ، وقد قبله أهل الأندلس دون مقاومة ، ولم يكد المقام يستقر به حتى عجل بنقل دار الامارة من اشبيلية الى قرطبة ، وربما كان دافعه الى هذا رغبته فى الابتعاد عن جماعات العرب التى استقرت فى اشبيلية وكثرت فيها ، ورغبته فى أن يكون بموضع أقرب الى الجزيرة الخضراء والمغرب من اشبيلية ، ولم يكن دافعه مجرد الرغبة فى جعل دار الامارة بمكان يتوسط شبه الجزيرة كما تقول المراجع ، لأن قرطبة ليست فى وسط الجزيرة على أى حال .

ولم تطل ولاية الحر على الأندلس أكثر من سنتين وثمانية أشـهر (ذو الحجـة ٩٧ — رمضان ١٠٠ هـ / أغسطس ٧١٦ — مارس — أبريل ٧١٩ م) لم يستطع خلالها أن يقوم بأمر ذى بال .

٢٨٦ – تفكير الخلافة فى إخلاء الأندلس

فاذا كانت خلافة عمر بن عبد العزيز وجدنا أنفسنا أمام أمر غريب لم نسمع بمثله فى بلد آخر مما فتح المسلمون ، وهو رغبة الخلافة فى اخلاء الأندلس واسترجاع العرب منها ، ولو ورد لنا هذا فى مرجع واحد لما علقنا عليه أهمية كبيرة ، ولكن اجماع المراجع على ذكره يجعلنا نفكر فى البواعث التى حدت بعمر بن عبد العزيز الى التفكير فيه ، وهو المتحمس للاسلام الراغب فى بسط رواقه وادخال الناس كلهم فى رحابه . ولا شك فى أن دافعه الى ذلك كان احساسه بأن أحوال المسلمين فى الأندلس ليست على ما يرام ، وأن مستقبل الاسلام فى هذا البلد القصى لا ينبىء بخير كثير ، ويبدو أن غرض عمر بن عبد العزيز الأول من ارسال السمح كان استطلاع أمر البلاد ، مما يدلنا على أن أخبار الأندلس كانت طوال الفترة الماضية منقطعة تماما عن مركز الخلافة ، وأن عمر بن عبد العزيز لم يكن يعرف عنها شيئا ، ولم يكن يصل اليه شىء من أموالها ، ولهذا « أمره أن يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ماغلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب اليه بصفة الأندلس وأنهـارها ، وكان رأيه نقل المسلمين منها ونقلهم عنها ، لانقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقيل له ان الناس قد كثروا بها وانتشروا فى أقطارها ، فأضرب عن ذلك » (١) .

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

بيد أن ارتباط فكرة اخلاء الأندلس بمجىء السمح وأمره بتخميس ما غلب عليه من أرضها يلقى على الموضوع شعاعا من النور ، ويفهمنا أن الأندلس لم يكن قد تم تخميسه الى ذلك الحين ، ولم يكن قد بعث الى دمشق بشىء من أمواله ، فلا عجب أن وقر فى أذهان الخلفاء أنه بلد لا خير للمسلمين فيه وليس لهم بين رحابه بقاء فأرادوا اخلاءه . ثم ان أمر المسلمين لم يستقر فيه خلال الولايات الثلاث الماضية على نحو يبعث على الأمل فى صلاح مستقبله . فقد حاول عبد العزيز بن موسى الوثوب بالخلافة ، ووقع بينه وبين عرب الأندلس خلاف شديد ، فلما قتل قدم البربر على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير ، فكان فى توليته على هذا النحو ما أثار مخاوف الخلافة ، ثم خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، ولم يوله سليمان وانما ولاه محمد بن يزيد عامل افريقية لسليمان ، فلم يظهر كفاءة خاصة ، وكانت البلاد فى حاجة الى من يرتب أمورها ويضع أسس الادارة العربية فيها ، ووجدت الخلافة نفسها بين أمرين فى شأن الأندلس : اما اخلائه أو تنظيمه ، فلما استبانت صعوبة الأمر الأول لم يبق الا المضى فى الثانى . وسنتحدث عن أعمال عمر ابن عبد العزيز الادارية فى فقرة تالية ؛ وانما يكفى أن نذكر هنا فى حديثنا عن نظام الولاية ، أن السمح كان أول وال تقيمه الخلافة على الأندلس ، وأن عمر بن عبد العزيز حين استقر رأيه على المضى فى تعمير الأندلس ، لم يعهد الى واليه السمح بن مالك فى روك البلد واحصاء أراضيه وتنظيم أموره على أسس الشريعة ، بل ندب لذلك مولى من مواليه تسميه المراجع « جابرا » نستطيع القول أن الخلافة اعتبرته عامل خراج للاندلس ، وفصلت بذلك شئون الخراج عن الولاية العامة ، ولم يتح

لجابر هذا أن يستمر فى مهمته ، فقد رفع يده عن التخميس بمجرد أن وصله نبأ موت عمر بن عبد العزيز ، ولم تلبث ولاية السمح نفسه أن انتهت ، اذ قتل على ما رويناه وعادت الأندلس الى التبعية لافريقية ، وقد حاول جند الأندلس انتزاع هذا الحق من عمال افريقية ، فأقاموا عبد الرحمن الغافقى واليا ، وكانت تلك هى ولايته الأولى ولكنها لم تدم اذ أن بشر بن صفوان عامل المغرب ولى أحد رجاله — وهو عنبسة بن سحيم — على الأندلس .

ولم يجر الأمر على التبعية المطلقة للمغرب بعد ذلك ، لأن عرب الأندلس لم يدعوا فرصة تمكنهم من استعادة هذا الحق الا انتهزوها ، فحينما مات عنبسة (شعبان ١٠٧/فبراير — مارس ٧٢٦ م) عجلوا باقامة أحد رجالهم وهو عذرة بن عبد الله الفهرى ، ولم تدم ولايته أكثر من شهرين ، لأن بشر بن صفوان عامل افريقية عجل بارسال يحيى بن سلامة عاملا على الأندلس فى شعبان من نفس السنة ، ولم تزد ولاية يحيى بن سلامة على سنتين وستة أشهر على أوسع الفروض ، اذ عزله والى المغرب الجديد عبيدة بن عبد الرحمن واستبدل به أحد رجاله وهو حذيفة بن الأحوص القيسى (ربيع الأول ١١٠/يونيو — يوليو ٧٢٨ م) [1] .

ولم تطل ولاية حذيفة الا أشهرا ، اذ خلفه عثمان بن أبى نسعة الخثعمى (فى شعبان ١١٠/نوفمبر — ديسمبر ٧٢٨ م) وكذلك وقع للوالين اللذين خلفاه وهما الهيثم بن عبيد الكلابى ومحمد بن عبد الله الأشجعى ،

(١) انظر ثبت الولاة الذى ذيل به لافوينتى إى ألكانترا ترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٢٣٣ .

فلم تطل ولاية هؤلاء الأربعة عن سنة وخمسة أشهر (شعبان ١١٠ — صفر ١١٢/نوفمبر — ديسمبر ٧٢٨ — مارس — ابريل ٧٣٠) . وقد ولاهم جميعا عمال افريقية ، حتى عبد الرحمن الغافقى الذى أتى بعدهم فقد كان لابد أن يقر عبيدة بن عبد الرحمن ولايته رغم ما كان بينهما من خلاف (١) .

وحينما استشهد عبد الرحمن الغافقى (رمضان ١١٤/أكتوبر٧٣٢م) ولى جند الأندلس على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهرى ، وقد أقر عامل افريقية هذا الاختيار ، ولكن عبيد الله بن الحبحاب لم يلبث أن عزله بُعيد ولايتـه على المغرب وولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولى . ولا نزاع فى أن عرب الأندلس — واليمنيين منهم بوجـه خاص — لم يرضوا عن ذلك الاجراء ، فلم يزالوا يرقبون الفرصة حتى اذا سنحت لهم باشتغال عبيد الله بن الحبحاب بثورة البربر فى افريقية عجلوا فوثبوا بعقبة (٢) ، ويقال ان عقبة أوصى لعبد الملك بن قطن قبل موته ، ومهما يكن من الأمر فقد تولى عبد الملك بن قطن للمرة الثانية بارادة جنـد الأندلس .

ولم يتدخل عمال افريقية ولا الخلفاء فى تولية عمال الأندلس من ذلك الحين الى قدوم أبى الخطار ، فقد وثب بلج بن بشر بعبد الملك بن قطن ، وزعم أن هشام بن عبد الملك أوصى له بالولاية وهو زعم لانملك مايؤيده ، وخلفه ثعلبة بن سلامة بارادة القيسيين ، ولم يعد الأمر الى عمال افريقية الا فى رجب سنة ١٢٧هـ/أبريل٧٤٥م حينما أتيح لحنظلة بن صفوان عامل

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١٦-٢١٧ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٤ .

افريقية أن يولى على الأندلس أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبى (رجب ١٢٥ هـ/مايو ٧٤٣م) .

ولا نزاع فى أن أبا الخطار كان يتوقع معارضة القيسيين فى ولايته ولهذا سار الى الأندلس شبه مستخف ، وكان معه ثلاثون رجلا من الشاميين أراد أن يستعين بهم على بنى عمومتهم ، وكان لواؤه فى سِنٍّ داخل عيبته ، فلما نزل على وادى شوش أصلح من شأنه وركب السن باللواء فى القناة ، ثم تقدم . فلما أشرف من فج المائدة ، والحرب قائمـة بين الشاميين والأمويين وبين البلديين والبربر ، ونظر الفريقان الى اللواء حلوا الحرب وأسرع كل واحد من الفريقين اليه ، فقال لهم : « تسمعون وتطيعون ؟ فقالوا : نعم .. » (١) . وقـد سمعوا بالفعل وأطاعوا أبا الخطار الذى أتاهم بسجل حنظلة بن صفوان بعهد أمير المؤمنين هشام اليه ، ولكن طاعتهم لم تطل الا ريثما استبانوا فى أبى الخطار بعض الميل الى اليمنية فانقلبوا عليه وقتلوه ، وصـار الأمر الى يوسف الفهرى والصميل ، ولا زالا فيه حتى انتزعه منهما عبد الرحمن الداخل .

لم تسر الولاية فى الأندلس اذن على قاعدة واحدة ، بل كانت فى يد الخلافة المركزية حينا ، وبيد عمال المغرب حينا آخر ، وبيد مسلمى الأندلس أنفسهم فى معظم الأحيان ، وكان هـذا مظهرا من مظاهر الاضطراب الادارى الذى ساد الأندلس خلال هذه الفترة .

ولسنا نستطيع أن نتعرف مدى السلطان الذى تمتع به كل واحـد من هؤلاء الولاة ، فمن الثابت أن قيادة الجند كانت بأيديهم ، وأنهم كانوا يولون القضاة كذلك ، ولكن سلطانهم على مسائل الخراج موضع

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٩ .

شك كبير ، وكل ما يمكننا أن نقوله هو أننا لم نسمع عن عامل خاص بالخراج والجباية الا فى حالتين : حالة جابر الذى تحدثنا عنه ، وحالة رجل يسمى أبا عثمان بن عبد الله « صاحب أزمّة الأرض والخراج » [١]، وربما جاز أن نقول ان شئون الخراج كانت بيد عمال الأندلس فكانوا يولونه من يشاءون ، وسنرى أن شئون المال كانت ترزح تحت خلل شديد.

ولما كنا لم نسمع عن ارسال خراج من الأندلس الى افريقية أو الى المشرق ، فالغالب أن عامل الأندلس كان ينفق بعضه على أجناده ويحتفظ بالباقى لنفسه : اما لينفق منه على الحملات والمرافق العامة أو لشئونه الخاصة.

ولم يرد فى النصوص ذكر لبيت المال ، أو صاحب بيت المال ، وحتى فى المناسبات التى كان الوالى يخرج فيها بعض المال لشئون الجند ، نجده يخرجه من عند نفسه لا من بيت المال ، مما يدل على أن عمال الأندلس لم يحفلوا بانشاء ادارة خاصة لشئون الخراج .

ولم يمتد سلطان الوالى على عرب الأندلس أجمعين الا فى النادر ، وكانت هناك دائما جماعات كبيرة خارجة عن سلطانه بنواحيها ، ولم يزد سلطانه فى أيام يوسف الفهرى على اقليم قرطبة ، وقد أدى ذلك الى قلة ما لديه من المال ، فهبط سلطان الوالى على البلاد خلال السنوات العشر التى سبقت قدوم عبد الرحمن الداخل هبوطا بالغا .

وكان جهد الولاة الأول — قبل اندلاع نيران الثورة البربرية واشتداد منازعات العصبية — منصرفا الى اتمام الفتح ، ومواصلة الغزوات فيما وراء البرانس ، وكان هذا هو عمل الولاة الأول حتى نهاية

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

ولاية عقبة بن الحجاج السلولى [١] ، ثم انصرف عرب الأندلس عن ذلك انصرافا تاما تقريبا ، ولم يعد أمراء الأندلس الى الغزو الا بعد أن قامت الامارة الأموية على يدى عبد الرحمن الداخل .

أما اهتمام الولاة بشئون المرافق العامة فلم نسمع عنه الا فى مناسبة واحدة ، وذلك أثناء ولاية السمح بن مالك القصيرة ، فقد ابتنى قنطرة قرطبة على الوادى الكبير بناء حسنا أورد خبره صاحب «فتح الأندلس» بتفصيل لا بأس من ايراده فقال : « وقال ابن مفرج فى تاريخه : أصاب المسلمون اذ فتحوا الأندلس بمدينة قرطبة آثار قنطرة رفيعة القدر معقودة فوق نهرها الجارى على عدة حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الماضية الداثرة ، لم يبق منها الا رسوم ، ولا يصل الناس الى قرطبة الا فى السفن ، فيلقون فى ركوبها مشقة عظيمة ، فأمر عمر ابن عبد العزيز السمح بن مالك ببنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر فى معمور الأرض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلى المدعو بها » [٢] ، وهذا هو المرفق الوحيد الذى حرص ولاة هذه الفترة على الاهتمام به ، اذا استثنينا جبانة قرطبة التى أنشئت فى زمن السمح بن مالك أيضا [٣] .

ثبت بولاة الأندلس

٢٨٧ — ونختم كلامنا عن عصر الولاة بثبت بولاة الأندلس من لدن الفتح الى قيام دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل :

(١) LÈVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, I. p. 28.

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .

والأخبار المجموعة ، ص ٢٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

١ — طارق بن زياد

من رجب ٩٢/أبريل — مايو ٧١١ الى رمضان ٩٣/يونيو ٧١٢

٢ — موسى بن نصير

من رمضان ٩٣/يونيو ٧١٢ الى صفر ٩٥/أكتوبر — نوفمبر ٧١٣

٣ — عبد العزيز بن موسى

من صفر ٩٥/أكتوبر — نوفمبر ٧١٣ الى رجب ٩٧/مارس ٧١٦

٤ — أيوب بن حبيب اللخمى

بعد شهور من مقتل عبد العزيز الى ذى الحجة ٩٧/أغسطس ٧١٦

٥ — الحر بن عبد الرحمن الثقفى

من ذى الحجة ٩٧/أغسطس ٧١٦ الى رمضان ١٠٠/مارس — أبريل ٧١٩

٦ — السمح بن مالك الخولانى

من رمضان ١٠٠/مارس — أبريل ٧١٩ الى ذى الحجة ١٠٢/يونيو ٧٢١

٧ — عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (المرة الأولى)

من ذى الحجة ١٠٢/يونيو ٧٢١ — صفر ١٠٣/أغسطس ٧٢١

٨ — عنبسة بن سحيم الكلبى

من صفر ١٠٣/أغسطس ٧٢١ الى شعبان ١٠٧/يناير ٧٢٦

٩ — عذرة بن عبد الله الفهرى

من شعبان ١٠٧/يناير ٧٢٦ الى شوال ١٠٧/ فبراير — مارس ٧٢٦

١٠ — يحيى بن سلامة العاملى الكلبى

من شوال ١٠٧/فبراير — مارس ٧٢٦ الى ربيع الأول ١١٠/يونيو — يوليو ٧٢٨

١١ — حذيفة بن الأحوص القيسى

من ربيع الأول ١١٠/يونيو — يوليو ٧٢٨ الى شعبان ١١٠/نوفمبر — ديسمبر ٧٢٨

١٢ — عثمان بن أبى نسعة الخثعمى

من شعبان ١١٠/نوفمبر — ديسمبر ٧٢٨ الى المحرم ١١١/أبريل ٧٢٩

١٣ — الهيثم بن عبيد الكلابى

من المحرم ١١١/أبريل ٧٢٩ الى ذى القعدة ١١١/يناير — فبراير ٧٣٠

١٤ — محمد بن عبد الله الأشجعى

من ذى القعدة ١١١/يناير — فبراير ٧٣٠ الى صفر ١١٢/مارس — أبريل ٧٣٠

١٥ — عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (المرة الثانية)

صفر ١١٢/مارس — أبريل ٧٣٠ الى رمضان ١١٤/أكتوبر ٧٣٢

١٦ — عبد الملك بن قطن الفهرى (المرة الأولى)

من رمضان ١١٤/أكتوبر ٧٣٢ — شوال ١١٦/نوفمبر ٧٣٤

١٧ — عقبة بن الحجاج السلولى

من شوال ١١٦/نوفمبر ٧٣٤/صفر ١٢٣ الى يناير ٧٤١

١٨ — عبد الملك بن قطن الفهرى (المرة الثانية)
من صفر ١٢٣/يناير ٧٤١ الى ذى القعدة ١٢٣/سبتمبر ٧٤١

١٩ — بلج بن بشر القُشَيْرى
من ذى القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١ الى شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢

٢٠ — ثعلبة بن سلامة العاملى
من شوال ١٢٤/ أغسطس ٧٤٢ الى رجب ١٢٥/مايو ٧٤٣

٢١ — أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى
من رجب ١٢٥/مايو ٧٤٣ الى رجب ١٢٧ /أبريل ٧٤٥

٢٢ — ثوابة بن سلامة الجذامى
من رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥ الى المحرم ١٢٩ / سبتمبر — أكتوبر ٧٤٦
أعقبت موته أربعة أشهر من الاضطراب تولى الأمر خلالها عبد الرحمن بن كثير اللخمى دون ولاية

٢٣ — يوسف بن عبد الرحمن الفهرى
(بالاشتراك مع الصميل بن حاتم)
من ربيع الثانى ١٢٩/ديسمبر ٧٤٦ ويناير ٧٤٧ الى ١٠ ذى الحجة ١٣٨/١٤ مايو ٧٥٦ .
وهو تاريخ بدء امارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

* * *

٢٨٨ — الناحية المالية

بيد أن عقدة العقد فى تاريخ عصر الولاة هى ناحية الخراج وتوزيع الأرض ، وبين المراجع خلاف شديد حول هذا الموضوع ، والواقع الذى نستطيع استخلاصه من مجرى الحوادث هو أن هذه الناحية كانت مضطربة فى الأندلس اضطرابا شديدا ،

وأن ولاة الأندلس لم يستطيعوا أن يخضعوا أرض شبه الجزيرة وعقارها للقواعد التى تقررها الشريعة للأرضين والعقارات فى البلاد المفتوحة ، هذا على الرغم من أن موسى بن نصير قد حاول ذلك على أول الفتح ثم حاد عن النظم التى وضعها وأساء التصرف فى الأموال ، وكان هذا من أسباب نكبته ، وكان كذلك من أسباب البلاء فى الأندلس فيما بعد ، لأنها لم ترزق بعد ذلك بوال أتاحت له مواهبه وظروفه اعادة الأمور الى نصابها الذى كان ينبغى أن تكون عليه ، حتى قامت الدولة الأموية .

٢٨٩ — أسس النظام المالى فى الأندلس برواية محمد بن مزين

واليك أسس النظام المالى كما قررها موسى بن نصير بين يدى الفتح . « قال محمد [بن مزين] : وحين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى بن نصير البكرى التابعى بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبيها وسائر مغانمها . وأخرج من أرضها ورباعها الخمس كما أخرجه من سبيها ومتاعها ، واختار من خيار السبى وصغاره مائة ألف وحملهم الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل والسبى (كذا ، ولعل صحتها كبار السبى) ووخش الرقيق فى الخمس من الأرضين يعمرونها ليثلث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يعرفون بالأخماس ، وأولادهم بنو الأخماس . قال : وأما سائر الناس النصارى الذين كانوا فى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة ، فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية ، فى أرض الثمر وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر فى نخيلهم وأرضيهم .. » (١)

(١) راجع نص محمد بن مزين الذى نشره دوزى كلحق لمباحثه .
= DOZY, *Recherches*, I. Appendix pp. III-VI.

وهى عبارة يفهم منها أن موسى بن نصير اعتبر الأندلس ، ما عدا نواحى الشمال ، قد فتحت عنوة ، فأخذ خمسها لبيت المال ووزع الباقى بين الفاتحين ، وأخذ جزءا من خمس السبى فبعث به الى الوليد ابن عبد الملك وأطلق الباقى فى أرض الخمس ليزرعوه وليثلث مال المسلمين ، وهى عبارة غامضة لا يفهم المراد منها بالضبط : هل تركهم على أن يؤدوا ثلث المحصول أو ثلثيه للمسلمين ؟ ولم يعين لنا النص أرض الخمس هذه ، وربما استطعنا تحديدها على وجه تقريبى مستعينين بما سنورد من النصوص القليلة التى عثرنا عليها .

وأما اشارته الى الأراضى التى تركت بين يدى أهلها على شرط أداء الجزية عنها فاشارة لا تكاد تغنى ، لأنه يقرر أنها أرض « سائر النصارى الذين كانوا فى المعاقل المنيعة ، والجبال الشامخة .. بأرض الشمال » ، فأى أرض شمال [1] ؟ وهل لم تكن فى غير الشمال بلاد فتحت صلحا على الاطلاق ؟

= ويلاحظ أن هذه القطعة مأخوذة من الرسالة الشريفية ، وهى قطعة من « رحلة الوزير لافتكاك الأسير » للغسانى ، كما سنرى بعد قليل .

وانظر عن محمد بن مزين :

DOZY, *Scrip. Ar. Loci de Abbad.* II, 123.

(١) وردت هذه العبارة مفسرة بعض التفسير فى الرسالة الشريفية كما يلى : «قال محمد بن مزين : وجدت فى خزانة بإشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربعمائة أيام الراضى بن المعتمد سفرا صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازى سماه بكتاب الرايات ... وأما سائر النصارى الذين كانوا فى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على أجزاء منها مع أداء الجزية فى أرض الثمرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتُدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر فى نخيلهم وأرضيهم...» — الرسالة الشريفية ص ١٩٩ .

و «الرسالة الشريفية» مخطوط صغير عثر عليه خليان ريبيرا ونشره ذيلا على « تاريخ افتتاح =

ثم يعود محمد بن مزين فيوضح ما قاله بعض الشىء ويقول : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم وتصيَّرت ملكا لهم الا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها الا ثلاثة بلاد هى شنترين وقلنبرية فى الغرب وشية (Xea) فى الشرق ، وسائر البلاد خُمِّست وقسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير » أى أن هذا التقسيم لم ينطبق الا على النواحى التى فتحت بالسيف (عدا النواحى الثلاث المذكورة) . أما ما فتح صلحا فقد تركه بيد أصحابه على أن يؤدوا الجزية ، ويعود فيناقض نفسه ويقول : « فقال بعض علماء السلف بأرض الأندلس ان أكثرها انما فتح صلحا الا الأقل من مواضع معروفة ، وأنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد الا أذعنوا الى الصلح ، وكذلك بقى الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم » أى أن الذى فُتح عنوة وخُمس وقسم باقيه بين الفاتحين كان قليلا جدا ، وأما بقية المفتوح من أرض الأندلس فقد ترك لأصحابه من أهل البلاد يفعلون به ما يشاءون على أن يؤدوا عنه الخراج ، وكذلك كان حال بعض أرض الشمال التى صالح عليها أهلها .

ثم يذكر بعد ذلك أن النواحى التى فتحت صلحا وتركت بيد أهلها توارثها أصحابها ، وأن المسلمين صالحوهم على أرضهم وشجرهم فقط لا سائر أموالهم ، فهذه لم يمسها المسلمون بشىء .

= الأندلس لابن القوطية» (مدريد ١٩٥٦) ، ص ١٨٩ وما يليها تحت عنوان «نبذة من أخبار فتح الأندلس ، وهى مأخوذة من الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية» ، ثم تبين فى بعد أن هذه الرسالة هى الكتاب المعروف باسم « رحلة الوزير لافتكاك الأسير » لمحمد بن عبد الوهاب الغسانى (وزير مولاى إسماعيل وسفيره إلى كارلص الثانى ملك إسبانيا عام ١١٠٢هـ / ١٦٩٠–١٦٩١ م . توفى فى زنقة الرطل من فاس القرويين عام ١١١٩–١٧٠٨) . نشرها الفريد البستانى فى تطوان سنة ١٩٥١ . وتعرف هذه أيضاً بالرسالة الشريفية ، والجزء الذى نشره ريبيرا منها يبدأ فى ص ١٠٧ من طبعة الفريد البستانى .

ويقول محمد بن مزين بعد ذلك : « ولما وصل خبر فتحها الى أمير المؤمنين الوليد ووفد عليه موسى وجماعة من المستفتحين للأندلس معه يستأذنونه فى اخلائها والرحيل عنها الى أوطانهم ، قربهم وأنّسهم وأقطعهم الاقطاعات فيها ، وأقرهم على [بياض بالأصل] (1) ولم يجعل لهم سبيلا الى الخروج منها ، ولا أوسعهم عذرا فى اخلائها وردهم اليها والى جيرانهم (2) بجوابه » . وطبيعى أن هؤلاء الذين عادوا الى المشرق وأرادوا ترك الأندلس كانوا من العرب ، زهدوا فى البلاد لبعدها عن أوطانهم ، فاستمالهم الوليد الى البقاء باقطاعهم الاقطاعات ، وطبيعى كذلك أن هذه الاقطاعات الجديدة كانت من أرض الخمس التى تخص بيت المال .

فلما كانت أيام عمر بن عبد العزيز ، وواليه على الأندلس السمح ابن مالك ، أقبلت معه جماعة من العرب من وجوه افريقية ، ولم يكن عددهم عظيما لأن المراجع تحددهم بأربعمائة فقط ، « فأراد (أى جند السمح) النزول معهم فى أموالهم ومشاركتهم فيما بأيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا اليه ذلك ، ورغبوا اليه فى الرجوع الى بلادهم وادالتهم بمن ورد مع السمح ، فمنعهم من ذلك وأنّسهم وعقد لهم ، وأشهد فى عقدهم على اقرارهم فى أموالهم ، وأقطع الواردين مع السمح اقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا اقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسددها ، فكيف بتلك

(1) بياض فى النسخ الثلاث، ولكننا نفهم من بقية النص أن الكلمة الناقصة هى: أرضهم .

(2) هذه الكلمة قلقة هنا ، وقد وردت على هذه الصورة فى النسخ المطبوعة الثلاث . وربما كانت صحة قراءتها : حيزانهم ، أى ما حازوه من أرض .

الناحية ؟ فانا نستخير الله فى اجلاء المسلمين عنها . ثم انه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله » (1) .

ونستنتج من هذه العبارة ما يلى :

١ — أن عرب الأندلس الذين كانوا قد استقروا بها قبل سنة ١٠٠ هـ/٧١٨ م كانوا أحرص ما يكونون على ما أصابوا من أرض ، وان مجرد تفكير السمح فى اشراك أربعمائة فقط من العرب الجدد معهم فى اقطاعاتهم كان كافيا لدفعهم الى تقرير العودة الى بلادهم وترك الأندلس جملة ، وهذه ملاحظة هامة تلقى ضوءا على طبيعة عرب الأندلس فى ذلك الحين ، ومقدار حرصهم على هذا البلد الكبير .

٢ — أن تفكير عمر بن عبد العزيز فى اخلاء الأندلس كان راجعا الى شكوى هؤلاء العرب وتهديدهم بتركها .

٣ — وأن هؤلاء العرب كانوا قد استقروا فيما استقروا فيه من أرض على اعتبار أنها اقطاعات لهم ، وسنشرح فيما بعد طبيعة هذه الاقطاعات الأندلسية .

٤ — وأن عمر بن عبد العزيز اضطر الى ارضاء العرب الجدد بمنحهم اقطاعات جديدة من أرض الخمس .

٥ — وأن هذا الاجراء كان كفيلا باقناع العرب بالبقاء فى البلاد .

أى أن أرض الخمس أخذت تتناقص شيئا فشيئا وتتحول الى اقطاعات للعرب ، وسنرى أنها ستتلاشى تماما .

ويفهم من بقية حديث محمد بن مزين أن موسى كان قد بدأ بتخميس

(1) دوزى : نفس المصدر ، ص ٥ .

ورحلة الوزير لمحمد بن عبد الوهاب الغسانى ، ص ١١٣-١١٤ .

أرض الأندلس ، « وأعجلته حركته منها وارسال أمير المؤمنين الوليد فيه عن استيفاء ذلك » . وكان قد قسم الأخماس التى استطاع تحديدها بين من أقبل معه من العرب ، وكتب لهم سجلات بهذه الاقطاعات وأقر الوليد ذلك ، فلما أراد السمح بن مالك أن ينزل من معه من العرب « مع الأولين والمشاركة معهم فى رباعهم وأموالهم ، فشخصت منهم طائفة الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وأخبروه بما صنع موسى بن نصير من قسم الأرض بعد اخراج الخمس ، واقرار الوليد لهم على ذلك ، واستظهروا بسجلاته التى سجلها لهم، فأقرهم أمير المؤمنين رضى الله عنه على ما أقرهم عليه الوليد بن عبد الملك ، وعلى ما قسمه بينهم موسى بن نصير، وأمضى لهم ذلك من أمره وسجل لهم بمثله ، وكتب لهم الى السمح ابن مالك بالوقوف عند عهده وامضاء ما أمر لهم به ، وانصرفوا الى ما تخلفوه مسرورين ومبشرين بما لقوه من فضله وعدله ، وكتب الى السمح أن يدخل الجند الذين دخلوا معه من الأخماس »(١) .

وربما كان هذا هو الدافع لعمر بن عبد العزيز وواليه الى النهوض لاتمام ما كان موسى بن نصير قد بدأ به من تنظيم أرض الأندلس وتخميسها ، لكى يجد لبيت المال أرضا غير التى استنفدتها اقطاعات العرب ، ولكى يجد أرضا يقطعها للذين يقبلون منهم .

واستطاع السمح بن مالك أن يقوم بجزء من ذلك العمل ، وبدأ باقليم قرطبة فأخرج خمسه فجعل جزءا منه جبانة للمسلمين ، ولا نعرف ان كان قد أقطع الباقى للعرب أو تركه ملكا لبيت المال . ولم يفعل السمح أكثر من ذلك ، لأن مدته لم تطل ، وهكذا ظلت أرض الأندلس

(١) محمد بن مزين ، أبحاث دوزى ، ج ١ ، ملحق ١ ، ص ٦ ، ورحلة الوزير للغسانى ص ١١٤ .

وأموالها دون تحديد أو تنظيم ، ولم يفعل أحد بعد ذلك شيئا حتى قيام الدولة الأموية .

٢٩٠ — رأى ابن حزم — ونخرج من ذلك كله بأن أرض الأندلس لم تخضع فى تقسيمها لما خضعت له بقية بلاد الدولة الاسلامية من تحديد أرض الصلح والعنوة وتقرير حكم كل منهما من ناحية الوضع القانونى أو الجبايات ، ويؤيد ذلك نص لابن حزم على أعظم جانب من الأهمية لموضوعنا ، نورده فيما يلى مقسما الى فقرات زيادة فى البيان :

١ — « هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضرورى أن الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ، ولا استطيبت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضى الله عنه فيما فتح ، بل نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت

٢ — ووقعت فيها غلبة بعد غلبة : البربر والأفارقة والمصريون ، فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة .

٣ — ثم دخل الشاميون فى طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيرى ، فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيدهم ، كما ترون الآن من فعل البربر ، ولا فرق ، وقد فشا فى المواشى ما ترون من الغارات وفى ثمار الزيتون ما تشاهدون من استيلاء البربر والمتغلبين على ما بأيديهم الا القليل التافه .: ظلم بظلم »(١)

وكلام ابن حزم هذا يقطع كل شك ، ويؤيد ما تراءى لنا فى النصوص

(١) MIGUEL ASIN PALACIOS, *Un códice inexplorado del Cordobés Ibn Hazm.* Al-Andalus, vol. II, 1934 fasc. I pp. 1-56.

والمخطوط المشار إليه هو رقم ٢٧٠٤ بمكتبة جامع فاتح بالاستانة ، وقد نشر آسين پالاثيوس تحليلا ودراسة له مع قطع من ذلك المخطوط ، والنص الذى أوردناه فى ص ٣٦ من المقال المذكور .

التى سبق ايرادها ، فقد غلب الفاتحون الأول على ماوقع لهم من أرض ، سواء أكانوا عربا أو بربرا أو أفارقة (أى من أهل السواحل الافريقية) ثم جاء عرب الطالعة الثانية وغلبوا البلديين ، وانتزعوا منهم ما قدروا على انتزاعه من الأرض ، وقامت الفتنة بسبب ذلك حتى جاء أبو الخطار ونصحه أرطباس بتفريق عرب الطالعة الثانية على نواح معينة ، وانزلهم على أرض أصحابها من أهل البلاد على أن يكون لهم ثلثها طعمة ، أى ملكا ، فى مقابل الخدمة العسكرية كما بينا آنفا .

أما مايقوله محمد بن مزين من التخميس فأمر لم يصح ، ومن الطبيعى أن يكون موسى بن نصير قد شرع بعد الفتح فى اخضاع أرض الأندلس لشروط الشرع ، أو بدأ فى التخميس ، ولكن الظروف لم تسمح له بالاستمرار ، ومضى الى المشرق ، وحاول نفس الأمر بعض من أتوا بعده فلم يوفقوا ، وظلت الأرض فى أيدى من غلبوا عليها ومضى الأمر على ذلك .

٢٩١ – رأى ابن الخطيب

وقد اعتبر العرب الفاتحون ما وقع لهم من الأرض غنيمة ، وهذا واضح من قول ابن الخطيب فى العبارة التى رواها عن ابن حيان والرازى : « وبقى العرب البلديون والبربر شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، الا من كان قد نزل منهم لأول قدومه فى الفتوح على غنائمهم لم يُعرض لهم فى شىء منها »(١)

أما السبب فى ترك الفاتحين يستولون على ما استقروا فيه من أرض كأنه غنيمة ، فيفسره قول محمد بن مزين : « فلما ولى أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه الخلافة زاد اعتناؤه بها ، وأنزلها (كذا ،

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

وربما كانت صحتها : وأزالها) عن عمال افريقية ، وأفرد لها عاملا ، فبعث اليها السمح بن مالك عاملا ، فوردها فى جند سوى جندها الأول ، فأرادوا النزول معهم فى أموالهم ومشاركتهم فيما بين أيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا اليه ذلك ، ورغبوا اليه الرجوع الى بلادهم ، وادالتهم بمن ورد معه (أى مع السمح) ، فمنعهم من ذلك وأنّسهم وعقد لهم ، وأشهد فى عقدهم على اقرارهم فى أموالهم ، وأقطع الواردين مع [السمح] اقطاعات غيرها ، وقال : هٰذه الثغور الهندية لولا اقطاعات عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجند فيها لم يسددها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فانا نستخير الله فى اجلاء المسلمين عنها ، ثم انه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله » (١) .

* * *

٢٩٢ – الخلافة تعتبر الأندلس ثغراً

واذن فقد اعتبر عمر بن عبد العزيز أرض الأندلس ثغرا مثل الثغور الهندية التى أقطع عمر بن الخطاب أرضها لجندها ، وبناء على ذلك فقد أعطى العرب الأول سجلات بما وضعوا أيديهم عليه من أرض على انها اقطاعات ، بل أقطع جند السمح اقطاعات أخرى ، وأصبحت هذه قاعدة مقررة . وهذا يفسر لنا ما يقوله محمد بن مزين من أنه « حين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى بن نصير البكرى التابعى بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبيها ومتاعها وسائر مغانمها وأخرج من أرضها ورباعها

(١) رواه محمد بن عبد الوهاب الغسانى فى «رحلة الوزير» طبعة الفريد البستانى ، تطوان ١٩٥١ ، ص ١١٣ . وقد نشر نفس النص خليان ريبيرا فيما نشر من ذلك الكتاب تحت عنوان «الرسالة الشريفية» ذيلا على تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ص ٢٠١ .

الخمس ، كما أخرجه من سبيها ومتاعها ، واختار من خيار السبى وصغاره مائة ألف وحملهم الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل (صحتها كبار) السبى ووخش الرقيق فى الخمس من الأرضين يعمرونها لبثلث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يعرفون بالأخماس وأولادهم بنو الأخماس »[1] .

٢٩٣ - اعتبار أراضى الجنوب إقطاعات لمن استولوا عليها

وواضح أن موسى لم يخمس الا جزءا قليلا من أرض الأندلس ، وهو أرض البسائط فى الجنوب ، ربما جنوبى الوادى الكبير ، فاستولى المسلمون الفاتحون على أربعة أخماسه واعتبروها غنيمة واعتبرتها الدولة اقطاعات ، وبقى الخمس ملكا للدولة فأطلقت فيه السبى يزرعونه للدولة ، ويؤدون من أمواله الثلث (لبثلث مال المسلمين) وقد اعتبر هؤلاء زراع أرض الدولة وأطلق عليهم اسم الأخماس ، وأولادهم أولاد الأخماس .

ويتفق هذا الذى قلناه مع واقع الأحداث التاريخية ، فان الجنوب بالفعل هو الذى فتحه المسلمون عنوة ، فقد قاتلوا فى أقصى الجنوب (واقعة وادى لكه) وفتحوا استجة وقرطبة عنوة ، فاعتبروا كل ما يقع جنوبى الوادى الكبير أرض عنوة وقسموه على النحو الذى قلناه . ولما كان المسلمون قد فتحوا ناحية ماردة عنوة فقد انسحب هذا الحكم على ما يقع بين الوادى الكبير ووادى آنة ، وما بين هذا النهر والمحيط ، فيما عدا شنترين وقلنبرية فقد استسلم أهلهما وعقد المسلمون معهم عهدا فاستثنوا من ذلك الحكم . وكذلك مدينة صغيرة فى الجنوب الشرقى تسمى شية (Xea) فقد صالح أهلها . ولم يجر على اقليمها حكم العنوة.

(١) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

وقد اعتبرت أراضى الجنوب والغرب التى تقاسمها العرب اقطاعات ملكا لأصحابها يتوارثها الأبناء عن الآباء .

٢٩٤ - بقية أرض الأندلس أرض صلح

وأما بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صلح صالح عليها أهلها ، قال محمد بن مزين : « وأما سائر النصارى الذين كانوا فى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها (أى على أداء جزء من غلتها) مع أداء الجزية فى أرض الثمرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر فى نخيلهم وأرضهم »[1] .

وقد رجحنا أن المراد بأرض الشمال هنا ، ما يقع شمالى الوادى الكبير من شبه الجزيرة ، وهذا معقول ، فقد فتحت تلك النواحى كلها صلحا ، وأخذ أهل كل ناحية لأنفسهم عهدا ، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة ، وواضح أن نصوص هذه المعاهدات لم تكن كلها واحدة فقد اختلفت بحسب الظروف ، قال محمد بن مزين : « فلما أكمل السمح ما أراد (أى اكمال تخميس أرض الجنوب) خاطب أمير المؤمنين بما عمله فى أرض العنوة وأرض الشمال وهى التى فتحت صلحا ، فان أهلها صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض (أى من غلة الأرض) مثالثة ومرابعة كيفما كان طيب الأرض وغلتها ، حسبما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيبر »[2] .

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٦ .

وظاهر أن ما يقوله محمد بن مزين من أن أهل بلاد الشمال « صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض مثالثة ومرابعة ... حسبما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم فى خيبر » انما هو اجتهاد منه ، فان الرسول لم يترك أرض خيبر لليهود على أن يؤدوا الثلث أو الربع بل النصف [١] ، وقد وجد الفقهاء أنفسهم أمام اتفاقات أقرها حكام المسلمين وخلفاؤهم تبيح لأهل بعض نواحى الأندلس التى فتحت صلحا أن يؤدوا الثلث أو الربع ، فحاولوا اعطاء ذلك صبغة شرعية ، فقال بعضهم ان الذى جرى فيها كان قياسا على ما صُنع بخيبر وفدك بعد ذلك وأنكره آخرون انكارا تاما ، فقالوا ان أرض الأندلس لم يجر عليها حكم الشرع كما رأينا فى كلام ابن حزم الذى أتينا به ، وكما قال فقيه آخر هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداوودى فقد قال : « وأما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس . وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة ، وأنها لم تخمس ولم تقسم ، غير أن كل قوم وثب على طائفة منها من غير اقطاع من الأمام » [٢] .

(١) قال الطبرى فى كلامه عن غزوة خيبر : « فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها . فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف ، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . وصالحه أهل فدك على مثل ذلك ... » — تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ١٩٣٩ ، ج ٢ . ص ٣٠٢ .

وقال أبو يوسف (كتاب الخراج . القاهرة ١٣٥٢ . ص ٥٠) : « حدثنا مسلم الخزامى (أو الحرانى أو الخزاعى) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع خيبر إلى اليهود مساقاة بالنصف . وعن الحجاج بن أرطاة عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع خيبر إلى أهل خيبر بالنصف » ، ويقول فى ص ٨٥ : « أولا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح خيبر عنوة ، ولم يجعل عليها خراجا ودفعها إلى اليهود مساقاة بالنصف ؟ » . بل إنه ثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كره المزارعة على الثلث والربع . قال أبو يوسف : « وكانوا يحتجون أيضاً فى المزارعة بالثلث والربع بحديث جابر عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره المزارعة بالثلث والربع » — كتاب الخراج ص ٨٩ .

(٢) رواه سيمونيت فى « تاريخ المستعربين » ص ٦٨ نقلا عن مخطوطة الإسكريال رقم ١١٦٠ .

واذن فقد اعتبرت أراضى الجنوب أرض عنوة ، واعتبرها من فتحوها غنيمة وتقاسموها بعد اخراج الخمس منها ، وأيدت الدولة ذلك ، فسجل الوليد بن عبد الملك لمن استولى عليها من المسلمين وأعطاهم سجلات بذلك ، ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأيد ذلك الحكم واعتبر ما استولى عليه المسلمون من الأرضين اقطاعات ، وساوى بينها وبين ما فتح المسلمون من أرض الهند ، فاعتبرها ثغرا يجوز للامام أن يقطع أرضها لمن فتحوها ومن يقومون على حمايتها ، فاذا كانت فى الشرق ثغور هندية ، ففى الغرب ثغور أندلسية . أما أرض الشمال مما فتح صلحا فقد اعتبرت أرض صلح ، تجرى عليها أحكام الصلح التى عقدها المسلمون مع أهلها . وهذا الذى حدث فى الأندلس يشبه تماما ما حدث فى المشرق ، فقد اعتبر المسلمون أرض السواد أرض عنوة ، وأرادوا تقاسمها ، فحال عمر بينهم وبين ذلك ، ولم يسمح لهم باعتبار الأرض غنيمة لهم ، بل غنيمة لجماعة المسلمين ، وتركها لأهلها على أن يؤدوا للمسلمين جزءا من غلتها ، أى صارت أرض فىء . أما ما يلى ذلك شرقا ، فقد اعتبر أرض صلح ، اذ لم يفتحه المسلمون بحد السيف . وقد روى يحيى بن آدم خبرا يصور ذلك أحسن تصوير فقال : « أخبرنا اسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : سمعت حسن بن صالح يقول : كنا نسمع أن مادون الجبل من سوادنا فهو فىء ، وما وراء الجبل فهو صلح ، قال حسن : فمن كان منهم صلحا فعليهم الذى صولحوا عليه ، فيخلى بينهم وبين أرضيهم ، ولا يوضع عليها شىء ما أقاموا بصلحهم يؤدونه للمسلمين » [١] .

(١) يحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج (بتحقيق أحمد محمد شاكر) القاهرة ١٣٤٧ ، ص ٢١ .

٢٩٥ – نزول العرب فى بعض نواحى الشمال

أما من استقر من العرب فى ريف بعض نواحى الشمال ، فالأغلب أنهم نزلوا مواضع لم تكن مأهولة أو فى أرض الصوافى التى حددها أبو يوسف فيما يتصل بسواد العراق بقوله : « أصفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أهل السواد عشرة أصناف : أرض من قـُتل فى الحرب ، وأرض من هرب ، وكل أرض كانت لكسرى ، وكل أرض كانت لأحد من أهله ، وكل مغيض ماء ، وكل دير بريد »[1] أى أنه ذكر ستة وترك أربعة . وأضاف اليها فى رواية أخرى أرض الآجام ، ونضيف نحن فيما يتصل بالأندلس أملاك الملوك وأهل بيتهم وأملاك الكنائس ، وكان الموجود فى الأندلس من كل صنف من أصناف هذه الأرض كثيرا فتبجبح فيها من شاء الاستقرار فى الأرض من العرب ، ووجدت لهذا جماعات منهم فى كل ناحية تقريبا . وكانت هذه الأرضون كلها بمنزلة القطائع ، يؤخذ عليها العشر فى الغالب ، ومنهـا فى المشرق ما كان يؤدى عشرين ، وللامام أن يصيرها أرض خراج اذا كانت تسقى من أنهار الخراج[2] . ولما كنا لا نعرف ما كانت تؤديه فى الأندلس ، فأسلم الآراء أن يقال انها كانت تؤدى الحد الأدنى وهو العشر ، خاصة وأن العشر كان هو القاعدة السارية على من تملك الأرض من البلديين والبربر [3] ، وأما عرب الشام فقد ذكرنا حكم ما كان فى أيديهم ، ومن

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٥٧–٥٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) جاء فى كتاب الخراج ليحيي بن آدم (ص ٨٠–٨١) : «أخبرنا إسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : حدثنا قيس عن بـُرد أبى العلاء عن مكحول ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جـُعل رزق هذه الأمة فى سنابك خيلها وأزجة (نصال) رماحها ما لم يزرعوا ، فاذا زرعوا كانوا من الناس » .

وكانت القاعدة العامة ألا تترك أرض دون أن يعمرها أحد ، قال أبو يوسف : « ولا أرى =

البديهى أن يكون زراع أهل البـلد قد خضعت أراضيهم لأحـكام الخراج عامة .

بهذا تتقرر الأسس العامة التى جرت عليها شئون الأموال فى الأندلس على نحو مفهوم . ولا تعيننا المراجع التى بين أيدينا على التدقيق أكثر من ذلك ، ولهذا فاننا نحجم عن محاولة تقدير أموال الأندلس فى هذه الفترة ، خاصة وأن الاضطرابات الكثيرة التى وقعت بين العرب والبربر من ناحية ، وبين اليمنية والشامية من ناحية أخرى ، جعلت الواصل الى بيت المال دائما قليلا . وقد أشرنا من قبل الى ما ذكره صاحب « الأخبار المجموعة » من نقصان الخراج أثناء الفتنة الكبيرة التى وقعت بين العرب والبربر [1] ، ولم يتحسن الحال عندما انتصر العرب بفضل جند طالعة بلج فقد قطع البلديون الخراج ، وكان معظمهم من اليمنيين ، اذ عز عليهم أن يؤدوا الضريبة للشاميين الغالبين ، وزاد الأمر سوءا توالى سنوات القحط ، ودام ذلك حتى دخول عبد الرحمن بن معاوية ، فلم تقع فى أيام الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى سنة رخاء الا فى النادر ، فلاعجب أن كان بيت المال خاويا أو يكاد خلال هذه السنوات .

* * *

٢٩٦ – التصرف فى أموال الجباية

ومهما كان المال الذى يصل الى العمال فى قرطبة ، فلابد أن نسأل : ماذا كانوا يفعلون به ؟ هل كانوا ينفقونه فى الوجوه التى تقررت له من عمارة البلاد والقيام بشئونها وأداء الرواتب لأصحابها ثم ارسال الباقى الى دمشق ؟ هنا نجد أنفسنا

= أن يترك [الإمام] أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام ، فإن ذلك أعمر للأرض وأكثر للخراج» ، ص ٦١ .

(١) انظر : « الأخبار المجموعة » ، ص ٦٢ .

أمام حالة فريدة فى بابها فى أخبار تلك الأيام : ليس لدينا نص واحد صريح يدل على أن شيئا من مال الأندلس كان يرسل الى المغرب أو المشرق ، وليس لدينا من أخبار التعمير الا ما ذكرناه من اعادة بناء قنطرة قرطبة وانشاء جبانة للمسلمين . بل ليس لدينا نص يشير الى مطالبة عمال المغرب أو الخلفاء بأموال الأندلس كما كان الحال مع مصر مثلا ، اذ كان خراج مصر موضوعا هاما تسهب المراجع فى تفاصيله وذكر مقاديره ، بل تذكر المكاتبات التى دارت بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص بشـأنه ، وكيف أن الخراج كان السبب فى عزل ابن العاص واستبدال عبد الله ابن سعد بن أبى السرح به . وصمت المراجع عن هذه الناحية صمتا تاما يبدو فى نظرنا أمرا غريبا ، خاصة وأن الذين أرخوا لهذه الفترة — كصاحب «الأخبار المجموعة» وابن القوطية وأحمد بن محمد الرازى وابن حيان — ومن نقل عن هؤلاء جميعا من متأخرى المؤرخين ، كانوا جميعا ذوى عناية بشئون المال والخراج ، ومنهم من كان من كتاب الدولة . ولا يعلل هذا الصمت الا بأن ولاة الأندلس لم يكونوا يرسلون الى افريقية أو الى المشرق شـيئا من المال ، وأن الخـلافة كانت يائسة من أمر الأندلس لا تنتظر منه مالا ، حتى فكر عمر بن عبد العزيز فى استرجاع العرب منه وتركه جملة . والراجح أن معظم ما كان يصل الى عمال الأندلس كان يضيع بين أرزاق الجند وأعطياتهم ونفقات الجهاد فيما وراء جبـال البرت واستكمال فتح شبه الجزيرة نفسها . ثم ان الأندلس لم يل أموره خلال هذه الفترة كلها الا خمسة ولاة من الطراز الذى يرجى منه أن يقرر شئون الأندلس الخراجية على وجه الاحكام والضبط ، وهم : موسى بن نصير وابنه عبد العزيز بن موسى ، والسمح بن مالك الخولانى ،

وعبد الرحمن الغافقى ، وعقبة بن الحجاج السلولى [١] . أما الباقون فكانت أشخاصهم من الضعف أو البعد عن التنظيم والميل الى الفوضى بحيث نستبعد أن يكونوا قد استطاعوا أو اهتموا بأن يضعوا للبلاد ديوانا ماليا منظما . ومن الغريب أن هؤلاء الخمسة قد عاقتهم ظروفهم عن أن يقوموا بشىء ايجابى فى هذه الناحية ، لأن موسى أعجله الوليد عن أن يفعل شيئا ثم حاسبه بعد ذلك حسابا عسيرا جدا ، وعبد العزيز كان فى شبه خروج على الدولة طوال مدة ولايته ، وقد رأينا ما فعل السمح فى هذه الناحية ، وأما عبد الرحمن الغافقى وعقبة بن الحجاج فكانت لهما حروب طويلة تستنفد كل ما عسى أن يكونا جمعاه . ثم ان أمر الأندلس كان خلال معظم هذه الفترة الى عمال افريقية ، ولم يكونوا هم الآخرون منظمين ممتازين ، ولم تكن ذمم الكثير منهم بعيدة عن النهم ، وشـغلتهم الى جانب هـذا كله حروب مع البربر استنفدت مالا كثيرا جدا ، فلعل ولاة الأندلس كانوا يبعثون بأموالهم الى عمال افريقية ، ولم يعن هؤلاء بفصلها عن أموال ولايتهم ، فلم يستطع الرواة العثور على شىء يحددها لهم ، ومن هنا كان اغفالهـم الاشارة اليها [٢] .

وبين أيدينا نصوص كثيرة تؤيد القول بأن شئون الأندلس الماليـة

---

(١) وحتى هؤلاء الخمسة لم تخل تصرفاتهم من أخطاء ومخالفات أثارت غضب الخلفاء انظر : فتح الأندلس ، ص ١٩ .

(٢) ولم تكن أحوال إفريقية من هذه الناحية بأحسن من أحوال الأندلس . قال ابن القوطية مشيرا إلى هزيمة كلثوم بن عياض القشيرى أمام البربر فى موقعة الأشراف : « فلما بلغ هشام ابن عبد الملك النكبة الدائرة على كلثوم وما اتصل بذلك من فساد إفريقية والأندلس شاور العباس ابن الوليد أخاه ، وكان أحله فى الشورى محل أخيه مسلمة بعدُ فى هذا الأمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين . ليس يصلح هـذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القحطانية ... » .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

خلال هذه الفترة لم تضبط على الأسس الشرعية التى جرى العمل بها فى الولايات الاسلامية اذ ذاك ، فقد اتهم موسى بن نصير صراحة بأنه لم يكن يخرج الخمس مما وقع فى يده من الغنائم ، وكان هـذا سببا من أسباب نكبته[1] ، بل ان سليمان بن عبد الملك « أخذ موسى ومن كان معه من عمال المغرب لما بلغه من اقطاعاتهم الأخماس فغرموا ، وغرم موسى ماية ألف »[2] ، وهى رواية تدل على أن موسى بن نصير نفسه مد يده الى أخماس الغنائم ، وقد رأينا كيف تفرقت أرض الأخماس فى قبائل العرب اقطاعات ، أما ما كان يرد من أموال الخراج فقد كان جانب منه يؤدى الى جند العرب كما رأينا ، والباقى — وكان قليلا — كان يتصرف فيه العمال .

* * *

٢٩٧ – ثروات العرب الأول فى الأندلس

والدلائل كثيرة على أن العمال وكبار العرب كانوا على غنى عريض ، فقد كان الصميل بن حاتم يمتلك دارا كبيرة « بعدوة النهر بقبلى قرطبة » ، وخلف داره كانت عقـدة الزيتون المشهورة ، « كانت كلها له ، وكانت ماية صف فى كل صف ألف أصل وسـقى عظيم من عين هناك »[3] ، أى أن هـذا الشيخ البدوى كان يملك غابة واسعة من أشجار الزيتون فيها مائة ألف شجرة ، وكانت خزانته عامرة بالمال ، حتى لقد وجد فى بيته تابوت « فيه عشرة آلاف دينار دراهم »[4]. وكان عامر بن عدى من أشراف بنى عبد الدار بالأندلس يملك منية واسعة بغربى مدينة قرطبة ، وكانت تسمى « قناة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١١ .
(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٠ .
(٣) فتح الأندلس ، ص ٣٨ .
(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .

عامر » ، وقد بلغ من سعتها أنه حينما استشعر الخوف من يوسف الفهرى وأراد التحرز منه « أغلق غلقة عظيمة هم ان يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتنى بها بنيانا ينضم اليه ويغاور يوسف حتى يأتيه امداد اليمن »[1] .

وأقطعت جماعة من بنى غافق قرية كاملة بشرف اشبيلية نسبت اليهم بعد ذلك ، وهى مرنانة الغافقيين ، ومنهم كان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد فى بلاط الشهداء .

وكان الكثيرون من رؤساء عرب الأندلس فى هذه الفترة يملكون ضياعا واسعة فيها قصور كبيرة ، وكانوا يسمون القصر والضيعة المحيطة به « البـلاط » من (Palatum) اللاتينية حتى انهم سموا قرطبة كلها « بلاط لذريق »[2] لأنها كانت ملكا له . ومن أمثلة هـذه البلاطات « بلاط الحر » بن عبد الرحمن [3] و « بلاط مغيث » الرومى ، وكانت دارا شريفة ذات سقى وزيتون وثمار يقال لها « اليسانة » كانت للملك الذى أسره (مغيث) وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهى تسمى بالأندلس « بلاط مغيث »[4] ، وكان عبد الله بن خالد من كبار موالى بنى أمية يملك معظم قرية الفتين ، حتى ليقول ابن القوطية انها كانت « منزل عبد الله بن خالد »[5] ، وكذلك كان أبو عثمان شيخ موالى بنى أمية يملك اقطاعا كبيرا بقرية طرش من كورة قرطبة[6] ، بل كان يحدث

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .
(٢) المقرى ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ج ٢ ، ص ٢٣ .
(٣) المقرى ، ج ٢ ، ص ٢٣ .
(٤) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
(٦) نفس المرجع والصفحة .

أن تترك كورة كاملة لرجل واحد ، كما ترك يوسف الفهرى كورة ريه لمنافسه يحيى بن حريث ليسكت عنه [١] ، بل كانت قبائل عربية تملك كورا كاملة ، فقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن «الثغر كان لليمن» [٢] والمراد هنا ثغر سرقسطة ، وكان رجال مثل الصميل ينفقون عن سعة تدل على مال عريض ، قال صاحب الأخبار المجموعة يتحدث عن الصميل عندما سار الى سرقسطة : « فأتى فى مائتى رجل من قريش ومن كان معه من غلمانه وحشمه ومواليه ، فنال بها ملكا وغنى ، ووفد عليه محاويج الناس ، فأعطاهم الأموال والرقيق ، ولم يأته صديق ولا عدو فحرمه ، فازداد سؤددا »[٣] . وقد روينا خبر دخول نفر من كبار العرب والموالى على أرطباس واعطائه اياهم الضياع . قال ابن القوطية : « فوهبهم ماية ضيعة صار لكل واحد منهم عشر ضياع ، منهـا طرش لأبى عثمان ، والفتين لعبد الله بن خالد وعقدة الزيتون بالمدور للصميل بن حاتم »[٤] . وقد روينا فى نفس الخبر كيف أن أرطباس وهب ميمونا العابد « المجشر الذى على وادى شوش وما فيه من البقر والغنم والعبيد والقلعة (أى ضيعة القلعة) بجيان وهى المعروفة بقلعة حزم فملكها .. »[٥] . أما الرجال الذين مثل أبى الصباح اليحصبى وحيوة بن ملامس — وكانا يوصفان بأنهما « سيدا الغرب » — فقد كانوا على ثراء واسع [٦] .

(١) نفس المصدر ، ص ٢٧ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٢ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٦٣ .
(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩ .
(٦) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٥ .

وهذه أمثلة قليلة تعيننا على تصور ثروات عرب الأندلس فى ذلك الحين ، فقد كانوا جميعا بين مقطعين يملكون أرضا كثيرة أو قليلة ، أو نازلين فى نواح يأخذون نسبة عالية من غلتها ، وكانت لهم الى ذلك الأعطيات والأرزاق ، وقد أوجد فيهم ذلك الرخاء الذى كانوا فيه نوعا من الأنانية جعلهم يتصورون أن الأندلس كلها طعمة لهم أو غنيمة وقعت فى أيديهم لا يملك أحد أن يشاركهم فيها ، فقد ابوا على عرب الطالعة الثانية نزول بلادهم وتركوهم محصورين فى ناحية سبته حتى كاد يهلكهم الجوع ، وكانوا يقولون : « ان بلدنا لا يحملنا واياهم » . نعم ، شبه الجزيرة الايبيرية كله لا يتسع لبضعة آلاف من العرب ! وعندما وفد نحو ٤٠٠ عربى مع السمح بن مالك وطلبوا الى عرب الأندلس أن يوسعوا لهم فى جانبهم ضاقوا بهم وبلغ بهم الأمر أن ذهبوا يشكون الى الخليفة فى دمشق .

* * *

٢٩٨ – القبائل تملك إقطاعاتها ملكاً جماعياً

واذا استثنينا بعض كبار الرؤساء الذين كانوا يملكون ضياعا أو بلاطات لهم خاصة ، فالظاهر من النصوص أن حقوق العرب على النواحى التى نزلوا فيها كانت حقوقا جماعية ، أى أن « الاقطاعات » كانت بيد رؤساء القبائل ، وهم الذين يتولون توزيع الحصص على أفرادها . وبغير هذا لا نستطيع تفسير قول المؤرخين ان « الثغر كان لليمن » ، أو أن أبا الصباح وحيوة بن ملامس كانا « سيدى الغرب »[١] ، بل لا يمكننا تفسير نزول أجناد الشآميين بالكور : كل جند بكورة يكون لهم ثلث أموالها الا على هذا الأساس ، أى أن « الجند » بأسره كان ينزل الكورة ويعتبر رئيسه صاحب الأمر

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٥ .

فيها ، وقد كان الأساس أول الأمر أن ينزل الجند فى الكورة دون أن يدعى أفراده من الحق أكثر من ثلث المحصول ، ولكن اضطراب الأحوال فى أواخر أيام الولاة جعل الأجناد ملاكا للنواحى وأصحاب الأمر فيها . وحيث أننا لا نسمع ولو مرة واحدة عن عمال لكور الأندلس فى هذه الفترة ، فأقرب الأمور الى الصحة هو القول بأن العرب النازلين فيهـا — مقطعين أو مقيمين فقط — كانوا بالفعل أصحاب الأمر فيها . وقد أصبح الأمران سواء مع الزمن كما رأينا ، فيقوم بالأمر رئيس القبيلة أو شيخ مجموع القبائل أو صاحب لواء الجند ، فيجمع الأموال بمعاونة رؤسائها من أهل الذمة ، ويقتطع ثلثها ويؤدى الثلثين لبيت المال ان كان رئيس جند نازل أو يؤدى عشرها فقط ان كان مقطعا . وعليه لقاء ذلك أن يكون مستعدا برجال قبيلته للخروج الى الحرب عندما يدعوه العامل حسب النظام الذى أوردناه . أى أن أرض الجنوب قسمت بين فاتحيها والمتبلين اليها من العرب والبربر . لكل قبيلة ناحية هى صاحبة الأمر فيها، لا يربطها بالحكومة المركزية الا أداء ما ينبغى عليها من المال والاشتراك فى الحرب لقاء الرزق والعطاء . وكان لكل قبيلة أو جماعة من القبائل « سجل » من عامل الأندلس أو من الخليفة نفسه ، تؤيد به حقها فى ناحيتها . أى أن نواحى الأندلس الجنوبية كانت معتبرة ثغورا أو ولايات حدود تقيم فيها « أجناد » تتصرف بجزء كبير من محصولها نظير ماتقوم به من خدمة عسكرية دائمة .

على هذا الأساس نستطيع أن نفسر قدرة عرب الأندلس وبربرها الأولين على القتال واستمرارهم فيه : مع النصارى الاسبان فى الشمال ، ومع نصارى غالة فى أول الأمر ، ثم فيما بينهم وبين أنفسهم بعد ذلك ، لأنهم كانوا جميعا جنودا لا عمل لهم الا القتال ، ولو كانوا توزعوا

الأرض قطعا صغيرة فيما بينهم واشتغلوا بالزراعة لأصبح من الصعب اقتلاعهم منها وارسالهم للحرب كما حدث للكثير من عرب مصر ، مثلا ، ممن زرعوا واندرجوا فى غمار الناس ، أما عرب الأندلس فلم يكن أحد منهم ليملك أرضا لنفسه ، وانما الأرض ملك القبيلة كلها ورئيسها يوزعها على أفرادها كما يرى ، فاذا ناداهم الى الحرب لم يسعهم الا التلبية ، والا ضاع حقهم فى العطاء فى آخر الغزاة . وبهذا نستطيع أن نفسر سهولة تداعيهم للحرب وخروج قبائلهم لها ، فاذا أهين شيخ قبيلة خرجت القبيلة للحرب ، واذا استنجد رئيس عدد من القبائل بنى عمومته خفت قبائل بأسرها لعونه ، لأن رؤساء القبائل وأصحاب الألوية المعقود لهم كانوا يوجهون الأفراد كما شاءوا ، وكان ذلك من أشد ما آذى عرب الأندلس وعجل بزوال السلطة من أيديهم وانتقالها الى عبد الرحمن الأموى .

والنتيجة الطبيعية لهذا النظام هو فقر الادارة المركزية وعجزها عن ادارة البلاد كلها ادارة موحدة ، وهبوط أمر ولاة الأندلس واجتراء أجناد العرب فى النواحى عليهم . فلم تكن الأندلس فى واقع الأمر ولاية واحدة بل عدة ولايات تنفرد بالأمر فى كل منها قبيلة أو عدة قبائل يجمعها لواء واحد ، ولم يرزق الله الأندلس خلال هذه الفترة بوال واحـد تجرد من نزعات العصبية وطالت مدته حتى يقرر الأمور فيها على قاعدة تؤكد وحدة الولاية وتنزع من قلوب العرب ميول العصبية ونزعات الأنانية التى غلبت عليهم ، ثم ان الخلافة كانت أبعد من أن تستطيع القبض على شئون الأندلس واخضاعها للنظم الادارية الاسلامية المقررة ، فتركوها لعمال افريقيـة ، ولم يكن هؤلاء من طراز المنظمين ذوى الشخصيات القوية الممتازة ، وشغلتهم الى جانب ذلك شئون المغرب ،

وما كان أكثرها ؛ فسارت الأمور فى الأندلس خلال هذه الفترة سيرا ارتجاليا لا يكاد يخضع لنظام مقرر أو قاعدة ثابتة ، فاستبد بكل ناحية أصحابها ، وثارت بينهم المنازعات .

ولعل أغرب ظواهر هذا الاضطراب هو أننا لا نجد ذكرا فى مراجعنا لخراج هذا القطر الفسيح ، كأنه كان لا يغل شيئا : لا نملك نصا واحدا يذكر أن خراج الأندلس أرسل الى افريقية أو الى المشرق ، بل لا نجد شيئا يدل على أن الولاة كانوا يجمعون خراجا منتظما مقررا ، اللهم الا اشارات متناثرة كقولهم ان عقبة بن الحجاج « عدل فى الخراج » أو ان الخراج « ضعف » فى أوائل ولاية يوسف الفهرى ، وهى اشارات لا نستطيع الاعتماد عليها فى تكوين فكرة صحيحة عن هذه الناحية الهامة.

* * *

٢٩٩ — بعض الوظائف العامة

واذ كان الأمر كذلك فاننا لا نستطيع تصوير الادارة الاسلامية فى الأندلس خلال هذه الفترة : لا نعرف أى الادارات وجد وأيها لم يوجد ، وكل ما لدينا أسماء بعض أشخاص يحتلون وظائف ادارية وردت من غير تحديد اختصاص ، كأبى عثمان بن عبد الله صاحب أزمة الأرض والخراج [١] ، وعامر بن أبى عدى قائد الصوائف [٢] ، ويحيى بن يحيى التجيبى قاضى هشام بن عبد الملك على الشاميين [٣] ، وجد بنى سليمان القرائين وكان صاحب الصلاة [٤] ،

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨ .

ويحيى بن أبى زيد التجيبى قاضى الجند [١] ، وعيسى بن عبد الله الطويل وكان على المغانم [٢] وهذا هو كل ما لدينا ، وهو لا يعيننا على تكوين فكرة عن الادارة العامة فى هذا العهد ، وربما كان الأحجى أن ندع بحث هذه الناحية حتى تتجمع لدينا معلومات أوفى .

بيد أن هناك وظيفة كبيرة لدينا عنها من المعلومات ما يمكننا من الكلام عنها فى أمان ، هى وظيفة القضاء فى الأندلس ، وكان لها فى عصر الولاة أهمية كبرى .

٣٠٠ — القضاء

كانت للقضاء أهمية خاصة فى الأندلس ، وربما لم يبلغ القضاة فى بلد من بلاد الاسلام ما بلغوه من علو المكانة ووفرة السلطان وبعد الجاه فى الأندلس والمغرب ، ولدينا لتاريخ القضاء فى الأندلس كتابان أحدهما لمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى [٣] ، والثانى لأبى الحسن النباهى [٤] ، وأورد ابن سعيد فى « المغرب » تاريخا لقضاء الأندلس يكاد يكون كاملا ، ومعظم من نجد أسماءهم فى تراجم علماء الأندلس انما كانوا قضاة أو لهم بالقضاء صلة كالحسبة والمشاورة وما الى ذلك ، وأورد المقرى فى كتابيه « نفح الطيب »و«أزهار الرياض» فصولا وتراجم ضافية للقضاة ، واختص ابن حيان مشاهيرهم بتراجم مطولة ، أى أن المادة عن قضاء الأندلس وقضاته وفيرة لمن يشاء أن

(١) فتح الأندلس ، ص ٤٣ ، ويرجح أن صحة الاسم « يحي بن يزيد » .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١١ .

(٣) كتاب القضاة بقرطبة ، للحافظ العالم أبى عبد الله محمد بن حارث الخشنى القروى ، نشره خليان ريبيرا ، مدريد ١٩١٤ .

(٤) تاريخ قضاة الأندلس المسمى «كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » لأبى الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى الأندلسى . نشره إ. ليڤى پروڤنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

يدرس . وكان قاضي الجماعة فى قرطبة شخصية لها أهميتها فى مجالات العلم والسياسة فى الأندلس ، بحيث لا يمكن التأريخ للأندلس تأريخا صحيحا الا اذا ألم الانسان بتاريخ قضاته وتنبه للأهمية الكبرى التى كانت لهم فى المجتمع الأندلسى (١) .

٣٠١ – مسألة قضاة الأندلس الأول

وكما كان موضوع قضاة الأندلس موضع اهتمام القدماء فقد كان موضع اهتمام المحدثين ، فكتب فيه دوزى وريبيرا وآسين پلاثيوس وليفى پروفنسال وغيرهم ، وأثاروا مشاكل كثيرة يهمنا منها هنا موضوع قضاة الأندلس الثلاثة الأول ، فقد كان موضع درس وآراء ومناقشات . وأصل المشكلة أن أقدم تاريخ لقضاة الأندلس ، وهو كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » الذى ألفه محمد بن الحارث بن أسد الخشنى ، وهو مغربى من تونس أورد أسماء ثلاثة رجال ذكر أنهم من قدماء قضاة قرطبة ، وهم مهدى بن مسلم وعنترة بن فلاح ومهاجر بن نوفل القرشى(٢) ، وذكر أنهم كانوا قضاة أيام الولاة أى قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية ، وذكرهم أيضا أبو الحسن النباهى(٣) ، وفيما عدا ذلك لم يرد لهؤلاء الثلاثة ذكر فى حوليات الأندلس ، ولم يشر اليهم أحد من أصحاب كتب التراجم ، حتى ابن الفرضى ؛ وكانت عنايته بشؤون القضاة عظيمة ، ومعظم أخبارهم عند الخشنى منسوبة الى أحمد بن فرج بن مُنْتيل ، وهو شخصية قلقة من شخصيات التاريخ الأندلسى ، فقد ذكر ابن الفرضى أنه « كان ينسب

(١) انظر عن هذه الناحية كتابنا *Essai sur la Chute du Califat Umayyade de Cordoue* (Le Caire, 1948) pp. 66-69.

(٢) أورد الخشنى تراجمهم ابتداء من ص ١٨ حتى ص ٣٠ .

(٣) النباهى : قضاة الأندلس ، ص ٤٢–٤٣ .

الى اعتقاد مذهب ابن مسرة » (١) ، وكان المسريون يعتبرون فى عداد الزنادقة عند فقهاء الأندلس ، وأخبار ابن منتيل لهذا مشكوك فيها لا يوثق فى صحتها .

وكان أول من قال بذلك دوزى فى حديثه عن المراجع العربية لفتح العرب للأندلس ، وقد ذهب فى ذلك المقال الى أن الكثير من أخبار الأندلس فى عصوره الأولى قد وضعها المشارقة والمصريون بنوع خاص ، وضرب لذلك مثلا بمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى الذى يسند الكثير من أخباره الى رجال لا يوثق فى صحة نقلهم (٢) مثل ابن منتيل هذا ومحمد بن وليد (٣) وعلى بن شيبة (٤) وعثمان بن محمد (٥) ، وهؤلاء أخذوا بدورهم عن أصول مشرقية ، فابن منتيل مثلا فى حديثه عن مهدى بن مسلم يروى عن رجل يسمى أبا العباس أحمد بن عيسى ابن محمد المقرى ، وأن هذا الرجل قد حدثه بحديث مهدى فى مدينة تنيس (بالمغرب) ، وبعد أن يورد نص عهد الوالى عقبة بن الحجاج الى مهدى بن مسلم بولاية القضاء (وسنعرض له بعد قليل) يقول : « قال محمد (بن الحارث بن أسد الخشنى) قال أحمد بن فرج ، فقلت لأحمد ابن عيسى : لقد عظّمت همتك اذ حفظتَ مثلَ هذا وشبهه من الأخبار

(١) ابن الفرضى : علماء الأندلس : ترجمة ١٢٧ .

(٢) DOZY, *Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes dans Recherches* (3e. éd 1881) I p. 1 sqq.
والفقرة الخاصة بمحمد بن الحارث بن أسد الخشنى فى ص ٣٤–٣٦ .

(٣) انظر ترجمته عند ابن الفرضى ، ترجمة ١١٧٨ .

(٤) ابن الفرضى ، ترجمة ٩١٨ .

(٥) ابن الفرضى ، ترجمة ٩٠٠ .

القديمة ، فقال : حفظت هذا زمن الصبا عن جد لى عمِّر نحو عمرى ، وكان من أحفظ الناس لأخبار المغرب وافتتاحه وأخبار بنى أمية عندكم، ولقد كان عندى من كتبه أخبار حسان غريبة ، فذهبت بحريق كان فى منزلى ، ولقد بلغنى أن بعض من عندكم من بنى الأغلب أو غيرهم من الشيعة ادعى هذا العهد ، وكتب به نصا الى بعض ولاة القضاة ، وما هو الا لمهدى بن مسلم هذا عندى [كنت] قديما أحفظه زمن الصبا عن جدى ، فهل عندكم له ذكر ؟ فقلت له : ما سمعت به عندنا ولا باسم مهدى هذا . فقال : قد سألت غيرك من أهل بلدك ، فلم يكن يعرفه ، فياعجبى [1] ! كيف درس خبره عندكم ؟ لكنى أظنه لم يعقب . فاضمحل خبره بالفتن التى دارت فى بلدكم » [2] ، وهو خبر طويل مفصل يلقى شكا على ولاية مهدى بن مسلم ، ولكنه يدل على تدقيق أحمد بن فرج ابن منتيل .

وعندما يروى الخشنى أخبار القاضى الثانى عنترة بن فلاح يبدؤه بقوله : « حدثنى أحمد بن فرج بن منتيل ، قال : حدثنى أبو محمد مسلمة بن زرعة بن روح بالعريش بالشام ، وكان شيخا كبيرا قد نيف على المائة فيما ذُكر لى ، وأدرك حرملة صاحب الشافعى ، وحدثنى عنه وعن أمثاله ، وذكر لى أنه من موالى بنى أمية ، وكان ذا علم بأخبارهم القديمة والحديثة محبا لهم متشيعا فيهم » [3] .

وما يورده الخشنى من أخبار القاضى الثالث مهاجر بن نوفل القرشى منسوب أيضا الى أحمد بن فرج بن منتيل عن أبى محمد مسلمة

(١) وردت فى النص المطبوع : «ياعجبى» ورجحنا تصويبها هكذا .

(٢) الخشنى : قضاة ، ص ٢٣–٢٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤–٢٥ .

ابن زرعة هذا . أى أن أخبار القضاة الثلاثة مصدرها أحمد بن فرج عن راويتين أحدهما مغربى من تنيس والثانى مشرقى من العريش ، ولهذا فقد رفض دوزى أخبار هؤلاء القضاة الثلاثة ووصف الخشنى بقلة التدقيق وايراده الأخبار دون تمحيص [1] .

وتناول آسين پلاثيوس هذا الموضوع واتجه به اتجاها آخر ، ففى بحثه عن محمد بن مسرة ومدرسته قال ان أحمد بن فرج بن منتيل قد اخترع أخبار هؤلاء القضاة اختراعا ليؤيد بذلك مذهبه ومذهب أستاذه محمد بن مسرة ، وهذا المذهب فى نظر آسين لم يكن مذهبا فلسفيا بقدر ما كان اتجاها دينيا سياسيا يرمى الى مناهضة الفقهاء وسلطانهم المطلق فى الأندلس يؤيدهم البيت الأموى وما يسميه بالأرستقراطية العربية ، وهو يصف المسريين بأنهم اسبان قوميون [2] ، ومضى يحلل أسماء القضاة الثلاثة فقال ان الأول ، مهدى بن مسلم ، لابد أن يكون لاسبانى نصرانى أعتنق الاسلام ، وترجمه هكذا : un mesias hijo de un converso orenegado ، وهو فى رأيه ليس علما على شخص بل رمزا لاتجاه ، أراد به أحمد بن فرج بن منتيل أن يقول ان الاسبان تولوا القضاء فى الأندلس من أقدم العصور ، وفعل آسين

(١) دوزى : نفس المصدر ، ص ٣–٣٦ .

(٢) MIGUEL ASIN PALACIOS, *Aben Masarra y su Escuela, Origines de la Filosofia Hispano Musulmana* (1914)

ويلاحظ أنه ترجم الأسماء على أنها رموز ، فعنترة عنده رمز على رجل شجاع ، ويترجمها بلفظ intrépido ، ونوفل رمز أيضاً ومعناه المصيبة calamidad ، وقد قرأ عنترة بن فلاّح ، عنترة بن فلاّح وترجمها labrador .

بالثانى كما فعل بالأول وترجم اسمه un intrépido hijo de un labrador وترجم اسم الثالث هكذا : uno de la tribu de Coraix de los que salieron de la Meca hijo de una calamidad أى أن اسميهما أيضا مؤلفان كاسم الأول ، وقد وضعها المسريون رموزا على معان عندهم . وقد أيد خليان ريبيرا هذا القول فى مقدمته لتاريخ قضاة قرطبة للخشنى ، ولكنه عارض دوزى فيما ذهب اليه من أن الخشنى لا يوثق فيه ، وأنه حاطب ليل لا يدقق فيما ينقل [١] ؛ غير أنه أسرف فى التفسير والاستنتاج حتى خرج بالموضوع الى مجال التصورات والأوهام .

وعندما نشر ليفى پروفنسال تاريخ قضاة الأندلس للنباهى وجد أن هذا الأخير يذكر أسماء القضاة المشتبه فى أمرهم ، فذهب الى أن أخبار القضاة الثلاثة صحيحة ، وأغلب الظن انه لم يقل ذلك استنادا الى حجج جديدة ، بل لمجرد أن النباهى أيد الخشنى فى هذا الموضوع . ومن الطريف أن كل ناشر يود أن يؤكد أصالة النص الذى ينشره ، فريبيرا يتهم أحمد بن فرج بن منتيل بالكذب ، ولكنه يؤكد دقة الخشنى وأصالة كلامه ، وپروفنسال يتبنى كتاب النباهى ويدحض رأى دوزى ومن تابعه ، وهذه علة لم يسلم منها الا القليلون من الناشرين .

وأيا كان نصيب أخبار أولئك القضاة الثلاثة من الصحة ، فمن الثابت أنه كان للأندلس على عهد الولاة قضاة ، وسواء أكانت أسماؤهم هى تلك التى ذكر بعضها الخشنى أم لم تكن ، فقد قام فى الأندلس قضاة . قال الخشنى : « سمعت من أهل العلم سماعا فاشيا أن

(١) المقدمة الإسبانية لترجمة كتاب القضاة للخشنى ، ص ١٢ وما يليها .

عبد الرحمن بن معاوية الامام دخل قرطبة وقام بالامامة والقاضى يومئذ يحيى بن يزيد التجيبى ، فأثبته على القضاء ولم يعزله ، وكان من قبل ذلك يقال له وللقضاة قبله « فلان قاضى الجند » ، فلما امتنع الفهرى (يريد يوسف الفهرى) بغرناطة واضطره الأمير عبد الرحمن رحمه الله الى النزول ، واشترط (أن يكون التنازل) بحضور القاضى يحيى ، فحضر وكتب فى كتاب المقاضاة : « وذلك بحضور يحيى بن يزيد قاضى الجماعة » [١] .

٣٠٢ – قاضى الجند وقاضى الجماعة

واذن فقد كان القضاة فى الأندلس يسمون قضاة الجند حتى أتى عبد الرحمن الداخل ، فأصبح القاضى يسمى قاضى الجماعة ، وكان أول قاض للجماعة يحيى بن يزيد هذا ، ثم تلاه معاوية بن صالح ، وكان يلقب رسميا بقاضى الجماعة . وهذا التطور معقول ؛ ففى فترة الولاة كان المسلمون هم الجند ، ولهذا كان القاضى قاضيهم ، فلما قامت الدولة الأموية واجتمع حولها الناس ، وكان الاسلام قد انتشر . أصبح القاضى يسمى قاضى الجماعة . وهذا التطور شبيه بما حدث فى بلاد اسلامية أخرى ، مثل مصر . غير أننا ينبغى أن نفرق بين قاضى الجند وقاضى العسكر ، فان وظيفة قاضى العسكر نشأت بعد تسمية قاضى الجند بقاضى الجماعة ، واضطراره الى الاستقرار فى العاصمة ، ومست الحاجة الى اقامة قاض خاص بالعسكر ، يخرج مع الجيش ويعود معه . وفيما يتصل بالأندلس لدينا مرحلة انتقالية ، فقد كان يحيى بن يزيد قاضيا للجند ثم صار قاضيا للجماعة مع احتفاظه بقضاء الجند ، فكان يخرج مع الأمير فى الغزوات ،

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٢٨–٢٩ .

واستمر ذلك أثناء قضاء معاوية بن صالح ، ثم اختص قاضى الجماعة بالحاضرة ، وأصبح أشبه بقاضى القضاة ، وأناب عنه قاضيا آخر للعسكر.

وما دمنا لم ننتــه الى رأى فى موضوع القضـــاة الثلاثة الأول ، فلا بأس من أن نلم بذكرهم معتمدين على ما أورده الخشنى والنباهى من أخبارهم .

٣٠٣ – عهـد تولية القضاء لمهدى بن مسلم

يبدو أن حق تولية قاضى الأندلس لم يتقرر على وجه محدد فى فترة الولاة ، فقد كان عامل الأندلس يوليه أحيانا كما ولى عقبة بن الحجاج السلولى القاضى مهدى بن مسلم ، وهو أول قاض نسمع به فى تاريخ الأندلس ، ويبدو أن العامل كان يقوم بالقضاء بين الجند بنفسه قبل ذلك ، يفهم هذا من قول الخشنى : « وكان — أى عقبة بن الحجاج — قد اتخذ بالأندلس مقرا مدينة يقال لها أربونة ، وكان قد عرف مهدى بن مسلم بالعلم والدين والورع ، فكان قد استخلفه على قرطبة وأمره بالقضاء بين أهلها » . أى أنه تركه قاضيا فى قرطبة وخرج بالجند ليقوم بقضائهم بنفسه ، وهذا أمر لا يستبعد على عقبة بن الحجاج ، فقد كان رجلا دينا فاضلا عالما . ذكر الخشنى — رواية عن أحمد بن فرج بن منتيل — أنه كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ، وكان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام حينا ويرغبه فيه ويبصره بفضله ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه . فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل »(١) .

ويذكر الخشنى والنباهى أن عقبة بن الحجاج أمر مهدى بن مسلم

(١) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ١٩ .

ان يكتب عنه « عهدا لنفسه » أى أمر تعيين ، وقد أجاد مهدى كتابة ذلك العهد ، حتى أصبح أقرب الى دستور للقضاة ، وقد رأينا فيما سبق كيف أن أحد ولاة افريقية نقل نصه وأصدر به أمرا بتولية أحد قضاته ، مما يدل على مكانة هذا العهد واحكامه ، وقد وصفه النباهى نقلا عن الخشنى بأنه : « أصل من الأصول فى العهد بالقضاء » (١) .

ويقول الخشنى : « وكان [عقبة] قد عرف مع ذلك بالبلاغة والبيان، فلما أراد توليته قال له : اكتب عهدك عنى لنفسك ، فكتب مهدى بن مسلم الكتاب على أنه صادر عن عقبة بن الحجاج الى القاضى(٢) ، فبدأ بنصحه بما هو معروف من ضرورة الطهارة والنقاء واتباع الكتــاب والسنة والتقرب الى الله « باجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه واعطاء الحقوق من وجبت له . . . وأن يحاسب نفسه فى يومه وغده فيما تقلد من الأمانة الثقيل حملها الباهظ عبؤها ، فانه محاسب ومُوعَد وموعود»، ثم يقرر بعد ذلك القواعد القضائية الآتية :

١ — التلطف مع الخصوم والاستماع لكل ما يقولون والانتباه له والصبر على عيى اللسان ناقص البيان ، وملاحظة أن بعض الخصـــوم « ألحن بحجته وأبلغ فى منطقه وأسرع فى بلوغ المطلب وألطف حيلة فى المذهب وان كان غير الصواب مرماه » .

٢ — أن يتخير القاضى وزراءه وأهل مشورته والمعينين له من أهل العلم والأمانة . ولم نشر الى هذه الطوائف الثلاث ممن يستعين بهم القاضى استعانة خاصة فى أداء عمله الا لأنها ستتطور الى وظائف ثابتة

(١) النباهى : المرقبة العليا ، ص ٤٢ . وانظر : أبحاث دوزى ، جـ ١ ، ص ٣٤–٣٥ .

(٢) الخشنى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٩ وما يليها .

فيما بعد هى وظائف الفتيا والمشورة وأعوان القاضى ، وينص الكتاب نصا خاصا على مسألة الشورى فى الأحكام .

٣ — يجعل الكتاب القاضى مسـئولا عن حجابه وأعوانه وكل ما يفعلونه ، « فان أفعالهم منسوبة اليه ومنوطة بيديه ، فاذا أصلح ذلك لم يلحقه عيب ولم يعلق به ريب » .

٤ — وأن « يديم » الجلوس للناس بالمسجد والقعود للمتقاضين لا يسأم ولا يتبرم ، وأن يكون صبورا عطوفا على « الضعيف عن التودد والزمن الثقيل » وأن يكون عنيفا مع أهل « التلدد والتقحم فى ملتبسات الأمور » .

٥ — ويشير الكتاب الى طائفتين أخريين من المعاونين للقاضى على أداء مهمته ، وهما طائفتا الشهود والمزكين . فأما الشهود فمهمتهم معروفة ، وأما المزكون فيوضح الكتاب مهمتهم بأنهم كانوا يزكون حجج الخصوم وبيناتهم ، وقد أصبح الشهود فيما بعد هيئة ثابتة معروفة للقاضى وهو مسئول عنهم ، فى حين كان المزكون غير ثابتين : لكل خصم الحق فى أن يأتى معه بمن يزكى حججه ويؤيده فيما يدعيه .

٦ — وفى الكتاب أمر للقاضى بأن يستشير القاضى ابراهيم بن حرب فى كل ما أشكل عليه من المهمات ، « ليرد عليه منه ما يعمل به ويمتثله ويقتصر عليه ويصير اليه » . وليست لدينا أى معلومات عن ابراهيم ابن حرب ، ولكن هذا النص يدلنا على أنه كان معتبرا كصاحب الفتيا فيما بعد ، وهو لهذا يضع أصبعنا على منشأ وظيفة كبيرة سيكون لهـا فى تطور نظام الحكم فى الأندلس أثر عظيم [1] .

(١) انظر نص الكتاب عند الخشنى ، ص ١٩–٢٣ ، وربما كانت بعض عبارات قد أضيفت إلى الكتاب فيما بعد ، ولكننا لا نستطيع القطع بذلك .

والكتاب مصوغ فى أسلوب رصين بليغ ، يدلنا على أن مهديا كان عالما فاضلا بليغا ، ويصفه الخشنى بقوله انه كان من « أبناء المسالمة من أهل الدين والعلم والورع » ، ولسنا نعرف بالضبط ما عناه بقوله « المسالمة » : لقد حكم عقبة بن الحجاج بين سنتى ١١٦و١٢٣هـ / ٧٣٤ و ٧٤١ م أى أن مهدى بن مسلم كان رجلا ناضجا ممن يعهد اليهم فى القضاء بعد نزول العرب الأندلس بنحو ثلاثين سنة ، ولا يعقل أن يكون أبوه قد أسلم وأنجبه وبلغ هو مبلغ النضج وسن القضاء فى هذه الفترة ، فلابد أن يكون مهدى من أبناء مسالمة افريقية .

ولا نزاع فى أن مهدى بن مسلم سار على القواعد التى قررها هو بنفسه فى كتاب عهده ، أى أن نظام القضاء قد تقرر على أصول منظمة من أول الأمر ، ولم تدخل فيه بعد ذلك الا تعديلات طفيفة ، وهـذه الحقيقة تقرر لنا ناحية ايجابية جديرة بالاعجاب لعهد الولاة فى الأندلس، ففى ذلك العهد كان قضاة افريقية يجرون فى أعمالهم على وجه مرتجل غير منظم .

٣٠٤ – عنترة ابن فلاح — وربما كان هذا البدء الحسن هو السبب فيما تمتع به قضاة الأندلس بعد ذلك من عظيم المكانة . فقد كان القاضى الذى أتى بعد مهدى — وهو عنترة بن فلاح — حريصا على مصالح الناس لا يقصر عن التضحية فى سبيلهم : حدث أن أصاب الناس محل ، فقام يخطب مستسقيا ، فقام اليه رجل وقال : « أيها القاضى الواعظ ، قد حسن ظاهرك فحسن الله باطنك .. » .

— آمين لنا أجمعين ، فهل أضمرت شيئا يا ابن أخى ؟

— نعم ، بتفريغ أهرائك يكمل استسقاؤك ..

– اللهم انى أشهدك أن جميع ما حواه ملكى من المأكول صدقة لوجهك ..

وقد كان ؛ ووزع القاضى ما فى أهرائه على الناس . ويصور لنا هذا الحديث جانبا من طبائع الأندلسيين الصريحة التى لا تتردد فى مجابهة الحكام وطلب الحق منهم ، وفيه كذلك تعريض لاذع بالقاضى [١] . وكان الأندلسيون من أقدر خلق الله على هذا التعريض اللاذع الذى لا يخلو من عمق ...

وكان عنترة لا يحسن الارتجال . حتى ليقال أنه كان اذا قام خطيبا أسدل على وجهه نقابا ويقول : « متى لحظت الناس لم أصِل كلاما » . ولكن سخرية الأندلسيين أبت الا أن تزعم « أن خطبته كانت مكتوبة فى صحيفة مشبكة فى الثوب المسدول على وجهه .. » .

٣٠٥ – مهاجر ابن نوفل القرشى

وكان ثالث قضاة الأندلس مهاجر بن نوفل القرشى رجلا ورعا تقيا لا أكثر ، اذا تخاصم الناس أمامه لم يزل يعظهم ويخوفهم ويتحسر على نفسه ويبكى حتى ينصرفوا من عنده « باكين وقد تعاطوا الحقوق بينهم » [٢] .

٣٠٦ – يحيى بن يزيد التجيبى

وكان آخر قضاة هذه الفترة يحيى بن يزيد التجيبى ، وهو أول من تسمى بقاضى الجماعة كما قلنا ، وحينما دخل عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ثبته فى مكانه . ولم يكن قيام يحيى بالقضاء من لدن أحد عمال الأندلس بل كان الذى أقامه قاضيا حنظلة بن صفوان عامل افريقية وبعثه اليها مع أبى الخطار ، وكان قوى

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٢٥–٢٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

الشخصية لا يكاد يهاب أحدا ، فقد حدث أن يوسف الفهرى فجأ قرطبة فى غياب عبد الرحمن الداخل وظفر بجاريتين لعبد الرحمن فتعرض له القاضى وقال له : « ياللئيم ! عبد الرحمن ظفر ببناتك وكرايمك ، فتلوّم عليهن حتى نقلن الى دارك ، وأنت ظفرت بجاريتين له لم يستحقا منه حرمة فأخذتهما ! » فتذمم الفهرى وقال : « والله ما رأيت لواحدة منهما وجها ! فاقبضهما » وبرىء بهما اليه . وحينما دخل عبد الرحمن الأندلس وقامت الحرب بينه وبين الفهرى وأنصاره اعتزل يحيى الجند ولم يغمس يده فى الدماء ، فلما قامت البيعة لعبد الرحمن أجاب اليها طائعا [١] .

٣٠٧ – معاوية بن صالح الحضرمى

وكان يحيى بن يزيد مشاركا فى السياسة ، فقد أخذ جانب عبد الرحمن بن معاوية الداخل وتصدى ليوسف الفهرى كما رأينا ، وكذلك كان القاضى الذى جاء بعده وهو معاوية بن صالح الحضرمى ، ولم يكن من قضاة عصر الولاة ، ولكنه دخل الأندلس فى ذلك العصر ، وكان طبقة عالية فى العلم حتى ليعد أعلم من دخل الأندلس اذ ذاك ، قال الخشنى : « وكان من جلة أهل العلم ورواة الحديث ، شرك مالك بن أنس فى بعض رجاله : يحيى بن سعيد وغيره ، وروى عن معاوية بن صالح جملة من أئمة أهل العلم ، منهم سفيان الثورى وسفيان بن عيينة والليث [بن سعد] وذُكر أن مالك بن أنس روى عنه حديثا واحدا ، وذُكر أنه أتاه يوما الى داره ، فانصرف عنه دون أن يصل اليه . قال محمد [بن حارث بن أسد الخشنى] وذكر محمد بن وضاح قال : قال لى يحيى بن معين : جمعتم حديث معاوية ابن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلدا

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٢٨ .

لم يكن أهله يومئذ أهل علم .. قال : أضعتم والله علما عظيما »(١)
وذكر الخشنى بعد ذلك مكانة معاوية بن صالح بين محدثى ذلك العصر فى المشرق وقال : « قال لى محمد بن أحمد بن أبى خيثمة : لوددت أن أدخل الأندلس حتى أفتش عن أصول كتب معاوية بن صالح ! قال ابن أيمن : فلما انصرفت الى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أصحابها »(٢) .

وكان معاوية بن صالح من أهل الشام من موضع قرب حمص يسمى غناة عبس ، وقد دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الداخل فنزل اشبيلية ، وقد ظهر قدره عندما أتى عبد الرحمن فاستقضاه ، واتخذه من رجال رأيه وثقته ، وندبه الى المشرق ليأتى بأخته أم الأصبغ . فرحل الى المشرق ولم يوفق فى مهمته لأن أم الأصبغ كانت قد كبرت سنها ولم تشأ الرحلة الى الأندلس . وفى هذه الرحلة سمع من العلماء وسمعوا عنه ، وعاد الى الأندلس وقد علا صيته وثبتت قدمه ، وهو من غير شك أول هذه السلسلة الطويلة الجليلة من فقهاء الأندلس (٣) .

* * *

٣٠٨ — اتجاه الأندلس نحو مذهب مالك — وظاهر أن معاوية بن صالح كان من السائرين فى طريق مالك بن أنس ، ولكنه لم يكن مالكيا ، لأن المدرسة المالكية لم تكن قد تكونت وانتظم أمرها بعد ، صحيح أن مالكا وضع مذهبه كاملا ، وصاغه على أسلوب يدل على أنه كان

(١) الخشنى : قضاة ، ص ٣٠–٣١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣١ . وانظر أيضاً النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٤٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

واعيا الى أنه ينشىء تشريعا كاملا ، بخلاف أبى حنيفة الذى لم يكتمل مذهبه الا على أيدى تلميذيه محمد بن عبد الرحمن الشيبانى وأبى يوسف القاضى ، وبخلاف الشافعى الذى يبدو أنه لم يكن واعيا أول الأمر الى أنه يضع تشريعا ، بدليل أن أصول مذهبه كما وضعها فى الحجاز تختلف عن أصوله كما تحددت فى صورتها النهائية فى مصر . ولكن تكوّن المذهب لا يعنى قيام المدرسة ، لأن هذه تقوم بالأتباع والتلاميذ ، وقد كان مالك أكثر أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى تنبها الى أهمية تكوين المدرسة ، فكان شديد العناية بتلاميذه وأصحابه ، بل اننا نلمح فى علاقته بأولئك أنه كان حريصا على أن يكون له فى كل قطر جماعة منهم ، وهذا ظاهر جدا فيما يتصل بالمغرب والأندلس ، وقد ذكر المالكى فى « رياض النفوس » عددا عظيما من أهل المغرب وقال أنهم من تلاميذ مالك وأصحابه ، وحرص أهل الأندلس على أن يزيدوا فى عدد تلاميذ مالك المباشرين من أهل بلدهم ، ولكن البحث الصحيح أثبت أن جانبا عظيما من هذه المعلومات مخترع فى عصور متأخرة ، وقد دفعت الى الاختراع الرغبة فى تعظيم أمر المالكية فى الأندلس (١) .

وكل ما نستطيع أن نقوله فيما يتصل بمعاوية بن صالح ومعاصريه أنه من الممكن أن يكونوا قد تتلمذوا لمالك فعلا ، وأخذوا عنه وأخذ عنهم ، ولكنهم كانوا جميعا محدّثين ، ولم يتنبهوا الا الى ناحية الحديث

(١) بحث هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً الدكتور محمود على مكى فى بحثه الذى وضعه بالاسبانية وعنوانه : *Estudio sobre las aportaciones orientales en la España Musulmana y su importancia en la formación de la cultura hispano - musulmana.*
وهو دراسة عظيمة القيمة نرجو أن تطبع وتترجم إلى العربية ليفيد منها الدارسون . والجزء الخاص بموضوعنا ، ص ١٣٣ وما يليها ، وقد اعتمدنا عليه فى هذا الجزء من كتابنا .

عند مالك : سمعوا منه ونقلوا عنه على أنه فقيه محدث ، ودخلوا الأندلس فقهاء محدثين ، وهذه هى الصفة الحقيقية لمعاوية بن صالح ومن عاصره أو تقدم عليه أو تأخر عنه قليلا ، من أمثال سعيد بن أبى هند ومحمد ابن يحيى السبأى وداود بن جعفر ومحمد بن ابراهيم بن مزين وشبطون ابن عبد الله الطليطلى ومحمد بن بشير القاضى وعبد الرحمن بن موسى الهوارى [1] ، فهؤلاء جميعا كانوا فقهاء محدثين وهم الذين وضعوا أسس الدراسات الفقهية فى الأندلس ، ولكنهم لم يكونوا من مؤسسى المالكية الأندلسية .

٢٠٩ – نقطة البدء للمالكية الأندلسية

ولكن حياة معاوية بن صالح تضع أيدينا على نقطة البدء للمالكية الأندلسية ، فقد أصهر اليه أحد تلاميذه وهو زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ، وهو واحد من ثلاثة من الثابت أنهم مؤسسو المذهب فى الأندلس ، وهم الذين أدخلوا الموطأ ونشروه بين الناس ، وعلى أيديهم أصبحت المالكية المذهب الغالب ، بل الرسمى لأهل الأندلس ، أولهم الغازى بن قيس وثانيهم زياد بن عبد الرحمن هذا وثالثهم يحيى بن يحيى الليثى .

وقد كان من الممكن أن نتتبع الكلام عن القضاة بالكلام عن الفقه والعلم فى الأندلس خلال هذه الفترة ، ولكننا رأينا أن بحث هذا الموضوع فى هذه الفترة لا يعدو أن يكون مقدمة لما سيظهر فى عصور تالية ، ثم ان الأمر يتطلب دراسة الثقافة المحلية التى وجدها المسلمون فى الأندلس وأخذوا منها وتأثروا بها ، أى الرجوع بالموضوع الى أصوله البعيدة أيام الرومان والقوط ، فقد كانت اسبانيا بلد علم وعلماء على أيام هؤلاء ، وكانت

---

(١) أورد تراجمهم جميعاً ابن الفرضى فى تاريخ علماء الأندلس ؛ انظر الفهرس .

لمؤلفاتهم وآرائهم آثار بعيدة فى تكوين العلم الأندلسى فى شتى فروعه ، ثم اننا اذا قدمنا هذه المقدمات الطويلة لم نستطع الوقوف بالبحث عند حدود الفترة التى نتحدث عنها ، لأن الثمرات كلها لم تظهر الا بعدها ، فى عصور تالية ؛ ولهذا فقد رأينا أن نكتفى بهذه الاشارة ، حتى اذا أتاحت لنا الظروف دراسة العصر التالى عرضنا الموضوع كاملا بمقدماته ونتائجه .

الفصل الثاني عشر

قيام الدولة الأموية

انتهى عصر الولاة على يد عبد الرحمن بن معاوية الداخل باقامته الدولة الأموية الأندلسية ، وكان من الممكن أن ندع الكلام على قيام هـذه الدولة لبحث خاص عن العصر الذى تلا عصر الولاة ، ولكن عبد الرحمن دخل الأندلس على أيام يوسف الفهرى والصميل بن حاتم ، ودارت بينه وبينهما رحى صراع طويل انتهى بانتصاره عليهما وزوال أمرهما وزوال المعالم التى ميزت الفترة التى ندرسها ، فلم يكن هناك بد من الالمام بسيرة عبد الرحمن ودخوله الأندلس واقامته دولته فيه ، حتى نصل بعصر الولاة الى نهايته ، ولهذا فان حديثنا عنه يعتبر ختاما لتاريخ عصر الولاة وبدءا لتاريخ الامارة الأموية القرطبيه ، ولم نر بدا من ذلك ، حتى تتجمع أطراف البحث ، وحتى تكون أمامنا صورة كاملة لعصر عظيم الأهمية كما رأينا ، وان كان قصيرا فى عدد سنواته . فاذا تقرر هذا فلابد أن ندرس سيرة عبد الرحمن من أولها .

* * *

ولدت الدولة العباسية فى الكوفة فى ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ/يونيو ٧٤٩ م فى اليوم الذى بويع فيه لأبى العباس عبد الله بن محمد بعد دخول قائده أبى سلمة الخلال الكوفة قبل ذلك بأسابيع ، ولم تنقض أشهر حتى رفرفت رايات العباسيين على دمشق ، وفر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بمن معه من الجند ، ولحق بهم عبد الله بن على عم السفاح وأوقع بهم هزيمة كبيرة على نهير الزاب أحد فروع دجلة ، وفر مروان وطارده عبد الله بن على حتى قتله فى قرية بوصير بمصر ، وبذلك زالت

الدولة الأموية فى المشرق من الوجود ، وأعقبت ذلك مذبحـة كبرى أنزلها العباسيون بالأمويين حتى لم يفلتوا منهم رجلا عثروا له على أثر ، واستمرت المذابح بعد ذلك سنوات حتى لم ينج من بنى أمية الا أفراد شردوا فى الآفاق .

٣١٠ – فرار عبد الرحمن إلى المغرب

وكان بيت معاوية بن هشام بن عبد الملك من أحفل بيوت بنى أمية بالمصيبة ، فقد خلف معاوية هذا عقبا وافرا يذكر المؤرخون منهم أربعـة ذكور وبنتين ، أما أولهم فهو أبان ، وقد وقع فى يد العباسيين فقطعوا يده ورجله وطافوا به فى قرى الشام على ظهر حمار ومن خلفه مناد يصيح ، واستمر على هذه المحنة حتى هلك . ولما أعلن أبو العباس أمانه المشهور واحتال به على الايقاع بأكثر من سبعين أمويا فى دير الجماجم ، كان من ضحايا هذا الأمان ابن ثان لمعاوية هو يحيى ، ولم يفلت أخوه عبد الرحمن الا بأعجوبة ، اذ كان قد خرج فى صيد له فلم يفجأه جند العباسيين ، ولم يكد يعلم بما جرى لأخيه حتى استتر بالليل وفر الى قرية كانت تقيم فيها أختاه أم الأصبغ وأمة الرحمن وابن صغير له وأخ صبى له فى الثالثة عشرة من عمـره ، ولم يكد عبد الرحمن يستقر فى القرية ويشعر بشىء من الاطمئنان حتى رمدت عيناه ، فأقام حبيسا فى حجرة خوفا من رجال العباسيين وطلبا لشفاء عينيه .

فاذا كان فى حجرته تلك يوما فقد فاجأه العباسيون بقـوة كبيرة وأقبلوا يحاصرون القرية ، وشاءت المقادير أن ينجو مرة أخرى ؛ لأن ابنا صغيرا له روعته خيل العباسيين وراياتهم السود فدخل عليه معولا ، فكان هذا نذير الخطر ، ونهض عبد الرحمن معجلا ، فأخذ ما استطاع أخذه من المال وودع أختيه وابنه ، وطلب اليهما أن تبعثا اليه مولاه بدرا

فى مكان عينه لهما فى غابة قريبة من القرية ، ثم استصحب أخاه الصبى ومضى لا يلوى على شىء بعد السلامة . وانتظر عبد الرحمن وأخـوه فى مكان مجاور للقرية حتى وافاهما بدر مولاه بشىء من المال ، فمضوا حتى أتوا موضعا على الفرات . فطلب عبد الرحمن رجلا يعرفه وأعطاه مالا ليشترى له خيلا وطعاما ، ومضى الرجل يصحبه بدر مولى عبد الرحمن الأمين . وكان من سوء حظ عبد الرحمن وأخيه أن عبدا لهذا الرجل علم بالخبر فأسرع به الى عمال العباسيين . فأسرعوا الى الغابة وحاصروها ، وريع الأخوان فأسرعا يعدوان حتى اختبآ فى حديقة على ضفاف الفرات. وأقبل العباسيون يحاصرونهما وضيقوا عليهما حتى كادا يقعان فى أيديهم، ولم يبق أمامهما الا أن يلقيا بنفسيهما فى عباب النهر ويسبحا الى الضفة الأخرى ، وقد فعلا ، فاذا قطعا من الشوط جانبا فقد تعب الصبى وترامى الى سمعه نداء رجال العباسيين يعدونه بالأمان اذا عاد ، فانقلب الصبى راجعا ، ولم يكد يخطو على الشط حتى تقاسمته السيوف وأخوه يراه بعينيه فيشتد فى سباحته . ووصل الى بر الأمان سالما ، ثم مضى ينهب الأرض حتى أدرك مكانا من فلسطين كان قد ذكره لأختيه ، وهنـاك أدركه مولاه بدر وسالم مولى أخته بمال وجوهر ليستعين بهما فى محنته. ومضى الثلاثة معجلين فعبروا بمصر وأفضوا الى افريقية حيث كان الحال مضطربا ثائرا ، فأمنوا برهة فى وديان المغرب وشعابه وبين قبائله وأهله الذين فرقتهم الثورات وصرفتهم عن الالتفات الى دعوة العباسيين (١) .

---

(١) انظر : الأخبار المجموعة ، ص ٤٦-٥٦ ، ٦٩-٧٥ .

ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٣٣ .

المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٥ . =

كانت سنه عشرين سنة (١) حينما أقبل الى افريقية ، ولم يكن يؤمل اذ ذاك الا فى النجاة من رجال العباسيين الذين كانوا يتتبعون كل أموى يعثرون له على أثر ، ولم تكن الظروف فى افريقية لتغذى فيه أى أمل فى تحسن الحال ، لأن بربر افريقية كانوا قد كرهوا العرب كراهة عميقة بعد الذى كان من عسفهم بالبربر وثورة هؤلاء عليهم هذه الثورة العنيفة التى تحدثنا عنها ، وكان دعاة الخارجيـة وأعداء بنى أميـة الهاربون قد ملأوا نفوس أهل البلاد كراهة للأمويين وسخطا عليهم ، فلم يكن للفتى على ذلك بعد السلامة مطمع .

وكانت أمور افريقية قد انتهت على ما ذكرنا الى عبد الرحمن ابن حبيب بن عقبة بن نافع الفهرى ، وكان فهريا من عرب افريقية ، وكان واسع المطامع عظيم النشاط حارب البربر فى جيش كلثوم بن عياض . فلما انهزم كلثوم وفر ابن أخيه بلج بن بشر فى نفر من القيسيين الى سبتة ، تركهم عبد الرحمن ومضى الى الأندلس ليلقى قريبه عبد الملك بن قطن الفهرى ، وجعل يحرضه على القيسيين ، ثم سارت الأمور فى الأندلس على عكس ما رجا وصار الأمر الى بلج ثم الى ثوابة ففر عبد الرحمن بن حبيب عائدا الى افريقية،

= عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ١١ .

النويرى : نهاية الأرب ، ص ١٥٤ .

(١) ولد عبد الرحمن سنة ١١٣ هـ (٧٣١م) فى دير حسنة أو دير حنينة على مقربة من دمشق .

انظر ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٣٣ .

حيث جمع نفرا من عرب افريقية اليمنيين واستطاع أن يطرد حنظلة بن صفوان وجنده من البلاد ويستقر فى القيروان حاكما بأمره [١] .

ولكن باله لم يهدأ رغم استقرار الأمر له ورغم اضطراب الأمر على بنى أمية فى المشرق ، لأن جنده كان قليلا ، ولأن قلوب البربر من أهل البلاد لم تكن معه ، لأنه كان فى واقع الأمر مغامرا كثير التقلب لا يكاد يتصد الا لخير نفسه وحدها . واضطربت البلاد عليه وتناوبتها الأوبئة ، « ثم ثار عليه عروة بن الزبير الصدفى واستولى على تونس ، ثم ثار عليه عرب الساحل ، وقام عليه ابن عطاف الأزدى حتى نزل بطُبَيْناس ، وثارت البربر من الجبال ، وثار ثابت الصنهاجى بباجة فأخذها ، وخرج بناحية طرابلس رجلان يقال لأحدهما عبد الجبار والآخر الحارث ، وهما من البربر على مذهب الخوارج ، فقاتل عبد الرحمن بن حبيب كل من خرج عليه طائفة بعد أخرى ، حتى دوخ المغرب كله ، وأذل من به من القبائل ، ولم ينهزم له عسكر ولا ردت له راية ، وخافه جميع أهل المغرب »[٢] . وأراد أن يؤيد سلطانه ، فكتب الى مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية ، وحصل منه على ولاية المغرب والأندلس جميعا . ثم قامت الدولة العباسية ، فعجل عبد الرحمن بالكتابة الى أبى العباس بطاعته ، ثم كتب الى المنصور كذلك وأهدى اليه شيئا رجاء أن يثبته فى البلاد ، وخشى أن يرهقه المنصور بالمطالب ، فكتب يؤكد له أن افريقية أصبحت اسلاما كلها ، وأنه لن يستطيع ارسال سبايا اليه ، فأغضب كتابه المنصور ، ووقعت النفرة بينهما . فخلع طاعة المنصور وأحرق

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣-٢٢٤ .

النويرى : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ص ٣٩ .

الخلع التى كان هذا قد أرسلها اليه : « وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب كتابا بخلعه ويقرأ على المنابر فى سائر بلاد المغرب » ، وبهذا خرج هذا الرجل عن طاعة الدولة وازداد مركزه فى البلاد حرجا [١] .

وطبيعى بعد ذلك أن يظل متربصا يتخوف على سلطانه من كل أحد ومن كل طارىء ، وتذهب الروايات الاسلامية الى أن يهوديا أخذ علم النجوم عن مسلمة بن عبد الملك حذره من أموى اسمه عبد الرحمن يقيم ملكا فى الأندلس ، وطبيعى أن هذه أسطورة ابتدعها مؤرخو الأمويين فى الأندلس مبالغة منهم فى تصوير حياة عبد الرحمن منشىء دولتهم ، والواقع أن عبد الرحمن بن حبيب كان متخوفا مترقبا لكل أمير أموى هارب يصل الى بلاده سواء أكان اسمه عبد الرحمن أم لم يكن . وكان نفر من بنى أمية هؤلاء قد وفدوا عليه لاجئين ، فتزوج هو وأخوه الياس من حريمهم ، ثم بدا له بعد ذلك أنهم يدبرون عليه فقتل منهم اثنين ، وكانت لهما أخت تزوجها الياس أخو عبد الرحمن بن حبيب فلم تزل تغريه بأخيه حتى دفعته الى قتله ، ولم يصف لالياس الأمر بعد قتله أخاه ، لأن حبيب بن عبد الرحمن ثار به ووقعت بينهما فتنة طويلة .

* * *

٣١٢- عبدالرحمن ابن معاوية فى المغرب

وصل عبد الرحمن بن معاوية الى افريقية أيام عبد الرحمن ابن حبيب ، ومن الطبيعى أن يتخوفه على نفسه ، ولو قد كان هذا الأموى الشارد خامل النفس قنوعا للجأ الى عبد الرحمن بن حبيب وعاش فى ظله عيشة خمول لا تخلو من الاستمتاع كما كان غيره من أمراء بنى أمية يفعلون ، ولكنه كان مغامرا بطبعه جرىء القلب ، ففضل أن يعيش بين البربر حياة قلق واضطراب .

(١) نفس المصدر ، ص ٤٠ .

وتحدثنا المراجع أنه تقلب فى نواحى افريقية كلها دون أن يغادر منها ناحية لم يجرب فيها حظه : أقام ببرقة حينا ، ثم مضى الى تاهرت حيث استظل برعاية بنى رستم حينا ... ثم اختفى فى قبائل مكناسة ، ثم قضى ردحا فى صبرة ، وانتهى به الأمر بعد خمس سنوات من الهرب والتجوال والمغامرة الى قبائل نفزة على مقربة من طنجة . وكانت أمه من سبيهم ، والظاهر انه استطاع كسب ودهم لأن كثيرا منهم عطف عليه وقام برعايته. والظاهر كذلك أنه لم يقنع بحياة الخمول ، فجعل يدبر على عبد الرحمن ابن حبيب . واتصل أمره بهذا الأخير ، فبعث من يبحث عنه ، وكان الطلب عليه شديدا حتى ان امرأة أحد شيوخ نفزة اضطرت الى اخفائه تحت ثيابها حتى لا يقع فى أيدى عمال عبد الرحمن بن حبيب ، وكان يرافقه فى هذه المغامرات كلها مولاه بدر ومولى أخته سالم ، وكان عبد الرحمن عنيفا على موليه هذين لميل الى الاستبداد كان فيه ، فأما سالم فقد غضب مرة وفارقه بعد أن احتمل شدته وحياة الشقاء معه زمنا طويلا (١) ، وأما بدر فقد أقام معه مخلصا له ، وقد قدر له أن يكون أخلص معاونيه فى بناء مجده .

أقام عبد الرحمن عند قبائل مغيلة من ساحل طنجة فى كنف شيخها أبى قرة ، ولا شك أن شيئا كثيرا من أخبار الأندلس وما كانت فيه من الاضطراب قد اتصل به ، ويغلب أن استقراره عند مغيلة هؤلاء كان حوالى سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣م) لأن المراجع تحدثنا بأن أمر الأندلس اذ ذاك كان قد استتب ليوسف الفهرى والصميل بن حاتم ، وكان سالم مولى أخته قد حدثه بشىء عن خير الأندلس اذ كان قد قدمها مع

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٥ (وهو يذكر أن كنية سالم كانت أبا شجاع) .

موسى بن نصير ، فتطلعت نفس هذا الفتى المغامر الى هذا البلد الواسع الغنى الذى أفسد الاضطراب أمره (١) .

٣١٣ – تفكير عبد الرحمن فى أمر الأندلس

ولسنا نعلم كيف نشأت الأطماع فى ولاية الأندلس فى نفس عبد الرحمن ، والثابت على كل حال أنه لم يحاول أن يبنى لنفسه ملكا فى أى مكان من افريقية ، وأن الطمع فى الامارة نشأ فى نفسه وهو مقيم بين مغيلة عند طنجة ، وربما نشأت فى نفسه هذه الأطماع حينما علم أن فى الأندلس جماعة لا بأس بها من الأموية تعيش فى ناحيتى البيرة وجيان مشطورة بين جندى دمشق وقنسرين ، ولم تكن أحوالهم بالآمنة ولا المستقرة لأن أكثرية عرب الأندلس من اليمنيين كانت تنفس عليهم مكانهم وثروتهم ، وكانت كذلك لا ترضى عن تأييدهم ليوسف الفهرى وصاحبه الصميل ، ولابد كذلك أنه تسامع بأن هؤلاء الأمويين فى حاجة الى شخصية قوية تجمع أمرهم وتقوى صفوفهم ، لابد أنه تسامع بذلك والا لما بعث اليهم مولاه بدرا برسالة خطيرة يعرض عليهم فيها رياسته ، وهو لم يفعل ذلك فى افريقية أبدا ، مع أن افريقية لم تخل من جماعات من موالى بنى أمية وأنصارهم . وكان مستطيعا تجريب حظه معهم ، لو كانت المسألة مجرد تجريب حظ ، بل قد كان أولى به أن يحاول فى افريقية لأن عرب نواحيها لم يكن فيهم من يقارب الصميل أو يوسف الفهرى أو غيرهما من كبار العرب الذين تحدثنا عنهم .

ثم ان بدرا وموالى بنى أمية لم يكادوا يعرضون الأمر على الصميل

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٤٢–٤٣ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٣٨ .
البكرى : وصف إفريقية (طبعة دى سلين ، الجزائر ١٩١١) ، ص ١٢٣ .

حتى قبل ، مع علمه بأن هذا القبول يعنى ضياع سلطانه ، بل اننا نتساءل: لماذا قصدوا الصميل ولم يقصـدوا يوسف وهو أضعف من الصميل وأكثر لينا ؟

هناك حلقة مفقودة تجعل السياق كله قلقا غير منسجم . وليس لدينا فى ذلك الصدد الا أربع أو خمس روايات لا تكاد احداها تزيد على الأخريات شيئا ذا بال . وربما أعاننا على استجلاء هذا الأمر أن نقرر أنه كان هناك تفاهم واتفاق بين الصميل بن حاتم وجماعة موالى بنى أمية وزعمائهم من أمثال أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف ابن بخت . ولسنا ندرى كيف تم هذا التقرب على الرغم مما تؤكده المراجع من أن موالى بنى أمية كانوا معتبرين موالى يوسف الفهرى من يوم زالت الدولة الأموية فى المشرق ، فقد اعتبر هذا الرجل نفسه وارث كل ما كان للأمويين فى الأندلس ، بما فى ذلك الموالى [١] ، وربما يكون هذا قد ساء هؤلاء الموالى فسعوا الى الانضمام الى الصميل بن حاتم للتخلص من سلطان يوسف . وسنلاحظ أن هذا الأخير لم يفطن الى ذلك ومضى يعتبر موالى بنى أمية مواليه وأخصاءه ، وكان ذلك من أخطائه الكبرى . ولا يبعد أن يكون الصميل قد قربهم الى نفسه ليفيد منهم وقت الحاجة .

ولم تكن العلائق بين الصميل ويوسف طيبة على كل حال ، فقد كان يوسف منكرا للسيطرة التى يفرضها عليه الصميل ، وقد رأيناه يسعى للتخلص منه فيبعثه الى سرقسطة وكان كل أهلها يمنيين لا يطيقون هذا القيسى الجافى ، وقد ثاروا عليه وكاد يهلك على أيديهم كما رأينا ،

(١) انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ سطر ٥ وبقية السياق .

ثم لم يكد الصميل ينجو حتى عاد يوسف يفكر فى بعثـه الى الثغر ، وسيكون ذلك دافعا بالصميل الى القاء يده الى عبد الرحمن والدخول فى دعوته . ولنلاحظ كذلك أن موالى بنى أمية فى الأندلس لم يكونوا قليلين ، فقـد كانوا موزعين بين جندين ، ولم يكن عـددهم أربعمائة أو خمسمائة كما يظن[١] ، بل كانوا أكثر من ذلك بكثير ، ولم يكن يربطهم الى يوسف الفهرى والقيسيين الا الصميل ، فلما تخلى عنهم الصـميل تخلوا عن القيسية ومالوا الى اليمنية . على أساس هـذه الملاحظات نستطيع أن نمضى فى رواية الأحـداث التى انتهت بانشاء الامارة الأموية الأندلسية على يد عبد الرحمن .

من الواضح أن عبد الرحمن حينما أرسل مولاه بدرا ليبدأ العمل فى الأندلس فى ربيع سنة ١٣٦ هـ كان قد كون لنفسه فكرة واضحة عن الأحوال فى البلاد ورسم لبدر خطة العمل . ودليلنا على ذلك أنه أعطاه خطابا مكتوبا يعرض فيه على موالى بنى أمية أمره ويسألهم تأييده ، ولا شك فى أنه عرض عليهم ترشيح نفسه أميرا على الأندلس مكان يوسف والصميل لكى يستطيع أن يضع حدا للفوضى الضاربة أطنابها ولكى يقيم أمر بنى أمية فى البلاد من جديد ، وقد توجه عبد الرحمن بكتابه الى جماعتى موالى بنى أمية فى البيرة وجيان . ونقول انه حدثهم فى أمر ترشيحه لولاية الأندلس ، لأننا سنرى من اجتهادهم فى الأمر والحاحهم فى انفاذه أن المسألة لم تكن مجرد طلب أمان ، ولو كان قد سألهم ايواءه فقط لما احتاج الأمر الى هذا العناء كله . ولم يضع بدر وقته سـدى ،

(١) تذكر المراجع أن عددهم كان حوالى ٤٠٠ .

انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ و ٧٢ .

بل اتجه الى رؤساء موالى بنى أمية الثلاثة الذين ذكرناهم وأسلم اليهم خطاب مولاه ، واجتهد فى اقناعهم ، ولم يلق صعوبة فى ذلك ، لأنهم كانوا رغم اطمئنانهم الى الصميل لا يكادون يطمئنون الى بقية القيسيين. فلم يكد أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت يستوثقون من أمر بدر وسيده حتى نهضوا يخاطبون فيه الصميل ، ولو لم يكونوا أخصاءه وأصدقاءه لما خاطروا بمثل ذلك ، ولكنهم ذهبوا وهم واثقون من أن الرجل موغر الصدر من يوسف ، وأنهم لا يكادون يعرضون عليه الأمر حتى يجيبهم اليه . راجيا لنفسه من ورائه خيرا كثيرا. وكان موالى بنى أمية يعرفون الصميل وما به من نزوع الى السلطان ، فتلطف رسولا هم فى عرض الأمر عليه . « وذكراه بأيادى بنى أمية عنده وعند سلفه ، وقالا له : ان عبد الرحمن بن معاوية نجا الى بلد البربر وهو مستتر فيه خيف على نفسه ، وأتتنا وصيته يسأل الأمان فى نفسه ، ويتوسل اليك بما قد علمته ، وأنت ذاكر له . فقال : نعم وكرامة ! ونضم يوسف هذا الى أن يزوجه ابنته ويشركه فى سلطانه ، والا ضربنا صلعته بالسيف » مما يدل على أن موليى بنى أمية عرضا عليه الأمر كأنه طلب أمان فقط ، ولو كانا حدثاه فى أن يصبح عبد الرحمن صاحب الأندلس لما قال انه مستعد لارغام يوسف على اشراكه معه فى الأمر فقط (١) .

ولنلاحظ كذلك أن الأمويين لقوا الصميل فى لحظة كانت نفسه متفتحة فيها لقبوله ، فقد كانت نفسه راضية عن خلاصه مما كان اليمنيون يريدونه به ، وكان لفرط سروره يفرق الأموال فى الناس من غير حساب ، ولما كان موالى بنى أمية من أكبر الناس فضلا فى خلاصه

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .

فقد كانت نفسه متفتحة لقبول أى رأى يتوجهون اليه به . وكانت الأحوال العامة قد تحسنت ، اذ انجابت المجاعة « وأربع الناس وحملت الأرض »(١) ، ولم ينتظروا حتى يستقر الرجل فى قرطبة بل كلموه فى الأمر وهو فى طريق العودة من سرقسطة . عرضوا عليه أمر عبد الرحمن وما يطلب من القدوم الى الأندلس والاستعانة بأهلها ، ويبدو أن عبد الرحمن تلطف فى خطابه فلم يتحدث عن امارة أو ملك وانما عرض سوء حاله لكى يعطف القلوب على نفسه ، ولا نزاع فى أن الصميل حسبه شابا مسكينا لا يطمع فى أكثر من أن يكون من رجال الصميل وأنصاره وفى أن يشتد به ساعد القيسيين لانتسابه الى بيت أمية ، على هذا الأساس وحده نستطيع تفسير قبول الصميل للدعوة وعدم نفوره منها على الأقل ، فسأل الرسولين فترة يُروّى فيها أمره . فعجلا وجمعاه ببدر . فاستقبله الرجل استقبالا طيبا وأعطاه عشرة دنانير وشقة خز (٢) .

واستقر الصميل فى قرطبة فلم يطمئن يوسف الى ذلك . فبدأ يلح عليه فى العودة الى الثغر ، لأن اليمنيين انتهزوا فرصة عودة الصميل الى قرطبة وانقضوا على سرقسطة يقودهم زعماؤهم عامر وابنه وهب والحباب وتحصنوا بها وأعلنوا خروجهم على يوسف . وتطلب الأمر القضاء عليهم. وأخذ يوسف يلح على الصميل والصميل يسوف ، علما منه أن يوسف لا يرمى الا الى ابعاده عن قرطبة والتخلص من سلطانه .

وكان يوسف الفهرى قد اعتبر موالى بنى أمية مواليه هو بعد زوال أمر مواليهم بنى أمية فى المشرق كما قلنا ، فلما يئس من الصميل بعث الى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

رؤسائهم وأمرهم بأن يجمعوا رجالهم ويسيروا بهم نحو سرقسطة ، ولم يكونوا بالطبع راغبين فى هذا المسير . ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رفض الأمر ، فجعل رؤساؤهم يتعللون بأن رجالهم لا يستطيعون النهوض اذ أن « كل من كان فيه منهض قد نهض الى أبى جوشن ، فتقطعوا وأهلكهم الشتاء والسفر مع ما نال الناس من الجهد » ، فصدقهم الرجل وأعطاهم ألف دينار ليتقووا بها على النهوض ، فانتهزوا فرصة غفلته وحاولوا أن يكسبوا منه أكثر من ذلك . وقالوا : «هم خمسمائة مدوّن ، وأين تبلغ هذه منهم ؟ » ، فلم يزد . فانصرفوا من عنده وقد قرروا فيما بين أنفسهم أن يستخدموا هـذا المال فى تحقيق ما كانوا يدبرونه مع بدر والصميل [1] .

وقرر يوسف الرحيل بنفسه بعد أن اطمأن الى أن موالى بنى أمية موافوه ، فرحل فى ذى قعدة سنة ١٣٧ . وخرج معه الصميل يتلكأ ؛ فلما بلغ جيان نزل « بمخاضة الفتح » على مقربة منها حيث أقبل عليه بعض جنده ، ففرق فيهم الأعطيات . وجعل ينتظر موالى بنى أميـة ؛ فلما أبطأوا عليه استدعى أبا عثمان عبيد الله بن عثمان ، وسأله عنهم ، فتعلل مرة أخرى ، وأكد له أنهم لاحقون به قبـل أن يدرك طليطلة ، وانما هم منتظرون حتى يجمعوا شعيرهم ليستقووا به . فلم يشك الرجل فى كلامه ، وأمره بالعودة اليهم والضغط عليهم فى المسير .

ولكن عبيد الله لم يسر الى البيرة : بل عرج على الصميل فى مؤخرة العسكر ، فلما خلا به ذكره بأمر عبد الرحمن وسأله عما استقر عليه أمره ، ويبدو أن الصميل لم يكن فكر ولا روّى وانما فاجأه عبيد الله بذلك

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٠ . ويلاحظ أن عدد ٥٠٠ هو عدد المدونين منهم فقط ، لا شك أنه كان هناك عدد كبير من غير المدونين .

وهو على شرابه وقد رضيت نفسه ، فقال له : « أما أنى ما أغفلت ذلك ، ولقد رويت فيه واستخرت الله وكتمت الأمر فما شاورت فيه قريبا ولا بعيدا ، وفاءً بما جعلته لكما من ستره ، وقد رأيت أنه حقيق بنصرى حقيق بالأمر ، فاكتبا اليه على بركة الله ، فان [أبى] هـذا الأصلع (يريد يوسف) علىّ أن يتخلى لى عن هذا الأمر ، وأزوجه من أم موسى (يريد ابنتـه أم موسى ، وكانت قد أرملت تلك الأيام من زوجهـا قطن بن عبد الملك) على أن يكون واحدا منا ، فان فعل قبلنا منه وعرفنا حقه ومنته ويده ، وان كره هان علينا أن نقرع صلعته بسيوفنا ! »[1] وخرج الأمويون من عنده وقد ملأ البشر والتفاؤل نفوسهم .

ولم يكادوا يخرجون من حضرته وينطلقون بالبشرى الى قومهم حتى بدأ الصميل يفكر فى الأمر ويأخذه مأخذ الجد ، وهنا فقط أدرك خطورة الأمر وأحس أن اقبال عبد الرحمن قد يعنى ضياع أمره ، فعجل بارسال رسول يستوقف رسل موالى بنى أمية فى الطريق ، ثم لحق بهم على ظهر فرسه « الكوكب » مما يفهم منه أن الأمر روعه ، وقال لهما فى أسلوبه الطريف فى الكلام : « انى منذ أتيتمانى برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل فى ادارة ، فاستحسنت ما دعوتما اليه ، ثم كان منى اليكما ما كان ، فلما فارقتكما رويت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بواله . وهذا (يعنى يوسف) رجل قد حكمنا عليه مع ما له فى أعناقنا . والله لو بلغتما بيوتكما ، ثم رأيتما هذا لظننت ألا أقصر حتى أرجع اليكما لئلا أغركما ؛ وانما أعلمكما

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .

أن أول سيف يسل عليه سيفى ! فبارك الله لكما فى رأيكما ومولاكما »(١)
فأسقط فى أيديهما وعلما أن الرجل جاد فيما يقول ، وان لا رجاء لهما فيه بعد ذلك . وهكذا انتبه هذا الرجل لأمر نفسه فى آخر لحظة ، وعاد الى بيته وهو لا يشك فى أن أمر ابن معاوية هذا قد انتهى ، وكان قد أحب استرضاء أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد فأكد لهما أنه يعطف على مولاهما ، وأنه على استعداد ليعطف قلب يوسف عليه فيزوجه من بيته ويكرمه اذا تخلى عن طلب السلطان .

أراد الصميل شيئا وأراد الله شيئا آخر . أراد أن يقضى على آمال عبد الرحمن وموالى بنى أمية فى السلطان فى الأندلس ، فكانت ارادته تلك فتحا لباب الأمل أمام وجوههم . فقد فكروا بعد يأسهم من المضريين المعديين فى الاستعانة بالكلبيين اليمنيين ، فجعلوا فى طريق عودتهم الى البيرة لا يكادون يمرون بمنازل يمنية الا حدثوا أشياخها فى الأمر ، وكانوا فى ذلك أسعد حظا من يوم توجهوا بآمالهم الى الصميل والمضرية، لأن اليمنيين كانوا منذ هزيمة شقندة ومنذ فشل ثورتهم فى سرقسطة ينتظرون بفارغ الصبر فرصة ينتصفون لأنفسهم فيها من أعدائهم المضريين ، فجعلوا ينضمون الى دعوة عبد الرحمن جماعة بعد جماعة ، ولم يصل زعماء بنى أمية الى البيرة حتى كانوا قد ملأوا أيديهم من أطباء اليمن ، وقرروا الاسراع باستدعاء عبد الرحمن والبدء فى العمل قبل أن يفرغ يوسف والصميل من أمر سرقسطة ويعود الى قرطبة .

عجل موالى بنى أمية فندبوا أحد عشر رجلا منهم فيهم تمام بن علقمة الثقفى الذى شارك فى الفتح وكان له فيه جهد مشكور ، وشاكر مولى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

هشام ، وأعطينا تماما خمسمائة دينار للنفقة منها ولافتداء عبد الرحمن من بربر مغيلة الذين كان يعيش عند شيخهم أبى قرة المغيلى . وكانت هذه الخمسمائة دينار هى كل ما كان قد بقى لهم من الألف دينار التى أخذوها من يوسف الفهرى ليفرقوها فيما بينهم استعدادا للسير معه ، كانوا قد أعطوا كل جندى أموى عشرة دنانير . . . أما الباقى فقد أراد الله أن يكون من نصيب عبد الرحمن هذا الذى سيكون على يديه زوال أمر يوسف والصميل معا .

واشترى تمام وشاكر وبدر من المال مركبا وعبروا وتسعة آخرون للقاء عبد الرحمن الذى كان ينتظرهم بفارغ الصبر (١) .

* * *

٣١٤ – وصول وفد موالى بنى أمية واليمنيين الى عبد الرحمن

اقترب رسل موالى بنى أمية بمركبهم من شاطىء افريقية فى احدى أمسيات ربيع الآخر سنة ١٣٨ (سبتمبر ٧٥٥) وكان عبد الرحمن قائما يصلى المغرب ، فلما أبصرهم أسرع اليهم وقفز بدر الى الماء لكى يسرع الى مولاه بالبشرى ، ولم تكد الوجوه تتلاقى بعد طول انتظار حتى أفضى اليه بجلية الأمر وأنبأه بتوفيقه مع موالى بنى أمية واليمنيين ، وبأن جماعات قوية من هؤلاء تنتظر لتسير فى ركابه مؤيدة ، ثم أقبل تمام بن علقمة ، فلم يكد عبد الرحمن يسأله عن اسمه وكنيته (أبو غالب) حتى استبشر به وعول على الاسراع فى الرحيل . وأقبل برابر مغيلة يحاولون منعه من الرحيل الا اذا افتدى نفسه منهم ، ففرق عليهم تمام من المال الذى كان معه ، ولم يخلص عبد الرحمن مع ذلك منهم الا بصعوبة ، واستوى هذا الفتى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٤ .
ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٤ .

الموفق فى القارب فانطلق به نحو الأندلس بعد ساعات قليلة من وصول البشرى اليه . ووطئت قدمه شاطىء الأندلس عند المنكّب فى أخريات ربيع الثانى سنة ١٣٨ . نزل الأندلس لا تكاد تصاحبه غير آماله ، وتريد المقادير أن تكون ساعة نزوله تلك بدءا لعصر جديد فى تاريخ الأندلس بل فى تاريخ الاسلام عامة .

٣١٥ – دخول عبد الرحمن الأندلس

لم يُرح عبد الرحمٰن فى المنكب ، بل سار منها رأسا الى طُرُش حيث أراح فى دار لأبى الحجاج يوسف بن بُخْت (شيخ جند قنسرين) وأحد كبار موالى بنى أمية على ما ذكرنا : « وهناك جاءته الأموية كلها وجاءه جداد (كذا والأرجح جدار) ابن عمرو المذحجى من أهل ريّه الذى كان بعد ذلك قاضيه فى العسكر . وجاءه عاصم بن مسلم الثقفى وأبو عبدة حسان فاستوزره ، وجاء أبو بكر بن الطفيل ، واختلف الناس اليه » . وهكذا أخذ معسكر عبد الرحمن يغنى بالمؤيدين والأنصار وبدأت طلائع النصر تهب عليه ، فحرص منذ اللحظة الأولى على تنظيم أتباعه هؤلاء واعدادهم للصراع فى سبيل الأمر العظيم الذى يطلبه ، وتناقل أهل الأندلس كلهم خبره[1] .

فى هذه الأثناء كان يوسف والصميل قد وصلا سرقسطة وحاصرا اليمنيين والقرشيين الذين كانوا قد دخلوها وأعلنوا الثورة فيها يقودهم عامر بن عمرو القرشى وابنه وهب والحباب بن رواحة بن عبد الله الزهرى الكلابى ، وكان يوسف ينتظر مجىء أبى عثمان عبيد الله وابن خالد بفارغ الصبر على ما وعداه ، ولم يكن يخطر له على بال ما أحكما تدبيره من الأمر أو ما كانت تخبئه له صروف الأيام .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٦–٧٧ .

وفى أثناء هذا الانتظار استطاع الصميل أن يرغم اليمنيين الثائرين على التسليم ، فنزلوا له عن سرقسطة على أمان ، واستسلم قوادهم عامر وابنه وهب والحباب وأقاموا عند الصميل كرهائن ، ولو كان الأمر كله فى ذلك ليوسف والصميل لقتلاهم ، ولكن نفرا من القرشيين فى معسكرهما على رأسهم سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن حالوا بينهما وبين ذلك . فلما فرغ يوسف من أمر سرقسطة فكر فى وسيلة يتخلص بها من سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن وغيرهما من زعماء القرشية ، فانتهز فرصة انتقاض البشكنس فجمع جمعا صغيرا من جنده ورماهم به وجعل على رأسه سليمان بن شهاب والحصين وأصحبهما خيار القرشية « وبعثهم فى ضعف ولم يكره عطبهم »[1] . فلم يكادوا يفضون الى دار الحرب ويلقون البشكنس حتى انقض عليهم هؤلاء ومزقوهم وقتلوا معظمهم وفيهم ابن شهاب ، وأسرع الحصين بفلهم الى سرقسطة وقلبه موغر على يوسف والصميل اللذين أرسلا قومه الى الهلكة ، وأقام عند أبى زيد عبد الرحمن بن يوسف ، وكان يوسف قد خلفه وراءه عاملا على سرقسطة .

فى هذه اللحظة تحركت فى نفس الصميل عوامل القسوة التى عرفناها فيه فى مناسبات كثيرة ، فمال الى قتل رهائن القرشيين الثلاثة بعد أن قتل حاميهم سليمان بن شهاب وهلك معظم أنصارهم فى بعث البشكنس ، وجعل يزين الأمر ليوسف ويؤكد له أنه ان فعل هذا خلصت الأندلس له ولولده ، وكان يوسف مقيما اذ ذاك بمكان يقال له وادى شربنّة ، فاستجاب له يوسف وضرب أعناق عامر بن عمرو القرشى

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧ .

وابنه وهب والحباب بن رواحة على رغمه ، واطمأن الصميل بعد أن شفى أحقاد نفسه من هؤلاء اليمنيين والقرشيين الذين كادوا يهلكونه أثناء حصارهم اياه بسرقسطة ، اطمأنت نفسه واستراح باله ، فمضى الى خبائه — وكان فيه ابنتاه — ليقيل ، فلم يكد جفنه يهدأ حتى طرقت سمعه خطوات رسول يوسف يحمل اليه نبأ عبد الرحمن واجتماع الناس اليه بطرش ، فكأن المقادير أرادت أن لا يهدأ له بال لحظة بعد هذه الجريمة البشعة التى ارتكبها منذ لحظات [1] .

٣١٦ – بدء الصراع بين عبد الرحمن ويوسف الفهرى والصميل

لم يكد يوسف يقرأ الخطاب حتى بعث يستدعى الصميل ، وانتبه الصميل لخطورة الأمر وأشار على يوسف بأن يعجل بالسير الى عبد الرحمن بمن معه قبل أن يجتمع اليه الناس ويشتد أمره ، فلم يكد يوسف يتحدث الى الجند فى هذا حتى عارض فيه أكثرهم ، وكانوا متعبين من أثر هذه الحملة المشئومة التى قاموا بها فى بلاد البشكنس ، ثم ان الكثيرين منهم كانوا ساخطين على الصميل ويوسف بسبب ما فعلا باخوانهم القرشيين ، اذ ألقى ببعضهم الى الهلكة وغدر بالباقين ، لهذا لم يجبه منهم الا نحو عشرة كانوا هم حملة ألوية القبائل ، ولو أمكنهم التقاعس لتقاعسوا ، أما الباقون فقد طال الشوق بهم الى بيوتهم فتسللوا الى أهليهم وتركوا يوسف والصميل وحدهما ، واستحال عليهما الذهاب ، وانقضى الوقت وأقبل الشتاء وهطلت الأمطار وحملت الأنهار ، فلم يجد الرجلان بدا من السير بمن معهما الى قرطبة . وجعل الناس يهونون أمر عبد الرحمن على يوسف ، وقال بعضهم انه لا يطلب ملكا وانما يطلب العيش الرغد ، فان كفاه يوسف

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧–٧٨ .

ذلك وزوجه من بيته رضى وقنع وزال خطره ، واطمأن الرجل الى ذلك طيلة الشتاء كارها .

فى ذلك الحين كان عبد الرحمن جادا فى توثيق أمره فى طرش فى دار أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ، كانت جماعات موالى بنى أمية قد توافدت عليه حتى اكتمل عقدها تحت لوائه ، وتسارع اليه اليمنيون لا يشكون فى أنه منتصف لهم من القيسيين وقائديهم العاتيين ، بل انضم اليه نفر من القيسيين أنفسهم يتزعمهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين بن الدجن ، وكانت قلوبهم موغرة على الصميل لما فعل بأصحابهم فى حملة البشكنس ولضربه رقاب من نجا منهم بعد ذلك ، وانضم اليه من ثقيف ثلاثة نفر سيكون لهم فى مجرى الحوادث أثر عظيم ، هم تمام بن علقمة الثقفى الذى ذكرناه وعاصم العريان وأخوه عمران ، وانضم اليه كذلك كثير من البربر لم تعطنا المراجع عنهم أى تفصيل ، ولكن معظم البربر كانوا على أى حال يأمنون اليمنيين وينضمون اليهم ، وكان هؤلاء قد تقربوا اليهم بعد هزيمة شقندة . هكذا قوى معسكر عبد الرحمن . فأخذ ينظم صفوف أنصاره استعدادا للصراع الحاسم اذا انقضى الشتاء .

فلما أقبل الربيع بدأت بطون مضر تتوافد الى الصميل ويوسف حتى اكتمل جمعهم عندهما فى قرطبة ، ويبدو أن عدد من اجتمع من القيسيين كان عظيما . لأن الأمويين واليمنيين المجتمعين الى عبد الرحمن لم يلبثوا أن استبانوا قلة أعدادهم ونصحوا عبد الرحمن بالمرور على بقية منازل اليمنية فى نواحيها لكى يصطحب منهم من يستطيع ضمه ، وهذا يدلنا على أن اليمنيين رغم كثرة عددهم فى الأندلس كان معظمهم منصرفا الى شؤون العيش فى النواحى التى نزلوا بها ، فلم يكن ينهض منهم

للقتال الا أعداد قليلة ، وربما كان هذا هو سبب تفوق القيسيين عليهم فى ميادين الحرب ، فقد كان معظم القيسيين جددا على البلاد أقبلوا مع بلج ، لم تثبت بعد أقدامهم فى النواحى التى كان أبو الخطار قد فرقهم فيها ، فكانوا اذا دعا داعى الحـرب لبى معظمهم وأسرعوا الى الميدان ، ومن دلائل ذلك أن يوسف والصميل لم يكادا يدعوان الجند بعد انقضاء الشتاء حتى توافد عليهما معظم القيسية ، فى حين كان لا بد أن يمر عبد الرحمن عى اليمنيين فى منازلهم ليحشد أكبر عـدد منهم للصراع المقبل .

وجعل نفر من رجال يوسف يوهمه بأن عبد الرحمن لم يأت لملك ، وانما يكفيه شيء من الخير وحسن المكانة عند يوسف كما قلنا . ففكر هذا فى أن يبعث اليه بشيء من الهدايا مع وفد من أنصاره يعرضون عليه الصلح والمصاهرة . وتخير يوسف ثلاثة من خيرة أنصاره هم عبيد الله ابن على شيخ قيس وخالد بن زيد كاتبه الأثير عنده وعيسى بن عبد الرحمن وكان من موالى بنى أمية ، ولكنه ثبت الى جانب يوسف . لأنه كان على أرزاق الجنـد وحشم يوسف ، وبعث معهم بكتاب بليغ كتبـه خالد بن زيد وأرسل كذلك كسى وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار ، فسار الرسل حتى بلغوا أرش من كورة ريه ، فبدا لعيسى بن عبد الرحمن أن يبقى هو بالهدايا فى هذا الموضع ، ويذهب زميلاه بالكتاب ليريا ان كان عبد الرحمن يقبل الصلح أو لا يقبله ، فلما وصلا الى معسكر عبد الرحمن وجداه عامرا بالناس تتوارد عليه الوفود من اجناد دمشق والأردن وقنسرين وفدا بعد وفد ، وحدثاه بالذى يعرضه يوسف من الصلح والمصاهرة والسلم ، ومالت قلوب نفر من أنصار عبد الرحمن الى قبول ذلك ، ثم أخرج خالد بن زيد الكتاب وناوله لعبد الرحمن ،

فناوله هذا لصاحبه أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ليرد عليه بما يشاء ، وهم أبو عثمان باملاء الجواب ، فملك الزهـو خالدا وقـال : « يا أبا عبد الرحمن ، لتعرقن ابطك قبل أن تجد فيه جوابا ! » فنالت هذه العبارة الجافية من نفس أبى عثمان ، وكان — كغيره من كبار عرب الأندلس — يكره خالدا ولا يرتاح اليه ، اذ كان خالد مولى أندلسيا اصطنعه يوسف وصعد بمكانه ، وكان فيه هذا الغرور الذى سنعرفه فى الكثيرين من الأندلسيين ، فأثار بغروره نفوس العرب حتى كرهوه وحسدوه على هذه المكانة التى أصابها من نفس سيدهم ، وهو بعد مولى أندلسى أو « علج » كما كانوا يسمونه . أصابت هذه العبارة نفس أبى عثمان فاستطاره الغضب فضرب بالكتاب وجه خالد وسبه سبا قبيحا وأمر به فكبل بالحديد . وحاول عبيد الله بن على أن يتدخل لانقاذه فلم يفلح . وهكذا فشلت هذه السفارة بسبب هذه العبارة التافهة التى صدرت عن هذا المولى الأندلسى دون أن يقدر موضعها ، وعاد عبيد الله خائب السعى الى أرش ليجد صاحبه عيسى بن عبد الرحمن قد أسرع عائدا بالهدايا الى يوسف ، اذ بلغه أن أنصار عبد الرحمن بن معاوية علموا بأمره وأمر الهدايا التى معه . وقد انضم عيسى فيما بعد الى عبد الرحمن ، وصفح عنه هذا وجعله من مواليه ، الا أنه لم ينس له فعلته هذه أبدا [١].

سار عبد الرحمن بمن معـه الى شذونة حيث كان جند الأردن ، فانضم الى جيشه كل من كان بها من اليمنيين وقضاعة وقليل من جند الأردن أنفسهم ، وتحمس لعبد الرحمن شيخ عرب الأردن جدار بن عمر القيسى جد بنى عقيل ، وصادف دخول عبد الرحمن شذونة يوم الفطر

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٠–٨١ .

سنة ١٣٨ (٨ مارس ٧٥٦) فأمر جدار خطيب المسجد أن يسقط الخطبة ليوسف ويجعلها لعبد الرحمن [1] ، فكانت هذه أول خطبة لعبد الرحمن على منابر الأندلس ، وساعفه المقدار فانضم اليه قبيل من البربر يعرفون ببنى الخليع كانوا يقيمون بناحية تاكرنا وكانوا موالى يزيد بن عبد الملك، فأصبحوا فى ولاء عبد الرحمن واشتد بهم ساعده ، وبهذا كان مقام عبد الرحمن بشذونة مقاما سعيدا على قصره : كسب فيه بضع مئات من الأنصار وسمع بنفسه أول خطيب يدعو له . ثم نزل بمنازل جند فلسطين عند طرف شذونة فانضم اليه سراة القوم وحماة الجند الا بنى كنانة . اذ كان شيخهم كنانة بن كنانة قد انضم بقومه الى يوسف وسار اليه ، فرعى عبد الرحمن حرمة هذا الشيخ ولم يمس أبناءه أو حرمه بضر ، ثم سار الى اشبيلية حيث جند حمص ، « فخرج اليه خيارهم من اليمن شاميها وبلديها . وبهذا قوى جمع عبد الرحمن بمن انضم اليه من هذه الأجناد الثلاثة ، وزاد حماسه وحماس من معه حتى نظر أحد رؤساء الجند فاذا جند الأردن سائرون بلوائهم وجند فلسطين بلوائهم وجند حمص بلوائهم وعبد الرحمن فى مواليه من غير لواء ، فقال : سبحان الله ، ما أشد خلاف أمرنا ! نحن بألوية وصاحبنا بلا لواء ! فأقبل أبو الصباح بن فلان اليحصبى بقناة وعمامة ، والقناة والعمامة لرجل من حضرموت لا أسميه ، ثم دعوا رجلا من الأنصار لا أسميه تفاءلوا باسمه ونسبه ، فعقد له بقرية قلنبيرة من اقليم طشانة من كورة اشبينيه » فأراد الله أن يكون هذا اللواء المتواضع المرتجل لواء النصر لجنود المسلمين فى الأندلس حتى امارة عبد الرحمن الأوسط ، وظل يرفرف على هامات المسلمين حتى خلق وبلى ، وألقى به عبد الرحمن بن غانم

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٤-٢٥ .

قائد الأمير عبد الرحمن بن محمد واستبدل به غيره فتشاءم بذلك جمهور القائد وبحث عن اللواء الخلق فلم يجده ، واختفى من ذلك التاريخ باحدى نواحى ماردة [1] .

موقعة المصارة

٣١٧ - وتعجل يوسف والصميل السير من المدور شمالى قرطبة وانحدرا بمن معهما الى ناحية مقابلة لطشانة Tocina على الشاطىء الغربى للوادى الكبير ، وكان الوقت شتاء والوادى الكبير فياض بالماء ، فامتنع على العسكرين أن يعبر أحدهما الى الآخر ، ولبثا على ذلك حينا ، ثم أراد عبد الرحمن أن يلتمس غرة من يوسف ويمضى بعسكره الى قبالة قرطبة ثم يعبر اليها فيدخلها ، فأوقد نار معسكره بليل ، ثم ترك النار موقدة ومضى بعسكره ، وكادت تنجح الحيلة ، لولا أن تنبه لها يوسف وصاحبه فأسرعا عائدين الى قرطبة ، فكانا مع جيش عبد الرحمن فى سباق ، ووقف الجيشان مرة أخرى ينظر أحدهما الى الآخر عند المصارة على مقربة من قرطبة ، وكانت كفة يوسف أرجح ، لأنه كان مقيما مع قومه فى ناحية زرع وخير ، فى حين كان مقام عبد الرحمن فى غابات لا مزارع فيها ، فأقام جنده فى محل لا يقتاتون الا ببعض الفول الأخضر أصابوه مما حولهم ، وكانوا يرجون أن يدخل بهم صاحبهم قرطبة ليقيموا أنفسهم بما فيها من الخير ، ولكنهم لم يستطيعوا [2] .

ثم أقبل يوم الخميس التاسع من ذى الحجة سنة ١٣٨ (١٣ مايو ٧٥٦)

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٤ .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٦ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٨٦ .

فاستبشر به عبد الرحمن لأنه يقابل اليوم الذى وقعت فى غده معركة مرج راهط وانتصر فيها أموى آخر هو مروان بن الحكم على فهرى آخر هو الضحاك بن قيس ، فقرر أن يخوض المعركة الحاسمة مع يوسف الفهرى يوم الجمعة التـالى ، ومن ثم أمر جنده أن يستعدوا ليوم الفصل [1] .

وفى صباح يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ (١٤ مايو ٧٥٦) صف عبد الرحمن جيوشه فى ترتيب واحكام ، ولم يكونوا ليزيدوا فى العدد عن خصومهم ولكنهم كانوا أشد تلهفا على القتال ، ولم يكن معظمهم متحمسا لقضية عبد الرحمن بقدر ما كان راغبا فى ادراك ثأره من القيسيين وشيخيهم الصميل ويوسف ، وكان عبد الرحمن يعرف هذا ويشعر به ، فمضى يدبر الأمر فى حرص وحذر وحكمة : ظل يتظاهر بأن الأمر كله لأبى عثمان عبيد الله بن عثمان شيخ الموالى ، فلا يبرم أمرا بدون رأيه ، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على هذا الرجل ويسيره فى الطريق الذى يريده فى كياسة وحكمة ، ومن دلائل ذلك أنه أحب قبل المعركة أن يشحذ همم اليمنيين فسألهم فى شىء من الذكاء : « انا لم نجىء للمقام ، وقد دعانا هذا الرجل الى ما علمتم ، وعرض ما سمعتم ، ورأيى لرأيكم تبع ، فان كان عندكم صبر وجـلد وحب للمكافحـة فأعلمونى ، وان كان فيكم جنوح الى السلم والصلح فأعلمونى »[2] . قال هذا الكلام وهو يعلم أثره فى نفوسهم . فلم يكد يفرغ منه حتى

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٦-٢٧ .
ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٤٩ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٧ .
ابن القوطية ، ص ٢٨

أصفقوا على القتال جميعا وزاد حماسهم ، فمضى يعـين القواد : فأقام عبد الرحمن بن نعيم الكلبى على أهل الشـام ، وأقام على رجالة بنى أمية وجمـاعة البربر عاصم العـريان ، وكان من كبار الأموية ، وقد بلغ من حماسه لعبد الرحمن أن خلع سراويله قبل المعركة ليكون ذلك أعون له على القتال فسمى العريان . وجعل على خيل بنى أمية حبيب بن عبد الملك القرشى ، وجعـل على خيـل البربر ابراهيم بن شـجرة الأودى وكان من كبارهم ، وأعطى لواء جيشـه كله لأبى عثمان عبيد الله بن عثمان . ووقف هو وسـط خيل بنى أميـة على فرس أشـقر مسكا بقوسه . وعلى هـذا النظام عبر الوادى الكبير وأفضى الى الضـفة المقابلة دون أن يعرض له يوسف أو أحـد من رجاله ، ويبدو أنه كان يؤمل فى الصلح مايزال ، وعلى ذلك كان كثير من أنصاره ، لم يخوضوا المعركة الا بعد أن وضعهم عبد الرحمن أمام الأمر الواقع ، فلم يجدوا عن القتال مندوحة .

ورتب يوسف جيشه : فجعل على خيل الشام ومضر كلها عبيد الله ابن على ، وعلى الرجالة كنانة بن كنانة وجوشن بن الصميل وعبد الله ابن يوسف الفهرى ، وجعل على خيل غلمانه وصنائعه من البربر غلامه خالدا سَوْدَرِى .

وأخذت جماعات من مسلمى قرطبة تنضم الى عبد الرحمن قبيـل المعركة ، لأن عددا عظيما من موالى خلفاء بنى أمية وعمالهم كانوا قـد سكنوها منذ زمن طويل ، فصار جيشه بهذا أكثر عددا وان كان جيش خصمه أكثر انسجاما ، وقد لاحظ عبد الرحمن أن نفرا من أنصاره اليمنيين يتحدثون عن فرسه الأشقر ، ويخشون أن يكون قد تخيره خاصة ليهرب به اذا دارت الدائرة عليه ، بل كلمه جماعة منهم فى ذلك صراحة ، فلم يكن منه الا أن رجا أبا عثمان عبيد الله أن يعطيه بغلته ،

محتجا بأن فرسه الأشقر لا يثبت تحته ، وهو انما يريد مركبا ثابتا ليستطيع أن يرمى بقوسه على ظهره ، فقبل أبو عثمان وطابت أنفس اليمن ، وهذا يدلنا على أن اليمنيين كانوا يخشون القيسية بعد مالقوا من الهزائم على أيدى رجالها ، ولو لم يكن فيهم هذا الفتى عبد الرحمن لدارت الدائرة عليهم ، بل لما نهضوا للقتال أصلا (١) .

دارت المعركة على مقربة من المصارة من أرباض قرطبة ، وقد بدأ القتال بهجوم عنيف قامت به خيل عبد الرحمن على قلب جيش يوسف والصميل ، فلم يمض الا قليل حتى قتل عبد الله بن يوسف وجوشن بن الصميل ، فلم يصبر الرجلان على القتال بعد ذلك ووليا الفرار بمن معهما ، وثبتت خيل قيس يقودها عبيد الله بن على القرشى ، فلم يزل عبد الرحمن بن نعيم وعاصم العريان ومن معهما من الفرسان يشتدون فى الهجوم حتى قتلوا عبيد الله بن على ونفرا من كبار القيسية ، فانفرط عقد من بقى وولوا مدبرين ، وكسب عبد الرحمن ذلك اليوم الحاسم الذى كتب فيه للأندلس بل للغرب الاسلامى كله تاريخ جديد ، وسار عبد الرحمن ودخل قصر قرطبة ، وكان من غرائب المقادير أنه ورجاله أكلوا من نفس الطعام الذى كان يوسف قد أعده لنفسه ولأصحابه اذا فرغوا من المعركة (٢) .

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٩

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٨ .

الأخبار المجموعة ، ص ٨٩-٩٠ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٨-٤٩ .

فتح الأندلس ، ص ٥٥-٥٦ .

DOZY, *Mus. d'Esp.* I pp. 222-223.

LÈVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Esp. Mus.* I. p. 73-74.

فلما انتصرت اليمنية وقعوا فيما كانوا يقعون فيه عقب كل نصر حازوه فى تاريخهم : ملكهم الجشع فى المغانم وكادوا يضيعون ثمرة النصر بسوء التصرف وقلة الكياسة ، ذلك أن جماعة منهم غرهم هذا النصر فحسبوا أنهم يحسنون صنعا اذا انقلبوا على عبد الرحمن وموالى بنى أمية لكى يصبح النصر خالصا لليمن . لأن عبد الرحمن ومواليه كانوا من مضر أيضا ، وقد دعا الى ذلك رجال من جذام وخاطبوا فيه قضاعة ، فأبت قضاعة . واختلف الحيان فلم يفلح التدبير ونجا عبد الرحمن ومواليه ، وقد علم عبد الرحمن بهذا الأمر اذ أنهاه اليه جذامى يسمى ثعلبة بن عبيد فاحترس لنفسه وضم مواليه ، واحترس من أبى الصباح الداعى الى هذا الأمر الخطير ، وأنشأ لنفسه شرطة جعل عليها عبد الرحمن بن نعيم ، وهذا أول منصب رسمى ينشأ على عهد هذه الدولة الجديدة (١) .

وتسرعت اليمنية بما عرف عنها من الجشع فى الغنائم والأسراف فى ذلك ، وأسرع رجلان من طيىء فانتهبا دار الصميل بن حاتم بشقندة ، والرجل ينظر اليهما من قمة تل مجاور كان قد هرب اليه على طريق جيان مشرف على قرية شبلار ، فملأ نفسه الألم وتمثل قائلا :

ألا ان مالى عند طىّ وديعة   ولا بد يوما أن ترد الودائعُ

وكان فيما انتهباه صندوق فيه عشرة آلاف دينار دراهم ، مما يدلنا على عظم الثروة التى كان هذا الصميل يحتجنها ويختص بها نفسه . ولم يستطع عبد الرحمن أن يكف اليمنيين عن النهب الا فى مشقة ، وقد أبدى من النبل كرما عظيما ، اذ تعفف عن حريم يوسف وضم

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .

الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

زوجته وابنته الى أهله ، وأهدت اليه زوج يوسف الجارية «حلل» التى ستكون أم ولده وولى عهده هشام . وأقر صاحب صلاة يوسف الفهرى على عمله ، وكان فهريا ، وسيدرك عقبه فى ظلال الدولة الأموية نباهة وذكرا ، وكذلك أقر يحيى بن يزيد قاضى يوسف على عمله .

ولم يرض اليمنيون من عبد الرحمن هذا التعفف أو ذلك الكرم ، ويبدو أنهم لم يكونوا ليحسبوا الا أنه سيكون دائما طوع بنانهم فيصرفون الأمر كما يشاءون ، ففاجأهم عبد الرحمن بعد انتصاره بوضع يده على الأمر كله ، فبدأت نفوسهم تتغير عليه ، ومن ذلك الحين تبدأ مؤامراتهم وثوراتهم عليه [1] .

٣١٨ – قيام الدولة الأموية الأندلسية

ثم دخل عبد الرحمن المسجد الجامع وصلى بالناس وخطبهم من منبر قرطبة لأول مرة ، فوعدهم بالعدل والاحسان ، ونستطيع أن نقول ان الدولة الأموية الأندلسية قد قامت فعلا من هذا اليوم ، وبدأ فى تاريخ الأندلس عصر جديد [2] ، وكان ذلك يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ ١٤ مايو ٧٥٦

٣١٩ – مصير يوسف الفهرى والصميل بن حاتم

وحاول يوسف الفهرى والصميل بن حاتم أن يستعيدا ما ضاع من أمرهما على غير طائل : ذهب يوسف الى طليطلة ليجمع نفرا من أنصاره ، وذهب الصميل الى جيان ليستنفر من فيها من معد ، ثم التقيا واستوليا على جيان وطردا الحصين

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .

ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٤٩–٥٠ .

ابن الدجّن عاملها لعبد الرحمن ، ثم مشيا الى البيرة ففر عاملها جابر ابن العلاء بن شهاب ، ووجد عبد الرحمن أن لا مندوحة له عن السير نحوهما ، فلم يكد يغادر قرطبة حتى فاجأها أبو زيد أحد أبناء يوسف الفهرى بنفر من أنصاره أقبلوا معه من ماردة ، فعاد عبد الرحمن اليها ، ووجد أن لا مفر من أن يقيم على حراستها رجلا يثق فيه فعهد فى ذلك الى عامر بن على جد بنى فهر الرصافيين ، واستوثق من أمره ثم مضى نحو خصميه . ولم يكد عبد الرحمن يصل بمن معه من الجند الى البيرة حتى أحس الصميل ويوسف أنهما لن يستطيعا له حربا ، فعرضا الصلح على أن يدع لهما عبد الرحمن ما كان لهما من الأموال والأملاك . وأجابهما عبد الرحمن الى ذلك على أن يستودعه يوسف الفهرى ابنيه أبا زيد عبد الرحمن وأبا الأسود محمد ، واتفق يوسف وعبد الرحمن كذلك على تبادل الأسرى . فكان من غرائب المقادير أن عبد الرحمن رد الى يوسف خالد بن زيد كاتبه المولى الاسبانى فى نظير أبى عثمان عبيد الله بن عثمان ، وكان عبيد الله هو الذى ضرب وجه خالد وأمر بتكبيله يوم تحداه خالد أن يكتب ردا لخطابه على ما رويناه [1] .

وعاد عبد الرحمن الى قرطبة وقد دانت له الأندلس جميعها ، عاد وفى ركابه يوسف والصميل ، فمن لطيف ما يحكى أن عبد الرحمن استبان امتياز الصميل . ولا غرابة فالرجل من الأرومة العربية فى أعلى مكان ، قال عبد الرحمن : « لله بلاده . لقد صحبنى من البيرة الى قرطبة ما مست ركبته ركبتى ولا تقدم رأس بغله رأس بغلى ، ولا استفهمنى فى حديث ، ولا افتتح حديثا بغير أن أسأله عنه » ، ثم يقول صاحب « الأخبار المجموعة » بعد ذلك : « ولا يذكر — أى عبد الرحمن —

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٩٣–٩٤ .

مثل ذلك عن يوسف »[1] ، وهى ملاحظة لها معناها ، واستقر الرجلان على كرامة وتوسعة . وأقبل كثير من الناس يطالبانهما بحقوق لهم عندهما من أيام ولايتهما ، فأحالهم عبد الرحمن الى القاضى يحيى ابن يزيد التجيبى ، وكان الناس يحسبون أن القاضى ينتهز هذه الفرصة ليشفى نفسه من هذين الرجلين اللذين ألحقا بقوم اليمنيين شر الأذى ، ولكن القاضى امتلك نفسه ، فلم يقض فى أمرهما الا بالحق ، وظل الرجلان على ما أنزلهما عبد الرحمن عليه من الاكرام [2]

بيد أن يوسف لم يطمئن الى أمان عبد الرحمن ، وظلت المخاوف تساوره من ناحيته ، فلم يزل يتحين الفرصة حتى فر من قرطبة ، وحاول أن يستميل الصميل والشامية الى جانبه فلم يوفق ، فمضى الى جماعات من البلديين فى لقنت وماردة وطليطلة ، وما زال بهم حتى أغراهم بالانضمام اليه ، فثاروا بعبد الرحمن فى هذه النواحى ، واستبعد عبد الرحمن أن يكون يوسف قد قام بهذا العمل من تلقاء نفسه ، واتهم الصميل بالتدبير عليه ، وعبثا حاول الرجل تبرئة نفسه ، وانتهى أمره بأن ألقى به فى السجن ، وسجن معه ابنى يوسف وكانا عنده رهينتين .

واستطاع يوسف أن يضم جماعات من البلديين ، فسار بهم من لقنت الى اشبيلية ، ومن غريب الأمر أن معظم البلديين — بل والشاميين — فى هذه الناحية انضموا اليه ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا الى ذلك الحين أميل الى الفوضى والاضطراب ، وأبعد عن فهم قيمة

(١) نفس المصدر ، ص ٩٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩٤-٩٥ .

استقرار الأمور وعودة السلام . جمع يوسف نحو عشرين ألف عربى حاصر بهم عامل اشبيلية لعبد الرحمن ، وكان مروانيا يسمى عمر بن مروان قدم على عبد الرحمن منذ قليل فى صحبة نفر من الأمويين نذكر منهم جُزَىّ بن عبد العزيز بن مروان بعد أن استقرت قدم عبد الرحمن فى الأندلس ، ولم يكن لدى عبد الملك الا نفر قليل من القيسيين . وبدا ليوسف أن يعجل بالسير الى قرطبة قبل أن يستطيع عبد الرحمن جمع قواته والسير اليه ، ولكن الحظ لم يساعفه ، اذ أن عبد الرحمن استطاع أن يجمع جمعا عظيما من أنصاره ويسير بهم نحو اشبيلية ، ولم يكد يوسف يتحرك نحو قرطبة حتى جمع عامل مورور لعبد الرحمن — وهو عبد الملك بن عبد الله — من كان عنده من القيسية ثم انضمت اليه جماعة أخرى وسار بهم خلف يوسف وعجلوا يريدون مهاجمة عسكر يوسف من خلف . فتخوف يوسف أن يقع بين الفريقين ، فعاد نحو اشبيلية يريد أن يعجل بالقضاء على عبد الملك ومن معه قبل وصول عبد الرحمن ، واشتبك القتال بين الجيشين وانهزم يوسف هزيمة قاصمة . ومضى يوسف نحو طليطلة ليلجأ الى صديق له يسمى أبا عروة لا يصاحبه غير مولى فارسى يسمى سابقا ووصيف واحد ، فلما صار على عشرة أميال من طليطلة مر بعبد الله بن عمر الأنصارى ، وهو بقرية من قرى طليطلة — « فقيل له : هذا يوسف منهزما ! فقال لأصحابه : ويحكم ! اخرج بنا نقتله ونريح الدنيا منه ونريحه من الدنيا ونريح الناس من شره ، فقد صار رجلا ناجشا للحرب ، فخرج حتى لحقه وليس بينه وبين مدينة طليطلة الا أربعة أميال ، وليس معه الا سابق الفارسى مولى لبنى تميم ومن يجهله يقول مولى يوسف ، وبقيته بسرقسطة ، ووصيف واحد فقط

وقد ماتوا من شدة الركض ، وليس معهم منعة ولا مدفع ، فقتل عبد الله يوسف الفهرى ، وقتل سابق وهرب الغلام حتى دخل قرطبة » ، وأقبل عبد الله على عبد الرحمن الداخل برأس يوسف فعجل هذا بقتل أبى زيد ابن يوسف وأبقى على أخيه أبى الأسود لصغر سنه ، ولما أقبل الليل بعث الى الصميل من خنقه ليستريح من أمره جملة [1] .

* * *

٣٢٠ – نهاية عصر الولاة

هكذا صفا الجو لعبد الرحمن وصار له أمر الأندلس كله غير منازع ، وانتهى على يديه العصر الأول من أعصر الأندلس الاسلامية وهو عصر الولاة . اختفى من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان هذا العصر « الجاهلى » فى تاريخ الأندلس ، اختفيا حاملين معهما ثارات العصبية وأوضار القبلية ، وخلفا الأندلس لتقوم فيه دولة اسلامية واحدة تقيم شأن الأندلس الاسلامى بعد أن كاد ينهار . وكان من حظ الأندلس أن اختفى هذا العصر المضطرب ، ولو استمر لكان فى ذلك بوار أمر الأندلس الاسلامى جملة ، ولو لم تطأ قدم عبد الرحمن أرض هذه البلاد لصار تاريخ الاسلام فيها الى ما سيصير اليه تاريخ الاسلام فى صقلية بعد ذلك بنيف وثلاثة قرون : اختلاف وتفرق وحروب بين المسلمين ، ثم يكتسحهم أعداؤهم وينتهى أمر الاسلام فى الجزيرة .

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .
الأخبار المجموعة ، ص ١٠٠-١٠١ .
ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٥١-٥٢ .

مراجع الكتاب

أ- مراجع عربية

ابن الآبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى : الحلة السيراء ، طبعة دوزى .

ابن الأثير الجزرى : أسد الغابة فى معرفة الصحابة . القاهرة ١٢٨٠ هـ .

— : الكامل فى التاريخ ، طبعة تورنبرج . لايدن ١٨٦٧ — ٧٦ ، وطبعة القاهرة ١٩٤٩ .

ابن حزم القرطبى : جمهرة أنساب العرب . طبعة ليڤى پروڤنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد البغدادى الموصلى : صورة الأرض ، الطبعة الثانية بإشراف كرامرز ، لايدن ١٩٣٨ .

ابن حيان ، حيان بن خلف : المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، طبعة أنتونيا ، پاريس ١٩٣٧ .

ابن الخطيب ، لسان الدين : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، طبعة محمد عبد الله عنان . الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ .

— : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشره ليڤى پروڤنسال ، الرباط ١٩٣٤ ؛ ثم أعاد طبعه فى بيروت ونشره بعنوان « تاريخ اسبانيا الإسلامية » سنة ١٩٥٦ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٨ . وترجمة فرنسية بقلم البارون دى سلان ، باريس ١٨٦٨ .

— : كتاب العبر ، بولاق ١٢٨٤/١٨٦٧ (٧ أجزاء) .

— : أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم ، وما كان بديار المغرب خاصة من الملوك والدول ، وهو الكتاب الثالث من « العبر وديوان المبتدا والخبر » وقد نشره دى سلان وطبعه فى الجزائر ١٨٥١/١٢٦٧ بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب » ، ثم ترجمه إلى الفرنسية ونشر الترجمة باسم « تاريخ البربر » سنة ١٨٦٠ ، وأعيد نشره حديثاً بإشراف المستشرق كازانوڤا فى پاريس سنتى ١٩٣٨ — ١٩٤٠ .

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة شارل تورى ، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٢ .

ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، طبعة دوزى الجزءان ١ و ٢ ، لايدن ١٨٤٨ — ١٨٥١ ، والجزء الثالث نشره ليڤى پروڤنسال فى پاريس سنة ١٩٣٠ . ثم أعاد پروڤنسال وكولان نشر الجزءين الأول والثانى فى لايدن سنة ١٩٥١ — ١٩٥٢ .

ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس . طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٠ — ١٨٩٢ .

ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٠٤ .

ابن القوطية ، أبو بكر : تاريخ افتتاح الأندلس ، أعـده للنشر جايانجوس ونشره خليان ريبيرا ١٩٢٦ .

أبو زكريا : تاريخ أبى زكريا ، ترجمه وعلق عليه Emile Masqueray الجزائر ١٨٧٨ .

أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، صدر منه ١١جزءاً ابتداء من سنة ١٩٢٨ .

أبو يوسف : كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٥٢ .

أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس : نشره وترجمه وعلق عليه لافوينتى إى ألكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

الإدريسى ، الشريف : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . نشر الجزء الخاص بالأندلس والمغرب دوزى ودى خويه فى لايدن تحت عنوان Description de l'Afrique et de l'Espagne

الاصطخرى ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى : مسالك الممالك ، طبعة دى خويه لايدن ١٨٦٦ — ١٨٧٠ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٢٧ .

البغدادى ، عبد القادر بن طاهر : الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٩١٠ .

البكرى ، أبو عبيد الله بن عبد العزيز : صفة إفريقية ، مستخرجة من كتاب المسالك والممالك ، نشرها البارون دى سلان فى الجزائر ١٩١٠ ، ثم ترجمها إلى الفرنسية ونشرها فى الجزائر ١٩١٣ .

البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان . القاهرة ١٣١٨ .

جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام . القاهرة (طبعة ١٩٥٧ ، راجعها وعلق عليها حسين مؤنس) .

الحميرى ، ابن عبد المنعم : الروض المعطار فى خبر الأقطار . نشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات ليڤى پروڤنسال فى لايدن ١٩٣٦ .

الخشنى ، محمد بن الحارث بن أسد : تاريخ قضاة قرطبة ، نشر مع ترجمة إسپانية لريبيرا ، مدريد ١٩١٤ .

الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم ، لايدن ١٨٩٥ والقاهرة ١٣٤٤ .

الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى : معالم الإيمان (٤ أجزاء) تونس ١٩٠٢/١٣٢٠ .

الدينورى ، أبو حنيفة : الأخبار الطوال ، القاهرة ١٩١١/١٣٣٠ .

السلاوى ، أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٣١٠ — ١٣١٢ .

السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٣٥١ .

الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل ، طبعة و . كيورتون ، لندن ١٨٤٢ ، والقاهرة ١٣١٧ .

الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبعة ريبيرا ، مدريد ١٨٨٤ — ١٨٨٥ .

الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٨١ وما بعدها ، وطبعة القاهرة ١٩٣٩ .

العذرى ، أحمد بن عمر بن أنس : نظام المرجان فى المسالك والممالك والبلدان (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى) .

عنان ، محمد عبد الله : دولة الإسلام فى الأندلس — العصر الأول ، القاهرة ١٩٤٣ .

الغسانى ، محمد بن عبد الوهاب : رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ، طبعة الفريد البستانى ، العرائش ١٩٤٠ .

قدامة بن جعفر ، أبو الفرج : كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ .

القرشى ، يحيى بن آدم : كتاب الخراج ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٤٧ .

الكتانى ، عبد الحى : فهرس الفهارس ، فاس ١٣٤٦ .

المالكى ، أبو بكر : رياض النفوس (الجزء الأول) نشر وتحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ .

المراكشى ، عبد الواحد : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزى ، لايدن ١٨٨١ ؛ وطبعة محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٨ .

المسعودى : مروج الذهب . طبعة باربييه دى مينار وباقيه دى كورتى ، باريس ١٨٦١ — ١٨٧٦ .

المقدسى ، شمس الدين : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبعة دى خويه ، لايدن ١٩٠٦ .

المقرى ، أبو العباس أحمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت ، لايدن ١٨٥٥ — ٦١ ؛ وطبعة الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩.

— : تاريخ الدول الإسلامية فى إسبانيا . ترجمة إنجليزية جزئية لنفح الطيب مع تعليقات بقلم ب . د جايانجوس . لندن ١٨٤٠ — ١٨٤٣ .

المقريزى . تقى الدين أحمد بن على : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب . طبعـة فستنفلد تحت عنوان : Abhandlung ueber die in Aegypten eingewanderten Arabische Staemme Goettingen, 1847.

— : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . طبعة القـاهرة ١٩٠٦ — ١٩٠٨ .

مؤنس ، حسين : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

النباهى . أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن : تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبـة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، طبعة دار الكتب المصرية . وطبعة جسبار ريميرو (الجزءان ٢٢و٢٣ الخاصان بالمغرب والأندلس) . مدريد ١٩١٧ .

ياقوت . شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى : معجم البلدان ، طبعة الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ .

اليعقوبى : كتاب البلدان . طبعة دى خويه ، لايدن ١٨٩٢ .

ب - مراجع غير عربية

Aguado Bleye, Pedro. *Manual de Historia de Espana*, 2 vols. Madrid, 1947-1950.

Asin Palacios, Miguel. *Abenmasarra y su escuela, origines de la filosofia hispano musulmana.* Madrid, 1914.

Baer, Fritz. *Die Juden in christlischen Spanien*, VI. Teil, Urkunden und Regesten. Berlin, 1928.

Ballesteros, Antonio y Beretta. *Historia de Espana y su influencia en la historia universal.* Madrid, 1943.

Ballesteros, Rafael. *Histoire d'Espagne des origines à nos jours.* Paris, 1938.

Barrau-Dihigo, L. *Recherches sur l'histoire politique du Royaume Asturien*, dans Revue Hispanique LII, 1921.

Becker, C.H.. *Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam*, 2 Haefte.

— *Die Entstehung von Usr und kharagland in Aegypten* in Zeitschrift der Assyriologie, XVIII (1904-1905).

— *Papyri Schott Reinhardt*, 1. Heidelberg, 1906.

Bolufer, José Alemany. *La geografia de la Peninsula Iberica en los escritores árabes*, (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX, 1919.

Cirot, G. *Etudes sur l'historiographie espagnole.* Bordeaux, 1904.

Codera, F. *Estudios criticos de historia arábe espanola.* Madrid, 1917.

Condé, José Antonio. *Historia de los Arabes en Espana.* Madrid, 1820.

Condeminas, Francisco y Luis Visintin. *Atlas Histórico de Espana.*

Cronica *Mozárabe de* 754. (Atribueda a Isidero Pacence por el P. Florez. Publicada por Mommsen bajo el titulo de Continuatio Hispana en 1885).

De Lagoy, M. *Description de quelques médailles inédites de Massilia.* Aix, 1834.

Dozy, Reinhardt Peter-Anne. *Etudes sur la conquète de l'Espagne par les Arabes*, dans *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyeny-âge.* Lyde, 1881.

— *Histoire des Musulmans d'Espagne* (2 e. édition revisée par **Lévi-Provençal**) Leyde, 1932.

— *Script. Ar. Loci. de Abbab.* Lyde, 1846-1863.

Dubler, César E. *Sobre la Cronica Arabigo-Bizantina de* 741 *y la Influencia Bizantina en la Peninsula Iberica* (Al-Andalus, Vol. XI fasc. 2, Madrid-Granada, 1956).

— *Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel*, in Festchrift J. Jud. Zurich, 1943.

Elias Teres. *Linajes Arabes en Al-Andalus*, segun la "*Jamhara*" **de Ibn Hasm,** Al-Andalus, Vol. XXII fasc. 1-2.

Fernândez y Gonzalez, Francisco. *Estado social y politico de los Mudejares de Castilla.* Madrid, 1866.

Floresta *de leyendas heroicas espanolas.* Rodrigo, el último godo. Compil. por **Ramon Menéndez Pidal.** Madril, 1925.

Fournel, Henri. *Les Berbères, étude sur la conquète de l'Afrique par les Arabes*, 2 Vols. Paris, 1875.

Gautier, E.F. *Le passé de l'Afrique du Nord.* Paris, 1937.

Gayangos, Pascual. *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain*, 2 Vols. London, 1840-1843.

— *Memoria sobre la Autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis* ; Memorias de la Real Academia de la Historia. Madrid, 1852.

Guerra, A. Fernandez. *Caida y Ruina del Imperio Visigótico-espanol.* Madrid, 1883.

Herculano, Alejandro. *Historia de Portugal.* Lisboa, 1863.

Huici Miranda, Ambrosio. *Las Crônicas Latinas de la Reconquista.* Valencia, 1913. 2 Vols :

Vol. 1, Cronicones burgense, complutense, compostulano, del cerratense, de Don Juan Manuel, albeldense, de Sebastian, de Sampiro, de Pelayo y de Cardeña, y Anales complutenses, compostelanos y toledanos,

Vol. II, Cronicon del Silense y Cronicon de Alfonso el Emperador.

Irving, Washington. *Legends of the Conquest of Spain.*

Isidiro de las Cagigas. *Los Mozárabes.* Madrid, 1947-1949.

— *Los Mudejares*, 2 Vols. Madrid, 1948.

Isidoro Hispalense (San Isidoro Arzobispo de Sevilla). Divi Isidori ... *Historia de Regibus* ... Suevorum. Esp. Sagr. III, IV.

Isidoro Pacence. *Vease Crónica.*

وقد رجعنا إلى القطعة التي نشرها لافوينتي ألكانترا ذيلا على ترجمته الاسبانية للأخبار المجموعة .

Jacob. *Sources of Spanish-Jewish History.* New-York, 1894.

Lafuente y Alcántara. *Ajbar Machmua.* Madrid, 1867.

— *Cronologia de los gobernodores de Espana.* Apendice III de Ajbar Machmua.

Lafuente y Zamalloa, Modesto. *Historia general de Espana desde los tiempos primitivos hasta nuestros dias.* 30 Vols. Madrid, 1850-1867.

Lammens, H. *Etude sur le règne du calife umayyade Mu'awiya 1er.* Beyrouth, 1908.

— *Le Califat de Yazid 1er.* Beyrouth, 1921.

— *Etudes sur le siècle des Umayyades.* Beyrouth, 1930.

Legendre, Maurice. *Nouvelle histoire d'Espagne.* Paris, 1938.

Lembke. *Geschichte von Spanien.* Gotha, 1833.

Lévi-Provençal, E.. *Histoire de l'Espagne Musulmane.* Paris, 1951.

— *L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle.* Paris, 1932.

— *La Péninsule Ibérique.* Leyde, 1938.

— *Islam d'occident* (Etudes d'histoire midiévale). Paris, 1948.

Llanos, Estansiloa Rendueles. *Historia de la villa de Gijon desde tiempos mas remotos hasta nuestros dias.* Gijon, 1867.

Lot, Ferdinand. *La fin du monde antique et le début du moyen-âge.* Paris, 1927.

Lucas de Tuy. *Cronicon Mundi*, Vol. IV de Hisp. Illustrada derigida por Mariane. pp. 1-116.

Masdeu, J.F. *Historia Critica de Espana.* Madrid, 1805.

Menéndez Pidal, Ramôn. *Historia de Espana.* Madrid, 1940.

— *La Espana del Cid.* Madrid, 1929.

— *Origenes del Espagnol.* Madrid, 1950.

Menéndez y Pelayo, Marcelino. *Historia de los Heterodoxos Espanoles.* Madrid, 1946.

Miguel de la Luna. *Historia Verdadera del Rey Rodrigo.*

Mommsen, Theodora. *Auctorum Antiquisimorum*, tomus XI, Cronica Minora (Seec IV, V, VI, VII). Berolini, 1893.

Moncaut, Cenat. *Histoire des peuples et des Etats pérénéens* (3e. éd. 1873).

Monés, Hussain. *Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue.* Le Caire, 1947.

Neuman, Abraham A. *The Jewsin Spain* (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 volumes, 1948.

Perles, J. *Rabbi Saloma ibn Abraham ibn Aderth.* Breslau, 1863.

Primera *Cronica General de Espana* (ed. Menéndez Pidal). Madrid, 1906.

Ribera, Julian y Tarrago. *Disertaciones y Opusculos.* Madrid, 1928.

Rodericos Toletanus (Jiménez de Rada, Rodrigo, arzobispo de Toledo). *Rerum in Hispania gestarum chronicon* en Hisp. Illustr. II. pp. 25-194.

Saavedra, Eduardo. *Estudio sobre la invasión de los Arabes en Espana.* Madrid, 1882.

— *Pelayo, Conferencia histórica.* Madrid, 1906.

Saint-Saud, Le Conte. *Monographie des Picos de Europa, Etudes et Voyages.* Paris, 1923.

Sala, Julio Samoza Garcia. *Gijón en la historia general de Asturias.*

Sánchez-Albornoz. *Fuentes de la historia hispano-musulmana del siglo VIII.* Mendoza, 1942.

Şchacht, Joseph. *The Origins of Muhammedan Jurisprudence.* Oxford, 1953.

Schevenkow, Rudolf. *Kritische Betrachtungen ueber die latein-geschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber,* 1894.

Simonet, Francisco Javier. *Historia de los Mozárabes de Espana.* Madrid, 1897-1903.

Thomas, W. Arnold. *The Preaching of Islam.* London, 1935.

Viardot, Louis. *Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne.* Paris, 1833.

Von Kremer, Alfred. *Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.*

Weil, G. *Geschichte der Islamischen Voelker.* Stuttgart, 1866.

Wellhausen, Julius. *Das Arabische Reich und Sein Sturtz.*

ترجمه إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان « تاريخ الدولة العربية إلى نهاية العصر الأموى » ونشر فى القاهرة سنة ١٩٥٨ .

Wuestenfeld. *Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen.* Goettingen, 1875.

Yver, George. *Euric, roi des Visigoths,* dans Etudes d'histoire du moyen-âge dédiées à Gabrial Monod. Paris, 1896.

كشاف

« أ »

« ب »

«ت»

«ر»

«ز»

«س»

«ش»

«غ»

«ف»

«ق»

«ك»

« ل »

« م »

« ن »

« هـ »

« و »

« ى »

للمؤلف

مؤلفات :

ا – تاريخ :

١ – الشرق الإسلامى فى العصر الحديث . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٣٨ .

٢ – فتح العرب للمغرب . القاهرة ١٩٤٧ (الطبعة الثانية فى المطبعة) .

٣ – Essai sur la chûte du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1948.

٤ – صور من البطولة (طبعتان . القاهرة ١٩٤٩ و ١٩٥٦) .

٥ – مصر ورسالتها (طبعتان . القاهرة ١٩٥٥ و ١٩٥٦) .

٦ – Historical Atlas of the Muslim Peoples (in collaboration with R. Roolvink and Others). Amsterdam, 1957.

٧ – مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية الإخشيديين – فصل فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » الذى تنشره وزارة الثقافة والإرشاد .

٨ ـ نور الدين محمود، الطبعة الثالثة، جدة ١٩٨٥ .

ب – أدب :

١ – حكايات خيرستان .

٢ – أهلا وسهلا .

أبحاث :

١ – عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى . نشر فى الجزء الثانى من المجلد الثانى عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

٢ – تطور العمارة الإسلامية فى الأندلس . نشر فى المجلد الأول من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .

٣ – وثائق عن مهدى السودان ، نشر فى العدد الثانى من المجلد الثانى من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .

٤ – غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ / ٨٤٤ و ٩٥٨ م ، نشر فى العدد الأول من المجلد الثانى من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٥ – السيِّد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين . نشر بالعدد الأول من المجلد الثالث من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٦ – المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية . نشر فى العدد الأول من المجلد الرابع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٧ – المجتمع فى الدستور ، بحث نشر فى كتاب « روح الدستور » وهو رقم ٢٥ من سلسلة « اخترنا لك » .

٨ – لكى لا ننسى .. هذا صوت التاريخ . بحث نشر فى كتاب « قناة السويس – حقائق ووثائق » وهو رقم ٢٩ من سلسلة « اخترنا لك » .

٩ – سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .

١٠– De nuevo sobre las fuentes árabes de la historia del Cid صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد . مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .

١١– Egipto y el Mediterraneo فصل نشر بالإسپانية والفرنسية فى كتاب Panorama del Mundo Arabe ، الذى نشره معهد العلوم السياسية فى مدريد سنة ١٩٥٤ .

١٢– نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥ .

١٣– أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ،

للونشريشى . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

١٤– La division politico - administrativa de la España musulmana صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

١٥– الفولكلور ، تاريخه ومدارسه ومناهجه . صحيفة « المجلة » العدد ٢٣ سنة ١٩٥٨ .

نشر وتحقيق :

١ – رياض النفوس لأبى بكر المالكى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ .

ترجمة :

١ – الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز (ترجمة عن الإنجليزية بالاشتراك مع الدكتور محمود يوسف زايد) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

٢ – الشعر الأندلسى لغرسية غومس (عن الإسپانية) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٢ و ١٩٥٧ .

٣ – تاريخ الفكر الأندلسى لجونذالذ پالنثيا (عن الإسپانية) القاهرة ١٩٥٥.

٤ – ثم غاب القمر – مسرحية فى ثمانية مناظر مقتبسة من قصة The Moon is Down لجون شتاينبك ، القاهرة ١٩٥٦ .

فهرس

صفحة

الفصل الرابع : عصر الولاة

الفصل الخامس : صراع العرب والبربر

صفحة

صفحة

الفصل السادس : القيسية واليمنية

الفصل السابع : فتوح المسلمين في غالة

صفحة

الفصل الثامن : قيام حركة المقاومة النصرانية

صفحة

الفصل التاسع : المجتمع الاندلسى ـ (١) العرب والبربر والموالى

أ- العرب

صفحة

ب - البربر

جـ - الموالى

الفصل العاشر : المجتمع الاندلسى ـ (٢) المولدون والمستعربون

صفحة

صفحة

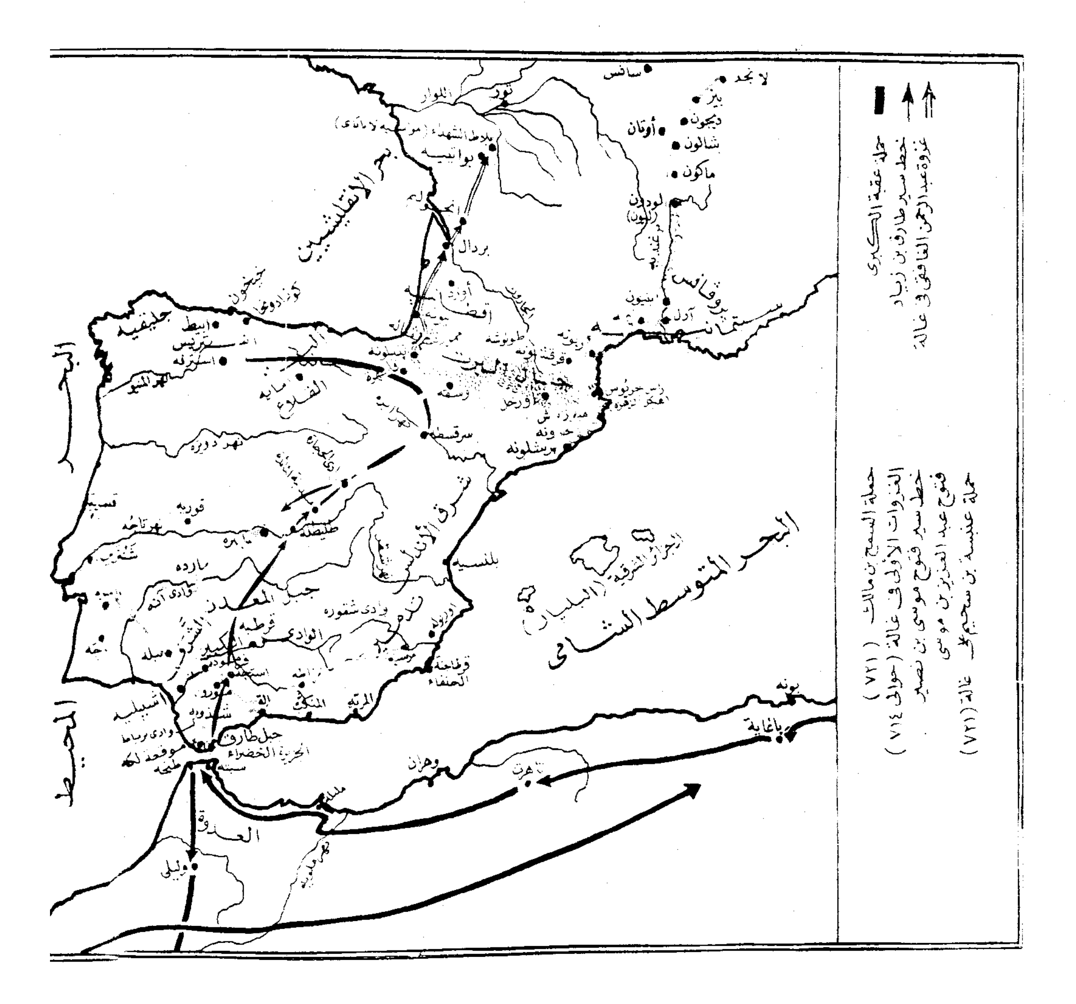
صفحة

الفصل الحادى عشر : الادارة والمال

صفحة

الفصل الثانى عشر : قيام الدولة الأموية

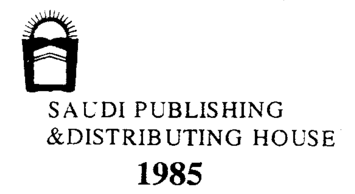
فتوح المغرب الأقصى والأندلس



THE DAWN OF AL-ANDALUS

A Study of the history of Muslim spain from the Arab conquest in 711 A.D. till the rise of the Umayyad Emirate of Cordova in 756 A.D.

BY
HUSSAIN MONÉS
Professor at the university of Cairo



SAUDI PUBLISHING
&DISTRIBUTING HOUSE
1985